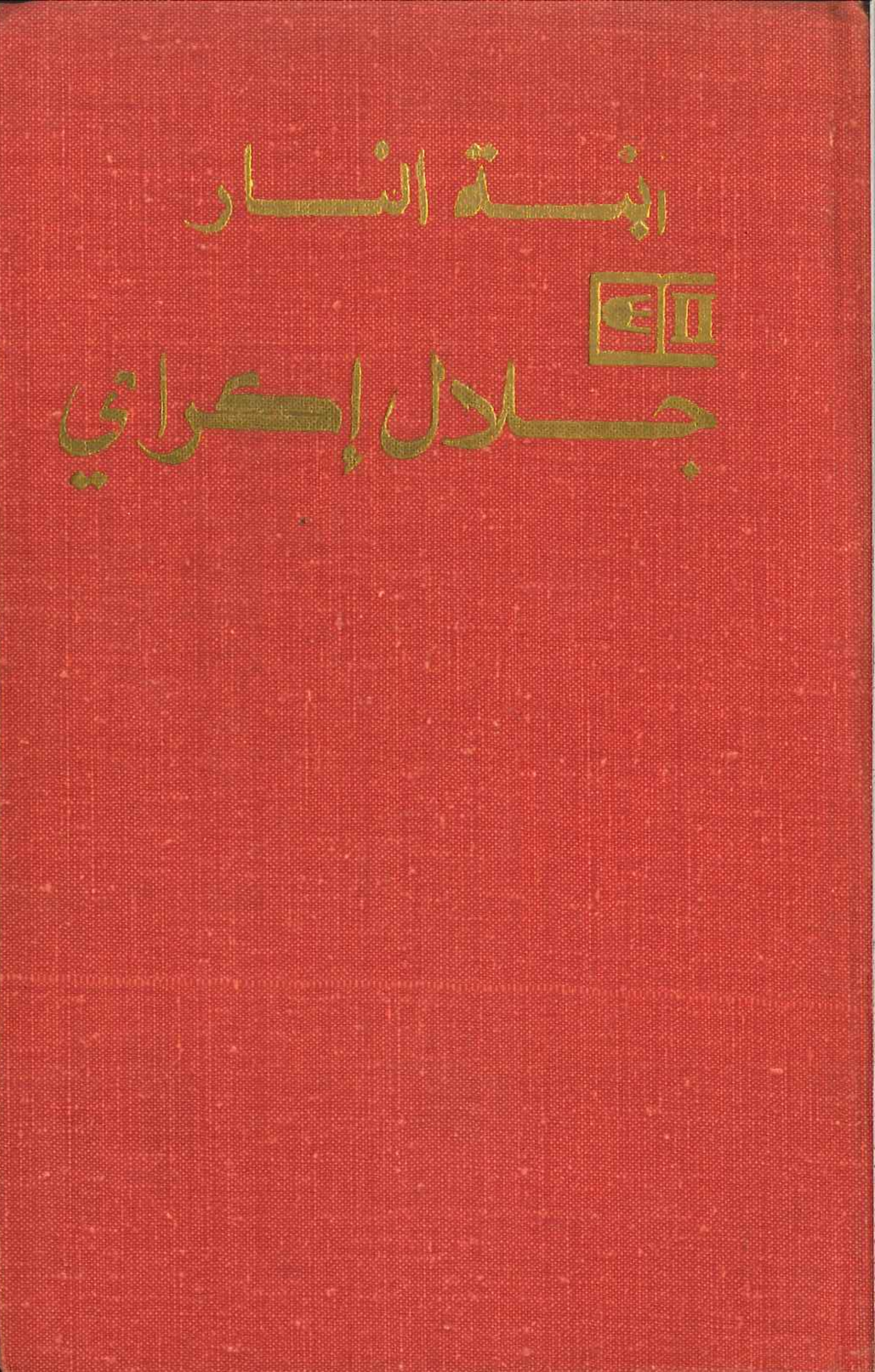

ابنة النار
جلال إكراني

ابنة النار

جلال إكرامي

رواية

دار التقدم
فرع طشقند، ١٩٨٠

ترجمة يوسف عبود
الرسام كيفاي اديسون

ДЖАЛОЛ ИКРАМИ

ДОЧЬ ОГНЯ

роман

На арабском языке

ЧАЛОЛ ИКРОМИ

ДУХТАРИ ОТАШ

الترجمة الى اللغة العربية والرسوم — دار التقدم فرع طشقند، ١٩٨٠

И $\frac{70303-075}{014(01)-80}$ 509—80 4702500200

القسم الأول

ديلارام كنيز

كانت سنة تسعمائة وألف، عشية القرن العشرين، حينما وقع ذلك الذي تبدأ به هذه الرواية. طيلة النهار كانت شمس آب الحارقة تصلي المدينة الكبيرة بأشعتها اللاهبة، تصبها على أسطحة البيوت العالية والواطئة، على الشوارع والأزقة والزواريب العديدة، على قبب المساجد والمدارس، على القناطر والأروقة، على المآذن وآكام المقابر وعلى الأضرحة - أما الآن فانها متعبة وارجوانية قد مالت نحو الغروب لتستريح. آلاف وآلاف المرات شهدت هذه المدينة الشرقية العريقة والمكللة بالمجد شروق الشمس وغروبها، عرفت أياماً سوداء وأياماً هانئة، أحياناً كانت تزدهر ببهاء حابية العالم كله بروائعها، مهدهدة في مهدها أشهر أساطين العلم وأعلام الأدب، وأحياناً كانت تهب عليها عواصف المحن فترديها غارقة في الدياجير رازحة تحت أعباء القدر، لكنها، ورغم هذا كله، ما هلكت ولا بادت، بل ظلت تحيا، وهاهي الآن بكل حسنها وجلالها تمتثل أمامنا مستضيئة بالأشعة القرمزية للشمس الغاربة، في هذه الساعة الهادئة لم تكن تسمع فوق المدينة العظيمة الا نداءات المؤذنين يدعون الناس الى صلاة العصر.

بخارى الشريفة - كانوا يسمون المدينة آنذاك.

في جنوب غرب بخارى، وفي جوار بوابة قاراكول، كانت بعض الشوارع مسكونة بالحرفيين وحدهم. هنا على شوارع شاهمالك وبابانياز وقاضي وتشرمكران وتشكر

سلطان وعبداللهحاجي عاش حياكو وغزالو وصباغو الأقمشة الحريرية والقطنية، كما وعاش أسطوات حاذقون آخرون من أرباب المهن المختلفة الأخرى. وهنا كذلك على شارع عبداللهحاجي عاش أبطال قصتنا هذه.

شارع عبدالله حاجي كان يبدأ من حصن بخارى ويستطيل مارقاً قرب بوابة قاراكول ذاتها. فكان القادم الى المدينة ما أن يجتاز هذه البوابة وتطؤها قدمه، حتى يقع فوراً على الأرواق التجارية-السوق المسقوفة. على جانبي الطريق كانت تقوم حوانيت اللحوم والبقالية والخردوات، ومن اليسار كان ينغرز في الطريق زقاق طويل يمتد متاخماً للحصن، على هذا الزقاق لم يكن للبيوت الكبيرة الثرية وجود - هنا في بيوت قميئة فقيرة كان يعيش الحرفيون أصحاب المهن اليدوية، وكانت تتآوى الأرامل الفقيرات.

في تلك العصرية التي تبدأ منها روايتنا، وفي هذا الزقاق بعينه سارت متهادية ثقيلة الوطىء عجوز حدباء تتوكؤ على عكاز. شعرها الشائب كان يغطيه منديل صوفي أسود عتيق، ولكن ملاءتها الكالحة اللون، المغطاة كلية بالرقع والملقاة على رأسها حسب العادة لم تكن تحجب وجهها الذابل الغليظ، ذا الذقن المدببة والعينين الخامدتين تحت حاجبين كثين واخطين بالشيب. البرقع المنسوج من شعر الفرس الذي تستتر به النسوة عادة وجوههن كان مردوداً الى الخلف، ومع أن مشهداً كهذا لم يكن يقابل في تلك الأزمنة الا نادراً، لم يبد على العجوز أي حرج بل وان السابلة أيضاً، ورغم غرابة ذلك، لم يولوا للأمر أي انتباه.

كانت المرأة في ثوب طويل من الشيت الأسود يتدلى حتى كعبيها، وكان الخفان على قدميها ممزقين وباليين. جسمها كله كان يرتعش وكانت أنفاسها ثقيلة متقطعة - أغلب الظن أن صحتها كانت شديدة السوء.

سكان الزقاق، شيوخاً وشباناً كانوا يحيونها بوقار واضعين أيديهم على صدورهم. وصبيان كانا يلعبان في الشارع ما أن رأيا العجوز حتى همدا ثم هرعا اليها



– انني متوعكة قليلا، يا حملي الوديع... ولكن لا بأس، لا بأس، لا تخافي. لندخل الى البيت.

مضت العجوز والصبية عبر الحوش الصغير ودخلتا الى الغرفة. أغلق السقاء الباب، ومضى مباشرة الى مختار الحارة.

فناء بيت المختار كان يطل على شارع كبير، على جانبي البوابة قامت منصتان من الطوب، وعلى احداهما كان المختار، ذلك الرجل السمين والمرح ذو العينين الضيقتين والذقن المرداء، جالساً الآن يداعب ابنه الصغير.

– هل رأيت العجوز ديلارام؟–سأل السقاء، مقترباً منه.

– أظن أنها هي التي مرت للتو من هنا،– قال المختار مستمراً في مداعبة الطفل،– انها تبدو قوية كما كانت دائماً...

– بل هي مريضة تماماً، حالتها سيئة والحمى تحرقها. مهما يكن فالمرأة طاعنة في السن...

– الحمى؟ تحرقها؟– كف المختار عن العبث مع الطفل.– ياللعجب! العجوز ديلارام لم تمرض من قبل أبداً. انما ما العمل، الناس كلهم فانون، ودورها سيأتي أيضاً، ولو ماتت سنقول طيب الله ذكراها...! فهي على ما أعتقد قد قاربت المائة...

– انها انسانة جيدة ونافعة،– قال السقاء بأسى،– بل وهناك حفيدتها أيضاً... فماذا سيجري للمسكينة؟ سوف تصعب عليها الحياة...

وأجاب المختار محاكياً نبرته:

– وماذا بوسع الانسان أن يفعل؟ الأمر كله بيد الله وهو بصير حكيم.

– ومع ذلك حبذا لو تزورهما يامختار!– قال السقاء ومضى في سبيله كي يتابع مساعيه.

أما المختار فغرق في التفكير ولم يعد يهتم بعبث ابنه الصغير، يقول المثل: «كل يفكر بما ينقصه والأمرد يفكر باللحية»، لكن المختار الأمرد لم يكن يفكر الآن بلحيته، بل

كانت أفكاره مشغولة بالعجوز ديلارام وبحفيدتها فيروزة، «ديلارام جارية، من الأرقاء، وحيدة مثل البومة العمياء، لا أهل عندها ولا أقارب، لو ماتت اليوم ستبقى فيروزة يتيمة لطيمة. وساعتها لوعرف بالأمر غنيجان ابن الباي سيضع يده عليها، ولكن بأي حق؟ ان والد غنيجان كان قد عتق أبا فيروزة في حينه، واذن فهي حرة. ما من أحد يملك الحق في الادعاء بها. فيروزة ليست عبدة، ومختار الحارة وحده، دون غيره، يجب أن يكون وصياً عليها، هكذا تقضي الشريعة، وهكذا يقول العدل».

يقولون ان «التيس يقلق على حياته، أما القصاب فيهمه الدهن» وهذا صحيح. فالعجوز ديلارام لم تفارق بعد الحياة ولم تتيتم فيروزة أيضاً، لكن المختار كان قد بدأ يفكر كيف له أن يبيع الصبية بشكل أربح، وأن ينال لقاءها ثمنا أعلى. لم يخطر على باله قط أن يذهب لزيارة العجوز المريضة. وما همّ المختار اذا كانت المسكينتان بحاجة للمساعدة أو حتى لو كانتا بلا قطعة خبز؟ لمثل هذه الأحوال يوجد عند المختار جواب جاهز: «الله هو المعين. انه هو الذي يعتني بالمساكين، أما الانسان فماذا يسعه؟..»

ذلك البيت الصغير الذي أوى العجوز ديلارام وحفيدتها كان له سقف يستند على خمس عوارض عرضية وكان بلا نوافذ، مقامها كان يقوم الباب. وكان للبيت منتفعات: مطبخ وبيت للمؤونة، لكن الدخان لم يكن يرتفع من مدخنة هذا المطبخ الا مرة في الأسبوع، بل وحتى هذا ما كان ليحدث دائماً. أما بيت المؤونة فكان خلواً حتى من كيس صغير من الرز أو الطحين، لم يكن فيه الا بعض من سقط المتاع: صندوق جلدي عتيق، خابية فخارية كبيرة لأجل الماء، قدر صغير، سماوار وابريق ضيق العنق طويل البوز لأجل الوضوء -- وهذا كل المتاع. غرفة السكن لم يكن فيها لا سجادة ولا بساط لائق بلمجرد بساطتين بيتيتي الحياكة وزوج من الألحفة في الركن مع حشيتين مرقعتين هما فراش العجوز. لكن الغرفة ورغم الفقر كانت تبدو نيرة ومريحة. الألحفة

والمنادر، مع أنها عتيقة، كانت نظيفة والغرفة مكنوسة بعناية ومرتبة.

كانت العجوز راقدة في فراشها متمددة، عيناها كانتا مطبقتين وكانت تتنفس بعسر وبشكل متقطع. فيروزة كانت تجلس قرب رأسها واضعة كفها الطرية على جبهتها. هذه الفتاة السمراء ذات العينين الدعجاوين والحاجبين الأسودين، النضرة والمتوردة مثل التفاحة الناضجة، ذات الفم الأشبه ببرعم يوشك أن ينفتح، وذات اليدين البارعتين والساقين الرشيقتين... لم تكن تقع عليها عين الا وتتسمر عاجزة عن أن تشيح. كان صيت حسنها قد شاع في كل الناحية. وكانت عجائز الحارة يقلن عنها: «جميلة كالحورية، ليس لحسنها مثيل».

كانت فيروزة ساهمة شاردة ترنو الى جدتها بعينين تترعهما الدموع.

منذ سني طفولتها ومنذ وضعت أولى خطواتها في هذه الدنيا لم تعرف فيروزة أحداً سواها، سوى هذه المرأة العجوز. انها لم تعرف حنان ورقة الأم ولم تعرف عطف ورعاية الأب ولا تدري لذلك معنى. والدا فيروزة ماتا باكراً جداً، ماتا حينما كانت هي بعد صغيرة تقمطها اللفائف ماتا وتركاها للعجوز ديلارام. فحلت هي لها محل الجميع. وبرغم الشيخوخة ظلت ديلارام كنيز تعمل وتأتي بكل ماتكسبه لحفيدتها. انها لم تتركها لتذهب الى بيوت الأغنياء وتعمل في خدمتهم، لم تشأ أن يعاملها الناس باستخفاف وكانت تحرص عليها وترعاها كقرة العين. علمت فيروزة الخياطة والتطريز، وعلمتها كيف تدبر شؤون البيت وكيف تحضر الطعام. أما في الليالي فكانت تسرد عليها الحكايات والقصص المأثورة ومختلف المغامرات المدهشة المذهلة. منها عرفت فيروزة ما هي الحياة وعندها تعلمت الصدق وحب العمل وفي كنفها ترعرعت لا تعرف الكذب ولا المكر.

هذه المرأة المسنة التي عركها العمل وصقلتها الصعاب بدا وكأنها لم تعرف التعب يوماً ولا عرفت ما هو الصداع،

يداها كانتا تعملان دون توقف ولم يسمع منها أحد لا أنة شكوى ولا تنهدة احتجاج. حركة دائبة وهموم دائمة وعمل لا يتوقف. سكان الحارة بل وكل سكان الناحية يعاملونها باحترام، يستشيرونها طالبين النصح يدعونها الى الأفراح والى الأتراح، يكلفونها بأن تحضر الضيافة.

– يا خالة ديلارام، وهل ستكفي القدور والصحون؟

– يا خالة ديلارام، لو نحن جهزنا غرفتين والعلية وفرشنا المصطبة للضيوف، كيف ترين، هل سيكفي المكان للجميع؟

– يا خالة، أنظري بالله الى حلوياتنا: هل المربى والسكاكر كافية يا ترى؟

– يا خالة ديلارام، انصحينا، أية واحدة من المغنيات ندعو الى العرس؟

– يا خالة ديلارام، ماذا لو ندعو تيلا الراقصة، أو ربما لا داعي؟

وعلى كل سؤال كانت ديلارام تعطي جواباً وافياً، وكل عيد، كل مناسبة تقام بمساعدتها كانت تمر دائماً كما يجب، بشكل لائق وبدون اسراف. ولهذا كان الكل بحاجة الى ديلارام وكان الجميع يقدرونها.

– أنا ديلارام كنيز، العبدة،– كانت هي تقول،– وأنا لا أستحي من ذلك، ماذا أفعل – هذا قدري، واذن فأنا عبدة للجميع.

هكذا كانت تقول وتشمر كميها لكي تخدم الناس. لم تطلب في يوم لنفسها شيئاً، وبما يعطونه لها كانت ترضى. بل وحدث غير مرة لديلارام كنيز الفقيرة المعوزة أن ساعدت الفقراء الآخرين وأن أعانت الأرامل متقاسمة معهن قطعة الخبز المكتسبة بالعمل الشاق والجهد المضني.

عادل الوقاد كان أفقر الجميع في الحارة وكان هذا الرجل المسن الأعرج يعيش مع زوجته المريضة الضريرة ولم يكن عندهما لا مال ولا بنون. حياة عادل انقضت كلها قرب وجاق النار في الحمام المحلي حيث كان يعمل وقاداً

لقاء أجر زهيد، أما زوجته فكانت قعيدة وعاجزة تماماً. في كل يوم كانت العجوز ديلارام تعرج على كوخهما البائس، تأتي لهما بالطعام، تأخذ البياضات الوسخة فتغسلها وتعيدها لهما نظيفة. وكان العجوزان يمطرانها بآيات الشكر والعرفان.

ولكن ديلارام كنيز لم تعرف برقة شمائلها وحسب، بل واشتهرت أيضاً بقوتها وبسالتها. عندما كانت يداها الجلفتان تطبقان على تلابيب أحد، لم يكن الخلاص منهما أمراً سهلا. مع الرجال كانت ديلارام تتكلم على طريقة الرجال، ومع النساء كانت تتحدث بلطف النساء. في حضورها حاشى أن يتجرأ أحد على توبيخ زوجة أو ازعال طفل، الكل كانوا يهابونها بمن فيهم مختار الحارة وامام وخادم المسجد. فالعجوز ديلارام كانت على علم بكل الأسرار المحلية وبكل خبايا العائلات، وفي أية لحظة كان بوسعها أن تبهدل الشخص أمام الآخرين.

غلامعلي، جارهم الحائك كان يشتغل في البيت مع زوجته وابنته، جميعهم كانوا يحيكون الخز ويعيشون على أجرهم من ذلك. الجدة كانت تقول: غلامعلي حائك حاذق ومعلم لامثيل له. الخز الذي يخرج من تحت نوله يتسابق الناس في السوق على شرائه. «بايات» كثيرون حاولوا استمالته للعمل عندهم، رغبوه بالمال ووعدوه بمختلف خيرات الدنيا لقاء أن يعمل لحسابهم وحسب، لكنه رفض، قال: «دعه لا يكون عندي الا نصف رغيف ولكنني على هذا سيد نفسي» واستمر يعمل في بيته.

وذات مرة قرع عليه الباب غنيجان ابن ذلك القاراكوليباي الراحل ذاته الذي كان والد فيروزة وكل أسلافها عبيداً عنده فيما مضى، جاء ابن الباي الى غلامعلي لكي يقنعه بالعمل عنده، لكن الحائك صرفه بأدب ولباقة. أخذ بغنيجان الغضب ولجأ الى المكر لبلوغ مأربه: أرسل اليه خلانه فاستدرج أولئك الحائك الى لعبة ميسر خسروا له في بدايتها ترغيباً ثم سلبوا منه بعد ذلك كل شيء: كان

الحائك قد تناول مخدراً في وقت اللعب فراهن على بيته وورشته وخسر كل هذا أيضاً.

وهكذا، في ذات أمسية ارتفع في حوش الحائك الصراخ. العجوز ديلارام كانت حال عودتها من أحد الأفراح جالسة في بيتها تشرب الشاي. لكنها ما أن سمعت الصراخ حتى هرعت راكضة الى جيرانها. هناك كان أصدقاء الباي المقامرون يحاولون طرد زوجة الحائك وابنته من البيت. وما كانت ديلارام لتسمح بوقوع شيء كهذا، استلت من تحت السقيفة عصا طويلة وانقضت بها على البغاة. ألقى منظر العجوز المتوعد في قلوب أولئك الرعب فولوا الأدبار راكضين الى الشارع. أوصدت العجوز الباب خلفهم بسرعة ثم التفتت الى زوجة الحائك وقالت انه لن يطردهم من البيت أحد ما دامت هي، ديلارام كنيز، على قيد الحياة. بعد ذلك انطلقت العجوز في أعقاب المقامرين وظلت تطاردهم حتى بلغوا الأروقة التجارية. طردتهم ولم يستطع حتى حراس «الميرشاب*» أن يفعلوا معها شيئاً. «اذهبوا وقولوا لبدينكم (هكذا كان الناس يلقبون الميرشاب عبد الرحمن) انني مازلت حية أرزق»، - أعلنت هي على الحرس... وصحيح أن غلامعلي استسلم فيما بعد فاستدان من الباي مالا لكي يعتق نفسه من المقامرين ولقاء دينه قدر عليه أن يعمل لحساب غني‌جان. لكن زوجة الحائك مازالت تذكر حتى الآن، كيف دافعت العجوز عنهم، وتصلي الى الله من أجلها وتسأله أن يمد في عمرها.

ولعل الله قد أطال فعلا في عمر ديلارام عرفاناً منه على كل ما أسدته للناس من معروف... ولعله لن يرغب بأن تبقى فيروزة يتيمة، انه سيصغي لدعواتها.

...عسى أن تشفى الجدة فقط، أن تنهض من الفراش، فبدونها لن تعرف فيروزة في الدنيا سوى الرعب. نعم،

---

* الميرشاب - كلمة فارسية معناها الحرفي: أمير الليل. ومعناها في روايتنا «رئيس الشرطة».

ففيروزة تعرف أن حولها كثير من الرجال الأرذال، وأنهم جميعاً يبحلقون بها. لكنهم حتى الآن يخافون العجوز ديلارام، يخجلون منها. فماذا لو أطبقت الجدة عينيها الى الأبد - ماذا ستفعل فيروزة آنذاك، الى أين ستذهب، وممن ستطلب الحماية والعون؟... هاكم بماذا كانت تفكر فيروزة وهي جالسة قرب رأس جدتها.

وفجأة فتحت العجوز عينيها وطفقت تتكلم:

- ما بالك تبكين، يا حملي الوديع، يا بنيتي، من أزعلك؟ أو لعلي أنا قد أخفتك بمرضي؟ لا تخافي! لن يحدث لجدتك العجوز شيء. فقبل أن أراك متزوجة، سعيدة في بيتك وهنيئة، لن أموت قبل ذلك، لن أموت... يكفيني أن أعرق فقط. فما أن أعرق حتى أنهض في الحال ومن جديد سأكون معافاة. لا تقلقي، لا تحزني، يا صغيرتي! هيا قومي، تناولي من على الرف، فوق رأسي، قارورة الدواء. هل تذكرين، في العام الماضي أعطاها لي طبيب هندوسي. دواء جيد، لقد ساعدني آنذاك...

تناولت فيروزة من على رف في المشكاة قارورة مضلعة فيها سائل ما. ومن على رف آخر أخذت قنديلا بفتيل لحمت زجاجته بورقة فأشعلته وشاع في الغرفة النور. فتحت العجوز القارورة بيدين راعشتين، شربت منها عدة جرعات و حمدت الله ووضعتها على الأرض بجوار الفراش.

- هل أكلت شيئاً ما؟- سألت هي حفيدتها.

- نعم، لقد سخنت شوربة الأمس وأكلت.

- اذن، اذهبي وأوقدي النار في السماور. حضري شاياً، سأشرب شاياً ساخناً، فلربما أعرق بعون الله، وتخف أوجاعي قليلا.

- عسى الله أن يخف عليك المرض، وأن تشفين على أسرع وجه!- قالت فيروزة وهمت أن تهرع الى المطبخ، ولكن العجوز أضافت:

- المهم أن يهدأ رأسي قليلا، وسأحكي لك بقية قصتنا.

— حسناً، ولكن صحي أولا.

وذهبت فيروزة الى المطبخ فأشعلت النار في السماور ثم عادت بعد ذلك الى جدتها العجوز. كان الليل قد احلولك تماماً، بيد أن شدة الحر لم تخف. فهذا كان موسم الحر، حين تكون الليالي بخارية بخارية عن حق، ساكنة خانقة وعكيكة دامسة. جدران البيوت وأسطحتها المتلظية نهاراً تحت الشمس اللاهبة تنفث في العشيات هجيراً كأنها أفران مستعرة، كأنها تنانير متوقدة. في هذه الأوقات كان سكان بخارى يرحلون عنها، يتركها كل من استطاع الى ذلك سبيلا، ويلجأ الى الأرياف أو الى بساتين الضواحي. أما من كان يبقى في المدينة، فكانوا يقيلون نهاراً في الغرف الكبيرة العالية أو في الأقبية الرطبة، وحين يجن الليل ينامون على أسطحة البيوت — فهناك لم يكن الجو خانقاً الى هذا الحد. ولكن حتى هذا، كان عزيز المنال على العجوز ديلارام وعلى حفيدتها. غير أن الحر في غرفتهما الصغيرة لم يكن شديداً كما في الحوش الضيق، وأرض الغرفة كانت أرطب من طوب الفناء الساخن.

— تعالي الي، اجلسي هاهنا بقربي،— دعت ديلارام حفيدتها.— أعملي معروفاً، افركي لي يدي!— ونفذت فيروزة طلب جدتها.— نعم هكذا، ليمنحك الله السعادة والتوفيق.

بدا وكأن حال العجوز قد تحسنت بعض الشيء، فقد رفعت جزعها ثم جلست وقالت:

— وهاهو رأسي قد هدأ قليلا بحمد الله، هل حضرت الشاي، يا بنيتي؟

— سأعدّه الآن.

تناولت فيروزة ابريق الشاي الفرفوري الوحيد ذا الزلومة المكسورة التي شغلت مكانها زلومة أخرى من التنك، فذرت فيه حفنة من الشاي ومضت تحمله الى المطبخ. شيعتها العجوز ديلارام بنظراتها وتنهدت.

أجل، فما من شيء آخر يربط ديلارام بعالم الأرض سوى

هذه اليتيمة، فيا ليتها تفلح في تزويج الفتاة وتدبير أمورها، يا ليتها تتأكد من أنها راضية سعيدة، طالما هي على قيد الحياة. ولكن ما العمل اذا لم يكن في كل الناحية بيت واحد يصلح لأن تدخله فيروزة كعروس! العجوز ديلارام تعرف كل العائلات المحيطة - ان الأغنياء، البايات ورجال الدين لن يطلبوا يد ابنتها، سيقولون انها ابنة عبد وأمة، واطئة الأصل. لكن لا بأس، دعهم يقولون ما يحلوا لهم، فديلارام ليست بحاجة لهم، وحتى لو حدث وتقدموا لخطبتها ما كانت ديلارام لتوافق على اعطاء قرة عينها لهذه العائلات الصاخبة المشاغبة التعيسة. انها تعرف أن فيروزة لن تعرف للسعادة طعماً في أية عائلة من عائلات الأغنياء والذوات. انها لن تكون هناك الزوجة الوحيدة أبداً، فهم اما أن يأخذونها بعد زوجات سابقات، أو يأخذون بعدها زوجة أخرى. كل لقمة مأكولة سوف تتوقف في حلقها كالحسكة، وكل ثوب جديد سيطلع من عينيها عماصاً، انها لن تعرف للبهجة مذاقاً وستعيش العمر وكأنها دفنت حية... كلا، فلفيروزة يجب العثور على عائلة بسيطة غير ثرية. صحيح أن البعض من حرفيي الحارة الشبان قد تقدموا لخطبة فيروزة ولكن العجوز ديلارام رفضتهم. فهي لم تكن تأتمنهم، كانت تعرف أنهم يهوون لعب الميسر ورأت بعينيها كيف كانوا يفلسون حتى العري في ليلة واحدة. بعد هذا كانوا يبيعون أنفسهم لرب العمل كي يفوا بديونهم، كلا، ان ديلارام لن تسلم فيروزتها لواحد من مثل هؤلاء، لن تضع حجرها الكريم في خاتم صدىء كهذا، ففيروزتها بحاجة الى ذهب، الى ذهب حقيقي، الى ذهب لا يصدأ أبداً، حتى يكون الاطار جديراً بالفص الذي يرصعه.

بل ولا تريد ديلارام بتاتاً أن تزف فيروزة الى بيت الزوجية في هذه السن المبكرة. انها تريدها أن تتلذذ كما يجب بصباها، أن ترغد وتنعم وتلعب حتى الشبع. فهي ما أن تدخل بيت زوجها حتى تحرم فوراً كل مباهج الشباب،

ستلاحقها الهموم الزوجية العائلية والواجبات المنزلية ومختلف المنغصات...

ولكن ما العمل معها الآن؟ ماذا بوسع العجوز أن تفعل وهي نفسها في هذه الحالة السيئة! العمر ليس أبدياً، والانسان حي اليوم، أما في الغد فيمكن أن يموت...

هكذا كانت تفكر العجوز المريضة يعتريها القلق حول مصير حفيدتها. بدا لها أن الزواج الآن هو المنقذ وهو السعادة الحقيقية بالنسبة للبنية...

أما أن تدرس فيروزة وأن تتعلم القراءة والكتابة، فهذا آخر ما كانت تحلم العجوز به. مثيلات فيروزة في تلك الأزمان لم يكن بوسعهن حتى التفكير بالدراسة. فمنذ سنوات الطفولة كان عليهن أن يعملن. وهن حتى وان لم يعملن، وكان لديهن الوقت الكافي للتردد على المدرسة مثل فيروزتنا، فانهن على كل حال ما كن ليجدن المال اللازم لدفع أجور تعليمهن. فما من معلمة واحدة من أولئك المعلمات اللاتي افتتحن في بيوتهن كتاتيب كانت ستوافق على قبول التلميذات بالمجان. وصحيح أنه كان في بخارى مدارس عامة للأناث ولكن المعلمات ذاتهن في هذه المدارس كن شبه أميات وكن يعلمن مبادىء الدين وحدها ولا شيء آخر عداها. الكتابة لم تكن تعلم للفتيات بتاتاً، فقد قر الرأي على أن الفتاة لو تعلمت الكتابة سوف تقدم على ارسال المكاتيب الى حبيبها وأنها على العموم يمكن أن تنهج سبيل الفساد.

لكنه كان من الممكن أحياناً أن تقع بين هؤلاء المعلمات صاحبات المدارس الخاصة على نساء مثقفات، موهوبات بل وشاعرات. أمثالهن كن يتمتعن بشهرة كبيرة في المدينة، كن روح المجتمع في مختلف المحافل النسائية، وكن ضيفات مكرمات في جميع الأعياد والأفراح والمناسبات الدينية. بل وكانوا يدعونهن أحياناً الى بيت حاكم المدينة، أو الى بيت القاضي أو أحد من رجال الحاشية الأميرية وربما الى مقام أعلى وأعلى – الى قصر الأمير ذاته حيث كانوا

يرغمون هؤلاء الشاعرات على قراءة قصائدهن أو مقاطع من كتبهن. بيد أن الدخول الى مدارس أمثال هؤلاء النساء المرموقات لم يكن يتسنى الا لبنات الذوات وبنات الأسر الثرية. والى هذه المدارس كانت الخادمات الصغيرات يرافقن سيداتهن اليافعات ويذهبن للقائهن بعد انتهاء الدروس. ولهذا السبب وحده كن يعرفن أنه ثمة مدارس على الأرض، حيث بوسع الفتيات أن يتعلمن أيضاً.

ولكن فيروزة كانت سعيدة الطالع (فليس عبثاً يقال ان الفيروز حجر سعيد) فقد التقت بمعلمة مشهورة استهواها في فيروزة جمالها، ثم بعد أن تحدثت مع العجوز ديلارام في الأمر انبرت لتعليم فيروزة بدون مقابل.

٢

واليكم كيف جرى هذا.

قبل ذلك اللقاء بفترة تناهز العام التمع في المدينة نجم احدى النسوة وصارت تحظى بشهرة واسعة، كانوا يسمونها المعلمة طنبور، ذلك أنها كانت تحسن العزف على الطنبور، تجيد غناء قصائد الغزل وبنفسها تقرض الشعر. قالوا انها موهوبة جداً، وان الطبيعة حبتها بمنة الارتجال بحيث تستطيع نظم قصائد هجائية لاذعة حول أي موضوع ومناسبة. حكوا وكأنها كانت ذات مرة سائرة في الشارع وخلفها خلقاني يصيح: «ألبسة عتيقة، ألبسة عتيقة، نشتري ألبسة عتيقة!» فاستثارت صيحاته الخناء قرف المعلمة طنبور وفي الحال نظمت قصيدة شعرية عنه.

مضت القصيدة في المدينة تطوف وتتناقلها الشفاه ومع القصيدة جرى على الألسن صيت مؤلفتها الموهوبة.

وصارت محط اهتمام الجميع. زوجات موظفي المدينة البارزين، زوجات أعيانها وباياتها الأثرياء رحن يتحرقن رغبة لرؤيتها متسابقات على استضافتها في بيوتهن. لكن ذلك لم يكن من الأمور اليسيرة. فزوج الشاعرة كان صائغاً

مشهوراً، كان يملك ثروة طائلة ومع زوجته كان يعيش في بحبوحة. ثم أن المعلمة طنبور ذاتها ـ واسمها الحقيقي كريمة - كانت تدير مدرسة للبنات في بيتها وكان ذلك يدر عليها دخلا معتبراً. ولهذا فانها لم تكن تمن بزيارتها على كل من يرغب. وحكي أيضاً أن المعلمة طنبور تحنو على المساكين والبائسين وأنها تمد يد العون للفقراء والمعوذين. كما وأنها كثيراً ما تستغل مناسبة ما أو أية حجة أخرى لتقيم في بيتها أو في بيت أحد الفقراء عزيمة أو وليمة لاطعامهم.

حين عرفت ديلارام بذلك تأثرت حتى أنها غيرت موقفها من صاحبات مدارس الأناث، اللائي لم تكن تقدرهن جداً بسبب سلوكهن المتحرر. بيد أن صيت المعلمة طنبور الحميد كان طيب الوقع على قلب العجوز لدرجة أنها صارت تتوق لرؤية هذه المرأة والاستماع اليها.

وسرعان ما سنحت لها فرصة لذلك.

ذات مرة أبلغوا العجوز ديلارام كي تأتي على وجه السرعة الى منزل غنيجان بايباتشا، ابن قاراكولي باي - فزوجة الباي الكبرى تشعر بالملل وتريد مساء هذا اليوم، في غيبة الباي عن البيت، أن تجمع النسوة في ضيافتها: سوف يزففن بيبي زغارة وستأتي أيضاً السيدة طنبور وستقرأ بعضاً من الشعر.

- أعدي نفسك، - قالت ديلارام لحفيدتها سوف نذهب الى بيت الباي، هناك سترين السيدة طنبور، وستمرحين وتضحكين.

وسألت فيروزة:

- وما هذا الذي تفعله، حتى يضحك الناس؟

- انها لا تفعل شيئاً على وجه الخصوص. كلماتها الذكية وأشعارها تروق للناس، والكل يمرحون... أما اليوم فانهم هناك سيزفون بيبي زغارة أيضاً، ورؤية ذلك قد تعجبك.

- ومن هي بيبي زغارة هذه؟

– هذه امرأة مسكينة، خفيفة العقل، رأسها ليس على مايرام. المسكينة تريد أن تتزوج، أن تقيم لنفسها زفة وعرس. وهكذا فان زوجات الباي من أجل الترويح عن أنفسهن، وكأنما يزوجنها بالفعل يضعن على امرأة أخرى بدلة رجالية، يقمن فرحاً ثم فيما بعد وما أن تدخل العروس والعريس الى خلف ستارة العرس، حتى... و...

– أمر مضحك، – قالت فيروزة، – وما المانع، لنذهب.

بدلت العجوز وفيروزة ثيابهما بسرعة ثم لبستا ملايتيهما ومضيتا الى «العرس».

منزل غني‌جان كان يقع في حي تشاردار، على ذلك الشارع الكبير الذي يفضي اليه الزقاق الضيق حيث كانت تعيش ديلارام كنيز. في ذلك اليوم كان الفناء الأول من دار الباي خلواً الا من أجيرين اثنين فقط. الباي سافر الى قارشي وعلى الشطر الرجالي من البيت كان السكون مخيماً. اجتازت ديلارام مع حفيدتها الفناء الثاني حيث عاش الخدم وحيث كانت تقوم غرفة الضيافة المخصصة لصغار الضيوف ودلفتا الى الفناء الداخلي – الى الشطر النسائي.

هذا الفناء كان يشغل فداناً كاملا من الأرض وكان بأكمله مرصوفاً بالطوب المحروق. عليه كانت تطل أبواب ست أو سبع غرف مختلفة الحجوم وهذا باستثناء الكرارات والأقبية وكذلك العلية، على طول أحد الجدران الجانبية امتدت مصطبة آجرية عريضة – كانت بمثابة شرفة تطل عليها نوافذ الغرفة الكبيرة: وفي جانبها مدخل يتصل بممر.

في الغرفة الكبيرة – الغرفة الرئيسية في الحرملك – كانت تعيش زوجة الباي الكبرى مع ابنتها، وفي الجهة الثانية من الفناء، في غرفة واسعة ذات سقف مزخرف يقوم على احدى عشرة عارضة كانت تعيش زوجته الثانية. هذه الزوجة لم تكن قد أنجبت بعد، ولهذا فان الباي قد وضع كامل الفناء الداخلي رهن تصرف الزوجة الأولى وكانت هي صاحبة الكلمة الأولى والآمرة الناهية في بيت الحريم.

مضت العجوز ديلارام وحفيدتها عبر ممر مسقوف يفضي مباشرة الى المطبخ حيث كانت الطباخة والخادمات منهمكات في التحضير للفرح. لكنهن ما أن رأين ديلارام حتى هببن للقاءها وبعد السلام أجلسنها في مكان الشرف.

– الهوانم في البيت؟

– في البيت، – قالت الطباخة وكانت امرأة فارعة القامة ومسنة، – منذ قليل تشاجرتا، والآن كل في غرفتها والغيظ يأكل قلبيهما.

– ولكن الباي ليس في البيت، فعلى ماذا تختلفان؟

– كل شيء بسبب بيبي زغارة، – قالت الطباخة، – الطالحة شرفت من الصبح الباكر وبسببها قامت القيامة. أنت تعرفين بلا شك أن الضيوف سيلتمون اليوم عند الهانم الكبيرة، الدعوات وجهت للجميع والمعلمة طنبور ستأتي أيضاً، وكذلك بيبي زغارة، قيل لها أن تأتي، من أجل التسلية والدعابة. ولكنها حين جاءت في الصباح هرعت الهانم الصغيرة للقاءها وأرادت أن تجرها الى غرفتها الأمر الذي أغضب الكبيرة فاحتدمت ومنعت زغارة عن الدخول الى ضرتها، قالت: «أنا التي دعوتها اليوم، والى غرفتي يجب أن تأتي» غير أن الصغيرة أجابت: «ان الضيوف لن يأتوا الا مساء، فدعيها تجلس عندي حتى حضورهم، انني أضجر من الجلوس بمفردي» ولكن هل كانت الكبيرة لتسمع أو تقنع؟ «كلا، قالت هي، – هذه ضيفتي والى غرفتي أنا يجب أن تذهب!» وأصرت كل منهما على رأيها، كأنه بالامكان دحش قدمين في جزمة واحدة! ثم بالطبع اشتعلت الجرسة! واحدة تشد والأخرى ترد، وأوشكت الأمور، لولا لطف الله، أن تصل الى شد الشعر. أما بيبي زغارة فزعلت، بصقت، رمت الملاية على حالها وانصرفت تطقطق بكعبيها.

– يا للأمور العجيبة! – قالت العجوز ديلارام منشغفة بسماع القصة – ولكن ماذا بعد؟

– أما بعد، – أجابت الطباخة وهي تعرك العجين في الطست، – فبدا وكأن كلتيهما لم تكونا تنتظران الا هذا،

أدارت كل واحدة للأخرى ظهرها وافترقتا كل الى غرفتها، لكن الكبيرة لم تحتمل، جاءت الى هنا راكضة وأرسلت فاطمة خلف بيبي زغارة: «اذهبي واقتاديها الى هنا، قولي لها اننا سنحتفل بعرسها اليوم وأن العريس أرسل صينية مع ثوب وخاروف». خرجت فاطمة الى الشارع، ورأت بيبي زغارة جالسة قرب البوابة، تتفرج على المارة وكأن شيئاً لم يكن، وقالت هي لفاطمة: «أبلغي سيدتك أن تستعد، أما أنا فيلزمني أن أعرج على صديقتي وأن أدعوها الى العرس» نقلت فاطمة كل هذا للهانم الكبيرة فاطمأنت تلك وذهبت الى غرفتها.

أخذت بفيروزة الدهشة وهي تستمع الى كل هذه الأحاديث: كل شيء بدا لها غريباً — بيبي زغارة وزوجتا الباي وخصامهما، زوجة الباي الأولى كانت شكسة ماكرة حقودة ولم تكن تروق لفيروزة. أما الثانية، التي لم تنجب بعد، فكانت تلاطف فيروزة عندما كانت تأتي الى دارهم، كانت تقدم لها الحلوى وكانت رقتها ورحابتها تعجبان الفتاة.

التفتت فيروزة الى جدتها وسألت كأنها تذكرت شيئاً ما:

— جدتي، ولماذا يسمون هذه المرأة بيبي زغارة؟ هل لأنها لاتأكل شيئاً سوى الزغارة* يا ترى؟

وضحك الجميع، لكن العجوز ديلارام شرحت بجدية:

— وجهها صغير مثل رغيف الذرة ولهذا أطلقوا عليها هذا الاسم... ولكن هاهي بالذات قد شرفت.

دخلت الى المطبخ امرأة متوسطة الطول في ثوب حريري مبرقش ارتدت فوقه جيليت من المخمل الليلكي اللون، على قدميها احتذت جزمة وخفين جديدين تماماً وجيدي الصنع، رأسها كان معصوباً بمنديل من الحرير، أما الملاية والبرقع فكانت تحملهما على يديها. حزرت

---

* زغارة — رغيف من طحين الذرة الصفراء أو الدخن. (**طاجيكية**).

فيروزة في الحال أن هذه هي بيبي زغارة، ذلك أن وجهها كان في واقع الأمر صغيراً جداً، بل وصغيراً الى حد أن عينيها غير الكبيرتين كانتا تبدوان واسعتين بشكل فائق، حاجبا المرأة كانا مزججين بالأسمة*، عيناها كانتا مكحولتين ووجهها مبيض محمر ومزين بشامات اصطناعية، ومن اذنيها تدلى قرطان طويلان مشنفان، أما أصابعها فكانت تزدان بخواتم محلاة بالياقوت الأحمر والأخضر – هكذا بدت بيبي زغارة بطلة المهزلة المرتقبة، العروس الدائمة في محافل زوجتي الباي والعانس السيئة الحظ التي تنتظر العريس عبثاً.

هذه الزينة، هذا الزي، بل وبصفة خاصة هذا الجيليت المخملي المرتدي في هذا الوقت الحار، في عز صيف بخارى أدهشت فيروزة تماماً ولم تقو على كتمان دهشتها فهمست لجدتها عن ذلك –لكن تلك لم تعر جواباً والتفتت الى الداخلة مخاطبة:

– طابت أوقاتك، يا سيدتي، تفضلي اجلسي معنا، نعم، ها هنا – أعلى قليلا، أما الجيليت فبوسعك أن تخلعيه والا يمكن أن يتلطخ هنا.

انحنت بيبي زغارة لديلارام وفي الرد على دعوتها عزمت أن تخلع الجيليت ولكنها غيرت رأيها:

– أخشى أن يلحقني برد...

– كما تشائين، الرأي لك.

– الجيليت يرتدونه في الطقس الحار اتقاء للعين الحاسدة. تدخلت في الحديث واحدة من الخادمات.

– أجل،– قالت بيبي زغارة شالحة الجيليت،– الكل يقولون ان خصري رقيق وصدري عالي، وأن قدي أهيف مثل بنت الرابعة عشرة ولهذا فأنا أيضاً أرتدي الجيليت تحسباً من العين كما ترين. ان الناس، يا عزيزتي، حاسدون جداً.

---

* أسمة – عشبة يطلى بعصيرها الحاجبان.

وجلست بيبي زغارة بجوار العجوز ديلارام وهي تمسح العرق الغزير. أمعنت فيروزة النظر فيها: المرأة المتحمرة، المتزوقة، المتغندرة بدت عن بعد أصبا سناً أما عن قرب فاتضح أنها مسنة تماماً. أعداد عديدة من التضاعيف الرقيقة كانت تحيط بالعينين وبالشفتين وعلى الجبين وبين العينين ارتسمت تجاعيد عميقة – كل شيء كان يشي بأن هذه المرأة قد ودعت صباها. لكن حديثها لم يكن يتناسب في شيء مع سنها. انها عجوز تقريباً، ومع ذلك تتكلم كأنها صبية، تتدلع وتتدلل ولا تميز المزاح عن الجد. العجوز ديلارام قالت انها ليست في كامل عقلها لكنها لا تشبه المجانين في شيء.

– هذه الفتاة الجميلة، حفيدتك؟– سألت بيبي زغارة العجوز مشيرة الى فيروزة.– أطال الله في عمرها ما أسمك يا حسناء؟

– فيروزة،– نطقت الفتاة باستحياء.

– واسمك حلو مثلك. فليمن عليك الله بالسعادة وليحالفك التوفيق، عسى أن تكوني عزيزة على الجميع ومحبوبة مثلي أنا.

– لا، هذا صعب، صعب جداً على الانسان أن يكون عزيزاً ومحبوباً من الجميع مثلك أنت،– قالت العجوز ديلارام نصف مازحة ونصف جادة.

– صحيح،– وافقت بيبي زغارة – وأنا والله لا أدري ما السر في أنني عزيزة حبيبة هكذا لدى الجميع. في كل مكان مرغوبة وفي كل مكان أنا روح الجمع، حيثما حللت واينما كنت، ما أن يظهر في مكان عريس له قيمة حتى يتقدم لخطبتي في الحال. وهاكم اليوم، هذا الفرح جاءني على غير انتظار البتة. كنت جالسة أخيط ولا أفكر بشيء، واذا بها –وأشارت بيبي زغارة الى احدى الخادمات،– ومعها امرأتان أخريان، جئن ثلاثتهن خلفي. وما الخطب! لقد سئمت الوحدة. الحياة مملة حين يكون المرء وحيدا. فليكن، دعنا نكون اثنين، سنرى الى أية نتيجة سنخرج من هذا...

وهنا دخلت الى المطبخ زوجة الباي الاولى، كانت هذه امرأة فارعة القامة مستطيلة الوجه ذات عينين كبيرتين هامدتين ساكنتين وشفتين بارزتين. على وجهها رطل من الحمرة والبودرة، من اذنيها يتدلى قرطان بخمسة شنوف ماسية وتحيط بمعصميها أساور ذهبية وتزدان أصابعها بخواتم مطعمة بالياقوت والألماس - فيا للابهة... على رأسها طاقية مطرزة بخيوط الذهب، الثوب من قماش حريري رقيق ناعم فستقي اللون والسراويل من الحرير الافرنجي مزركشة بالشرائط وعلى القدمين حذاءان خفيفان من الجلد الملون. دخلت المرأة الى المطبخ وهي تتمطق بعلكة من القار وحين رأت بيبي زغارة أبشرت بهجة:

- آه، العروس أتت، يا مرحباً خطوة عزيزة! هيا لنذهب، ما بالك جالسة هنا، لم لا تدخلين الى غرفتنا.

- كما ترين، جالسة وأتصبب بحسن الفتاة، - اشارت بيبي زغارة الى فيروزة وابتسمت لها.

استدارت الهانم الكبيرة فرنت الى فيروزة وقالت ساخرة:

- أو هو، أنت كما يتضح تحبين الحسناوات يا عروس! يا ليتك كنت رجلا، كنت اعطيتك فيروزة.

استاءت فيروزة من ذلك فهبت من مكانها وجرت خارجة من المطبخ.

- لقد كنا بانتظارك، - قالت الهانم وهي تجلس جنب بيبي زغارة. - الخطاب أرسلوا بقجة، ولكنك لم تكوني هنا فحملوها عائدين. مهما حاولنا اقناعهم بتركها لم نتوصل الى شيء: قالوا، طالما لم تأت العروس نفسها لن نسلمها، اننا لا نثق بأحد آخر.

- آه، دعينا منهم، تبا لهم، الجشعين! - قالت المرأة - البقجة والاثواب أيضاً - الله معها، الأفضل لو تقولين لي، هل رأيته هو بالذات؟ يقولون انه يافع، على شفته زغب وليس شعر، وأنه غندور، هل هذا صحيح؟

وأجابت الهانم:

– ابن سلطان، أجمل من القمر! كما تقولين بالضبط! ولكن تفضلي، ارتاحي قليلا، الخطاب يمكن أن يأتوا بين لحظة ولحظة.

كانت الشمس في الأوج فوق الرؤوس تماماً وكان الحر مريعاً. زوجة الباي الصغرى كانت في ركن الفناء تسقى الزهور من رشاشة ماء وحين رأت فيروزة نادتها لتقترب.

– طاب يومك،– قالت لها فيروزة وسألت مقتربة منها –: أعطني الرشاشة، بوسعي أنا أن أسقي الزهور.

– شكراً، يا بنيتي،– أجابت المرأة الشابة،– سأسقيها بنفسي، أنا أحب ان أسقي حوضنا. انظري الى الزهور، كيف تبتهج، وكم تسعد بالماء. يقولون ان الماء حياة، وهذا صحيح – انه هو الحياة. فلا النبات ولا الحيوان ولا الانسان يستطيع العيش بدون ماء.. هل جاءت جدتك أيضاً؟ أتيتما للتفرج على «عرس» بيبي زغارة؟ أحسنتما.

زوجة الباي الصغرى كانت معتدلة القامة، مستديرة الوجه، ذات عينين نجلاوين براقتين، امرأة جذابة جداً ولطيفة ولكن النمش كان يغطي كل جسدها. النموش كانت تطرز وجنتيها، تفرش يديها وعنقها وصدرها وكانت مصدر تهكم مستمر من قبل ضرتها. وبالطبع، كان بوسعها أن تطليها بالحمرة والبودرة ولكنها لسبب في نفسها لم تكن تفعل ذلك. كما وأنها كانت أبسط ملبساً بمرار بالمقارنة مع السيدة الكبيرة: رأسها كان معصوباً بطرحة صفراء من الحرير وثوبها أزرق حريري أيضاً، على أذنيها قرطان جميلان وعلى أصبع واحد فقط كان يتلألأ فص من الألماس.

كانت قد فرغت من سقاية الزهور حين ولجت الفناء امرأة تدثرها ملاية. دخلت ورفعت البرقع عن وجهها. أولئك الذين كانوا في المطبخ لم يلاحظوا قدومها ولكن السيدة الصغيرة هرعت للقاءها فتناولت الملاية منها، ثم بعد أن سلمتها لفيروزة تباوست مع الزائرة واستفسرت عن الصحة.

– السيدة الكبيرة دعتني اليوم الى احدى المناسبات، – بصوت ناعم قالت القادمة – أما أنا فعجلت في المجيء كي أحظى بشرف التحدث معك قبل قدوم الضيوف!

– أهلا وسهلا،– أجابت السيدة الصغيرة،– على الرحب والسعة، تفضلي، أدخلي الى صومعتي الكئيبة، انيريها بحضورك.

– أنا دائماً رهن خدمتك، يا حنونة،– أجابت الضيفة ومضت الى غرفة الزوجة الصغرى.

أما تلك فهمست مجيبة على نظرة فيروزة المستفسرة:

– هذه هي السيدة طنبور، هي بعينها، هل عرفتها؟ تعالي معنا وستستمعين الى أحاديثها الذكية.

فاذن هذه هي، تلك المرأة المستنيرة التي تعم شهرتها بخارى كلها! انها رغم الشهرة متواضعة وبسيطة المظهر. ترتدي ثوباً فاتح اللون من الساتين، رأسها معصب بمنديل أخضر ذي أهداب وعلى قدميها جزمة وخفان. أما هي ذاتها، فما ألطفها وما أفتنها: الحاجبان اسودان، العينان نجلاوان براقتان، الوجه مستدير أبيض والبسمة تكلل الشفتين. دخلت فيروزة الى الغرفة خلف الهانم فجلست قرب الباب وراحت تصغي لحديث الضيفة الودود اللطيف.

– عسى أن تختفي مع قدومي كل البلايا والكروب من هذا البيت،– قالت المعلمة طنبور جالسة وقارئة الدعاء المألوف، – اتمنى لكم السعادة والحبور واليمن والبركات، عسى ان يجعل الله كل أيامكم أعيادا! انما كيف هي صحتكم وأحولكم؟ كيف صحة الباي؟ يقولون انه مسافر؟

– نعم، لقد سافر الى قارشي.

– نسأل الله أن يكون سفره ميموناً، أن يعود الى بيته سليم الجسم جذل النفس. وأن تنعموا أنتم بسعادة اللقاء بعد الفراق!

– من جهتي لا ضير، دعه يسافر، حسبي فقط أن تنقضي فترة غيابه بلا مشاحنات.

– ولكن ضرتك، على الأرجح، تجلس هادئة حينما يكون الباي غائباً؟
– كيف لا! انها في كل يوم تبحث عن حجة لكي تسمم لي حياتي. آخ يا معلمتي العزيزة، ما أشقى المرأة حين تدخل بيت الزوجية زوجة ثانية – انها بذلك تقرب نهايتها.
– صحيح، صحيح، – أيدتها المعلمة. – حياتك مريرة وحياتها أيضاً، بل وحياة الباي كذلك ليست حلوة.

ويل الذي فى عصرنا شاء الزواج من اثنتين
بيديه ضاعف كربه جعل المصيبة اثنتين!
فعن القيام بزوجة ثقل العناء على الحكيم
أما قرين الاثنتين فحياته نار الجحيم!

قرأت هي هذه الابيات وأطلقت ضحكة رنانة، أما فيروزة فجلست تستمع اليها مبهورة مأخذوة الجنان.
– فيروزة، يا عزيزتي – توجهت اليها ربة البيت بالكلام، – اذهبي بالله، وقولي لسلامات ان تأتي بالسفرة، لقد سررت لرؤيتك حتى أنني نسيت أن أطلب منها ذلك.
– شكراً لك، يا عزيزتي، من تكون هذه الفتاة اللطيفة؟
– هذه حفيدة ديلارام كنيز. لقد جاءت مع جدتها، فاليوم كما تعلمين عرس بيبي زغارة، وهي أرادت أن تتفرج.
– انها جميلة مثل حورية، فلتحرسها السماء من العين الحاسدة.
– وطبعها يتناسب مع جمالها. حسناً، اذهبي، يا بنيتي، قولي لسلامات وعودي الى هنا مع جدتك.
انحنت فيروزة وخرجت من الغرفة. في المطبخ عثرت فوراً على سلامات، خادمة الهانم الصغرى فنقلت اليها أمر سيدتها ثم اقتربت من الجدة وهمست في أذنها أن السيدة طنبور قد أتت وأن الهانم الصغرى تدعوهما الى غرفتها.
في هذا الحين كانت الطباخة والخادمة في المطبخ

تقطعان العجين لأجل السنبوسك وتوقدان النار في الوجاق. الهانم الكبيرة كانت جالسة على المصطبة تقهقه مازحة مع بيبي زغارة. وصلت الى سمعها وشوشة فيروزة وفهمت أن المعلمة طنبور قد جاءت وأنها تجلس عند ضرتها فاستشاطت في الحال غضباً ثم هبت من مكانها وصرخت:

— هذه الغجرية حتى السيدة طنبور جرتها الى غرفتها! انها تخطف مني كل من أدعوه، تخطف الجميع. الآن سأذهب اليها وأجازيها كما يجب.

— كلا، كلا، لأجل الله، لا داعي،— أوقفتها الطباخة مادة يدين ملوثتين بالعجين،— السيدة طنبور انسانة وديعة رقيقة الطبع، انها لا تطيق المشاحنات وستزعل في الحال وتذهب، فتحرمين أنت من متعة الاستماع الى أحاديثها وأشعارها.

— ولماذا تذهب هي الى غرف الآخرين طالما أنها ضيفتي؟

— وماذا يهمك في هذا،— تدخلت العجوز ديلارام،— فحتى بداية الفرح بقي وقت طويل، اهدأي، يا سيدتي، مازال عليك أن تقومي بأعمال كثيرة. الغرف لم ترتب بعد، والبلوف* والمحموسة يجب التحضير لهما، بل ولا توجد أنباء من العريس بعد... فبينما تدبري كل هذا، سيكون من الأفضل أن تجلس السيدة طنبور عند ضرتك.

طمأنت كلمات العجوز السيدة الكبرى فهدأت وانبرت لتدبير شؤون المنزل، أرسلت فاطمة لتعرف هل ذبحوا الخروف، ولتأتي باللحم وبالاحشاء اذا كانوا قد فعلوا ذلك. وخرجت هي من المطبخ لتشرف بنفسها على الاعداد للفرح. استغلت ديلارام غيبتها وذهبت مع فيروزة خلسة الى غرفة السيدة الصغرى.

عندما دخلتا الى الغرفة قامت كلا المرأتين الشابتين من مكانيهما احتراماً للعجوز ودعتاها للجلوس في مكان

---

* البلوف: رز مع اللحم والبصل الجزر و توابل أخرى.

الشرف. لكن ديلارام جلست عند طرف السفرة ثم أجلست حفيدتها بقربها ورفعت يديها بالدعاء.

– أهلا وسهلا، يا أماه – قالت صاحبة البيت – شكراً لك اذ لا تنسيننا نحن الوحدانيين أيضاً، أو ربما دخلت الينا اكراماً للمعلمة؟

– آه، يا سيدتي. لقد شاب شعري وأنا أشتغل في هذا البيت. عندما دخلت حماتك المرحومة الى هنا عروساً كنت أنا خادمة هنا أكنس الفناء. زوجك شب على يدي ولم أغادر هذا المنزل الا بعد أن زوجته في المرة الأولى. ولكن، ورغم أنني تركت البيت مازلت أتردد على المطبخ من حين الى حين... واذا كنت لا أدخل الى غرفتك، فهذا لأنني أخشى ازعاجك... فأنت عندنا زوجة شابة على كل حال...

– أووووه... – مطت الهانم الكلمة، زوجة شابة! بل لقد شخت أنا منذ زمان بالنسبة لابن بايك، انه الآن يبحث لنفسه عن زوجة ثالثة...

– لا تصدقي الأقاويل، يا سيدتي! هل من المعقول أن يرغب ابن الباي بالزواج من جديد؟ ان الله له الحمد لم يهضمك لا جمالا ولا عقلا بل وطبعك جيد، فماذا يريد الباي أيضاً؟ هؤلاء أعداؤك يثيرون القلاقل لكي يجرحوا مشاعرك. لا تصدقي بذلك!

– كلا، – قالت المرأة الشابة. – في هذه المرة ضرتي الكبيرة هي التي تريد تزويج الباي نكاية بي.

– أقاويل وليس الا...

– كلا، كلا، هذا صحيح!

لاحظت السيدة طنبور أن الحديث أصبح سقيماً وغيرت الموضوع.

– تبين أن فيروزة–جان حفيدتك – خاطبت هي العجوز، – انها تبدو ذكية لبيبة، فليطل الله بعمرها.

وراحت العجوز متأوهة متنهدة تتكلم عن فيروزة، وعن يتمها ثم عن نفسها ووحدتها ونهايتها القريبة وبعد ذلك قالت:

— صحيح، فالله لم يضن عليها لا بالجمال ولا بالعقل، غير أنني أخشى أنها قد تتضرر بسبب هذا الجمال ذاته... فيما مضى كان الرجال يخافون الله ولا يسيئون الى اليتامى، أما الآن فكأني بهم قد فقدوا عقولهم، يتزوجون من واحدة ثم من أخرى وأخرى ويقدر على النساء المسكينات أن يذقن مر العذاب.

— احمدي الله على أن حفيدتك ليست من عائلة غنية — قالت المعلمة،— والا فان الخطاب كانوا سيقرعون بابكم بعد عام أو عامين. همومك معها لن تكون كثيرة. ولكن قولي بالله، هل تذهب فيروزة الى المدرسة؟

— وهل المدارس لنا؟ من نحن؟ أولاد العبيد والأمات يولدون لكي يعملوا، والدراسة ليست لهم.

— غير أنه، والحمدلله، لا يوجد عندنا الآن لا عبيد ولا أمات،— أجابت المعلمة،— بل وحتى فيما مضى، عندما كان سوق الرقيق موجوداً، كانوا أحياناً يعلمون الأمات. بعضهن كن على ثقافة وعلم يتعجب له الجميع... أنا أنصحك بأن تبعثي البنت الى المدرسة، دعيها تكون، اضافة الى حسنها، متعلمة أيضاً.

— المرأة العالمة، كما يقولون، تعيسة دائماً.

— لكنه اذا كان بالامكان اعتباري عالمة ولو بعض الشيء، فأنه لا يجوز بفضل الله أن يقال انني تعيسة...

لم تجد العجوز ما ترد به على ذلك فاكتفت بأن هزت رأسها وهمست:

— طريقك، طريق آخر...

— اسمعي نصيحتي وابعثي البنت الى المدرسة.

وانبرت زوجة الباي أيضاً لاقناع العجوز.

— أي والله، دعي فيروزة تذهب الى المدرسة، انها ستتعلم القراءة والكتابة بسرعة، من الملاحظ فوراً أنها فتاة نجيبة.

— الفاقة هي مصابنا،— قالت العجوز متأوهة.— اننا أفقر من أن نستطيع دفع تكاليف الدراسة.

— اذا كانت هذه هي العقبة،— ردت السيدة طنبور،— فأنا مستعدة لأن أعلم فيروزة عندي في المدرسة بلا مقابل. بل وحتى الكتب وجزء «عم» سأعطيها لها بالمجان.

— ليمنحك الله العافية، يا سيدتي الغالية،— هتفت العجوز متأثرة — لقاء هذا الجميل أنا مستعدة لأن أفديك بروحي! واوباه، اذا كانت فيروزتي، نور عيني، ستدرس فأنا سأعيش لأجل هذا مائة سنة أخرى.

— ان شاء الله،— قالت المعلمة،— وأنت فيروزة، ماذا تقولين؟ هل تريدين الدراسة عندي في المدرسة؟ بيتي ليس بعيداً عن هنا، في حارة ميردوستيم. انك لن تلاحظي، يا بنيتي، الا وقد صرت متعلمة.

ارتبكت فيروزة ولم تفعل سوى أن أطرقت حياء...

وإبان ذلك كانت تجري في المطبخ وفي غرفة السيدة الكبيرة استعدادات هائلة. الطباخات كن يقطعن الدهن واللحم والاحشاء لأجل القلي. فاطمة وسلامات كانتا تخبزان الأرغفة، أما ربة البيت فكانت تتمشى في المطبخ وتوزع الايعازات وأحياناً كان الحماس ينتابها فتأخذ السكين من الخادمة. وتنبري للعمل مرسلة تلك لتلقم النار بالحطب.

جاءت عريفة الأعراس في الحارة. كانت امرأة نحيلة كثيرة الحركة. دخلت، وجلست على طرف المصطبة وبعد أن تمتمت بالدعوات، سألت:

— وماذا، هل «العروس» هنا؟

— جاءت،— أجابتها السيدة الكبيرة.— لكن صديقاتي، وكما تقتضي الأعراف اقتدنها مازحات ضاحكات الى الحمام. وعندكم كيف تسير الأمور؟ أين «العريس»؟

— «العريس» هنا، يقف في الممر المسقوف. قررت أن أدخل أولا لأعرف كيف وماذا، والا، فكرت أنا، قد أقتاد العريس واذا بالعروس هنا فتراه هذا لا يجوز.

— ايه، لا شيء يقتضي الحيطة هنا، يا أختاه!— قالت الهانم.— ان عروسنا مستعدة لتصديق كل شيء. يكفي أن

يكون هنا عريس في بدلة رجالية وأن يدخل الى خلف ستارة العرس، وهي ستصدق!

– نعم العروس!– قالت القادمة ضاحكة ثم هرعت خارجة وفي الحال رجعت ترافقها امرأة ضخمة البنيان، طويلة وجسيمة، ذات يدين ورجلين ضخمتين، ووجه مستطيل كوجه الفرس تحليه شفتان غليظتان مقلوبتان، أنف مفلطح وعينان منمنمتان بالكاد تلاحظان على سحنتها الغليظة. انحنت «العريس» لسيدة البيت ثم اقتربت من بقية الخادمات في المطبخ وطفقت تساعدهن.

مساء، في الغرفة الفسيحة، غرفة زوجة الباي الأولى، كان النور ساطعاً كنور النهار: اشتعلت الشموع في الشمعدانات النحاسية وأضاءت ثلاثة فوانيس معلقة.

كان ركن الغرفة المفصول بستارة مزيناً بعناية خاصة، على طول الجدران مدت المفارش والألحفة وعليها قعدت الضيفات في أثوابهن الفارهة الحفافة وهن يتكلمن فيما بينهن بأصوات عالية، عازفتان كانتا تدقان على مزهرين، في وسط الغرفة كانت ترقص تيلا، راقصة بخارى المشهورة. كانت ترقص وتغني:

أنت زهرة، أنت بلبل
فليكن عيدك مبروكاً وعامر.

بعد الرقص وبعد الغناء فرشت السفرة، وجيىء بالصواني محملة بالحلويات والفواكه – بالعنب والمشمش وبالدراقن. عريفة الأعراس كانت تتناول الصواني من الخادمات، تطوف بها على الجميع، تتبادل النكات مع بعض الضيفات وتمازح أخريات. أما الهانم الكبيرة فكانت تدخل هنيهة الى الغرفة، فتجلس قرب النافذة وتضيف المدعوات وهنيهة تخرج لتقدم الايعازات والارشادات اللازمة. في احدى المرات دخلت مصطحبة نجلتها ابنة التاسعة – مشرفة –

فأقعدتها قرب المعلمة طنبور الجالسة في المركز قرب النافذة. ولكن ما أن خرجت الأم من الغرفة حتى هبت البنت في الحال فقفزت عبر النافذة الى الفناء وهرعت الى طرف المصطبة حيث كانت النسوة تزين العروس في قمرة صغيرة.

أجلسن بيبي زغارة على كرسي بمواجهة مرآة الجدار، ضفرن لها شعرها جدائل رقيقة، زججن حاجبيها بالأسمة، كحلن عينيها وضعن على شفتها العليا وعلى وجنتيها شامات، عطرن صدرها وظهرها بزيت الورد وخلعن عليها مختلف الحلي – أقراط، خواتم، عقود، أساور وحلى أخرى من زينة ربة البيت وزينة ابنتها. كانت العروس في قميص من الشاش في فستان معرق من الحرير الوردي اللون وفوقه جيليت مخملي مطرز بخيوط الذهب، أما رأسها فكان معصوباً بطرحة حريرية مطرزة ألقي فوقها خمار أبيض كان يسربل العروس حتى أخمصيها، وفيما قدمت للضيوف مقالي اللحم ثم رفع السماط كانت العروس جاهزة في كامل زينتها، نادت ربة البيت للسيدة طنبور ومعهما نهضت وخرجت من الغرفة خمس ضيفات أخريات كن أصبا الجميع وبدأت مراسم الاحتفال. في مقدمة الموكب سارت السيدة طنبور تحمل بيديها كتيباً، تلتها امرأتان بيدي كل منهما شمعدان كبير وخلفهما العروس تحمل على رأسها تسعة أرغفة منضوضة فوق بعضها. بعد العروس سار عدد من النسوة – صديقات الهانم الكبرى واتجه الموكب بأكمله الى الغرفة الكبيرة.

وكانت السيدة طنبور تغني بصوتها الرخيم «سلام نامة»:

للخالق الباري الذي يعلو على كل الأنام – حمداً وشكراً وسلام
لمالك الملك الرحيم المستعان – حمداً وشكراً وسلام
لمن أقام الكون من لدن الظلام – حمداً وشكراً وسلام
له، لمن أهدى لنا قبس الهدى الفتان – حمداً وشكراً وسلام
لله مدرك جوهر الفرقان – حمداً وشكراً وسلام.

أما النسوة فيرددن خلفها بصوت واحد:

– ألف تحية وسلام!

الهي، هاهما في حضرتك – العريس والعروس
فاغمرهما بنعمتك – العريس والعروس
وضع عليهما يدك – العريس والعروس
واسعدهما برحمتك – العريس والعروس
لك، يا منبع الالهام والغفران – حمداً وشكراً وسلام

– ألف تحية وسلام!

عندما دخل الموكب الغرفة الكبيرة قام جميع الحضور من أماكنهم اجلالا للعروس وارتفعت أصواتهم مجلجلة تستجيب لنداءات المعلمة بحيث اهتزت لها النوافذ والأبواب. فيما بعد تقدمت «الخاطبات» من جهة العروس– الهانم الكبيرة وصديقاتها – وجلسن صفاً واحداً ازاء الستارة بينما وقفت العروس خلفها. بعد ذلك رفعت ستارة الزفاف وقالت العريفة بصوت عال.

– لتجلس العروس وسنعطيها هذا البيت!

انحنت العروس ولكنها لم تجلس.

وساعتها ارتفعت عقيرة الطباخة.

– لتجلس العروس وسنهديها بستان «قولبه».

انحناءة أخرى وتبقى العروس واقفة.

– فلتجلس العروس وسنهديها سوق حرير – صاحت أغنى واحدة بين الضيفات.

ولكن العروس لا تجلس وفي النهاية تقول احدى العجائز بصوت أجش:

– لتجلس العروس وسأهدي لها ابني!

انحنت العروس وجلست أخيراً.

رفعت المعلمة طنبور يديها وراحت تلهج بالدعاء ثم قالت «آمين» وشرعت الموسيقيات بالعزف من جديد. الراقصة تيلاً التي كانت في ريعان الصبا عرضت في تلك الأمسية فنها بكامل تألقه وبهائه: كانت ترقص وتغني

وتدق على المزهر، بل وتفعل كل هذا ببراعة حركت مشاعر الجميع وأطربت قلوبهم. زوجات البايات كن يتسابقن في تنقيطها داسات الفلوس تحت طاقيتها فكانت رؤية ذلك تلهم الموسيقيات على حماسهن حماساً فيتأجج الطرب ويبلغ المرح أوجه.

كانت فيروزة مع بقية الفتيات تقف في الفناء قرب نافذة الغرفة الكبيرة وتتفرج على الفرح. أما العجوز ديلارام فكانت في المطبخ، تشتغل باعداد الطعام حيناً، أو تجلس حيناً آخر على الاسكملة وتشير على الخادمات الى ما ينبغي القيام به وبين هذا وذاك ترسل الى الغرفة أطباق اللحم المقلي وحساء الفواكه وغيرها من المآكل. العجوز التي شاهدت في عمرها الكثير والكثير لم تقدم حتى على الاقتراب من النافذة والقاء نظرة على الفرح. هذا «العرس» لم يرق لها ولكثيرات غيرها من النسوة الحاضرات، ولكن ما العمل، فالاعتراض على زوجات البايات محظور على بسطاء الناس. كان العرق يتصبب من ديلارام سواقياً. فكم من العناء كان يكلف في هذا الحر، الوقوف قرب الوجاق الملتهب، تحضير البلوف، تفريغه في الصحون وتوجيه الخادمات أيضاً!.. لكن ديلارام كنيز كانت مسرورة لأن قرة عينها فيروزة تترح وتمرح. كانت راضية، ولا رغبة عندها الآن الا الاستماع الى السيدة طنبور.

بعد أن طهت البلوف خرجت العجوز ببال مطمئن الى الفناء كي تأخذ قسطاً من الراحة وترطب وجهها المحتدم. واليها هرعت فيروزة:

– جدتي، – قالت هي، – هيا بنا، لقد أخذت المعلمة الطنبور.

نبهت العجوز على الخادمات بألا يمسسن القدور في غيبتها، ثم ارتقت بصحبة فيروزة المصطبة الآجرية المتاخمة للغرفة ووقفت أمام النافذة الوسطى. في هذه اللحظة ترددت أنغام الطنبور العذبة وصمت كل من كان في الغرفة، جميع الحضور كباراً وصغاراً استسلموا للسكينة منصتين.

كانت المعلمة طنبور متربعة على سدة الشرف تحدق في نقطة ما في الفراغ وتعزف على الطنبور لحناً شعبياً.

كانت أصابع يديها اليسرى تتنقل بحذاقة ورشاقة على الأوتار وتضغط الدساتين، وعندما لامست الأوتار بشاهدة يمناها ترددت الأنغام شاكية باكية مفعمة بالشوق والحنين.

وجالسة بين هؤلاء النسوة الثريات المتهندمات، المزهوات بأنفسهن المنتفخات المتعرجفات، كانت المعلمة تفكر بأنه لن يتيسر حتى لأنغام الطنبور الشجية أن تؤثر بهن أو أن تلامس مشاعرهن، — ظاهرياً يبدو و كأنهن قد سهمن وكمدن ولكن من يدري ماذا يدور في خلدهن، بماذا يفكرن؟ فها هي، مثلا، ربة البيت، زوجة الباي الأولى، تحاول بكل هيئتها الفاخرة، بكل فخامتها أن تعرض على الضيفات وعلى ضرتها بصفة خاصة أنها هي التي أقامت هذا العيد وبأنه برغبتها هي يمرح المدعوون وتعزف الموسيقيات بل ولأجلها أيضاً تعزف المعلمة وتغني. أجل، لقد كانت المعلمة على معرفة بأفكار ربة البيت هذه، ولكنها مع ذلك لم ترفض دعوتها وأتت الى الفرح. لماذا فعلت هذا؟ لقد أرادت اللقاء بزوجة الباي الصغرى التي كانت تستلطفها وترتاح لها، ثم أنها وبرغبة أقوى توخت أن تقرأ على مسمع من الناس قصيدتها الجديدة التي تتوافق كالسمن والعسل مع هذا اللحن الشعبي، — فالدعوة جاءت، اذن، مناسبة للغرض. وعلى كل حال، فقد يكون هنا أيضاً من سيفهم، خصوصاً بين أولئك الذين يستمعون اليها من هناك، من خلف النافذة في الفناء. ومفكرة بهؤلاء الناس تنهدت المعلمة طنبور بارتياح ثم قفلت المقدمة الموسيقية وراحت تغني:

رباه، احملني الى الخل العزيز، على جناح الريح
احمل له مني خبر، عن شوقي عن تبريحي
أعد الي من به حزني ومنه جروحي
أو خذني حتى بابه، رحماك ارحم روحي!

كانت هذه الأغنية رقيقة وعذبة ولكنها كانت شجية تستنهض في النفس شعوراً بشوق مبهم، وتسبي القلب تجره الى مكان ما بعيد ومجهول:

الصدر يتأجج طافحاً بالشوق، فاين رحيق العشب الشافي؟
والقلب شريد. فهلا أعنته أيها القدر الطيب ليجد مأواه
تحت زرقة السماء المتبدلة لايجد الناس الطمأنينة
فأعطني كأس الراح، أيها الساقي، امنحني الراحة ولو لساعة
مهما بحثت في هذا الكون الجهنمي لن تجد نفساً مستكينة
والعالم كله، كل النفوس يجب تغييرها في فترة قصيرة.

وما أكثر ما زرفته العجوز ديلارام من الدموع في عمرها الطويل الأليم! كان كثيراً مازرفته الى حد أن مقلتيها قد جفتا منذ زمان وما عادت تذكر متى بكت آخر مرة، ولكنها الآن وفيما تستمع الى المعلمة أحست أن العبرات تنضح من عينيها فكفكفتها بطرف المنديل وبدا لها أن كل همومها وأحزانها تبارح قلبها مع هذه الدموع. وكان في الغرفة من النساء من بكين أيضاً وجففن الدموع. بل وحتى الموسيقيات، العازفات اللائي كانت الموسيقى و كان الغناء مهنة لهن وعملا دائماً، اصغين الى المعلمة في غيرة، أخذن بسحر الأغنية، وبلا ارادة راحت احداهن تدق على المزهر في هدوء يتلاءم مع ايقاعها. ولكن المعلمة قطعت هنا الترانيم الحزينة وانتقلت الى نغم آخر – مرح وجامح:

قبلت ثغراً زاهراً كالوردة
فرويت منه رغبة دفينة!

وانتعش الجميع. هذه الأغنية المرحة الضاحكة استحثت فيهم روح الحركة، فأراد الكل أن يرقصوا. هاهي تيلّا قد وثبت من مكانها، تناولت العازفات مزاهرهن. بدأ الرقص. وتعالت صيحات الاستحسان من كل جانب.

في هذه الدقيقة دخلت الهانم الكبيرة التي كانت قد غادرت الغرفة قبيل ذلك، دخلت راكضة وهي تصيح: «العريس وصل، العريس وصل!». توقف الرقص والغناء واضطرت السيدة طنبور للقيام والخروج الى المصطبة كي ترحب كما تقتضي الأعراف «بالعريس» وتقوده الى الغرفة.

وكانت النسوة، فيما سار الحفل، قد زين «العريس» في احدى غرف الخدم بالفناء الأوسط. بالهزل والضحك والنكات ألبسن الخادمة العملاقة التي جاءت بها عريفة الأعراس سراويل رجالية، جيليت وروباً أبيض من الشيت علاه روب آخر من القطن المنجد؛ شعرها الخفيف، الساقط بأكمله تقريباً، لففنه كبة صغيرة وخبئنه تحت الطاقية، وعلى الرجلين شددن جزمة طويلة. حين تطلعت «العريس» الى نفسها في المرآة كادت ألا تتعرف على نفسها.

– انظرن اليها، هل تختلف بشيء عن العرسان؟– قالت ضاحكة احدى العجائز المرحات.– وأنت هل تذكرين يوم عرسك؟ هل تعرفين ماذا يفعل العريس في ليلة الزفاف؟ كيف يدنو من العروس كيف يغازلها ويلاطفها؟

– حسناً، لا تقلقن، سأفعل شيئاً ما.

وبمثل تلك المراسم التي واكبت العروس أقتيد «العريس» أيضاً عبر الممر الى الفناء الداخلي، وهكذا أيضاً أطلقت التحيات التي قوبلت بهتاف جماعي من الجميع. بعد ذلك أدخل «العريس» الى الغرفة ووضع بجانب العروس في الركن خلف الستارة. ثم اسدلت الستارة وجلست «الخاطبات» من جهة «العريس». جاءت النسوة بمرآة فدسسنها خلف الستارة وقربنها من وجه «العريس» والعروس. فقد جرت العادة على أن يرى العروسان وجهي بعضهما في المرآة أولا. ولكن العروس أبت أن تكشف عن حسنها «لزوج» المستقبل. وحين سمع الضيوف ما يجري خلف الستارة من بلبلة وضوضاء اعتراهم القلق وطلبوا أن يرفع الستار قليلا وبشكل غير ملحوظ حتى تتيسر لهم مشاهدة كل ما يحدث وراءه. وأخيراً، وعلى مرآي من الجميع

عرضت العروس نفسها في المرآة على «العريس» ثم تطلعت هي اليه ورفت على شفتيها بسمة خفيفة. صاح الجميع: «مبروك، مبروك» وجيىء بكوب من الشراب قدم للعروسين بمهابة فارتشفت العروس جرعة وبعدها فعل «العريس» المثل ثم أعيد الكوب للضيوف.

قدمت العريفة الكوب للسيدة طنبور باعتبارها أعلى الضيوف مقاماً وقالت:

– معلمتنا المحترمة، أرجوك أن تقولي الآن شيئاً ما.

ابتسمت المعلمة وفكرت لدقيقة، أما الضيوف فصمتوا يترقبون ما ستقوله بصبر نافد.

وتكلمت المعلمة باسمة:

– يقول المثل الشعبي: «شاه هانم تلد، ماه هانم تتألم». وهذا الشراب ليس مخصصاً لي، ان عبيره يشمل رؤوساً أخرى، فلماذا يجب علي أنا أن أتكلم؟

وأغرق الجميع في الضحك مع أنه قل بينهم من فهم مذهب كلمات المعلمة، لكن العريفة لم تعطها الكوب وترجت من جديد:

– روحي أعطيها لقاء كل كلمة منك! اتحفينا بالمزيد سألتك بالله.

– اذا اخذت انا الكوب – قالت المعلمة،– فسيتوجب علي ان أقبّل يدك. ولكن ما العمل، اذا كنت عاجزة عن فعل ذلك. فقد قال حافظ*: «لا تقبل شفتي الساقي ولا اليد التي تمسك الكوب،– لاحاجة لك بتقبيل أيدي القديسين الموهومين».

وأطلق الجميع صيحات الاستحسان.

بعد ذلك ناولت العريفة الكوب للمعلمة وقالت:

– بل أنا التي أقبل يدك.

جلس «العريس» مع العروس خلف الستارة وفرشت أمامها سفرة عامرة بالسنبوسك والكراميلا والسكاكر والحلاوة القارشية المحشوة بالبندق وغير ذلك من الحلويات. بقايا هذه الحلويات توزع كما جرت العادة في الأعراس على

---

* حافظ الشيرازي. (١٣٠٠-١٣٨٩) شاعر فارسي طاجيكي

الراغبين من الحضور. بعد ذلك قدمت للجميع اللبنية وأخيراً صفت أمام الضيوف صحون البلوف.
طيلة الوقت لم تكف الضيفات عن استراق النظر الى العروسين وعن مراقبة سلوكهما، كن يضحكن من قلوبهن محاولات، والحق يقال، ألا تلاحظ العروس ذلك.
عندما انتهى الطعام ورفعت الأطباق غنت المطربات أغنية على شرف العروسين وبدأ الرقص من جديد. ثم أسدلت الستارة وخلفها صارت تجري أحداث ما، لم يشهدها أحد الا «الخاطبات» اللائي ضحكن حتى الاعياء. وفجأة - اذ ليس معروفاً ماذا جرى هناك - انطلق «العريس» من خلف الستارة طائراً كالسهم ومرافقاً بقهقهة النسوة الصاخبة جرى من الغرفة واختفى. آنذاك التفتت الهانم الكبيرة الى العروس وقالت لائمة:
- ما بالك هكذا تتمنعين؟ هذا لايجوز. كان يجب أن تسمحي للعريس المسكين بشيء ما... ليس من اللائق بالمرأة أن تكون منيعة هكذا... فماذا سنفعل الآن؟ لقد استاء العريس ومضى!
وأكدت «الخاطبات»: نعم - لقد أصيب العريس بالخيبة واستاء فذهب ولن يعود.
- وليذهب، الله معه! - قالت العروس واجهشت بالبكاء.
- ماذا بك؟ - اندهشت السيدة الكبيرة. - لا، لا، اهدئي لقد كنت أمزح. تبين أن العريس قد نسي الهدية فذهب ليحضرها.
- لا قدر الله لأحد أن يكون تعيساً بمثل تعاستي، - من خلال دموعها قالت «العروس».
هذه الكلمات والصوت الشجي المهيض الذي قيلت به صعقت الجميع فتوقف الضحك وتجمدت على الشفاه البسمات. على الغرفة الكبيرة هيمن صمت مطبق.
قامت العجوز ديلارام من مكانها ثم أخذت حفيدتها من يدها وأسرعت مبتعدة بها عن هذا المكان.

– يكفي، فهنا يمكن أن تسمعي من الكلام ما لا يليق بفتاة أن تسمعه...

وذهبتا الى بيتهما.

في البيت و كانت فيروزة رقدت في فراشها، سألت الحفيدة جدتها بصوت خافت:

– جدتي، كم انفق على «عرس» اليوم من النقود، كم بذل من الجهود و كم من العناء،– فهل يعقل أن هذا كله لمجرد الضحك على المرأة المسكينة وحسب؟ أنا أستغرب ذلك ولا أستطيع فهمه، فلأي عرض...

وهزت العجوز رأسها، وقالت:

– أجل، كل هذه الجهود، كل هذا العناء وهذه المصاريف للتهريج، هروب من الملل. البايات لا يعرفون أين يذهبون بأموالهم، يتباهون بثرواتهم، ويستغلون كل فرصة لعرضها على الجميع والتباهي بها أمام الجميع. وهم لهذا يقيمون مثل هذه الأفراح، يمرحون ويترحون ويسخرون من عباد الله.

– ولكن، اذا كانت ثرواتهم طائلة هكذا، بحيث لا يعرفون كيف ينفقونها فلماذا لايمنحون للفقراء المال الزائد عن حاجتهم؟

– أوه،– هتفت العجوز – هؤلاء الناس يفضلون القاء ثرواتهم في النار أو في الماء، على أن يعطوا قرشاً لفقير.

– لماذا؟

– على هذا، كما يبدو، فطرهم الخالق.

لم تقتنع فيروزة بهذا الجواب وبعد برهة صمت قالت:

– من المؤسف أن المعلمة كانت هناك. انها ليست كالأخريات. انها ذكية وتفهم كل شيء. ولا حاجة لها بزيارة مثل هذه المحافل.

– هذا صحيح،– قالت العجوز،– صحيح، ولكنها هي الأخرى تضطر للتهادن مع العادات. فلو أنها رفضت قبول مثل هذه الدعوات وأبت أن تذهب مرة، ثم أخرى فانهم في الحال سيثيرون حولها الاشاعات وأقوال السوء. وعليه جاءت

المعلمة، ضحكت قليلا، التقت ببعض من تستلطفهن من النساء، غنت وابهجتنا بغنائها. غير أنها بالطبع كانت تشعر بالضيق في هذا الفرح. لقد رأيت أنا ذلك.

– وقد كانت هي الأجمل والأروع والأشهم بين كل من كان هناك.

– هذا حق.– ومسحت العجوز على رأس حفيدتها النابهة،– ان معلمتك أعلى منهن مقاماً بدرجات.

وفي اليوم التالي قصدت فيروزة مدرسة الاناث التي كانت تديرها المعلمة طنبور.

منذ ذلك الحين صارت فيروزة تتردد على المدرسة يومياً فكانت تذهب الى هناك في الصباح وفي الظهيرة تعود. خلال فترة وجيزة تعلمت الاحرف وبدأت في قراءة «جزءعم» و «تشار كتاب»* كما وتمكنت من دراسة أصول الشعائر الدينية بحيث أنها صارت تعلم جدتها ما ينبغي قوله أثناء الوضوء، وكيف يجب رفع اليدين عند أداء الصلاة. وسابقاً لم تكن العجوز ديلارام تصلي مطلقاً، ولكنها مع تقدم السن، وتحت تأثير العجائز الأخريات، صارت تؤدي الفرائض الدينية و تعلمت قراءة بعض الأيات الصغيرة والأدعية. فالعبدات والخادمات لم يكن بوسعهن لضيق الوقت أن يقفن للصلاة عدة مرات في اليوم وأن يتوضأن اضافة لذلك، بل وما كان أحد ليطالبهن بذلك. كن كما الجميع يصمن في كل عام، ولا شيء أكثر. أما الآن فان العجوز ديلارام كانت تعتز وتتباهى بأنها عرفت من حفيدتها القواعد الأساسية للدين الاسلامي.

وهاهي الأن ترقد في فراشها، لاتنام، وتحدق في الفراغ بعينين مفتوحتين على سعتهما. كل أفكارها – حول حفيدتها. انها تسأل الله أن يمن على فيروزتها بزوج صالح،

---

* اسم كتاب للشاعر فريد الدين «القرن السابع عشر» يدور فيه الحديث عن الأخلاق الحميدة، عن السلوك القويم وعن الشعائر الدينية.

فآنذاك ستتحقق امنيتها المكنونة وسيكون بوسعها أن تطبق عينيها الى الأبد بقلب مطمئن. كانت هذه رغبتها الوحيدة، ولا رجاء عندها سوى هذا.

حضرت فيروزة الشاي، حملته الى الغرفة، ملأت منه كوباً وناولته لجدتها. استوت العجوز في فراشها، لهجت بدعاء الشكر وشربت الشاي. ثم طلبت المزيد وبعد أن احتست هذا أيضاً أوعزت لفيروزة أن تغسل الكوب جيداً وأن تشرب بعد هذا فقط. ونفذت فيروزة كل ما ارادته جدتها.

– هاك انظري، شربت الشاي، وبدأت اتعرق. غداً صباحاً سوف انهض، لا تقلقي يا بنيتي.

– أما أنا يا جدتي، فسأبدأ غداً في قراءة «تبارك»– صرحت فيروزة، لكن المعلمة قالت انها لن تأخذ شيئاً لقاء ذلك، بل وطلبت ألا آخذ معي حلاوة.

– أهنئك، يا بنيتي، ألف مبروك! لكن لا عليك فما أن اشفي وانهض سأصنع لك حلاوة وسنقيم حفلة...

– كلا، المعلمة قالت: لا داعي لذلك, انتظري حتى أنهي «تبارك» وآنذاك سنصنع حلاوة.

– حسناً، الأمر لك، يا بنيتي، كما تشائين!– وافقت العجوز متناولة كوب شاي آخر. ثم استغرقت في التفكير.

كانت العجوز ديلارام تشعر أن مابقي لها في العيش وفي تدليل بنيتها ماعاد طويلا. فالمرض لم يكن مفاجئاً لها على الاطلاق، لقد كان يعشعش فيها منذ أمد بعيد، لكنه الآن يفصح عن نفسه بصفة خاصة. العجوز ديلارام ما عادت تأمل في التغلب على عللها، ماعادت لديها القوة الكافية لمغالبة الأوجاع. كان عليها أن تفتح لفيروزة عينيها على حقيقة الحياة، أن تعلمها وتدلها الى ما يجب أن تفعله حين ستبقى وحيدة، بدون جدتها، وأن تدلي لها بوصيتها الأخيرة.

وقبل كل شيء كان ينبغي أن تقول لفيروزة، من هي، من كان أبوها ومن كانت أمها. دعها تعرف كل شيء على

حقيقته وبدون زيف، فآنذاك ستسهل عليها معرفة الحياة والناس.

كانت العجوز قد بدأت يوماً في سرد قصة الماضي على فيروزة، والآن حان الوقت لانهاء هذه القصة.

٣

قرية تشاشمئي خوبان، واحدة من أزهر القرى وأكثر القرى سكاناً، بل وأحسنها تجهيزاً في مقاطعة يورتشي. انها تقع في ركن من الأرض لا يضاهيه في جماله جمال. فاذا طرقت السكة السلطانية متوجهاً من ديهناو الى حصار فانك ستمر على يورتشي وسترى على سفوح التلال بساتين هذه القرية وحدائقها. ستلوح لك من البعيد أشجار الدلب السامقة المحيطة بحوض المياه أمام المسجد. منذ غابر الازمان اشتهرت هذه الديار بينابيعها الكثيرة العدد التي يترقرق ماؤها منبجساً من تحت الارض في القرية وفي كل مكان حولها، قيل أن كل من يشرب الماء من ينبوع من هذه الينابيع أو يغتسل فيه يمسي فتياً وجميلا ويختفي عن جسده كل عيب أو نقص كان فيه.

أما في قديم الزمان وسالف الأوان، فيحكى أنه عاش في هذه القرية خمس من أبدع الحسان، كن من أحسن حسناوات الدنيا وكن عذراوات طاهرات عفيفات يكسبن خبز يومهن بالكد وعرق الجبين.

في تلك الازمنة كانت القرية تقوم في موقع أخفض من موقعها اليوم، كانت في حضن الوهدة، عند قاعدة الجبل الذي كان يحميها من الرياح القوية، ويواريها عن أعين الاعداء الباغية.

عاشت الحسناوات بسلام وأمان في هذا المكان الجميل المستور عن اعين الناس وكن ينتظرن عودة احبائهن الذين مضوا الى الحرب. لكن الهناء لم يدم وذات مرة هجم اللصوص على القرية واستبوا الحسناوات فرفعت الفتيات أيديهن الى السماء ورحن يسألنها الخلاص:

– ايتها السماء، العالية الجبارة البصيرة بكل شيء أنت ترين الخير وترين الشر الذي يقع على الارض. فاشفقي علينا، اغيثينا وادفعي عنا العار.

لكن السماء لم تعر جواباً، وآنذاك توجهت الحسناوات بصلواتهن الى الارض:

– ايتها الارض يا أمنا الحنون. لقد خرجنا منك واليك سنعود. نسألك بحق الامومة وباسم حب الأم أن تكوني رحيمة وأن تسترينا عن الاعداء!

وفي ذات اللحظة انزاح الجبل عن مكانه وانهال على القرية فلقي اللصوص حتفهم وغطت الارض الحسناوات الى أبد الآبدين. ورحن يبكين تحت التراب وسالت دموعهن ثم انبجست ينابيع هي هذه الينابيع ذاتها، التي روت الارض هنا فاخضوضرت سفوح التلال ونمت اشجار الدلب الجبارة في القرية الجديدة التي أسماها الناس تشاشمئي خوبان أى: «ينبوع الحسان».

سكان هذه القرية المحبون للعمل غرسوا هنا كروم العنب وبساتين التفاح الواسعة وأقاموا الحدائق الغناء. على سفح التل كانت عندهم حقول بعلية وتحتها حواكير وبساتين.

بيد أنه آنذاك، أي في ذلك الزمن الذي يدور عنه الحديث، حل أهالي القرية في عوز شديد وعاش الناس في فقر مدقع رغم سخاء الطبيعة ووفرة عطائها.

لماذا حدث هذا؟ هل حل جفاف أم أجدبت الارض؟ أو لعل أشجار الفاكهة لم تثمر في البساتين؟ كلا، لا شيء من هذا القبيل. فمزارع البطيخ والحواكير، وكروم العنب والبساتين كانت في كل عام تعطي غلة وافرة. لكن الناس ما عادوا يستطيعون الانتفاع بهذه الخيرات. وكل شيء، كل ما كان يكتسب بكدهم و كل ثمار جهودهم صارت تذهب الى عنابر محمد أمين باي صارت تدخل جيوب المختار والامام وتختفي في الاكياس العميقة للجباة – محصلي الاتاوات في امارة بخارى.

3*

محمد أمين باي وضع يده على خيرة البساتين وعلى أكثر الاراضي خصوبة في القرية وفي ظواهرها. بيت الباي كان كالقلعة، مسوراً بجدار سميك وكانت له بوابة عالية فاخرة. وخلف هذا الجدار كان كل شيء– سلاملك، بل وليس واحداً، اسطبلات، عنابر، أقبية، بيوت مؤونة، ايوانات وعليات وبساتين وحدائق. كل العائلات المائة والخمسين في القرية كان محمد أمين باي يعتبرها خدماً له وأقناناً.

وكان للباي ثلاث زوجات، لكنه لم يرزق منهن بولد. عن ذلك قال الناس، أن الله لا يمنحه ولداً لأنه يقسو على أطفال الغير. فالولد عزيز ولازم لمن يعمر قلبه الحب والعطف، أما محمد أمين باي فلم يكن لديه الا الغيظ والحقد، في مكان القلب في صدره قطعة جليد.

المختار المحلي كان دائماً على أهبة الاستعداد لخدمة الباي،– في كل الامور التي تجري في القرية كان المختار يقضي لصالح الباي لأنه، مع زوجته وابنه وابنته كان يلحس الصحون في بيت محمد أمين باي.

وامام القرية أيضاً كان لا يدعو في صلواته الا لمحمد أمين باي وله كان يسأل الله طول البقاء، وكيف لا وهو كذلك كان يلم الفتات عن مائدة الباي.

بل وكل البايات في القرية وكل متزلفيهم، جميعهم كانوا يحتشدون من حول محمد أمين باي ويقرأون له الحمد.

ولو حدث وقدم الى القرية أحد من الحكام، رسول أو رجل مقرب من شخصية رفيعة المقام من ديهناو، يورتشي، حصار، شادمان أو من قاراتاغ. فانه بالطبع سينزل ضيفاً على محمد أمين باي.

وسواء جاء حاكم في عمل أو جاء قاضي أو أي مسؤول كان –فانهم جميعاً يعرفون محمد أمين باي وحده. ففي المقاطعة كلها ذاع صيت ثروته وصيت أملاكه الارضية الشاسعة وصيت قطعانه التي لا تعد ولا تحصى.

غير أنه، وفي هذه القرية اياها، عاش رجل آخر لم

يكن لاتاجر ولا ملا ولا امام ولا حاكم — هذا كان حرفي
فقير من بسطاء الناس و كان اسمه الاسطى نذري -
النجار، بين يديه لم يكن الخشب يحيا وحسب، أما فيما
عدا ذلك فكان قادراً على أن يفعل به أي شيء وكل شيء،
كان بوسعه أن يحفر منه ما يشاء وأن يعطي لقطعة الخشب
أي شكل يريد. من بين يديه الحاذقتين خرجت أشياء لا حصر
لاشكالها: مهود وصندليات، أسرة خشبية وأعمدة منقوشة
للشرفات المزخرفة، عوارض مزينة بنقوش بديعة وألواح
مربعة لأجل الأسقف، أسفاط من خشب الدلب، وعجلات
لأجل المشحذين وأنوال للحياكة ودواليب لأجل الفاخوريين
— بكلمة واحدة، أعداد لا عد لها من المصنوعات
البديعة.

و كان للنجار الأسطى نذري ابن جميل الطلعة راجح
العقل ومحب العمل. وكان الابن بستانياً ماهراً مع أنه لم
يبلغ السادسة عشرة من العمر الا في هذه السنة. اسمه
كان استد أي ما معناه: «دعه يحيا، دعه يبقى معنا». ومن
المفهوم لماذا خلعوا عليه هذا الاسم فهو قد رأى نور الدنيا
بعد أن مات كل الأولاد الذين ولدوا عند أبويه قبله، فكان
لأبيه وأمه بمثابة الأمل الأخير. منذ نعومة أظافره كان استد
يساعد أباه ويتعلم منه حرفة النجارة ولكنه كان يحلم بأن
يصير بستانياً، بأن يستنبت الأغراس الفتية وبأن يزرع
ويفلح البستان. والأسطى نذري نفسه كان أيضاً يعمل في
الارض، في الحقل وفي البستان ولهذا فانه لم يعارض
ميول ابنه، بل على العكس، كان يساعده ويعلمه البستنة.

وذات مرة كان الأسطى نذري يصنع شيئاً ما فارشاً
أدواته في ظل دالية العنب. وكان استد يقلم بسكين
البستنة الافنان الزائدة على شجرات التفاح والكرز. أحياناً
كان الأسطى يرنو بطرف عينه الى ابنه ممتعاً النظر بقوامه
الممشوق، بمنكبيه العريضين ويديه القويتين البارعتين.
وفكر الأسطى أن الابن قد شب وصلب عوده وأنه يعرف
عمله ويجيده وعليه فمن الضروري الآن، ولطالما الأب على

3—1515

قيد الحياة، أن يجد للابن زوجة. أما من مصاريف العرس فيمكن أن يجمع المال اللازم لها لو اشتغل هذا الصيف كما ينبغي. واذا لم يكفه مالديه، فبوسعه أن يستدين! محمد أمين باي – مرابي، هذا يعرفه الجميع، ومنه يمكن أن يقترض مايلزم...

وماكاد يفرغ من افكاره حتى انفتحت البوابة ودخل محمد أمين باي بشحمه ولحمه رافعاً أذيال روبه.

– أوه، السلام عليكم يا باي!– نهض المعلم للقائه.

– اجلس، اجلس، لا تترك عملك،– قال الباي وقعد بلا كلفة على جذمور خشب.– أنا في الطريق عرجت عليكم، لم أرك منذ فترة طويلة، ففكرت أنه يجب أن أمر واسأل عن الأحوال...

– ممنون جداً،– أجاب الأسطى نذري،– يا استد، اذهب وأحضر مندراً، هيا.

– لا داع، لا تذهب يا استد،– عارض الباي ملقياً على الفتى نظرة حازمة.– أنا لدقيقة، سأجلس قليلا واتفرج على عملكم، أما لو بدأتم بالاهتمام بي فسأذهب حالا.

– حسنا، كما تريد، ومع ذلك اهتم بأمر الشاي يا ولدى،– جالساً ومتابعاً عمله قال الأسطى، ثم اضاف حين رأى الباي يهز رأسه رافضاً:

– لاعليك، فأنا نفسي أريد شاياً، فشاركونا، يا أهلا وسهلا.

– شكراً،– قال الباى مشيعاً استد بنظراته،– لقد كبر المحروس ابنكم تماماً، صار مساعداً لكم.

هوى الأسطى بالقدوم على قطعة الخشب وأومأ برأسه.

– مساعد، هو مساعد،– قال هو كأنما في عتب،– لكنه لا يحب مهني، لايريد أن يصير نجاراً.

– وما الذي يريده اذن؟– سأل الباي متظاهراً بالاستغراب.

– هواه في البستان يا سيدي،– هتف الأسطى بشيء من الفخر هذه المرة،– انه مغرم بالاشجار بل وبدوالي

العنب، لا هم الا أن يغرس الانصاب ويطعم الاشجار...
وقال الباي:
– لكن بستانكم صغير جداً، انه لن يجد هنا ما يفعله.
– وعلى هذا نحمد الله، ان مالدنيا يكفينا.
جلب استد سماطاً وفرشه على الأرض أمام الباي. ثم جاء بالشاي وشرع الباي في صبه من الابريق في الكوب وبالعكس. أما الاسطى فقطع الرغيف ووضعه أمام الباي. ابتعد استد وانبرى لعمله من جديد، وانشغل الاسطى بعمله أيضاً لكنه كان يفكر: لأي غرض يا ترى، شرف الباي بيتهم بزيارته؟ فبدون عمل ماكان ليأتى بالطبع، وهو ما كان ليبدي كل هذه اللباقة والتواضع. ولكن لماذا لا يتكلم عن حاجته فوراً، لماذا يراوغ؟ انه لا يكف عن النظر الى استد، عن مراقبته في عمله، بل ويتملى بستاننا أيضاً – من الواضح أنه يريد الكلام ولكنه يحجم... فما الذي يريده منا؟ رحماك يارب!
– واذن فأنت تقول أن ابنك لا يحب العمل في النجارة؟
– قطع الباي حبل الصمت أخيراً،– ولا بأس، فالبستنة أيضاً ليست عملا سيئاً. البستاني الذي عندي، روزيباي، شاخ تماماً، انه لا ينهض بالعمل ويحتاج الى معاون جيد وحاذق والا فان بستاني سيهلك تماماً. انني انظر الآن الى عمل استد وأفكر، حبذا لو يقبل أن يصير مساعداً لعجوزى روزيباي. فهو كان سيتعلم الكثير من البستاني المحنك، ويساعده في نفس الوقت ويخفف عن الشيخ عناء العمل.
وابتسم الاسطى، فلهذا أتيت اذن، لقد اتضح الآن كل شيء.
– وأنت، يا أسطى، هرمت أيضاً،– تابع الباي كلامه.– فأية مداخيل لرجل في مثل سنك، انها، على الارجح، لا تكفي لسد الرمق؟ أما لو بدأ استد بالعمل والترزق فسيخف عليك الحمل.
– أجل، انه سيخف طبعاً،– على غير ارادة وافق الأسطى يأخذه العجب من مكر الباي.

– وأنا سأعطيه أجراً جيداً على عمله، – تمادى الباي في دهائه الثعلبي، – ان في هذا خيراً له ولك أيضاً. فماذا تقول؟

وضع الأسطى ماكان يصنعه على الارض وزغر الى الباي.

– وماذا يسعني أن أقول يا باي؟! كلامك صحيح، فأنا الآن شيخ هرم وعليل، لقد فقدت قوتي السابقة وحميتي في العمل... نعم، هكذا، ولكنني لهذا بعينه احتاج الآن لمن يساعدني ويعينني.

ارتشف الباي الشاي ثم أتى على ما في الكوب فصب من جديد وناوله الى المعلم.

– عسى أن تعيش وتعيش، يا أسطى، – قال الباي ضاحكاً، – انما ما هذا الذي تقوله، انك تضحكني رغماً عني! بستانكم هذا يمكن أن يزدهر بدون بستاني خاص. ثم ان استد سيعتني به حين يعود من العمل. أما بستاني أنا فسيهلك بدون شغيل جيد. وافق سألتك بالله، ودع استد يأتي من صباح الغد الي، سوف أعين له راتباً. بل وبوسعي الآن أن أعطيك عربونا، هل تريد؟

– اشكرك كل الشكر، يا باي، فأنا حمداً لله، مازلت قادراً على توفير الخبز لأسرتي، مازالت قواي كافية لذلك! – صاح الأسطى غاضباً فلوح بقدومه وأنزله بعنف على الخشب.

ساعة كاملة جلس الباي يحاول اقناع الأسطى أن يعطيه استد، ولكن المعلم الذكي المحنك لم يذعن له.

برد الشاي، وبردت رغبة الأسطى في العمل، والحديث الذي طال لم يفض الى نتيجة.

استد الذي أنهى عمله مضى الى البيت والشمس بدأت تميل نحو الغروب، فصارت طويلة ظلال الشجر. أدرك الباي أخيراً أنه لن يبلغ مآربه، فنهض بادي الخيبة، ثم قال وهو ينفض أطراف روبه:

– كنت أظن أنك رجل عاقل، لم يخطر على بالي أبداً

أنك أضعت عقلك في عتي العمر! انما لا بأس، أنت لاتريد - فليكن لك ماتريد، وليبق ابنك عندك. ولكن ضع في علمك أنه قد يأتي يوم وتحتاج أنت الي - ساعتها سوف تتذكرني!

انصرف الباي وبقى النجار عاجزاً عن متابعة عمله، فوضب أدواته ومضى الى البيت. أم استد العجوز كانت قد خبزت للتو والارغفة مازالت ساخنة، ثم طهت عصيدة مع الفلفل الأحمر والبصل والاعشاب الفواحة، وجلست مع ابنها تتناول الطعام.

- اجلس، - قالت هي لزوجها العجوز، - كل من عصيدتك المفضلة.

لم يشأ الأسطى أن يكدر العجوز فجلس ثم تذوق الشوربة وعافها في الحال.

- هذا الباي صد لي شهيتي، - قال هو ووضع حفنة من «الناسواي»* تحت لسانه.

- أصابه العمى، - قالت العجوز، - لأي غرض جاء؟

- سعياً وراء ابنك جاء، قال: اعطني استد ليعمل عندي بستانياً. ولم أوافق أنا فاغتاظ وانصرف.

- وليمت في غيظه - نبرت العجوز - ابننا ليس لقيطاً حتى نرميه في أيدي الغرباء، بل وفي يدي طماع كهذا.

كان استد يستمع صامتاً الى هذا الحديث، أما في سره فكان يرجو الله أن يطيل في عمر أبيه وأن يمنحه القوة والعافية. فهو قد سمع بأن الباي لا يتراجع عن كلمته أبداً وأن الطريدة المنشودة لابد وأن تقع في شباكه عاجلا أم آجلا، - أجل ان هذا الباي رجل عنيد صلب العريكة.

انقضى ما يقرب الشهر وألمت بالقرية نازلة، وربما تكون الامطار الغزيرة التي هطلت في أوائل الخريف هي

---

* الناسواي - نوع من التبغ المسحوق يوضع تحت اللسان ويمص.

السبب في أن احدى عوارض السقف في مسجد القرية انكسرت فظهرت على السقف الشروخ وأحاق به خطر السقوط والانهيار. اطلق مختار القرية وإمام المسجد والمؤذن نفير الخطر. قالوا ان الله غاضب على أهل القرية لأن ايمانهم قد ضعف، هددوا بنهاية الكون والقيامة والحساب الرهيب، وراحوا يجمعون التضحيات، يذبحون الماشية، يقيمون الاجتماعات الدينية ويئنون ويولولون. محمد أمين باي ابدى اهتماماً حيوياً بالأمر وانبرى بنفسه للاشراف على عملية ترميم السقف في المسجد. سكان القرية قدموا المال والمواد اللازمة وعملوا أيضاً بدون مقابل. الأسطى نذري وابنه كانا هنا بين الأوائل. أخذ الباي النقود التي جمعها القوم وأعطى لهم بدلا عنها جذعاً جديداً. فقام الأسطى نذري وابنه بتقليمه وتشذيبه ثم نقشا عليه الزهور والزخارف ليصبح مماثلا لبقية عوارض السقف. ثم أقاموا الصلاة، نحروا خروفا وبقرة وبعد أن سقوا العارضة بدمائهما بدأوا في جو احتفالي مهيب برفعها الى فوق. لكن العمل هنا أيضاً لم يمض بدون الأسطى نذري، فهو لم يستطع أن يوكل للآخرين هذا العمل وأن يقف تحت، هادىء البال مطمئن النفس، فصعد هو أيضاً الى فوق.

وبينما كان يثبت العارضة في مكانها العالي أفلت الأسطى من على السقالة وهوى. اطلق الناس صيحات جزعة ملتاعة، وفيما بعد حملوا جسد الأسطى المشوه الى بيته. أشاع البعض أن الأسطى لم يتوضأ وأنه دخل «بيت الله» غير طاهر ولهذا وقع وتكسر، لكن اصدقاء الأسطى لم يولوا اهتماماً لهذه الشائعات فاقتادوا الى بيته طبيباً حريصين على شفائه. وأذهل محمد أمين باي الجميع بسلوكه اذ جلس شخصياً قرب فراش المريض مبدئاً نحوه عناية ورعاية بالغتين. لكن كل هذه الجهود لم تجد نفعاً، الأسطى نذري لم ينهض من فراشه وبمرور عشرة أيام على الحادث اغمض عينيه الى الأبد.

الكفن والقبر، والدفن والتأبين - كل هذا يحتاج الى نقود: الى كثير من النقود.

وأراد اصدقاء المعلم أن يجمعوا المال اللازم ولكن الباي قال أنه سيتكفل بجميع المصاريف وأبدى بالفعل أريحية نادرة.

على أعين جميع سكان القرية انهمك شخصياً بالاعداد للدفن، انفق المال من جيبه الخاص بل وأمر بأن يذبح كبش وتيس من قطعانه. قال أن الأسطى نذري كان واحداً من كبار الناس، أن هذا المعلم الحاذق كان معروفاً لكل سكان المقاطعة ولهذا يجب أن يدفن بكل مراسم التكريم. وصدق الباي بما وعد، فكان في غضون ثلاثة أيام يأتي الى بيت النجار وأدى بنفسه كل الشعائر والفرائض المتبعة. وفي اليوم الاربعين، بعد التأبين، دعا استد الى بيته مع مختار القرية وامامهاوقال:

- هاهي، يا ولدى، أربعون يوماً قد مرت على وفاة ابيك، لقد أحيينا ذكراه وقدمنا له الواجب، فدعنا نتحاسب الآن.

طأطأ استد رأسه كمداً ولزم الصمت. أما الباي فعد المصاريف على المحسب وأعلن بأن استد مدين له بخمسمائة تانغا.

- عندنا في البيت لم يبق شيء،- تكلم استد بأسى،- كل الذي كان فيه راح على دفن أبي، فمن أين هذه الخمسمائة تانغا أيضاً؟

- وكيف لا؟ - تدخل المختار، - كل سكان القرية، كل المسلمين كانوا شهوداً على سخاء الباي وكرمه! أما أنت فبدلا عن أن تشكر وتقبل يديه، تتجرأ وتطرح مثل هذه الاسئلة الوقحة؟

- ليس خمسمائة تانغا، بل وحتى خمس تانغات ليس بوسعي أن أعطي، انني لا أملكها.

- هذا ليس خطباً،- قال المختار.- تكريماً لذكرى أبيك بوسع الباي أن ينتظر، ولكنك أنت أيضاً ملزم بان

تقابل المعروف بالمعروف، نحن ننصحك بأن تشتغل عند الباي حتى تفي بدينك.

وطويلا ابى استد أن يوافق، ولكنهم مع ذلك أرغموه على الاذعان، فالتزم بأن يعمل عند الباي خمس سنوات حتى تطمئن روح أبيه الراحل.

هكذا صار استد خادماً للباي، صار معاوناً للبستاني.

في طرف القرية، على رابية وافرة الأمواه، انداح بستان محمد أمين باي شاغلا عشرين فداناً من الأرض. في هذا البستان المقسم على طراز البساتين البخارية الى أربعة مقاطع وحوض ماء في الوسط، نمت أعداد عديدة من أشجار الفاكهة، ترعرعت دوالي لا تعد من مختلف أصناف العنب كما ونما الجبس والبطيخ. كان البستاني العجوز الغيجدواني المولد يقضي الليل والنهار في هذا البستان مع الفأس والمقص وسكين البستنة. قرب مدخل البستان كان يقوم كوخه حيث كان يعيش صيفاً وشتاء. لقد كان البستاني وحدانياً، والكلب «دانا» كان الكائن الوحيد الذي يشاركه وحدته؛ انه لم يكن يبتعد عن صاحبه تقريباً. فاذا اعتلى العجوز عريشة عنب كي يقلم اغصان الدالية — قعا الكلب في الأسفل، واذا جمع البستاني الثمار عن اشجار الفاكهة — كان دانا بقربه، واذا مضى العجوز يكنس البستان، تبعه دانا كظله.

عندما كان العجوز يمضي مساء الى الترعة الكبيرة كي يحول جريان الماء الى البستان ويجلس طويلا على الضفة مراقباً التيار، كان الكلب ينطرح قرب سيده ويتطلع اليه، تماماً كأنه ينتظر ما سيقوله. وكان العجوز يجلس صامتاً، محدقاً في نقطة واحدة؛ لكنه أحياناً، كان يتأمل الماء ويتكلم فجأة مخاطباً كلبه:

— كم من الوقت أيضاً سنجلس أنا وأنت هنا ونحرس الماء؟ لا تعرف؟ آه منك، بل ويسمونك دانا — العارف بكل شيء!.. هاك انظر، هل ترى تلك النجمة، سننتظر حتى تقترب من ذؤابة شجرة الجوز الكبيرة، وساعتها سننهض

أنا وأنت ونذهب الى البيت... قبل ذلك لا نستطيع الانصراف – فقد يأتي أحدهم فجأة ويسد الماء... ويحولها الى أرضه. وآنذاك سيأتي السيد غداً ويقتلنا نحن الاثنين، هل تفهم أنت ذلك؟ نعم هكذا – هكذا–... دعنا نتحدث اذن، فيمر الوقت دون أن نلحظ. أنت شيطان، خبيث، أنا أعرفك جيداً، تبحلق بعينيك، تنظر الي، تريدني أن أتكلم، أما أنت فتأبى أن تحرك لسانك، وتفضل الصمت، فهيم ماشاءالله! انما لا بأس، تلقف كلماتي، سأبذلها لك دون أسف، وستبقى لي حصة كبيرة منها... الذي يؤسفني فقط هو أن هذه الكلمات لن تبلغ أحداً. ستضيع أدراج الرياح، أنفخ – ولن يبقى منها شيء... يوماً ما في الماضي عاش في الدنيا شعراء كبار: القديس... نعم، نعم، القديس عمر الخيام، القديس الحاج حافظ الشيرازي، القديس نوائي والقديس بيديل.. هؤلاء كانوا بشراً، هؤلاء لم يثرثروا عبثاً كما نفعل أنا وأنت. كل كلمة منهم كانت هي الحكمة ذاتها، كل كلمة منهم – مكتوبة، كلامهم صار كتباً يقرأها الناس وتتفتح أعينهم، يقرؤونها وتتحقق أحلامهم... أما كلامنا نحن فما جدواه؟ أنا وأنت نتكلم عن الماء، عن الارض، عن البستان والعنب، عن العمل وعن الوحدة والشيخوخة والعجز – وعما نتكلم أيضاً؟ ليس الا عن وحدتنا: أنت وحيد، وأنا وحيد، ليس عندنا لا زوجة ولا ولد ولا أهل... من الصعب على الانسان في شيخوخته أن يكون حتى بلا صديق... فياليته كان عندنا ابن أو أخ على الأقل!.. أنت، يا دانا كان بوسعك أن تجد أقرباء، ولكنك لا تريد أن ترتبط بهم. وأنا أيضاً يوجد عندي أهل، ولكن ليس هنا –هناك في غيجدوان... ذات يوم حدث واستأت منهم فهربت الى هنا. واليوم، في عتي العمر ليس الرجوع الى هناك سهلا كما تتصور. ففي الطريق، في مكان ما، في السهوب أو في الجبال يمكن أن أموت فجأة وتلتهمني الذئاب – ذلك هو ما أخافه. وأنت بالطبع لن تقدر على دفني، أنت دانا بالاسم فقط، ولكن، اعذرني، أي نفع منك؟

الحق أنك تنبح وتهر وتعض بل وتحسن الاستماع، كما الآن مثلا وهذا كل شيء! عدا ذلك لاتستطيع شيئاً لأنه ليس لك يدان... انما لا بأس، فلكل - كما يقولون - عمله، عملي هو استنبات البستان، وعملك حراسته... حسنا، لعل هذا القدر كاف؟ سنجلس أيضاً بعض الوقت، سننتظر ريثما تشرب مساكب البطيخ المزيد من الماء- ثم سنذهب الى البيت.

هذا كان شأن البستاني العجوز وهذا ديدنه! وقته كله كان ينقضي في العمل، لا يجلس ولا يعرف للراحة طعماً، والبستان كان كبيراً يعز على شخص واحد أن يقوم بكل ما فيه.

...كان نهاراً بارداً في أوائل الربيع، والعمل في البستان لم يكن قد بدأ بعد، حينما جاء الباي نفسه مصطحباً استد الى كوخ البستاني وقال لروزيباى العجوز أن هذا الشاب سوف يعمل من الآن مساعداً له.

- من الآن وصاعداً، يا روزيباي المحترم،- قال له الباي، - سوف تعملان أنتما الاثنان في بستاني بشكل لايكون فيه مجال للاعذار... فحاولا أن يكون المحصول في هذا العام أكبر بعشر مرات مما في العام الماضي، اسعيا ألا يحدث للاشجار أي مكروه، وافعلا كل شيء في أوانه، حسناً؟

- حاضر، يا سيدي، سنفعل كل شيء وفق أوامرك!- أجابه روزيباي وعندما انصرف الباي قال لاستد:

- استد، يا ولدي، كيف حدث هذا ووافقت على العمل عند الباي؟... آه، مفهوم ارغموك على العمل مقابل دينك؟ انما لا عليك، لا تتكدر! العمل في البستان ليس صعباً، سوف نتواءم أنا وانت - سنفلح في تدبير أمورنا هنا، ولأجل بستانك ستجد الوقت اللازم. هيا بنا لأريك البستان، ثم لنتشاور حول ما يجب أن نفعله.

رمى روزيباي على كتفيه بردة ممزقة ثم احتذى صرمتيه وخرج مع استد الى البستان. كان الثلج الذي سقط مؤخراً

يستلقي على الارض حراماً أبيض. وكانت أغصان الأشجار منحنية تحت ثقله. ضرب البستاني عليها بعصاه ضربات خفيفة فانهال الثلج واستقامت الأغصان. وكان دانا يعدو أمامهما وهو يهر ببهجة ويتمرغ في الثلج. واقتاد البستاني استد الى حوض المياه في وسط البستان.

– أظن أن هذا آخر ثلج، – قال هو متكئاً على عصاه الطويلة. – ما أن يذوب حتى تبدأ الاشجار بالاستيقاظ. وقبل الجميع سوف تنهض من سباتها أشجار اللوز. انظر، هذه هي أفضل شجرة لوز عندنا: النواة تنفصل عن القشرة بسهولة كبيرة. لكن الصقيع يمكن أن يضرب هذه الشجرة ان غفلنا عنها. ولهذا فان أول ما سنفعله، وفي هذا اليوم بالذات، هو أن نحفر الارض عميقاً تحتها ثم نهيل الثلج على جذورها وبعد ذلك نردمها بالتراب ونرصه جيداً لكي يتصلب الثلج في الأعماق. فالبرد سوف يؤخر استيقاظها، سوف تزهر في وقت متأخر ولن ينال منها الصقيع. هيا معي لأريك أين توضع الرفوش والفؤوس والنقالات.

في الأيام الأولى كان استد منقبض النفس شارد اللب، لكنه رويداً رويداً صار يأنس الى البستاني العجوز المحب للعمل والودود، وانشرحت اساريره. «من يدري – فكر هو – فقد يصير روزيباي لي أباً ثانياً...»

وهذا ما كان. فقد لذ لاستد أن يتعلم عند روزيباي مهارته في البستنة وكان يعمل بشغف وحمية. وكان روزيباي بدوره يسعى من كل قلبه الى تعليم استد مهنته المحببة، كان يكشف له عن كل اسراره ومعارفه، فعلم استد كيف يصون الاشجار – اشجار التفاح والكمثرى والسفرجل – من نازلات الطبيعة والديدان، علمه كيف تصنع الطعوم على خير وجه، متى ينبغي ري الأغراس، متى تسمد التربة، كيف يختار المكان المناسب لكل غرسة حسب صنفها وأمور كثيرة أخرى من دقائق فن البستنة.

في كل صباح كان استد يتزود برغيف خبز ويمضي الى بستان الباي. ومع روزيباي كانا يعملان حتى الظهيرة

ثم يجلسان لشرب الشاي مؤدمين الخبز وشيئاً من نقوع الفواكه، غالباً ما كان نقوع التوت. أما في المساء فكانوا يأتونهما بشيء من الطعام الساخن – شيء من بقايا مائدة الباي. وبعد العشاء كان العجوز يسمح لاستد بالذهاب الى بيته. وكان العجوز نفسه يذهب أحياناً الى بيت استد كي يتفحص بستانه الصغير ويقدم له بعض النصائح المفيدة.

على هذا المنوال مضت الأيام تترى، ومع أن الحياة لم تكن يسيرة الا أن استد كان راضياً يفعمه الامتنان نحو روزيباي. في تلك السنة، وبفضل جهود استد وخبرة البستاني العجوز، كان البستان في خير حال وأتت الأشجار بأكل وافرة. محمد أمين باي كان يتردد على البستان كثيراً، رآه في عز ازدهاره لكنه لم يطر على استد وروزيباي مرة، لم يقدر جهودهما بل على العكس كان يستشيط غضباً ويقرعهما بمجرد أن تقع عينه على غض مكسور، كان يزمجر غيظاً ويكيل لهما الشتائم.

واستد كان شاباً راجح العقل، جدي الطبع ومؤدباً. لكنه كان يعجز عن كبح غضبه ويخرج عن طوره فيما لو أساء له أحدهم. وعدة مرات في السنة الأولى أقدم على طرد الباي من كوخ روزيباي، فناله جزاء ذلك الضرب المبرح والسجن في كرار بيت الباي. ثم ضاق الباي ذرعاً بهذا القن ذي الطبع العنيد المشاكس فلجأ الى المختار سائلا المشورة.

– كيف لي أن أتصرف من هذا العتريس؟ لا خير يرجى منه، لم ينفعني معه لا الضرب ولا التهديد والوعيد... لولا ما بذمته من دين لطردته منذ زمان. فأشر علينا، كيف لي أن أحصل منه ولو على نصف الدين.

ولم يفطن المختار الى مخرج لكنه قال:

– انه بلا أملاك، كل ماالديه بستان صغير بل وبيت شبه مهدم – انهما لن ينفعاك بشيء. خير لك أن تلجأ معه

الى اللين، بالكلمة الطيبة ستسقط في يده وترغمه على العمل كما ينبغي.

وقدر على الباي أن يغير معاملته للقن، صار معه ارق حاشية بل واحجم في حضوره عن الاغلاظ للبستاني العجوز. فكان العجوز، عرفاناً منه، على استعداد لأن يصلي من أجل استد وازداد له حباً.

وذات مرة أتى لزيارة الباي صديق له من بخارى كان يدعى جورا قاراؤولبيغي. كان هذا صيفاً، في عز الحر فأنزل الباي الضيف في بستانه الطيب الذكر. كل الممرات في البستان وحول حوض الماء تم كنسها نزولا عند أوامر الباي بعناية بالغة، على المصطبة بجوار حوض الماء فرشت السجاجيد والابسطة والألحفة والمنادر، علقت الطنافس، وزين كل شيء كما في غرفة العروس. ثم ذبحوا تيساً وكبشاً واقاموا مأدبة عامرة.

جورا قاراؤولبيغي كان في الطريق الى حصار بمهمة خاصة يرافقه ستة جنود، وكان يخلع على نفسه كبرياء تضاهي كبرياء حاكم حصار ذاته. أوعز الباي لجميع شغيلته أن يكونوا في خدمة الضيف ولكن الثقل الاعظم وقع على كاهل استد والبستاني العجوز. كان عليهما أن يسوسا ويعلفا سبع أفراس، أن يكنسا الممرات في البستان ويرشاها بالماء ثلاث — أربع مرات في اليوم، أن يقطفا لأجل الضيوف الفواكه الناضجة وأن ينفذا ألف وألف تكليف آخر.

جورا قاراؤولبيغي كان ذات يوم مقامراً ولعاً، وكان منذ ست سنوات خلت قد زج في السجن بسبب سرقة وجريمة قتل. لكن سبيله سرعان ما أخلي بشفاعة أصدقاء له من علية القوم وأخذوه الى العسكر. أرادوا أن يكون ذلك له قصاصاً، ولكن المقامر العتيد أستطاع أن يستغل الخدمة العسكرية أيضاً لمختلف أشكال التلاعب الأسود. استمر في لعب الميسر، أطلق العنان للمكر والخداع وسرعان ما بدأ يترقى على سلم الخدمة — عين في البداية دهباشي، ثم

جيواتشي* وأخيراً صار قاراؤولبيغي**. قسوته وشراسته كانتا على شهرة واسعة، فصاروا يرسلونه الى المناطق والنواحي لقمع حوادث التمرد والعصيان. وبعد التنكيل بالعصاة بلا رأفة، والقضاء على أسر بكاملها كان يعود بغنائم حربية كبيرة ويغدق الهدايا بسخاء على رؤسائه.

وفي هذه المرة أيضاً كان في طريقه الى البيت عائداً بعد تنفيذ مهمة كهذه فعرج على صديقه القديم محمد أمين باي.

في اليوم الأول دعي الى الوليمة جميع كبار القرية، التم كثير من الضيوف، جلسوا حتى وقت متأخر، أكلوا، احتسوا الشاي وتسامروا، في اليوم التالي خرجوا للتصيد اقتنصوا غزالا وعند الغروب شووه وبدأ القصف والتنادم ثم اللعب بالأكعاب (نوع من الميسر). وسابقاً لم يكن استد يعرف ما هو الميسر، لم يكن يتصور كيف يمكن أن يلعب الكبار بالأكعاب. فشرح له روزيباي الأمر. تأخر الوقت جداً ومع ذلك لم يسمحوا لاستد أن يذهب الى بيته. محمد أمين باي، جورا قاراؤولبيغى وجنوده الستة كانوا يلعبون ويرفعون عقائرهم صارخين: «غاردكام». والحظ كان متقلباً، تارة يربح واحد، وتارة يربح آخر. ثم فجأة تناهى الى مسمعي روزيباي واستد، الجالسين قرب كوخ البستاني جدال وضجيج وأصوات عالية، ورأيا أن الباي قد نزل عن المصطبة وأنه يسير نحوهما. نهض كلاهما من مكانه واقترب الباي مترنحاً، ثملا تماماً ورفع عقيرته:

– من هنا؟ من هذا؟ روزيباي؟ آه، روزيباي! وهذا من يكون؟ أجل، هذا هو، ذاك... ماهو اسمه...

ثم بحلق في وجه استد وقهقه:

– أما أنا ففكرت بأن هذا أحد اللصوص، مابالك صامت؟

---

* دهباشي وجيواتشي – رتبتان دنيتان في سلك الشرطة.

** قاراؤولبيغي – رتبة في سلك الشرطة (رئيس حرس).

– لكنك كنت تعرف، يا معلم، أنني هنا؟
– من أين كان لي أن أعرف؟ هنا كان كل من هب ودب...
– أنت نفسك لم تأذن لي بالذهاب الى البيت.
– ولن آذن، قبل أن يهجع الضيوف للنوم لن اتركك تذهب الى البيت. انما حسناً، روزيباي، لي عندك مطلب..
– سمعاً، يا معلم!
– اليوم افرطت في الشرب، سكرت، ثم أني خسرت قليلا وفي جيبي الان، لا يوجد درهم واحد. كنت بعثت الى البيت لأجلب نقوداً ولكن الوقت متأخر، الليل مظلم، ومن يدري... فلا أمان في أيامنا هذه... أجل! واليك فيم الأمر، أنا أعرف أنه يوجد لديك نقود، لقد وفرت عندى بعض النقود... فأعطني منها... عشرين – خمس وعشرين تانغا... لا غير.. ساستعيد خسارتي وأعيدها اليك مع زيادة.
اندهش روزيباي ثم نظر الى استد وقال:
– ومن أين للنقود أن تكون عندي، يا معلم؟
– يوجد عندك نقود، يوجد، أنا أعرف أنه يوجد عندك خمسة وعشرون تانغا، يا مخادع، أعرف!
– الحقيقة أنه يحق لي بذمتك خمس وعشرون تانغا ولكنك حتى الآن لم تدفعها لي.
– اي–ي، بل يظهر أنني مدين لك أيضاً!
– نعم، أنت لم تعطني التانغات الخمس والعشرين المستحقة لي على السنة ونصف السنة الأخيرة، يا معلم!
– كفاك ثرثرة، وهيا، أخرج النقود. أخرجها قلت لك، يا عجوز، لا داع للمزاح معي!
وأطبق الباي على تلابيب روزيباي، كان البستاني المسكين كالدمية في يديه القويتين. احتدم استد واندفع نحو الباي ولكن ذاك أطلق العجوز.
– يا للا، هات! أخرج النقود.

— لا يوجد عندي نقود، ادخل الى الكوخ وانظر بعينيك، يا معلم! — متنفساً بعسر نطق العجوز — اقسم لك بالرسول أنني لم أمسك تانغا واحدة في يدي منذ شهرين وأكثر!

— انك تكذب، يا مخادع، يا محتال،— استمر الباي في مماحكة العجوز،— الآن سوف أخرج منك روحك ان أنت لم تعطني، انني لا أمزح، لقد خسرت، هل تسمع، يا أنت؛ لقد خسرت!

ثم أطبق على حنجرة العجوز، حصره الى الجدار وراح يخنقه، ولكن يدي استد القويتين امسكتا بالباي هذه المرة ودفعتاه عن العجوز، بحيث أن ذاك زعق جزعاً وارتمى في الترعة مباشرة. سمع جورا قاراؤولبيغي الصراخ وهرع مع جنوده فأخرجوا الباي من الماء ثم انهالوا على استد ضرباً.

— يكفي الآن، — قال جورا قاراؤولبيغي أخيراً، — أوصدوا على الاثنين باب الكشك، في الغد سوف أصفي الحساب مع هذا الحرامي.

وجلس الضيوف منجديد على المصطبة بجوار حوض الماء. نزعوا عن الباى ثيابه المبللة القذرة، ألبسوه جيليت أحدهم وروباً، قدموا له كوب خمر وراحوا يستنطقونه مستفسرين عما جرى. شرح الباي مقتضبا أنه طلب من العجوز مالا ولكن ذلك رفض، ثم انقض عليه هذا الشاب اللعين وأشبعه ضرباً. ضحك جورا قاراؤولبيغي الذي أفرغ جيوب الباي بشيء من الحرج وقال:

— حسناً، دعنا نلعب ثانية!

— ولكنه ليس لدي نقود،— أجاب الباي الثمل.

— لنعلب علي هذا الشاب! لا ضير في أن صبياني قد شوهوه قليلا، سأجد لنفسي فيه نفعاً.

— حسناً،— قال الباي،— هذا العاصي ملك يمينك، لنبدأ من جديد «غاردكام»!

واستؤنف اللعب...

في منزل قاراكوليباي المعروف لنا، في حي تشاردار بمدينة بخارى، سادت حركة غير مألوفة. غرفة الضيوف الكبيرة غصت بالناس، الاعيان وقراء القرآن والأطباء كانوا يأتون ويذهبون طيلة الوقت وبلا انقطاع. هنا أيضاً التم جميع أهل الباي، ورثته، أصدقاءه وأقرباءه.

ها قد مرت عشرة أيام والباي مريض، يرقد في الفراش محموماً ولا يأكل شيئاً. لفترات قصيرة كان يثوب الى رشده، ثم يعود ويفقد الوعي، يغمغم هاذياً بكلام غير مفهوم، يئن ويتألم. أطباء بخارى المرموقون في عجز عن مساعدته، لا يعرفون كيف يعالجونه وبأي دواء. زوجات الباي وبناته ينتحبن وغنيجان – بايباتشا، ابنه الوحيد، المحبوب والمدلل مضطرب قلق، يخطر في الغرفة جيئة وذهاباً ولا يجد لنفسه مكاناً.

عند رأس المريض جلس أقرب اصدقائه، وكيله المؤتمن المرادباي القونغراتي. كان الباي ما أن يعود الى وعيه حتى يدعو اليه المراد ويشرع بالهمس في أذنه، معطياً، أغلب الظن، الأوامر، ومضيفاً شيئاً ما الى وصيته.

وفي هذا اليوم، قال الباي حين صحا من غيبته:

– ان شفيت، ان تركني المرض ونهضت، فانني أعد... لوجه الله... أن أكون رحيماً... سوف أعتق عبداً وعبدة... سأطلق سراحهما.

قال الباي هذا وفقد الوعي من جديد. ابتسم المرادباي القونغراتي لدى سماعه هذا الكلمات ثم بلل خرقة بالماء البارد ووضعها على جبين الباي الساخن.

في هذا الوقت ترددت في البهو نحنحة جلفة ودخل الى الغرفة جورا قاراؤولبيغي. التقط القادم البسمة على شفتي المراد فقرر أن حال الباي، ولا ريب، قد تحسنت. اقترب من المريض حتى داناه تماماً وبدون كلفة حياه بصوت أجش جهور. لم يرد على تحيته ولم يعرض عليه الجلوس فمس ذلك حفيظته بعض الشيء، لكنه سأل واقفاً بجانب الفراش:

– كيف حال باينا، حسنة؟
– حال بايكم حسنة، غير أنه بلا وعي...– أجاب بالاوزبكية المراد، – اجلس.
قاراؤولبيغي لم يكن يحب هذا القونغراتي الساخر الفظ، لكنه عارفاً بأنه رجل الباي المؤتمن، وبأن كلمته تعادل أمر رب البيت كان يحرص دائماً على التظاهر بأنه لا يلاحظ وخزاته ويصمت. وصامتاً جلس الآن كذلك عند قدمي المريض وراح يتملاه بامعان. تنهد الباي، فتح عينيه، وبمساعدة المراد ارتشف جرعة من الشراب.
– هاهو صديقك_المقامر قد أتى، – قال المراد للباي بالاوزبكية،– انه يستفسر عن صحتك.
اغمض الباي احدى عينيه كأنه أراد بذلك أن يقول: «ما جدوى السؤال هنا؟»
– لقد سافرت الى حصار، – قال جورا قاراؤولبيغي،– بأمر من صاحب الجلالة. سحقت هناك انتفاضة متمردين. ولكي اتحاسب معك وأدفع لك ما بذمتي اتيتك بعبد، شاب جيد.
– كان من الأفضل لو أتيت بدواء جيد،– لاحظ المراد.
– لقد اتيت بعبد جيد، فتى في السابعة عشرة، جميل الطلعة وقوي الجسم،– تابع قاراؤولبيغي دون أن يولي اهتماما للمراد. – لكنه، والحق يقال، مريض بعض الشيء، في الطريق وقع وترضض، على رأسه جرح، وعلى كتفه اليمنى أيضاً...
– واسطة مدهشة للشفاء من مرض عضال،– ضحك المراد،– لرجل مريض جئنا بعبد مريض، ياله من عقار!
ولكن الباي اطبق عينيه علامة القبول. ثم قام جورا قاراؤولبيغي، انحنى وانصرف.
في الصباح التالي عرق الباي وآب الى نفسه، طلب حساء دجاج فأكل وتكلم مع الحضور. كان المراد جالساً قربه. وكان القونغراتي يتحدث مع المريض بجرأة ويسخر من اقربائه.

– في الليل وفي النهار جلسوا عند الباب منتظرين أن يزور الملاك عزرائيل هذا البيت. ولكن أملهم لم يتحقق، بدلا عن ملاك الموت حضر جورا المقامر جاءك بعبد مشوه وها هو قد عالج مرضك الأليم بهذا الدواء الاثيم. هذا العبد جلب لك السعادة فشفيت.

فضحك الباي وقال:

– كفاك مزاحاً، يا هزار!– ان الله هو الذي شفاني، باسمه تعالى علي أن أقوم بعمل صالح.

– لقد قلت لك الحقيقة،– تابع المراد.– فأنا قد رأيته، هذا العبد. انه راقد في الاسطبل، تكور على نفسه ويئن. رأسه مكلوم والجرح على كتفه يفوح نتناً... اسمه استد، وأخشى أنه لن يبقى حياً، سيموت فداء لك.

– جورا قاراؤولبيغي جاء به؟ – كرر الباي السؤال.

– نعم،– قال المراد،– فهو كان مديناً لك وها تد جاءك بعبد ليفي بما فى ذمته. الآن ضاع الدين بل والشاب ستضطر لمعالجته على حسابك. فهاك كيف يتحاسب معنا أصدقاؤنا المقامرون!

تفكر الباي وقال:

– لقد وعدت أن أطلق، اذا شفيت، عبداً وعبدة، اذهب وقل أنني اعتق هذا العبد. اكتب له ورقة عتق باسمي، أعطها له وليذهب الى حيث يشاء.

مسد المراد شاربيه ثم قال ناظراً الى الباي بابتسامة صفراء.

– جورا المقامر خدعك، أما أنت فقد خدعت الله نفسه فيالك من ماكر أيها القاراكولي.

ورمي باستد الجريح ومعه أمة عجوز أخرى الى الشارع. أسندت العجوز المسكينة استد من تحت ابطه وبشق النفس، باكية ناحبة، جرته الى ساحة بجوار المسجد. هناك، عند باب «بيت الله» وعلى مرأى من المؤمنين طرحته

على حجر وجلست هي بقربه تنوح وتندب مستعطفة الناس كيما يحنوا عليهما بمأوى.

كان استد خائر القوى تماماً. الجراح على رأسه وكتفه لم تكن خطيرة ولكن الجوع وفقدان الدم فعلا به فعلتهما.

لو كانت لديه القوة الكافية لضم ورقة العتق الممنوحة له من قبل الباي الى قلبه ولجرى الى قريته وارتمى بصدره على الارض الحبيبة!.. ولكن ما العمل وهو بلا عزم، انه لن يبلغ الديار الحبيبة، لن يرى أهله واقرباءه - وسيقدر عليه كما يبدو، أن يغمض عينيه هنا، في هذا المكان الغريب، الى الأبد...

وبسبب هذه الأفكار أخلد الفتى المسكين الى اليأس، وانهمرت من عينيه دموع مريرة. أما العجوز فكانت تتضرع عبثاً الى المارين أن يساعدوهما، قالت أنهما عبد سابق وعبدة سابقة وأنهما قد عتقا الآن ولكنهما بلا مأوى ولا أقارب، انهما مسكينان، لا يعرفان الى أين يذهبان فليس لديهما ملجأ حيث يسعهما أن يرتاحا، ولا صديق يشفق عليهما ويقدم لهما العون.

- يا عباد الله الطيبين، يا أهل الخير والمروءة، ساعدونا بشيء، اعطفوا علينا!

وفي المغيب اشترت العجوز بما جمعته من حسنة رغيفي خبز، فأكلا وشربا ماء من الوعاء الكبير القائم على الساحة لأجل الوضوء ثم ناما، حيث كانا، على حجارة الطريق. وفي الفجر عندما جاء المؤذن الى المسجد ليدعو المؤمنين الى صلاة الصبح رأى هذين البائسين في نفس المكان، حيث كانا في مساء الأمس. أخذ به الاشفاق عليهما ثم فكر قليلا واقترب منهما.

- يا عجوز، - قال هو، - أيعقل أنه ليس عندكما مكاناً تلجئان اليه؟ وهذا من؟ هل هذا ابنك؟ آه، هو أيضاً بلا بيت مثلك؟ اليك ما اقترحه: اذا أردت بوسعي أن آخذك الي، ستساعدين زوجتي في شؤون البيت. فلنذهب، أما الفتى

فليبق هنا، ان الله لن يغفل عنه وسيرسل له من يحسن اليه.

واقتاد المؤذن العجوز الى بيته، زوجته كانت مشغولة دائماً، كانت تخدم الأعراس والمناسبات الدينية. وكانت تغيب عن البيت أياماً كاملة، فلم يكن عند المؤذن حتى من يقدم له الماء لأجل الوضوء.

أما استد فبقى طيلة اليوم التالي أيضاً، طريحا على أرض الساحة قرب المسجد، كان يئن ويتألم، كثيرون كانوا يعطفون عليه، ويبكون معه، ولكنهم لم يستطيعوا مساعدته، فهم أيضاً كانوا فقراء وكان مصيرهم في أيدي سادتهم، آخرون كانوا يتحسنون عليه، يرمون له نقوداً، خبزاً وطعاماً، ولكن ما من أحد أقدم على أخذ المسكين الى بيته.

...راقدة في فراشها، روت ديلارام-كنيز المريضة هذه القصة الحزينة على حفيدتها. وباكية على استد اشفاقاً سألت فيروزة:

– أيعقل أنه ما التقى انسان واحد يساعده، ولا واحد أبداً، أبداً؟

– ساعدوه، – أجابت العجوز. – في وقت صلاة الظهر اقتربت من استد المعذب امرأة. كانت طويلة القامة، جلفة البنية، جهورة الصوت كالرجال، وكانت ترتدي ملاية: ولكن وجهها كان سافراً – وهي لهذا رأت فوراً في أية حال صعبة كان الفتى. وسألت: أما من أحد عنده يعطف عليه ويرعاه؟

في الجواب أنّ استد وحسب. لكن المؤذن خرج هنا من المسجد فاقترب وحكى ما كان قد عرفه من العجوز عن مصير استد المحزن. آنذاك نادت المرأة على عربجي كان جالساً على عربته في مكان قريب: «هيا بنا، لنرفع هذا البائس ونضعه على العربة». تلك المرأة كانت جدتك، أي أنا، وبعد أن وضعت الجريح في العربة ذهبت به الى بستان لطيف باي حيث كنت أعيش آنذاك.

– أنت سابقاً كنت تعيشين في بستان؟– اندهشت فيروزة.– أي بستان كان هذا؟ ولماذا ذهبت من هناك؟
– أوه، أوه..... كم من الأسئلة دفعة واحدة! بكلمتين لن أجيب عليها كلها، تريثي، اتركيني ارتاح قليلا، وبعد ذلك سأحكي لك عن كل شيء من البداية. فأنت لا تعرفين من أية عشيرة خرجت جدتك العجوز، وأية محن لم يقدر لها أن تعاني!

– طالما لم تصعدي الجبل لن تري ماذا يوجد تحت، في الوادي، وطالما لم تعيشي أياماً كثيرة، لن تعرفي ما هي الحياة!» – قال لي والدي ذات مرة. وكان هو رجلا مجرباً، عانى الكثير في عمره، ومر فوق رأسه غير قليل من الأنواء. كنا نعيش في سمرقند، في حي باغي شمال – بستان الرياح– كنا نعمل في الارض، وكان لدينا بستان صغير، نبيع ثماره، ونعيش على ذلك، قبل ذلك اليوم، حين قال لي أبي هذه الكلمات كنت أنا أقل الكائنات هماً ومبالاة، كنت أكثر بنات الحي مرحاً وشيطنة وتقلباً، كل أترابي كن يخفنني، حتى بنات المختار والباي كن يرهبن لساني – فقد كان بوسعي في لحظة واحدة أن أجعلهن مضحكة، أن أبهدلهن. أما أنا فما كنت أرهب أحداً. فلقد كنت جد خبيثة، رشيقة، بارعة وقادرة على كل شيء. كنت أجيد العمل في الزراعة، وفي البستنة، كنت أحسن تربية المواشي ورعايتها وكنت ماهرة في التدبير المنزلي. لم أكن انهض بشؤون منزلنا وحسب، بل وكنت أساعد الآخرين أيضاً. أما عندما كان ينضج العنب فكانوا يقتادونني من بستان الى بستان، اذ ما من أحد كان يجاريني في تحضير الزبيب. وكنت أغلي البيكميس من البطيخ، وأجفف التوت مع الجوز، وكان هذا لذيذاً بحيث لو جربته مرة، لن تنسينه أبداً. وعليه، فمن المفهوم أنني كنت متكبرة أيضاً، لم يكن يعجبني أحد، اللهم الا ابراهيم، الشاب الذى كان يعيش

في الجوار. ابراهيم هذا أحببته لانه كان دائما منقبض النفس حزيناً - فأمه ماتت ووقعت له زوجة أب شريرة. كانت تعذبه بلا انقطاع، ترغمه على القيام بأصعب الاعمال وأشقها. فكان يجد بي أنا أمله وسلواه الوحيدة. لم يكن يخفي عني شيئاً، وكان يفضي لي بكل أحزان قلبه.

وذات مرة، أذكر أنني كنت أقطف العنب في كرمنا واذا بصرخة تتناهى الى سمعي من بستان الجيران. فتركت العمل وتسلقت السياج الى بستانهم مباشرة. ثم نظرت ورأيت أن زوجة أب ابراهيم قد رمته على الارض وانهالت عليه ضرباً بغصن من المشمش. وأغصان شجر المشمش، كما تعرفين، شائكة وقاسية، انها تقطّع الثياب الى نتف وتجرح الجسم بشكل مؤلم. في البداية أذهلني أن ابراهيم مستكين هكذا، لا ينهض ولا يردع. لكنني حين اقتربت رأيت أن يديه ورجليه مربوطة، فيما بعد عرفت أن الأب الأبله قد ربط ابنه ثم تركه فريسة سهلة في يدى خالته وانصرف. لم احتمل أنا النظر الى هذا واندفعت. رفعت يدي وضربت، واذا بالمرأة الشريرة تقع في حوض الماء مباشرة، أما أنا ففككت قيد ابراهيم وأوعزت له أن يهرب. هرب هو، وبقيت أنا اضحك من المرأة التي كانت تتمرغ في الطمي وتحاول بصعوبة الخروج من الحوض. وبعد أن شبعت ضحكاً تسلقت السياج عائدة الى بستاننا.

في المساء قدم الينا والد ابراهيم وشكاني الى والدي، ويومها، أي بعد أن ذهب هو، قال لي أبي هذه الكلمات:

«طالما لم تصعدي الى قمة الجبل لن تري الأرجاء المحيطة، وطالما لم تعيشي أياماً كثيرة لن تعرفي ما هي الحياة! أنت مازلت طفلة وعليك أن تحترمي الكبار. ان زوجة أب ابراهيم مع أنها غريبة، تبقى له بمثابة أم، انها تملك الحق بمقاصصة ابنها بل وبضربه حين تقتضي الحاجة. ثم ما هو شأنك حتى تتدخلي وتقفي بينهما؟»

«ابراهيم شاب جيد،- أجبت أنا،- انه يشتغل طيلة اليوم بلا توقف، لايضيع الوقت هدراً ولا يرتاح. أما زوجة

أبيه فانها قاسية عديمة الرحمة. لقد ضربته بغصن مشمش، وجرّحت له كل جسمه، فرميتها أنا في حوض الماء وفككت لابراهيم قيده».

«وحسناً فعلت،- قالت أمي.- لقد نالت الشريرة ما تستحقه!»

ولكن أبي لم يوافقها.

«لا تتكلمي هكذا فمهما كان الأمر، تبقى هي على كل حال أكبر سناً، قطّعت قمصاناً أكثر، كما يقال، والصغار يجب أن يحترموها».

«عندما يكون الكبار جيدين، لا يفكر أحد بالاساءة اليهم، الكل يقدرونهم،- رددت أنا، العارفة بكل شيء، على والدي، الرجل المسن.- وخذ نفسك مثلا، الكل يحترمونك. وأنا ابنتك مستعدة لأن أحملك على يدي».

ضحك والدي ولم يقل شيئاً آخر.

منذ ذلك الحين استمر الحب بيني وبين ابراهيم. لقد تصادقنا وأحب كلانا الآخر بحيث ماكنا لنستطيع أن نعيش يوماً دون أن نلتقي. ثم عرفت أمي بأمر حبنا وحكت عن ذلك لأبي، فتشاور والداي فيما بينهما وقررا أن يزوجانا في الخريف القادم. فرحنا انا وابراهيم لذلك كل الفرح وشرعنا نعدّ على أصابعنا، متى يمضي الصيف وبعده الشتاء ثم الربيع ليزف الخريف الموعود أخيراً.

لكن أبوي، على الارجح، لم يقولا أنذاك: «ان شاء الله»،- وهكذا لم تتحقق امنيتهما.

ففي ذلك الخريف، استعداداً للعرس المرتقب باع أبي كل محصول القمح والشعير والفواكه تقريباً، وبالمال الذي قبضه اشترى خروفاً وعجلا وصندوقاً مع الجهاز وأقراطاً وخاتم وأساور فضية لأجلي.

ولكن ذاك الشتاء لم يأت بالثلوج، لم يسقط الثلج ولا مرة واحدة، ومع بداية الربيع كانت بقايا الثلوج على قمم الجبال قد ذابت، وبدأ الحر فوراً عقب الانقلاب الربيعي في أواخر آذار، وحينما أهل موسم تفتح الورود كانت

الحشائش في الحدائق قد اصفرت. بسبب الجفاف هلك زرعنا، لم تنبت حبة واحدة مما بذرناه. صار الناس يغربلون التراب الجاف منتقين منه الحبوب، فعلنا نحن المثل فجمعنا قليلا من القمح. واستفحل الجوع ما أن بدأ الصيف. بعنا الخروف والعجل واشترينا طحينا. ولكن هذا لم يسعفنا لوقت طويل. ثم بعنا كل شيء، كل ماكنا قد حضرناه لعرسي بعناه بثمن بخس. وانفقنا هذا أيضاً على الخبز. لكن ذلك لم ينقذنا.

أكل الناس لحاء الأشجار وجذور الحشائش، تورموا من الجوع وانهاروا خائري القوى. المحنة كانت تهوم حول بيتنا، والموت كان يطوف في شوارع الحي رامحاً على فرس... وأمام الموت سار التجار والسماسرة والمضاربون كأنهم الطاعون أو الكوليرا. كانوا يثرون على مصائبنا، ويبنون البيوت على أحزاننا. كل شيء كان له قيمة، ولو أدنى قيمة، سحبوه من بيوتنا مقابل كمشة من شعير أو كوب من قمح. والفلاحون الذين كانوا يزرعون القمح فيما سبق صاروا الآن يقصدون المدينة طلباً له. ثم أتى يوم ولم يبق عند الناس شيء. آنذاك صاروا يبيعون أولادهم — أبناءهم وبناتهم. وحين عرف بذلك أبي وأمي بكيا بمرارة وقالا أنهما يفضلان الموت جوعاً، ولكنهما بملك الارض لن يقدما على بيع ابنتهما الوحيدة.

وصنعت لنفسي، مثل كل صبيان الحارة، مرجاماً وصرت أتصيد العصافير، كنت أقصد الى ضفة نهر زرفشان الجاف فأجمع الحشائش وأعود بها الى البيت كي اطبخها وأطعم والدي. لكن كل جهودي لم تجد نفعا، ومع كل يوم كان أبي وأمي يزدادان ضعفاً.

وكانت ثالثة الأثافي حين علمت فجأة أن «باياً» غنياً، قادماً من بخارى، يشترى عبيداً وجواري وأن خالة ابراهيم قد باعت له ابن زوجها لقاء كيس من القمح.

هزني الخبر وهرعت حالا الى بيت جيراننا، وحين دخلت رأيت الزوج والزوجة جالسين وحدهما ويأكلان قمحاً محمصاً.

«وأين ابراهيم؟» سألت أنا.

لم يعيرا جواباً وفهمت أن الناس صدقوا فيما قالوه لي. وانذاك ذهبت بنفسي الى المختار. قلت له، اذا كان ابراهيمي قد بيع مقابل كيس من القمح فليأخذني الباي اليه أيضاً، دعه يعطي لوالدي بالمقابل كيس قمح وجرة سمن. وكان المختار وسيط الباي - كان يبحث له عن العبيد والجواري ويؤمن بهذه الطريقة لأهل الحي الخبز والمال، ولكن ليس لوجه الله طبعاً. ثم أن المختار كان على علم بأننا وابراهيم نحب بعضنا الاخر وكان يعرف أيضاً بحال أبي وأمي ولهذا قال:

«حسنا، يا بنيتي، سأرتب الأمور بشكل يناسب الجميع ويرضيهم، أو كما يقال: سأخلع عن الحبيبة الياقوت والى الحبيب لن أسيء. سأفعل ماتريدينه، سأعطيك للباى مقابل كيس قمح وجرة سمن لأجل والديك، ولكنني سأسأل الباي أن يزوج ابراهيم منك. أظن أنه سيوافق على ذلك، اذ أن أولادكما سيكونون آنذاك عبيداً له أيضاً... أليس كذلك؟»

ووافقت أنا بلا تردد، لأنه سرني من جهة أنني سأقترن بحبيبي وأنني من جهة أخرى سأساعد أبي وأمي: وانقذهما من الموت جوعاً. كنت أعرف أنه علي أن أفعل ذلك بنفسي لأن أبي وأمي كانا يفضلان الموت على أن يبيعانني لأحد.

وهكذا نتج أنني اشتريت لنفسي قيود العبودية. فلا تقدرن اللهم لاحد أن يرى أياماً كتلك الأيام السوداء التي رأيتها أنا، وعسى ألا تمس يد امرء من بني البشر كأس علقم كتلك التي تجرعتها أنا. من السهل أن تقول: بعت نفسي! لكن عملا كهذا؛ كاستبدال الحرية بالعبودية لن يقدم عليه انسان الا اذا كانت السكين تحز حنجرته! فلو لم تنزل بنا محنة هائلة، كمحنة القحط والجوع، ما كنا حتى لنعرف بوجود ذلك المجرم لطيف باى.

وذهبت الى البيت لكي أرى في آخر مرة أبي وأمي، لكي أودع البيت الذى ولدت فيه، وأودع المرابع التي

شهدت طفولتي وصباي، المرابع التي عرفت فيها السعادة.
كان أبي راقداً على بساط عتيق، متدثراً ببعض من الأسمال وكان غائباً عن الوعي، أما أمي الهزيلة والشاحبة كالأموات، الناشفة الوجه، الغائرة العينين فكانت تصب له الماء في فمه بيدين راعشتين. كان المختار قد اعطاني حفنتين من الدقيق فحمصته سريعاً في القدر ثم صببت عليه بعض الماء وصنعت خبيصاً ثم سكبته في زبديتين ووضعتهما أمام والدي، أما أنا فلحست القدر. أكل أبي وأمي الخبيصة على عجل ثم دعيا لي وغفيا هادئي البال. مسدت أنا على أيديهما وأرجلهما في رفق ثم لثمت جبهتيهما وخرجت من الغرفة.

كان النهار ميالا الى المساء، الشمس اللاهبة كانت تعوم نحو الغرب وظلال الاشجار صارت طويلة، أمام البيت كان عندنا بستان - ذات يوم كانت فيه دالية عالية واشجار تفاح وكرز وأجاص ودراقن، أما الان فقد ذبل واصفر لونه، احترق ومات من العطش. في هذا العام لم يعط البستان أى محصول. كان ثمة قليل من العنب ولكننا أكلناه وهو حصرم لم ينضج بعد. سابقاً في حاكورتنا كان ينمو البصل والجزر والخيار والشلجم أما الآن فما من شيء الا الأعشاب الضارة. كل شبر من هذا البستان وهذه الحاكورة عزيز علي، في كل شجرة بعض من جهودي، وشيء من حبي. في ظلال هذه الأشجار اياها كنت أجلس مع صديقاتي وألعب، هاهنا كنت أركض وأرغد، وهناك خلف خميلة الورد التي تنمو قرب سياج الجيران كانت مواعدنا الكثيرة مع ابراهيم، هناك كنت أفضي له بأسراري الصغيرة... وها أنا الآن احرم من كل هذا - أترك البيت والبستان والأهل، وأمضي الى الغربة، الى ربقة الرق، أمضي لكي أكون قريبة من الحبيب، لكي أكون له دعامة، أمضي لكي أخطف من براثن الموت أبي وأمي!

وملقية على رأسي ازاراً، عجلت في الخروج الى الشارع ومضيت الى المختار. كان هو بانتظاري، فأجلسني على فرس وساقها نحو المدينة...

اعتراني الحنين الى البيت واحتوتني الذكريات بحيث أنني لم أكن ألاحظ الي أين يقودونني، لم أصح لنفسي الا حين توقفت الفرس، ثم ترجل المختار وبنفسه أنزلني عن فرسي.

وأرى أمامنا بوابة عالية، من حولنا الارض مرشوشة بالماء مكنوسة، وممر مسقوف لا أثر فيه لقذاة، نظيف كل النظافة. هرع للقائنا غلام – خادم، تناول من المختار رسن الفرس وولجنا نحن الفناء. عزبة كبيرة ومنيفة. أمام السلاملك مصطبة عالية واسعة، وفي الجهة المقابلة اسطبلات الخيول. على المصطبة فرش السجاد، وفوق السجاد منادر ووسائد محشوة بريش التم.

على الوسائد انجعص رجلان – وقوران أبجران – وكانا يتسامران. أحدهما، الجالس في مكان الصدارة، كان أسود الحاجبين والشار بين، ما أن رآنا حتى قال:

«آه، المختار، أهلا وسهلا، تفضل».

تركني المختار في الأسفل وصعد هو الى المصطبة فتصافح مع أسود الحاجبين وبعد ذلك قال:

«لقد اتيتك بفتاة لا مثيل لها في قريتنا – لا بالعقل ولا بالحسن ولا بالشطارة في أي عمل كان».

«هاك كيف! – ضحك الباي – واذن علام تريد أن تعطيني فتاة كهذه»؟

«انك على معرفة بما يجرى عندنا – أجابه المختار بجدية. – انها بنت وحيدة لابويها، وهما الآن على وشك الموت جوعاً، هذا أمر، أما الامر الاخر فهو ذلك الشاب الذي اشتريته أنت مؤخراً، ابراهيم هذا هو عريسها، والفتاة أتتني بنفسها باكية حين عرفت أنك أشتريته. رق لها قلبي واعطيتها نصيحة عاقداً الأمل على رحمتك. قلت لها، هيا معي، سأقودك الى الباي وسأسأله أن يكون لك ولابراهيم بمثابة الأب، سأسأله أن يجمع بينكما، ولقاء هذا عليكما أن تدعوا له وان تشتغلا عنده ولأجله حتى آخر العمر. أما

الباي فانه سيعطف على والديك وسيعطيهما قمحاً وزيتاً حتى لايقضيان من الجوع. فهاك بأى أمر أتيناك».

مسح الباي لحيته، تفكر قليلا، ثم رفع رأسه وقال لي:

«هل سمعت ما قاله المختار؟ هل أنت موافقة؟»

ولم أقو أنا على الاجابة بشيء، سدت الغصة حنجرتي وانتابتني الرغبة بالبكاء، لكن الباي تابع كلامه:

«اذا كنت موافقة فقولي الآن في حضرة هذين الرجلين الموقرين وسأكتب باسمك ورقة ونضع عليها الأختام. وحسبما تشارطنا سأزوج ابراهيم منك فيما بعد».

حين سمعت اسم حبيبي انتعشت بعض الشيء وقبلت بكل الشروط. فقال الباي أن ثمني، وهو كيس حنطة وجرة سيرج، سوف يعطيه للمختار لكي ينقله ذاك الى والدي.

«اقتدها الى الكرار!» أوعز الباى للمختار.

أخذني المختار من يدي واقتادني الى نهاية الفناء؛ الى الكرار، حيث جلست امرأتان أخريان، مكتئبتان وحزينتان. كلتا المرأتين كانتا من قرية مجاورة؛ كان لطيف باى قد اشتراهما من اقربائهما (فكلاهما كانتا يتيمتين، بلا أب ولا أم)، وهما قد ظهرتا هنا قبلي بيوم واحد. ومنهما عرفت أن ابراهيم مع العبيد الآخرين محبوس في الحجرة المجاورة.

في المساء جاؤونا بالطعام - زبدية شوربة ومقالي، بعض من بقايا مائدة الباي. وكنا نحن الثلاثة جائعات فأكلنا بنهم وحمدنا الرب، وفي الحال غفونا. لم نكن رأينا الطعام الجيد منذ زمن بعيد، حتى أننا نسينا طعم هذه المآكل.

في اليوم التالي حدثت أمور تأنف نفسي أن أرويها عليك لأنني لا أريد لك حتى السماع بأشياء كهذه! أواه، عسى الله الا يقدر لأحد من بني آدم أن يفترق عن أهله أو أن يغادر مرابع وطنه، أما اذا حدث وغادرها فعسى ألا يعرف العبودية أبداً! سابقاً كنت أظن أن العبد والجارية شيء من صنو الخادم والخادمة. كل ما في الأمر هو أن

تعملي في خدمة سيدتك، أن تنفذي كل ما يطلب منك وتأكلي قطعة خبزك - أما فيما عدا ذلك فأنت حرة تفعلين ما تشائين. لكنني سرعان ما أدركت أن من تصير جارية تفقد مع حريتها كرامتها الانسانية أيضاً، آخر وغد بين الاوغاد يسعه أن يرمي الجارية بحجر دون أن تجرؤ هي حتى على التأوه! لافرق بين الجارية والكلبة القاعية عند الباب - كلاهما سيان! الجارية تشترى وتباع، تضرب، تعذب تعصر منها آخر قطرة من قدرتها على العمل، كل قواها وكل كفاءاتها، الجارية يمكن أن تقطع مزقا يمكن أن تقتل... كل شيء يجوز: كل شيء ممكن! لو أراد المالك، بوسعه أن يزوج جاريته من أحد عبيده واذا رزقا بأولاد فان هؤلاء أيضاً يولدون عبيداً كأبويهم. حتى الأحفاد وأحفاد الأحفاد سيصبحون عبيداً، كل النسل سقط لا يمت بصلة الى الجنس البشري.

وهكذا، ففي ذلك اليوم ذاته جاء من المحكمة موظف وقال أننا جميعا مباعون، كتب أسماءنا على ورقة وأعلن أننا الآن جواري لطيف باي، فهو قد اشترانا، وعلينا نحن أن نكون رهن تصرفه الكامل حتى آخر أيام عمرنا، علينا أن نطيعه وننصاع له في كل شيء: ان أراد لنا أن نموت - علينا أن نموت، وان قال: عشن - سوف نعيش.

جاؤوا الى الغرفة التى كنا فيها بمنقل يتوهج الفحم فيه. ثم أتى الينا الباي ذاته وأمر احدانا أن تنزع سروالها. زعقنا نحن الثلاثة جزعاً: ماذا يعني هذا؟ علام يريد أن يهتك أعراضنا بهذا الشكل المشين؟ لكن الباى ضحك وشرح أن ثمة قاعدة متبعة بأن يضع المالك على جسد العبد دمغة، فاذا فكرت الجارية أو فكر العبد بالهرب فانه يمكن دائماً التعرف عليهما بهذه العلامة. بعد هذا التوضيح أوعز الباي للخدم أن يشرعوا بالعمل، وعكف أولئك، دون أن يعيروا بالا لعويلنا ونواحنا، على وضع الدمغة المتوهجة في النار على ظهورنا والياتنا. صديقتاي المسكينتان، شبه الميتين من الخوف حتى بدون هذا، وقعتا مغشيا عليهما

من الألم الذي لا يطاق. أما أنا فأصبت بالغثيان من رائحة اللحم البشري المحترق ورقدت منكمشة على نفسي وبلا وعي تقريباً. ثم بعد برهة من الوقت تناهى الى أسماعنا الصراخ من الحجرة المجاورة - هناك كانوا يدمغون الشبان. واستمر كل هذا الويل حتى الظهيرة. كان الباي يدمغ العبيد والجواري الذين اشتراهم...

بعد أسبوع، وحينما التأمت جراحنا واستعدنا قوانا - فقد كانوا يطعموننا جيداً، ويقدمون لنا مآكل دسمة كافية- أرسلونا الى بخارى البعيدة. نحن النسوة قعدنا فوق الأمتعة المحملة على العربات، والرجال ساروا على أقدامهم بينما أحاط بنا حشم الباي وخدمه راكبين على الجياد. أنا وابراهيم لم نلتق الا في يوم السفر، وحين رآني راح يلومني والدموع تترع عينيه: لماذا قمت بهذه الفعلة الحمقاء- لقد أهلكت نفسك! وأوضحت أنا له لماذا اقدمت على ذلك ثم قلت أن الباي وعد بأن يزوجنا، لكن ابراهيم هز رأسه في عدم ثقة.

ولن أصف لك العذابات التي عانيناها طيلة عشرة أيام في الطريق الى بخارى. لكن الباى لم يتركنا ندخل المدينة. في البداية ساقنا جميعا الى بستانه خلف بوابة قاراكول، وهناك ارتحنا ثلاثه أيام، ثم خلعوا على الجميع، ماعدانا أنا وابراهيم، حللا نظيفة، زينوهم قليلا، واقتادوهم الى مكان ما. فيما بعد عرفنا أنهم اقتيدوا للبيع نزولا عند أوامر الباي.

ومع ذلك ينبغي القول ان الباي، جازاه الله خيراً على ذلك، لم يحنث بوعده وبانقضاء شهر واحد عقد قراني على ابراهيم. أما نحن فقطعنا عهداً بأن نخدمه غير آسفين على قوانا، حتى آخر العمر.

تسألين متى كان هذا؟ في تلك السنة اعتلى عرش بخارى باطر خان، جد الأمير الحالي عبد الاحد.

وصرنا وابراهيم نعمل في بستان الباي معاونين للبستاني. كان هذا عجوزاً طيباً. وكان يشفق علينا فلا

يحملنا أعباء ثقيلة وكان يعلمنا أسرار فنه. ثم أننا كنا على شيء من المعر فة بهذا العمل سابقاً، والآن كنا نفهمه من الاشارة وننفذ كلمايوكله الينا بسرعة، الامر الذي كان يلقى اعجابه. فكان يمدح بنا دائماً في أحاديثه مع الباي.

مرت سنة وحبلت. فسر رنا وابراهيم للأمر مستبشرين بالطفل ولكن قلقنا على مستقبله كان أعظم. كل انسان يتمنى الطفل ويرجوه، وكل طفل عزيز على والديه. لكننا كنا عبدين مهضومي الحقوق وطفلنا كان سيمنى بنفس النصيب. ولهذا عكفت دائبة على القيام بأصعب الأعمال واثقلها، كنت اتسلق الأشجار وأقفز من عل، حتى بلغت مأربي فبدا النزيف وطرحت. ثم تكرر الأمر بعد ذلك مراراً، كنت أحبل وفي كلمرة ينتهي كل شيء بالاجهاض. وبعد ذلك ماعدت ألقح، بلغت الحادية والعشرين من السن وصرت أحن بقوة الى الوليد. كنت سليمة الجسم وقويته، دم على حليب. كما يقال، وكان الجميع يحسدونني على قوتي...

ثم مات البستاني العجوز، وعين الباي ابراهيم في مكانه. أما أنا فكنت صيفاً أعمل في البستان، وفي الشتاء انصرف في غالب الأحيان للخدمة في بيت الباي. لم أكن أرفض القيام بأي عمل. كنت أندف القطن المحلوج لأجل الألحفة والوسائد، كنت اكنس البيت كله، ابتداء من العلية وانتهاء بالأقبية. وكنت أخرج الامتعة من الغرف لتهويتها، انشر تحت الشمس السجاجيد والمنادر والألحفة، انفض عنها الغبار، ألفقها، انظفها وأعود لارتبها من جديد في الغرف. أما عندما كانوا يقيمون فرحاً في مناسبة من المناسبات (وفي تلك الازمان كانوا يحبون اقامة الافراح) فكنت أنا أدور كالنحلة ولا أستقر على حال. لكنني نادراً ما كنت احظى بالاطراء على جهودي، أحيانا كانوا يهدون لى شيئاً ما، أما في الغالب فكنت اسمع التقريع والشتائم بل واتلقى الضربات أيضاً...

كنت أعيش بلا رغبات، منطوية على نفسي لا أولي

اهتماماً لأي شيء في الدنيا. ثم علمت أن أبوى، وفي القريب العاجل بعد سفري الى بخارى، مرضا اما من الشوق الي واما من الجوع وماتا على حين غرة. دفنهما المختار مضطرا لذلك بحكم عمله وألحق بيتنا بالخزينة الأميرية. في العالم كله لم يبق عندي أحد سوى ابراهيم! كانت الهواجس والخواطر المريرة تفتك بنا أحياناً بحيث أن النوم كان يجافينا. فيبدو أن الله يجازينا وهو غاضب علينا الى حد أنه يحرمنا من الولد. لو كان عندي طفل فان أملا ما، أو حلماً أو شيئاً من الغبطة كان سيدفىء قلبينا. بل وان سننا كانت تقتضي بأن يكون عندنا ولد. عن هذا كانت سيداتي وكانت النساء المسنات في بيت الباى، بل والباى نفسه كان يسألني لماذا ليس عندي طفل، أيعقل أنني سأقضي عمري كله هكذا دون أن أضع ولداً؟ ثم أن الجميع كانوا ينصحونني بأن أذهب وأطوف حول حوض «ليساق» ثم أن أمضي من هناك الى سفح «تاكي تيلباك» وأصلي قرب مزار الحاج محمد بران.

وذات يوم قالت لي زوجة الباى الصغرى وكانت مثلي بلا أولاد أننا سنذهب واياها في صباح الغد لزيارة الحاج محمد بران قرب حوض «ليساق» وافقت أنا وبقيت عندها لقضاء الليل. وفي الصباح نهضنا باكرا وبدأنا نستعد للخروج. قالت لي أنه يجب علينا ارتداء الملايات ولكنه ينبغي خلع السراويل، اندهشت أنا للأمر ولكنني فعلت ماقالته.

كانت الدنيا معتمة بعد والشوارع كانت مقفرة. سرنا نحن يعترينا الخوف والتوجس في ترقب شيء غير عادى نحو ضفة حوض «ليساق». هذا الحوض كبير، من حوله تقوم بيوت الحجاج والاعيان وقرب حافته ثمة حجر كبير يأتي اليه الاطفال المعقودو اللسان واللجلاجون والخرسان ويلحسونه... والحوض لهذا يحمل هذا الاسم: ليساق معناها «الملحوس». هناك كثيراً ما تقام الأعياد، سوف أقتادك الى هناك ذات مرة... فالمكان ليس بعيداً جداً:

ما أن تخرجي من «تاكي تيركران» حتى يصير على مرمى حجر...

وهكذا اذن مررنا عبر «تاكي تيركران»، تعدينا الزواريب المقفرة ووصلنا الى حوض «ليساق». كان الماء فيه كثيراً، وحتى في العتمة كان ملاحظاً كيف يجيش هذا الحوض الدموي ويمور... تسألين لماذا دموي؟ أجل، يحكى أن هذا الحوض يطلق مرة في العام صرخة عالية، ينادي على أحدهم، أما ذاك الذي يذكر اسمه وحيثما كان، سواء بقربه أو بعيداً في طرف المدينة الآخر، ما أن يسمع هذا النداء حتى يهرع راكضاً الى الحوض ويرتمي في مائه. ثم بعد يومين ثلاثة يعثر السقاة على الجثمان المنتفخ ويحملون الميت الى أهله... تذكرت أنا هذا فيما كنت واقفة مع زوجة الباي قرب حافة الحوض وسرت الرعشة في جسدي كله. ولكنني أتيت الى هنا بأمل أن استرحم لنفسي طفلا ولهذا ضبطت نفسي وبعد أن ذكرت الله والرسول رحت أدور خلف سيدتي من حول الحوض. أما السيدة، ومع أنها أصغر مني سنا، فلم تكن تخاف بتاتاً وكانت تخطو الى الأمام بجرأة وهي تثرثر وتضحك عاليا.

وطفنا حول الحوض مرة، ثم أخرى وكان كل شيء حولنا في سكون. ولكن ما أن بدأنا الدورة الثالثة حتى انفتح باب أحد البيوت التي على الضفة وخرج منه رجلان، كلاهما طويل القامة وكبير البنية. اندفع أحدهما نحونا منقضا على زوجة الباي وانقض الآخر علي أنا. وأدركت في الحال أن هذين الحاجين داعران - «كبشان»- وأنهما انقضا علينا بنوايا سيئة، يريدان أن يحملانا الى صومعتهما. ولكنني قابلت هذا الفحل بدفعة في صدره جعلته يطير ويقع في الحوض. أما الآخر فكان على وشك أن يحمل زوجة الباي اليه ولكنني ركضت خلفه فأدركته ثم قبضت على تلابيبه وجذبته جذبة جعلته يطلق سيدتي وينطلق خبط عشواء تاركاً في يدي قطعة من ياقته. ثم اطلقنا وسيدتي سيقاننا للريح.

كان جسدي كله يرتعش من الهلع والغيظ، ووجهي

كان يتضرم ناراً، أما زوجة الباي فكانت تضحك. لم احتمل أنا وسألتها: كيف تقوى على الضحك؟ فأجابت: «يضحكني أنك خفت بهذا الشكل؟» في رأيها أنه لامبرر للخوف من هذين الرجلين، فهما حاجان، قديسان، ومن لمساتهما وأنفاسهما لايلحق بالناس سوى النفع. والنساء يدركن مبغاهن. «عسى أن يختنقن بهذه الانفاس!» قلت لها أنا و مضينا الى البيت.

وأفضيت لزوجي بخبر هذا الحادث فأوصاني بألا أذهب الى مثل هذه الأماكن بعد الآن وأشار علي بأنه سيكون خيراً لي أن أرود نبع «آيوب» أثناء عيد الوردة الحمراء فأتوضأ هنا وأدهن نفسي بالطين المقدس، عملت بنصيحته ولم تمض ثلاثة أشهر الا وحبلت بجنين. صرت الان أحرص عليه وأدارى نفسي بل ورعاني الزوج أيضاً فمنعني عن رفع الأشياء الثقيلة ومثله أشفقت علي السيدات.

وأقول لك أنني بمرور تسعة أشهر وتسعة أيام وتسع ساعات بالتمام والكمال انجبت طفلة وأسميتها صفيه. كانت ولادتها سعادة كبيرة لي ولزوجي، لكن الحزن ظل معشعشاً في حنايا القلب. كنا حزينين لأن صفيتنا الغالية والعزيزة والحبيبة ولدت عبدة. تسعة أشهر حملتها تحت قلبي، وضعتها بالعذاب والألم لترى دنيا الله. وها أنا أطعمها من حليبي وأكد لكي أربيها وأنشأها ومع أنها من صلبي ليست لي، انها عبدة للطيف باي، انها ملك له ورهن ارادته يفعل بها كل مايشاء.

حياة الانسان عرضة لكل المخاطر. فهو يمكن أن يمرض، أن يحترق في الحمى أن يجوع، يمكن أن يقع في حبائل الأعداء... ثم هل هو قليل ما يمكن أن يلم بساحته من مصائب أخرى ومحن غير متوقعة... كل شيء يمكن أن يصيبه، ولكن المصائب كلها عابرة، تأتي وتروح، ضد كل داء ثمة دواء، ومن كل وضع مهما ضاق ثمة مخرج، أما العبودية فما من ترياق ضدها، ليس منها خلاص. والعبودية

لو وقعت من نصيب أحد، فهي عذاب لا نهاية له وهي ليل دلهم لن يطلع فجره. فعسى أن لايكتب الله لأحد أن يكون عبداً أوجارية؛ أن يعيش عمره بلا أمل ولا رغبات!

هكذا كنا نفكر آنذاك ونتكلم. ثم حين جاء الروس فأطبقوا على تلابيب الأمير ذاته، واستلبوا منه مدنه الزاهرة واحدة تلو الاخرى، ساعتها انفتحت عيناه وادرك أنه لايجوز تعذيب عباد الله، أنه لايجوز للمرء أن يكون قاسياً، وأنه لا يجوز لانسان أن يستعبد انسانا آخر. فهم أن نائبات عظيمة يمكن أن تحل عليه فيما لو استمرت تجارة الرقيق.. فحظرها. وفي اللية الدهماء، انبلج بالنسبة للعبيد ضياء الفجر، وراودهم الأمل في أن أولادهم سيعيشون أحراراً...*

ولكن صفيتي ولدت وترعرعت في ظل العبودية. وهي لم تكن حسناء لكنها كانت طفلة لطيفة وحلوة. فعندما صارت تمشي على قدميها أحبها كل من عاش في بيت الباي. بل حتى الباي الذي كبر أولاده منذ أمد بعيد ولم يكن عنده احفاد بعد، كان كثيراً ما يداعب صغيرتي صفية. أما أنا وزوجي فكان السرور يترع قلبينا ومع ذلك لا نشبع سروراً بنجلتنا الحبيبة.

في الصيف كان بستان الباي يعج بالناس. وبصفة خاصة كان يتردد الى هنا أولاده. فقد كان لدى الباي من زوجته الأولى ابنان وبنت. في ذلك الوقت، حينما شبت صفيتي وكبرت كان الباي قد زوج ابنه الكبير وبنته أيضاً وبقي ابنه الأصغر مهدي أعزب. ومهدي هذا كان شاباً وقحاً، متهتكاً وسكيراً. كنت أخشاه، وفي الصيف عندما كانت أسرة الباي تنتقل الى البستان كنت دائماً أقلق على صفية وانبهها بألا تقع على عين مهدي. بل وكنت أسعى لارسالها

---

* هكذا ظنت العجوز ديلارام. أما في واقع الأمر فان أمير بخارى أغلق سوق الرقيق سنة ١٨٦٨ مرغماً بأمر من القيصر الروسي الكسندر الثاني. **(المؤلف)**.

الى المدينة، الى خدمة زوجات الباي حتى تكون في منأى عن عديم الضمير مهدي هذا. فقد كنت أعلم أنه يبحلق فيها بعيون حمراء واشتبه في نواياه مفترضة فيها السوء.

وذات مرة، حينما سنحت لي فرصة مناسبة لم أتوان عن كشف مخاوفي للباي العجوز. قلت له: «أنت تعرف أنني كنت ابنة رجل حر، وكنت مثل الجميع احلم بالسعادة ولكن القدر ضن علي بها — هذه كانت قسمتي وهذا بلائي — لقد صرت الجارية ديلارام — كنيز. وابنتي الوحيدة عبدة لك أيضاً منذ ولادتها وهي تعمل في خدمتك منذ قامت على قدميها. ولا بأس، فنحن لانخاف العمل، ولكننا مع ذلك نبقى بشراً. وأنا أخاف على ابنتي، أخاف أن يلحق بها العار. مهدي ابنكم يلاحقها ويماحكها، انه يضمر لها السوء. واذا، لا سمح الله، حدث لها شيء، فانها ستفقد عقلها، ولن احتمل أنا أيضاً.

أطرق الباي مفكراً وهرش لحيته ثم قال: «أنت، يا ديلارام — كنيز، حملت لي السعادة. منذ دخلت بيتي تضاعفت ثرواتي وتمتن وضعي. حرام علي ألا أقدر وفاءك. فلا تقلقي على بنيتك. مهدي لن يمسها بسوء. سوف اكلمه بنفسي».

وبالطبع اطمأن بالي قليلا بعد هذا الحديث، لكنني مع ذلك لم آمن جانب مهدي فكنت أبعد ابنتي عن عينيه ولا أتركها بمفردها أبداً.

بلغت صفية الخامسة عشرة، وكان عز الوقت لتزويجها غير أن أحداً لم يتقدم لخطبتها، ذلك أنها كانت جارية. فهل بين الأحرار من يرتضي لنفسه الزواج بجارية مقدر على أولادها أيضاً أن يكونوا عبيداً؟ ثم أنه وكأنما نكاية، لم يكن في بيت الباي عبد واحد نستطيع أن نزوج منه صفيتنا. فالباي كان قد زوج كل عبيده من جاريات لكي يطوب نسلهم على اسمه، كان علينا أن ننتظر ريثما يظهر في بيت الباي عريس مناسب، وها نحن قد انتظرنا.

في ذلك الصيف وعلى غير انتظار مات الباي العجوز

عن عمر يناهز التسعين. أسرته كانت آنذاك تعيش في البستان وكنت أنا بخدمتها. حين بلغنا خبر موت الباى سافر الكل الى المدينة، ولم يبق في البستان أحد الا صفية وأبيها. لم أكن أنا أحس بأي قلق عليها فهي كانت مع أبيها، ثم هل كان من المعقول أن يقدم مهدي على ارتكاب اثم في يوم وفاة والده؟ هكذا فكرت أنا لانني اعتبرت ابن الباي، رغم كل عيوبه، انساناً، ولكنني أخطأت. الثروة تفسد البشر، تحرمهم من انسانيتهم، تسلب منهم ضمائرهم، تجعلهم قساة بلا رحمة. ذلك هو السبب في أنني لا أشكو من الفقر أبداً. وكما يقال «مع أنه ليس في اليد الا نصف رغيف، لكن القلب، على هذا، مطمئن». ان الانسانية أغلى علي من كل كنوز الدنيا، الروح الانسانية كنز لا يفنى أما الثروة فاليوم معك وغداً قد تضيع. بوسعك أن تبيع كل شيء، حتى ثيابك، ولكن أبق على انسانيتك! كن شريفاً، وتجنب العار في هذه الدنيا وفي تلك!

في ذلك اليوم تدفقت على بيت الباي أعداد عديدة من الناس. امتلأ بهم الفناء وامتلأ الحرملك. لكن الهم الاكبر في أيام مثل هذه المحافل يقع علينا نحن – الخدم والشغيلة. لا دقيقة عندنا للراحة ولا حتى لحظة نحك فيها رؤوسنا. وهنا أرسل مهدي ابن الباي الى زوجي خادماً يأمره بأن يجمع على وجه السرعة سلة دراقن وتفاح وأن يحملها بنفسه الى البيت في المدينة. وزوجي كان رجلا نزيهاً ولكنه كان ساذجاً بعض الشيء، فلم يظن بابن الباي أي سوء، ولم يفترض فيه المكر، بل وسر أيضاً لأنه سوف يحضر جنازة الباي وسيكون بوسعه أن يسند واحدة من أيدي النعش الذي سيحمل عليه جسده. وكيف لا، فالباي كان سيده، وقد أحسن اليه ذات يوم اذ زوجه من ديلارام، وجعل منه بستانياً في بستانه. ومفكراً بهذا حمل الزوج سلة التفاح والدراقن على حمار ويمم وجهه شطر المدينة. أما مهدي، فما أن مضى الزوج، حتى دخل هو الى البستان،

فأوصد البوابة، ثم، مدنساً ذكرى أبيه في يوم موته، تسلل خلسة الى الغرفة حيث كانت صفية جالسة تخيط. حين رأته هبت صفية على قدميها، أرادت أن تهرب ولكنها أخفقت ووقعت في يديه القذرتين...

حينما عاد الزوج بعد الجنازة الى البيت رأى صفية مربوطة اليدين خلف ظهرها، دامية الساقين، مشعوثة الشعر، منزوية في ركن الغرفة. لم تعرف البنت أباها. صارت تصيح: «لا تلمسني، لا تلمسني يا نذل» وتدفعه عنها. أرسل ابراهيم خلفي كي أتي على وجه السرعة. اسودت الدنيا في عيني، وخارت قواي فلم أقو على السير. اجلسوني على حمار وساقوه الى البستان.

وأدخل البيت وأرى: بنيتي منكمشة في الركن، تحدق فيما حولها بوحشية، كلها ترتعش وعيناها جاحظتان، رأتني فهرعت الي، ارتمت في أحضاني وانخرطت في البكاء. رحت أفك لها يديها باكية، ثم غسلتها، خلعت عليها ملابس جديدة، أطعمتها، هدهدتها وبعد ذلك سألتها كيف جرى الأمر. اشارت هي الى الباب في هلع، ذكرت اسم مهدي، هبت واقفة، ثم جرت هاربة الى البستان، وفي الظلمة توارت بين الأنجم. رحنا نبحث عنها مع فانوس، بالكاد عثرنا عليها ولم نطرح عليها المزيد من الاسئلة، لكننا بصعوبة هدأنا من روعها وأرقدناها للنوم، أما نحن فقضينا الليل كله دون أن يغمض لنا جفن.

كنت أبكي – وهل تبقى لي شيء أخر سوى البكاء؟– أما الزوج فكان يصر على اسنانه استياء وغيظاً ويفكر بالثأر. فيما بعد اقتدت بنيتي الى بيت الحاج أوباني لكي يقرأ عليها ويعالجها لكن ذلك لم يجد نفعاً. كانت صفية تخاف الناس ولا تتكلم مع أحد، كانت مستوحشة. وكان يحدث أن تحدق في نقطة واحدة، تقف وتصمت، أو يحدث أن تنخرط باكية على حين غرة، تنخلع من مكانها، تجرى الى البستان وتتوارى بين الانجم أو أشجار الرمان. لم يعرف أحد سر الأمر، وسرت الاشاعات بأن الجن قد سكنت

في ابنتنا، بل وأرادوا أن يأخذوها الى دار المجانين. لكنني اهتجت كاللبوة، وصرخت على زوجة الباى الكبرى التي اقترحت ذلك، قلت لها، كفانا ما نالنا، اتركوا ابنتي، لا تمسوها بعد الآن! ولست أعرف السبب، لكنهم تركوها. أشاع الخدم أن مهدي هو الذي أمر أمه بألا تمسنا.

وبعد التأبين الذي أقيم بمرور أربعين يوماً على وفاة الباي، ظهر مهدي في البستان من جديد. حتى منتصف الليل جلس هو مع ضيوفه يعاقر الخمرة على المصطبة قرب حوض الماء. وكنت أنا أحضر لهم الضيافة، المقالي والبلوف، فتعبت حتى الانهاك وفي الليل المتأخر سقطت من الاعياء وغفوت حالا. نهضت في الصباح باكراً، وأسمع - من البستان يترامى الصياح، وأرى - الزوج جالساً في الفراش، لا ينام ولكنه لا يمضي الى البستان.

- ماذا حدث، يا أب؟- سألته أنا فما أجاب.

استغربت الأمر ثم عصف بي هلع مفاجيء. خرجت الى البستان سريعاً واذا بي أرى مهدي الذي جلس هناك حتى آخر الليل معربداً، يسجو الآن فوق اللحاف ميتاً. أخوه وكنته يصيحان، أصدقاؤه وخلانه يولولون وليس بينهم من يعرف السبب في أن المنية وافته بهذا الشكل المفاجيء. أنا وحدي فهمت سر الأمر، لكنني لم انبس ببنت شفة، لم أقل لأحد...

انقضى عام على هذه الحادثة ومات زوجي قبل شفاء ابنته. دفنه ابن الباي الأكبر الذي شب على يديه بكل تكريم. وأوكل الي أمور البستان كي أعتني به ريثما يعثر على بستاني جيد.

في مساعدتي عمل في البستان عبدان آخران وثلاثة أيتام من الاقنان. مر عام وعثروا على بستاني جديد. جاء من بايسون مع زوجته. وكانا عديمي الضنو فأحبا صفيتي كأنها ابنتهما، وبذلا قصارى جهديهما في أمر معالجتها. والارجح أن عطفهما ورعايتهما قد أفاداها، فبدا وكأنها

استيقظت بعد سبات، لكنها ظلت على عهدها تنفر من الناس لاتبتسم أبداً. أحد الاطباء قال للبستاني العجوز أنها يمكن أن تبرأ اذا تزوجت وكانت معاملة الزوج لها حسنة. أما لو وضعت طفلا فان ذلك كفيل بأن يبدد كل توحشها وكمدها، ستشفى تماماً وتأنس للحياة والناس من جديد. لا يوجد لشفائها وسيلة أخرى، والا فانها قد تبقى مهووسة حتى آخر أيام عمرها.

ولكن من سيرضى الزواج من جارية، بل وجارية موصومة بالعار أيضاً؟ لم يكن لدينا ما نداوي به آلامنا، لم يكن عندنا أمل بالسعادة.

على هذا المنوال تصرمت خمس سنوات. شخت أنا ومثل برعم لما يتفتح بدأت بنيتي تذوي. في العشرين من عمرها كانت تبدو وكأنها في الثلاثين. المرض والعذاب يشيخان الانسان بصفة عامة، أما العذاب الروحي فهو أسرع وأشد بلاء. كنت افكر وأخمن، علّي أهتدي الى ما أفعله، ولم افطن الى شيء. غير أنني صرت أسعى أكثر من ذي قبل الى تخفيف آلام الآخرين، لم أكن اتخطى مسكيناً أو فقيراً الا وأعطيه حسنة، كنت أحاول مساعدة كل بائس أو مريض أو امرء ضعيف؛ كنت اشفق على الجميع.

وهكذا ذات مرة، وفيما كنت أعبر الساحة بجوار المسجد، رأيت على الارض شاباً يفترش الثرى وكان مريضاً يئن ويبكي. قيل لي أن هذا عبد معتوق من عبيد قاراكولي باي وانه يتيم وغريب. أخذت بي الشفقة عليه فطرحته على عربة واتيت به الى البستان حيث وضعته على الفراش في بيتي، ضمدت جراحه، أطعمته وسريت عنها قائلة أنه لم يعد وحيداً على الارض، أنه لم يعد بلا مأوى.

في الليل روى لي الشاب، وكان اسمه استد، قصته وهو يبكي. وهدأت أنا من خاطره قائلة أن مصيري كان أرهب، ولكنني لم استسلم، بل تحملت وكافحت حتى اقترنت بابراهيمي، والآن ليس عندي الا صفيتي انها بهجتي الوحيدة وأملي. «أما أنت، — قلت له أنا، — فان الحياة كلها

ما زالت امامك، أنت شاب، وان شاء الله سوف تعيش لترى أياماً سعيدة، سوف تبلغ سعادتك...»

مرت عدة أيام وتحسنت حالة استد، لكنه ظل عاجزاً عن المشي. ثم هاهو الله يأتي بمعجزة: على غير انتظار تعلقت صفيتي بهذا الرجل الغريب. أثناء غيابي عن البيت لم تكن تبتعد عن فراشه، كانت تدهن له جراحه بالمراهم الشافية، تبدل له الضمادات، تطبخ له العصيدة وتطعمه، بل وكانت تتحدث معه. خلال شهر نهض استد من الفراش معافياً تماماً وبأذن من البستاني طفق يشتغل في البستان. وانظر الى صفيتي فأراها وقد اينعت تماماً، انتعشت، بدأت تضحك بل وباتت تدندن بالأغاني أيضاً.

وذات مساء قالت لي زوجة البستاني أن صفية، على مايبدو، قد أحبت استد. وقال لي البستاني ذات الشيء. أينع في صدري الأمل وسألت صفية ان كانت تريد الزواج من استد. أطرقت البنت حياء، تضرج وجهها خفرا ثم ابتسمت ولم تجب بشيء. من جهة أخرى وجه البستاني العجوز الى استد نفس السؤال. أعرب استد عن موافقته وعلى وجه السرعة حضرنا كل شيء للعرس وأقمنا فرحاً صغيراً. وأخيراً تحقق بعون الله ما كنت احلم به، لقد عشت وشفت عرس ابنتي...

وهكذا، يا عزيزتي فيروزة،- اختتمت العجوز ديلارام قصتها،- صفية هي أمك، واستد أبوك. لقد عاشا معاً ثمانية عشر عاماً، قبلك كان عندهما أولاد آخرون، بيد أنهم ماتوا جميعاً وهم صغار بعد. وأخيراً خرجت أنت الى النور. لكنه لم يمض شهر واحد على ولادتك، الا وماتت أمك. ولم يعش أبوك بعدها طويلا، أسلم الروح وبقيت أنت اليتيمة حتيتة صغيرة على يدي. اشتريت بآخر ماكان لدي من نقود عنزة مرضعة وصرت اطعمك من حليبها. وها أنا قد أطعمتك وانشأتك فصرت لي اليوم معينة في البيت وعمادا في الحياة. الآن لا أرغب الا بشيء واحد، هو أن أراك مستقرة سعيدة، حسبي أن أنعم برؤية سعادتك وبعد

ذلك يمكن أن أسلم الروح لخالقها. بعد هذا يمكنني أن أموت مطمئنة البال، وأكثر من هذا لا أريد شيئاً...

مصغية الى هذه القصة الحزينة لم تقو فيروزة على كبح دموعها، كانت تبكي مترحمة على أبويها الراحلين اللذين لم يقدر لها أن تعرفهما.

— لا تبكي، يا حملي الوديع!— قالت لها ديلارام،— عسى أن يمنحك الله الصحة وطول البقاء!

— جدتي!— سألت فيروزة وقد هدأت بعض الشيء.— ولماذا انتقلنا من البستان الى هنا؟ انك لم تحكي لي عن ذلك.

— أه، أجل، صحيح من كثرة العقل ضاع العقل، أفرط في الكلام ولكنني أغفل عن الهام، تباً لهذا الرأس... القضية في أن ابن لطيف باي قد أفلس، واجهه عسر من نوع ما في العمليات التجارية ولم يستطع الخروج من المأزق. ثم اضطر الى أن يبيع البستان لوالد غني جان هذا بعينه، لذلك الباي قاراكولي الذي اشترى أباك في وقت مرضه ثم عتقه. قاراكولي باي هذا أسكن في البستان بستانياً جديداً، رجلا شريراً وشرس الطباع. لم نستطع معاشرته، لم نتواءم. انذاك كان لك من العمر ثلاث سنين. وبت أنا أتضرع الى قاراكولي باي، الذي أمسى الآن مالك أمري، أن يعفيني من العمل في البستان،— قلت له: لقد صرت عجوزاً وما عاد بمقدوري النهوض بشؤون البستان. كان هذا يناسب الباي لأن البستاني الجديد كان يرغب بأن يعيد تنظيم كل شيء على ذوقه. وهكذا نقلنا قاراكولي باي الى المدينة وأذن لنا بالعيش هنا...

قرع أحدهم البوابة ونظرت فيروزة الى جدتها مستفهمة، فقالت لها تلك مطمئنة:

— لاتخافي، يا حملي الوديع. اذهبي واسألي من هناك. هذا على الأرجح، احمدجان السقاء جاء يزورنا.

وخرجت فيروزة من الغرفة. الهلال الطالع كان لايكاد ينير الفناء. من كل النواحي تناهى الى هنا صياح الديكة.

الحر خفت حدته، وهب نسيم عليل ورطيب يحمل معه عبق الاعشاب البرية. تنهدت فيروزة واقتربت من البوابة.

– من هنا؟

وبالفعل كان هذا احمد السقاء. دخل الى الفناء فأوصد خلفه البوابة ثم سأل فيروزة:

– كيف هي جدتك؟ عرقت؟

– الحمد لله، حالتها أحسن قليلا.

تنهد السقاء بارتياح وبصحبة فيروزة دخل الى الغرفة. كانت العجوز ديلارام جالسة في فراشها تحتسي الشاي. دنا احمد منها وفي مقربة جلس على بساط ورفع يديه بالدعاء، ثم بعد أن فرغ منه أمعن النظر في وجه العجوز وقال:

– ها أنت والحمد لله قد عرقت. والحرارة انخفضت على الأرجح؟

– الحمد لله، لقد عرقت، والحرارة انخفضت بالمرة.– اجابته العجوز ثم ناولت الكوب لفيروزة وسألت:– لماذاً تأخرت هكذا؟ هل عوقك أحد ما؟

ولم يرد السقاء فوراً. مد يده الى عبه وأخرج من تحت روبه المقلم المرقع صرة صغيرة وحلها – هناك كان رغيف خبز وقليل من البلوف بالزبيب.

– اليوم مساء في بيت غني جان – بايباتشا أقيمت عزيمة للاقرباء بمناسبة العرس المرتقب. حملت أنا الى هناك الماء وكنت على وشك أن انصرف حين نادوا علي...– تناول السقاء من فيروزة كوب الشاى وتابع:– لقد عثروا على جثة أم سوسن... في المقبرة، على تلة بيكر أباد، القتلة ضربوها بشيء ثقيل على قذالها وبعد ذلك حملوها الى المقبرة.

انفتحت عينا العجوز على سعتهما لدى سماع هذا الخبر. وتأوهت:

– أواه، رحماك، يارب! في طريق من كانت عثرة هذه المرأة المسكينة البائسة!

– من يدري؟– تفوه أحمد ثم صمت برهة وأضاف:– في الأونة الأخيرة صارت ترفع عقيرتها بشكل بالغ.

– يقولون أنها قدمت شكوى على غني‌جان–بايباتشا. طلبت أن يعثروا على ابنتها سوسن، هل هذا صحيح؟

– صحيح، قدمت شكوى،– قال السقاء،– وهاهي قد تلقت الرد على شكواها – لحقت بابنتها.

– كيف، بابنتها؟– نبرت فيروزة.– أما أخرجت المسكينة سوسن ميتة من حوض الماء منذ شهر مضى؟

– أجل،– أكد السقاء.– واليوم مساء دفنا الأم أيضاً، في نفس المقبرة قرب ابنتها، وصلينا على روح الاثنتين.. اللهم أجرنا، فحينما أخرجنا المرحومة من المسجد واتجهنا نحو المقبرة، من بيت الباي كانت تتعالى دقات المزاهر القوية وصخب العربدة...

– موت هذه المرأة البائسة عيد بالنسبة لغني‌جان–بايباتشا!– قالت العجوز،– ولكن ماذا يقول الناس؟ بماذا يفكر القواد والرؤساء؟ هل بحثوا عن القاتل؟

– قرصوك أنت. فما همي أنا؟– قال السقاء.– كل مافعلوه هو أنهم عثروا على الجثة، سلموها للمختار حتى بدون كفن، بما كانت فيه، ثم داروا على أعقابهم وذهبوا الى الفرح. ومن يدرى، فلعل القتلة ذاتهم جالسون هناك الآن يشربون ويأكلون...

– رحم الله الأم المسكينة!

– آمين!– استجاب السقاء وأضاف:– يقولون: لا تلعب بذيل الأسد، لا تلعب بحد السكين. وهذا صحيح. فمن كانت أم سوسن حتى تنازل غني‌جان – بايباتشا؟! كان خيراً لها لو أذعنت لقدرها وعادت حية الى قاراكول.

– الأم لا يمكنها أن تذعن، ياعزيزى أحمد! – احتجت

العجوز – الأم حرية أن تمضي الى الموت بنفسها من أجل أن تصون وليدها وتحميه. الأم لن تخاف لا الأسد ولا حد السكين، ولطالما هي حية سوف تلهج باسم طفلها وتذود عنه.

هز أحمد رأسه ولم يجب بشيء.

أما فيروزة فأطلقت زفرة حرة وسألت:

– انه حوض الماء الذي نادى سوسن واغرقها، أليس كذلك؟

– بلى، – اجابت العجوز، – عندنا الآن حتى أحواض الماء صارت سفاكة دماء مثل البشر! رباه، ادفع عنا هذه الشرور.

وبصقت العجوز من فوق كتفها اليسرى ثم شدت شحمتي أذنها وأذن فيروزة.

أما السقاء الذي كان على معرفة جيدة بقصة سوسن فاثر الصمت ولم يفه بكلمة.

منذ نعومة أظفاره لم يهتم الا بعمله – كان يحمل الماء الى البيوت. وكان يعرف كل العائلات في تلك الأحياء التي يخدمها، لكنه لم يكن يتدخل أبداً في شؤون الناس. لم يفتح فمه، في اليوم مرتين كان يحمل الماء في قربته الى كل بيت، فيحصل على خبز يومه ويعود في المساء الى بيته وزوجته العجوز ثم يرقد للنوم. لم يرزق بأولاد، ولهذا أحب فيروزة حباً أبوياً. وكان دائماً يحمل اليها شيئاً من الأطايب التي يقدمها له الناس. وهو الآن لم يقدم على سرد قصة سوسن المفجعة لانه لم يشأ للفتاة الحبيبة أن تعرف تلك المآسي التي حفلت بها حياة بخارى آنذاك. أما للعجوز ديلارام فكان قد حكى عن كل شيء سابقاً.

٤

قاراكول، وهي واحدة من مناطق، أو لنقل أقضية، بخارى – كانت في تبعية مباشرة للادارة البخارية. هنا في القضاء ذاته كان يوجد قاضي ومأمور ضرائب وناظر بازار

(رئيس) وقائد شرطة (ميرشاب). القاضي كان ينظر ويبت في كل قضايا الشرع وشكاوى السكان؛ في كل الدعاوى والخلافات. وكان مأمور الضرائب يحصل الأتاوات من الشعب ويخضع لاوامر القاضي. أما ناظر البازار فكان يساعد القاضي في النظر بالقضايا المرتبطة بالشريعة وأصولها ويشرف على سير التجارة في السوق. والميرشاب (قائد الشرطة) كان مسؤولا على الهدوء والأمن في القضاء.

قاراكول – بلدة غير كبيرة يقطن فيها خمس أوست الاف عائلة من السكان وفيها صفوف تجارية، خان للقوافل ومسجد قديم. في وسط المدينة يجري نهر زرفشان لكنه في الصيف لم يكن يزخر الا بالرمال. هذا النهر كان غزيراً وافر المياه ما دام يجري عبر سمرقند و ميان قلعة وغيجدوان ويروي هذه المدن حتى الشبع، ثم ما أن يبلغ قاراكول وبخارى حتى يشح ولا يبقى في قاعه الا ثفلا من الماء لا يلبث أن يجف. في قاراكول احترقت بسبب الجفاف الحقول، هلكت قرى بأكملها وطغت الرمال على كل شيء، أما مياه الشرب فكان الناس يستخرجونها من الآبار، ولم يكن ثمة فواكه الا تلك التي تحمل الى البازار من فاراب وتشارجو وشافركان وزيندانى.

تربية المواشي كانت العمل الرئيسي لسكان قاراكول وكانت تعود بمداخيل كبيرة على البايات الأثرياء أصحاب قطعان الغنم، والى هنا يعود بنسبه ذلك الخروف الذي يشتهر فروه – القاراكول* – في العالم كله والذي يساوى ثقله ذهبا.

في أيام الجمعة كانت تقام هنا البازارات.

كانت بازارات قاراكول معروفة في المنطقة كلها، وبصفة خاصة اشتهر سوق الأسماك. السمك كان يحمله السماكون الى هنا من نهر آمو داريا (جيحون) فقد كان في قاراكول طباخون اشتهروا في بخارى كلها بمهارتهم في قلي

---

* فرو القاراكول هو فرو أستراخان.

الأسماك بدون حسك - بحيث لو وضعت قطعة على رغيف خبز كان بوسعك أن تأكلها ببال مطمئن وكأنك تأكل قطعة لحم. فلعل السمك نفسه كان بلا حسك، او لعل الطهاة هم الذين يحضرونه بهذه الحذاقة - لست أدري - فقد يكون السر في هذا وفي ذاك.

...والد البائسة سوسن كان طباخاً، كان يجيد قلي السمك ويبرع في ذلك. في يوم البازار كان يبيع الأسماك مشوية ومقلية وكان يعيش، كما يقال، مثل الملوك. كان اسمه حيدرقول - طباخ السمك، وفي البازار كله لم يكن ثمة معلم آخر يضاهيه في فنه. بالتدريج شاعت شهرته حتى خرجت عن حدود قاراكول. بل ان قاراكولي باي ذاته الذي يعود بأصله الى هذه المدينة، كان كلما زار مسقط رأسه، يعرج حتماً على دكان حيدرقول كي يتلذذ بأكل السمك المقلي.

وذات مرة أرسل الباى خادمه خلف حيدرقول فأغراه بالسفر الى بخارى وجعل منه طباخاً خاصاً في بيته. منذ ذلك الحين تهافتت على أسرة حيدرقول المصاعب والمصائب. فالزوجة والابنة الوحيدة لم ترغبا بالانتقال الى بخارى والعمل خادمتين عند الباي، بقيتا في قاراكول في بيتهما الصغير، وبالكاد كانتا تحصلان العيش بما يقع لهما من عمل مصادف. أما الطباخ المسكين فكان يزورهما مرة كل أربعة أوخمسة شهور، بل وحتى انذاك لم يكن يأتي وحيداً، بل مع ماكله، وبعد أن يلاقي زوجته وابنته كان يودعهما ليفترق معهما من جديد. وذلك الذى كان يأتيهما به بالكاد كان يكفيهما لشهر واحد. عبثاً جاهد حيدرقول محاولا الخلاص من براثن الباي والعودة الى أهله وعمله السابق - لم يستطع الى الانعتاق سبيلا مهما حاول - والباي هدده بأن يكدر عيشه ويهلكه ان أقدم على الرحيل بدون اذن. وذات مرة عرض المالك على طباخه ورقة ما وقال أن ذاك مدين له بألف تانغا وهو ملزم اما بالدفع عداً ونقداً واما بالعمل مقابل دينه. قال حيدر قول

أنه ليس مدينا للباي، وأن كل هذا زور وتلفيق. لكن الباي ضحك وحسب: ليذهب ويقل هذا للحيطان، فمن غيرها سيصدق كلامه؟ في يدي الباي مستند مكتوب في دائرة العدل، ممهور بتوقيع شاهدين ومصدق بخاتم القاضي. ولطالما ثمة مستند كهذا، لاجدوى من الجدال معه!

ثم مات قاراكولي باى وانتقلت ثرواته بالوراثة الى ابنه غني‌جان- بايباتشا. واليه توجه حيدر قول برجاء أن يخلي سبيله، قائلا أن الباي الراحل لم يضمه الى حشمه الا موقتاً وأن الحاجة الى طباخ أسماك الآن، بعد وفاة الباي، ما عادت قائمة، وعليه فحبذا لو يتركه ابن الباي كي يعود الى بيته في قاراكول، وهو لن ينسى معروفه وسيصلي الى الله من أجله دائماً وأبداً.

وسأله غني جان، من بقي من ذويه في قاراكول، فأجاب حيدرقول: زوجي وابنتي. واقترح عليه غني‌جان أن يأتي بهما الى بخارى، لكن الطباخ لم يوافق وقال أن ابنته قد كبرت وأنه يوجد عندها عريس، وقد حان الوقت للأب كي يعود الى البيت ليعمل ويجمع بعض المال حتى يزف ابنته الى بيت الزوجية بشكل لائق. فقال الباي الشاب أنه قبل أن يقيم تأبينا لأبيه في الذكرى السنوية الأولى لوفاته، وقبل أن يرتب أموره بالشكل اللازم لن يكون بوسعه أن يترك حيدرقول. لكن الطباخ ألح، وآنذاك أخرج غني‌جان ذلك «المستند» البايوي اياه وأعلن أنه لا يستطيع أن يترك لأموال أبيه أن تضيع أدراج الرياح. ثم أنه – هو ابن الباي –سوف يبرهن أنه خلف صالح لأبيه. واذا تجرأ حيدرقول على شق عصا الطاعة والخروج عن ارادة الباي، فلا يلومن في العواقب الا نفسه.

ولكن حيدرقول ما عاد قادراً على الصبر. فهو كان يحب زوجته وبنته ومن قاراكول كانت تبلغه أنباء سيئة. هناك جفاف والناس كانوا جوعى... فكيف تعيشان هناك، زوجته وابنته؟.. وهكذا في ذات ليلة خرج حيدرقول من بيت الباى ويمم وجهه شطر قاراكول سيراً على قدميه. لكنه لم

يصل الى مرابع وطنه، أما ماذا حل به، وماذا صار من أمره وهل هو حي ام ميت، — فلم يك ثمة من يعرف. ولم تعرف ذلك زوجته وابنته أيضاً.

لكن شخصاً آخر وصل، في القريب العاجل الى قاراكول — وصل غني‌جان—بايباتشا ذاته، فهنا كانت عنده قطعان غنم كبيرة. في المساء ذهب لزيارة القاضي فجلس في السلاملك مع مأمور الضرائب وناظر البازار حيث تعشى معهما وتسامر. وكان قد حمل لهم من بخارى هدايا لا تعد، قيل أنه أتى بصندوق كامل من الحرير.

أما في الصباح — وكما يقول المثل الشعبي، «مادمت قد أكلت التفاحة — ادفع»، — فأخرج ابن الباي «مستنداته» فقدمها للقاضي وطلب تسليم المدينين والفارين. بدأ الحراس في القبض عليهم وجرهم الى القاضي ومع الآخرين ألقوا القبض على سوسن وأمها.

في ذلك الوقت كانت سوسن صبية في السادسة عشرة ناضجة ومليحة، عيناها لوزيتان كبيرتان سوداوان، رموشها طويلة كثة، حاجباها هلالان مقفولان ووجهها اسمر جميل، صوتها كان ناعماً وقدها أهيف رقيق. أما أمها فكانت امرأة طويلة القامة ونحيفة، بدت منهكة مستنفدة، فقد قال العوز والفاقة في السنوات الاخيرة كلمتهما.

كانتا لا تعرفان لأي سبب استدعوهما الى القاضي وكانتا ترتعشان رهبة جالستين على حصير تحت نافذتي دائرة القضاء. كلا النافذتين كانتا مشرعتين وعند احداهما جلس القاضي وعند الأخرى غني‌جان—بايباتشا. سوسن وأمها كانتا لاتعرفان غني‌جان بالوجه فلم تولياه اهتماماً: وجلستا متلفحتين بروبيهما منتظرتين ما سيقوله القاضي.

ثم أعلن الحارس الذي اقتادهما الى هنا:

— هذه زوجة وبنت حيدر قول الهارب.

— أنت هي بيبي رابعة، زوجة طباخ الأسماك حيدرقول؟ — سأل القاضي متملياً ورقة كانت أمامه.

وأجابت بيبي رابعة: نعم، أنا زوجة الطباخ حيدر قول.
تطلع القاضي الى سوسن وسأل:
– وهذه ابنتك سوسن؟
وعلى هذا أجابت المرأة: نعم هذه ابنتي. وأنذاك رفع القاضي عقيرته محتدماً.
– أين خبأت زوجك؟
– زوجي لا يختبىء، انه في بخارى، في بيت قاراكولي باي، يخدم طباخاً، يقلي الأسماك.
– أنت تكذبين، يا امرأة،– قال القاضي بصراحة.– قاراكولي باي الآن في الجنة، وهنا أمامك جالس وريثه، لقد أبرز مستنداً ينص على أن زوجك حيدرقول كان قد استدان من أبيه ألف تانغا بالعملة المصكوكة لبخارى الشريفة، ثم من دون أن يشتغل حتى بعشر دينه هرب، الخاتر، الى قاراكول وأنت خبأته.
– آه، يا ويلتاه، ماذا فعلتم بزوجي!– ولولت المرأة،– انه لم يستدن نقوداً من أحد، فما كانت لنا بذلك حاجة. هذا الباي قد أهلك زوجي، والآن يطالبنا بأن ندفع مالا.
– اسكتي، يا قليلة العقل،– صرخ القاضي عليها.– ان لم تعثري على زوجك في بحر ثلاثة أيام أو لم تدفعي ألف تانغا بالعملة البخارية المصكوكة، فان ابنتك سوسن سوف تعد جارية الباي وترسل الى بخارى. أعطيك مهلة ثلاثة ايام، أذهبي أنت، أما ابنتك فستبقى عندنا.
سمعتا هذا وناحت البنت وأمها، طفقتا تعولان، تتضرعان الى القاضي أن يشفق ويرحم، أن يكون عادلا، اكدتا أنهما لا تعرفان أين حيدرقول وأنهما لم تسمعا شيئاً عن الدين. لكن كل توسلاتهما وتأكيداتهما كانت طرقاً في حديد بارد – انها لم تؤثر في أحد، وهل يرأف الذئب المفترس بشاة بائسة ضعيفة؟ هل تخرج الأفعى لسانها السام لأجل المزاح؟ وهل يترصد اللص السابل على الطريق من أجل أن يحميه؟ كلا! والذئب والأفعى وقاطع الطريق

كانوا الآن يتطلعون من نافذة الدائرة، ويتفرجون مستمتعين كيف كانت الفريسة ترتعش أمامهم.
ثم جروا الفتاة الى الفناء وألقوا بالأم الى الشارع مغشياً عليها تقريباً. أما الحاضرون في دائرة القاضي، فبعد أن ضحكوا حتى الشبع وهنأوا بعضهم البعض بالنجاح، أمروا باقتياد فريسة جديدة...
لم تبتعد الأم عن بوابة الدائرة. كانت مثل لبوة سلب منها جروها، تزأر وتئن وتهجم على الحراس. كانوا يركلونها ويضربونها، وتضرجت بالدم لكنها لم تنصرف، بل ظلت تحاول النفاذ الى فناء دائرة القاضي. ثم أخيراً، وكان المساء قد حل، حين امتطى القاضي والناظر وغني جان خيولهم وغادروا الفناء مرافقين بالحراس، تسنى للأم أن تخدع البواب وأن تتسلل الى الفناء، ثم الى الشطر النسائي من الدار. هناك صارت تصيح وتنادي لسوسنتها. زوجة القاضي وابنته اللتان سبق لهما غير مرة أن رأيتا مثل هذه المشاهد، أمرتا بأن تقتاد الأم الى الزنزانة التي زجت فيها سوسن، الا من قبيل الرغبة في أن تكف المرأة عن العويل.
تعانقت الأم وابنتها وبكتا طويلا طويلا في أحضان بعضهما. بكتا وحدتهما وعجزهما وكونهما بلا ظهير يحميهما ولانصير. ثم توجهت الأم بالدعاء الى ربها. راحت تدعو الله من أجل ألا يعرف قاراكولي باي في قبره السكينة، من أجل ألا يغرب عنه مردة العذاب الفتاة ومن أجل أن يكتون بنار جهنم عقاباً له وجزاء على أنه سلب من المرأتين المسكينتين دعامتهما الوحيدة، على أنه أخذ منهما الزوج والأب... بعد ذلك طفقت تكيل اللعنات لغني جان-بايباتشا، تمنت أن تنزل على رأسه كل مصائب الدنيا، ترجت أن يقع عن حصانهوأن تنكسر رقبته وأن يتنكد عيشه وتغلق في وجهه أبواب الرحمة لأنه يفتري عليهما، ولا يكفيه أنه حرمهما من الزوج والأب بل ويريد أيضاً أن يسرق جمانة الأسرة، زهرتها الربيعية، سلوى أمها وبهجتها الوحيدة!

وأخيراً وجهت الأم نيران غضبها وكل لظى غلها على القاضي والناظر والحراس القساة العتاة، ناعتة اياهم بالكفار وبالطغاة مصاصي الدماء، ثم اجهشت بالبكاء من جديد وظلت تبكي وتنوح الى أن سقطت على الأرض خائرة القوى تماماً.

وحاولت سوسن قدر وسعها أن تسري عن أمها، راحت تلثم وجهها ورأسها تلتصق بصدرها، تترجاها ألا تعذب نفسها هكذا، قائلة أن العويل والنواح لن يجديا نفعاً ولن يعودا عليها بغير الضنى واللوعة. ثم قالت أنه سيكون خيراً لها أن تذهب الى البيت وأن تقابل البعض من ذوي الجاه والسلطان، كالمختار أو الامام مثلا، وأن تستشيرهم في الأمر وتحكي لهم عن كل شيء. فهم قد يشيرون عليها بشيء نافع، أو ربما ينبرون للتوسط والشفاعة لهما، ومن يدري - فلعلهم سيتمكنون من انقاذها...

أثرت أقوال البنت السديدة على الأم فهدأت. ثم قبلت الأم ابنتها، ضمتها الى صدرها، اسمتها ذكية، شكرتها على النصيحة الطيبة، خرجت من الزنزانة، ومن دون أن تولي اهتماماً لأحد من حرس القاضي، مضت الى مختار حارتها مباشرة. وبالصدفة كان امام المسجد هناك أيضاً. استمع اليها الاثنان صامتين وبعد ذلك راحا يسريان عنها بصوت واحد، قالا، أنه لن يحدث مكروه لها أو لابنتها، وانهما سيذهبان بنفسيهما الى القاضي ويشهدان بأن حيدرقول كان دائماً رجلا نزيها وبأنه لم يهضم أموال الغير أبدا، واذا كان قد استدان مالا، فسيدفع ما بذمته حتماً - فهما، وجيها الحارة، يستطيعان التكفل بذلك، أما التفريق بين الأم وابنتها فهذا أمر سيء جدا. ينبغي السعي لحل هذا الخلاف بالتفاهم وبالتي هي أحسن، والباي، في أغلب الظن، سوف يتراجع عن مطالبه. أما اذا حدث ولم يظهر حيدرقول في بحر شهر واحد، فان سكان الحارة سيجمعون متعاونين مبلغ دينه ويدفعونه الى الباى... واذن فلتدفع بيبي رابعة عن نفسها القلق ولتذهب الآن الى بيتها وتنام مطمئنة

البال، وغداً في الصباح، ما أن يخرج القاضي الى عمله، سوف تحل هذه المسألة ويسوى كل شيء...

تنهدت بيبي رابعة بارتياح وراحت تدعو الله متمنية للمختار والامام كل خيرات الدنيا وبركات السماء ثم مضت الى بيتها وهي تلهج بالدعاء. في الصباح لم تعرج على المختار معتبرة أن تذكيره بالأمر ليس لائقاً. توجهت الى دائرة القاضي مباشرة وهناك جلست على حافة الطريق.

ازاء دائرة القاضي قامت سقيفة، وبمقابلها من الجهة الأخرى كان ثمة شايخانة يشرب فيها الحراس والناس القادمين الى القاضي الشاي، جالسين على تخوت خشبية وأبسطة مفروشة على الارض، على جانبي الشارع قامت مقاعد طويلة وضيقة جلس عليها مقدمو الشكاوى منتظرين الى دائرة القاضي ومنها كانوا يدخلون ويخرجون زرافات. ووحدانا، كانوا يتململون ويضجون، والمخاتير يصرخون والحراس يزعقون، يقودون البعض الى الديوان — وهنا أيضاً قرب باب منزل القاضي كانوا يكتبون المعاملات، وكانوا يتشاورون ويشيرون، يجمعون النقود من مقدمي الدعاوى لقاء وضع الاختام ومن جديد يؤمون دائرة القاضي.

أحياناً من أعماق الفناء كانت تسمع أصوات الرجال وصرخاتهم، وكان يتعالى عويل النساء ونواحهن،— وأحياناً كان يسمع صفير السوط يلسع جسماً عارياً ثم يمضي بعض الوقت ويخرج المعاقب الى الشارع محمولا على الأيدي أو مسنوداً فيجلسونه على مقعد ويقدمون له كوب ماء: ثم يلتم الناس من حوله ضاجين مبحلقين والمختار غير مبال يدور حاملا أوراقه ويجمع النقود ليضع الأختام...

بيبي رابعة كانت تشاهد كل هذا، ولكنها لم تكن تفكر الا بمصابها، كانت أوجاعها أشد ايلاماً. في انتظار قدوم المختار أضنيت وأرهقت. حلت الظهيرة ولم يأت المختار وعيل صبرها أخيراً، فردت الروب على رأسها ومضت الى بيت المختار. قالت لها زوج المختار أنه ذهب منذ الصباح الى العرس. وتوجهت بيبي رابعة الى هناك، فوجدته قرب

قدر البلوف واخبرته أنها كانت تنتظره من الصبح قرب دائرة القاضي. فأجابها ذاك بانه سبقها الى هناك. بانه في الصباح الباكر كان في الدائرة والتقى بالسيد القاضي فقال له ذاك أن غني‌جان- بايباتشا قد خرج الى المراعي لتفقد قطعانه وأنه ينبغي انتظار عودته.

أجل، لقد كان بوسع المختار والامام والقاضي وغني‌جان -بايباتشا أن ينتظروا، لكن الأم ليست قادرة على الانتظار عندما تكون فلذة كبدها في السجن تتعذب وتعاني وعندما تحيق بها في المستقبل الأخطار. لم تقل بيبي رابعه للمختار شيئاً وهرعت عائدة الى دائرة القاضي، ثم من غير أن تستأذن أحداً، دخلت الى الفناء، ولكن البواب والحراس لم يتركوها تصل الى ابنتها ودفعوا بها الى الشارع. أثارت بيبي رابعة ضجة وصلت الى القاضي في بيته فخرج وأمر الحراس بأن يربطوها ويحملوها الى بيتها. ونفذ الحراس الأمر من دون أن يولوا اهتماماً لصرخات المرأة المسكينة.

حتى المساء رقدت بيبي رابعة في بيتها مربوطة ووحيدة ما من أحد بقربها ليقدم لها شربة ماء تبلل بها حنجرتها اليابسة. حتى المساء المتأخر رقدت وكان يمكن أن ترقد وترقد لو لم تعرج عليها جارة لها كانت تخدم في بيت أحد البايات لتجدها في هذه الحالة الرهيبة، زعقت المرأة هولا وفي الحال فكت لها قيودها وقدمت لها ماء لتشرب. ثم كشفت بيبي رابعة للجارة عن مصابها وهي تبكي بمرارة. راحت تلك تسري عنها قدر وسعها، قالت أن الله رفيق بعباده وهو لن يسمح بأن يأخذ غني‌جان-بايباتشا ابنتها معه ثم اذا كان الباي بحاجة الى فتاة فما حاجته لان يأخذها من قاراكول؟ ان في بخارى آلاف منهن... بعد ذلك طفقت تروى لها مختلف الأقاصيص والحكايات من حياتها وحياة الجيران فتبدد غم بيبي رابعة بعض الشيء ثم رقدت في فراشها وأخلدت للنوم. عادت الجارة الى البيت وبعينين تترعمها الدموع حكت عن مصاب بيبي رابعه لزوجها. وكان ذاك يخدم في حرس الناظر فتبين أنه رأى بأم عينه كيف

سافر غني جان-بايباتشا بعد ظهر اليوم الى بخارى مصطحباً معه ثلاثة غلمان - رعاة وفتاة واحدة.

طلع الصبح وذهبت بيبي رابعة الى المختار ثم برفقته الى دائرة القاضي. في هذه المرة لم يعترض البواب سبيلها ولا أوقفها الحراس. وعندما اقتربت مع المختار من مقر القاضي أطل بنفسه عليهما من النافذة وسألهما عن مطلبهما. قال المختار أنه قدم في قضية بيبي رابعة ليكون وسيطاً بينها وبين غني جان-بايباتشا. فاجاب القاضي أن غني جان - بايباتشا، لأسفه البالغ، قد سافر منذ مساء الأمس مع كل خدمه الى بخارى وأنه اصطحب معه ابنة بيبي رابعة أيضاً لأنها هي التي طلبت ذلك. قالت أنها تريد السفر الى بخارى لكي تعثر هناك على أبيها، وتعود معه الى البيت بعد حل الخلاف مع الباي.

لم تصدق العجوز كلمة واحدة مما قاله القاضي، ألم بها يأس لا حد له، ومثل لبوة هائجة اقتحمت فناء المنزل واندفعت الى هناك، الى حيث كانت ابنتها، لتجد أن الزنزانة فارغة، آنذاك ارتمت على الخادمات، على زوجة القاضي، على بناته، ترجتهن تضرعت اليهن، سألتهن بالله أن يقلن أين ابنتها، وبصوت واحد قلن جميعاً أن سوسن قد سافرت بالفعل الى بخارى مع الباي وبرغبتها الخاصة. ولكن الأم لم تصدق أحداً، كانت تبكي وتدق على صدرها، ثم انطلقت تعدو الى الشارع وهناك رأت المختار الذي كان لتوه قد ودع القاضي الى البازار، فأطبقت على تلابيبه:

- اعثر لي على ابنتي! - صاحت هي، - أنت أيضاً على اتفاق مع القاضي، كلاكما اعطيتما ابنتي الوحيدة لذلك الباي اللاانساني! اعد الي ابنتي! ممن يمكنني أن أطلب ذلك ان لم يكن منك؟!

كان المختار رجلا قوياً كبير الجسم فتخلص من يدي بيبي رابعة النحيلة كأنها طفل صغير، ثم انتحى بها جانباً وقال بصوت واطىء:

- لا تصرخي، يا بيبي رابعة! القضية كلها حبكها

القاضي ولست أنا. لقد خدعني كما خدعك وأرسل البنت الى بخارى. الآن ما عدنا قادرين على عمل شيء، لقد فات الأوان، فسلمي أمرك لله.

في عصر ذلك اليوم اياه، وفيما كان القاضي عائداً من البازار مع حراسه، وعلى مقربة من بيته تماماً اطبقت امرأة على عنان حصانه. كانت هذه بيبي رابعة. راحت تطالب القاضي بأن يعيد لها ابنتها. هز الجواد الأصيل الرهوان رأسه مؤرجحاً المرأة من جهة الى جهة. وشتمها القاضي ثم ضربها بالسوط وهمز الحصان، ارتخت يداها أفلتتا العنان، وارتمت المرأة على قارعة الطريق...

في منزل الباي المنيف ببخارى، كانت سوسن تحس نفسها وحيدة تماماً مع أن البيت كان يعج بالنساء — زوجتي الباي وخادماته وبنته وأماته. في النهار كان عليها أن تشتغل، أن تعاون الطاهيات في المطبخ وأن تكنس الفناء، أما في الاماسي فكانت تنزوي في ركن حجرتها ساكبة الدموع ومع الدموع كانت تنام. ثم يطل الصباح بعد ليلة ثقيلة حافلة بالرؤى المرعبة فتنهض سوسن بصعوبة وتنبري للعمل حتى من دون أن يدخل فمها أي زاد.

لقد مر عشرون يوماً منذ وقعت سوسن في هذا البيت، ولكنها حتى الآن لم تتلق أية أنباء تفيد بشيء عن أبيها أو عن أمها. أحياناً كان الباي يأتي الى الحرملك، فينظر كيف تعمل ويسري عنها قائلا أن أباها حيدرقول سوف يظهر ان لم يكن اليوم فغداً، فهو قد أرسل رجاله للبحث عنه، وحين سيعثر عليه سوف يصفح الباي عنه اكراماً لها هي سوسن، وسوف يرسلهما معاً الى قاراكول. كانت سوسن تستمع اليه ولا تصدق. كانت بكل جوارحها وخواطرها مع أمها التي لا يستبعد أن تكون قد فقدت عقلها تماماً بعد الفراق مع ابنتها

زوجتا الباي كانتا تغاران منها عليه. وابنته كانت في كل يوم تختلف حجة فتدعو سوسن الى غرفتها، وهناك

تضربها وتقرعها وتقول لها ألا تتباهى بحسنها، فهي، سوسن، ليست جميلة بالمرة، وهي عبدة سوداء لاحاجة لأحد بها. أما الخادمات المسنات فكن في مسامراتهن الليلية يضحكن منها ويسمينها «السيدة الصغرى»، كن يحسدنها على جمالها وصباها ويتنهدن حسرة على أن عمرهن قد ولى ودوى شبابهن من دون أن يعرفن البهجة وقد كن حريات فيما مضى أن يرقن للباي الجميل الممشوق وأن يحصلن منه على ما تتمناه المرأة. بل ان احداهن وكانت امرأة جدفة سليطة اللسان، قالت للسوسن صراحة ألا تعبس وألا تولي للباي ظهرها حينما يأتي، وأنه سيكون خيراً لها أن تغريه وتغويه فآنذاك ستعيش في سعد وفي رغد كما تعيش الأميرات. لم تكن سوسن لتبدي أي رد فعل على كل هذه المزحات، كانت تلزم الصمت، وفي الليالي كانت تبكي خلسة وليس الا...

وفي واقع الأمر كان غني‌جان-بايباتشا جميل الطلعة ممشوق القوام: عينان لوزيتان سوداوان، حاجبان مقفولان، لحية سوداء عريضة وكثيفة، أنف مستقيم جميل، وجه رائق اللون وقوام أهيف ممشوق، ومع أنه لم يكن فارع الطول، لكنه كان رشيق الجسم متقن الحركات. وكان في كل أزيائه وخزه ومخمله وبهائه يبدو أفعى جميلة لكل من يتأمله بأمعان. شيء ما أفعواني كان في نظرات عينيه الحادة، في تقاطيع وجهه وفي ابتسامته الصفراء. بل انه، بالطبع، كان أفعى - باردة وماكرة. لم يكن يضمر الود لانسان، كان غريباً بالنسبة للجميع. لقد انخدع به الكل، كل الرجال وكل النساء الذين ظنوا أنه يحبهم وأنه صديق لهم. فلأجل منفعته الخاصة كان هو حرياً بأن يخدع ويبيع حتى زوجته وولده. لم يكن يعرف الرأفة، ولا يرتدع عن اهانة أقرب انسان اليه. كان يروق له أن ينفث سمه على اصدقائه وخلانه، على ذويه وأهل بيته، بل وكان يتباهى بذلك. كان في طباعه بعيد الشبه عن ابيه: «قاراكولي باي كان أيضاً طاغية مستبداً قاسي القلب وعديم الرحمة وكان أيضاً

يضع مصلحته الشخصية فوق وقبل كل مصلحة، لكنه كان على خلق صريح مكشوف. ذاك كان رجلا جلفاً ذئبي السطوة. ولكنه حين مات عجز حتى اقرب أصدقائه ورجله المؤتمن المراد القونغراطى عن العمل مع ابنه. فهو العارف بابن الباي منذ نعومة أظافره، كان قد كسر عليه أسنانه ولذلك فضل أن يأخذ حسابه وأن يغرب بعيداً عن هذا البيت بأقصى سرعة.

— ان رأسي عزيز علي! — قال هو آنذاك. — وفي ظل غني جان ـ بايباتشا لن أسلم به. المراد وأصدقاء الأب الاحماء الآخرون أشاحوا عن الابن واحداً تلو الاخر. لكن ذلك لم يكدر ابن الباي ولا قليلا، لقد وجد لنفسه آخرين، يعجبونه هو ويروقون له. هذا الرجل كان يجيد اجتذاب الناس الاغرار والبسطاء، ثم حينما كانوا يأمنون اليه كان هو يخنقهم ويبتلعهم مثلما يبتلع البواء الأرانب.

ولقد حاول بالمداهنة أن يفتن سوسن أيضاً كيما ينالها لقمة سهلة ومستساغة. ولكنه أخفق في ذلك. فمفاتنه لم تؤثر على الفتاة ناهيك عن أنها لم تكن تنظر صوبه. على كل محاولاته لجرها الى الحديث كانت بالكاد تجيب وكانت تسعى الى الابتعاد عنه قدر ما أمكن. لكن هذا لم يفعل سوى أن زكى شهوة ابن الباى وزاد ولعه بالفتاة. ثم حينما أيقن أخيراً بأن جماله ومغازلاته لا تخلف انطباعاً عندها، قرر أن يبلغ مأربه بالدهاء.

كان شهر رمضان الذي يصومه المسلمون ويمسكون فيه عن الطعام طيلة النهار وحتى المغيب. وهكذا، ظهيرة ذات يوم وفيما النساء كلهن، زوجات الباي وخادماته كن نائمات، ركضت من الفناء الأوسط صبية — خادمة، وقالت لسوسن أن رجلا جاء من عند ابيها وأنه الآن في غرفة عبدالله، خادم الباي جالس يتحدث مع غني جان ـ بايباتشا الذي يأمرها بالحضور حالا الى هناك.

بسبب الصيام الطويل والليالي المسهدة كانت سوسن مضناة لا تعي نفسها تقريباً — كانت ناعسة ثقيلة الحركات مبلبلة الذهن تكاد لا تفقه شيئاً. ومع ذلك حين سمعت اسم

ابيها، لم تتردد لحظة وهرعت الى الفناء الأوسط. دخلت غرفة عبدالله ورأت أن الباي جالس وحيداً ولا وجود لأي رجل آخر، بينما عبد الله واقف في المدخل مشغول بشيء ما. النوافذ والأبواب مغلقة الدرفات وفي الغرفة شبه ظلام.

— لقد أتيت، يا معلم،— قالت سوسن.— أية أخبار من أبي، من هذا الذي أتى؟

— أخبار جيدة، جيدة هي الأخبار!— أجاب الباى مبتسماً بمكر.— تعالي، اجلسي هنا بقربي. أقرب، أقرب، لا تخافي، أنا لست ذئباً ولن افترسك. هيا، يا حلوتي هيا!.. نعم، نعم هكذا! ولكنه عليك في البداية أن تعطي شيئاً مقابل الخبر الجيد...

وقائلا هذا، أخذ سوسن من يديها وجذبها نحوه. ولم تلحق أن تصيح الا وكانت في احضانه...

آنذاك خرج عبدالله وأوصد الباب من الخارج.

وقد يبدو أن عبدالله وحده كان قادراً على المعرفة بما حدث، ولكن الخبر ذاع في البيت فوراً منتشراً فيه مثل النار في الهشيم، في المساء هنأتها الخادمات ورحن يستفسرن عن «اللذة» التي حظيت بها. وكانت سوسن تبكي بلا توقف. ثلاثة أيام كانت تسمع تقريع زوجتي الباي وسخرية الخادمات، وفي عشية اليوم الرابع، حينما رقد الجميع للنوم، خرجت من البيت خلسة وهرعت الى الحوض الطافح بالماء حتى حوافه، وارتمت فيه صارخة «ماما».

طيلة يومين لم يعرف أحد ماذا حل بسوسن. وفي اليوم الثالث أخرج السقاة جثتها المنتفخة من الحوض، فحفروا لها قبراً وأسكنوها الثرى.

عرف السقاء أحمد كل هذا عقب دفن سوسن مباشرة، وآنذاك حكى عنه للعجوز ديلارام. أما الآن وبعد أن شارك في دفن الأم كذلك، فان السقاء الشيخ كان متكدراً الى حد أنه أوشك أن يبكي.

وفهمت العجوز حالته فطفقت تتحدث في موضوع آخر.

– ومتى العرس، متى ستزف العروس؟– سألت هي.

– يوم الجمعة.

– اليوم عندنا الثلاثاء؟ اذن في الخميس سيقام في بيت عليار–بي حفل للنساء..

– وأنت هل ستذهبين الى هناك؟

– الله أعلم.

– أظن أن الحفل سيكون كبيراً؟– قال احمد.– السقاة من تلك الحارة قالوا أن سبعة قدور قد نصبت، ذبحوا عشرين خروفاً نحروا بقرتين كبيرتين والبيت كله زينوه. يقولون أن أربع جوقات موسيقية سوف تأتي. وقد حضروا الاجران وجاؤوا بعشرين سلة من الرمان*.

– وكيف لا! ان عليار–بي يزوج ابنته الوحيدة،– قالت العجوز،– في ميسوره أن يفعل هذا وأكثر، ولكن أية سعادة سيجني من تزويج ابنته من رجل متزوج مرتين؟

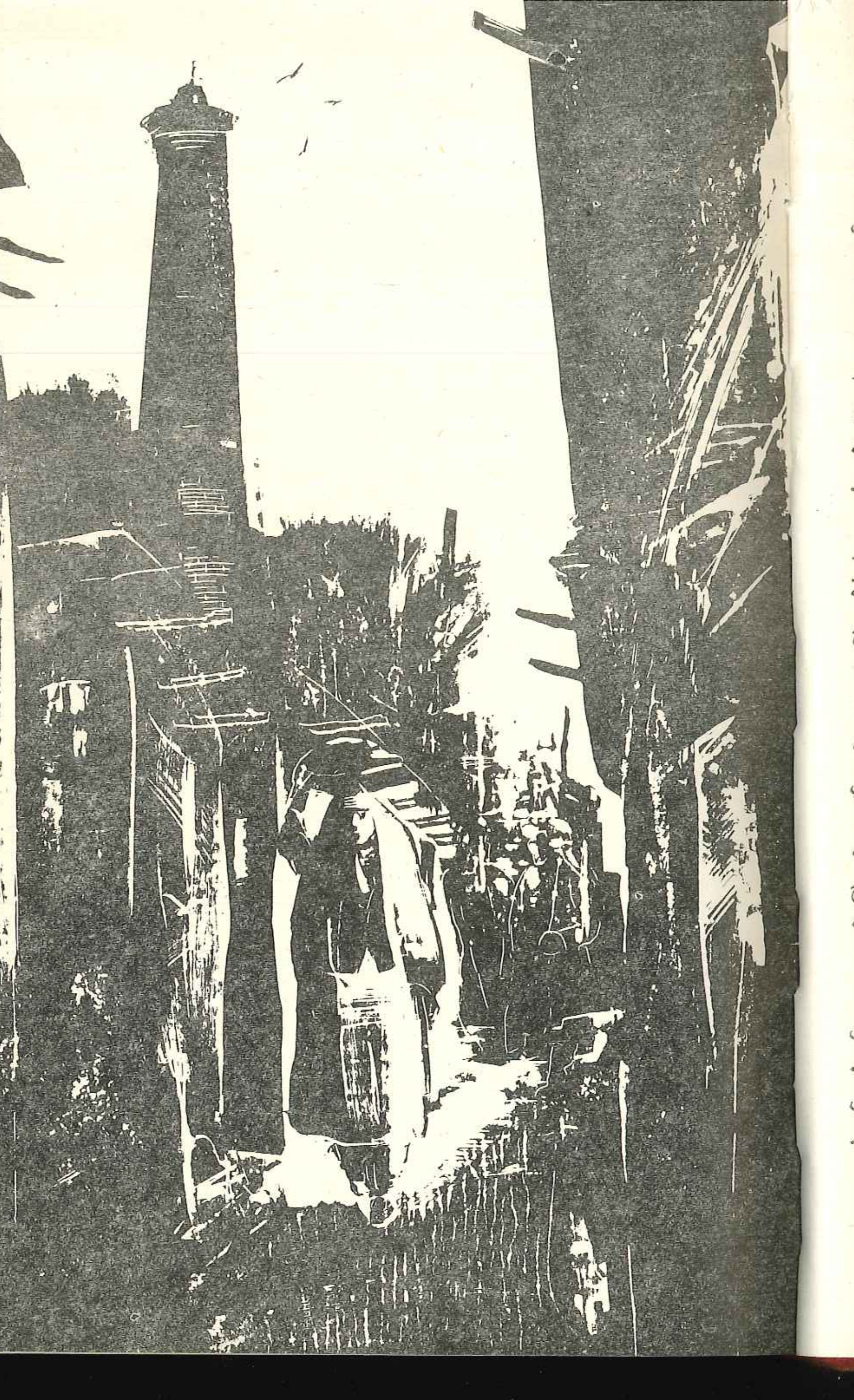
– يقولون أن البنت هي التي رغبت بذلك.

– بأي شيء سحرها غني‌جان–بايباتشا الى هذا الحد، يا ترى، حتى أرادت الزواج منه؟ انني ما كنت لاعطيه ابنتي حتى ولو ملأ بيتي ذهباً.

– يقولون أن العروس فتاة جريئة جداً، غندورة، دلوعة وكلمتها على رأس لسانها. لقد صرحت بأن الزواج من رجل عنده زوجتين سابقتين أمر جيد، فعلى الأقل،

---

* ابان الأفراح كان الموسيقيون يعزفون حول أجران كبيرة يصب فيها زيت الكتان وتشعل على حوافها أربعون فتيلة. في بعض البيوت كانوا يملؤون حتار الجرن بعصير الرمان وكانت الفتائل المشتعلة تنعكس فيه و تعطي ضوءاً أحمر. (المؤلف)





قالت هي، لن تعرفي الملل، سيكون عندك من تتشاجرين معهن وتتشاحنين.

– وهل من شيء آخر الا هذا!– قالت العجوز ورنت الى فيروزة.

كانت الفتاة المتعبة نائمة وقد وضعت رأسها على الوسادة بجوار جدتها. وقالت العجوز همساً:

– هيا، يا عزيزي احمد، اذهب ونم أنت أيضاً، لقد تأخر الوقت.

اعتذر السقاء، ودع العجوز ثم خرج من الفناء وأسقط خلفه رتاج البوابة الخشبي.

٥

في الصباح استيقظت فيروزة متأخرة، كانت الشمس قد طلعت منذ وقت طويل. نظرت الى فراش العجوز فلم تجدها وفرحت في البداية: معنى ذلك أن الجدة قد شفيت وخرجت تدبر شؤون البيت بنفسها. ولكن الهلع اعتراها فجأة: فلربما تكون الجدة قد خرجت الى الفناء فساءت حالها ووقعت وما زالت تستلقي هناك؟ لماذا لا يسمع لها صوت، لماذا لا تدندن كعادتها، لا تهمهم ولا تغمغم كالمألوف؟

هرعت فيروزة الى الفناء ونادت جدتها. ما من مجيب. ألقت نظرة على الممر، بحثت في المطبخ، في بيت المؤونة، لا أحد. رفعت الرتاج وأطلت على الشارع، لا أثر للجدة. تفكرت قليلا واندفعت نحو بوابة الجيران – دخلت الى فناء الحائك غلام علي. وهنا رأت العجوز. كانت ديلارام جالسة على الايوان تدردش مع الجارة. وقابلت الجدة حفيدتها بابتسامة.

– ماذا، استيقظت ولم تجديني؟ قلت الى أين راحت، هل طارت الى السماء أم انتشقت الارض وابتلعتها؟ كلا، يا حملي الوديع، أنا مازلت حية وجاهزة لخدمتك، بينما كنت نائمة دخلت أنا الى الجيران لزيارتهم.

سلمت فيروزة على زوجة الحائك وسألتها أين زليخة ابنتها وصديقة فيروزة.

– صديقتك ذهبت لزيارة ابيها في مقر عمله. ها قد مرت ثلاثة أيام والأب لايأتي الى البيت.

اندهشت فيروزة وقامت العجوز وقالت:

– لا تقلقي بالا، فليس في الأمر سوى الخير! الأرجح أن العمل كثير قبيل العيد. رب العمل يريد المزيد من البضائع ولهذا يرغم المعلمين على العمل ليلا ونهاراً، لايسمح لهم بأن يتفقدوا بيوتهم.

– هبه يكون هذا، ولكن أما كان بوسعه أن يأتي مرة ويقول. آنذاك ما كنا قلقنا.

– هاهي زليخة قد ذهبت اليه وستعرف كل شيء، – قالت ديلارام ومضت الى بيتها، وحين بلغت البوابة التفتت: – حالما ترجع زليخة، مري علي وقولي، كيف حال الأب.

أوعزت العجوز لفيروزة أن تحضر شاياً ثم جلستا لتناول الفطور. بعد ذلك قالت ديلارام لحفيدتها أن تذهب الى المدرسة وألا تقلق عليها، فهي ستر تاح اليوم وغداً ستكون معافاة تماماً.

لم تشأ فيروزة الذهاب ولكن الجدة ألحت فوضبت الفتاة كتبها في الحقيبة، ثم ألقت الملاية على رأسها وخرجت من البيت.

رفعت العجوز ديلارام الآنية وكانت قد عزمت على كنس الغرفة حين أتت زليخة، قالت أن أباها معافى بيد أنه يضطر للعمل باستمرار. لقد كانت ديلارام على حق: فبمناسبة العيد القريب طلب قربانباى من حائكيه أن يعطوا المزيد من الحرير.

أخذت زليخة من العجوز المقشة، كنست الغرفة والمدخل والفناء، ثم جمعت الزبالة في الركن وانصرفت. أدت ديلارام الصلاة وأرادت أن تستلقي وتستريح حين

قرع أحدهم البوابة. دخلت امرأتان، كانت احداهما تحمل على رأسها صينية فيها بقجة. لأت العجوز عن معرفة القادمتين ومن يمكن أن تكونا، لكنها نهضت من مكانها للقاء الزائرتين المجهولتين. خلعت المرأتان عن نفسيهما الملايتين وسلمتا على ربة البيت. دخلتا الى الغرفة، وضعتا الصينية على الارض وتباوستا مع ديلارام. طوت هي ملايتيهما، وضعتهما في المشكاة ودعت المرأتين للجلوس، هاتان كانتا شقيقة بقاجان ملمع الأقمشة من حارة بابانياز وخاطبة معروفة في الناحية كلها قام على يديها غير قليل من الأعراس. يبدو أنهما نويتا الذهات لخطبة احدى البنات وعرجتا في الطريق بغية التشاور مع ديلارام. اتخذت الضيفتان لنفسيهما مجلساً وراحتا تدعوان كما تقتضي الأعراف:

— عسى ألا ينزل البلاء مكانا وطئناه، وعسى أن يطرق العيد الأبواب بعدنا وأن تتحقق كل أمانينا، آمين.

ثم بعد الاستفسارات المعهودة عن الصحة والعافية، أطلت ديلارام على جيرانها ونادت لزليخة كي تأتي وتشعل النار في السماور.

— فيروزتي ذهبت الى المدرسة.— قالت هي معتذرة.— وحين تكون حفيدتي غائبة تساعدني صديقتها.

— فيروزة‑جان صارت الآن بالغة تماماً، أليس صحيحاً؟— سألت شقيقة بقاجان.

— وكيف لا!— أجابت الخاطبة عن العجوز.— ذات مرة رأيتها في الطريق الى المدرسة،— فتاة ناضجة، تتدفق شباباً وحيوية، كما يقال، دم على حليب. أطال الله في عمرها كتب لها النجاح والسعادة. وأنت، يا عزيزتي أرجو لك أن تعيشي حتى تتحقق أمانيك.

قالت ديلارام «آمين!» وهنا أدركت أن فيروزة هي هدف هذه الزيارة. ثم، تحسباً لكل أمر، قالت:

— الأرجح، يا عزيزتي أنه شبه لك، فحفيدتي ما زالت طفلة بعد: قامتها قصيرة وجسمها نحيف.

– لماذا تقولين هذا الكلام، بحق الله؟– احتجت الخاطبة – فنحن اتينا لكي نخطب فيروزة، انها والحمد لله قد بلغت لذلك وآن لها الاوان.

ابتسمت العجوز وقالت على غير عجل:

– الحمد لله، فقد انتظرت أنا أيضاً يوم سعدي وجاء الي الخطاب. جاء الخطاب يطلبون وحيدتي وقرة عيني وأنا عشت لأرى هذا اليوم. ولكن من هو هذا الرجل المقدام الذي لم يخش سخرية الناس ولومهم وتجرأ على طلب يد حفيدة ديلارام–كنيز، يد فتاة دنيئة المنبت؟

– لا تتكلمي هكذا، يا عزيزتي!– نبرت الخاطبة – فأنت وان كنت جارية تساوين أكثر بكثير من سيدات مختلفات! من يستطيع أن يقارن نفسه بك؟ أنت انسانة لايستغنى عنها ولا في حفل واحد مما يقام في الناحية كلها. أنت رأس الجميع. النساء والرجال يحترمونك، يستمعون الى كلمتك، لا يدعوك احد الا بـ«يا عزيزتي»! وحفيدتك أيضاً تشب لبهجة الجميع، تكبر ذكية لبيبة، نشيطة رشيقة بل وصارت حسناء، فكل من يراها يهيم بها.

– أخي بقاجان،– تدخلت في الحديث المرأة الأخرى،– بقاجان شقيقي أحبها وكأن عنده مائة قلب لا قلباً واحداً. يقول ان لم تتحقق رغبتي بوصالها سأعاف حتى الحياة والدنيا. فقلت له: تريث قليلا، فاليوم سنذهب مع الخالة الى الجدة ديلارام ونحاول السعد، سنستمع الى ما قوله لنا هذه المرأة المجربة التي عركها الدهر والمحن، فهل من المعقول أن تردنا بالرفض وتزعلك أنت بحيث تسود الدنيا أمامك وتضيق بالحياة؟

كانت صاحبة البيت جالسة تعبث بقشة من الحصير وتصمت مفكرة. أما الضيفتان فكانتا تتكلمان وتتكلمان، تقاطعان احداهما الأخرى، تطريان على فيروزة، تمدحان العجوز وكل آل بيتهما، ثم صارتا تعظمان بالخطيب بقاجان، ببيته ودكانه وحقوله وبساتينه وبقلبه الفتي. قالتا أن بقاجان ليس شيخاً بعد، فخمسة واربعون عاماً هو خير عمر

بالنسبة للرجل، انه الشباب تقريباً. وصحيح أنه متزوج سابقاً ولكن زوجته هادئة الطبع ومسالمة، انها مخلوقة شبه عجماء، أما ابنتاه فانهما قد كبرتا، وان لم يكن اليوم، فغداً سوف تتزوجان وتتركان بيت ابيهما. ثم اذا، أعطى الله، وولدت فيروزة له صبياً ستصير صاحبة الكلمة الاولى في البيت، كل شيء سيكون رهن تصرفها.

أما ديلارام فما انفكت تفكر وتفكر بما ستقوله لهؤلاء الناس الذين كانوا بلا حياء وبلا ضمير. فهم، ولا غرو، يعتبرون أنه اذا قدر للانسان أن يعيش كل حياته تقريباً، اثنين وسبعين عاماً من أصل تسعين - بين العبيد والفقراء فانه يعجز عن التمييز بين الناس، سوف يصدق كل ما يقال له، وسوف ينغرى بالمال والثروة ويتنازل لهم عن بهجته الوحيدة. ولكنهم نسوا أن ديلارام-كنيز هي التي دعت الفرح بمناسبة مولد بقاجان وأنها تعرفه منذ طفولته، تعرف كنه هذا الرجل وتعرف كل ما فعله وصنعه في عمره. العجوز ديلارام كانت تعرف جيداً السبب في أن زوجة بقاجان المسكينة هادئة هكذا وقليلة الكلام: فديلارام قد وضعت لها غير مرة لزقات المرهم على الجروح والكدمات التي سببتها لها قبضتا بقاجان وسوطه. وكم مرة حدث لديلارام أن سمعت تشكيات شغيلة بقاجان من قسوته وبخله. أجل، لقد اعتاد الناس على فتح قلوبهم لها والافضاء بآلامهم...

- وها نحن قد أفضينا بمطلبنا، والكلمة الآن لك! فاغمرينا بكرمك وفضلك - أتت شقيقة بقاجان أخيراً الى خاتمة مدائحها وأضافت:

- لا تكدرينا وأعيدينا بالله الى الأخ بنبأ طيب.

في البداية أرادت العجوز أن ترد بحدة - أن تطوى البقجة التي احضرتاها مع ما فيها من حلوى وخبز وقطعة حرير وأن ترميهما بها وتطردهما من بيتها، ولكنها احجمت عن ذلك. شعور العزة الشخصية طغى على الامتعاض والغيظ. وقالت ديلارام:

بالنسبة للرجل، انه الشباب تقريباً. وصحيح أنه متزوج سابقاً ولكن زوجته هادئة الطبع ومسالمة، انها مخلوقة شبه عجماء، أما ابنتاه فانهما قد كبرتا، وان لم يكن اليوم، فغداً سوف تتزوجان وتتركان بيت ابيهما. ثم اذا، أعطى الله، وولدت فيروزة له صبياً ستصبح صاحبة الكلمة الاولى في البيت، كل شيء سيكون رهن تصرفها.

أما ديلارام فما انفكت تفكر وتفكر بما ستقوله لهؤلاء الناس الذين كانوا بلا حياء وبلا ضمير. فهم، ولا غرو، يعتبرون أنه اذا قدر للانسان أن يعيش كل حياته تقريباً، اثنين وسبعين عاماً من أصل تسعين – بين العبيد والفقراء فانه يعجز عن التمييز بين الناس، سوف يصدق كل ما يقال له، وسوف ينغرى بالمال والثروة ويتنازل لهم عن بهجته الوحيدة. ولكنهم نسوا أن ديلارام-كنيز هي التي دعت الفرح بمناسبة مولد بقاجان وأنها تعرفه منذ طفولته، تعرف كنه هذا الرجل وتعرف كل ما فعله وصنعه في عمره. العجوز ديلارام كانت تعرف جيداً السبب في أن زوجة بقاجان المسكينة هادئة هكذا وقليلة الكلام: فديلارام قد وضعت لها غير مرة لزقات المرهم على الجروح والكدمات التي سببتها لها قبضتا بقاجان وسوطه. وكم مرة حدث لديلارام أن سمعت تشكيات شغيلة بقاجان من قسوته وبخله. أجل، لقد اعتاد الناس على فتح قلوبهم لها والافضاء بآلامهم...

– وها نحن قد أفضينا بمطلبنا، والكلمة الآن لك! فاغمرينا بكرمك وفضلك – أتت شقيقة بقاجان أخيراً الى خاتمة مدائحها وأضافت:

– لا تكدرينا وأعيدينا بالله الى الأخ بنبأ طيب.

في البداية أرادت العجوز أن ترد بحدة – أن تطوى البقجة التي احضرتاها مع ما فيها من حلوى وخبز وقطعة حرير وأن ترميهما بها وتطردهما من بيتها، ولكنها احجمت عن ذلك. شعور العزة الشخصية طغى على الامتعاض والغيظ وقالت ديلارام:

— لو كان عندي مائة حفيدة وليس واحدة فقط. لأعطيتهن جميعاً... لكن فيروزتي دخلت عامها الثاني عشر وحسب، انها بالكاد تفرق بين يمناها ويسراها، فهيهات لها أن تعرف ما هي الحياة الزوجية وما هو البيت الكبير. ولهذا خذا هداياكما وارجعا بالسلامة، ولا تستاءا مني...

— لا تقولي مثل هذا الكلام، يا عزيزتي! — اعترضت الخاطبة. — هذه ليست حجة كافية للرفض. فيروزة ليست صغيرة، انها ستنتهض بالحياة الزوجية وبشؤون المنزل. أنا نفسي تزوجت في الحادية عشرة من عمري. وأنت، يا عزيزتي قد هرمت. وبالطبع، عسى الله أن تعيشي حتى المائة، ولكن من منا يعرف ما يخبأه الغد؟ وواجبك ما دمت حية يقضي بأن تأمني لحفيدتك السعادة والاستقرار، أن تنعمي بمرأى سعادتها.

وكررت العجوز مرة تلو مرة أن فيروزة ما زالت صغيرة على الزواج، ولكن بلا جدوى: فالخاطبة وشقيقة بقاجان أصرتا على مطلبهما.

قامت ديلارام، صنعت شاياً وحلت البقجة، ضيفت المرأتين بالسكاكر التي جلبتاها وحاولت أن تدير دفة الحديث في اتجاه آخر. سألت متى سيكون عرس غنيجان-بايباتشا، تكلمت عن زوجتيه، وعن العروس الجديدة. راحت الخاطبة، العارفة بكل شيء في الدنيا، تحكي عن مغفرات ابنة عليار-بي، قالت أنها تلقب بالسيدة قفابند (أي عقد)، أنها متغطرسة جداً، وأنها تشرب الشيشة، تعزف على الدوتار*، بل انها شرسة متوحشة كادت أن تخنق احدى الجاريات ذات مرة، وقضمت لأخرى اذنها... لقد وعدت بأن تلد للباي ابناً عملاقاً وأن تضع يدها على كل شيء في البيت. ثم أضافت الخاطبة أنه بعد عرس غنيجان يجب اقامة خطبة فيروزة، عمل الخير لايجوز تأجيله، وليعقب العيد العيد...

---

* دوتار — آلة موسيقية ذات وترين.

فجأة انتفضت العجوز ديلارام التي ضاقت ذرعاً بثرثرة الخاطبة، وتكلمت بسرعة:

– انني أفضل أن أرمي فيروزة بيدي في حوض ليساك على أن أعطيها لبقاجان! فيروزتي والحمد لله ليست لقيطة، عندها جدة تحرص عليها. انني لن أعطيها زوجة ثانية. وما دمت حية أرزق، بحمد الله أنا، ديلارام-كنيز، لن اتركها تدخل بيت بقاجان!

صعقت الضيفتان بهذا الرد العنيف غير المتوقع فصمتتا حالا وتبادلتا نظرات مذهولة. أما هي فجمعت كل القرى التي اتيتا بها، لفت البقجة، رمتها للخاطبة وقامت:

– اذهبا وقولا لبقاجانكم ألا يترصد بنات وزوجات الغير في الشوارع والأزقة. قولا له أن يختشي الله ويستحي من الناس! فهو أيضاً أب لابنتين، فليفكر بهما!

– هيا بنا، يا خالة! – نطقت ناهضة شقيقة بقاجان وقد استعادت الرشد أخيراً.– لتبق حفيدتها عندها! اما أخي فسيجد لنفسه عروساً أحسن، لن أذهب بعد الآن الى بيت كهذا أبداً! يكفي!

– انما حسناً، يا عزيزتي،– قالت الخاطبة.– لم تسمعي مني مرة ولن تطأ قدمي عتبة بيتك مرة أخرى، اعذريني ولا تلومي الا نفسك. ستبقى حفيدتك عانساً، ان أقدام الخطاب لن تطأ هذه العتبة مرة أخرى. ضعي هذا في علمك!

لم تقل ديلارام شيئاً آخر، أخرجت من المشكاة ملايتيهما، ناولتهما لهما في صمت ثم، حين انصرفت الضيفتان مشت بتؤدة نحو البوابة لكي توصدها خلفهما. هنا وقع نظرها على أحمد السقاء. كان يسير الى حوض المياه حاملا قربته الفارغة. وحين لحظ العجوز توقف، استفسر عن الصحة وأراد أن يتابع سيره ولكن ديلارام أوقفته.

– ادخل لدقيقة، يا احمدجان،– قالت هي،– أو تدري، لقد جاء الى فيروزتنا خطاب.

حين سمع ذلك، عجل أحمد في الدخول الى الفناء وقعد قرب العتبة عازماً أن يستمع الى العجوز.

— وحسنا فعلت! قال هو بعد أن استمع الى قصة الخطبة.— لقد نالوا ما استحقوه، عديمو الضمير! ولكنه عليك الآن أن تمنعي فيروزة عن الذهاب الى المدرسة عبر حارة بابانياز، دعيها تسلك درباً آخر.

— وهذا صحيح، فلتسلك درباً آخر،— وافقت العجوز.

— ولكن هاك بما أردت أن استشيرك. فما دمت على قيد الحياة، كان بودى لو أؤمن لها الاستقرار، أن أسلمها ليد أمينة... ما هو رأيك؟

— فيروزة ما زالت صغيرة على الحياة الزوجية،—قال السقاء متفكراً. ولكن، ربما كنت على حق... أجل، سيكون أحسن لو تؤمني لها استقرارها مادمت حية، ولكن مع من؟

— لقد وجدت صهراً منذ زمان،— قالت ديلارام مبتسمة.— عريس ولا كل العرسان!

— مهلك، مهلك!— ضحك السقاء.— ومن هو ياترى؟

— اسمه عصا. وهو مثلنا يخدم في بيت غني‌جان- بايباتشا.

ما كاد السقاء المندهش أن يفتح فمه حتى سمعت طرقات على البوابة. وذهب هو ليفتحها.

أمامه انتصب عصا، ذلك الشاب عصا الذي ذكرا اسمه للتو، بشحمه ولحمه. كان يقف ويبتسم. وزاد هذا التوافق في دهشة السقاء دهشة.

— عصا؟! — فاه هو غير مصدق عينيه. ـ هذا أنت؟ على الرحب والسعة.

دخل عصا الى الفناء وقال أنه أتى كي يسأل عن صحة ديلارام، ولكن بدا للسقاء أن خطباً ما يعكر صفو الفتى، ثم دخلا الى الغرفة فسلم عصا على العجوز، استفسر عن صحتها وقعد قرب العتبة.

— ما بالك هكذا، تترك العمل في هذا الوقت من النهار

وتأتي لزيارتي؟ احذر، فلو عرف الباي، ستنال منه مالا يرضيك.

ولم يعر عصا جواباً، رنا الى العجوز ثم الى السقاء وأطرق.

ونفد صبر السقاء:

– أنت، كما يبدو، تخفي أمراً، تكلم، ما بالك صامت، أتراك متخوفاً مني؟

– تكلم، تكلم عن كل شيء، يا ولدي، – قالت العجوز، – لاتتخوف من أحمد جان. أحمد جان أخي، كما أنت ابني.

– لقد كنا نتكلم عنك للتو، – استحثه السقاء مشجعاً.

– قلنا أنك عريس ولا كل العرسان.

تضرج وجه عصا حياء وغض الطرف. كان الفتى طويل القامة عريض المنكبين، قوي اليدين والرجلين، أسمر البشرة، مدور الوجه، بعينين كبيرتين براقتين، ومع أن الزغب الاسود بالكاد طر على شفته العليا، لكنه كان يبدو أكبر من سنه. كان عصا يتيماً لطيما لم يعرف أباه أبداً، ولا يكاد يتذكر أمه. الذكرى الوحيدة التي بقيت عنها: أمه راقدة في الفراش مريضة، ديلارام–كنيز تعطيها ماء لتشرب، وهي تمد يديها نحوه... بعد ذلك يلبسونه روباً، يزنرونه، يضعون في يده عصا صغيرة، يقتادونه أمام النقالة التي حملت فيها الراحلة ويطلبون منه أن يصيح: «آه، يا ماما!..» فيما بعد تعهده بستاني صديق، أواه في بيته وعندما شب الصبي صار يعمل في البستان...

منذ أن بلغ عصا سن الرشد وصار يفهم الناس، أحب العجوز ديلارام ولم يكن يقدم على أمر الا بعد أن يستشيرها ويطلب منها النصح. لم يكن يتوجه الى أحد آخر، ولم يكن يقصد مكاناً آخر، كل ماكان يعرفه هو هذا الفناء الصغير، هنا كان عصا يجد الطمأنينة وراحة النفس. كان يعرف أن ديلارام وحدها تستطيع أن تحدثه عن والديه وكان يطلب ذلك منها دائماً. ولكن العجوز، اما لضيق الوقت واما عزوفاً عن أن تكدر الفتى، كانت تؤجل الحديث باستمرار، والآن

ظنت ديلارام أنه ينتظر منها القصة الموعودة. ولكن عصا رفع رأسه فجأة وقال:

— عندي قضية تلزمني فيها مشورتك. ولكنني خائف، هل أتكلم أم لا... لست أدري الى أين سيوصلنا هذا.

— تكلم ولا تخف،— شجعته هي.— وهاهو أحمد السقاء هنا، انه رجل ذكي وهو أيضاً سيسدي لك نصيحة مفيدة.

— توكلنا على الله،— ثم تلفت بقلق وأضاف:— لقد جئت الى هنا برجل، هو في أشد الحاجة للتحدث اليك.

— ومن هو هذا الرجل؟— سألت العجوز.

— كلا، أنا لا أستطيع أن أذكر اسمه... فلا سمح الله أن يسمع أحد.

— اذا كنت لا تثق بي أنا، فبوسعي أن أذهب —قال السقاء.

— لا، أنا أثق بك ما دامت الجدة قد قالت... ولكن هذا الرجل...

— حسناً، تكلم، بمن أتيت؟

ورمى عصا نظرة الى الفناء:

— طباخ السمك حيدر قول...

— حيدرقول؟!— بصوت واحد سألت العجوز والسقاء شاخصين الى الفتى بنظرات ذاهلة.

— بلى، طباخ السمك حيدرقول... انه لم يمت، انه حي يرزق.

— حيدرقول حي؟ يالرحمة السماء كيف هذا؟ وأين هو؟— سأل السقاء.

— هذه قصة طويلة. اذا سمحت أقتدته الى هنا — الى بيتك، وساعتها ستعرفان كل شيء.

— حسناً، — قالت العجوز، ولكن ما أن جرى عصا ذاهباً حتى أوقفته: — انتظر! فهو بالطبع هارب، وبالتأكيد يتوارى عن الناس... أنت قلت له أنه ما من أحد هنا وهو

سيأتي ويجد احمد، هذا غير جيد. أنت أحمد جان اذهب الى حين، دع عصا يأتي به، وبعد ذلك سندعوك.

– عين العقل، – أيدها السقاء. – خير لي أن أذهب، ثم، انه يلزمني أن أحمل الماء لبعض الناس.

انصرف السقاء وفي اعقابه خرج عصا ثم سرعان ما عاد ومعه رجل فارع الطول يحتذي جزمة وله لحية كثة عريضة اتصلت بشاربيه ونمت بحيث غطت وجهه كله. احدى عينيه كانت مربوطة بعصابة سوداء والقلبق منكس حتى حاجبيه تماماً. دخل الرجل الى الغرفة وانحنى للعجوز ثم دنا منها فتناول يدها ووضعها على عينيه ثم قبلها.

– عصا قال لك،– بدا هو بالكلام قاعداً في الركن موليا ظهره للباب،– أنا حيدرقول، الطباخ، منذ ثلاثة أشهر، ذاعت اشاعات بأني هلكت، مت، هل سمعت عني؟ أما أنا فقد رأيتك عدة مرات وسمعت عنك الكثير من الكلام الطيب. عندما ذكر عصا أسمك ابتهجت كثيراً وسألته أن يوصلني اليك. انني بحاجة الى نصيحتك.

– وحسناً فعلت، يا ولدي، اذ أتيت.– أجابت العجوز وهي تتملاه. – واللحية هل كانت سابقاً أم ربيتها الآن؟

– سابقاً كانت لي لحية صغيرة وفيما بعد ربيت هذه عن قصد.– وخلع حيدرقول العصابة عن عينه.– وعيني أيضاً سليمة، انني أربطها حتى لا يتعرف علي الناس.–حتى هذا اليوم كنت في المدينة مرتين فقط. ومنذ شفيت وأنا أعيش في ظاهر المدينة، كنت أساعد ناطور البئر وانتظر اللحظة المناسبة.

وهنا تنحنح عصا ونظر الى العجوز وحيدر قول.

– أنا ذاهب الآن، والا فان السيد قد يتفقدني... سأهرع الى هنا مرة أخرى، فيما بعد، عندما أجد الفرصة.

– حسناً، اذهب،– قالت العجوز – قم بعملك بهدوء. حيدر قول – ضيفي.

قام عصا، تنحنح ثانية وقال:

– حيدرقول أمسى الآن علي جان. هكذا أفضل. علي‌جان لا يعرفه أحد.

ابتسمت العجوز، أومأت برأسها ومضت خلف عصا فأوصدت البوابة. ثم اقتربت من بوابة السياج التي تفضي الى بيت الجيران وأوصدتها هي الأخرى.

كانت الشمس في كبد السماء تغمر بأشعتها الساطعة الفناء ولهذا عادت العجوز الى الغرفة وأغلقت بابها أيضاً. قعدت على الفراش، صبت في الكوب شاياً من الابريق المغطى بمنديل حتى لا يبرد، شربت الكوب ومدت يدها بالثاني الى حيدرقول.

– اذن، اسمك الآن علي‌جان – قالت له العجوز – أنت هارب وتتوارى عن العيون؟ ولكن هل أنت على علم بما حل بزوجتك وابنتك؟

وطأطأ حيدرقول رأسه في أسى.

– أعرف كل شيء، عصا حدثني. ولهذا لم أسافر الى قاراكول وبقيت هنا.

– احك لي، لماذا هربت، وأين اختفيت فيما بعد؟

– أجل،– قال حيدرقول،– أنا نفسي كنت أنوي أن أحدثك في البداية عن مغامراتي، ثم أن اطلب منك النصح بعد ذلك.

وشرب كوب الشاي جرعة واحدة ثم تطلع الى العجوز ديلارام.

– ...في طفولتي ترددت بعض الوقت على المدرسة ولكنني كنت أدرس بلا نجاح كاف. بعد ذلك تتلمذت في محل حدادة، تعلمت كيف تطرق الحدوات، الفؤوس والقداديم. ولكنني لم أثابر على هذه المهنة أيضاً، فعندنا في قاراكول حتى من غيري كان يوجد أربعة حدادين، كانوا يشتغلون ليلا ونهاراً ومع ذلك يعيشون على الرمق. ولو أنني صرت حداداً أنا أيضاً – لازداد الجياع في قاراكول واحداً آخر، وانبريت للشغل في تصنيع جلود فرو

الأستراخان وفي العاجل صرت فراء جيداً. بيد أنني لم أتواءم مع رب العمل وتركت هذه الشغلة كذلك. آنذاك صرت أصطاد الأسماك وغدوت طباخاً، كان لي صديق يجيد قرض الشعر، أحياناً كان يرافقني الى النهر لاصطياد الأسماك، وأذكر أنه نظم أغنية حول أولئك الناس الذين ينبرون لكل عمل ولكنهم لا يفلحون في شيء. أنا كنت واحداً من هؤلاء. ولقد ذقت العذاب بسبب هذا، وعندما صرت طباخاً اعترض طريقي قاراكولي باي، كان يأكل من سمكي المطبوخ بلا حسك ويثني على شطارتي في تحضيره. لم يكن يخطر لي على بال أن مهنتي الجديدة هذه سوف تجر علي البلاء والهلاك. بدا لي أن اصطياد الاسماك، قليها ثم الذهاب بها الى البازار وبيعها – هي أفضل مهنة على الأرض، فليس هناك من يتحكم بك، وما من رب عمل يقف على رأسك، لهذا بالذات أخترت هذا العمل. ولكنني بنفسي علقت على شص قاراكولي باي.

ثم مات معلمي وآنذاك بت أسأل غني‌جان-بابا‌تشا أن يتركني كي أعود الى أسرتي. فأنا لم أكن عبداً مستقنى بل كنت حرفياً حراً وكان من حقي أن أغادر الباي حين أشاء. لكن غني‌جان-بابا‌تشا أبى أن يتركني، ثم حين عرف أن لي زوجة وبنتا في قاراكول طلب مني أن أجيء بهما الى بخارى. رفضت أنا. وآنذاك أعلن هو، مثلما فعل أبوه من قبل أنني مدين له، وعلي أن اشتغل عنده ريثما أقضي ديني. وما كان عندي في بخارى أحد يتعاطف معي أو يسدي الي نصيحة مفيدة. كان قلبي يجمح الى الحرية، وكنت أحن الى مرابع وطني – الى ضفاف نهر أموداريا العريض، الى بيتي وأسرتي، الى زوجتي وابنتي الحبيبتين. وقضيت ليلة أخرى ثم ثانية في عذاب وفي الليلة الثالثة عيل صبري وهربت من بيت الباي.

لكن الحظ عاكسني، فحين اقتربت من البوابة القاراكولية في منتصف الليل، وجدتها مغلقة. وأردت أن اتسلق سور المدينة الى الجهة الأخرى بيد أنني خفت أن

أقع في أيدي الحراس مثل لص. قررت أن انتظر الصباح، ريثما تفتح البوابة، ورحت أبحث عن مكان أقضي فيه الليل. في الخلاء، على مقربة من البوابة وقفت عربة، كان جلياً أن أصحابها قد فكوا الفرس واقتادوها الى الفناء وتركوا العربة دون حراسة. أندسست فيها خلسة، اتخذت مكاناً ورقدت، لكن النوم لم يغشاني. انقضت ساعة من الزمن وربما أكثر، لا أعرف بالضبط، وإذ بي أسمع على الطريق وقع أقدام، نظرت، وهالني ما رأيت: على الطريق نحو البوابة سار متلفتاً مترقباً واحد أعرفه من أذناب الباي، رجل شرير جداً، مقامر وسفاح حقيقي. تكهنت أنه يبحث عني. فالباي على الأرجح، عرف بهربي وأرسل هذا الرجل في اثري. كان اسمه سعيد السكير، في كل ليلة كان يقصد حارة جويبار، فيحصل هناك على نبيذ و كان مع الباي يجلس ويشرب. لم يكن يمارس عملا الا الشرب والاكل والنوم بل وكان يلعب الميسر أيضاً. كان يجيد الصراخ والتصرف بخدم الباي كأنهم خدمه الخاصون. وكانوا يقولون أن الباي يحتفظ به لأغراض خاصة.

اقترب سعيد السكير من البوابة، تحدث الى البواب ثم مضى في جهة ما واختفى، لم أشاهده أنا بعد ذلك وقررت أنه رجع الى بيت الباي وقد فشل في العثور علي.

في الصباح الباكر وما أن انفتحت البوابة، كنت أنا أول من غادر المدينة، ثم من غير أن التفت الى الوراء طرقت الدرب قاصداً قاراكول. كان لدي أمل بالحصول على حمار أو فرس أركبها واتابع عليها الطريق بمجرد أن ابتعد قليلا عن بخارى. بيد أني لم أمض بعيداً. فما كدت أتخطى البئر التي على بعد فرسخين من بوابة المدينة حتى لحق بي سعيد السكير. طلب مني أن أعود الى الباي، فرفضت. راح يهددني فما خفت. قبض على تلابيبي وأراد أن يشدني، لكنني لم أذعن تملصت منه تاركاً، والحق يقال، ياقتي في يديه. وهنا رحنا نتصارع، تعاركنا بشراسة اليائسين.

وكان الطريق، كأنما نكاية، خلواً من أي بشر، فالصباح كان في أوله.
كان سعيد السكير مشهوراً بقوته، ومقاومته كانت أمراً يحتاج الى جهد خارق. كان هو يسعى باستمرار لأن يطرحني أرضاً، لأن يهرسني بثقل جسده فيدوسني بجزمته ويرغمني على الرضوخ، لكنه لم يوفق الى ذلك، وعلى كل ضربة منه كنت أنا أرد بضربة. وأخيراً اطبقت على خناقه، جذبته نحوي ووجهت الى ذقنه ضربة من رأسي سقط بعدها على الأرض، تدحرج ثم تمدد ساكناً بلاحراك. ظننت أنا أنه فقد الوعي لأنه لم يكن يبدي حراكاً فمضيت مبتعداً كي أغادر هذا المكان على أسرع وجه. لكنني لم أقطع خمس أو ست خطوات حتى انغمدت سكين في ظهري بين الرفشين، التفت ورأيت أن سعيد السكير قد أخرج السكين من جسدي ويهم بتوجيه ضربة أخرى. استجمعت كل ما بقي لدي من قوة وضربته على رأسه فارتمت السكين من يده وقلب هو وهوى. ولكن الدنيا اسودت هنا في عيني، دار رأسي وسقطت أرضاً أنا الآخر.
حين فتحت عيني وجدت نفسي راقداً في قبو أرضي ورأيت عصا هذا الفتى الحبيب، الذي اعتبره الآن أخاً لي حتى آخر العمر، يضمد جراحي. اعطاني ماء لأشرب، لكنني كنت من الضعف بحيث لم أقو على النطق بكلمة ثم فقدت الوعي من جديد.
ولست أدري كم مضى من الوقت ريثما ثبت لرشدي ثانية. كان القبو مضاء بنور الشمس. وبجواري كانت تجلس امرأة هرمة وتقدم لي شراباً من نوع ما.
«هذا دواء مدهش، – قالت هي، – لقد حضرته بنفسي من عصير الزهور وأوراق الأعشاب الطبية. انه يسكن أي ألم كان، اشرب جرعة أخرى يا ولدي!»
وشربت. كان المشروب عطراً ومر الطعم بعض الشيء. ثم شعرت ببعض التحسن ولست أدري ان كان هذا من مفعول الدواء أم لانني نمت وأخذت قسطاً من الراحة.

سألت العجوز أين أنا وكيف وقعت هنا. فقالت العجوز أنني في قبو حارس البئر وأن شاباً ـ عربجياً أتى بي عند الصباح الى هنا جريحاً نازفاً. قالت أنه سمى نفسه أخي وقال أن عدوا طعنني بسكين في ظهري وتوارى. أعطاهم الشاب نقوداً وطلب منهم أن يآووني ويحيطوني بالرعاية. الحمدلله، فالجرح كما تبين لم يكن عميقا والسكين لم يصل الى القلب. ثم ذهب الشاب ووعد أن يعود.

بعد ذلك جاء صاحب القبو. تبين أنه يعرف سعيد السكير، بل وانه رأى في صباح اليوم كيف كان ذاك يتعقبني ثم رآه كيف رجع قلقاً ومستعجلاً. قال الحارس، أنه يجب الاحتراس من مثل هؤلاء الناس. وأكد لي أنه بوسعي أن أرقد في بيته مطمئناً حتى اشفى، فهنا لن يهددني أي خطر، ثم أثنى الرجل على عصا جزيل الثناء، وامتدح مروءته وانسانيته.

أحضرت العجوز عصيدة وأطعمتني، وبعد الظهر جاء عصا، حل بمساعدة العجوز الاضمدة عن جرحي، غسله بماء دافىء ثم دهنه بمرهم ما وربطه بقطعة شاش كان قد جلبها معه، وضع قطع قماش وربط كل هذا بمنديل حزامه.

«لقد ذهبت الى طبيب هندوسي ـ، قال عصا، ـ طلبت منه دواء ضد طعنة السكين، فأعطاني هذا المرهم وشرح لي كيف يجب أن يدهن به الجرح. وهذه أيضاً نقط ومسحوق أعطاها لي وقال: اذا ارتفعت حرارتك تناولها ثلاث مرات في اليوم. يبدو أنه عندك سخونة؟ تناول هذه النقط».

وقطر الفتى اللطيف الدواء بنفسه وارغمني على شربه، آنذاك فقط اطمأنت نفسه وحدثني بما كان قد عرفه في المدينة.

«جاء سعيد السكير الى الباي وأعلن أنه قتلك ورمى جثتك في السهب، ثم عرض السكين المضرجة بالدم برهانا على فعلته. لقد صدقه الباي. بوسعك الآن أن تطمئن بالا ـ

فما من أحد يبحث عنك. استعد صحتك، فأنا سوف أزورك واذا دعت الحاجة سوف أذهب الى الطبيب ثانية».

لم أعرف أنا كيف اشكره، لم أجد ما أقوله وانهمرت الدموع من عيني. أعطى عصا للعجوز نقوداً. وقلت أنا لا داعي، ففي جيبي أيضاً يوجد نقود، لكن عصا أجاب، لتبق الآن في جيبك فسيأتي يوم وتحتاج اليها ثم سألته كيف عثر علي. تبين أنه كان مسافرا على العربة يحمل للباي جبساً وبطيخاً فوقع علي في الطريق. يبدو أن سعيد السكير قد سمع صرير العربة وهرب. الاوغاد دائما جبناء.

انصرف عصا، ولكنه فيما بعد كان يأتي لزيارتي كل يوم، كان يغير لي أضمدة جرحي ويقدم لي الدواء. كان عصا يجلب لحماً وسمناً، سكراً وفواكه ويبذل كل جهده كي يطعمني ويطمأنني. لم يفه بحرف عن المصيبة التي ألمت بزوجتي وابنتي. فأنا كنت ضعيفاً بعد، جرحي كان يلتئم ببطيء، وكان السعال يضايقني، في العشيات كانت حرارتي ترتفع، كنت أهذي، والدنيا كانت تسود في عيني. طيلة شهرين وعشرة أيام قدر للمسكين عصا أن يتعب معي ويرعاني ريثما شفيت واستعدت صحتي، كل مدخراته من النقود انفقها على علاجي وتغذيتي. فكم أنا شاكر له على عطفه ورعايته لي أنا الشريد والمريض، انني مستعد لأن أفعل له كل شيء، مستعد لأن أحمله على يدي...

وعندما حان الوقت لمغادرة كوخ الحارس، حدثني عصا في حذر ورفق عن مصير ابنتي. صعقني هذا الخبر مثل البرق، أحسست أن قلبي يتمزق وأن ناراً تحرق جسدي كله...

كفكفت العجوز ديلارام بطرف ردنها الدموع المتحدرة على خديها المتغضنين وسألت:

— وماذا تريد الآن أن تفعل؟ الى أين تريد الذهاب؟

لم يأت الرد فوراً، شرب حيدر قول كوب الشاي وبعد ذلك قال:

– الآن لم يبق عندي في الدينا كلها أحد، وليس عندي أية رغبات، سوى الثأر. فلاجله وحده أحيا وفي انتظاره أعيش! يجب علي أن أثأر من عدوي، أن انتقم لشرف ابنتي ولزوجتي المسكينة ولنفسي.

– وكيف ستنتقم؟

– لا أعرف! أعرف أمراً واحداً وحسب: غني جان يجب أن يقتل. وحتى لو كلفني ذلك رأسي، لافرق، الأمر سيان بالنسبة لي. وها قد اتيت اليك لاسأل، ما هو رأيك في هذا الموضوع.

– الله هو الذي ينتقم لنا، – قالت العجوز. – هبك قتلت غني جان هل سيكون ثأرك كاملا؟ والقاضي؟ والناظر؟ وقائد الشرطة والمختار؟ أليسوا مذنبين أيضاً في هلاك اسرتك؟ هل كان غني جان وحده، من غير مساعدتهم قادرا على الحاق الأذية بك؟ من وضع له تلك الورقة المزيفة حول دينك، من وضع امضاءه شاهداً على ذلك؟ القاضي والناظر. واذن يجب الثار منهم جميعاً. لكنك لن تستطيع ذلك، يداك قصيرتان.

– أكثر الجميع أساء الي غني جان، – ومنه سوف أثأر!

– زوجي أيضاً أخذ بثأره، – قالت العجوز شاردة النظرات. – زوجي أيضاً قتل ذلك الرجل الذي لطخ شرف ابنتنا قتله ولم يعرف بذلك أحد. هو وحده كان يعرف. لكن واقعة القتل هذه لم تغير شيئاً في الدنيا، لم يغسل الدم وصمة العار عن ابنتنا. أما هو، زوجي، فكان يتعذب في سره، كان الغم يقضه، و سرعان ما مات...

– هذا من حقي: الدم بالدم!

– ثلاث مرات عليك أن تسيح الدم...

– سأثأر ثلاثاً! – قال حيدرقول بحزم. – لكنه يلزمني أن أستقر في المدينة، أن أجد هنا مسكناً. كنت أريد أن أطلب اليك السماح لي بالعيش في بيتك، ولكني غيرت رأيي... فحفيدتك فتاة مهيضة الجناح ليس لها من

يحميها... أهو قليل ما يمكن أن يحدث؟... لو وقعوا على أثري ستكون العواقب وخيمة...

لم ترد العجوز بشيء، وغرقت في التفكير. صمت حيدرقول مترقباً ثم راح يربط عينه بالعصابة السوداء.

– مهلك،– قالت العجوز رافعة رأسها.– لايجوز التسرع في قضية كهذه. أنت تعرف، غداً يبدأ العرس، غني‌جان يتزوج مرة أخرى...

– أجل، لقد أخبرني عصا بذلك.

– مهما كان الحال، هذا عيد، طريق الى السعادة. لقد تعب الناس في التحضير لهذا العيد، الكثيرون يريدون أن يفرحوا ويمرحوا، بل ان واحدة سوداء الشعر لاتنام الليالي في انتظار هذا الفرح... فهل من الجيد تسميم فرحة الناس... بسبب الثأر؟

استعصى على حيدرقول الفهم: ما هذا الذي تقوله العجوز؟ أيعقل أن تفكر ديلارام-كنيز بأنه من غير الجائز تعكير عيد غني‌جان، هذا الوغد اللئيم؟ هل من المعقول أنها تعطف على الباي؟..

كلا، فالأمر ما كان في هذا. أفكار العجوز كان لها مصدر مغاير تماماً. كانت ديلارام تفكر بفيروزتها، حين قالت أن العرس طريق الى السعادة. فهي كانت قد قررت في سرها أن تزوج عصا من فيروزة وأن تأخذه الى بيتها، فآنذاك فقط ستطمئن وتهدأ بالا. في الأيام الأخيرة لم تكن تسأل الله سوى أن يوفق هذا المسعى وأن لا تعيق بلوغه عقبة. ثم هاهو يتبين فجأة أن عصا متورط في هذه القصة مع حيدرقول. فاذا اقترف حيدر قول فعلة ما ووقع، وهذا محتمل جداً، فان عصا أيضاً سيكون عرضة للمخاطر. انه على كل حال لن ينعم بالهدوء، سواء عرف أحد بعلاقته مع حيدر قول أم لم يعرف، وأية سعادة آنذاك!.. لكنه لم يكن بوسع العجوز أن تقول هذا لحيدرقول صراحة، واكتفت بأن دعته الى التريث والحذر.

– بيتي هو بيتك،– قالت له العجوز.– عش هنا،

زن الأمور جيداً، وبعد ذلك تصرف بحيث لا يكون مجال لزلل. أنا لا أخاف شيئا على الارض. كل ما لدي في الدنيا هو فيروزتي. لو أنني زوجتها لانبريت بنفسي لمساعدتك. ولكن ما العمل وفيروزتي، طفلتي الغالية، وحيدة ليس لها أخد الا أنا...

ربط حيدر قول عينه ثم وضع القلبق على رأسه وقال:

– حسناً يا أماه، سوف أفكر بما قلته لي. واذا خطرت لي بادرة ما، ربما أزعجك من جديد – قد أقرع عليك الباب.

وبحركة من يدها طلبت منه العجوز أن يجلس.

– الى اين ستذهب؟ ابق هنا.

– ربما في مرة أخرى! – أجاب حيدر قول. – أما الآن فسأذهب الى واحد من ابناء بلدي. انه أهل للثقة.

– كما تشاء، – قالت ديلارام ناهضة. – وهاك وصيتي الأمومية: في كل موقع، وفي كل أمر عليك أن تكون رجلا. كن رجلا حتى في الثأر! يمكن قتل العدو غيلة، بطعنة في الظهر من خلف الجدار، لكن هذا ليس شأن الرجال. على الرجل أن يثأر من عدوه وجها لوجه – آنذاك يكون الثأر حقيقياً.

وما أن همّا بالخروج من الغرفة حتى سمعت طرقات على البوابة. صوت جهور نادى العجوز ديلارام. طلبت هي الى حيدر قول أن يمكث في مكانه ومضت لتفتح الباب. كان هذا خادم من حي تشكر سلطان. انحنى القادم للعجوز، سلم عليها ونقل اليها دعوة بالحضور مساء اليوم أو صباح الغد الى بيت عليار-بي الى العرس، فالامور لا تسير بدونها، ولا غنى عن مساعدتها ونصائحها. وعدت العجوز بالحضور وودعت الخادم. لكنها ما كادت توصد البوابة حتى أطلت فيروزة عائدة من المدرسة.

– السلام عليك يا جدتي، – قالت هي ناظرة الى الجدة بعينين براقتين. – الحمد لله، فأنت على ما يبدو قد شفيت؟ من كان هذا الرجل؟ ماذا قال؟ فاحتضنت الجدة حفيدتها.

– يا لمصيبة رأسي! روحي فداء لطفلتي النشناشة.
ما كادت تدخل حتى طرحت ثلاثة أسئلة، وعلى العجوز المسكينة أن تجيب عليها جميعاً. واذن هاك، اسمعي: الحمد لله، أنا معافاة – هذا أولا، الرجل الذي أتى للتو، خادم من حي تشكر سلطان – هذا ثانياً، أنا وأنت مدعوتان الى العرس – هذا ثالثاً.

– والآن هيا الى الغرفة – هذا رابعاً!– قالت فيروزة واطلقت ضحكة مجلجلة.

بقدوم الحفيدة بدا للعجوز دیلارام وكأن البيت قد تألق نوراً. ولكن ما أن دخلتا الغرفة ورأت فيروزة حيدرقول، حتى همدت فوراً وفارقت البسمة محياها. حيت الحفيدة الضيف بصوت خافت، وضعت كتبها على الرف في المشكاة وجلست في الركن.

– هذا عمك عليجان،– قالت لها العجوز. انه صديق وأخ لعصا، جاء من بعيد...

قام حيدر قول، اعتذر على ماسبب من ازعاج وخرج. أوصدت فيروزة خلفه الباب وبعودتها الى الغرفة رأت أن الجدة متعبة ومنهكة قد رقدت في الفراش.

٦

في منزل غني جان–بايباتشا كانت تجري الاستعدادات للعرس.

زوجة الباي الكبرى كانت قليلة الجاذبية، فما أعجبته يوماً، وخلال عدة سنوات من الحياة الزوجية لم تنجب منه الا بنتاً واحدة. الرغبة بالابن كانت ذريعة الباي في زواجه الثاني. لكن الزوجة الثانية أيضاً لم تعد تعجبه ما أن مر عام أو عامان على زواجه منها. اضافة الى أنها لم تنجب بناتاً فصب ذلك الماء على طاحونة الباي الذي بدأ يتوق للزواج ثالثة، متذرعاً بحجة الابن ذاتها. الزوجة الكبرى

كانت تغار من الصغرى على الباي، كانت تحسدها بغل، وبكل الوسائل تسعى لتسميم عيشها، لم يكن ينقضي نهار الا وتثير مشاحنة ويأتي الليل فتقف هي أو احدى خادماتها عند باب الضرة وتسترق السمع، كانت تعرف أن الباي يحلم بالابن فتوغر صدره: هاك انظر اليها، زوجتك المحببة المفضلة، انها لاتلد لك طفلا. ثم اغراقاً في الضرر أشارت عليه بالزواج مجدداً—فليهنأ الباى وينعم بالحياة مادام شاباً، وأما ثروته فانها ستكفى للجميع...

قبل الباي هذه النصيحة بسرور، بل وانه أهدى لزوجته الأولى قرطين ثمينين – غصنين ذهبيين مرصعين باللؤلؤ. أما هي، وانسياقاً وراء عزمها على تزويج الباي تشفيا من ضرتها، فقد انكبت على الشغل بكل دأب، راحت تبحث له عن عروس وأخيراً وقعت على نجلة علييار – بي، التي كانت تعد في حكم العوانس. لكن الباي لم يولِ اهتماما لكبر سنها – فهي كانت غندورة متأنقة، لعوباً ومتغطرسة وقرر الباي أن هذا عز الطلب. أرسل اليها الخطاب فاستقبلتهم الفتاة بنفسها، ومن نفسها اعطت الموافقة على القران، بل واعلنت أنه يسرها الدخول الى بيت فيه ضرتان: ففي كل يوم سيكون عندها تسلية حسب المثل القائل: ستلعب – وتجلسك على الرف الأعلى، وتغضب – فتقعدك في وكر الفأرة، وقد ترحم، فتعطيك قطعة خبز وترغمك على الرقص...

عرفت زوجة الباي الكبرى بذلك فندمت على فعلتها، ولكن السيف سبق العذل. كان تطور الأحداث جامحاً الى درجة لم تفلح معها في تخييب الزوج بالعروس وفي البحث عن أخرى تكون ملاءمة لها هي. وكانت ثالثة الاثافي حين أمر الباي زوجته الأولى، نزولا منه عند رغبة الزوجة المرتقبة ، أن تخلي الغرفة الكبيرة وتنتقل الى أخرى – في طرف الفناء من الجهة المشمسة، لا ترتفع على مصطبة كبديلتها. «هذه الغرفة تناسبك الآن أكثر،– قال لها الباي – لن تحتاجي الى الصعود والهبوط على الدرجات،

والمطبخ والمغسلة في متناول اليد... فمشاغل البيت سوف تزداد وسيكون لديك كثير من العمل».

لكن السيدة الكبيرة كانت تدرك أن عزها قد زال، فما دامت ابنة عليار - بي تتصرف بالامور على هذا الشكل حتى قبل أن تصير زوجة، فانها بعد دخول البيت لن تسمح لأحد بالترأس فيه.

ومهما كان الحال اضطرت الزوجة الكبرى للتراجع وها هي منذ الصباح مشغولة بالانتقال الى مسكنها الجديد.

الألحفة والحشايا الحريرية والمخملية والأطلسية التي تكدست جبلا فوق الصندوق الضخم، أخرجوها. نفضوها وحملوها الى الغرفة الجديدة، نقلوا باقي المتاع ولم يبق الا أن ينقلوا الصندوق الذى كان ثقيلا جداً، مليئا بالخير، ولكن صاحبته رفضت أن تخرج منه شيئاً على مرأى من الخادمات. أمرت بدعوة عصا. فهو قد شب في هذا البيت وكان بعد يافعا في نظر النساء فما كن يتحجبن عنه في غيبة الباي. أما هو فكان يدخل الشطر النسائي حين يدعونه مطرق الرأس والعينين فيفعل ما يطلب منه ويخرج دون أن يتطلع الى أحد. هرعت اليه لتدعوه خادمة صبية، مرحة وعابثة اسمها خيري. رأته واقفاً في الفناء الأوسط فاندفعت اليه من الممر المسقوف، قبضت على يده وجرته خلفها الى الممر. عصا كان يعرف أن خيري تهيم به حباً، وأنها تتحين كل سانحة لتلتصق به، فقد اضاعت في حمى الهوى كل خجل وحياء. وكان الفتى الخجول المتزن يسعى دائماً للابتعاد عنها.

والآن، وقد وقع عصا بغتة في أحضان العابثة، حار غير دار ماذا يفعل، احمر، وخاف وارتبك وتسارعت دقات قلبه.

- خيري - جان - تفوه هو محاولا أن يتحرر من أحضانها الحارة. - هذا سيء، خيري - جان! ماذا لو دخل الباى فجأة، انه سيقتلنا كلينا.

ولكن الفتاة، وكأنها لم تسمع ما قاله، انشدت اليه بقوة ولهفة وحاولت أن تقبله.

أدرك عصا أن الفتاة لاتسمعه، فاتخذ هيئة صارمة، دفعها عنه في حدة وقال ممسكاً يدها:

– خيري، أنت تعرفين يا خيري أن قلبي ممنوح لأخرى، فكيف اذن...

– أعرف،– أجابت خيري،– أعرف أنني لا أعجبك، ولكن ماذا بوسعي أن أفعل؟ على الأقل دعني أقبلك، أضمك الى قلبي، هكذا سيهون علي الأمر قليلا.

– بل سيصعب! دعك من هذا خير لك، تعالي نكون مثل أخ وأخت سوف أحبك أنا كما يحب الاخ اخته.

– حسناً، دعني أعانقك كأخ!– هتفت العابثة وهي تشد عليه العناق وتقبله.

في هذه اللحظة أطلت الخادمة المسنة التي كانت تنتظرهما.

– واه–واه، لقد وجدتما وقتاً للهو. أخ منكما يا عديمي الحياء!

ارتدا عن بعضهما واثبين وهرعت خيري ضاحكة الى دار الحريم، أما عصا المسكين فوقف أمام الخادمة كأن على رأسه الطير، محدقاً في الأرض يحمر حيناً ويشحب آخر.

– لم أكن أعرف أنك على هذه الشاكلة،– قالت له الخادمة مؤنبة.– الان ما عاد يجوز السماح لك بدخول الحرملك لقد كبرت، ينبغي القول للسيدتين.

لم يقل عصا شيئاً واستدار لكي ينصرف لكن الخادمة لم تتركه:

– آه، وتريد الهرب أيضاً؟ لا، اذا كنت تحب معانقة الفتيات، فعليك ألا تهرب من العمل.

ثم امسكته من أذنه وعلى هذه الصورة جرته الى الحرملك. رأته الزوجة الصغرى فضحكت وسألت:

– فيم أذنب عصا يا ترى؟

– يستحق أن تقطع أذناه، هذا الساهي الداهي –

أجابت الخادمة ضاحكة.- انما لا بأس، دعه يعمل اولا...

حمل عصا مع الخادمات الصندوق الثقيل الى الغرفة الأخرى، وشرعت البنات في ترتيب ألحفة وحشايا سيدتهن الكبرى فوقه. بعد ذلك حمل عصا الى هناك الحقائب الجلدية والأواني النحاسية الثقيلة. ثم ذهب الى الفناء الأول وهناك كذلك وجدوا له عملا. كان عليه أن يرش الفناء بالماء ويكنسه، أن يحش العشب ويعلف الخيول والابقار وأن ينظف الاسطبل والزريبة، واضافة الى هذا، كان الباي تارة وتارة المختار أو أحد آخر من القوامين على العرس يرسلونه الى بيت العروس مرة ومرة الى السوق الى المعلمين الحرفيين. وفي واحد من هذه الأشواط، وفيما كان راكضاً الى بيت العروس اصطدم في أحد الأزقة بحيدر قول.

- ايه، الى أين تسرع هكذا؟- أوقفه حيدر قول.- توقف، ارتح قليلا، امسح عرقك - كلك مبلل.

مسح عصا العرق عن وجهه وجلس قرب حيدر قول على اسكملة أمام دكان محاط بحاجز خشبي.

- كيف حالك؟ لماذا تخرج الى الشارع؟

- سأشرح لك كل شيء فيما بعد. أما الآن فاسمع: اذهب الى هناك، الى حيث يحضر الحفل، وقل للمختار أنك عثرت على طباخ جيد، قل انه من حارة جويباري بيرون وأنه يبحث عن شغل. ثم اذا وافق المختار على أن يأخذني، تقودني اليه.

- ولكن الجميع في بيت الباي يعرفونك! كيف تريد أن...

- لا تقلق، لن يتعرف علي أحد.

- حسناً، هيا بنا.

ومضيا الى حي تشكر سلطان.

في المساء وبعد انتقال السيدة الكبيرة ومختلف التغييرات والترتيبات في المكان الجديد هجعت السيدتان للنوم وحذت الخادمات حذوهما فرقدن متعبات بعد يوم العمل الصعب في غرفة قرب المطبخ. لكن خيري منعتهن عن

النوم طويلا، كانت تمزح وتضحك، تدغدغ البنات وتماحك الخادمات المسنات.

– احكي لي حكاية، حكاية عن العشاق. – قالت هي لكبيرة الخادمات. – حبيبتي، خالتي العزيزة، حكاية واحدة لا غير، على أن يكون فيها ابن ملك، جميل مثل عصا، مالم تحكي لي لن اتركك تنامين.

ضحكن جميعاً لدى سماع هذه الكلمات وقرصتها كبيرة الخادمات في يدها.

– لا أحد يشغل بالك الا عصا، بل والعشاق والشبان! لاعليك، سأقول للباي كي يزوجك بعد عرسه مباشرة.

– من عصا! – هتفت خيري كأنما تتابع كلمات تلك.

ضحك الجميع من جديد وأضافت هي ضاحكة معهن:

– موافقة، ألف مرة موافقة! حتى بدون حفل وبدون عرس، الأمر لي سيان، حسبي أن اتزوج من...

– حسبك فقط أن تجدي نفسك في أحضان رجل غليظ الرقبة – قاطعتها الخادمة بحدة. – انما مهلك، سأقول للباي ولن أكون أنا لطافة بانو ان لم أزوجك من تاكساباي الذي ينقل الزبل، من هذا الرجل الجلف الخشن.

– من تاكساباي؟ – صأصأت وقهقهت خيري. – لكنك أنت التي امتدحت وأطريت على رقبته القوية وعلى جسمه العملاق، ان لعابك يسيل فيما تنظرين اليه؟

– كلام فارغ؟ – زعقت الخادمة.

– بل لا، الكل يعرف هذا، – تابعت خيري – منذ أسبوع مضى بنفسك قلت أن تاكساباي رجل قوي الى درجة أنه مامن امرأة تقدر على العيش معه أكثر من شهرين. لقد ماتت عنده زوجتان، الثالثة هجرته، والرابعة قعيدة...

– وأنت ستكونين الخامسة، – قالت الخادمة وضحكت.

– لا، أنا لا أحتاج لأحد، الا لعصا حبيب القلب، – تنهدت خيري وأضافت بأسى... لكنه هو لايريدني، لا يحتاج الي.

— لا يريدك، لا يريدك، لكنه قادر أن ينفخ لك بطنك في طرفة عين! — قالت لها الخادمة. ـ هل تعرفين أنت قصة أمه؟ المرحومة كانت مثلك تماماً، عابثة لعوباً، لا تخشى شيئاً على الاطلاق. كان الباي الكبير قد جاء بها معي من غيجدوان، اشتراها بعشرة أكيال من القمح. آنذاك، في الفناء الأوسط، في نفس تلك الغرفة التي يقطنها الآن عبد الله، عاش واحد من خدم الباي اسمه طولباي. كان هو من ابناء بلد الباي، قاراكولي المولد، وكان الباي يثق به جداً، يخصه بحبه ويعتبره رجله المؤتمن، حافظ أسراره كلها. أم عصا، وكان اسمها شرفات، أحبت طولباي هذا. وكنت أنا الوحيدة التي تعرف بهذا الحب. في كل ليلة كانت شرفات تخرج الى الممر المسقوف وهناك تتطارح الغرام مع طولبايها، وأحياناً كانت لاتتورع عن الدخول اليه في غرفته، عندما يسمح جو البيت بذلك، ثم تعود خلسة عند الفجر وترقد في مكانها. ذات ليلة، وكنا نياماً، تسللت شرفات الى فراشي، رقدت بقربي وهمست: «يبدو أنني حبلى». قالت هي ذلك واجهشت بالبكاء. فسألتها: «وماذا يقول طولباي؟» فهمست: «طولباي طلب من الباي أن يزوجنا، لكن ذاك لم يعط وعداً، وأنا الآن لا أدري ماذا سيحصل» حاولت أنا قدر وسعي أن أسري عنها، ثم انقضت عدة أيام ووقعت الواقعة.

تبين أن الباي آنذاك، حين طلب طولباي اليه أن يسمح بزواجه من شرفات، سأله لماذا تستعجل هكذا؟ فكشف له طولباي عن الحقيقة، قال أنه يحب شرفات، أنهما زوج وزوجة منذ أمد بعيد وهي الآن تنتظر مولوداً، حين سمع الباي هذا استشاط غضباً، صار يصيح ويصرخ أن بيته شريف وليس وكر دعارة وظل يرغي ويزيد ويهدد ويتوعد حتى نسي حبه لطولباي، وانهال عليه ضرباً. لم يحتمل طولباي فاحتدم أيضاً، قبض على خناق الباي وصرخ: «سأخنقك ان لم توافق!» هتف الباي للخدم مستنجداً، فجاؤوا، ربطوا طولباي من يديه ورجليه، وضعوه على عربة

وذهبوا به الى جهة مجهولة. بعد هذا لم نر طولباي ولم نسمع عنه أبدا. أما شرفات فكانت تهوم كالشبح، اصفر لونها كالقش، كانت تبكي وكان بطنها يكبر، وهي تزداد هزالا حتى صارت كالعود. بعد تسعة أشهر، أعطى الله، ووضعت صبياً رائعاً اسميناه عصا ليكون عماداً لأمه وركيزة تتكل عليها. لكن شرفات لم تصمد لمصابها وأسلمت الروح لربها حينما بلغ الصبي عامه الثاني. أوته في بيتها ديلارام-كنيز، وكانت هي تعيش آنذاك في البستان... وها هي خاتمة الحكاية. في هذا البيت لن نرى أنا وأنت السعادة. وعبثاً تتعلقين بعصا، فهو لم يكترث بك أكثر من اكتراثه بشوكة على الطريق حتى ولو اعطتيه قلبك كله!

صمتت الخادمة ولم يرد عليها أحد. في العتمة لم يكن يسمع الا شهيق خيري المسكينة تتشرق بدموعها.

اقترب اليوم من عشيته والظلام بدأ ينتشر. الزواريب قرب سور المدينة، بدأت تخلو من السابلة بالتدريج. على الساحة ازاء المسجد أطفال كانوا يلعبون ويعلو صراخهم. انتهت صلاة العشاء فخرج المصلون وخرج المؤذن فطرد الاطفال ومضى في الطريق يتحدث مع المختار. كان المختار قد جمع أطراف روبه في زناره لكن طرفاً ظل خلف ظهره سائباً مثل ذيل يتدلى.

جرى الحديث حول ديلارام-كنيز.

- يقولون أن العجوز قد شفيت تماماً، تمشي من جديد، - قال المؤذن سائراً بجوار المختار. اليوم التقيت بخادم من حارة تشكر سلطان، قال لي أن العجوز دعيت الى العرس، غداً ستذهب الى هناك.

- أجل، انها عجوز عجيبة، أبدية، - تفوه المختار ساهماً. - بالأمس جاءني أحمد السقاء، قال أن حالتها سيئة، فبدأت افكر بأمر دفنها، بالتأبين، أما هي - فهاك أنظر - بعثت ثانية، بلطف الله، شفيت وتمشي.

— فعلا، كأنها من حجر، ـ أجاب المؤذن ـ لولا وجودها، لكنت أخذت حفيدتها زوجة لابن أخي.

ورد المختار بسخرية:

— هل هذا معقول؟ لا يا عزيزي، هذه الحفيدة ليست لاضراسك، يوجد عندها راع غيرك.

— اضافة الى العجوز؟

— اضافة الى العجوز!

انفتحت عينا المؤذن على وسعهما من العجب، لم يقل المؤذن شيئاً واكتفى بأن شد نفسه من ياقته، فضحك المختار وقال:

— ولأي غرض في رأيك أنا هنا في الحارة؟ هل لكي يمد كل شخص يديه الى الأرامل واليتامي البؤساء؟... ثم أنني بالشريعة ملزم...

وقطع المختار كلامه، ففي هذه الدقيقة بالضبط كانا يقتربان من بيت ديلارام ـ كنيز ورأى هو كيف دخل احدهم البوابة الواطئة، فنظر الى مرافقه وسأل:

— من هذا؟

— أي هذا؟ — اندهش المؤذن.

— ذاك الرجل الذي دخل للتو الى بيت العجوز؟

— لم ألاحظ.

— أنت دائماً هكذا، لاتلاحظ أي شيء أبداً! — نفض المختار يده من المؤذن كرجل ميئوس منه، اقترب من البوابة وقرعها بالدقاقة. لكن البوابة لم تفتح طويلا، وليس الا بعد أن اقترب المؤذن أيضاً ونادى، استجابت من الفناء فيروزة وفتحت.

— السلام عليكم، ـ قالت هي متوارية في العتمة مغطية وجهها بكمها.

— كيف حال الجدة؟ — سأل المختار — لقد جئنا لنراها ونسأل عن صحتها، هل عندكم في البيت أحد قد لا يرغب في رؤيتنا؟

— لا، تفضلا، — أجابت فيروزة من العتمة.

رفع المختار أذيال روبه، انحنى ودخل الباب الواطىء. وتبعه المؤذن وهو يعرج.

في الغرفة المضاءة بنور خافت لمصباح صغير كانت العجوز راقدة في فراشها وقرب قدميها جلس رجل ذو لحية، على رأسه قلبق منكس حتى حاجبيه. سلم المختار والمؤذن على ديلارام. استفسرا عن صحتها، قرأ دعاء وقالا «آمين». أما العجوز فاتكأت بيدها على الوسادة وراحت تتملى القادمين بامعان. ثم قالت:

– ماذا صار بالدنيا فجأة حتى تفضلتا لزيارتي، يخزي العين!

– أنت تعرفين كل شيء جيداً، ولا داعي للعتب علي! ان انشغالي في خدمة الناس ليس له حد ولانهاية، فما أن أفرغ من عمل حتى يبدأ عمل آخر، وأنهي هذا ليعترضني ثالث، وهناك المزيد والمزيد! لقد سمعت بأنك مريضة فطلبت من أحمد أن يمر عليك ويستفسر عن حالك، قلت له انا مستعد، لو اقتضى الأمر، لأن أترك كل عمل وأذهب لخدمة العجوز ديلارام. فأنت عندنا انسانة عزيزة وغالية.

– كلا، فأنا لم احتج اليك بعد. – وارتسمت على شفتي العجوز بسمة ساخرة.

فهم المختار مارمت اليه وأراد أن يقول شيئا لكنه رمى نظرة الى الرجل المجهول الجالس بجوار العجوز وضب لسانه.

– عندك ضيف، لقد ضايقناك! – قال هو مشدداً على الكلمات – ضيفك على الأرجح ليس من هنا، قادم من بعيد؟

– بلى، انه قريب لوالد فيروزة. كان يعيش غير بعيد من هنا، في بيت أحد معارفه ونحن لم نكن نعرف بذلك. لكن ذلك الرجل باع بيته ورحل، وآنذاك عرف هو بوجودنا وجاء. يريد أن يشتغل، أن يجمع بعض النقود ويعود الى موطنه.

– حسناً جداً، – قال المختار، – تعال غداً الى المسجد، سوف نجد لك عملا.

– شكراً، – أجابه الضيف، هذا كان حيدرقول. – فأنا

قد وجدت عملا، يومين – ثلاثة سوف اساعد الطهاة في العرس.

– حسن جداً،– قال المختار مرة اخرى ونظر الى المؤذن.– ماذا، يا حضرة المؤذن، يبدو أنك ما عدت بحاجة للبحث عن طبيب. ديلارام والحمد لله، شفيت، هيا بنا!

– أجل. فأنا والحمد لله لا أحتاج بعد لا لطبيب ولا لحفار قبور! ولكنني لن اعيش طويلا وستبلغ يا مختار ما انتظرته. عندما سأموت من يبقى من يقول لك كلمة الحق القاطعة – وهذا ما يؤسف.

– لماذا تتكلمين هكذا يا عجوز؟– قال المختار بخيبة.– أنا لا أشكو منك، عيشي، كل واحد وله قطعة خبزه...

وابتسمت العجوز بمكر.

– هذا الكلام قله للآخرين، أما أنا فأعرفك... حفظك الله: انما ضع في علمك، فأنا لن أرحل قبل أن أسلم كنزي الوحيد لمالكه، ساعتها فقط سأموت! واكثر من هذا لن يكون لك ما تناله مني.

– أنا لا أطمع منك بشيء،– قال المختار بغضب وقام. وحذا المؤذن حذوه ولبس خفيه.

– كلا، تطمع،– قالت العجوز – عنى أنا لن تخبأ شيئاً، أنا أرى كل ما بقلبك، افهم كل ما تضمره. ولكن بفيروزة لاتحلم، فقريباً ما سنضع فنجان الماء ونقرأ الدعاء وأسلمها أنا لزوجها.

– ولكنكم لن تستغنوا عنا على كل حال،– قال المؤذن.

– في يوم العرس سنخبركم.– قالت العجوز مبتسمة– انما لابأس، اذهب، ولا تزعل مني. انه ذنب لساني، هذا ديدنه، فما أن أراك حتى أرغب في الاساءة اليك... لأنك أسأت الينا جداً جداً في وقتك...

ونادماً على أنه أتى، غادر المختار بيت العجوز وحتى من غير أن يلتفت الى المؤذن الذي كان يعرج خلفه حث الخطو قاصداً بيته.

أقفر الزقاق. ولكن ها هو شخص آخر يقترب من بيت ديلارام ويقرع بابه. مرة أخرى فتحت فيروزة البوابة وقالت بسرور.

– عصا، هذا أنت؟ تفضل، صديقك هنا.

تلكأ عصا دقيقة، حدق في العتمة باحثاً عن وجه فيروزة، دخل صامتاً واغلق الباب خلفه. أخذ فيروزة من يديها الصغيرتين الطريتين مثل براعم الورد فغرقتا في كفيه الرحبتين كأنما في صحن من الفخار.

– فيروزة،– بصوت راعش من الاضطراب قال هو.– كم أنا سعيد برؤيتك...

بردت أنامل فيروزة، سرت الرعشة في أعطافها، ولكنها لم تبتعد عن عصا. وتابع هو:

– اذا لم أرك في اليوم ولو دقيقة واحدة أقضيه دون أن أعرف للراحة طعماً... تماماً كأنني فقدت شيئاً ما... غالياً...

شدت فيروزة برفق على يد الفتى الخشنة ولم تفه بكلمة.

– فيروزة، عزيزتي! أيعقل أنك أنت أيضاً...

تناهى من الغرفة صوت ديلارام، كانت تنادي لفيروزة.

– ها أنا قادمة، – أجابت فيروزة وهرعت الى الغرفة.– جاء عصا،– قالت هي مقتربة من جدتها وجالسة بجوارها. وفي اثرها دخل عصا واتخذ مكاناً قرب حيدر قول.

– من أين أنت؟– سألته العجوز.

– من بيت العروس. هناك لا تعرف النسوة بدونك ماذا يفعلن. العريفة قالت لي: اذهب الى ديلارام واطلب منها أن تبكر غداً في المجيء قدر الامكان.

– واذا مت، ماذا سيفعلون آنذاك بدوني؟... عصا، هل أنت جائع؟ توجد عندنا شوربة، هل تريد؟ فيروزة طبختها، شهية جداً.

– حسناً،– قال عصا ناظراً الى فيروزة.– سآكل مادامت فيروزة هي الطباخة.

أعطت العجوز اشارة لفيروزة فخرجت تلك والتفت حيدرقول الى عصا:

— هل رأيت سعيد السكير؟

— رأيته، سكران كعادته، يلعب مع الساسة بالاكعاب.

— اذا بقي الليلة للنوم في بيت الباي، أخبرني، سأكون على مقربة.

— حسناً.

— ولكن كن رجلا، — قالت العجوز، — لاتستغل كونه سكراناً، انتقم منه بحيث يعرف من هذا الذى يقاصصه.

— أماه، سأفعل كل شيء وفق ما تقولين، هكذا سيجرى كل شيء... والآن سأذهب، صلي من أجلي.

رفعت العجوز يديها بالدعاء، بربرت بكلام ما وقالت «آمين»، انحنى حيدر قول على يدها، قبلها، وضعها على عينيه وانصرف بلا ضجيج، خرج عصا في اثره، أوصد البوابة وعاد الى الغرفة مع فيروزة التي كانت تحمل صحن الشوربة.

قبل أن ينصرف، توقف عصا عند البوابة، أخرج من عبه صرة، وناولها لفيروزة.

— ألبسي هذا غداً، حين ستذهبين الى العرس، — قال هو واختفى في العتمة سريعاً.

فضت فيروزة الصرة ووجدت فيها منديلا من الحرير الافرنجي. سرت الفتاة للهدية فضمت المنديل الى صدرها وقبلته...

في الصباح التالي، وعلى مقربة من حمام جويبار، عثروا على جثة سعيد السكير مقتولا بطعنة خنجر في صدره. أمر غني جان-بايباتشا بغسل الميت ودفنه. فقام الامام والمختار وعدد من السقاة بذلك وحملوا القتيل على نقالة الى مقبرة بيكراباد حيث دفنوه. كان لهذه الواقعة الكريهة وقع سيء في نفس الباي. لكن أكثر ماكدره فيها

وأقلقه هو حدوثها في يوم عرسه: كانت له فأل شر تطير به وانزعج منه. وانبرى الامام والمختار لتهدئة خاطره:

– لا عليك، فما الخطب في أن سكيراً، مقامراً مات! ليكن دمه فداء لك!

– قمامة أقل وعالم أنقى!

– قبل خروج العروس يجب أن تنحر كبشاً...

– المهم أن تكون أنت سليماً معافى!

لكن قلق غني جان كان على نفسه بالضبط. بل وكيف لك ألا تقلق حين تحس أنك محاط بالاعداء، وسيفك قد انكسر، لقد كان ثمة ما يستوجب الذعر. وغني‌جان لم يكن يطمئن لأحد، كان يتوجس خيفة من الجميع ويرى الأعداء في نومه وفي يقظته ثم جاء مقتل سعيد ليزيد الطين بلة ويرمي الهلع في قلب الباي فما عاد يكترث الآن بالعرس. ذهب الباي بنفسه الى قائد شرطة بخارى الأول. طلب اليه أن يجمع كل مقامري المدينة المدمنين، وفي حضور قائد الشرطة انبرى لاستجوابهم. تبين أن سعيد لم يلعب مع أحد منهم عشية مقتله، لم يأم دار القمار، لم يستقرض مالا من أحد، ولم يقرض أحداً. تفحصوا كل ركن من حول حمام جويبار، لكنهم لم يقعوا على أي أثر، وزاد هذا الغموض في هلع الباي. لقد تجاسر الاعداء، رفعوا رؤوسهم، وحادثة القتل هذه أوضح دليل على ذلك. ثم أنها وقعت في يوم عرسه وهذا أيضاً له معناه، له مقاصده الخفية...

ومع ذلك لم تؤثر هذه الحادثة على سير العرس ولا أعاقته. فيما كان غني‌جان جالساً عند قائد الشرطة يجهد ويكد، في بيت عليار-بي كان العرس بكل مراسمه الاحتفالية جارياً على قدم وساق.

في طرف الفناء الكبير الذي نضدت ازاء غرفه الامامية مصاطب من الطوب على الطراز القديم، ربطوا حبلا، نشروا عليه الأبسطة، قاطعين بهذه الطريقة ركن الحوش. حفروا هناك خمسة مواقد كبيرة ونصبوا فوقها خمسة قدور ضخمة. في ثلاثة منها كان يجب أن يحضروا البلوف وفي

الاثنين الآخرين أن يقلوا المحموسة. هنا أيضاً قامت تخوت خشبية عريضة، ارتفعت أكوام الحطب، انتصب سماور عملاق واحتشد الطهاة مع معاونيهم.

كان بينهم حيدر قول أيضاً، وكان مشمراً عن ساعديه ينظف الرز تارة وتارة يلقم النار تحت القدر الذي يسخن فيه الماء، وتارة اخرى يحضر الشاي و يقدمه الى كبير الطهاة... كان العمل كثيراً وكان كبير الطهاة والمختار مسرورين بالمعاون الجديد راضيين عن شطارته وبراعته، فهو منذ الامس قد عرض مهارته حين فرم الجزر.

آب، والصباح باكر. السماء صافية ولكن الظلال تغطي القدور وتفرش الارض بجوار سور المنزل. المختار والطباخ جالسان على تخت خشبي، يشربان الشاي ويتحادثان. يتكلمان عن حادثة الأمس — عن مصرع سعيد السكير. الطباخ يعتبر أن مقتل انسان في يوم العرس فأل شر. فقد قال ظهير الطباخين، أن الزواج لن يكون متيناً اذا أريق في يوم العرس دم بريء. لكن المختار لم يعط للأمر أهمية — أي دم بريء هو هذا، مات سكير مقامر، فأي ضير في موته؟ العالم لم يتأثر بذلك. وليكن دمه فداء للعروس، لكنه بالطبع، يجب العثور على القاتل. دعه يقع وسوف يذهب المختار بنفسه للتفرج عليه. في هذا الحين اقترب من التخت حيدرقول و ناول للمختار جوزة يقطين صغيرة فيها «ناسواي».

— جرب، بالأمس بحثت، بحثث وجدت هذا أخيراً في البازار.

رنا المختار الى وجه حيدرقول الباسم والجميل رغم اللحية الكثيفة والشاربين، أخذ اليقطينة، وضع نتفة من «الناسواي» تحت لسانه وأعادها لصاحبها.

— كيف؟ — سأل ذاك.

واكتفى المختار بأن هز برأسه من المتعة.

أما الطباخ فما فتىء يتكلم عن مقتل سعيد وعن أن الكثير من الدم البرىء يراق في الفترة الأخيرة. كل يوم

تراهم يخرجون الناس من جورة السجن، يسوقونهم الى ريجستان، الى بازار أرغامجين، وهناك يسلمونهم للجلادين، ويعمد هؤلاء، بشراهة لا تشبع، الى قتلهم واحداً تلو الآخر، يريقون الدماء بلا توقف وبلا نهاية. وعلى أية ذنوب؟ ماذا اقترف هؤلاء الناس؟ لعله ليس من الضروري بتاتاً أن يحرم هؤلاء من نعمة الحياة؟ بالأمس رأى الطباخ بأم عينيه كيف أعدم الجلادون ثلاثة فتيان في ريعان الصبا، يافعين لاتكاد شواربهم تظهر، – فعلى أي ذنب قتلوهم؟ كلا، لا يجوز، لقد هدر الكثير من الدم البريء في الآونة الأخيرة. فليحفظنا الله، وعسى أن يوضع حد لكل هذا أخيراً، بعون الله.

بصق المختار «الناسواي» من فمه، نغرغر بالشاي وضحك. مابال الطباخ، قال هو، يخاف من ارهاق الدماء الى هذا الحد وهو ذاته يذبح كل يوم عدداً لا يعد من الخراف والابقار، ويريق بحراً من الدماء؟ قضايا الدولة ليست مزاحاً. اذا كان هؤلاء الناس أبرياء ولا تثقل ضمائرهم الذنوب، فلماذا يعدمونهم اذن؟ انهم بالطبع حرامية، لصوص أو قتلة، مادام صاحب الجلالة الأمير قد حكم عليهم بالاعدام، ان جنابه العالي، أميرنا المعظم رجل رحيم وحريص على رعيته. وليس من سبب للطباخ حتى يحزن، بل عليه أن يصلي من أجل جنابه العالي وأن يدعو له.

في هذه اللحظة ظهرت العجوز ديلارام من الممر المفضي الى الحرملك وقالت بصوت عال:

– ايه، يا رجال، لاتغالوا في شرب الشاي، لقد تأخر الوقت وأما أعمالكم فلست أراها.

– لا تقلقي يا أماه، كل شيء سيكون في وقته المطلوب، البلوف و المحموسة أيضاً.

– بعد صلاة الظهر مباشرة ابدؤوا في تقديم المحموسة.

– على رأسنا، وبكل سرور!

– أتركوا المحموسة لأهل العريس – ما أن يأتوا قدموها لهم في الحال. أنا ما عاد بوسعي أن أركض الى

هنا في كل مرة، فتكفل أنت يا مختار بالأمر، اعمل كل شيء في وقته، برزانة وروية!

— لقد قلت، سأفعل كل شيء— ضحك المختار. —انظروا اليها، عجوز كركوبة ولكنها تحب اعطاء الأوامر!

— اذا كانت توجيهاتي لا تعجبك، فهات، أرنا شطارتك، ياداه، يا كبير الكرش!

انفرط الجميع من حوله ضاحكين وكانت قهقهة حيدرقول عالية بصفة خاصة. لكن مختار حارة تشكر سلطان لم يكن على معرفة بطبع العجوز غير الهيابة، طبعها الذي كان معروفاً لجميع مخاتير الاحياء الأخرى المحيطة ببوابة قاراكول ولهذا امتعض فجأة، التفت الى حيدر قول وصرخ مستنكراً:

— مابالك تقهقه؟ هل أمامك سعدانة ترقص؟ عجوز غبية قالت كلاماً فارغاً، وأنت، كما أرى، سعيد بهذا!

خرس الجميع، وهدر من جديد صوت العجوز الجهور:

— أنت يامختار لم تغسل بياضاتك بصابونتي بعد — فماذا تعرف عني؟ أنا وان كنت غبية، استطيع أن أسود وجه عشرة ألمعيين مثلك! خير لك أن تهتم بالقدور من أن تسب وتشتم!

على الصراخ والهرج خرج من السلاملك رب البيت عليار—بي وفي يده عكاز. قام الجميع عن التخت احتراماً له وقام أيضاً المختار الابجر. وقال عليار — بي:

— يخيل الي أني سمعت صوت ديلارام—كنيز. أهذه أنت، يا عجوز؟ لماذا تهيصين؟

— كنت، أتحادث ومختاركم. يحز في نفسه أنني أتأمر هنا. فقلت له: اذا كنت تريد أن نتبادل، فهات، دعني أنتف لك لحيتك وشواربك، خذ بدلتي البسها، اذهب الى الحريم واعط من الأوامر ما طاب لك.

— هكذا قلت؟ لله درك من عجوز! — ضحك رب البيت الأشيب وضحك المحيطون به من جديد، لكن عليار—بي تكلم بلهجة جادة ماسحاً دموع الضحك عن عينيه: — على رسلك، لا داعي للمزيد من المشاحنات يا عجوز، هذا العرس يجب

أن يحتفل به بحيث يبقى سنين طويلة في ذاكرة الناس. حثي الجميع على العمل، وحين سيأتي الموسيقيون لاتتركي لهم أن يتوقفوا عن العزف وغناء «يار-يار»*. في غرفة البنات أيضاً أقيمي حفلا، فليرقصن هناك وليغنين. الأمل كله فيك، فاذا لم تأخذي الامور على عاتقك لن ننجح في شيء.

— ولكن قل لمختاركم ألا يبهدلني أمام الضيوف. — هتفت ديلارام من الممشى. — دعه يقدم البلوف والمحموسة في الوقت المطلوب، وفي الشكل اللائق، فهذا ليس عرس صاحب دكان أو نداف صوف عادي.

فقال رب البيت:

— حسناً، حسناً، سأطلب ذلك منه بنفسي، أما أنت فاذهبي وحركي الجميع.

دخلت ديلارام-كنيز الى البيت. ومع أن الضيوف لم يلتموا بعد، الا أن الغرف كانت تغص بالاقارب وبالخادمات والخدم.

المصطبة القائمة أمام البيت كانت محاطة بالشراشف، وكانت الغرف الامامية، وخصوصاً تلك الغرفة المتجهة نحو الجنوب الغربي، شطر مكة، كانت مرتبة ومزينة لأجل كبار الضيوف وأعلاهم مقاماً. في طرف الفناء قامت غرفة مخصصة للأطفال ولراحة القائمين على العرس. أما العلية فوق البيت فقد افرزت لصديقات العروس — للفتيات والنساء الشابات، الحديثات الزواج. في القبو الكبير جهزت الصواني مثقلة بالأطايب واللذائذ من الفواكه والحلويات، وكان لديلارام وحدها حق التصرف بكل هذا، كان محظرا على الآخرين أن يمسوه بلا اذن منها. وفي مطبخ الحرملك كانت الطباخات منهمكات في عملهن، كن يقلين الفطائر المرقوقة ويغلين السحلب، ومن حين الى حين كن يستدعين ديلارام، يطلبن مشورتها، يسألنها أن تجرب الفطائر، وأن تقول ماهو العدد

---

* «يار-يار» أغنية شعبية تغنى في حفلات العرس.

المطلوب من اكواب السحلب، أو يطلبن منها أن تصرف المزيد من السكر أو يتشكين من نقص الزعفران...

كان الوقت قد قارب الظهيرة حين جاءت الموسيقيات: عازفتان على المزهر وراقصة في مقتبل العمر. استقبلتهن العجوز ديلارام بنفسها، أجلستهن على المصطبة، فرشت أمامهن سماطاً وقدمت لهن صينية فيها حلوى. ثم انتظرت ريثما تضيفن وقالت:

— عسى ألا يصيبك مكروه، يا عزيزتي مكرمتشا. انني كثيراً ما أتذكر صوتك العذب ورقصاتك الفاتنة. هاتي بالله امتعينا نحن قبل مجيء الضيوف...

قامت مكرمتشا وانحنت اكراماً. كانت في ثوب من الاستبرق المذهب المحلى بشرائط ذهبية، على جبينها عصبة مطرزة بخيوط الذهب وفوق العصبة منديل من الحرير. سروالان من المخمل موشيان بالشرائط والشراشيب، كانا يغطيان ساقيها حتى الكعبين وكانت أظافر قدميها مطلية بالحناء. أما يداها البيضاوان فكانتا محليتين بالأساور والخواتم. أخذت العازفتان وكانتا امرأتين في متوسط العمر، مزهريهما، فعزفتا في البداية مقدمة موسيقية ثم انتقلتا الى أغاني الأعراس. وغنت مكرمتشا وهي تتحرك ببطء:

يار–يار يا صديقى، كل عمري فداء لك، يا صديقي يار–يار
هذي المليحة التركية أم العيون الشيرازية أنا عبدها
مستعد أن أهب سمرقند و بخارى مقابل الشامة وحدها
يار–يار يا صديقى، كل عمري فداء لك ياصديقى يار–يار!

وفجأة تغيرت نغمة المزاهر وصارت مرحة: «يار–يار–ياربى حاجباك، كالهلال...» وفي الحال حفلت الغرفة بالناس، من كل صوب هرعت الى هنا الخادمات والسيدات أيضاً والكل يهتفون منفعلين: «الله–الله، يا سلام!» من فوق، من العلية أطلت الفتيات – صديقات العروس واعتلى الصبيان والبنات الصغار أسطحة البيوت المجاورة.

وما فرغت عازفات مكرمتشا من العزف حتى جاءت أخريات على رأسهن الراقصة تيللا. كانت ديلارام-كنيز تستقبل الضيوف وحسب مقامهم وألقابهم كانت تدعوهم الى الغرف وتوعز للخادمات بأن يفرشن الاسمطة أمامهم وأن يضعن الصواني والضيافة.

ورويداً رويداً كانت الغرف تمتلىء بالضيوف – نساء وبنات وأطفالا صغاراً، أنغام المزاهر وأصوات المطربات، ودربكة الراقصات اللائي كن يرقصن أمام الضيوف بالدور، وكذلك اللغو العام وصراخ الاطفال وضجيج الخادمات – كل هذا اختلط في هرج عيدي شامل معتاد بالنسبة لأعراس بخارى.

في ذات الوقت كانت العروس في العلية تمرح مع صديقاتها وكانت الوليمة تجري على قدم وساق. هنا اجتمعت بنات البايات الاثرياء وكن جميعاً في أثوابهن الحريرية الحفافة معتدات بانفسهن، متغطرسات متعجرفات. على سدة الشرف كانت العروس جالسة على سبعة ألحفة حريرية ومخملية منضوضة فوق بعضها. كانت ترفل في ثوب من حرير وردي اللون رقيق رقيق له ردنان واسعان عريضان وياقة قاسية موشاة بشرائط مزخرفة. فوق الثوب كانت ترتدي بلوزة بلا أكمام، من المخمل الأحمر مشرشرة الأطراف بأهداب ذهبية. شعر العروس كان مضفوراً جدائل ناعمة رقيقة تدلت مشبوكة بخيوط ذهبية وفضية وبأنواط ذهبية. وعلى رأسها طاقية مطرزة بخيوط الذهب ومن فوق الطاقية انسدل خمار أبيض شفاف. عينا مغفرات كبيرتان سوداوان، حاجباها طويلان رقيقان، ومع أن أنفها كان كبيراً بعض الشيء ومحدودباً لكنه كان يتناسب ووجهها الأسمر المستطيل. ثغرها كان طرياً فاتناً يفتر عن قوسين من الثنايا اللؤلؤية البيضاء، لكن الكبرياء، والغطرسة كانتا تغلبان على الجمال، وما كان وجهها يبشر بالبسمة الا فيما ندر.

وكان صوتها منخفضا مبموح النبرة وحركاتها كانت

نزقة حادة. في مخاطبة صديقاتها كانت تصرخ: «يا، أنت!»، كانت تطبق على اكتافهن بيديها الطويلتين العجفاوين وكانت تدفعهن بخشونة. لم يكن بين صديقاتها من تجرؤ في حضورها على التباهي بخواتمها، بأقراطها أو أساورها، من تجرؤ على الظهور في ثوب أبهى من ثوبها، أو الاطراء على جمال غيرجمالها. كلا، فما من أحد يضاهي مغفرات بالحسن، ما من أحد يجاريها بالعقل... كل المحاسن والحسنات من نصيب مغفرات وحدها!..

في مواجهة العروس، وفي طرف الغرفة الآخر، قعدت فيروزة. كانت في فستان جميل رماني اللون، في جيليت من الساتين الاسود، موشى بمخمل أحمر، وعلى رأسها ذلك المنديل الحريري الأحمر هدية عصا - وهذا كل هندامها. ولكنها على حسن يثير حسد بنات البايات بل وحسد مغفرات ذاتها. كانت هذه تتملاها باستمرار ولم تستطع كبت ما بنفسها فسألت أخيراً شاخصة الى فيروزة:

- هل أنت حفيدة الخالة ديلارام؟ ما اسمك؟

- اسمي فيروزة.

- اسم جميل، - قالت واحدة من صاحبات العروس مقدرة أن مغفرات تريد ايلاء فيروزة بعض الاهتمام.

ولكن مغفرات زنخرت:

- أي جمال وجدت في اسم كهذا؟ أنعم وأكرم، فيروزة! ان الفيروز ليس بحجر كريم، انه لا يساوي شيئاً. لو كان اسمها لأل، أو ألماس أو مرواريد*، - هذا شيء مختلف تماماً؟

- أجمل الاسماء تحمله صديقتي مغفرات! - قالت احدى بنات الذوات غامزة بعينها خلسة لواحدة أخرى. - مغ-فير-ات، ياله من نغم! ان اللعاب يسيل ما ان تنطقي به، ما أحلى وقعه... أو لعله يخال الي فقط؟

لم تفطن مغفرات الى ما انطوى عليه كلام صديقتها من

---

* لأل - ياقوت، مرواريد - جمانة.

سخرية: حين سمعت هذا الاطراء باسمها انفرجت اسراريها، زال حسدها لفيروزة وأمرت الفتاة بأن تنهض وترقص أمامها. قالت فيروزة بحياء أنها لا تجيد الرقص ولكن مغفرات تعنتت وقالت أن جميع الجواري وبناتهن يرقصن وأنه ليس من المعقول ألا تجيده فيروزة. كما وألحت البنات الاخريات أيضاً، وارتبكت فيروزة. فهي كانت تدرك أنها لو رفضت وهربت فان مغفرات ستنادي جدتها وتقيم الدنيا وتقعدها، وديلارام-كنيز لا تطيق أن يصرخ عليها الآخرون، سوف ترد بكلمة لاذعة، فيحتدم الموقف وتضطر الجدة والحفيدة الى مغادرة العرس. كان يجب ايجاد حل. ولكن أي حل؟ وهنا تذكرت فيروزة أنه منذ أمد غير بعيد عكفت التلميذات الكبيرات في مدرسة المعلمة طنبور على استظهار قصيدة جميلة حظيت باعجابهن جميعاً. وكانت فيروزة أيضاً قد حفظت هذه القصيدة. فقررت أن تقرأها الآن آملة أن ترضي البنات فيتركنها لحالها.

— بوسعي أن أقرأ لكن شعراً، —قالت هي،—حول زوج الاثنتين. لم تعر مغفرات جواباً، وأما البنات فرحن يسألنها:

— اقرأي يا فيروزة، اقرأي!

كانت فيروزة فتاة حصيفة وفطنة لكنها كانت كالاطفال غريرة صافية القلب، فلم تلحظ ما طرأ على مزاج مغفرات من تعكر، تنحنحت وراحت تقرأ بجرأة وبصوت عذب مرتفع النبرة:

أوتدري — أتعس التعساء من،	أتعس التعساء زوج الاثنتين
ها أنا أكشف ماخلف المجن	سأغني عن خفايا قلب زوج الاثنتين
انه في الليل يبكي ويئن	دمعه يجري ويكوي المقلتين
ألا فلتعرفن شيباً وصغاراً	ذا النشيد حول زوج الاثنتين

عند هذا توقفت فيروزة وأخذت نفساً. فحثتها الفتيات على الاستمرار في القراءة.

يهمس الزوج بحرف للكبيرة ... تزعل الصغرى وتقلب بوزها
غيمة سوداء حبلى بالوعيد ... فوق عينيها تقطب حاجبيها
ثم تنهال على الزوج هتونا ... وتصب فوق رأسه غيظها
غيرة، بغض ومقت وخصام ... مرة الطعم حياة الزوجتين
ومع الزوجين يشقى بل ويهلك ... في ربيع العمر زوج الاثنتين.
زوجتان - هذا يعني محنتين ... زوج أحمال يهد المنكبين

لو تنازلت لكل منهما ... تتئم البلوى وتنجب حسرتين
رب في الصحراء مهرب؟ ... ربما الرمضاء مهرب من أتون؟
لاترو من خلاصاً بالطلاق ... انه الافلاس والعيش الضنين
واذن لم يبق الا المسجد ... موئلا يغشاه زوج الاثنتين!

وهنا سكتت فيروزة. ثم قالت:

- الباقي ماعدت آذكره.

- كلا، تذكرين، تذكرين! - صاحت الفتيات ورددن أبيات القصيدة ضاحكات مرحات، أما مغفرات فانكمشت على نفسها كالافعى ولزمت الصمت.

وأغلب الظن أن هذه القصيدة كانت ستنسى عاجلا، كما وكان سينجلي مزاج العروس الذي عكرته هذه الاشعار، لو لا آن واحدة من الفتيات أفسدت لسوء الحظ كل شيء. فرددت البيت الأخير وهتفت:

- واذن، فان من يأخذ زوجتين يندم، ولكن ماهو مآل من يتزوج ثلاثاً؟

- من يتزوج ثلاثاً سوف يفلس بالمرة. - صاحت عابثة أخرى وضحك الجميع.

وضاقت العروس بذلك ذرعاً فصرخت:

- كفى! اسكتن، أليس عندكن حياء! ماذا سيقول الضيوف تحت، لو سمعوا قهقهتكن السمجة؟ ان شرفي عزيز علي!

وجمت الفتيات في الحال وكأن ريحاً خريفية قد ذرت البشر عن وجوههن. أما فيروزة فكانت تحدق في العروس مشدوهة حائرة لا تدري لغضبها سبباً.

– من لقنك هذه الاشعار – فحت مغفرات كالافعى.– أي لسان سام علمك هذه الأبيات؟

فقالت فيروزة:

– عندنا في المدرسة سمعت البنات يقرأنها.

– تكذبين،– صرخت مغفرات. – ثمة من علمك اياها عن عمد. قولي، من؟

لم تنطق فيروزة.

– اذهبي، نادي جدتك.

وصعقت فيروزة. لقد حدث ما كانت تخشاه. لو أنها كانت تعرف أن هذه الاشعار لن تروق لمغفرات، لما نطق بها لسانها. والآن سوف يقولون للجدة عن هذا، سوف تتكدر هي وتستاء. ورأت الفتيات أن فيروزة قد تكدرت فانبرين للدفاع عنها:

– خلي عنك، ما هذا لذي فعلته؟

– ماذا يغضبك يا صديقة؟ ان هذا ليس عنك...

– لا تعذبي الفتاة المسكينة!

– ديلارام–كنيز مشغولة، انها غارقة في العمل...

رأت مغفرات أن فيروزة لاتبرح مكانها فصارت تسب:

– اغربي عن وجهي! اذهبي ونادي جدتك العبدة، قولي لها أن تأتي الى هنا حالا.

خرجت فيروزة على غير عجل وكانت الدموع تترقرق في مقلتيها.

وتحت، كانت مأدبة العرس في عزها. كانوا يقدمون المحموسة للضيوف. واضطرت العجوز ديلارام لان تقترب مرة أخرى من القدور وأن تتناقر مع المختار من أجل أن يصب المحموسة في الصحون كما يجب وأن يضع المزيد من اللحم. وهنا بالضبط اقتربت منها فيروزة المكتئبة وقالت لها أن العروس تطلبها.

- كلا، يا حملي الوديع، - اجابت العجوز وهي تراقب كيف يوزع الخدم صحون المحموسة. - الآن على العروس ذاتها أن تأتي الي، فليس لدي وقت. اذهبي، امرحن هناك.
ولكن فيروزة تعلقت بكم جدتها.
- كلا! - هتفت هي ولم تقو على النطق بشيء آخر، ارتمت على صدر جدتها وراحت تبكي.
وفي الحال نسيت العجوز كل شيء - نسيت العرس والضيوف والمحموسة والموسيقيات والمختار: فيروزتها تبكي في العيد. ان هذا لم يحدث من قبل أبداً! واذن، ثمة من أساء اليها بشدة.
- ما هذا، ما هذا - سألت وهي تداعب حفيدتها. - ماذا جرى؟ لماذا تبكين؟ ليهلكوا جميعاً مقابل دمعة واحدة منك!
قالت الحفيدة:
- مغفرات، - ولم تفه بكلمة اخرى ثم طأطأت رأسها.
- مغفرات أساءت اليك؟ أغلظت لك في القول؟ طردتك؟
رفعت فيروزة رأسها وكانت الدموع تجري غزيرة على وجهها البض كتويج الوردة. كفكفت العجوز تلك الدموع بكمها وتجهمت.
- هيا بنا! - قالت هي لفيروزة. - سأتكلم بنفسي مع الآنسة العروس.
وصعدتا الى فوق. كانت العجوز تحتدم غضباً فارتقت السلم دون توقف ولكنها حين بلغت الشرفة اضطرت لذلك. كانت تلهث وكان قلبها يخفق متسارعاً. راحت تهوي بكمها وباليد الاخرى مسحت على رأس حفيدتها التي كانت تنظر اليها في هلع وبعينين تترعهما الدموع.
ابان ذلك كان قد تسنى لصديقات العروس أن يروحن عنها بالمزاح والمرح فزال غضبها وحين دخلت العجوز لم تعزف حتى عن القيام احتراماً لها.

– وعليكن السلام،– ردت العجوز على تحية البنات.– اجلسن، اجلسن. عسى أن يزيد الله من مثل هذه اللقاءات في عمركن! نعم يا سيدتي، بماذا تأمرين؟

اربكت صرامة العجوز مغفرات فاحتارت لاتدري ماذا تقول.

– بل لا شيء،– تمتمت العروس.– لا شيء البتة، كنا نمزح وحسب...

– وفرّي مزحاتك لتشيميلدق* يا حضرة العروس،– قالت العجوز بصرامة.– في عز العمل ترغمينني أنا العجوز ابنة التسعين على الصعود الى هنا، الى العلية، بل وتسيئين الى حفيدتي الوحيدة الى قرة عيني، ترغمينها على البكاء– هذا سيىء!

لزم الجميع جانب الصمت، جلسن في وجوم. ورفعت مغفرات رأسها.

– بل عليك بقرة عينيك الوحيدة، علميها حسن التصرف.– قالت هي محدقة في عيني العجوز مباشرة.– علميها ما هو الجيد وما هو السيىء.

– وأي اثم ارتكبت؟

– اسأليها هي عن ذلك.

كانت فيروزة واقفة غاضة الطرف، وبرغم الحر، كانت يداها ورجلاها باردة، اعتراها الهلع، خفق قلبها، ودت أن تخرج من هنا سريعاً، أن تهرب مبتعدة عن هؤلاء الفتيات الجسورات اللاذعات الالسن، أن تختلط بالحشد وأن تذوب فيه حتى لا يراها أحد.

– الأمر تافه، لاشيء ذا بال، – تدخلت في الحديث واحدة من الفتيات. – لقد طلبنا من فيروزة أن ترينا مواهبها فقرأت لنا قصيدة عن زوج الاثنتين.

– وما العيب في هذا!

---

* تشيميلدق (**طاجيكية**) – هي الستارة التي يلتقي خلفها العروسان.

– هناك من علمها، – قالت مغفرات. – وهي لا تقر، لكنني أدرك جيداً أن هذه مكيدة من احدى سيدتي ذلك البيت الذي أهم بدخوله.

– لاتستعجلي يا حضرة العروس، سيكون لديك الوقت الكافي للغيرة والخصام. ان طفلتي، والحمدلله، ليست خادمة عند ضرتيك حتى تنقل لك كلماتهما.

وأحجمت مغفرات عن الكلام اما تأثراً منها بكلمة ديلارام واما خوفاً من نظرة الغضب التي مثلت في عيني العجوز الغائرتين عميقاً.

أما ديلارام فاستمرت:

– أنا، المريضة، قمت من فراشي وأتيت مقوسة الظهر أجرجر قدمي الى عرسك لكي أخدم الناس – وهذا ما أناله مكافأة على جهودي! هيا لنمض يا حملي، فاننا سنعيش حتى بدون بلوف العرس.

قامت فيروزة والعجوز بنية الانصراف ولكن البنات أحطن بهما.

– لاتغضبي يا جدة، سامحينا! ان الذنب ذنبنا، نحن اللائي أخطأنا. لا تغادرينا، اجلسي معنا بالله، ومع فيروزة سوف نتصالح.

وتناولت أحداهن المزهر ودارت الأخريات حول العجوز وتوصلن الى مبغاهن فابتسمت ديلارام وهزت رأسها.

– لكن الله، حسناً، ليكن لكن ما تريدن، سوف أبقى، انني لن اشاركك في يوم عرسك يا حضرة العروس! فنحن، مهما يكن، خدم لكم، سنقوم بما يطلب منا وبعد ذلك ننصرف...

في هذه اللحظة ترامت من الاسفل أصوات تنادي العجوز. ثم صعدت الى فوق ربة البيت أم مغفرات نفسها، كانت امرأة مسنة، فصعدت متهدجة الانفاس وحين رأت ديلارام هنا قالت:

– أراك قد هدأت باكراً يا خالة! هناك تحت حتى الكلب لا يجد صاحبه بدونك. والبنات لن يهربن من هنا!

— السيدة العروس هي التي دعتني الى هنا — أجابت العجوز خارجة من الغرفة. — وماذا حدث هناك؟

— اذهبي بالله، لقد حان الوقت لتقديم البلوف، من الفناء الأول يطلبون.

— لقد أضاع المختار عقله. الخطاب لم يأتوا بعد فلمن نقدم البلوف؟

خرجت فيروزة أيضاً في اثر جدتها وسيدة البيت، ورنت خلفها ضحكة مغفرات:

— أن هي لم تخدمنا فمن أين تحصل على خبزها، هذه العبدة العجوز!

وجفلت فيروزة، تورد وجهها وشخصت الى جدتها — أو لم يقع على هدفه هذا السهم المسموم؟ ولكن العجوز سارت في تؤدة وهدوء وكأنها لم تسمع شيئاً. وكان خيراً لها أن لاتكون هادئة هكذا، كان خيراً لها أن تصب جام غضبها على مغفرات وعلى أم مغفرات، كان خيراً لها أن تصرخ عليهما أن تفند مثالبهما بأقذع الألفاظ وأحمأها. ولكنها سكتت على مضض وكبتت ما بقلبها، ثم ما أن نزلت الى تحت حتى باتت عاجزة عن الوقوف على قدميها فجلست على الارض يتصبب من وجهها عرق بارد. هرعت الخادمات اليها ومع فيروزة رفعنها، اقتدنها الى الغرفة فأرقدنها قرب النافذة ونزعن عنها المنديل. بيدين راعشتين سقت فيروزة جدتها ماء بارداً وراحت تهوي لها بالمروحة.

طردت خادمة مسنة ومجربة عن النافذة المتفرجين الكسالى الذين كانوا يتطلعون بفضول الى الغرفة، قالت لهم أن صحة ديلارام-كنيز ساءت قليلا وليس الا، وهذا يحدث مع كبار السن. ثم هرولت الى القبو، صبت في كوب ماء وسكر، رشت عليه بعض الزعفران وحملته الى العجوز. أعادت رائحة الزعفران والماء الحلو العجوز الى رشدها ففتحت عينيها وقالت بارتياح:

— الحمد لله، لقد عاد قلبي الى مكانه. لاتخافي ياحملي، جدتك مازالت حية.

كفكفت فيروزة دموعها وقبلت الجدة. في الغرفة دونهما لم يبق أحد الا الأطفال الذين أرقدوا للنوم هنا. الجميع مضوا لاستقبال أهل العريس ارتفعت أصوات الموسيقى وغنى المطربون أغنية على شرف الخطاب.

— لا تخافي علي، صارت حالي أحسن، — قالت العجوز — أذهبي، تفرجي على ما يجري، تمتعي برؤية هذا المشهد. لقد أتى أهل العريس سوف أرتاح قليلا وأخرج أنا أيضاً.

انحنت فيروزة على صدر جدتها وقالت:

— لن أذهب من دونك الى أي مكان. لست في حاجة الى هذه المشاهد.

٧

الليل حالك، وفي السماء الصافية تتلألأ آلاف النجوم كأنها قطع ذهبية ألقيت على رأس العروس — المعمورة — فتناثرت في كل الأرجاء وتألقت ساطعة براقة. في السماء لن يلم أحد هذه القطع الذهبية، لكنه على هذا، ثمة فوق الأرض من ينتظرها، ففي دار عليار—بي احتشدت كثرة من الناس، والصبيان بصفة خاصة، لاستقبال العريس. طمعاً بذهبه. كان الفناء مضاء بالفوانيس والمشاعل، والسلاملك كان مزيناً لأجل الضيوف الأعزاء وكذلك المصطبة. الشيوخ وامام المسجد الداني جالسون على منادر جديدة وأمامهم فرش سماط صفت فوقه صواني الحلوى وأطباق اليخنة.

من الحرملك ترامت أنغام المزاهر وشدو المغنيات وكان اللغو والهرج مسموعاً في كل حدب من المدينة وصوب. قرع الطبول يترامى من البعيد، يزف موكب العريس المقترب.

عج بيت العروس بحركة متزايدة. فقد سمع الطباخون والمختار اقتراب موكب العريس فعجلوا في القاء الحطب تحت قدور البلوف.

انبرى حيدرقول مع الطباخين للعمل: باديء ذي بدء

كان عليهم أن يغسلوا الرز وأن يرموه في القدور. بمغرفة ضخمة راح يخرج الرز نصف المسلوق من قدر كبير فيه ماء مالح ويفرده على زنابيل جديدة موضوعة فوق حزم من أغصان الشوح. غطى الرز خمس زنابيل كاملة. ثم جاء السقاة بماء بارد وراحوا يصبونه فوق الرز الى أن غسلوا عنه النخامة وبعد ذلك أهاله الطهاة فوق اللحم والجزر والزبيب التي كانت تغلي في القدر على نار هادئة.

كان حيدرقول يعمل وفي نفس الوقت يضغي متوتر الاعصاب الى أنغام الكارناي* موكب العريس يدنو، ومع اقترابه تزداد دقات قلب حيدرقول عنفاً. لقد عقد العزم على الثأر من غني‌جان في يوم عرسه بالذات، في تلك اللحظة التي سيدخل فيها الباى بيت العروس. كلا، لا يجوز أن ينعم دقيقة واحدة قبل موته! الموكب يقترب والقلب يكاد ينفجر من الانفعال. كان ما سوف يكون! انه واثق من أن يده لن ترتجف وأن سكينه سوف تنغمد في قلب الباي الاسود، ولكن لماذا يرتعش الآن. هل سيقبضون عليه حال ارتكابه لفعلته أم سيرتبكون ويتأتى له أن يهرب؟ بالنسبة له الأمر سيان، ولكن ماذا سيكون من أمر ديلارام- كنيز؟ لقد رآه المختار والمؤذن في بيتها. واذن يجب أن يفعل كل شيء بحيث لا يقع، ولكن كيف؟

أمره المختار بأن يحمل حزمة حطب الى البوابة وأن يشعلها هناك. انشغل حيدرقول بذلك وهنا رأى عصا. كان الفتي في طريقه الى الحرملك ينظر الى صديقه باسماً. «ياله من شاب رائع عصا هذا»، فكر حيدرقول. استل من الموقد قرمة مشتعلة وحملها الى البوابة كي يضرم النار في الحطب. تأججت الشوكة والقرمة بلهب ساطع، احتدمت النار وهنا ظهر الموكب. حشد غفير من الناس مع مشاعل

---

* الكارناي – بوق طويل قوي الصوت ينفخ فيه في الأفراح والأعياد والمناسبات.

متوقدة في الأيدي، مع طبول وسورناي* في المقدمة كان يدنو من البيت يزفه الضجيج والصراخ والرقص والزغاريد.

وقف حيدرقول في الباب متأهباً ويده في عبه تشد على السكين. عليار–بي، وابناؤه وكذلك المختار وشيوخ الحي والأصدقاء والمعارف كانوا محتشدين عند النار منتظرين العريس المقترب. في هذه اللحظة هرول عصا الى حيدرقول ومس كتفه. جفل حيدرقول والتفت:

– ماذا حدث؟

– الخالة ديلارام! – لاهثاً نطق عصا بعسر. – حالتها سيئة، ارم كل شيء وهيابنا، يجب أن نحملها الى البيت. فيروزة تبكي وتندب، والكل تحوقوا حولها.

– آخ! – ضرب حيدرقول نفسه على جبينه في خيبة. – ماذا لي أن أفعل؟ ألا يسعكم الانتظار قليلا؟ بل كلا، لايجوز. الآن سنذهب... ولكن ماذا عني؟ أمر مؤسف... أنت وحدك لن تنهض بالأمر طبعاً... آخ، ما أردىء هذا... ولكن لا بأس، هيا بنا.

ومضى حيدرقول خلف عصا.

وفي هذا الحين كان موكب العريس قد بلغ الباب وتوقف. دقاقو الطبول وعازفو السورنايات تنحوا جانباً وجددوا العزف. والشبان راحوا يقفزون عبر النار. شابان في أيديهما صناجات كانا يرقصان حول النار. واستمر هذا حوالى عشر دقائق ثم دعي العريس. أحاط به الاصدقاء من كل جانب، لفوا به مرة حول النار ثم اقتادوه الى البيت. وخلفه انجر الآخرون.

كان الحشد قد تفرق حين ظهر حيدرقول في الباب حاملا ديلارام على يديه، أمامه سار عصا في يده فانوس وبجواره فيروزة متلفعة بالملاية. في الطريق التقوا بعبد

* سورناي – ماصول من الخشب.

الله، كبير الخدم في بيت غني جان، رأى عصا فأمره بأن يعطي الفانوس لفيروزة وأن يعود الى البيت — ثمة عمل له. ترجاه عصا أن يتركه لكي يساعد في حمل العجوز، لكن عبد الله لم يأذن، قال أن العجوز لن تصاب بمكروه وغداً سوف تنهض سليمة معافاة، أما الآن فلا وقت للاعتناء بها.

وتكلمت العجوز بصوت أجش:

— اذهب يا ابني اذهب. لابأس علي. ستأتي فيما بعد.

ناول عصا الفانوس لفيروزة وقفل راجعاً. تابع حيدرقول السير يحمل العجوز وفيروزة تنير له الطريق.

...وها هي ديلارام-كنيز ترقد في فراشها مقطوفة الوجه شاحبة، عيناها نصف مغمضتين، شفتها السفلى معضوضة، شعرها عكش، يداها متهالكتان في ضعف. عند رأسها تبكي فيروزة وقرب قدميها حيدرقول جالس مطأطىء الرأس. المصباح الصغير يكاد لا ينير والغرفة شبه مظلمة، وهدوء لا تسمع فيه الا شهقات فيروزة.

بدا وكأن الزمن لايتحرك. وحيدرقول في حوزة اليأس، يتنفس في عسر ويخال اليه أن الارواح الشريرة قد علقت على رقبته حجر رحى وأنه يختنق تحت ثقلها، ثلاثة اشهر انتظر هو هذا اليوم، أعد العدة للثأر من عدوه. عاش لاجل هذا وحده. في كل ليلة كانت زوجته وابنته تتراءيان له، في ثياب مدماة تمدان نحوه أيديهما الضعيفة وحتى الفجر تسألانه أن يثأر لهما، في الصباح كانت الرؤية تختفي وكان حيدرقول يقسم ألا يموت قبل أن يطمئن نفسي الراحلتين العزيزتين، قبل أن ينفذ مطلبهما. لقد اقتص من أحد جلاديهما، وقف أمامه وجهاً لوجه، سمى نفسه وقتل الغريم... ومن جديد تراءت له في هذه الليلة حبيبتاه، كانتا فرحتين ولكن الدموع كانت تنهمر من أعينهما، طالبتاه أن يصرع عدوهما الرئيسي الذي يتمتع بالحياة ناسيا جرائمه.

مساء هذا اليوم كان كل شيء جاهزاً للثأر عدوه كان مرحاً غافلا يقترب من باب سعادته ويد المنتقم كان يجب

أن تصرعه. ولكن السماء، على مايبدو، لم تشأ لحيدر قول ان ينتقم. انه ما كان بقادر أن يترك العجوز وهي تنازع الموت. بل حتى ولو كان هناك، قرب البوابة، لارتعشت يده على كل حال لأن أفكاره كانت مشغولة بأمر آخر...

تنهدت ديلارام، رفعت اصبعها فوق رأسها وأشارت الى شيء ما. كانت فيروزة تبكي فلم تلحظ ذلك. فلمس حيدر قول كتفها وقال:

– جدتك تطلب شيئاً ما.

نظرت فيروزة الى ديلارام.

– انها تطلب دواءها.

أومأت العجوز ايجاباً. وقامت فيروزة فتناولت قارورة الدواء وأعطتها لجدتها لتشرب. بمرور بعض الوقت تحسنت حال ديلارام، أغمضت عينيها وصارت انفاسها أكثر انتظاماً.

بعد قليل من الوقت صحت ديلارام من غفوتها فتطلعت الى حيدرقول وسألته بهمس مبحوح:

– لم يتأت لك؟

فهز حيدرقول رأسه.

وقالت العجوز:

– صن نفسك يا ولدي!

ثم رفعت يديها الراعشتين وراحت تدعو:

آزرك الله بالنصر وليحمك ويرعاك! كن أباً ليتيمتي...

انحنى حيدرقول ووضع يد العجوز على عينيه.

– أماه يا عزيزتي! – وكان هذا كل ما استطاع قوله.

ومن جديد خيم الصمت على الغرفة وما كان يسمع الا نحيب فيروزة. فمسحت العجوز على رأس حفيدتها.

– لاتبكي يا حملي الوديع، لاتبكي! كل ما هنالك أنني تعبت في العرس، سأنام الليلة وغداً سأنهض وكأن شيئاً لم يكن. اطمئني، وليطمئن العم حيدرقول أيضاً وليذهب في شؤونه، لا داعي للقلق علينا.

واعترض حيدرقول.

– ليس عندي أية أعمال أخرى...

– كلا، عندك! عصا الآن هناك، وينبغي التفكير فيه. كن له نصيراً وظهيراً! آه، ليتنى آخذه صهراً وبعد ذلك أن أموت... ولكن لا بأس، اذهب، اجمع الصحون والقدور وطالب اصحاب البيت بأجرك.

وقف حيدرقول في تردد ولكنه رأى نظرة العجوز الصافية وبسمتها الودودة فانحنى ثانية وقبل يدها.

– سوف أعود!– قال هو خارجاً.– قريباً سأعود، وسأصطحب معي عصا.

كان الجو رطيباً، على المدينة يهب نسيم منعش والديوك كانت تصيح.

وفي بيت عليار–بي كان الاحتفال يجري في مساره. النساء حاملات الشموع في ايديهن ومرددات أغاني العرس وهتافات «ألف سلام!» اقتدن العروس الى الغرفة الكبيرة، الى خلف ستارة الزفاف. وفي السلاملك الرئيسي فرغ الرجال من أكل البلوف فرفعوا المائدة وأمام امام المسجد المحلي الذي تربع في صدر المجلس، وضعوا طاسة فيها ماء، بعد استجواب الشاهدين تقرر أن يكون المختار وكيل العروس. فقرأ الامام دعاء وبعد أن أعلن وكيل العروس وأعلن العريس موافقتهما على الزواج، وضعت مغفرات رسمياً في عصمة غني جان. طافت طاسة الماء على الجميع وارتشف كل واحد منها بلعة متمنياً لنفسه مثل هذه السعادة. وبعد ذلك طلبت النساء العريس الى الحرملك.

في تلك الليلة هذب العريس شاربيه ولحيته الجميلة حتى من دون هذا، ارتدى حلة العرسان: قميصاً حريرياً وسروالا، جزمة من الجلد الملون وخفين، رداء طويلا من التيسور الياباني وفوقه روب حريري أبيض، خفيف بلا بطانة. وفوق هذا كله روب آخر من الخز القارشي السميك. على رأسه عمامة من الحرير الدقيق ملفوفة بطلاقة، وكانت جيوبه مليئة بالقطع الذهبية والفضية. حينما خرج من السلاملك كب عليار–بي على رأسه زبدية من القطع النقدية البخارية. وتخاطفها الغلمان والخدم في الحال،

وحين مر العريس في الممر المسقوف أفرغ عم العروس عليه كيساً آخر من القطع الفضية فجمعتها الخادمات والبنات من الفناء الداخلي. ومن جديد تعالت «سلامات» لاتنتهي ورددت الأفواه: «ألف تحية وسلام» وكان الهرج والمرج عالياً ترتعد له أركان البيت كله.

عند باب الغرفة الكبيرة حيث كانت العروس خلف الستارة تنتظر ألقت أمها على العريس المزيد من القطع الذهبية. فانكبت النسوة والبنات عليها صارخات زاعقات، ارتمين على الارض يجمعن الذهب. وعندما اقتيد العريس أخيراً الى الغرفة ودخل، شخصت جميع النساء الشابات والفتيات اليه بفضول واضح وغبطت كثيرات منهن العروس وحسدنها في سرهن.

حسب العادات القديمة للطاجيك البخاريين يحاول العريس ما أن يدخل الى خلف الستارة أن يتلمس بقدمه قدم العروس وأن يدوس عليها، كما وتحاول العروس بدورها أن تفعل المثل. دلالة ذلك أن الذي يفعل هذا أولا، هو الذي سيكون رأس الأسرة. وقد أراد غني جان أن يدوس على قدم مغفرات، لكن ذلك لم يتسن له، وفي النتيجة أحس بقدم العروس على قدمه. لاحظ مرافقو العريس ذلك فرفعوا عقائرهم كيما يغطوا على هتافات الغبطة التي أطلقها أهل العروس. ثم جاؤوا بمرآة وأمسكتها عريفة الاعراس في مواجهة العروسين. رفع غني جان عن وجه العروس النقاب الموشى بالذهب ورأى كل منهما خيال الآخر في المرآة. راقت العروس للعريس وظهرت على محياه ابتسامة راضية كما ووقع هو من قلب العروس موقعاً حسناً فطفقت تضحك عالياً، الأمر الذي أثار عجب الضيفات اللائي سمعن هذه القهقهة المجردة من الحياء فأمسكن رؤوسهن ووضع بعضهن اصبعه على صدغه. ولكن هذا الضحك أيضاً راق للعريس. ثم جلس العروسان، قدمت لهما الضيافة وأسدلت الستارة عليهما. وبعد ذلك أمر العريس بألا ترفع الستارة وصار من المتعذر معرفة مايجري خلفها. لكن الناس قالوا أن

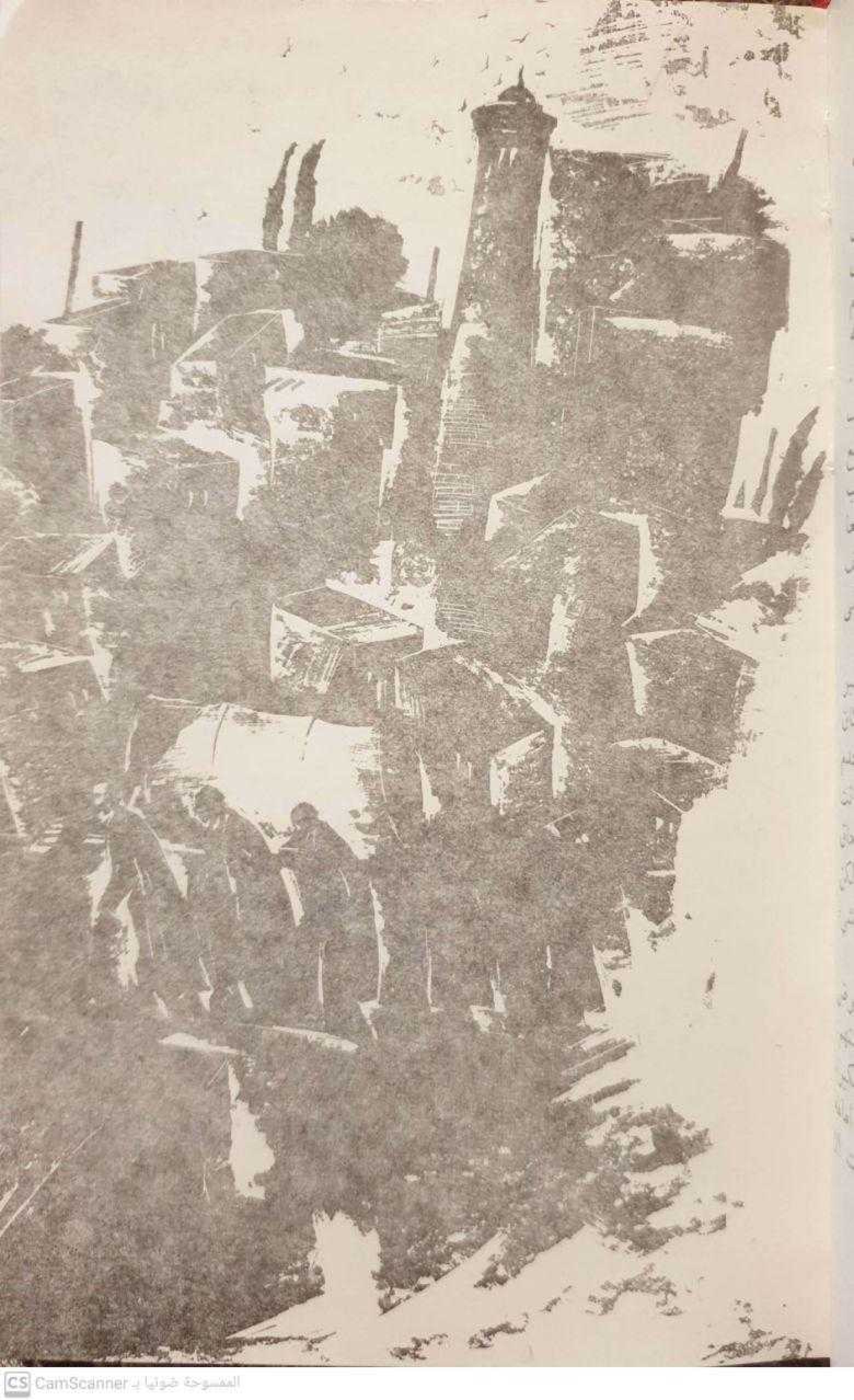
العروسين تباوسا، وطويلا طويلا لم يشبعا من بعضهما تقبيلا. ولم تزح الستارة الا حين بدأ الرقص، ساعتها فقط خرج العريس فمتع طرفه قليلا برؤية حفلة النساء وانصرف حاملا صرة كبيرة من القرى كعلامة على أنه اختلى بالعروس خلف الستارة.

في السلاملك لم يبق أحد الا أصدقاء العريس المقربين الذين كانوا خلسة يحتسون نبيذاً بيتياً يصبونه من أباريق شاي. عاد العريس اليهم يحمل هدايا العروس وقراها فزادهم ذلك مرحاً واستمر الشرب بحمية بلغت حداً اضطر معه عبد الله لأن يحمل لهم النبيذ في اباريق هائلة الحجوم...

عقب منتصف الليل اختلى العريس بعروسه خلف الستارة مرة ثانية وبعد ذلك غادر بيت عليار-بي مع جمع من صحبه وعدد من الخدم كان عصا بينهم واتجه صوب منزله. ففي هذه الليلة لم يكن يحق للعروسين أن يبقيا معاً كان من المفروض أن تركب العروس في الصباح خلف احدى العجائز على فرس وأن تنتقل في موكب احتفالي الى بيت العريس. هناك كان ينبغي التحضير لاستقبالها.

سار غني‌جان ثملا يغني مع مرافقيه الثملين مثله عبر شوارع مقفرة مظلمة. مرافقه عبد الله كان سكراناً بالمرة وكان يسير ويترنح معتمداً على أيدي عصا وواحد آخر من الخدم الصحاة. خلف السياج الذي يفصل المقبرة عن الطريق كانت القبور تتلو بعضها وتحت القمر الذي كان في المحاق كانت الرعشة تعتري المرء في هذا المكان المريع. لكن غني‌جان وصحبه مروا من هنا غير مبالين لا يقلق بالهم شيء على الاطلاق.

وفجأة نبق من خلف جدار المقبرة شخص ما واعترض سبيلهم. صعق اصدقاء العريس دهشة وجمدوا في أماكنهم. أما العريس الذى أفلح في أن ينسى مقتل سعيد السكير، فقد صحا الآن في طرفة عين، طارت سكرته ورأى أمامه رجلا مديد القامة ذا لحية كبيرة. ولم يند عنه صوت الا وكان الرجل الرهيب قد صرخ:



– استعد، الآن ستدفع ثمن كل ما ارتكبته من شرور!
– من أنت؟ ماذا تريد مني؟
فأجاب الرجل:
– جئتك منتقماً وأريد دمك، أريد أن أسيح دمك. أنا حيدرقول هل تذكرني؟ أنا حيدرقول!– وانقض على الباي في سرعة العقاب فما أفلح أحد أن يعيقه.
ندت عن الباي صرخة يائسة واختفى الرجل الرهيب. تمدد غني‌جان على الأرض مضرجاً بدمه. انطلق الصراخ ومن جهة بوابة قاراكول ظهر الميرشاب* مع الحراس ترافقهم دقات الطبول.

وكانت ديلارام–كنيز تعاني في هذه الساعة سكرات الموت. لم يكن بجوارها أحد تلفظ فوق يده أنفاسها الاخيرة الا فيروزة الصغيرة العاجزة الباكية. وكانت ديلارام قد قالت لفيروزة مرارا ما يجب أن تفعله حين تسوء حالتها بالمرة، أوصتها بأن تبلل قطعة قطن بالماء وأن تقطر لها في فمها وتصيخ السمع جيدا لكي تسمع رغبتها الاخيرة. وأوصتها أيضا بألا تبكي بعد ذلك ولا تنوح حتى تفيض روحها في أمن وسلام.
وهاهي الفتاة المسكينة ترى أن حال جدتها سيئة تماماً، عيناها المحدقتان في الفراغ تخبوان رويداً، أنفاسها تتقطع وتنطلق من صدرها حشرجة جافة بينما بردت يداها ورجلاها وما عادت تتحرك على الاطلاق. تذكرت فيروزة وصايا جدتها فكفت عن النحيب والانين، أتت بفنجان فيه ماء، بللت قطعة قطن وعصرتها في فم المحتضرة. سرت الرعشة في جسم العجوز ثم همدت من جديد. بعد قليل فتحت عينها، وتحركت شفتاها. وضعت فيروزة أذنها على

---

* الميرشاب – كلمة فارسية معناها الحرفي – أمير الليل– وهي هنا لقب قائد الشرطة.

هاتين الشفتين وسمعت اسم عصا و – «كونا سعيدين». غير هذا لم تسمع شيئا آخر. وهكذا، كما كانتا، جمدت عينا ديلارام على وجه حفيدتها، تماما كأنها لا تشبع اليها نظراً في هذه اللحظة الأخيرة.

نادت فيروزة بصوت خافت: «جدتي!» لمست كتفها ورأت أن ديلارام خامدة الانفاس. فأعولت فيروزة، ارتمت على صدر جدتها وناحت...

الهلال النحيف الذي ظهر في السماء آخر الليل ألقى أشعته على بيت ديلارام – كنيز. انطفأ النور الذي كان ينير الغرفة البائسة وانطفأت هنا شمعة تلك الحياة الفقيرة. منذ سنوات عديدة ومديدة كان هذا أول فجر يرى فيه الهلال ديلارام – كنيز هامدة راقدة في فراشها ويرى حفيدتها منكبة عليها تزرف الدموع...

انقضت عدة ساعات فأخرجت الشمس المتألقة رأسها الذهبي من صومعتها في الشرق وغمرت بخارى بأشعتها المزغردة. فتحت أبواب المدينة، دبت الحياة في الشوارع وفي الأسواق وفي المساجد والمدارس، بدأت الحركة. والحياة الحافلة أفراحاً وأتراحاً وهموماً ومشاغل سارت في مجاريها.

القسم الثاني

التشرد

١

الميرشابخانة (دائرة الشرطة) البخارية كانت تقع في حي العرب. على الدوام كان الحراس يخطرون قرب بابها في انتظار الأوامر. من حين الى آخر ودفعة بعد دفعة كان المعتقلون يساقون الى هنا. احياناً يكون بينهم مقامرون، وأحياناً لصوص، ولم يندر أن يكون بينهم أناس مظلومون أبرياء اعتقلوا بحجج مختلفة. لكنهم كانوا جميعا، وبلا تمييز، يزجون في قبو كبير مظلم.

كان الميرشاب عبد الرحمن هذا اليوم غاضباً غاية الغضب. فلم يمض أسبوع واحد مذ قتلوا خادم غني‌جان باي، واذا بهم في ليلة الأمس يطعنون الباي نفسه بسكين ويجرحونه. عبد الرحمن مضطرب منفعل، وفي هذه الحالة من الاضطراب والانفعال التام استقبل هو مختار الحارة عبد الله حاجة.

— من حسن الحظ أن صرة الهدايا كانت على صدر الباي، فنبت السكين ولم تلامسه الا قليلا... علماً بأن المجرم قد صوب ضربته الى القلب مباشرة...

— في حارتنا لايوجد أوغاد كهؤلاء، — أجاب نصرة الله بوقار ورزانة. — هذه كلها عمائل حيدر قول اللعين! فمن أين جاء وأتى!؟ رجالكم يعرفون ولابد... واجتزه عبد الرحمن بحدة:

— ما كانت حاجتي بك لو كانوا يعرفون! كالي قربان يسكر، عليه اللعنة. لا يبين منذ عدة أيام. والآخرون أسوأ منه وأنكى. أنا لا أعرف البتة كيف اتصرف مع هؤلاء

– يالك من أبله بليد! في حارتك ومن تحت أنفك يسرقون، وأنت لاترى شيئاً! من، في رأيك، جرؤ بسرقة الفتاة؟

ارتبك نصرة الله وأسقط في يده كلياً. لقد أذهله غضب الميرشاب وفكر: أي شأن له بفيروزة؟ أيعقل أنه يأمل بالحصول عليها؟

ونوه المختار في حذر:

– لقد استجوبت البعض، أولئك الذين بدوا لي مشبوهين، كجيران العجوز المقربين أمثال السقاء احمدجان.
– قالوا: لا نعرف شيئاً ولم نر شيئاً، بل ان احمدجان جاء بنفسه اليه مطالباً ومستفسراً...

– أجل، لقد هدتك الكهولة، ما عدت تنهض بالعمل،– قال الميرشاب ثم جلس في مكانه وغرق في تفكير عميق جامعاً لحيته في قبضته.

– صدقتم والله!– اعترف المختار بصفاء نية.– فلو أحسنت العمل هل كنت أفلت من يدي لؤلؤة كهذه، بل وفي وضح النهار! ولكنني سأبذل قصارى جهدي وسأجد فيروزة ولو كانت تحت الأرض. فهي وفقاً للشريعة...

– كفاك تكراراً! فوفقاً للشريعة لن تنالها أنت بل غنيجان باي! ولكنك لو عثرت عليها لن تتضرر أيضاً...

دخل الحاجب وأعلن عن وصول مبعوث من الوزير الأول.

– دعه يدخل،– قال الميرشاب وتوجه الى المختار: أما أنت فانصرف، فكر بالأمور جيداً، وحاول أن تعثر على الفتاة وعلى ذلك الطباخ!

خرج المختار منحنياً باجلال والتقى في الباب بمبعوث الوزير الاول فانحنى له أيضاً.

٢

عاين الطبيب الهندوسي الجرح على صدر غنيجان باي، دهنه بالمرهم وربطه مشدداً الرباط بقطعة نظيفة من الشاش. ثم قال مبتسماً:

– لو كان واحد آخر في مكانك لما شفي سريعاً. أما أنت، يا باي فقوي الصحة. واذا أطعت ارشاداتي سوف يلتئم جرحك بعد عشرة – خمسة عشر يوماً.

أومأ الباي برأسه، أخرج من تحت الوسادة قطعة ذهبية ذات خمس تانغات وناولها للطبيب. فشكره ذاك، جمع زجاجاته وأدويته وانصرف، وفي الحال انفتح باب يفضي الى الغرفة المجاورة ودخلت منه مرفرفة زوجة الباي الشابة مغفرات. كانت في ثوب حريري مذهب من قماش خفيف بينما زينت رأسها عصابة مطرزة بخيوط الذهب. اقتربت تهز وركيها بدلال من فراش الباي الممدود في وسط الغرفة وجلست.

– خمسة عشر يوماً أخرى! – قالت هي بغنج متصنع وأدارت وجهها. قبض الباي على يدها المخضبة بالحناء وشدها اليه برفق. ولكن مغفرات خلصت يدها وقالت:

– لو كنت أعلم أن مرضك سيطول هكذا، لما غادرت البيت ولبقيت أنعم بحضن أمي الدافىء... أما هنا فعلي أن أتحمل... هاتين الحيزبونين أيضاً...

ابتسم غني‌جان غصب نفسه وتكلم مع أن هذا، حسب كل الدلائل، كلفه بعض العناء، فصوته كان هافتاً متعباً وشفتاه متيبستان من السخونة ومتشققتان:

– لو كنت أعلم أنهم سيعتدون علي بسببك، لكنت تسلحت.

– لماذا، بسببي؟

والتمعت عينا الباي بمكر.

– وبسبب من اذن؟ فليس الا عشاق العروس يعتدون في ليلة العرس على العريس.

ابتسمت مغفرات على مضض وقبلت زوجها من جبينه.

– هكذا أنت اذن، حتى المرض لايمنعك عن المزاح!

– وأنا لا أمزح، بل وأفخر بأنني غنمت بك دون كل المنافسين، سفحت دمي من أجلك. وعليك أنت أيضاً أن تفخري فهذا فداء لحبي نحوك كدت أقع ضحية...

– لقد بذلت من أجلي ضحية وهذا يكفي. وقعست مغفرات رأسها في خيلاء.

– سعيد السكير لا يدخل في الحساب! انه لا يساوي ذلك!

– كلا، ليس هو، ديلارام – كنيز.

وكاد الباي يثب على قدميه.

– ماذا؟ ديلارام–كنيز؟

– نعم، نعم،– أجابت مغفرات ممسكة الباي من كتفه.– ماذا بك؟ اطمئن! ماتت عبدة عجوز وهذا كل شيء، عليها الرحمة!

– متى ماتت؟ وما السبب؟

فأجابت مغفرات بلا مبالاة:

– في ليلة عرسنا بالضبط ماتت! ولا أعرف شيئاً آخر...

– وفيروزة؟– زلق لسان الباي ولكنه استدرك هفوته في الحال وطفق يتكلم في أمر آخر:– لقد طلب عبد الله بيت العجوز، وعد به أحدهم...

لاذت مغفرات بالصمت ملوحة بمروحة. دخلت الخادمة الى الغرفة ومدت السماط.

– يالها من شوربة دجاج لذيذة، هذه التي طبختها لكم!.. ان اللعاب يسيل على الرائحة وحدها،– قالت الخادمة للباي. – الطبيب الهندوسي ذاته تذوقها، وقد اعجبته جداً جداً.

أومأ الباي برأسه – بمعنى: هاتي قدمي ما عندك – وحين كانت الخادمة على وشك أن تخرج من الغرفة ناداها اليه وسأل:

– يقال ان الخالة ديلارام توفت؟

– أجل... لقد ماتت المسكينة. دفنوها بكل تكريم وحضر جنازتها كثير من الناس! يحكون أن الساحة أمام المسجد كانت تغص بالبشر.

– وأين حفيدتها فيروزة؟– سأل الباي بلهفة مخفضاً صوته.

– ضاعت، اختفت لايعلم أحد أين.– وبدا أن الخادمة قد نسيت عن الشوربة تماماً.– الكل يبكون العجوز. وها هي محنة جديدة – ضاعت اليتيمة الوحيدة الشريدة، أمر يرثى له. المختار مهموم يسعى ويبحث عن فيروزة، يريد أن يأخذها على عهدته. ولكنه لا يجدها.

– وماذا حل بالبيت؟

– قائم في مكانه، يبدو أن الجيران يشعلون هناك الشموع.

– قولي لعصا أن يذهب اليوم بالذات وأن يعلق على البوابة قفلا. وليعط المفتاح لعبد الله حين يعود ذاك من غيجدوان.

– سأفعل، يا معلم!

خرجت الخادمة. فتناولت مغفرات قارورة الدواء التي كانت قرب رأس الباي، قطرت منها في كوب وراحت تسقيه رافعة رأسه عن الوسادة.

– هل تريد نبيذاً؟– سألته بعد ذلك هي.

– هاتي!

مضت مغفرات الى الكرار وعادت تحمل زجاجة مضلعة مربعة، ثم صبت النبيذ في كوبين ناولت أحدهما للباي وشربت هي الآخر.

– أوف – ف! – تأففت هي وتغضن وجهها. – سم حقيقي.

كان النبيذ معتبر القوة مع انه كان محضراً حديثاً وعلى الطريقة المنزلية.

– ولكنه، يداوي...

كانت كلمات الطبيب قد انعشت الباي فآمن في قرب شفائه وانشرح صدره. ولكن مزاجه الطيب تعكر الآن. وقد يخيل لمن تخدعه المظاهر أن موت الخادمة الكهلة الوفية هو الذي كدر الباي، لكن هذا الموت، في الواقع، لم يؤثر

فيه مطلقاً بل أطلق يديه في سعيه للاستيلاء على فيروزة.

وقد يسأل سائل، وماذا منع الباي عن ارضاء هذه الرغبة حتى حين كانت العجوز على قيد الحياة؟ والجواب في أن فيروزة كانت صغيرة بعد، ثم أن جرأته لم تكفه للخصام مع ديلارام بل وكان يخجل منها، كان الباي واثقاً من أن العجوز ستموت قريباً وأن فيروزة ستكون من نصيبه في آخر الأمر، ثم فجأة تأتيه هذه الضربة غير المتوقعة. وفي حضور مغفرات لا يجوز النطق بكلمة زائدة. وهو لهذا شرب النبيذ على أمل أن يجد في الخمرة بعض السلوى.

وهنا أفسدوا عليه ما ابتغاه فما أن عزم مع مغفرات على الشرب ثانية حتى ولجت الغرفة الزوجة الكبرى تحمل صحناً فيه عنب.

– طاب يومكم،– قالت هي – أراك والحمد لله، قادراً على الجلوس، حماك الله من العين!

اختطفت مغفرات زجاجة النبيذ وهبت تجري الى الغرفة المجاورة. ولكن الزوجة الكبرى أنفت حتى أن تنظر صوبها. وضعت العنب على السماط وقعدت.

– هذا من بستان «قولبة» أريد أن اضيفك. لعل حالك اليوم أحسن ماذا يقول الطبيب؟

دخلت الخادمة تحمل صينية عليها زبديتان فيهما شوربة وصحن فيه دجاجة.

وعادت مغفرات وراحت تثرد الخبز وتضعه في صحن الباي.

فسأل الباي الخادمة:

– هل أوصلت ما قلته لك؟

– أوصلته!– قالت هي وهرعت لتأتي بالشوربة لزوجة الباي الكبرى.

وهمهمت هذه:

– عبد الله لا يأتي، ولا يأتي... حبل الخدم أفلت على غاربه، يتصرفون على هواهم... عصا وحده يعمل شيئاً.

طقطقت مغفرات بالملعقة على الصحن، كفت عن الأكل وقالت تثقب الضرة بنظراتها:

– طبعك عجيب، يا سيدتي! انك لا تتركين للرجل المريض حتى أن يبتلع ملعقة شوربة. فتحت حديثاً عن عبد الله، انك تقلقين رأسه وحسب.

– الباي يحب معرفة ما يجري عنده في البيت، هذا يطمئنه. لقد درست أنا طبعه جيداً، يا حبيبتي! أما أنت فستأكلين في هذا البيت أكثر من قنطار ملح ريثما تعرفين عنه كل شيء!

واحتدت مغفرات:

– احفظي معارفك في سرك. في هذه الغرفة أنا التي أتصرف.

فما تراجعت الزوجة الكبرى:

– هذه الغرفة غرفتي أيضاً.

– كلام فارغ!

– أنت الفارغة!

– يكفي!– قاطع الباي المرأتين وتهالك على الوسادة. كان شاحباً يرتجف من الغيظ. لقد كان قوياً ما مني به اليوم من خيبة.

٣

حل المغيب، وأهالي الحي الذين أدوا صلاة المغرب كانوا يغادرون المسجد. فجأة هبت ريح عاتية ترفع أعمدة من الغبار. انفتح باب المسجد منصفقاً مزيقاً وتطايرت في كل الانحاء السجاجيد المفروشة للصلاة، لم تجد نفعاً حتى الحجارة التي كانت تثقلها.

توقف المختار نصرة الله عند باب المسجد عاجزاً عن التصدي لهجمة الريح، كان الغبار يسطم أنفه وفمه، وبشق النفس استطاع أن يستعيد أنفاسه، ثم صرخ للامام والمؤذن أن يتبعاه وأقلع مهرولا الى بيته.

وسرعان ما أقفر الشارع وأظلمت الدنيا تماماً.

هذه الرياح الحارة - يسمونها «تفباد» - تهب على بخارى صيفاً وتحمل معها في أغلب الأحيان غير قليل من المنغصات والأمراض. وكان أكثر ما تسببه من أضرار يلحق بالزهور وأشجار الفاكهة، بل وكان أهالى بخارى يعتبرون أن الملاريا التي تمرض بها أغلبية السكان هي أيضاً من آفات هذه الريح، وفي مثل هذه الايام كانوا يخافون الخروج الى الشارع.

لكن طقساً كهذا كان بالنسبة لعصا في هذه الليلة مناسباً. فمضى الهوينا قاصداً بيت ديلارام غير مخاطر بأن يراه أحد.

تبين أن البوابة موصدة من الداخل، فخمن عصا أن الجيران هم الذين أوصدوها وطرق بابهم. فتحت له بنت الحائك غلام علي، عرفته الفتاة فسلمت بأدب جم وحين سألها هو أن تفتح له بوابة البيت المجاور، مضت حالا فمرت عبر الخوخة التي تصل بين الفنائين وفتحت له.

انار الفناء سراج شاحب الضوء فبقيت الغرفة والمطبخ في شبه ظلام. الصمت المطبق المخيم على البيت لا تبدده حتى الريح التي تعربد في الخارج: كانت المباني العالية المحيطة تحمي البيت من الريح وما كان يبلغ الفناء الا الغبار والقش المتطاير عن الأسطحة. كان هذا الركن المظلم المهجور يوحي بالكآبة والأسى.

نادت للفتاة أمها فأذن لها عصا بايماءة من رأسه أن تذهب وتوقف هو على عتبة باب البيت نصف المفتوح. فما أقرب ذلك الزمن حين كانت فيروزة تستقبله هنا. حين كانت تفتح له الباب وتهتف بحبور: «أخي الحبيب...» وكانت البهجة تتراقص على محياها وكان البشر يتألق في عينيها الجميلتين! انه يذكر ضحكتها الجذلة، يذكر كيف كان الحياء يعتريها بعد ذلك فتهرول هاتفة: «جدتي، هذا أخي!..»- ثم تعود حالا فتأخذه من يده وتقتاده الى البيت.

كان السرور يغمر قلب ديلارام وهي تنظر الى حفيدتها

وكانت تستقبله هو مثل ابن حبيب. وهكذا كان الحال كلما أتى الى هنا... أما الآن فلا شيء هنا غير الظلام والوحشة، لا نسمع الأصوات العزيزة، والبيت والفناء يبدوان وكأنهما مجللان بأثواب الحداد.

أفعمت المرارة قلب عصا، سدت الغصة بلعومه، وكانت الدموع على وشك أن تطفر من عينيه. أغلق الخوخة المفضية الى الفناء المجاور وهمّ أن يدخل الى البيت حين سمع أن أحدهم فتح البوابة، فالتفت ورأى أحمدجان السقاء. ومن دون أن يفوه بكلمة نزع أحمدجان السراج عن الجدار ودخل بصحبة عصا الى البيت.

جميع الاغطية والمنادر وقطع الابسطة واللباد كانت منضودة في ركن واحد، في المشاكي وعلى الرفوف كان كل شيء في مكانه: قارورة الدواء، المصباح بزجاجته نصف المكسورة، ابريق الشاي، الأكواب، الزبادي، حلى فيروزة الرخيصة وغير ذلك من التوافه... سالت الدموع على وجه عصا وسأل هامساً:

– وفيروزة... أين هي فيروزة؟

لم يعر السقاء جواباً. وضع السراج قرب العتبة، جلس على الأرض الترابية، رفع يديه وراح يدمدم. حذا عصا حذوه وبعد أن فرغا من قراءة الفاتحة على روح ديلارام تكلم أحمدجان:

– أحسنت عملا اذ اتيت في عشية الجمعة، عوفيت! سوف تسر روح المرحومة. والسراج منْ أين؟ للجيران؟ شكراً لهم، انهم فقراء ولكنهم لا ينسون واجبهم ويشعلون الضوء في بيت المرحومة. كنت ماراً قرب البيت فرأيت الضوء، دفعت البوابة واذ بها تنفتح، فدخلت.

– وأين فيروزة يا عمي؟– سأل عصا من جديد وهو يجهش بالبكاء.

فأجاب السقاء دون أن ينظر صوب عصا:

– أنت نفسك تعرف كيف جرت الأمور. دفنا نحن العجوز وعدنا من المقبرة فلم نجد فيروزة.

– وأين هي اذن؟ أيعقل أن تكون في أيد شريرة؟
– لست أعرف شيئاً.
انتحب عصا من جديد وارتمى يائساً على الأرض.
– أخ، انقذها، يارب!
وبكى أحمدجان أيضاً حيال هذا الاسى المفجع. ثم رفع الفتى عن الأرض.
– اطمئن! اضبط نفسك اذا كنت تحترم ذكرى الراحلة وتحبها! هل فكرت أنت بالذي ينتظر الفتاة المتوحدة المسكينة بعد موت جدتها؟ لو فكرت بذلك لكنت خطبتها من العجوز قبل أن تموت. لكنك لم تفعل ذلك، فلا تلم الا نفسك.
– كيف كان لي أن أعرف أن الخالة ديلارام ستموت قريبا هكذا؟!
– على الانسان أن يفكر بكل شيء!– نوه السقاء بغموض كثير المعاني ثم صمت برهة وأضاف: – الباي والمختار وكثيرون آخرون حطوا أعينهم على فيروزة منذ زمان وما كانوا ينتظرون الا موت العجوز، كانوا – خلافا عنك، يفهمون أن أجلها أمسى قريباً، فصوبوا سهامهم... وقد أدركت أنا ذلك، فخبأت فيروزة عند شقيقة زوجتي.
– بارك الله فيك وزاد أجرك!– هتف عصا وأحس أن ثقلا عظيماً قد انزاح عن قلبه. عجز عن ايجاد الكلمات للتعبير عن امتنانه وشكره لهذا الرجل الحكيم البعيد النظر وقال:– لقد تكهنت، أحس قلبي أنك أنت الذي خبأتها... فيا لها من سعادة! ولكن هل يسعني أن أراها؟
وما أن أجاب السقاء فقد انفتح الباب ودخل البيت رجل. كان هذا حيدر قول.
– مرحباً، مرحباً،– قال هو بلهجة توحي بأنه لم يفترق عنهما الا من فترة وجيزة. ثم اخرج من عبه شمعة فأشعلها من السراج ووضعها على الرف.
وجّه وجهه شطر القبلة، تمتم وقال ماسحاً وجهه:

وكانت تستقبله هو مثل ابن حبيب. وهكذا كان الحال كلما أتى الى هنا... أما الآن فلا شيء هنا غير الظلام والوحشة، لا نسمع الأصوات العزيزة، والبيت والفناء يبدوان وكأنهما مجللان بأثواب الحداد.

أفعمت المرارة قلب عصا، سدت الغصة بلعومه، وكانت الدموع على وشك أن تطفر من عينيه. أغلق الخوخة المفضية الى الفناء المجاور وهمّ أن يدخل الى البيت حين سمع أن أحدهم فتح البوابة، فالتفت ورأى أحمدجان السقاء. ومن دون أن يفوه بكلمة نزع أحمدجان السراج عن الجدار ودخل بصحبة عصا الى البيت.

جميع الاغطية والمنادر وقطع الابسطة واللباد كانت منضودة في ركن واحد، في المشاكي وعلى الرفوف كان كل شيء في مكانه: قارورة الدواء، المصباح بزجاجته نصف المكسورة، ابريق الشاي، الأكواب، الزبادي، حلى فيروزة الرخيصة وغير ذلك من التوافه... سالت الدموع على وجه عصا وسأل هامساً:

– وفيروزة... أين هي فيروزة؟

لم يعر السقاء جواباً. وضع السراج قرب العتبة، جلس على الأرض الترابية، رفع يديه وراح يدمدم. حذا عصا حذوه وبعد أن فرغا من قراءة الفاتحة على روح ديلارام تكلم أحمدجان:

– أحسنت عملا اذ اتيت في عشية الجمعة، عوفيت! سوف تسر روح المرحومة. والسراج من أين؟ للجيران؟ شكراً لهم، انهم فقراء ولكنهم لا ينسون واجبهم ويشعلون الضوء في بيت المرحومة. كنت ماراً قرب البيت فرأيت الضوء، دفعت البوابة واذ بها تنفتح، فدخلت.

– وأين فيروزة يا عمي؟– سأل عصا من جديد وهو يجهش بالبكاء.

فأجاب السقاء دون أن ينظر صوب عصا:

– أنت نفسك تعرف كيف جرت الأمور. دفنا نحن العجوز وعدنا من المقبرة فلم نجد فيروزة.

— وأين هي اذن؟ أيعقل أن تكون في أيد شريرة؟
— لست أعرف شيئاً.
انتحب عصا من جديد وارتمى يائساً على الأرض.
— أخ، انقذها، يارب!
وبكى أحمدجان أيضاً حيال هذا الاسى المفجع. ثم رفع الفتى عن الأرض.
— اطمئن! اضبط نفسك اذا كنت تحترم ذكرى الراحلة وتحبها! هل فكرت أنت بالذي ينتظر الفتاة المتوحدة المسكينة بعد موت جدتها؟ لو فكرت بذلك لكنت خطبتها من العجوز قبل أن تموت. لكنك لم تفعل ذلك، فلا تلم الا نفسك.
— كيف كان لي أن أعرف أن الخالة ديلارام ستموت قريبا هكذا؟!
— على الانسان أن يفكر بكل شيء!— نوه السقاء بغموض كثير المعاني ثم صمت برهة وأضاف: — الباي والمختار وكثيرون آخرون حطوا أعينهم على فيروزة منذ زمان وما كانوا ينتظرون الا موت العجوز، كانوا — خلافا عنك، يفهمون أن أجلها أمسى قريباً، فصوبوا سهامهم... وقد أدركت أنا ذلك، فخبأت فيروزة عند شقيقة زوجتي.
— بارك الله فيك وزاد أجرك!— هتف عصا وأحس أن ثقلا عظيماً قد انزاح عن قلبه. عجز عن ايجاد الكلمات للتعبير عن امتنانه وشكره لهذا الرجل الحكيم البعيد النظر وقال:— لقد تكهنت، أحس قلبي أنك أنت الذي خبأتها... فيا لها من سعادة! ولكن هل يسعني أن أراها؟
وما أن أجاب السقاء فقد انفتح الباب ودخل البيت رجل. كان هذا حيدر قول.
— مرحباً، مرحباً،— قال هو بلهجة توحي بأنه لم يفترق عنهما الا من فترة وجيزة. ثم اخرج من عبه شمعة فأشعلها من السراج ووضعها على الرف.
وجّه وجهه شطر القبلة، تمتم وقال ماسحاً وجهه:

- آمين.
وردد أحمدجان وعصا خلفه:
- آمين.
ثم قال حيدر قول:
- انكما غير حذرين أبدا، هل يجوز التصرف هكذا؟
- ماذا، ماذا حدث؟
- أنا أيضاً عزمت على المجيء عشية الجمعة لكي اشعل ضوء وأقرأ الفاتحة، ولكنني كنت أسير ولا أكف عن التفكير: كيف لي أن افعل ذلك بحيث لا يراني أحد. فالبوابة، على الارجح، موصدة من الداخل ولايستبعد أن يكون الباي قد أمر بوضع قفل من الخارج... فهاكم أية هواجس اقلقتني. ثم ما أن اقتربت من البوابة ولمستها حتى انفتحت... وفي الغرفة نور... تكهنت أن هذا واحداً منكما. ومن حسن الحظ، لم يكن في الشارع أحد والا...
كان حيدرقول قد غير مظهره، قصر لحيته، فتل شاربيه الى أعلى ارتدى روباً أنيقاً من الحرير الغيجدواني ولف رأسه بعمامة رصاصية اللون. في هذا الزى كان أشبه بغندور ريفي.
- الظاهر أنه لم يقدر للباى أن يموت بعد... ساعته لم تزف. فحتى سكيني لم تنله، بل واللحظة لم تكن مناسبة... ولكن لا بأس، ففي المرة القادمة لن يفلت... وبالطبع كان بوسعي الآن أن اتسلق السطح وان أصل الى بيته وانهيه... ولكن قتل رجل مريض وجريح ليس عملا... كلا! دعه يشفى، ويخرج من البيت وساعتها لا مندوحة له من مواجهتي...
- وأين تعيش الآن؟- سأله السقاء.
- في دار القمار. نفعتني معرفتي. سابقاً كنت ألعب وعرفت الخسارة. أما الآن فأخدم هذا القوم، ألعب أحياناً فأربح ويحدث لي وأخسر. ولكن الأهم، أنه ما من أحد يشتبه بي.
- ومع ذلك عليك بالحذر. الى دار القمار كثيراً ما

يعرج الحراس، ورجال القضاء. بل وفي بيت باينا يوجد أيضاً خادم مقامر.

– أجل، بالطبع، قال حيدرقول، – يتردد الى هناك أناس مختلفون، بينهم غير قليل من المارقين والاوغاد. ولكن القبض علي ليس أمراً يسيراً. أما الآن فدعونا نذهب من هنا، بالخير والعافية...

– أنذهب؟– سأل عصا أحمدجان.

وما أن فتح السقاء فمه في الجواب حتى ترامت من الشارع أصوات، وضجيج: راح أحدهم يقرع البوابة بقوة. ثم بدأ يهزها محاولا أن يفتحها.

هب حيدرقول وهرول خارجا الى الفناء. ثم عاد سريعاً وقال بصوت خافت:

– الحراس... الظاهر أنهم اشتموا رائحتنا وعرفوا بوجودنا هنا، لا ضير، سأفر أنا الآن متسلقاً الأسطحة. أما أنتما فلا تخافا، افتحا لهم بهدوء وقولا أنكما جئتما لاحياء ذكرى الراحلة وانه لم يكن هنا أحد سواكما...

قال حيدرقول هذا، صعد الى السطح وسرعان ما اختفى.

وذهب السقاء وعصا مرتجفين جزعاً وفتحا البوابة التي كانت تطقطق تحت ضربات يدين قويتين. قبضوا عليهما في الحال، ربطوا أيديهما خلف ظهريهما وساقوهما الى الشارع، متعطفين عليهما بالضرب والركل. في الشارع كان المختار واقفا مع شخص آخر له هيئة الرؤساء وثلة من الحراس. وحين رأى الآمر عصا والسقاء سأل:

– وأين الثالث؟

– لم يكن هناك أحد آخر، لعله هرب،– قال حارس من الحراس.

فصرخ الامر:

– نبشوا في الحال كل ركن وزاوية. وأنت أيضا اذهب معهم–قال هو للمختار.

وانصاع المختار، لكن التفتيش رغم دقته لم يفض الى

نتيجة مأمولة – لم يقعوا للرجل الثالث حتى على أثر. وتحركوا على الجيران، أزاحوا بزوجة الحائك وبأولاده من مكان الى مكان، نبشوا البيت، قلبوا كل شيء فيه رأساً على عقب، نزلوا الى القبو، بحثوا في مخزن الفحم، في المطبخ، كسروا نول الحياكة، جن جنونهم ولم يعثروا على أحد.

كاد الآمر أن ينفلق من الغيظ. ذهب ثلاثة اشخاص بأمر منه للتفتيش على الاسطحة. ثم عادوا وأخبروا أنهم سمعوا صراخاً وصيحات: «امسكه، أمسكه!» تترامى من طرف الشارع قرب القلعة، كما وسمعوا وقع أقدام تجري.

– من أولئك الذين ينطرون هناك لن يجد الهارب مفرا، – قال الآمر وأمر بأن يساق الموقوفان الى الميرشابخانة.

وبقي بيت ديلارام الصغير والقميء خاليا متروكا. تسربت الى الداخل ظلمة الليل من بوابته المفتوحة على مصراعيها: وليس هناك الآن من أحد يغلقها، لا من الخارج ولا من الداخل...

٤

كان حيدرقول يدرك جيداً أن العدو ماكر وأنه قد وضع ولا بد بعض الحرس في مكان ما على الاسطحة. فقرر أن يتسلل الى زقاق مظلم ومقفر قريب من القلعة ولكنه ما كاد يتعدى بيتين حتى لاح الحراس خلفه. تسنى له أن يبقى متخفياً، تسلق سطح سقيفة غير كبيرة ثم قفز الى تحت، الى عطفة مظلمة ضيقة. على صوت سقوط جسمه هب أربعة اشخاص من مكمنهم واندفعوا نحوه صارخين: «امسكه، امسكه!» ولكن حيدرقول تصدى لاول علجين بلغاه وناولهما ضربتين كانتا من القوة بحيث القتهما أرضاً، ثم يمم وجهه شطر الشمال وانطلق يعدو باتجاه المقبرة. لاحقه وقع أقدام مطارديه فازداد عدوه سرعة وظل يتسارع...

في البداية كان في نية حيدرقول أن يتوارى في المقبرة، ولكنه حين بلغ سياجها غيّر خطته بسرعة خاطفة. فقد كان الحراس على معرفة جيدة بهذا المكان. ومهما كانت المقبرة كبيرة وكانت رهبتها عظيمة، فانهم بالطبع، سيجمعون عدداً كبيراً من الناس، سينظمون مطاردة وسرعان ما سيعثرون على طريدتهم وينالون منها. أما على مقربة من هنا فيجري نهر شاهرود وهو الآن ضحل ويمكن السير على قاعه و المضي بعيدا...

تجاوز حيدرقول سياج المقبرة ووصل في عدوه الحثيث الى النهر سريعاً. خاض النهر وما كادت تسمع لمائه أية طرطشة. الآن كان عليه أن يقرر في أي اتجاه يتابع سيره: هل يغادر المدينة أم يبقى فيها؟ وقدر حيدرقول أن الامر الثاني أقل خطورة: اذ لن يخطر لمطارديه على بال أنه تجاسر على مجازفة كهذه.

ومضى حيدرقول في درب صعب وخطير...

نهر شاهرود، رافد زرفشان، يجرى في المدينة أول الامر في مكان مفتوح ويستمر في جريانه هذا ردحا معتبرا ثم يتوارى تحت الارض. دخل حيدرقول بكل جرأة في المغارة الواطئة، كان رأسه يصطدم بقناطرها. قدماه كانتا تخبصان في الطين وتتعرقلان في الطمي. كان يتعثر بالاحجار، كان يقع، يصاب وينكلم ويسيل دمه. لا هواء في المغارة، فكان التنفس عسيرا، وكانت قواه تخور وتخور...

واخيراً نفحت الدنيا هواء عذباً. خرج الهارب الى مكان مكشوف، تسلق جسرا صغيرا وانطرح فوقه يستريح. تلفت فيما حوله وأدرك أنه في حي سربولي روغانغران. اذن، القصر والريغستان على مقربة، حولهما بشكل دائم يطوف العسس والحرس والخروج الى الشارع هنا أمر في غاية الخطورة، وبعد أن أخذ قسطا من الراحة، نزل حيدرقول من جديد الى المجرى التحت الارضى. كان طريقه اللاحق أيسر من سالفه بكثير، صار النهر يطفو الان الى السطح تكراراً، ولكن هذا كان محفوفاً بالمخاطر: فقد تقع عليه

عين أحد. وسار حيدرقول مقوس الظهر ملازماً الضفة لايبتعد عنها.

وفجأة هاجمته كلاب يتعالى نباحها، انطلق حيدرقول هارباً وجرت خلفه الكلاب على امتداد الضفة. لكن النهر أسعفه مرة اخرى مستجناً تحت الارض. انغمس حيدرقول في الطمي ومن سرعة العدو وقع واصطدم بحجر وتألم، لكنه بذل جهداً يائساً فنهض، وبشق النفس جر نفسه الى مكان مكشوف وخرج الى الضفة، فليكن ما يكون!

تبين أنه قرب حوض «أرباب». فأنعشه ذلك. شرب حيدرقول ماء عذباً، غسل وجهه ويديه ثم جلس على الدرجات وتلفت. كل شيء من حوله كان غارقاً في سكينة وظلام، حوض «أرباب»، كما هو معلوم يتصل من جهة بنهر شاهرود ومن الجهة الثانية بشارع طويل يبتدىء عند «البازار الجديد»، ويصل الى حوض «قوشمدرسة». الى الغرب من الحوض كان يقوم مسجد بجواره مدرسة صغيرة. وأراد حيدرقول أن يذهب الى هناك ويختبىء ولكنه عجز من شدة التعب عن القيام بخطوة واحدة. ولكن لا، يجب عليه أن يذهب وفي الصباح سوف يغير مظهره من جديد ويقصد دار القمار ويستفسر لدى الزبائن الدائمين عما اذا كانت السلطات تبحث عن أحد في هذه الديار. فاذا تبين أن الاحوال هادئة، بقي هناك، و الا، فسيكون عليه أن يطلب ملجأ في عشة حارس البئر.

ونهض حيدرقول مزمعاً أن يتابع سيره ولكن قدمه زلت على الدرجة الزلقة فوقع على ظهره ولولا لطف الله لتحطم رأسه. غير أنه فقد الوعي.

في هذه اللحظة خرج من المسجد شخص فلاحظ وقوع الرجل وهرع اليه.

– ايه، ولكن هذا طباخ السمك حيدرقول! ياعم حيدرقول، ماذا بك؟ قل بالله ولو كلمة واحدة!

ولكن حيدرقول لم يسترد وعيه. هب الشخص من مكانه

وانطلق راكضا ليأتي بمعونة. عاد ومعه شخصان آخران، رفع ثلاثتهم حيدرقول وحملوه الى المسجد.

صحا في حجرة صغيرة يضيؤها مصباح عشري الفتيل. رأى أمامه أربعة اشخاص. قدم له اكثرهم وقوراً كوباً فيه شاي بارد. وبعد أن سقى الجريح ضمد له رأسه.

– يا أخ حيدر،– قال هو،– الحمد لله يا أخ حيدر، لقد فتحت عينيك أخيراً! ولكن ماذا جرى معك؟ كم خوفتنا!

تملى حيدرقول المتكلم بامعان وعرف فيه قارى شريف صانع السكاكين.

في سالف الايام، حين كانت لحيدرقول دكانه التي يبيع فيها ما يحضره من أطباق السمك قصد محله قاري شريف هذا بصحبة ابيه غير مرة، بل و زار أيضاً بيته في قاراكول وأكلا من سمكه اللذيذ ما طاب لهما. أما فيما بعد، في بخارى فقد قدر لحيدرقول ذات مرة أن صد عن قارى شريف ورفاقه هجوما شنه عليهم تلامذة المدرسة.

وحدث ذلك على الشكل التالي.

كانت أمسية صيفية حارة، وريح صارت تصفر وتعوى وتثير غمامات كاملة من الغبار الساخن والاوساخ وترشها في عيون السابلة. الكل كانوا يهرعون الى بيوتهم ليحتموا فيها... وفي أمسية كهذه شد حيدرقول على نفسه روبه الفضفاض، غمر رأسه حتى الاذنين في قلبقه الصوفي وخرج الى عطفة خلف قوشمدرسة. هناك وقف ينتظر عصا. وكان ذلك في تلك الايام التي بلغ فيها تعطش حيدرقول للثأر حد الهوس فأراد أن يقضي على الباي دون تلكؤ ولم يكن يلزمه الا أن يعرف من عصا متى وأين يكون الباي.

انتظر حيدرقول الفتى طويلا حتى أن رجليه تيبستا. توارت الشمس الغاربة في غمامة من الغبار. وفجأة ترامى اليه من المدرسة صراخ وضجيج ودبيب أقدام. وما أفلح حيدرقول أن يعي ما يحدث حتى رأى شخصين يقفزان من طابق المدرسة الثاني ويقعان في جورة للقمامة. لبثا هناك دون حراك وظن حيدرقول أن أرجلهما قد تكسرت.

ولكن ما أن اندفع الى العطفة حشد من الشبان حتى رآهما ينهضان ويلوذان بالفرار. وهنا نبقت من باب المدرسة الخلفي زمرة أخرى من الاوباش وسدت الطريق أمامهما. ثم كر الجميع على هذين الشخصين وانهالوا عليهما ضرباً.

لم يقو حيدرقول على التزام الحياد. نسي الحذر وبقفزة واحدة بلغ المتعاركين فقبض على تلابيب اثنين منها وأطاح بهما جانباً ثم فعل ذات الامر مع اثنين آخرين وكان يصيح: «اهربوا، الحراس قادمون!»

ارتبك المهاجمون وانطلق بعضهم هارباً، فساعد حيدرقول الضحيتين المعفرتين بالرمل والغبار على النهوض وأشار الى زاروب في الجهة المقابلة. اندفع هذان الى هناك واما حيدرقول فناول أكثر المشاكسين جموحاً بضربات من رأسه ويديه وانطلق في اثر محمييه. لحق بالفارين واقترح عليهما أن يتبعاه. وطال بهم الدرب متعرجاً عبر الازقة والزواريب الى أن بلغوا بوابة قاراكول وهناك قال حيدرقول وقد استراح قليلا:

– عليكما أن تختبئا.. تعالا معي، بظاهر المدينة توجد عشة نستطيع أن نلجأ اليها.

وافلحوا في مغادرة المدينة قبل أن تغلق أبوابها، وبعد جهد جهيد، ساعين أن لايتركوا خلفهم أثارا وصلوا في سلام الى مسكن ناطور البئر.

كان الناطور العجوز وزوجته جالسين يشربان الشاى في أمان وطمأنينة حين دخل عليهم الضيوف غير المنتظرين. لكن العجوزين كانا على معرفة بحيدرقول فرحبوا بهم واجلسوا الجماعة كلها في صدارة البيت.

ساعتذاك فقط وعلى ضوء السراج المدخن تبين حيدرقول وجهي مرافقيه. كان هذان شابين في مقتبل العمر وكان جلياً للعيان أنهما من طلاب المدرسة. ولكن مظهرهما كان رهيباً: الوجهان معذبان ينزفان دماً، الأيدي مجرحة مخدشة، ورو باهما ممزقان مقطعان. تملى حيدرقول أحدهما بامعان وهتف:

— قارى شريف، أهذا أنت؟ انني لم أعرفك في تلك الكومة... اشرح بالله ماذا حدث؟

وعرف قارى شريف بدوره حيدرقول فنم وجهه عن شيء يشبه الابتسامة.

— شكرا لك، ألف شكر. لولاك لقتلنا هؤلاء الوحوش.

وأشار قاري شريف الى رفيقه.

— فيم الأمر؟

— هذا هو أكا مخصوم، أعيش واياه في حجرة واحدة وندرس معا. السفاكون تحرشوا بنا وأشعلوا مشاجرة... اضطررنا للهرب... ولولاك لكانت العاقبة وخيمة.

التمعت عينا أكا مخصوم، عز عليه أن يقر بهزيمته فقال:

— لا عليك، دقيقة أخرى وكنت أريتهم كم يساوون! ولكن لا بأس! أما الامر يا سيدي، ففي التالي...

وبدأ يسرد.

ولكن دعونا نعرفكم أولا بأكا مخصوم. انه شاب متوسط الطول، نحيف، نظرة عينيه السوداوين فيها شجاعة وتحدى وعلى شفتيه ترفرف بسمة دائمة، أما وجهه البشوش فكان يثير ود الجميع وتعاطفهم. أكا مخصوم أبن ملا معروف في بخارى كلها، ومن هنا اسمه مخصوم الذي يخلع عادة على أبناء رجال الدين. لكن رفعة مقامه ولقب «أكا» –أخ– الذى يكنيه به الناس احتراماً لم يمنعاه عن أن يكون انساناً بسيطاً متواضعا، فكان لا يقعد على زيف أو حيف أو تعسف وكان بالقول وبالعمل يدافع عن المظلومين المضامين.

ومنذ أمد غير بعيد استنجد به ابن أحد تجار الشاى. هذا الفتى الهادىء، المتواضع راق لكالي قربان فصار يلاحقه «بحبه»، كان يتصيده في العطفات المظلمة ويراوده عن نفسه. فتصدى له أكا مخصوم، رده عن الفتى وعنفه بشدة. ولكن خطراً جديداً سرعان ما أحاق بالفتى، في هذه المرة هاجت اليه مشاعر الميرشاب عبد الرحمن ذاته. كان الخلاص

من تعرضات هذا الرجل القوي أمراً شبه مستحيل وتوجه الشاب الى أكا مخصوم طالبا النصح والمعونة. وعده أكا مخصوم بأن يتولى أمر حمايته وصار يرافقه كظله، لا يبتعد عنه اينما كان وحيثما حل، حتى أمسى الوصول اليه أمراً في غاية الصعوبة.

وكان الميرشاب قد حاول اعتقالهما متذرعاً بحجة ما. ولكن أكا مخصوم أبرز غلاف صابونة تواليت وقال أن هذا بطاقة شخصية روسية. فتراجع الميرشاب يجلله العار ولكنه لم يتخل عن رغبة الانتقام. وهكذا انتقى من بين تلاميذ المدرسة اكثرهم شراسة وميلا للعراك واقترح عليهم أن يدبروا مشاجرة مع أكا مخصوم وأن يضربوه أشد ما يكون الضرب.

– ذات مرة اشتريت في كاغان مسدسا، ألعوبة صبيانية،– قال أكا مخصوم ضاحكاً.– مسدس أسود صغير بالمرة... وهو بالطبع غير خطر على الاطلاق ولكن صوته مثل صوت مسدس حقيقي. وهكذا فكرت أن أخيفهم... وعلى العموم من الجيد أنني لم أفعل ذلك. ولكن مادام وغدان كالميرشاب وكالي قربان قد انبريا لامر فان عاقبته قد تكون وخيمة جداً. ومن الممكن أن أضطر للهرب وللهجرة عن الوطن... ولكن اسمع، من أنت بالله؟ وباسم ماذا خاطرت بنفسك وأنجدتنا؟

وأجاب قاري شريف عن حيدرقول:

– انه طباخ سمك معروف، أصله من قاراكوال. في البداية وقع في يدي قاراكولي باي والآن يعمل عند ابنه غني جان...

– أجل، هكذا سخر مني القدر!– قال حيدرقول بمرارة.

وحدث صديقيه الجديدين عما جرى معه في الاونة الاخيرة واختتم حديثه بالقول:

– والآن أعيش على هاجس واحد – أن أنتقم لنفسي ولاسرتي من هذا الوحش.

مر الزمن ونسي حيدرقول ذلك اللقاء. وها هو قاري شريف أمامه من جديد، قارى شريف ابن الحرفي، صديق أكا مخصوم وهو شاب جيد ونزيه يمكن الاعتماد عليه. ولكن من هم الآخرون؟ انه لا يعرفهم. ولهذا كانت اجاباته على اسئلتهم شحيحة حذرة ومقتضبة.

ابتهج الجميع حين نطق حيدرقول أخيراً. وكان هؤلاء أصدقاء أحماء لقاري شريف وكانوا يعيشون في تلك المدرسة ذاتها بتقشف الدراويش وتواضعهم. اقترب أحدهم من حيدرقول وقال:

– لا تخف ياعم! نحن جميعاً أصدقاء قاري شريف. اذا كنت في حاجة الى مأوى، فعش عندنا واعتبر نفسك في بيتك، على الرحب والسعة.

رنا حيدرقول الى قارى شريف مستفسراً وأكد ذلك قول صاحبه:

– نحن الاربعة مثل شخص واحد، لا نخبىء عن بعضنا شيئاً، وقد اقسمنا على ذلك... قارى عثمان – هذا هو، واشرف جان انظر اليه وكذلك ميرزا ابراهيم – وأشار قاري شريف الى الثالث، – جميعهم يعرفون عنك كل شيء ويتعاطفون معك من كل قلوبهم.

– يتعاطفون معي؟ عن أي استحقاق؟

– على مآثرك يا حيدرقول! – هتف نجار الصناديق أشرف جان. وكان يبدو أصغر الجميع سناً.

– أخانا العزيز حيدرقول، –قال ذاك الذي اسمه ميرزا ابراهيم وكان بالمظهر أكبرهم سناً، بل وكان جالساً في مكان الصدارة. – أنا، كما سبق وسمعت، صديق قاري شريف وأنا أواليك من كل قلبي. وقد تفكر، أية علاقة لي بك ومن أين هذه المشاعر؟ وأوضح: مدرستنا يسميها بعض هزاري بخارى «مدرسة الغمز واللمز» وهذا لاننا ندين الضيم والظلم والرذيلة ونتندر بها، نخفف عن قلوبنا في أحاديث ودية.

واستطرد ميرزا ابراهيم:

ذات مساء سمعنا بالطباخ حيدر قول، الذى ضاق ذرعا بمعاملة غني جان باي القاسية وهرب منه. ثم بلغتنا انباء تقول أن مجرما ما قتل حيدرقول خلف بوابة قاراكول وأن جسده لم يعثر عليه. خبر هرب حيدرقول أسعدنا وابهجنا ونبأ مقتله أحزننا أعمق الحزن. كنا ندرك أن هذه العملة من صنع يدي الباي. ولكن العين كانت بصيرة واليد قصيرة. وهل كان بمقدورنا التحرى في قضية كهذه؟ من بعض الزمن وقيل لنا أن مصاص الدماء سعيد، خادم الباى الوفي قد قتل وأن جثته وجدت خلف حمام جويبار. وأخيراً سمعنا أن الباي نفسه تلقى في ليلة عرسه طعنة سكين في صدره.. هذه الأنباء سرتنا كثيراً... وقلنا: «ان الله عادل، وماكان بوسعه أن يسمح بأن يرحل حيدرقول عن هذه الدنيا قبل أن ينتقم». كنا ندرك أن هذا كله من صنع يديك. واليوم تأكدنا من ذلك. وكما ترى، نحن نعرف شيئا ما عن عذاباتك ومعجزاتك... ونتمنى لك النجاح من مجامع قلوبنا.

أخذ بحيدرقول الذهول، حتى أنه فغر فمه. واذن فبخارى لا تخلو من الرجال المتفهمين العادلين والشجعان. ليس الكل في بخارى سيئين، والغابة، كما يقال، ليست بلا أسد، وعليه فسحقاً لليأس ولا داع للقنوط. ومتشجعاً منتعشاً حكى حيدورقول عن كل ما جرى معه في هذه الليلة.

— كيف لي أن أتصرف؟ تساءل هو في آخر حديث هل أهرب من المدينة وابحث عن ملجأ، أم اختبىء في دار القمار؟

— كلا، — عارض قاري‌شريف، — لن اتركك تذهب.

— شكراً على حسن نيتك، ولكنه لا يجوز لي أن أبقى.

فقال قاري عثمان:

— انا أعرف مكاناً آمناً. لكنه، والحق يقال، مزعج الى حد بالغ...

وسأل قاري شريف:

– أي مكان هو هذا؟

– أخي حيدرقول، – تابع قاري عثمان، – أرجو ألا تستاء مني فأنا لا أفكر الا بمصلحتك... والامر لك في النهاية. فأذا شئت – اقبل نصيحتي واذا شئت ارفضها. والقضية في أن المرء لو دخل مستشفى المجانين يعتبرونه منتهياً وينسونه. وأفكر بأن نشيع أنك «فقدت العقل» وأن نرسلك الى هناك ونحن سنحمل لك الطعام ونعتني بك، ثم بمرور الوقت ستهدأ الاحوال وتستقر الاهواء فتقول أنك شفيت، ونقدم تكفلا ونأخذك من هناك.

واعترض قاري شريف:

– هذا لايناسب. أي مجنون هو، الأخ حيدرقول! بل والحياة بين المجانين... كلا، كلا!

وقال أشرف جان بحمية:

– أمن المعقول ألا نستطيع نحن اخفاءه؟

وتلقف الفكرة ميرزا ابراهيم:

– نضع عليه ملاية ونخرجه من المدينة. ولكن علينا أن نقرر الى أين.

وغرق الجميع في تفكير عميق وكئيب. جمد حيدرقول في وضعه كما كان وكوب الشاي في يده، اعجبته فكرة قارى عثمان المفاجئة، ما المانع من دخول مستشفى المجانين لبعض الوقت؟ وبخروجه من هناك سيكون تحت حماية هؤلاء الشبان الاماجد وليس مع معشر المقامرين الهالكين. هم سيؤكدون للجميع أنه «هادىء الجنون» وأنه لا يؤذى أحداً، أما هو فسيغير مظهره ويكون بوسعه أن يمشي في المدينة بكامل الحرية. انها نصيحة ليست سيئة بتاتاً، ويجب استغلالها. وقال حيدر قول:

– أنا موافق على اقتراح الأخ قاري عثمان.

وتبادل الجميع نظرات مستغربة أما هو فتابع:

– ان العيش بعض الوقت في مستشفى المجانين ليس رهيباً كما قد يبدو. بيد أنه لي عندكم رجاء، فهل تستجيبون أنتم لرجائي؟

– تكلم، وسنبحث في الأمر كما يجب.
– خذوني اليكم، خذوني أنا الفقير الوحيد والشريد اليكم خادماً.
وتطلع الاصدقاء الاربعة اليه مستفسرين: فماذا يريد أن يقول:
– في مستشفى المجانين ستقولون أنني خادم أحد منكم، وأن وطني بعيد، وحين سأخرج من هناك تبقونني عندكم خادماً.
وصمت الاصدقاء لايدرون جواباً على هذا: فهم فقراء يحصلون اسباب عيشهم بشق النفس ويسوون أمورهم دائماً دون خدم.
– وأنا سوف اكنس حجركم وانظفها، سوف أغسل لكم وأذهب الى السوق، وسوف احضر لكم الغداء... سوف أقوم بكل شيء... وحسبي فقط ألا تطردونني. وبالنوم لا تفكروا، سوف أجد مكاناً في القبو أو في الردهة... سوف افرش حصيراً.. والحمد لله!...
وقبل الجميع صحا من ذهوله ميرزا ابراهيم:
– ما هذا، يا أخ حيدرقول، دع عنك هذا الكلام! نحن تلاميذ مدرسة، ندرس القرآن وليس لدينا ما ندفعه أجراً للخدم. اننا نخدم انفسنا وبعضنا البعض. أما فيما يتعلق بالسكن، فانك ستكون دائماً ضيفاً عزيزاً في حجرة أي واحد منا. ولكن من أجل النجاة من الملاحقة، سيكون عليك أن تسكن في ذلك البيت غير المستحب وهذا ليس الا موقتاً.
ولكن حيدرقول كرر بالحاح:
– كلا، ينبغي أن تعتبرونني خادماً لكم.
– هل هذا لمصلحة القضية؟– سأل قاري عثمان فأومأ حيدرقول برأسه ايجاباً.

كان المختار نصرة الله جالسا في الميرشابخانة يتباهى أمام الميرشاب عبد الرحمن بصنائعه الباهرة.

— ماذا حسبتم، أنني لا أعرف الناس، أم ماذا؟ لقد درست جيداً طبائع العامة. أعرف كل عاداتهم ومسالكهم. وما أن تلقيت أمركم، حتى فطنت، أدركت من نفسي ولم أتشاور مع أحد: ان أي شخص غريب ما كان ليخطف فيروزة، بل وهي ذاتها ما كانت لتذهب مع غريب... انها لا تركض وراء الرجال بعد — معنى ذلك أنه ما من أحد لتهرب معه... وعليه فكرت، أنها لابد وأن تأتي، واذا لم تأتى هي فسيأتي حاميها، في عشية جمعة أو يوم اثنين، لا بد أن يأتي أحد الى بيت العجوز كي يشعل شمعة ويقرأ على روحها الفاتحة و...

— على رسلك، لا جدوى لي من بقبقتك. ليس بطولاتك ما يلزمني، بل فيروزة، أو ذاك الذي سرقها في أضعف الايمان!.. انما مهلا... من كان في ظنك، ذلك الذي هرب الى السطح؟ كيف شكله؟ أغلب الظن أنه حيدرقول.

— كان الظلام حالكاً، لم نتبينه، — أجاب نصرة الله. — ولكن معرفة ذلك اسهل عليكم من شرب الماء،

— وكيف؟

— من احمد جان السقاء، أو من ذاك، خادم الباى... كيف يسمونه... أجل، عصا، كلاهما عندكم. عذبوهما كما يجب و...

قاطعه الميرشاب.

— ليس لمثلك أن يعلمني!.. الافضل، قل لي، صف لي ذلك الهارب! أما بخصوص عصا... فقد ابلغني الباي أنه هو الذي أرسله ليقفل بيت العجوز. وتأكد ذلك وقت التفتيش، في جيب عصا وجدنا قفلا ومفتاحاً. هاك سبب وجوده في بيت العجوز. يبقى عندنا السقاء وحده وهو، كما يبدو لي، ذئب محنك.

— أجل، السقاء ذئب محنك! واذا استطعتم حل عقدة لسانه، ستحلون جميع الاحجيات.

– حسناً، سنستنطقهما في الصباح، أما في الليل فدعهما ينعمان بقيودهما...

نهض المختار بنية الانصراف وقال:

– اذن، الى اللقاء، ومع ذلك أرسلوا متقفي الاثار، دعونا نحاول – وحين بلغ الباب توقف من جديد. – على العموم، أنا أيضاً أظن أنه ليس لعصا ضلع هنا. انه شاب ساذج، خادم بسيط، وحيد، بل وليس عنده مكان يخفي فيه فيروزة.

أومأ الميرشاب برأسه، تمطط وتثاءب مديداً.

صاحت آخر الديوك. الشوارع كانت مقفرة منذ زمان والمدينة تغط في نوم امن وديع.

ولكن السجينين البائسين أحمدجان وعصا لما يناما. كانا في غيهب السجن، تقيد عنقيهما أطواق الحديد وتثقل أرجلهما الاصفاد. عصا كان يبكي بمرارة والسقاء يسري عنه:

– لاتبك يا ابني، لا تفرح أعداءك. فهم قد يحسبون أن لقمة لينة وَقعت لهم، تتناسب وأسنانهم. بل وانك تعكر لي مزاجي أيضاً وتزعج أرواح الميتين، وأما دموعك هذه فانها لن تأتي بأى نفع.

كبح عصا دموعه بصعوبة وتكلم ناشجاً:

– أنا... لست على نفسي أبكي... بل على العجوز... يمنعوننا حتى عن قراءة الفاتحة على روحها. والفتاة المسكينة لاتستطيع أن تأتي الى بيتها الخاص، كي تشعل شمعة في ذكرى جدتها. علام هذا الظلم!

– أوه، دع عنك هذا! المعذب سمي معذباً لأنه يعذب الناس. هكذا كان الحال دائماً وهكذا سيبقى. فلا تقلق نفسك بما لاطائل تحته، ما كتب على الجبين ستراه العين. تعال، اقترب مني، ثمة ما أريد قوله لك، اسمع وتذكر. غداً في الصباح سوف يستدعيك الميرشاب، سوف يستنطقك ويسألك عما كنت تفعله في بيت العجوز. قل أنه كان عليك أن تقفل البوابة وأنك كنت على وشك أن تفعل

ذلك حين ظهر السقاء أحمد. آنذاك دخلتما الى البيت، قرأتما الفاتحة، وهذا كل شيء. واذا راحوا يسألونك عن فيروزة فأنت لاتعرف شيئاً... ان تكلمت هلكت وأهلكتها معك. أما اذا أخلوا سبيلك قبلي فاذهب الى عجوزي وقل لها أن تأخذ فيروزة الى المعلمة طنبور. وجودها هناك أسلم... فما داموا قد تحططوا علينا فانهم في نهاية الامر سيقعون على أثرها...

سمعت خلف الباب أصوات مبهمة فصمت السقاء واعتراه الخوف ظاناً أن العدو قد استرق السمع واكتشف السر. ولكن قلق السقاء كان بلامبرر، فخلف الباب لم يكن من أحد. والميرشابو كذلك مرؤوسوه كانوا منشغلين بشؤونهم الخاصة لا يعيرون الآن للسجناء أي اهتمام. الميرشاب ذهب الى بيته. والحراس التموا في غرفة الاستقبال ونسوا خلف طاولة القمار كل شيء في الدنيا.

الديماس الذي زج فيه السجناء كان تحت غرفة الاستقبال مباشرة. كانت جدرانه من الحجر الجبلي الصلد ولم يكن فيها لا نافذة ولاحتى شقاً صغيراً. الباب ملبس بالمعدن، يوصد باحكام، وكان فتحه أو تحطيمه أمراً مستحيلا بدون أدوات خاصة وبالطبع لم يكن لدى المعتقلين أي شيء من هذا القبيل بل وكانت كسوتهم بسيطة: قميص وسروال فقط، ناهيك عن أن الاصفاد كانت تثقل أرجلهم وكانت تغل اعناقهم السلاسل وأطواق الحديد. فهم اذن لن يستطيعوا الهرب والحراس كانوا مطمئنين من هذه الناحية. كانوا ينفذون أمر رئيسهم، كانوا في مواقعهم. ولكنه لم يخطر لهم على بال أن يسترقوا السمع الى أحاديث المساجين...

كانت شراسة الميرشاب الوحشية أمراً يعرفه الجميع. وكان أحمدجان على علم بأصناف التعذيب التي يتعرض لها المعتقلون في الميرشابخانة. وكان على ثقة من نفسه — فهو لن يشي بفيروزة ولن يكدر روح العجوز الراحلة مهما ضربوه ومهما عذبوه. ولكنه كان يخاف على عصا. كان يخاف أن يعلق الفتى على شص الاعداء، أن يخدع بهم

ويصدقهم، أو أن لا يحتمل التعذيب ويقول أين فيروزة. «ولماذا كشفت أين هي، - لام السقاء نفسه ضمنيا.- كان يجب أن انتظر ريثما تستتب الأمور ريثما تنتسى... أخ، لقد شخت وخرفت، بل وأخذت بي الشفقة، عليها اللعنة!..»

وما فتىء السقاء يفكر ويفكر: كم من الناس يدور حول هذه الفتاة الوحيدة المسكينة المغمورة. كلهم يريدونها، والمختار يبحث عنها والمؤذن والامام بل وحتى الميرشاب. فماذا يبتغون منها، ماذا تريد هذه الذئاب المفترسة، بماذا تطمع؟ ياللفتاة البائسة العزلاء، انها بعد في الثالثة عشرة من العمر! فمن منهم سيكون الاسبق في الوصول اليها؟ أو لعله في الامر سر من الاسرار؟ ربما يسعى المداهنون لاجل الباي؟.. يريدون العثور على ذاك الذي طعنه بالسكين؟ ولكن ما شأن فيروزة هنا؟ بل وما شأن أحمدجان ذاته؟

في نفس الوقت كان عصا يغني ليلاه: لماذا لم يعلن خطبته من فيروزة عندما كانت الخالة ديلارام على قيد الحياة؟ فهي وان كانت صغيرة بالسن، لكنها تبدو ناضجة تماماً. كان على العجوز نفسها أن تهتم بذلك. بل وكان بوسع السقاء أحمد أن يرتب الامور... بيدأنهما لم يفعلا شيئاً. ولكن من كان يتوقع أن تموت العجوز هكذا قريباً؟ لم يتوقع ذلك أحد. وهاهي قد ماتت، وانقلبت حياته، هو عصا، رأساً على عقب، فيروزة تشردت، بيت العجوز خلا: وليس من أحد يشعل فيه حتى في عشية الجمعة، شمعة أو يقرأ الفاتحة. ولأي غرض يبحث الميرشاب عن فيروزة؟ ما حاجته اليها؟ علام ينبشون الدنيا ويفتشون عنها؟ لكن عصا، ومهما كان الامر لن يسمح لاحد أن يلمس بيديه القذرتين حتى ظفر فيروزة؛ من أجل فيروزة، عصا مستعد لان يضحي بحياته!

تصرم الوقت وانقضى الليل الصيفي القصير. عبر الشقوق الضيقة في السقف تسرب نور النهار الى ظلمة القبو الحالكة. صار بالامكان تبين رفاق النحس والشدة.

كان عددهم حوالي العشرة، أرجلهم في الاصفاد وبعضهم رقد على الارض الباردة مباشرة.
استفسر احمدجان من عصا:
- هل نمت؟
- لا، لم أنم. هاهو النهار قد حل ومع ذلك لايطبق لي جفن. ومن عادتي أن أنام جيداً.
- ستتعلم النوم هنا أيضاً يا ابني، - تدخل في الحديث رجل أسعر الشعر طويل اللحية. - رويداً رويداً ستعتاد وستنام. أما اذا سايرت الميرشاب واعترفت بكل فراياته فان قضيتك ستحل سريعاً. فاما أن يرموك في السجن واما أن يحكموا عليك بخمس وسبعين جلدة... وبعد هذا تسبح قليلا بحمد جلالة الامير يطلقون سراحك. أما أنا فأفضل السجن على الخمس والسبعين جلدة. جسمي لن يتحمل التعذيب... اما في السجن فمهما كان، بوسع الانسان أن يعيش وأن يحصل على قوت يومه... هنا في الميرشابخانة الحال أسوأ، الارجل تتيبس في الاصفاد، والعيون تعمى في هذه الظلمة الحالكة، نعيش في جوع بل ويعذبوننا أيضاً ويسخرون منا.
- وكم يوما أنتم... - كان عصا قد بدأ يسأل ولكن محدثه قاطعه:
- هنا لا يسألون عن ذلك، لقد أضعنا هنا يا ابني حساب الايام والليالي. ماعدت أذكر كم اسبوعاً، بل وكم شهراً مر مذ ألقوا بي هنا بوشاية من أحدهم... الافاكون، على الاغلب، هم الذين يقتلون وينهبون ثم يلقون التهمة على رأس أحد آخر لكي يمحوا بذلك آثار جرائمهم. ان أنا اعترفت بجريمة القتل التي لم ارتكبها. ألقوا بي في البئر... ولا يستبعد أن يعدموني، أن يقطعوا رأسي. ولكن، لا، لن استسلم، لن اعترف بذنب لم اقترفه، لن يكون لهم مايريدون. ومن يرغب بالوقوف في سوق الحبال مربوط اليدين وأن يضع رأسه على نطع الجلاد!؟
في هذه الدقيقة انفتح الباب وظهر فيه حارسان.

- جاؤوا يطلقون سراح أحدنا. - همس محدث عصا. - ما داموا قد شرفوا هكذا باكراً، بدون مبرر أو سبب، فهذا يعني أن الحرية حقت لاحد منا. رحماك يارب، من هو هذا المحظوظ؟!

اقترب الحارسان من عصا ونزعا عنه الاصفاد والاطواق. ثم أمرا:

- هيا، هيا، امش!

لكن عصا لم ينصع فوراً. في البداية دنا من احمدجان، جثا قربه وقبله. بعد ذلك ودع محدثة وساعتها فقط اتجه نحو المخرج.

وأرسل احمدجان في اثر الفتى نظرة تشربها الدموع. كان يدعو له بالتوفيق.

اقتيد عصا الى الميرشاب في غرفة الاستقبال. كان هذا جالساً في مكان الصدارة وكان متجهماً شاحباً كأنه لم يشبع نوماً، بل ولم يغتسل بعد ليلة قضاها في السكر والعربدة. عدد كبير من الحشايا الطرية كان له بمثابة مقعد.

- ما اسمك؟

- اسمي عصا.

- ماذا كنت تفعل في بيت العجوز أمس؟

- جئت لاقفله...

- ومن كان ذلك الشخص الذي هرب الى السطح؟

كان السؤال مباغتا. ارتبك عصا في البداية ثم استدرك نفسه وتظاهر بعدم الفهم.

- أي شخص؟

- ذلك الذي هرب الى السطح. لقد كان معك!

- أنا لم أر أحداً.

- خير لك أن تقر، أن تقول الحقيقة. هيا، من كان ذلك الذى هرب الى السطح؟

- معي كان السقاء احمدجان. ولم أر أحداً آخر.

احتدم الميرشاب غيظاً، أمسك السوط، اقترب من

عصا ورفع باعه ليضرب ولكن الحاجب دخل هنا مهرولا وقال:

– سيادة الرئيس، لقد وقع القياف على أثر الهارب.

– بالله؟– هتف الميرشاب بسرور وأضاف مشيراً الى عصا:– أطلق سراح هذا الكلب. دعه يذهب الى الباي وفيما بعد سنتكلممعه. اقتد القياف...

– سمعا! هيا، اخرج!– دفع الحاجب عصا. ولم يحتج لتكرار أمره.

– هات، حل كيسك!– قال الحاجب عندما صار وعصا خلف الباب.– من الواجب أن تشكرني على البشرى السعيدة. هات، أخرج ما عندك، ضعه في يدي وامض حال سبيلك.

– ليس عندي نقود.

– كيف! انت ماذا، شحاذ؟ تعيش في المسجد؟

– كلا، عند غنيجان باي.

سمع الحاجب هذا الاسم ونفض يده قاطعاً الامل. ثم دخل الى البهو متذمراً من سوء حظه فنادى القياف واقتاده الى الميرشاب.

خرج عصا من الميرشابخانه ووجه خطواته الى بيت أحمدجان مباشرة. كانت البوابة مقفولة من الداخل. ولم يردوا على دقاته فوراً. ثم فتحت له عجوز وحين رأته اجهشت بالبكاء وعانقته.

– حيان؟ معافان؟– سألت هي ناشجة.– سمعت أنهم أخذوكما الى الميرشاب... ربطوا أيديكما. وأين زوجي؟ لماذا لم يأت معك؟ أواه، كيف بقيت حية بعد هذه الليلة! لم تغمض لي عين... تقلبت كأن فراشي كان فيه أشواك. ادخل، ادخل، عجل تكلم، أين هو؟

في حوش السقاء الصغير قعد عصا على طرف مصطبة واطئة وباشر بالكلام محدقاً في الارض:

– سألني العم أن ابلغكم تحياته. لا تقلقوا عليه، هكذا قال. سوق يطلقون سراحه، ان لم يكن اليوم، فغداً...

– وماذا حدث؟ على أية جريرة ربطوا لكما أيديكما؟
أرتج على عصا الامر، حار جواباً لا يدري كيف يطمئن العجوز. لكنه ما كاد يفتح فمه حتى خرجت من الغرفة امرأة في أواسط العمر كانت على شبه كبير بزوجة السقاء.
– هذه اختي ظريفة،– قالت العجوز وقد رأتها.– عرفت بمصابي فأتت. وهي تعيش في حارة بيستاشيكنان.
سلم عصا على المرأة وبعد هنيهة صمت قال:
– لم يحدث شيء ذو بال، فلا تقلقن. كل ما في الامر أن رجال الميرشاب يبحثون عن الشخص الذي طعن الباي.
– وليبحثوا ما طاب لهم، أي شأن لكما في هذا؟
– وعن فيروزة أيضا... يبحثون.– قال عصا في بطء وهو يرنو باستفسار الى هذه المرأة تارة والى تلك تارة أخرى.
شقيقة العجوز التي كانت قد جلست القرفصاء على جنب هبت من مكانها فوراً وسألت في هلع:
– وفيروزة ما شأنهم بها؟
– لقمة مستساغة وبلا مقابل أيضاً، فمن يرفض نعمة كهذه؟– أجابت العجوز وحدقت ملياً في عصا.– هل يشتبهون بكم في اختطاف فيروزة؟
– أجل، كأني بهم... قال العم أن بقاء فيروزة في بيت هذه الخالة ماعاد يصح الآن، يجب العثور على مكان آخر.
تبادلت المرأتان نظرات حائرة، لاتدريان ما العمل. وكانتا على معرفة بقسوة الميرشاب لكنهما لم تتوقعا تعسفاً سافراً كهذا. بادرت زوجة السقاء في تبديد الصمت.
– الى أين نذهب بالمسكينة؟ لامكان...
– أشار العم أن نذهب بها الى المعلمة طنبور. هناك أسلم.
نظرت المرأتان الى بعضهما من جديد وقالت الصغرى:
– نصيحة صائبة. السيدة طنبور امرأة مجيدة تحظى بالاحترام. في أحسن البيوت يستقبلونها. وبيتها اكثر أماناً من بيتنا... بالطبع.

– عسى ألا تقبلهم حتى القبور، هؤلاء المتوحشون الملاعين – هتفت زوجة السقاء.– على أي ذنب يتأتى على اليتيمة البريئة أن تتنقل بين بيوت الناس.

كان عصا يحلم بأن يرنو الى فيروزة ولو طرفة وكان على أهبة أن يسأل هاتين المرأتين الطيبتين السماح له برؤيتها لكنه لم يتجاسر.

– آه، ما بالنا واقفون، ـ قالت العجوز، ـ لندخل الى البيت، يا ابني. عندما تحل المصيبة يغفل الانسان عن كل شيء...

فأجاب عصا.

– أشكرك، ولكنني لا أستطيع الدخول، علي أن أخف الى الباي، والا فانهم قد يخمنون ما لا يعلمه الا الله. ولكن حبذا لو أوصل الخالة الى بيتها... و... لو نرسل فيروزة على وجه السرعة.

ـ وهذا حق، ـ نوهت زوجة السقاء.– اذهب يا ابني، مع خالتك. ولكن كن حذراً، احرص ألا يلحق بكما وغد من الاوغاد. ومع فيروزة تكلم أنت، انقل لها نصيحة عمك.

ولم تضطره ظريفة للانتظار طويلا، تلفعت بملايتها، اسدلت على وجهها البرقع الاسود وخرجت. خرج عصا خلفها وتوجها معا الى حارة بيستاشيكنان.

٥

سكان حارة بيستاشيكنان* كانوا في اغلبيتهم أهل كار يمتهنون تفقيش الفستق وتكسير نوى المشمش ومن هنا جاء اسم حارتهم. كان التجار يشترون الفستق بقشوره ويستأجرون أهل الحارة الذين كانوا يفصصونه بأن يضعوا الفستقة على سندان صغير ويضربوها بمطرقة خاصة فتنفصم قشرتها، وكانوا يفعلون ذلك بسرعة فائقة: يد

---

* بيستاشيكنان – كلمة طاجيكية تعني مفقشي الفستق.

تضع الفستقة على السندان واليد الاخرى تضربها ثم ترميها مشقوقة في السلة. بعد ذلك كانوا يغطسون الفستقات ونوى المشمش المفتوحة الافواه بظرافة، كانوا يغطسونها في محلول الملح ثم يحمصونها لتباع على هذا الشكل لاصحاب الحوانيت في أسواق المدينة والنواحي والاقضية. هذا العمل كان يمارسه جميع أفراد الاسرة، وكانوا يعملون من الفجر الى المغيب. لكن دخلهم كان زهيداً حتى العدم، بالكاد كان يكفي لشراء الخبز.

من كان يمر نهاراً في شوارع هذه الحارة كانت ترافقه باستمرار ضربات المطارق تنزل على حبات الفستق ونوى المشمش.

اقتادت المرأة عصا الى حارة بيستاشيكنان حيث كانت تعيش مع زوجها على نفس العمل الذي يمارسه معظم الاهلين. أدرك عصا بقلبه أنه ذاهب الى أصدقاء ولهذا فان طرقات الشواكيش وفرقعة القشور المتشققة كانت تداعب سمعه كأنها ألحان طروبة:

مثل ماء النبع المنعش، عذبة لقيا الحبيب
من يديه المر أحلى من عصير الشهد فى أيدى الغريب
بلبلت كل المدينة خصلة تهفو على رأس حبيبي
رف قوس حاجبيها، غاية الاغواء، يانفس استجيبي!

خفق قلب الفتى متلهفاً. أخيراً سيرى تلك التي كانت أغلى عنده من كل كائنات الدنيا. و كان قد فقد الامل! عشرة أيام مضت وهو لايرى فيروزة. منذ ذلك العرس المنحوس لم يرها. وكانت هذه الايام طويلة، كأنها أشهر، بل قل أن عاماً مضى منذ رآها آخر مرة. أما الآن، وعلى أمل اللقاء المرتقب، فيضطرب القلب وما أحلى نبضاته! انها سعادة تساوى العمر كله. أنظروا الى هذه السماء الفيروزية الصافية، ليس فيها سحابة ولاظل سحابة، الشمس تسكب على الارض أشعتها الذهبية، والناس يسيرون في الشوراع

جذلين مرحين وكلهم يهرعون الى لقاء أحبائهم... وكم هي جميلة هذه المرأة الطيبة كملاك! كم هي رشيقة وهيفاء! كل شيء فيها جميل، كل شيء عليها جميل حتى ملايتها المرقعة وجزمتها المقطعة وخفاها الباليان! ما أخف خطواتها! ولكن أين، أين هو بيتها؟!

توقفت ظريفة أخيراً عند بوابة واطئة وطرقتها. وقف عصا على جنب، في ظل شجرة توت وتلفت فيما حوله-ألا يتبعهما أحد؟ ولكن ها هي البوابة قد انفرجت، فدخلت المرأة ونادت لعصا. في طرفة عين وجد نفسه في ممر ضيق مظلم. هناك استقبله رجل أعور متوسط العمر يرتدي سروالا أبرشاً وقميصاً بسيطاً وتغطي رأسه طاقية بالية. سلم الرجل على عصا وأرتج البوابة بسلسلة.

- تفضل الى الفناء- قال هو ماضياً أمام الضيف.

الفناء المحاط من كل جهاته بحيطان الجيران العالية، بدا صغيراً مثل قفص طير. كان البيت مكونا من غرفة واحدة مع ردهة أمامية وقبو.

طلع عصا على درجات المصطبة ودخل الى الردهة. كانت المرأة قد طوت هناك ملايتها ودعت عصا:

- تفضل الى الغرفة، اقعد! فيروزة عند الجيران سأناديها الآن. منذ الأمس صرنا نرسلها الى الجيران ما أن نسمع طرقات على البوابة. هذا قريب عبر الخوخة*... وحين يكون القادم من ذوينا، ترجع في الحال. في الوهلة الاولى بدا صاحب البيت جهما قليل الود. دخل عصا خلفه الى الغرفة وأجال نظره. لم يكن في الغرفة نوافذ، بل مجرد بابين كان احدهما مغلقاً فغرق قسم من الحجرة في شبه ظلام. الارض كانت مغطاة بقطع من اللباد وبأوصال من بساط عتيق وبمحاذاة الجدار مدت مفرشة ضيقة منجدة.

---

* الخوخة - هي باب صغير في سور الدار أو في بوابته الامامية الكبيرة.

أجلس صاحب البيت عصا بعيداً عن الباب وجلس هو قرب العتبة.

– أهلا وسهلا يا أخ، – قال هو مبتسما. – نرجو المعذرة على فقرنا، لعنه الله حتى لغرفة واحدة لانستطيع أن نشترى بساطاً. كيف الصحة؟ كيف الحال؟

اربك لطف المضيف عصا واخجلته رقة معاملته وأدب حديثه فوجم لا يقوى على النطق بكلمة. وأى حاجة للكلام عن الفاقة وعن الفقر، عصا في حياته كلها لم يعرف الا هذا. غرفة خاوية وقطع لباد بدلا عن البساط – أي جديد هنا؟ لقد اعتاد عصا على ذلك. وأخيراً تغلب على خجله ودمدم:

– شكراً لكم... أنا أيضاً فقير، خادم عند الباي... وفوق هذا – يتيم...

– الاهم هو الصحة أما الاغراض فستأتي مع الزمن – تابع الاعور كلامه. – أنا والزوجة نكدح طوال عمرنا ولكننا على هذا زوّجنا ابنتنا واعطيناها جهازاً جيداً... لم نخجل أمام الناس... بل واقمنا عرساً، على قدر حالنا، غير كبير. وكنا قد ورثنا عن أهلنا بساطاً ولكننا أعطيناه لابنتنا. والآن، كما ترى، نجلس على هذا العتيق الممزق،.

فقال عصا:

– في يديكم مهنة جيدة لا يتأمر عليكم أحد، تفصصون فستقكم والحال ماشي!... أو لعلكم الآن بلا عمل؟

– العمل موجود، وهو كثير ولكن ما الفائدة؟ ذات مرة حسبت: أجرة اليوم تكفي لشراء رغيفي خبز، ثلاثة وجبات شاي ورطل عنب. فكم من الزمن يستطيع المرء أن يعيش على الخبز والشاي؟ ولكننا نحمد الله حتى على هذا، نشتغل نحن في القبو وهناك نطبخ ونأكل – عموماً نقضي النهار كله هناك وهنا ننام فقط. ومنذ انتقلت الينا فيروزة، رتبت الغرفة فصارت نظيفة مريحة بل ومضيئة...

وهنا دخلت ربة البيت ومعها فيروزة. كانت الفتاة في لباس الحداد: في فستان من الشيت الازرق وطاقية تعصبها

قطعة من الشاش الابيض. كانت ضامرة الوجه شاحبة اللون متورمة الاجفان من البكاء ولكنها مع ذلك كانت جميلة. كانت على شيء من الحسن جديد، شيء من صنو ذاك الذي يطرأ عادة على الوردة الحمراء اليانعة حين تبهت قليلا فتمسي أطيب عبيراً وأبهى منظراً.

– طاب يومكم! – قالت فيروزة واضعة يدها على صدرها.

وظلت واقفة الى أن دعتها ربة البيت للجلوس.

هب عصا على قدميه ما أن دخلت المرأتان، دمدم بشكل مبهم في الرد على تحية فيروزة ووجم. انعقد لسانه من الاضطراب. وصمت الآخرون أيضاً. جلست فيروزة مطرقة العينين. وطأطأ عصا رأسه لا يتجاسر على النظر اليها ومن الانفعال كان يلوى أصابعه.

وقطعت صاحبة البيت حبل الصمت:

– أطلقوا سراح عصا وبعد يومين – ثلاثة يطلقون سراح العم أيضاً. أى نفع لهم منه، من سقاء عجوز؟ ولكن اذا عرفوا أنك هنا... فلن تناله منهم رحمة...

– صحيح، – أيدها عصا وقد حالفته الجرأة. – العم أحمد جان يشير عليك بالذهاب الى المعلمة... هناك أسلم.

– وأنا أيضاً من هذا الرأي. – تمتمت فيروزة بصوت متهدج.

وسأل صاحب البيت:

– الى أية معلمة؟

فأجابت الزوجة:

– الى السيدة طنبور. انها امرأة جليلة، طيبة وعطوفة.

– وتعاملني معاملة حسنة! أضافت فيروزة.

– مادام الامر على هذه الصورة لا بأس في أن تقضي هناك عدة أيام، – قال رب البيت بعد تفكر. – عيشي هناك ريثما تهدأ الامور. وآنذاك تعودين الينا. لقد ألفناك جداً وزوجتي لا تجد لنفسها مكاناً حين تكونين غائبة.

وسألت فيروزة بوجل وهي ماتزال مطرقة الرأس:
– وكيف حال العم هناك؟ ماذا قال أيضاً؟
– لاشيء... هو هناك... في الميرشابخانه، – دمدم عصا. – يصلي من أجلك... قال...
وفهمت سيدة البيت فقالت:
– حسناً يا أولاد، أنا ذاهبة لأوقد السماور. أما أنتما فتحادثا هنا.
ووجد رب البيت بدوره حجة لكي يتركهما فبقي العاشقان بمفردهما.
صمت كلاهما وهابا حياء حتى النظر الى بعضهما.
كان عصا يؤنب نفسه في السر، كان يتهم نفسه بالجبن ولكنه لم يفه بنبت شفة. أخذ به الارتباك كل مأخذ، لم يكن يدري عما يتكلم، وبالفعل عما يتكلم، هل يندب الجدة، تلك التي كانت لفيروزة عماداً قوياً وجناحاً آمناً؟ هل يحيي ذكرى ديلارام منوها بمكارمها وأياديها البيضاء؟ ولكن علام يهيج جراحاً مازالت طرية! أو ربما يسري عنها، ربما يبوح لها بحبه ويعاهدها على الوفاء ويقول لها أنه مستعد أن يبذل حياته من أجلها؟ فعن أي شيء، أي شيء يتكلم؟
في ذات الوقت كانت فيروزة تفكر بعصا، وتقول: ياله من شاب جيد وشجاع لم تردعه الملاحقات لم يخف وذهب الى بيت الجدة وأشعل هناك شمعة. وبعد ذلك – تصوروا– اعتقلوه وزجوه في السجن... ورغم هذا كله لم ينسها، وما أن أخلوا سبيله حتى هرع اليها. فيالسعادة من كان له أصدقاء كهؤلاء! انهم الآن وبعد موت الجدة، يرعونها ويخبئونها... أما العم المسكين فيتعذب بلا ذنب وبلا جريرة... ومتذكرة السقاء عقدت فيروزة العزم، أخيراً، على الكلام:
– ماذا حملك العم لي؟
فيروزة اللبيبة وجدت مخرجاً. وهنا انتعش عصا أيضاً.
– قال أنه لايجوز لك أن تبقي في هذا البيت،

ستكونين عرضة للخطر. كل شيء بدأ بسبب ذلك الشخص الذي قتل خادم الباي ثم طعن الباي نفسه. انهم يبحثون عن هذا الشخص... ولكن الميرشاب والمختار لسبب ما يبحثون عنك أيضاً. أية حاجة لهما بك، لا أستطيع ان أفهم. لو كان عندي بيتي الخاص لكنت خبأتك بنفسي، أما في هذه الحال فماذا بوسعي أن أفعل...

— وفي بيت المعلمة طنبور لن يكون الوضع سيئاً... انها لي مثل أم. كما أنني سأدرس أيضاً ولن يكون عندي وقت للملل.

ونظرت فيروزة الى وجه عصا مباشرة فالتقت أعينهما للمرة الاولى.

وانزاح الغم عن قلب عصا.

— عظيم، عظيم يا عزيزتي فيروزة، هذا جيد. معنى ذلك أنك ستذهبين الى المعلمة طنبور... ولكن هل سيكون بوسعي أن أزورك؟

فابتسمت فيروزة وقالت:

— ولم لا؟ المعلمة تعيش في حي ميردوستيم. تصل الى حوض المياه وتسأل: كل طفل هناك يعرف بيتها.

— البيت، البيت يمكنني أن أجده... ولكن كيف أجدك أنت...

— المعلمة طيبة القلب، منصفة وذكية. ستسمح لنا أن نلتقي. تعال.

— أجل، أجل سوف أجيء. سأهرع الى هناك ما أن أجد دقيقة فارغة... حسبنا أن تستتب الامور، وبعد ذلك...

وتلعثم، كان يريد أن يقول أنه يحلم بالزواج منها وأنه يحلم بيوم عرسهما، ولكن كيف له أن يتكلم عن ذلك الآن، وهو لا يملك لاثاغ ولا راغ وليس عنده أحد يتكل عليه، غير أنه على هذا شاب قوى ومعافى تفعمه الرغبة والطموح لبلوغ سعادته.

لا، لا يحق لنا بتاتاً أن نفقد الرجاء
فالصبح لا محال آت بعد الليلة السوداء.

هذا ما تقوله الاغنية وهذا ما يؤمن به عصا. انه لا يخلد أبداً لليأس ويثق دائماً، وحتى في أقسى لحظات الحياة وأصعبها، بأن الغد سيكون أفضل، فكانت هذه الثقة ترفع من همته وتشد في ساعده.

– سوف أقول للمعلمة عنك...

– ماذا ستقولين؟

– سأقول أنك لي مثل أخ، أخ عطوف ومحب...

– أنا مستعد أن أبذل حياتي من أجلك! – بولع متهيج فجأة قال عصا ناظراً الى عيني حبيبته السوداوين الحزينتين.

غضت فيروزة الطرف وفاهت:

– لا، لا، لا تقل مثل هذا الكلام.

ثم استعجلت واضافت:

– يجب علي أن أسرع في الذهاب... اذا لم تستطع الوصول الى بيت المعلمة، تعال الى هنا وستعرف عني كل شيء.

– غدا بالضبط سآتي...

– والآن، يجب أن أستعد للذهاب،

ونهضت فيروزة.

– كوني حذرة كل الحذر، – أوحى لها عصا. – عند المعلمة طنبور تلميذات كثر، ومن الممكن أن تشي بك أحداهن... تشاوري مع المعلمة، فلربما تغيري اسمك؟

– هذا محال! الكل في المدرسة يعرفونني. ولكن البنات جيدات... لا تقلق علي.

ابتسمت فيروزة ومضت نحو المخرج ولكنها حين بلغت الباب توقفت وقالت:

– كدت أنسى أن اسألك: ماذا سنفعل في أيام التأبين، في اليوم العشرين والأربعين على وفاة جدتي؟ هل ستأتي؟

– وكيف لا! – هتف عصا، ولكن أفكاره كانت مشغولة بأمر آخر.

أحس بالخوف على هذه الفتاة البارعة الجمال. ان حسنها قد فتن الجميع، ولا شك، فتن المختار والميرشاب وكل من هنالك، سحرهم جميعاً وأطار عقولهم. ومن ذا الذي لا تفتنه ولا تثير اعجابه هذه الابتسامة الخلابة؟ من ذا الذي لا يطلب ود هذه الغادة الهيفاء؟ فياليتها كانت دون هذا الحد جمالا! ان حب عصا لفيروزة أعمق من أن يهمه جمالها، فهو يحبها ليس لهذا.

حان الوقت للانصراف ومودعاً أصدقائه ترجى عصا صاحبة البيت أن تصاحب فيروزة الى بيت المعلمة طنبور.

٦

اشتغل قاري شريف مع أبيه حتى وقت متأخر من الليل. وبعد أن فرغ من العمل لف في السماط طبق بلوف حضرته أمه ومضى يحمله الى المدرسة التي على ضفة حوض «أرباب».

خيم على المدينة ليل دامس، حار وخانق. كانت الشوارع مقفرة. فبعد أن أدى الناس صلاة العشاء لجأ كل منهم الى بيته. وليس الا في حوانيت قليلة من الصف التجاري في «السوق الجديدة». جلس بعض البقالين على ضوء مصابيح كاز باهتة النور، آملين أن يحظوا بأحد من زبائن آخر الليل.

قطع قاري شريف «السوق الجديدة» وبات حوض «أرباب» على مرمى حجر. هنا لمح شخصاً يخرج من ممر مسقوف الى العطفة. لحق به هذا المجهول، توازى معه ومتطلعاً صوبه سايره خطوة بخطوة. كانت ياقة روبه المرفوعة كما اقتضت موضة ذلك الزمان على كل متأنق اصيل، كانت تغطي ذقنه وفمه. والحق أن قاري شريف تخوف بعض الشيء ولكنه لم يبد دلالة وتابع سيره الى الأمام بخطوات واثقة محاولا أن يسبق مرافقه المجهول. لكن محاولاته باءت بالفشل: فلم يتخلف المجهول ولم يتقدم

مبدياً رغبة سافرة في السير معه قدماً لقدم. وهاهو حوض «أرباب» أخيراً، توجه قاري شريف الى المدرسة وهنا أطبق الرجل المجهول على ياقته وقال بصوت أجش:

— قف، يا أخي القاري!

واضطر قاري شريف للتوقف، حاول بيده اليسرى أن يخلص ياقته ولكنه لم يوفق الى ذلك. وسأل بامتعاض وحيرة:

— ماذا يلزمكم مني؟

— وماذا تنوي أنت أن تعمل هنا في هذه الساعة من الليل؟

— ما هذا الاستجواب! أي شأن لك! اتركني: اتركني والا لن تلوم الا نفسك!

— وماذا تريد أن تفعل معي؟— بسخرية سأل المجهول وشد الياقة بقوة أكبر.

— سترى! لا تحسب أنني هنا وحيد. اي، قاري عثمان، أشرف جان تعالا الي.

وأدت هذه الصرخة مفعولا: ترك المجهول الياقة وضحك كاشفاً عن وجهه.

— آكا مخصوم؟!— صعقت المفاجأة قاري شريف.

— ماذا، هل أخفتك؟

— ويحك! — نطق قاري شريف وقد استرد هدوءه بعض الشيء.— وجدت وقتاً للمزاح.

وابان هذا كان قاري عثمان وأشرفجان قد هرولا خارجين من المدرسة وخلفهما سار ميرزا ابراهيم.

— حكاية تافهة، لم يحدث شيء. آكا مخصوم مزح قليلا وهذا كل شيء. تفضلوا ادخلوا!

وتحرك الجميع نحو المدرسة. كان باب حجرة قاري شريف مفتوحاً: والفانوس المعلق العشري الفتيل ينشر ضوءه. تقدم آكا مخصوم وسأل:

— أيعقل أن هذه حجرتك، قاري شريف؟

– أنت ماذا، ألا ترى؟!– هتف قاري شريف وهو يمد السماط.– لم تعرف حجرتي؟!

– ظننت أن شخصاً آخر يعيش هنا: شخص يحب النظام والنظافة. الكتب مرتبة، ابريق الشاي يلمع، الاكواب تتلألأ والبساط نظيف ليس عليه وسخة – حتى زخارفه واضحة... وزجاجة الفانوس، والفانوس، كيف يبرقان! كلا، كلا، لست أنت هنا.

– يالك من هزار يا أخ مخصوم. في لمحة عين لاحظت كل شيء.

– وهذا ما يجب! والآن قولوا: هل انتم جميعاً في أماكنكم، ألا تلاحظون تغيرات ما؟

– تغيرات؟– كرر السؤال ميرزا ابراهيم،– عند الاخ مخصوم توجد دائماً أخبار مثيرة، أمر مدهش حقاً... الكل هنا، هذا هو قاري عثمان المشارك الدائم في احاديثنا، وهذا أشرفجان ثم قاري شريف... وأنا.

– لا، لا أبداً. ملاحظتكم ضعيفة! لو كان انتباهكم أقوى قليلا، لكنتم لاحظتم أنني اليوم لم أجلس قرب العتبة كعادتي، بل أبحت لنفسي الجلوس على سدة الرئاسة بدون اذن...

ولم يفلح أحد في الرد عليه بكلمة، فقد انفتح الباب ودخل حيدرقول: ارتبك جداً لما رأى آكا مخصوم، بل وأراد أن يقفل راجعاً ولكن السيف سبق العذل، فقد رآه ذاك وراح يتملاه بامعان. والحق أن آكا مخصوم ورغم كل قوة ملاحظته، لم يتعرف على طباخ الأسماك، الى هذا الحد أحسن حيدرقول تغيير مظهره. أما حيدرقول فقد صحا من المفاجأة سريعاً، ومتهاتراً قام بعدة حركات هوجاء ثم جمد في مكانه على العتبة، أشار باصبعه الى آكا مخصوم وانفرط ضاحكاً.

– أو، هو، أو – هو! بياع البصل هنا! وأنا درت على كل دكاكين الأرض ولم أجد بصلة واحدة. يسرني أنك هنا. مقابل كل خطوة منكم – كيس بصل!

جلس الجميع واجمين فاغري الافواه من الدهشة. أما حيدرقول فأخرج من عبه رغيفي خبز وعدة خيارات ووضع كل هذا على السماط. وقال:

– أنا عائد للتو من الحفلة. – وغمز بعينه لقاري شريف ابان ذلك.– الجو هناك مضجر، الناس كثيرون وقرب الباب جلس اشيك آغا باشي وكان يدير عينيه ويبحلق في كل الجهات... فلم أدخل.

حيرت تصرفات حيدرقول وأقواله آكا مخصوم فالتفت الى قاري شريف سائلا:

– ما هذه الاغنية يا صاح؟ لست أفهم شيئاً!

فاستجاب حيدرقول:

– هذه ليست أغنية، هذه رقصة. والرقصة يقودها الطبال. قاري عثمان وقاري شريف يظنان أن الطبال يدق: بكابوم، بكابوم، بكابوم – بكابوم، ونحن نرد عليهما: كيشتالانغ – كيشتالنغ، كيشتالنغ – كيشتالنغ... ها، ها، ها!..

كانت ضحكة حيدرقول جهورة فارتجت الحجرة وبدا أن جدرانها تتشقق، وضحك الجميع.

– عظيم!– هتف قاري عثمان.– أنت جاهز لاي امتحان يا حيدرقول. ولكنه لا ضرورة لكل هذا الآن. الاخ مخصوم صديقنا فلا تخف منه، انه يعرف كل شيء عنك، فنحن نتشاور معه أحياناً.

وتوجه قاري شريف بالكلام الى آكا مخصوم:

– وهذا حيدرقول طباخ السمك القاراكولي... هل تذكره؟ انه هو الذي رد عنا المشاغبين قرب قوش مدرسة.

فمد آكا مخصوم يده الى حيدرقول وقال:

– أذهلتنا، والله، يا رجل! لقد أجدت تغيير مظهرك بحيث لا تعرف فعلا. ودور المجنون تمثله ببراعة أيضاً.. مرحى، مرحى! ولكن ما هي الغاية من هذه التدابير؟

شطر حيدرقول في البداية رغيفي الخبز وبعد ذلك حكى

لاكا مخصوم عن مغامراته باقتضاب وانهى حديثه بالكلمات التالية:

— ... نصحني الاصدقاء بأن أتظاهر بالجنون. اذ بعد خروجي من مستشفى المجانين سيكون بوسعي أن أعمل دون حاجة للتخفي عن الناس. وعموماً، خير للمرء أن يعد مجنونا في هذا الزمان... أجل تذكرت، لقد عرجت على دار القمار... بل كلا، تطلعت من النافذة وحسب. هناك كان ثلاثة من رجال الميرشاب وواحد من رجال الوزير الاول... ففكرت أن هذا ليس صدفة وعجلت في الانصراف.

— أرى أن الميرشاب والوزير الاول صارا يضاعفان جهودهما لسبب ما، — قال آكا مخصوم — يتململان، يحوصان ويلوصان تماماً مثل دجاجة تصفق بجناحيها وتقاقي معلنة أنها ستبيض. في كل مكان يبحثان عن الاعداء... يريدان التخلص منهم... وأنا أتيتكم اليوم مودعاً. قررت أن أسافر قبل أن أقع في أيديهما. سأسافر الى قازان. انها مدينة اسلامية ولكنها تابعة الى روسيا. يقال أن بخارى كانت يوماً ما شهيرة في الشرق بالعلم وبالثقافة، أما الآن فقد انتقل هذا كله الى الغرب، الى قازان. ولهذا بالذات قررت الرحيل الى هذه المدينة. هناك يعيش أحد معارفي، روسي يدعى بيلوأوسوف. قبل عامين كان يشتغل في كاغان، في عنبر تصليح القاطرات، والان يشتغل في عنبر قازان. رجل ذكي وطيب. سأسافر فلربما يتأتى لي أن أحصل على الجنسية الروسية، وعلى كل حال لن أخسر شيئاً. وأنا أنصحك يا حيدرقول أن تتصادق مع الروس، انك بمساعدتهم ستتخلص سريعاً من كل بلاياك.

كان حيدرقول ينظر الى مخصوم بعينين مفتوحتين على سعتهما من العجب. فهو في عمره كله لم يسمع مثل هذه الكلمات: الروس، الجنسية الروسية... ماذا يعني كل هذا؟ بل ويتبين أن هذا الرجل المتعلم قد ضاق بالوزراء وقواد الشرطة ويريد الهرب منهم! ولكنه لا يعاني من ضيق ذات اليد على ما يبدو... عنده مال، قد لا يكون طائلا، ولكنه

كافي... وعنده أيضاً، وبلا شك، أصدقاء يستطيع أن يتكل عليهم، حتى بين الروس. وهو، على الارجح، قد شاهد روسيا ويعرف كيف يعيش الناس هناك.

– كان بودي، أنا أيضاً، أن أهرب من هنا، – بدأ حيدرقول كلامه ببطء. – ولكن كيف لي أن أقوم بذلك؟ فأنا لا أعرف من الروسية ولا كلمة، ولم أتكلم مع الروس في حياتي كلها، فكيف لي أن ألزم جانبهم؟ أنا رجل أمي وجاهل.

– اذا كنت تريد، بوسعي أن أعرفك بالروس في كاغان. أستطيع أن أرتب ذلك.

– يا حبذا!

– اتفقنا! ما أن يصير بمقدورك أن تتنقل بحرية توجه الى كاغان فوراً، في محطة القطارات اسأل أيا كان أين عنبر التصليح فيدلك عليه. هناك ستلتقي رجالا في ثياب يعلوها الزيت وهم سيقولون لك أين تجد عمر. رجل جيد من زيرآباد وحداد ممتاز يتكلم بالروسية وبالتركية... عمر هذا سيساعدك في كل أمر. غداً سوف أراه وأخبره عنك. اعثر عليه من كل بد... والآن، يا أصدقائي الاعزاء، علي أن أذهب.

وبصوت واحد راح الجميع يسألونه أن يجلس برهة أخرى.

– انك تغادرنا الى مكان بعيد، فعلى الاقل اقعد معنا اليوم ساعة اخرى، الله أعلم متى سنلتقي من جديد، – قال له أشرفجان، أما ميرزا ابراهيم الذي لزم الصمت حتى هذا الحين فرفع يده وبدأ يقرأ شعراً:

وعدت بالوفاء فاخلص لما وعدت

لا تنس من بايعتهم للعهد كن أمين

وأخذ بأشرفجان الحماس فتابع:

من خان وعداً قطعه، خساسة ومكراً

لا يستحق الحب ولا وفاء الآخرين

وقبل أكا مخصوم الولع بالكتب والمتضلع في الشعر هذا التحدى فأجاب:

> نهدتي يا صاح، سهم خارق شق الأعالي
> فاحذر اذا ما السهم عاد فقد ينالك في انشغال
> وقد ينالك، ويلتاه! ما نال حافظ من ضلال
> فتعيش في الحانات وضحا وتعاقر الخمر الليالي.

— لقد غلبتنا، نستسلم! — هتف أشرفجان. — ولكن أشفق على عالمنا الفاني، أهده الى سواء السبيل وأنره بشعلة فكرك الوضاءة.

— حسناً، أنا موافق، — قال أكا مخصوم بلهجة مرحة. — اللقاء يستمر، ندعوكم لتذوق البلوف الذي جاء به قاري شريف. من حسن حظنا أنه لم يرم الطبق على الارض من الخوف.

— ياللبطل! — عزف على نفس النوطة ميرزا ابراهيم.

— وهل كنت أنا جباناً في يوم من الايام؟ لماذا انتم...

— اننا نمزح... نمزح...

ضحك الجميع وانكبوا على البلوف، في لمح البصر كان الطبق خاويا...

قرع الباب ودخل عبد الوهاب وهو شاب فقير كان يعيش في ذات المدرسة ويحصل أسباب معيشته بنسخ الكتب.

حمل عبد الوهاب طبق بلوف يتصعد منه البخار. فأدهش ذلك الجميع. أما هو فسلم على الحضور ثم وضع الطبق على السماط ودعاهم لتناول الطعام. ولكن احداً لم يقدم على البدء، الى هذا الحد كانت الدهشة كبيرة.

وضحك أكا مخصوم:

— ماذا يا أشبال، اليد تأبى أن تمتد؟

وهنا تكلم عبد الوهاب:

— انني أفهمكم. لو جاء بهذا شخص غني لانكب الجميع

فوراً قائلين ما ألذه! أما والحال فكلكم تتعجبون: من أين البلوف لهذا المعدم؟ اطمئنوا فأنا اليوم قد استلمت من «أفضل» نقوداً، فقضيت ديوني قبل كل شيء وبعد ذلك اشتريت ما يلزم للبلوف. قلت لنفسي: انني دائماً آكل عندهم بلوفاً، فهات يا ولد واطبخ اليوم بلوفاً دون سابق انذار. ومن سعيد الصدف أن الأخ مخصوم هنا أيضاً.

رفعت الآنية. أشعل حيدرقول السماور وحضر شاياً أخضر. استمر السمر. ومرة أخرى تطرق أكا مخصوم بالحديث الى الروس. قال أن الناس الروس البسطاء، الشغيلة لاينظرون بأي تعال الى أهل بخارى والى المسلمين بصفة عامة... انهم أهل بالثقة لايخدعون أبداً ولا يخونون وفي وقت الضيق لايبخلون بعون، ويا لسعادة من كان له بينهم صديق.

وهتف اشرف جان:

– ولكننا اذا تقاربنا مع الروس فاننا قد لا نصحو الا وقد وضع القيصر الابيض يده على بخارى، فماذا سيصير من أمرنا آنذاك؟

– على كل حال، الروس يعرفون من أمور الدنيا والحياة ما لا نعرفه نحن... وهم سيساعدوننا في سبر أغوار المعارف، انظروا الى الطشقنديين والسمرقنديين، لقد تفتحت اعينهم. أما نحن...

– والى أي مآل كانت ستؤول عقيدتنا، الاسلام؟

– كل شيء كان سيبقى على حاله. وها هي تترستان، كم من السنين تخضع للحكم الروسي. لكن التتر ظلوا مسلمين كما كانوا. نفس الشيء في تركستان، وفي سمرقند...

– أجل... بيد أن الكنائس الروسية ظهرت هناك، قال قاري عثمان متفكراً. و تدخل حيدرقول.

– وما الخطب في هذا!

– أمر غير مستحب بشكل ما.

وقال أكا مخصوم:

– اي، ليس هذا رهيباً كما تتصور. هنا في بخارى، بخارانا المجيدة يحدث من الاهوال ما لا يصدقه عقل. هاك أين يهان الانسان ويعذب! لا يحظى عندنا بالشرف الا من يتزلف للسلطات، الا من يداهن الامير والقضاة والوزراء... من باع ضميره وراح يمجد عمائلهم السوداء. أما أولئك الذين يبحثون عن الحق والعدالة، الذين يريدون العيش بضمائر نقية ويريدون الحفاظ على كرامتهم وشرفهم، فليس لهم في دولتنا مكان، انهم مضطرون للرحيل عن مرابع وطنهم، مضطرون للهرب...

– صدقت والله يا أخ مخصوم، كلامك صحيح، – أيده عبد الوهاب، – لكنني اعتقد أن الكون فطر على هذا منذ الازل. ولو تطلعنا الى الوراء لرأينا أنه في زمن أفلاطون كما في زمن روداكي وزمن الفردوسي ونظامي الغانجوي زمن جلال الدين الرومي وفي عصر جامي ونوائي... في كل هذه العصور وهذه الازمنة ساد الظلم والضيم وحدثت ذات المكائد وخبائث الاعمال. نحن نقرأ عن ذلك في مؤلفاتهم العظيمة الحافلة بالمرارة والاحتجاج ضد آثام وجور معاصريهم. هذه سنة الحياة كما اختطها أبونا آدم منذ بدء الخليقة...

– أهي سنة الحياة أم لا، أمن آدم أم من أحد آخر، لست أدري، ولكنني لم أر ظلماً أشد من هذا الظلم، – قال أكا مخصوم بمرارة. – الانسان يهان!

وقال اشرف جان:

مزدرى أنت هنا تسقى الهوان   لاترى للعيش بسطاً في مكان
فارتحل عن هذه الأرض وهاجر   لديار تجد السعد بها، تلقى الأمان*

---

* البيتان من شعر سعدي شيرازي.

– أنت محق! وأنا مضطر لان أعمل بنصيحة سعدي. سأرحل من هنا... ولكن ذلك الفاجر البدين سينال ما استحقه أيضا... لن تدوم له الدنيا طويلا!..

وانتعش الجميع:

– ماذا؟ ماذا؟

– التقيت اليوم بمحرمة غارتش... أنتم تعرفون هذه المرأة الشبيهة برجل... هي صاحبة حمام كونجاك. لكن الحمام ليس الا واجهة يستتر خلفها عمل آخر. فهي تقف على رأس جميع موردي الحريم للامير. يكفي لمحرمة غارتش أن تهمس للامير بكلمة، أن تطري على حسن فتاة من الفتيات حتى تكون هذه بين حريم القصر في اليوم التالي. ففي الحمام يمررن جميعاً بين يديها، تراهن في كامل حسنهن ومن أخمص القدمين حتى الناصية... فلمن ان لم يكن لها أن يقدر ماتساويه كل واحدة!. لقد تعرفت بها بسبب صداماتي مع الميرشاب. فهي أيضاً لا تطيقه وحين عرفت بمكائدي له لم تتوان عن المجيء الي في بيتي فسألتني أن اقص عليها كل شيء، وضحكت حتى نزلت دموعها... واليوم التقيت بها في الشارع فانتحت بي جانباً وقالت أنها تضم الى قائمة الفتيات المنتقيات للامير اسم ابنة الميرشاب عبد الرحمن. وان الموردة باخشاندة قد اثنت على الفتاة أيضاً. غير أنني أشرت على محرمة أن تؤجل الامر بعض الوقت. فالفتاة مخطوبة، قريباً ستزف... وساعتها بالذات ينبغي ابلاغ الامير بشأنها... فيقع أبوها البدين من علياء السعادة الى حضيض اليأس...

– يالك من شيطان، – هتف قاري عثمان وأضاف: – هاك يا حيدر قول عند من يجب أن تتعلم الثأر.

– أجل، حيدرقول، بوسعك أن تحذو حذوي، وأن تبتكر شيئاً ما من هذا القبيل حينما ستجد نفسك في مستشفى المجانين وتنبري للتفكير في مصيرك. والآن، استودعكم الله يا أصدقاء! سوف نلتقي ان كتبت لنا الحياة.

قام الجميع وراحوا يعانقون أكا مخصوم ويقبلونه متمنين له التوفيق والسلامة. وكان وداع حيدرقول له حزيناً بصفة خاصة.

– آخ، لولا واجب الثأر لكنت ذهبت معك!

وخرج الجميع مع آكا مخصوم مودعين، رافقوه حتى الصفوف التجارية في «السوق الجديدة» وكانوا على استعداد لان يسيروا قدماً ولكن مخصوم طلب اليهم أن يعودوا. توقفوا قرب حائط على ضفة حوض «أرباب» وفجأة رأوا شبحاً ينسل خلفه بلا صوت، كان هذا حيدرقول الذى قرر أن يرافق أكا مخصوم حتى منزله.

٧

عاشت المعلمة طنبور في ميردوستيم وكان بيتها مكوناً من غرفتين احداهما كبيرة بتسع عوارض كانت في الليل بمثابة غرفة نوم للزوجين وفي النهار غرفة استقبال. وكانت الاخرى غرفة درس لتلميذات الكتاب.

فناء الدار كان مشطوراً بحاجز من القصب الى قسمين: رجالي ونسائي. في القسم الرجالي غرفة وسقيفة عالية تحتها مصطبة نظيفة دائماً ومرشوشة بالماء، الامر الذي كان يلطف جو الفناء ويضفي عليه بعض الرطوبة.

على هذه المصطبة الترابية المبلطة بالآجر كان زوج المعلمة طنبور؛ الصائغ طاهرجان يجلس عادة منكباً على عمله من الصباح الى المساء.

أما النصف النسائي من الفناء فكان منمقاً وغير كبير لكنه كان يتناسب مع حاجيات الاسرة. في ركنه قام مطبخ ومخزن للحطب وتحت السقيفة قبو كانت تخزن فيه المؤنة وكل ما هنالك من الاغراض المنزلية الصغيرة. هنا أيضاً كانت بالوعة المياه وبقربه حوض الزهور ودالية العنب. لم يرزق الزوجان بأولاد فاستسلما لقدرهما وكان

طاهرجان يحب زوجته ويبذل كل ما بوسعه ليشغلها عن التفكير بالاولاد وليصرف عنها هذا الهاجس. من جهة أخرى كان الكتاب الذي انتقل اليها ارثا عن أمها يملأ حياتها الى حد ما.

لقد سبق وتكلمنا عن مناقب هذه المرأة المتعلمة، بيد أننا نرغب في أن نعيد ونزيد. وحقاً، فالانسان الجيد مهما تكلمت عنه وأفضت فانك لا تظل تشعر أن ما قلته يبقى قليلا لاسيما ان كان هذا امرأة موهوبة وذكية. والانسان الجميل ان كان اضافة الى كياسته موهوباً كامل الاخلاق فانه ينير كما الشمس في ضحاها ويكون كل مايبدر عنه من افكار وكلام وتصرفات جذاباً وفاتناً. ولا غرابة في أن طاهرجان، هذا الفنان المرهف الحس الخبير بالجمال وبكل ما هو بديع ورفيع، كان مفتوناً بزوجته مولعاً بها.

كان طاهرجان ينتمي الى ذلك الصف الراقي من الصاغة الذين يرتفعون الى مصاف الشعراء. كان مبدعاً حقيقياً للجمال يميز بين كل التباينات الممكنة للاحجار الكريمة ويجيد التأليف بين الفص واطاره الذهبي أو الفضي في شكل بديع متناسق يداعب العين ويبهج النظر.

وعليه فما كان لامرأة أن تفتن طاهرجان الا من كانت تعلو على كل مديح. ويبقى أن نضيف أن الاسم الحقيقي للمعلمة طنبور كان «كريمة» – كان اسماً على مسمى. وقد كانت هذه امرأة نادرة الجمال والشمائل عن حق وصدق.

في كتاب طنبور كانت تدرس بنات الاثرياء والموظفين الذين يعيشون في الجوار الا ابنة الميرشاب شمسية وحدها فقد كانت تأتي من بعيد. وكانت هي اكبر الجميع سناً، كانت تدرس جيداً وتساعد المعلمة وليس بالصدفة جعلن منها عريفة. عندما كانت السيد طنبور تستدعى في أمر مستعجل كانت شمسية تدير الدروس.

منذ عشرة أيام خلت حدث في الكتاب حادث مفاجىء. كانت شمسية تقرأ اشعاراً «لبيديل»* والمعلمة تصغي

اليها بانتباه. حركت الغزلية الرائعة مشاعر طنبور حتى كادت تبكي ورددت خلف التلميذة البيت الاخير.

– آه، – نهدت هي، – ما أجمل هذا، كلا، هذا ليس شعراً، هذه موسيقى رفيعة وخلابة...

في هذه اللحظة ظهرت على الباب فيروزة وخلفها ظريفة أخت زوجة السقاء. كانت المعلمة غارقة بعد في موسيقى الشعر فنظرت اليهما بعينين غائبتين وظلت صامتة. صمتت البنات أيضاً وخيم الصمت على كل شيء. ارتبكت فيروزة وغضت الطرف.

وفجأة انطلق صوت المعلمة الرخيم يردد من جديد البيتين الاخيرين من القصيدة الغزلية:

وألوب محتاراً ولا أجد الكلاما، أريد وصفك يا جمال، فلا أوفق
كحلت طرفي وانسللت لمهجتي، فأضأت فيهايا جمال، سناك أشرق.

وتجاسرت ظريفة فانحنت وقالت:

– طاب يومكم!

– طاب يومكم! – قالت فيروزة أيضاً وهرعت الى المعلمة تريد أن تجثو أمامها على ركبتيها ولكن تلك أمسكتها وقبلتها من وجنتيها، لثمت فيروزة يدي المعلمة فاغرورقت عينا السيدة طنبور بالدموع وضمت البنت في احضانها.

– حبيبتي فيروزة، ماذا بك؟ أين كنت؟ لقد قلقت عليك حتى أنني أردت اليوم أن أذهب اليكم... أحسنت اذ أتيت! ابان ذلك كانت ظريفة قد قعدت قرب العتبة وبعد أن تمتمت بالدعاء وقالت «آمين» حكت للمعلمة عن موت ديلارام.

هز النبأ المعلمة طنبور. فكيف لم يخبروها بوفاة امرأة جليلة موقرة كهذه؟ كيف هذا؟

---

* ميرزا بيديل – (١٦٤٤ – ١٧٢١) شاعر طاجيكي.

– آخ يا سيدتي، – ندبت ظريفة. – طيب الله أجرك. الفقر هو السبب، لم يكن هناك من نرسله... فالمرحومة لم يكن عندها أحد الا هذه الحفيدة اليتيمة. لقد دفنها زوج اختي، السقاء احمدجان... وساعده المختار. كما وجاءت أختي ومعها أنا وجارتان ثلاث أخريات... صلينا على روحها وقرأنا الفاتحة... والحق أن الكثيرين قدموا حين ذاع في الحارة الخبر. سمعوا بموت ديلارام فجاؤوا.

– رحمها الله، – قالت طنبور رافعة يديها وحذت البنات حذوها، فقرأت المعلمة دعاء ثم مسحت وجهها بيديها وكرر الجميع خلفها هذه الحركة الا فيروزة التي كانت تبكي بكاء مريراً ولم تقل شيئاً البتة. بعد ذلك قالت ظريفة للمعلمة انها تريد التحدث اليها. فأوعزت طنبور لشمسية أن تشغل مكانها وذهبت مع الضيفتين الى الغرفة الاخرى. هناك حضرت شاياً ووضعت الضيافة.

حكت ظريفة عن الاحداث المؤسفة التي وقعت في الايام الاخيرة وفي الختام قالت:

– زوج أختي لن يفشي السر مهما فعلوا معه. ولكنه نصح أن نأتي بفيروزة اليكم... فما من مكان آخر... نقل هذا الينا خادم الباي، فهو أيضاً كان معتقلا، وقد اطلقوا سراحه اليوم.

– وأية حاجة للميرشاب بفيروزة؟

– الله أعلم، أنا لا أعرف. سيخرج زوج اختي من السجن ويحدثنا.

– حسنا فعلت اذ أتيت بها. – قالت المعلمة طنبور والتفتت الى فيروزة: كوني مطمئنة يا بنيتي، بيتي هو بيتك. هنا عندك صديقات، سوف تدرسين ولن تعرفي الضجر. قد يأتي يوم وتصيرين معلمة مثلي باذن الله. ولكن لا تقولي للبنات أنك ملاحقة. قولي: جدتي ماتت وأنا لا أستطيع العيش وحيدة فأتيت الى هنا.

وتاركة فيروزة في يدين أمينتين مضت ظريفة الى بيتها مطمئنة القلب وهي تدعو بحرارة للمعلمة الطيبة.

كل هذا كان منذ عشرة أيام، والآن نسيت فيروزة كل أشجانها تقريباً، لقد نضر محياها وتراقص على شفتيها سناء بسمة خفيفة. كانت المعلمة تحيطها بحنان أمومي وكان طاهرجان لطيفاً في معاملته لها وبشوشاً أما حب شمسية اللطيفة فقد أنعش الفتاة تماماً. اضافة الى ذلك كان عصا يزورها تكراراً وقد تأثرت اليتيمة تأثراً عميقاً برقة معاملته ورعايته لها. بيد أن حياة فيروزة لم تعدم الكدر والمنغصات وكان هذا بسبب ابنة الباي سليمة وصديقاتها اللائي كن لا يفرطن بسانحة للاساءة لها ومناكدتها. لكن المعلمة وشمسية كانتا — والحق يقال — تدافعان عنها.

كانت شمسية تساعد فيروزة في تحضير دروسها وبفضل هذه المساعدة تمكنت الفتاة في فترة قصيرة نسبياً من استيعاب كتاب تفسير الاصول والشرائع الدينية «تشار كتاب» كما وهضمت نصف القرآن تقريباً. صارت الآن تطمح الى قراءة حافظ وبيدل ونوائي الذين قرأتهم التلميذات الاخريات، بل وكان بينهن من قرأن فضولي وكتاب «المسلك» ومن كن يجدن الكتابة أيضاً. وكانت فيروزة تحلم بذلك.

وذات مرة ذهبت المعلمة طنبور الى أحد الاحتفالات وحسب العادة شغلت شمسية مكانها. لكن البنات ماكن يهبن مرشدتهن الشابة جداً، ومستغلات وداعتها ولينها، تركن دروسهن وانصرف بعضهن للعب وبعض آخر للدردشة. حاولت شمسية أن تزجرهن ولكن بلا جدوى فملت ذلك أخيراً، انتحت عنهن جانباً وفتحت كتاب شاهين* «ليلى والمجنون». كان شخص تحبه شمسية حباً جماً قد أعطاها هذه القصيدة منذ يومين.

انكبت شمسية على الاشعار الجميلة تقرؤها بعمق وترو، وتفكرت بالشاعر: فمن هو شاهين هذا؟ انها لم

* شمس الدين شاهين (١٨٥٩ — ١٨٩٣) شاعر طاجيكي.

تسمع بهذا الاسم من قبل، لم تسمعه حتى من معلمتها العليمة بكل شيء. أما حبيبها أشرفجان فقد قال ان مؤلف القصيدة يعيش في بخارى، يعيش معها في مدينة واحدة. شاهين! ما أجمله من اسم! انه يعني الصقر. ذلك الطائر الذي يحلق عالياً في السماء؛ الصقر الحاد البصر؛ الصقر الطليق. من المؤسف أن سيرة حياة الشاعر لم تلحق بقصيدته! فلعلها تستطيع أن تقرأ شيئاً عنه بين أبيات القصيدة ذاتها! يالها من قصيدة جيدة! لقد سبق لشمسية أن سمعت كثيراً من الاقاصيص والأساطير عن ليلى والمجنون، كانت تعرف أنهما تجسيد لمشاعر الحب الخالدة وأن اسميهما يطلقان على كل العشاق والمحبين، وشمسية أيضاً تحب، ولكن هل هي شبيهة بليلى في حبها؟ هيهات!.. أين هي من تلك الحسناء؟ وأشرف جان، هل يشبه أشرفجان المجنون؟ كلا، انه لا يشبهه ولا يشبه أحداً. انه فريد لامثيل له. ومع ذلك كم هي حزينة هذه القصة عن حب ليلى والمجنون، كم تهيج المشاعر وتقلق القلب. أمن المعقول أن تكون خاتمة حبها حزينة على هذا الشكل؟

تأثرت شمسية بأشعار شاهين من أعماق القلب. كانت تقرأ مواضع متفرقة من القصيدة وتعيد قراءتها بلا نهاية، وكانت كمن يسير في ضباب. فلاول مرة في حياتها تسنت لها قراءة شيء من هذا القبيل.

وفي مساء البارحة تحججت شمسية بالصداع واختلت في غرفتها تريد أن تستمتع بقراءة القصيدة. ولكن والديها عكرا خلوتها. جاءا يعتريهما القلق وأخذا منها الكتاب. قالت لها أمها: «انك تقرأين كثيراً ومن هنا وجع الرأس!»

ومن حسن الحظ أنهما ليسا متعلمين جداً والا فانهما بالتأكيد كانا سيستفسران عمن وعلام أعطاها الكتاب.

وأخيراً صار بوسعها اليوم، وقد ذهبت المعلمة واستغرقت التلميذات في اللعب، أن تقرأ في هدوء. وصحيح أن ضميرها يعذبها بعض الشيء: اذ ليس من اللائق استغلال غياب المعلمة التي اتكلت عليها. ولكنها

على كل حال لن تستطيع ضبط هؤلاء الفتيات وارغامهن على الاستماع. واذا فالافضل لها أن تعجل في قراءة الكتاب وأن تلتقي بأشرفجان وتقول له رأيها في القصيدة. فهو قد يوافقها الرأي... وآنذاك ستسأله أن يحدثها بالتفصيل عن الشاعر ذاته. فالارجح أن أشرفجان يعرفه...

أثناء ذلك كانت الفتيات قد أحطن بفيروزة. وسألتها سليمة.

— من أنت بالله، حتى أنهم يدللونك كل هذا التدليل؟ ماذا يملك أبوك؟

— لماذا يحملونك هكذا على الايدي؟

— السيدة طنبور ماعادت تولينا أي اهتمام. الكل يرقصون حول هذه اليتيمة الشريدة.

— يقولون أنها جميلة وذكية...

— وما نفعنا نحن من جمالها؟!

انكبت فيروزة على الكتاب متظاهرة أنها لاتسمع هذه السخريات والملاحظات اللاذعة. فزاد صمتها من سخط الفتيات فاهتجهن حتى أن احداهن أقدمت على دفع فيروزة قليلا:

— لماذا تصمتين؟

كان هذا تجاوزاً لكل حد وتركت فيروزة الكتاب.

— لقد ماتت جدتي قبل أجلها بسبب سخريات السيدة مغفرات. والآن تردن بشروركن أن تقتلنني أنا أيضاً؟!

— قولوا بالله! جدتها ماتت قبل أجلها،— قالت فتاة أخرى ضاحكة، لعلك كنت تريدينها أن تعيش مائتي سنة؟!

وقاطعتها فيروزة بحدة:

— ثلاثمائة!

وزعقت سليمة الفظة:

— ايخ، لتنفقئ عيناك ان شاء الله.

كانت سليمة غير جميلة وكانت دائماً تحسد فيروزة على حسنها.

— كلا، بل عسى أن تنفقئ عيناك أنت يا حولاء!

فاحتدمت سليمة:

- اسمعن الى ماتقوله هذه اليتيمة البائسة! انها ملعونة، كل أقربائها يموتون.

وأرادت سليمة أن تضرب فيروزة ولكن تلك تنحت جانباً متجنبة الضربة. وقفت أغلبية الفتيات الى جانب فيروزة ودفعن عنها سليمة وصديقاتها. استرعى الهرج انتباه شمسية، فغضبت المرشدة الشابة عن جد، طردت التلميذات الى أماكنهن وممسكة العصا، لوحت بها مهددة بأنها ستعاقب الجميع. بعد ذلك بدأت تسألهن.

وقدر لسليمة أن تكون أولى المجيبات. كانت طول الوقت تلخبط وتهته وتتلعثم.

- لا تعرفين الدرس ولا يتأتى لك بأي شكل أن تجتازي «جزءعم» وفوق هذا تثيرين الضجيج والشغب، تصرخين على رفيقاتك البريئات من كل ذنب. - صاحت شمسية في غضب. - انني لن أكون أنا ان لم أحك للمعلمة عن كل شيء وان لم أؤدبك كما يجب.

بكت سليمة ووعدت أن تدرس دروسها وألا تتعرض لفيروزة بعد الآن.

وخفضت شمسية صوتها:

- لاقدر الله لاية منكن نصيباً كنصيب هذه الفتاة المسكينة. فلا أم عندها ولا أب ولا قريباً واحداً في الدنيا بأسرها. كانت عندها جدة عجوز، ولكنها ماتت هي الاخرى. لقد آوت سيدتنا الطيبة فيروزة، تريد أن تربيها وتعلمها. أو ليس من الذنب أن تحسد فتاة كهذه؟

أطرقت سليمة وجلست في مكانها بهيئة من أقر بذنبه وتاب عنه، لكنها كانت تضمر الحقد في سريرتها على فيروزة وعلى شمسية.

اعتادت شمسية ألا تذهب للغداء في بيتها، كانت تبقى في الكتاب مع المعلمة وتستمتع بالتحدث اليها. هذه الاحاديث كثيراً ما كانت ترافق بقراءة الشعر وبالعزف على الطنبور والغناء وكانت تربي فيها المقدرة على تذوق

الموسيقى والشعر. كان ولع شمسية بالقراءة شديداً حتى أنها كانت تجلس مع الكتاب ساعات طوال لا ترفع رأسها عنه. واليوم، بعد أن صرفت شمسية البنات للغداء، طلبت من فيروزة أن تشعل السماور، أخرجت الفطائر المرقوقة التي جاءت بها من البيت مع مأكولات أخرى ودعت فيروزة للتلمج.

– لا تتكدري بسبب هؤلاء البنات الغبيات،– قالت هي لفيروزة – قريباً ستكبرين وتبدأين في قراءة الشعر الجيد. سوف تقرأين ديوان سعدي الشيرازي «غولستان». انه كتاب بديع فعلا مثل حوض الزهور. يقول الشيخ سعدي: اذا لحقت بالحكيم المتعلم مثلك أنت، أذية من جاهل أثيم، كسليمة مثلا، فان هذا لن يخسر شيئاً ولن يكسب ذاك شيئاً. فالحجر العادي حتى وان كسر كوبا من ذهب، سيبقى حجرا ولن يمسي بما فعل أثمن، كما أن الذهب لن ينقص قيمة... فهمت؟ فلتثرثر هؤلاء الفتيات الدنيئات ما طاب لهن، انك على كل حال خير منهن جميعاً بمائة مرة. لا تحزني ولا تقلقي. تعلمي قراءة الشعر. الكتاب خير معلم ومرشد. هل تريدين أن أقرأ عليك أحب غزليات حافظ الى قلبي. أنا دائماً أقرأ هذه القصيدة عندما أحس بالحزن. آقرؤها فتنجلي نفسي ويزول الغم...

فتحت شمسية ديوان حافظ. كان جلياً أنها، هي نفسها، ترغب في قراءة القصيدة، زد على ذلك أنها ستقرؤها أمام مستمعة جيدة مثل فيروزة. قلبت عدة صفحات وعثرت على المكان المطلوب، حيث يقول حافظ: «سيطأ يوسف من جديد أرض كنعان – لاتغتم». كانت قراءتها على مستوى فني رفيع. لقد وجد شاعر شيراز ذو الصوت الرخيم تلك الكلمات التي تسرى فعلا عن التعساء، وتبشر بالخلاص كأنها نبوءة:

لا تسير الدنيا حسب رغبتنا فأمورها
ليست أبداً شبيهة ببعضها – لاتغتم!

كانت شمسية تقرأ كل بيتين من القصيدة مرات عديدة شارحة لفيروزة معناهما، وبالتدريج تراجعت مرارة الاسى، طفحت الحياة بهجة وامتلأ القلب حباً.

وقرأت شمسية البيت التالي:

— «صانع الخير محروم منه»

فهتفت فيروزة:

— مثلك أنت.

— أوه، ما الذي فعلته أنا حتى يقال عني مثل هذا الكلام، — احتجت شمسية تواضعاً. — معلمتنا — أمر آخر. انها بالفعل قد أسدت لك الكثير من المعروف، انها لك مثل أم حنون. وأنت في هذا أسعد مني.

— ماذا تقولين، يا معلمتي الغالية! من أنا ومن أنت؟ ليته كان لي درهم من سعادتك.

— كلا، أنت لاتعرفين الحقيقة، أنا لست سعيدة كما تتصورين. ظاهرياً يبدو كل شيء على ما يرام، فأبي رجل معروف، الميرشاب عبد الرحمن، وأنا صغيرة الاسرة: الكل يدللونني ولا أحس العوز في أى شيء. أما في الجوهر فأنا لست الا أسيرة، لعبة في أيديهم. انهم لا يسمحون لي بالذهاب الى مكان غير الكتاب، أما في باقي الوقت — فاجلسي في البيت. ليس عندى حتى من أتحدث اليه... والانكى من هذا كله أنني لا أعرف ممن سيزوجونني، سوف يكتبون كتابي على ابن أحد كبار الموظفين سيكون علي أن انتقل الى بيته حتى دون أن اعرف أية أسرة هي هذه، وأي شخص هو زوجي المرتقب، هل هو متعلم أم جاهل؟ لا يستبعد أن يكون سكيراً، ملحداً ومع ذلك سيكون علي أن أطيعه وأن انفذ جميع رغباته وأوامره... فهل السعادة في هذا! هل في هذا...

وغصت شمسية بدموعها فسكتت عاجزة عن الاستمرار. أما فيروزة فقد هزها ما سمعته ولبثت في مكانها مصعوقة

وليست أشجان شمسية هي التي أذهلتها ولا كون هذه الفتاة السعيدة في الظاهر تبكي الآن بمرارة. كلا، كان مابهرها هو اكتشافها المفاجىء: فقد تبين أن هذه الفتاة اللطيفة والجميلة والرقيقة المحبة للشعر والمحبة لكل ماهو جميل، هي ابنة الميرشاب القاسي القلب وعديم الشفقة عبد الرحمن. هذا عنده، في سجنه يرزح بلا ذنب ولا جريرة العم أحمدجان. وهذا هو من اعتقل الفتى النزيه الشريف عصا. فيالها من مفارقة غريبة: أب سافل حقير وابنة شهمة عادلة! واذن ليس اعتباطا يقال أن الوردة تنمو من الشوكة وأن العسل يخرج من النحلة.

ولكن الامر الان ليس في هذا؛ الاهم الآن هو ألا يعرف الميرشاب الحقير من ابنته أين تختبىء، فيروزة! فكيف حدث أن المعلمة غفلت عن هذا ولم تنبهها للامر؟

بعد أن شبعت بكاء مسحت شمسية وجهها المبلل بالدموع وراحت تتكلم من جديد، لكن فيروزة ماعادت تتعمق الآن في مغزى كلماتها، كانت فيروزة تفكر بشؤونها الخاصة. وماذا، فكرت هي، لو أكشف لشمسية عن الحقيقة وأشكو لها من أبيها؟ أواه، شيء مخيف! فقد أجر على نفسي مصيبة ولا أجني غير الندم... ان شمسية قد تبدي العطف نحوي بالقول ثم ستذهب وتحكي لابيها كل شيء. فهل أقول؟ ام لا؟ كلا، يجب علي في البداية أن استشير المعلمة، فهي امرأة حكيمة ولن تشير علي بما يضرني، وهي، على الارجح، قد فكرت بكل هذا مسبقاً.

انعشت هذه الفكرة فيروزة، فانفرجت أساريرها وقالت بحيوية:

— «لا تستكن لا تحزن ان لم تكن حجراً. سر جريئاً الى أمام ان لم تكن أعرج!»

— ماذا، ماذا تقولين؟— هتفت شمسية تأخذها الدهشة.— هل أنت شاعرة؟ من أين أخذت هذه الابيات الرائعة؟

وقالت فيروزة مبتسمة، انها سمعتها من جدتها.

– لا داع للاسى، – سرت هي عن شمسية. – فأبوك ولاشك يحبك... أما أنا... أنا لم اكن أعرف أنك نجلة رجل على هذا والشأن. لم أكن اعاملك بالتقدير الكافي.

– دعي عنك هذا الكلام يا حبيبتي فيروزة. فليس من كبير الشرف للانسان أن يكون ميرشاباً أو ابنة ميرشاب. انني أضيق بهذا وحسب، ولكن اياك أن تغيري معاملتك لي بسبب هذا. اعتبريني بما مضى صديقة لك وأخت.

– شكراً، اعطاك الله العافية! هتفت فيروزة بحمية وسكتت. أخذت شمسية الكتاب وغرقت في القراءة. سرحت مع ليلى والمجنون في مرابع هواهما ناسية كل هموم الدنيا.

قامت فيروزة في تؤدة، طوت السماط الذى تغديتا عليه وانبرت لدروسها.

حين انتهت الدروس فانصرفت البنات الى بيوتهن وبقيت فيروزة مع المعلمة على حدة حكت لها عن كل ما حدث في غيابها. فراحت تلك تطمئنها:

– لا تقلقي، شمسية فتاة جيدة وهي تحبك ولن تحكي لابيها عنك أبداً.

– وماذا لو زل لسانها صدفة؟

– لقد نبهتها فكوني هادئة البال!

حاولت السيدة طنبور أن يكون كلامها مرحاً ولكن الفأر كان يلعب، كما يقولون، في عبها: فماذا ان حدث فعلا وعرف الميرشاب أو الباي أين فيروزة؟.. آنذاك لا ترتج الخير...

أما فيروزة فقد انزاح الهم عن قلبها وابتسمت.

– أجل هكذا،– قالت المعلمة،– هكذا أفضل. فعندما تبتسمين يا بنيتي يبتهج قلبي أنا أيضا، ويبدو كل شيء من حولي نيرا وسعيدا. فعسى ألا تفارق البسمة محياك وألا تعرفي الاسى والحزن ابداً.

في ذلك الزمن كانت جميع مقاليد بخارى في يد الوزير الأول آستانقول: كان هو صاحب الامر والنهي: اذ أن الامير عبد الاحد كان يقضي غالب أوقاته في مقره الملكي في كارمينا مستسلما للهو والملذات، لا يولي أى اهتمام لما يجري في بلاده أو خارج حدودها. اتكل كليا على وزيره الاول، وكان هذا رجلا راجح العقل حصيفا ودبلوماسيا محنكا استطاع أن يكسب ثقة الأمير وكان يسعى قدر وسعه أن يجنبه القلق ويدفع عنه المنغصات، مضطرا في ذات الوقت لان يخوض غمار صراع صعب ومعقد مع كثير من الغرماء الذين كانوا يحيكون له المكائد والدسائس ويتصدون لكل مبادراته ومشاريعه.

قصر الوزير الاول كان يقوم في «الأرك*» ولم يكن دون قصر الامير ذاته بهاء وفخامة - كانت رعشة الرهبة تنتاب كل من يلج هذا البناء المهيب المنيف. والى هنا كان كبير القضاة وغيره من الشخصيات التي شغلت المناصب السامية في الدولة، مضطرين للقدوم والاعراب عن ولائهم لصاحب القصر رغم كل ما غل صدورهم من ضغينة على الوزير الاول. أضف الى ذلك أن سموه كان بمنطقه الحديدي القويم وبمضاء ذهنه وحسن تفكيره يبز في الجدال جميع غرمائه ويتغلب عليهم.

أما فيما يتعلق بالميرشاب، فانه كان يقوم بلعبة مزدوجة: كان يضرب - كما يقال - على الكاحل مرة وعلى الحافر اخرى أي كان يلعب على حبلين. أحيانا كان يأتي الى الوزير الاول فيداهنه ويتمسح به ويوغر صدره على

---

* الأرك - هوالسراي الأميري - أي القصر وكل ملحقاته (الدواوين والدوائر ودور الحريم والسجون) التي تقوم على الأراضي التابعة للقصر داخل حدود السور الذي يحصنه.

كبير القضاة ناقلا اليه مختلف القلاقل جاعلا من الحبة قبة ثم يذهب الى أحد خصوم الوزير لينم به ويفترى عليه. هذا كان ديدن الميرشاب ولكن الغريب في الامر هو أن رجلا نابها مثل آستانقول كان منخدعا به يعتبره صديقا وفيا ورجلا مخلصاً يسعه أن يتكل عليه عند الحاجة. كان يطلب منه المساعدة عندما يلمس حاجة الى اثارة فتنة ما أوالى اشعال نار الخلاف بين طوائف مختلفة. فكان الميرشاب يتظاهر بتنفيذ أوامر الوزير الاول أما عمليا فما كان حتى ليفكر بخدمته أو ملاحقة أعدائه.

كان آستانقول بيك رجلا فارع القامة نحيف العود ذا أنف ضخم ولحية كثيفة طويلة تبلغ صدره. حتى في الطقس الحار كان الوزير الاول يرتدى روبين من الاستبرق ويلف على رأسه عمامة بيضاء مما يتعمم به الموظفون عادة. كان يتكلم بصوت جهور سريع غارزا في محدثه نظرات حادة ثاقبة.

في ذلك اليوم ارسل الوزير الاول الى الميرشاب يطلب منه الحضور على وجه السرعة. وما كاد ذاك يمتطى جواده لكي يمضي الى القصر حتى جاءه رسول من كبير القضاة يدعوه أيضا الى بيته. وحار الميرشاب لايدري ماذا يفعل؟ والى من يذهب؟ قعد طويلا على سرج جواده يفكر في حل لهذه المسألة العويصة وأخيراً عقد العزم ووجه حصانه نحو قصر الوزير. فمقاليد الحكم، مهما يكن، كانت في يديه!

وصل الى القصر منهكا ناضح العرق. سوى في الردهة الامامية هندامه، مسح العرق عن وجهه ودخل الى غرفة الاستقبال. كان الوزير الأول بمفرده فسلم الميرشاب عليه بوقار.

— مرحبا، — أجاب الوزير. — لماذا لانراكم، لا تأتون الينا بدون دعوة...

— اننى يا صاحب الفخامة، منهمك باخلاص في خدمة جلالة الأمير أحرص على هدوء وأمن رعاياه وانفذ مطالب

سموكم. غير أنني أعتبر أنه ليس من اللائق أن أزعج سموكم. فأرجو المعذرة.

– من نافل القول أننا وانتم خدم مخلصون لجلالته. ولا داعي لتكرار هذا ابان الحديث عن قيامنا بواجباتنا الوظيفيه، على أنه أحرى بكم في المقابل أن تزيدوا من تقاريركم عن الاوضاع في المدينة عن سلوك الرعايا وأن تطلعونا على تدابيركم في هذا الصدد. لاحياء في أمور كهذه!..

– يا صاحب الفخامة...

– لقد سبق ونبهتكم، شددوا الرقابة على الدارسين، اردعوهم وضعوني على علم بسلوكهم. أما أنتم، فماذا فعلتم؟

وتململ الميرشاب:

– يا صاحب الفخامة، انني لا أدخر وسعا، اراقبهم دون غفلة.

– بالله؟ وماذا فعلتم مثلا مع ذلك الآكا مخصوم؟

– أوف، عليه اللعنة! لقد خدعني أخس الخداع. كنت لا أفعل الا البحث عن حجة لكي اعتقله بعد ما أهانني وألحق بي العار أمام الجميع...

– ولم تستطيعوا تنفيذ ذلك بسبب هربه الى روسيا!

– وكيف كان لي أن أطاله وبخارى لها احدى عشر بوابة تفتح جميعا من الصبح حتى المغيب.

– كان يجب أن تعجلوا في اعتقاله. في بخارى حتى بدون آكا مخصوم يوجد ما يكفي من قطاع الرؤوس! انهم يعيثون فسادا، يخلون بالنظام ويبلبلون الناس... يوم أمس استلمت أمرا من صاحب الجلالة، انه يسمينا جميعا طفيليين، تنابل! وهو على حق. من تحت انوفنا يخطفون لقمة العيش ونحن لا نحرك ساكنا. هل تظنون أننا نستطيع النوم هادئي البال مادام القيصر الروسي يحسن معاملتنا؟ كلا أبدا! فالروس أيضا ليسوا من طينة واحدة، بينهم أناس جيدون نافعون لنا، وبينهم أيضا أناس أشرار ضارون

معهم وبينهم يرتع آكا مخصوم ومن لف لفه، منهم يستلهمون روح الشر وبعد ذلك يزرعون روح السخط وعدم الرضى بين المسلمين. ينبغي علينا أن نفتح أعيننا على سعتها وأن نكون دائما على أهبة الاستعداد!

– يسعدني دائماً أن أقوم بواجبي، – بربر الميرشاب وفكر في سره: «الوزير الأول ذاته يميل الى الروس. انه على اتفاق تام مع القنصل الروسي. فعلام اذن كل هذا الكلام؟ لعله يريد على هذا الشكل أن يطلس مغازلاته وعلاقاته مع الروس؟ فأي شأن له ان كان الروس صالحين أم طالحين! دعهم يكونوا على ماهم عليه – ما همنا!»

كان الهم الاول للميرشاب هو أن يعرف على وجه السرعة لماذا استدعاه الوزير الاول وأن يتلقى اذنا بالانصراف. فقد كان كبير القضاة بانتظاره أيضاً. لكنه لم يكن في هيئة الوزير مايبعث على الامل بقرب ذلك، بل أشارت الدلائل الى أن الحديث يعد أن يكون طويلا.

أخذ الوزير الاول من على الطاولة اضبارة وراح يفتش فيها عن ورقة ما. لكنه وقد فشل، على مابدا، في العثور على مبغاه عاف الاضبارة أخيراً وتفرس في وجه الميرشاب.

– انكم، على حد علمي، لم تعثروا حتى الآن على ذلك المجرم الذي طعن غني جان باي، بسكين. فما السبب؟ بالامس استلمت شكوى من الباي. واضافة الى ذلك اختفت احدى جواريه. فماذا ينتج؟ هل علي أنا أن اتحرى هذه القضايا بدلا عنكم؟ بخارى موكلة اليكم! نحن لا نسألكم عن مقدار مداخيلكم وعن مصدرها، لا نستفسر عن عدد رجالكم وعن شاكلة هؤلاء الرجال... بل حتى أننا لا نقرأ الشكاوى المقدمة ضدكم. فماذا تريدون أيضاً؟

– يا صاحب الفخامة...

– في وظائف الدولة لايجوز العمل على هذا الشكل. لقد بلغتني شائعات تقول أنكم تعاشرون مرؤوسيكم، تلعبون الميسر، تلهون مع الغلمان وتمارسون من خبائث الاعمال مالا يعلمه الا الله...

– افتراء يا فخامة الوزير، افتراء!

– ما عدتم الان في تلك السن، – قال الوزير الأول بصوت أكثر ليناً. نجلكم المحبوب زمان بيك نضج للزواج وابنتكم الكبرى عندها اولاد، وبالتالي هم أحفادكم... آن لكم أن تمارسوا السياسة وأن تجمعوا المال. واتخذوا مني مثلا. ما هو الذى لم افعله في شبابي! لكنني فيما بعد صليت صلاة الوداع، قلت «آمين» وها أنا قد بلغت منصب الوزير الاول. افكارى كلها مكرسة لقضايا الدولة، للسياسة.

– يا صاحب الفخامة...

– مهمتنا الاولى هي أن نجنب جلالة الامير الانفعال. يجب علينا أن نحسن معاملة الوجهاء أن نحمي علية القوم – التجار الاثرياء والبايات – من دسائس اللصوص والدهماء. بهذا الشكل نوطد مراكزنا، وتمسي مناصبنا راسخة لاتتزعزع.

– يا صاحب الفخامة...

– أخال أنني قلت كل شيء، بوسعكم أن تنصرفوا. ولكن اياكم أن تنسوا ما قلته لكم. وضعوا أيضا في علمكم: في أول الشهر ينبغي تقديم الهدايا لصاحب الجلالة، بما في ذلك فتاة جميلة، والافضل من هذا غلام جميل...

– سمعا وطاعة يا صاحب السمو!

– أما بخصوص قضية غني‌جان‌باي، فلا تغمدوا السلاح. فمن المستحيل في آخر الأمر ألا يعثر رجالكم على ذلك الوغد...

– وجدوه، وجدوه! – هتف الميرشاب وحكى أن الاثار قد اقتادت القيافة الى حوض «أرباب».

– وماذا حدث فيما بعد؟ – سأل الوزير بلهفة.

فارتبك الميرشاب...

– هنا بيت القصيد... فنحن لا نعرف بالضبط ان كان اللعين حيدرقول قد تزحلق ووقع من نفسه في الحوض، أم أن أحدهم قتله ورماه هناك. في ذلك المكان حيث يخرج

النهر من تحت الارض وقعنا على آثاره ولكنها تختلط بآثار أخرى كثيرة وتضيع. أنزلنا الى الحوض غواصين ولكنهم خرجوا بأيد خالية.

وتحشرجت أنفاس الميرشاب بسبب الحر والانفعال.

— فتشنا كل قرنة في الناحية، في المسجد وفي المدرسة، ولكن الاثر ضاع. قال الطلاب وخدم المسجد أنهم سمعوا في الليل صرخات تأتي من جهة الحوض ولكنهم خافوا أن يخرجوا...

— وصدقتموهم؟

— انني ما كنت لاصدقهم، ولكن...

— انسوا هذه ال«ولكن» وانبروا للعمل،— قاطعه الوزير الأول بحدة. ان الله تعالى لم يحرمكم العقل، اعطاكم الثروة ووضع في يديكم السلطة، فماذا تريدون أيضاً؟

— يا صاحب السمو...

— وختاما، ضعوا في حسابكم أننا سوف نتضرر معا اذا لم تحل قضية غني‌جان‌باي في بحر أسبوع وبالشكل المرضي.

وأشار الوزير الأول بحركة من يده الى أنه بوسع الميرشاب أن ينصرف. لم تكن هذه الحركة بشارة خير وأحس الميرشاب أن غماماً هتوناً يتلبد قوة رأسه.

وصل اليمرشاب الى بيت كبير القضاة لاهثاً من التعب. وكان ذاك قد فرغ من صلاة العشاء ونوى الجلوس الى المائدة بصحبة اصدقائه واقربائه.

— حظي طيب، وصلت في الوقت المناسب أوكما يقال في مثل هذه الحالات : حماتي تحبني، — قال الميرشاب مازحاً.— تصوروا أنه كان يمكن أن أحرم من بلوف عظيم كهذا بلحم الدجاج!

وتناول القاضي المزحة:

— القضية ليست في الحب وليس في أن حظكم جيد

عموماً. الطعام من تلقاء نفسه يدخل في فمكم ولهذا لحقتم، تفضلوا اجلسوا.

وبعد البلوف أكلوا شمامة ثم رفع القاضي يديه فراح يدعو الله ويحمده وأخيرا قال «آمين» مشيرا الى أنه يصرف الضيوف. وواحدا تلو الاخر قام هؤلاء من أماكنهم واستأذنوا الانصراف. أما كبير القضاة فدعا ابنه — الرئيس مع الميرشاب واختلى معهما في غرفة أخرى.

— هاتوا أسمعونا،— قال هو،— أي جديد عندكم؟

وبدأ الميرشاب بتذلل ومداهنة:

— بفضل جلالة الأمير وفضل جهودكم الحميدة يعم السلام ويسود الهدوء على كل شيء.

— هذا نعرفه، — بربر القاضي. — اسمعونا شيئا أخر، طازجا!

وتدخل الرئيس في الحديث:

— أظن أنكم كنتم عند الوزير الاول. فماذا يقول ياترى؟

— يقول أنه ثمة شكاوى علينا...

فقاطعه الرئيس:

—عليكم بالحذر مع هذا الرجل الماكر. تلفيق الشكاوى ليس بالعمل الصعب. هو نفسه قادر أن يحبكها أو أن يطلب من أحد آخر أن يكتبها. وزيركم الأول معلم في مثل هذه الامور.

— أجل، أجل،— هتف كبير القضاة.— وزيرنا الأول رجل ماكر جداً! انه لايرمي الكلام اعتباطا، كل كلمة منه لها بطانة. من الأفضل أن تفضوا الينا بكل ما قاله فآنذاك، فقط سنتمكن من فهم نواياه الحقيقية.

— يا صاحب الحظوة...— بدا الميرشاب ولكن القاضي كرر بالحاح:

واذن عم تحدثتما اليوم؟

ومحصوراً على هذا الشكل في الزاوية حكى الميرشاب عن كل شيء باستثناء ما تعلق بغنيجان باي.

– أي شأن له بطلاب المدرسة؟– هتف القاضي غاضباً.– هذا ليس شأنه ولا شأنكم أيضاً. الطلاب مثلهم مثل رجال الدين يتعلقون بي أنا، وحدي.
– أمر عجيب،– تدخل الرئيس في الحديث من جديد.– صاحب السمو الوزير يزمع على تقديم حسناء للامير! أين هم، اذن، موردو النساء الروسيات، ماذا صار بهم، هل تركوا العمل؟
لم يفهم الميرشاب ما يرمي اليه ذاك فنظر الى كبير القضاة مستفهماً. وأوضح هذا:
– وزيرنا هذا كان يخدم جاسوساً عند القيصر الروسي. وهم الآن يحيكون الدسائس داخل امارة بخارى لمصلحة روسيا. الكل بما في ذلك جلالة الامير يعرفون بعلاقة وزيرنا مع القنصل الروسي. ولكن ذلك لا يحرجه وهو يسعى الآن للوصول الى الأمير ذاته.
– أجل، أجل – أيد الرئيسى أباه، – كل شيء يبدأ من قصر جلالته.
ومن جديد استعصى على الميرشاب الفهم فخفض القاضي صوته وراح يوضح:
– لقد بلغتنا شائعات عن وجود نساء روسيات في قصر صاحب الجلالة. هذه ضربة الى الدين والدولة لن تعود علينا الا بالعواقب الوخيمة. ومن غير الوزير حرى أن يجر جلالة الامير الى هذا الطريق؟ انه هو مشايع الروس ومواليهم. يقولون ان صاحب الجلالة يولي اهتماماً كبيراً لهؤلاء النسوة الاتيات من فترس بورغ،– هكذا كان كبير القضاة ينطق اسم العاصمة الروسية بطرس بورغ. – اذا سارت الامور لاحقاً على هذا المنوال فان جميع المقاليد ستفلت من أيدينا ويهلك الدين!
ثم التفت الى الميرشاب مخاطبا:
– والواجب يقتضي منا التأثير على جلالة الامير وعدم السماح بأن تدنس قدم المرأة الروسية القذرة دار الحريم، دار الطهارة والعفاف هذه.

— وكيف يمكننا أن نبلغ ذلك، يا عالي القدر؟

— ان نحن انبرينا للامر كما ينبغي، بحمية، بلغنا كل ما نريد! من الممكن أن نلجأ الى التخويف. ولنبدأ، مثلا، بأن تقوموا أنتم في مسار أحد الاحاديث مع الوزير بالتلميح عرضاً، وكأنما عن غير قصد، الى معرفتكم بعلاقات صاحب الجلالة مع الروس والى اقلقكم من أن يعرف بذلك رجال الدين وأركان الدولة الآخرون. هذا حرى أن يشوش الوزير ويرغمه على التفكير. في ذات الوقت ينبغي العثور على فتيات حسناوات من فتياتنا بحيث يفتن بحسنهن صاحب الجلالة. يجب اعدادهن لهذا العرض ويجب ألا تكون هؤلاء جميلات وحسب بل وذكيات أيضا. فأنا على علم اكيد من أن فتاة ذكية واحدة تساوى عشرة رجال في أمر كهذا.

— وأين لنا أن نجد فتاة على هذا الذكاء؟

— هذه القضية على عاتقكم أنتم. هل ينقصكم الموردون يا ترى؟ محرمة غارتش وحدها كم تساوى! بل وخبرتكم أيضا كبيرة في هذه المسائل. احيطونا علماً ما أن تجدوا الفتاة المناسبة وسندلكم نحن الى ما ينبغي عمله.

لزم الميرشاب جانب الصمت برهة ثم قال:

— سمعاً يا عالي القدر! يشرفني أن انفذ هذه المهمة.

— المصاريف سنتكفل بها نحن.

— شكراً، يا عالي القدر!

اشارت جميع الدلائل الى انتهاء الحديث فطلب الميرشاب اذنا بالانصراف ومضى.

وبعد ذهابه مكث الاب والابن في مكانيهما صامتين عدة دقائق. ثم اعرب الرئيس عن قلقه فجأة:

— لا أظن أن هذا السمين المغفل جدير بالثقة يا أبت، فماذا لو وشى بنا الى «صاحب السمو»؟..

نفض القاضي يده مبتسماً بلا اكتراث وفكر في ذات الوقت أن ابنه مغفل أيضا.

— وأي ضير حتى وان وشى؟ لعمرى ان ذلك لافضل. لقد تعمدت الكشف له عن كل شيء. فليعلم آستانقولبياك

أنه لن يستطيع خداعنا. فنحن أيضا نفهم في السياسة ولن نقعد مكتوفي الايدى. لكنني استبعد أن يقدم الميرشاب على الوشاية بنا، فهو لا يهتم بالسياسة ولا يهمه الا المنصب والرتبة.

– ولكنه من أجل منصبه بالذات قد...

– من يستعمل عقله يبلغ كل مأرب.

– ومع ذلك يبقى آستانقول خصماً قوياً ووقحاً ينبغي التزام اشد الحذر معه يا أبت.

– نعم، نعم، – قال كبير القضاة متأففا وصمت يتفكر بأمر ما.

لقد درس القاضي جيداً طبع ابنه: كان هذا حقوداً ميالا للانتقام لكنه كان أحمق لا يجيد تقدير الامور: فاذا انتقم اخفق، واذا أعطى أمرا جاء في غير أوانه...

وتكلم كبير القضاة من جديد:

– انني اخشى أن أموت قريبا وأن تبقى اسرتي كلها دون حام تحت سلطة هذا البيدق المستوزر.

فهتف ابنه الرئيس:

– لا سمح الله. انك بعونه تعالى ستقهر كل اعداءك وتعيش حتى سن المائة.

– يقال يا ولدي: أعقل أولا وعلى الله توكل.

تأبطت شمسية كتبها وخرجت من الكتاب تلفعها الملاية ويغطي وجهها البرقع. اليوم على خلاف العادة لم تأت الخادمة من البيت كي ترافقها كما وتغيبت صاحباتها اللائي كن يمضين معها عادة. تغيب الجميع كأنما عن قصد مبيت، ومضت شمسية وحيدة تمشي الهوينا وتفكر بنفسها وبفيروزة تفكر بالسعادة والحب وتردد في سرها أشعار حافظ:

معبد الحب أمامك، مشرع الأبواب يدعوك: تفضل!
كل شيء في يديك، والذي يبطيء أنت، أنت توجل.
الا فاعلم أن ورد العطر بالشوك مكبل،
لن تنال الورد ان لم تبدي الصبر وان لم تتحمل!

ألم يكن هذا حال قلبها أيضا؟

لقد افتتنت شمسية بأشعار حافظ حتى أنها طارت بعيداً على جناح الحلم وحلقت عالياً عالياً في سماء العاطفة والمشاعر الرقيقة. كانت شمسية، حلافا لابيها وأمها، انسانة حلوة الشمائل، رقيقة الحس بشكل مدهش وسريعة التأثر ذات قلب مفتوح للحب وللحياة. كانت تكن حبا حارا لمعلمتها التي كشفت لها عن مفاتن الفن والشعر والتي ربت فيها أطيب الخصال وافضلها - الانسانية والصدق وصفاء القلب...

كم حالفها الحظ حين دخلت هذا الكتاب ووجدت فيه الطريق الى المعارف. والا فانها كانت ستعيش حياتها عمياء، وكانت ستغادر هذا العالم كما دخلته جاهلة، هكذا مثل أبويها تماما. من الجيد أنهما غضا النظر عن أن الكتاب يقوم في حي أخر... والدا شمسية يحبانها وهما على استعداد لاعطائها كل شيء... ولكنهما لايفهمانها ولن يفهماها أبداً. انهما يعيشان في خوف دائم من أن موردي الفتيات قد يطلبون شمسية لأجل الأمير. ولكن ماذا يعدان هما لها؟ سوف يزوجانها من شخص غريب لاتعرف عنه شيئا ولم تره عينها أبدا. فهل السعادة في هذا؟!

بل انهما لا يشتبهان بأن قلب شمسية يعود الآن لأحد الأشخاص وبأن شمسية لن تكون سعيدة الا مع من أحبته...

...وحدث هذا في أوائل الربيع. جاءت شمسية الى الكتاب على خلاف عادتها متأخرة وفي الممر المفضي الى النصف النسائي رأت شاباً وسيماً. كان جالساً أمام طاهرجان يقرأ الشعر بحماس. قامت شمسية بعدة خطوات أخرى وتوقفت مبهورة - لقد فتنها صوت الشاب، فتنها محياه والابيات التي كان يقرؤها:

جنية مرت على بعد تميس ... في مشية مختالة وخفيفه
شعر يسجي الوجنتين غدائرا ... تنسال موجاً أسود وعنيفا
واللحظ يرشق أسهماً نارية ... انذار حرب للقلوب غفيفا

ورآها تخطر ناسك متعبد — نسي المشيب وقال فيها مقيفا:
مادام في دنيا الاله غديرة — من مثل هذه للغوى مسدوفه
فعلى التقاوة والتورع سلموا — فمن الضلالة أن تكون عفيفا!

— حسن، حسن، قال الصائغ باعجاب. — القصيدة جيدة وكانت قراءتكم جيدة، مرحى لكم!

وسأل الشاب:

— ما هو رأيكم، هل سيطلع مني نفع ان أنا درست على معلم كهذا؟

— استاذكم معلم حقيقي يتقن صناعة الكلمة، ولكنه يلزمني أن أرى ما تجيدونه أنتم...

وهنا ترامى من النصف النسائي صوت، واضطرت شمسية للانصراف. فهي كانت ستحترق خجلا لو أن أحداً رآها تسترق السمع.

بعد فترة من الوقت دخل الصائغ الى الغرفة المشتركة لتناول فطوره وسمعت شمسية المعلمة تسأل زوجها:

— مع من كنت هذا الصباح تتحدث هكذا بانسجام؟

— كان هذا أشرفجان، ابن نجار الصناديق، جاء للتشاور معي في بعض الشؤون. وبعد ذلك قرأ لي شعراً، فهو مثلي مغرم جداً بالشعر.

بعد يومين رأت شمسية اشرفجان ثانية، لكنها التقته هذه المرة في طريق عودتها من الكتاب الى البيت. كان جالساً مع شابين آخرين جنب حوض المياه قرب المدرسة. رأته وكاد قلبها يفلت من صدرها.

أدركت شمسية أنه يعيش في حجرة داخل المدرسة. في كل يوم كانت تمر من هنا صباحا ومساء، وفي كل مرة تضطرب مشاعرها، تبرد يداها وقدماها ويخفق قلبها في قلق وعنف. كانت تنظر الى باب المدرسة في أمل ولهفة: فلعله يخرج؟

وذات مرة تحقق أملها: كان أشرف جان جالساً على

المصطبة وحده. ونسيت شمسية كل شيء– نسيت كبرياءها وحياءها، وحين مرت قربه وقعت محفظة كتبها على الارض كأنما صدفة. وقطعت شمسية عدة خطوات ريثما بلغها صوته:

– يا أخت، لقد وقعت محفظتك!

التفتت شمسية ورأت أشرفجان ينوى أن يرفع المحفظة فقالت بسرعة:

– خل عنك، سأرفعها أنا!

انحنت شمسية وفي هذه اللحظة انزاح البرقع الى تحت قليلا وكشف عن حاجبيها وعن عينيها الجميلتين. ارتعش اشرف جان وكاد يفقد الوعي فقد اصابت هاتان العينان وهذه الرموش الطويلة صميم قلبه. لبرهة من الزمن لف الضباب الارض والسماء والناس المارين قربه، لف الضباب كل شيء الا عينين جميلتين: عينين كبيرتين براقتين وجذابتين كانتا تشعان أمامه...

وعندما صحا من ذهوله أخيرا لم يكن للفتاة أثر. لكن صحيفة ورق صغيرة كانت ترتعش في يده...

كانت شمسية قد قضت عدة ليال مسهدة تحلم باللقاء مع الفتى الذي سحر قلبها. وفي احدى هذه الليالي كتبت على قطعة ورق أبياتا من الشعر قررت أن تسلمها عندما تسنح الفرصة.

ماذا سيمنحنا المعابث لاهيا بفؤادنا التعس الأسير؟
ماذا سيرمي سوى نظرة؛ نظرة حارقة مثل السعير؟
كل يوم أطرق الدرب، أواري قلقي، واضطرابي في مسيري
أترصد وأجيل الطرف حولي، علني ألقى أميري!
عله – هيهات لا... مر جنبي دون أن يرنو الي... وامجيري!

وتحت الأبيات كتبت: «يقولون أنكم تعرفون الشعر. اذا صح ما يقال فاحزروا لمن هذه الأبيات».

لم تمش شمسية الى المدرسة بل طارت، فالى هذا

الحد كانت متهيجة مضطربة. أجل، قالت هي لنفسها، عليك بالمزيد من الجرأة والحزم، فهذا يدفع عنك الأسى ويفتح أمامك أبواب الأمل...

في طريق عودتها الى البيت مساء، اقتربت شمسية من المدرسة بقلق، ولكن عينها لم تقع على اشرف جان. قضت تلك الليلة دون نوم ونهضت في الصباح تصدع الأوجاع رأسها. لكنها من دون أن تمس الزاد تقريباً أخذت المحفظة وهرعت الى الكتاب.

في هذه المرة كان أشرف‌جان جالساً في مكانه المعهود يتفرس المارة بامعان، خفق قلب شمسية بعنف وارتعشت أطرافها. استجمعت كل عزيمتها ومرت جنبه بسرعة ولكن صوته طرق سمعها في الحال:

– اختي العزيزة، لقد نسيت هذه...

التفتت شمسية اليه ومد هو يده بصحيفة ورق. قرأت في عينيه اهتماماً حاراً وحنانا فائضاً. تناولت الورقة من يده، تمتمت «شكرا» ومضت بسرعة. لكن الصبر لم يحالفها حتى تبلغ الكتاب فلجأت الى ردهة أول بيت وقع لها، فتحت الورقة وقرأت التالي:

«الثناء كل الثناء على الشاعر المجيد «الهلالي»! لقد ساعدت أبياته النبوئية في تحقيق أمنياتي ورغبات نفسي: لقد جعلتني انساناً سعيداً. لست اعرف ابنة من أنت، ومن أنت، جنية أم ملاك... ولكن الاكيد الأكيد هو أنك سلبتني هدوئي، وأخذت معك قلبي البائس. لقد سحرني الحب من أول نظرة، أنا عبد عينيك الساحرتين فقد اشعلت بي نظرة واحدة منهما نارا لاتنطفيء... انني لن أعرف الهدوء أبدا... رسالتك تفصح عن أنك أنت الشعر والشعر هو أنت. فاشفقي علي وقولي، من أنت؟ هل يحق لي أن آمل بسعادة التحدث اليك دقيقة واحدة على الاقل؟ اليوم وفي كل يوم سوف انتظرك واترصد لحظة ظهورك... ولي أمل أن أراك فكتابك، كما أظن، في هذه الناحية».

وذيل المكتوب بالابيات التالية:

«من خيوط التبر صاغوك أعجوبة في الخلق دريه.
وجه جميل حسنه أبهى من صفحة البدر اللجينيه.
من أنت بالله؟ لعلك ملك؟ جنية أنت؟ أم أنت حوريه؟...
كيف أسميك أيا محيرتي؟ قولي بحق الله ياخير بشريه!»

وفي المساء التقيا من جديد. تضرع اليها أن ترد على مكتوبه. أما هي فظلت تردد:

— كن صبورا، ستستلم الرد!

وأجابت. في اليوم التالي كتبت له أنها ليست جنية ولا ملاك، بل فتاة عادية تحب القراءة عموما وقراءة الشعر بصفة خاصة. لقد سمعت أنه يدرس الادب وكان بودها أن تصير تلميذته. فحبذا لو أنه يوجهها ويمدها بالكتب.

هكذا بدأت صداقتهما. في البداية هام أشرفجان بها هياماً شبابياً ولعا وطغى هذا على كل شيء آخر. لكنه وقد تعرف بها عن كثب و رأى ما تتحلى به من حدة عقل وتواضع طبع، وكم هي متحفظة وخجولة، أحس نحوها بميل اكثر جدية وعمقا بكثير. كان يأتيها بالكتب فيتناقشان فيها ويتبادلان الرأى بل ويتجادلان أحياناً... وكان كل هذا يتم بشكل خاطف، في لقاءات سريعة متقطعة تجمعهما في دهليز مسقوف أو في عطفة مقفرة، وعلى الاغلب في المكاتيب التي كانا يسلمانها لبعضهما على الماشي.

بمرور هذه الايام عرف أشرفجان أنها ابنة الميرشاب، وعرفت شمسية أنه ابن نجار صناديق متوسط الحال. كلاهما كان يدرك خير الادراك أن الميرشاب لن يوافق أبدا على اعطاء ابنته لشخص كهذا، كانا يدركان أن نهاية صداقتهما ستحل قريباً. لكنهما لم يقويا على الافتراق ومتألمين معذبين، سارا للقاء الكروب والمحن.

منذ يومين سافر اشرفجان مع ابيه الى غيجدوان. وتمر شمسية الان قرب مدرسته بقلب يثقله الغم والأسى... ولكن، هبه كان هنا، ما الذى كان سيتغير؟ انهما، على كل حال، لن يعرفا السعادة!

وما أطيب حال فيروزة. فهي وان كانت بلا أهل ولا بيت، لكنها سعيدة. انها تحب، وحبيبها قربها لاتقوم بينها وبينه أية عراقيل، انه يزورها، وهما ان لم يكن اليوم فغدا سيتزوجان...

لماذا حظرت عليها المعلمة أن تحكي لابويها عن فيروزة؟ لماذا ألحت عليها أن تخفي عن الجميع أن الفتاة تعيش في بيتها؟ أيعقل أن تكون فيروزة قد اقترفت عملا مشينا وهي تتوارى خشية الثأر؟ في الامر سر ولا شك. والمعلمة ما كانت لتحرص على اخفائه دون مبرر. يالفيروزة المسكينة، لقد قدر عليها أن تبحث عن الملجأ والحماية عند الناس... كلا، ان شمسية لن تفوه بحرف عنها ولن تنطق باسمها أبدا. شمسية تعرف أن الكثيرين يتصيدون الفتيات الوحيدات من أمثال فيروزة.

سارت شمسية غارقة في هذه الافكار ولم تلحظ الا وقد بلغت منزلها. من الفناء الداخلي خرجت ومضت باتجاهها واتجاه باب المنزل فتاة تلفعها ملاية ويغطي البرقع وجهها. كانت هذه سليمة، تلك الفتاة الفظة ذاتها التي تماحك فيروزة وتخاصمها. عرفتها شمسية وانقبض قلبها جزعا، تكهنت أن سليمة لم تأت اعتباطا.

– أهذه أنت، ياسليمة؟ – قالت هي ممسكة بالفتاة من ملايتها. – لماذا كنت هنا، ولم تنصرفين هكذا سريعا؟

ارتبكت سليمة، ومحاولة أن تتخلص اندفعت الى الامام وقالت:

– أبدا، لا شيء... كان يلزمني أن أتحدث الى أمك...

وهنا سدت شمسية أمامها الطريق في الممر الضيق تماما:

– قولي لي أنا أيضاً، ماذا حدث؟

– كلا... كان لدينا حديثنا الخاص... بل وأنا لم أزركم من زمان... لا بأس، دعيني أمر...

لكن شمسية ما كانت حتى لتفكر بأن تفعل ذلك.

أطبقت على سليمة تماما وحصرتها في الزاوية. كانت شفتاها ترتعشان من الحنق.

– هيا، أقري بالحقيقة يالقلاقة، يا نذلة! ماذا قلت لامي وثرثرت؟

– أنت المذنبة!– زعقت سليمة ممتقعة من الخوف والقلق.

– الارجح أنك وشيت بفيروزة، تكلمي ايتها الشيطانة اللعينة!

– لقد قلت ما أردت قوله! من أنت حتى تأمرينني، سيدتي؟ افسحي لي الطريق.

مثل هذه الصفاقة لم تستطع تحملها حتى شمسية الوديعة والمتحفظة عادة. رمت الكتب من يديها، أطبقت على خناق سليمة وراحت تهصرها.

– اذا كنت قد تكلمت عن فيروزة، سأقتلك الان، في الحال.

ولكن سليمة لم تستسلم، القت الملاية عن نفسها وراحت تتعارك مع شمسية.

كان العراك في أشده حين دخل الميرشاب قادماً من الشارع. فصل بين الفتاتين واقتادهما خلفه الى الفناء.

– ماذا بكما؟– سأل الميرشاب وأضاف محاولا أن يمزح:– اذا نويتما العراك عن جد، كان يجب أن تختارا مكانا أوسع. ها هي المصطبة، انها واسعة، فتفضلا. معركة ديوك بين فتاتين! هذه فرجة ممتعة!

ولكن عزم الفتاتين كان قد برد. عصفت بشمسية هواجس ثقيلة: فاذا كانوا هنا قد عرفوا بسر فيروزة وحدث لها بالنتيجة مكروه، فان المعلمة وكذلك فيروزة ذاتها ستظنان أنها هي، شمسية التي وشت بها. وهما لن تصدقا مهما اقسمت لهما وحلفت الايمان بأن هذا غير صحيح.

أما سلمية فقالت وهي تسوى ثيابها:

– المحترمة شمسية تلاحقني وتماحكني في كل خطوة

اخطوها... في الكتاب وفي الشارع وحتى هنا في البيت. انني، ببساطة، لا أعرف ماذا أفعل...

واستغرب الميرشاب هذا غاية الاستغراب:

— غير معقول! هاك، اذن، كيف تغيرت ابنتنا اللطيفة!.. أما في البيت فانها لاتفتح فمها، من مائة سؤال بالكاد تجيب على واحد بل و هذا ليس دائما، طوال الوقت تهدهد حافظ وبيدل.

أدركت سليمة أن حديثها حول فيروزة مع أم شمسية سرعان ما سيبلغ الجميع: والارجح أن الام تسير الان الى هنا لكي تفضي لزوجها بكل تفاصيل ذلك. ولذا فانه من الافضل لسليمة أن تحكي له بنفسها وان تقنعه بأنها هي المصيبة وليس شمسية.

— علاوة على بيدل وحافظ اتخذت لنفسها في الكتاب صديقة أخرى،— قالت سليمة بحقد ناظرة الى شمسية.— وبسبب تلك الصديقة بعينها تسممت حياتنا.

في هذا الوقت ظهرت زوجة الميرشاب وقاطعت سليمة:

— ماذا يجرى هنا؟

— كما ترين، البنتان تعاركتا وأنا فصلت بينهما،— قال الميرشاب داخلا الى البيت.— اقتاديهما الى هنا، سوف اقضي بينهما وأعرف سبب الخصام. لن اتركهما قبل أن أصالح بينهما.

— أما أنا فأعرف،— قالت الزوجة وأضافت:— كل هذا بسبب تلك اليتيمة البائسة، بسبب تلك البنت فيروزة.

وكما كان جمد الميرشاب في مكانه يتطلع الى زوجته:

— ماذا؟! بسبب فيروزة، تقولين؟

— نعم، نعم ادخل الى الغرفة، سأحكي لك عن كل شيء.

ودخل الميرشاب، خلع روبه وعلقه على مسمار ثم خلع العمامة بحذر شديد حتى لا تنحل، وعلقها على مسمار آخر. بعد ذلك جلس على مندر تحت النافذة ولبث ينتظر زوجته التي تلكأت في مكان ما. بعد عدة دقائق دخلت الزوجة

وقالت ان شمسية ذهبت الى غرفتها وهي تبكي، وأن سليمة هربت. لكن ما أقلق الميرشاب الآن كان خبر فيروزة وحده وليس معاناة ابنته.

– لا بأس، هاتي، تكلمي بسرعة!

وحكت له الزوجة بالتفصيل عن الخصام التي جرى بين البنات في الكتاب وعن العطف الذى ابدته شمسية نحو فيروزة.

– هم–م.–همهم الميرشاب متفكرا.– هل أنت واثقة تماما أن فيروزة هذه، هي تلك اياها؟

واندهشت الزوجة:

– وماذا يهمك أنت، ان كانت هي ذاتها أم غيرها؟ لماذا تسأل بهذا الالحاح؟

– هذا يعني أن ذلك ضروري يا زوجة! اذهبي، اقتادي شمسية الى هنا.

خرجت الزوجة، وأخذ الميرشاب يدرس الخبر غير المتوقع ويقيم الخطط. لاريب أن فيروزة هذه، هي حفيدة العجوز ديلارام الجميلة ذاتها. يجب الاسراع في ارسال شخص خلفها، يجب الحصول عليها أولا، هذا هو الأهم، وبعد ذلك ستسير الأمور على خير وجه. انها قد تكون على جمال يجعلها جديرة بأن تقدم للأمير كهدية؟ ثم أنها، وفي أغلب الظن، تعرف أين يختبىء ذلك المجرم حيدرقول... دعها تقول أين هو! وبالطبع، سينال الميرشاب جائزة كبيرة لقاء كل هذه المعلومات... وبرق المال وتألقت الثروة أمام ناظريه الشرهين. ولكن لماذا صمتت شمسية عن ذلك حتى الآن، لماذا لم تفه بحرف عن فيروزة؟ أمن المعقول أن تكون صداقتهما وثيقة الى هذا الحد، أو أنهما تعاهدتا على الوفاء؟

وأخيرا ظهرت شمسية. جلست في ركن قصي مطأطأة الرأس في أسى تحدق في طرف السجادة.

– تعالي الي، – ناداها أبوها بحنان. – تعالي اجلسي قربي يا غاليتي.

وحثتها امها:

– هيا، هيا، اسمعي كلمة ابيك.

لكن شمسية ظلت في مكانها. وآنذاك اقترب الميرشاب نفسه منها، مسح على رأسها، قبلها وسأل:

– قولي، يا بنيتي، هل فيروزة هذه هي حفيدة ديلارام؟

ظلت شمسية على صمتها، أما اليمرشاب فاستمر يسأل:

– المعلمة آوتها لانها يتيمة مقطوعة، أليس كذلك؟ ولكن أما كان خيراً لها أن تعيش عندنا؟ أنت تحبينها فلماذا لم تدعيها الى بيتنا؟

فردت شمسية:

– وفي بيت المعلمة المكان يكفي.

– ومع ذلك ليست هي سوى معلمة... نحن أيسر حالا، بل وبيتنا مختلف تماماً، – قال الميرشاب متباهياً، وأضاف: – لو كان عندنا عشرة أفواه، لاطعمناها... الجميع كانوا سيجدون خبزهم. فهل فكرت أنت بذلك؟

هنا قام الميرشاب وارتدى روبه.

– حسناً! من الجيد أنك وفيروزة صديقتان. يقولون انها فتاة ذكية وفهيمة. سوف نحاول أن نرتب الامور بحيث تكونان دائماً معاً اطمئني بالا، يا بنيتي!

– ماذا تنوي أن تفعل؟– سألت شمسية بجزع وقامت هي الأخرى.

– لا تخافي، لن يلحق بصديقتك أي مكروه.

وواضعا العمامة على رأسه قال على الماشي:

– الآن فقط تذكرت. كبير القضاة يقيم اليوم استقبالا للقنصل الروسي، علي أن أذهب لتقديم المساعدة...

كانت شمسية تستمع ورأسها مطرق بأسى. في اثر أبيها خرجت هي الاخرى من الغرفة وصعدت فوراً الى غرفتها في الطابق العلوى. أما الميرشاب فنبه على زوجته هامساً أن تراقب شمسية وألا تتركها تبتعد عن البيت قيد خطوة، وحين استقبله الشارع توجه مباشرة الى دائرته. هناك وجد كالي قربان مساعده المقامر والسكير المعروف في المدينة كلها.

– العجوز لا يقر... – بهذه الكلمات استقبل هو رئيسه. – جربت معه كل شيء فعلت كل ما استطعت، لم ادخر وسعاً، لكن التعذيب لايؤثر فيه.

لم يفهم الميرشاب وسأل مبهوتا:

– عن أي عجوز تتكلم؟

– عن العجوز السقاء. انه لايكاد يتنفس، يحتضر، وان لم يكن اليوم فغدا سيموت وتقع علينا هموم دفنه. خير لنا أن نطلق سراحه فنحن على كل حال لن نغنم منه شيئا.

– اطلقه،– أمره الميرشاب واستدرك حين هم ذاك بالخروج.– مهلك... بعد ذلك خذ شخصين أو ثلاثة واذهب الى بيت الصائغ طاهرجان، هل تعرفه، ذاك الذى يعيش قرب حوض ميردوستيم. زوجته هي المعلمة طنبور. هناك في بيته تختبىء تلك الفتاة فيروزة التي نبحث عنها. خذها وتعال بها الى هنا. ولكن اياك ثم اياك أن تكون فظا مع الصائغ وزوجته. قل ببساطة أنك مأمور بذلك، مأمور من سمو الوزير الاول والميرشاب.

– سمعاً!

– ستنال أجرك على عملك، كن مطمئنا، أنا سأدفع لك. ولكنني اذكرك مرة أخرى – لا تغلظ في الكلام مع الصائغ وزوجته!

وتوجه كالي قربان الى القبو كي يطلق سراح السقاء، ولكن الحاجب لحق به قائلا أن الميرشاب أمر باقتياد احمدجان اليه، فهو يريد أن يستجوبه شخصيا.

أوعز كالي قربان للشهود أن يحملوا السقاء من القبو وبقي هو واقفاً قرب الباب يشرب الجوزة.

نزل الشهود الى القبو ينيرون دربهم بفانوس ثم سرعان ما خرجوا مع السقاء يسندونه من كلا الجانبين.

كان العجوز في أبعد الشبه عن نفسه. شارباه ولحيته التي لم تعرف المقص فترة طويلة كانت تغطي الجزء الاسفل من وجهه ندفا شائبة متشابكة. عيناه الغائرتان حتى من غير هذا غرقتا الان في محجريهما تماماً، كان جثة حية

وليس الا، فلم يكن يحرك ساقيه الراعشتين الا بشق النفس ولولا أنهم كانوا يجرونه من كلي الجانبين لما استطاع أن يخطو خطوة واحدة. كانت ملابسه البائسة – ممزقة وملطخة بدمه. لدى رؤيته حتى كالي قربان اشاح ببصره. أما السقاء فتغلب على ضعفه القاتل استجمع بقايا عزيمته وقال بصوت أجش:

– اسأل الله أن تعاني أنت أيضاً مثل هذا العذاب يا وحش.

– أبعدوه! – صرخ كالي قربان وكأن عقربا قدلسعه.

تململ الشهود وجروا العجوز الى الميرشاب – كان ذلك واقفاً يحمل في يده سوطاً. وطرحوا السقاء على عتبة غرفة الاستقبال.

وتكلم الميرشاب:

– أنا على علم بأنك تعرف كل شيء. تعرف قاتل سعيد السكير وتعرف أيضا ذلك الشخص الذى طعن البائ بالسكين. نعم تعرف ولكنك لاتعترف. فلماذا؟ لقد بقي لك من العيش أيام معدودة، فلماذا تعاند؟ عليك العمل بوصايا الشريعة المقدسة، في هذه الدنيا لم يحالفك الحظ. ولكنه ثمة عالم آخر، وهناك سيجازيك الله خيراً ان أنت اطعته هنا... تكلم هيا؟

لكن السقاء ظل صامتاً. كان منكباه يرتفعان طفيفاً وينمان عن أنه مازال يتنفس.

– تكلم يا أحمدجان، أنت رجل مؤمن. فساعدنا في هذه القضية المقدسة، اننا على كل حال سنجد المجرم، سنجده سواء قلت لنا أين هو أم لم تقل. لقد أخفيتعنا أين تختبىء حفيدة ديلارام، وما الفائدة؟ فنحن من غيرك وجدناها. الان سيأتي كالي قربان بفيروزة الى هنا من بيت المعلمة طنبور...

انتفض جسد السقاء الهزيل الجامد وبصعوبة رفع رأسه عن الارض، شخص الى الميرشاب وبح قائلا:

– لن تسلم، لا سلام عليك! روح العجوز الراحلة لن تسمح بذلك!.

قال هذا وأعسى عليه.

ابتسم الميرشاب ساخراً، ضرب بالسوط على جزمته وقعد. في هذه اللحظة دخل كالي قربان يقتاد شخصين: فيروزة في ملاية وبرقع يستر وجهها ومعها طاهرجان. كانت فيروزة ترتعد من الهلع. انها لم تحزر أن الرجل المطروح أمامها على البساط تحت اسماله الملطخة بالدم هو صديقها وحاميها العم احمدجان. كانت نظراتها مغلولة الى وجه الميرشاب الحانق.

- آه، اتيت بها، - هتف حضرته. - وهذا الشخص، لماذا؟

- أنا جئت باختياري يا سيدى! - قال طاهرجان. - بأي حق، كيف يجوز أن تأخذوا فتاة وحيدة مهيضة الجناح عنوة! لماذا تأخذونها من حضن المرأة التي آوتها وحلت لها محل الام؟ هذا ظلم لاتسمح الشريعة بمثله!

فابتسم الميرشاب وقال:

- أنت صائغ جيد ياطاهر ولكنه خير لك ألا تتدخل في قضايا الدولة وقضايا الشريعة! هذه القضايا تقع على عاتقنا نحن. أما أنت فعد الى بيتك، عد وطمئن زوجتك هذا أفضل... قل لها أن فيروزة بعون الله سوف تتردد على الكتاب وسوف تساعدها في شؤون المنزل.

- سوف اقدم شكوى لمعالي الوزير، سأصل الى قصر صاحب الجلالة. - رفع طاهرجان عقيرته فابتسم الميرشاب باستخفاف وقال:

- الامر لك!

في هذا الحين تحامل السقاء فنهض قليلا، مد يدا راعشة الى الصائغ وقال بصوت أجش:

- طاهرجان لاتذهب! لاتذهب الى مكان... فلا جدوى. هذا ذئب، والاخر ثعلب والثالث ابن آوى، والرابع حمار. لن يسمع أنيننا وانين هذه اليتيمة المسكينة أحد غير الله! وهو وحده سيقاصصهم على كل ما ارتكبوه!

الان فقط عرفت فيروزة السقاء. ولدى رؤيتها لهذا الرجل المعذب نسيت أهوالها الخاصة واندفعت نحوه صارخة: «عمي، هذا أنت». امسكت يده الواهنة غطتها بالقبلات، ولم تلاحظ من فيض عاطفتها ورثائها أن الملاية والبرقع قد انزلقا عنها وأن وجهها سافر. انهمرت الدموع من عينيها دون كابح وسقطت على رأس العجوز الذي كان يبكي هو الاخر، وضع طاهرجان منديله على عينيه وفاض به اليأس فراح يضرب بكفه على ركبتيه.

وفجأة دخل المختار نصرة الله الى الغرفة مهرولا لاهثا. فخاطبه الميرشاب بابهة وعظمة:

— احسنتم صنعاً اذ اتيتم! ستوصلون السقاء أحمدجان الى بيته وتتكفلون برعايته أما أنت ياقربان...

وهنا قاطعه المختار:

— سعادة الرئيس، سمعت أن حفيدة ديلارام قد وجدت فجئت خلفها... أنا وصي هذه اليتيمة... أنا...

— انتم ستأخذون العجوز المريض، — قاطعه الميرشاب بحدة. — هذا عمل يرضي الله. أما فيروزة فستذهب بها، أنت يا قربان، الى بيتي.

ومن دون أن يعطي بالا لعويل الفتاة البائسة الضعيفة اطبق كالي قربان عليها كأنها عصفوز ومضى يحملها.

هجم طاهرجان عليه مرتجفا من الاستنكار واليأس ولكن حارسين قبضا على يديه وجراه الى الخارج.

جلس الميرشاب في مكان الصدارة مفعما بالرضى ومسرورا جدا بكل الذى جرى. أما احمدجان فظل مطروحا على البساط شبه ميت. ووقف المختار نصرة الله قرب النافذة فاغر الفم مرفوع اليدين مبهوتا حائرا لا يفقه شيئاً.

٩

كان الميرشاب يهلل غبطة. بصق بقايا «الناسواي» من فمه بلا اكتراث ونادى كالي قربان. ولكن مساعده كان في مزاج آخر، كان منزعجاً: فكل أشغال اليوم لم تعد عليه

بأية أرباح مع أن الصراخ والضجيج ملأ الدنيا... علاوة على هذا كدره ذلك العجوز بنظرته الثاقبة القاتلة... ان لملك الموت عزرائيل مثل هذه النظرة على الأرجح، فهي تنغرز في القلب مباشرة، أما صوت العجوز الأجش فما زال يطن في أذنيه حتى الآن. أجل، كان يوماً غير موفق. ودخل كالي قربان على رئيسه وهو في غاية الكدر.

– ما لك عابس هكذا؟– سأله الميرشاب،– كأن الثلج يسقط الآن.

– نعم، اليوم يسقط الثلج...

وضحك الميرشاب.

– لا عليك، كل شيء سيكون على ما يرام. ان هذا الطقس قد لا يناسب ذوقك ولكنه على أحسن ما يكون بالنسبة للحكومة! أنا راض! سأذهب الى البيت أما أنت فابق هنا. ترزق من الزوار قليلا، يا مسكين. ولكن اياك أن تتمادى... هل سمعت؟ استبز ولكن خل عندك ضمير...

– أمرنا الى الله!– بربر كالي قربان شاتماً الميرشاب في سره. لكنه مع ذلك رافقه حتى البوابة مودعاً.

في بيت الميرشاب رقد الجميع للنوم إلا زوجته فقد كانت تنتظر عودته. وحكت له عن كل ما حدث وقت غيابه: اقترحت شمسية على فيروزة أن تذهب الى غرفتها ولكن تلك رفضت لسبب ما. آنذاك وشوشت شمسية في أذنها فقامت فيروزة وذهبت. أقلق ذلك الأم، خافت من أن شمسية تريد مساعدة فيروزة على الهرب فأوكلت مراقبتهما لخادمتين ثم عززت الخادمتين بخادم.

– مرحى لك، يا زوجة،– امتدحها الميرشاب،– أرى أنك تستطيعين تسيير كل أعمالي. ولكن كيف، هل راقت لك البنية؟

– أوه، أجل. جميلة جداً، ملاك حقيقي. في حياتي لم أر حسناء مثلها! ولكنها جد يافعة، ما زالت طفلة رغم طول قامتها وهيافتها.

— واذن؟
— أنت على الأرجح، تنوي تقديمها للأمير أو لشخص آخر... فهاك رأيي: هذا لا يليق، هذه قسوة!
— أنت أيضاً كنت صغيرة عندما أخذتك، والآن كم ولد عندك...
— البنية تستحق الشفقة، يا أب! لنتركها عندنا، دعها تعيش مع ابنتنا سنة أو سنتين... ثم يفعل الله ما يشاء وتصير هي أجمل.
صمت الميرشاب، كان يفكر. الزوجة على حق، ما زالت الفتاة صغيرة، مثل هذه لا تصلح للأمير. فالمهمة هي العثور على فتاة ذكية، مجربة، وبالطبع جميلة ولكنها حرية بأن تشغل الأمير وتحول نظره عن النساء الروسيات. أما هذه الطفلة فماذا تستطيع؟ الحقيقة أن الأمير يحب الفتيات الغضات مثل براعم ورد لم تتفتح، ولكنه يلهو معهن قليلا وفي الحال يعافهن. أجل، الزوجة على حق: من السابق لأوانه تقديم فيروزة للأمير الآن. دعها تعيش هنا، هذا أفضل، دعها تدرس تحت اشراف الزوجة والابنة وتحرز بعض العلم. وآنذاك يمكن تقديمها للأمير. أما هي فبعد كل الذي أسدى لها، قد ترد المعروف وتستطيع استمالة الأمير نحو الميرشاب.
أثلجت هذه الفكرة قلب الميرشاب وفاضت مشاعره حتى أنه قبل زوجته.
— كلامك صحيح، كله صائب — الفتاة ما زالت صغيرة بعد. فلتعش عندنا، ستعلمانها أنت وشمسية أصول السلوك، سنربيها ونقدم لها التعليم اللازم... ثم يفعل الله ما لا تعلمون.
انزاح الهم عن قلب الزوجة. تنهدت بارتياح وقالت:
— وبخصوص التربية لا تقلق، سأربيها كما يجب أن تكون التربية. كن مطمئن البال.
وراضيين عن بعضهما البعض وعن القرار الذي اتخذاه خلد الزوجان لنوم هادىء.

وفي الغرفة فوق لا نامت فيروزة ولا غشى شمسية الكرى.

- نامي، نامي، نامي ولو قليلا،- حاولت شمسية أن تقنع فيروزة.

وكانت تعرف أن محاولاتها لن تجدي نفعاً وأن الفتاة المسكينة لن تنام. وهل يمكن النوم بعد كل ما عانته من عذاب وزرفته من دموع؟ ان قلب فيروزة ليس حجراً.

أدركت شمسية ما أن غادر أبوها البيت أن فيروزة واقعة في يده لا محالة. همت ان تجري الى المعلمة لتحذرها، ولكن، هيهات، كان ذلك من صنو المستحيل. فأمها لم تمنعها وحسب، بل وقرعتها طويلا على عقوقها. وحين أيقنت أن وضعها بلا مخرج أرخت شمسية لدموعها العنان وأخذت تتكلم عن فيروزة محاولة أن تثير الشفقة في قلب أمها وبلغت مبغاها. تأثرت الأم ووعدت أن تبقي فيروزة عندهم في البيت وأن تقنع الميرشاب بذلك أيضاً...

والآن عاد الاب الى البيت وشمسية لا تعرف عما تتكلم الأم معه، ولكنها على ثقة من كفاءتها في طرح الأمور بشكل ينصاع معه المرء لفكرتها المكنونة على غير ارادة منه. اما اذا فشلت الأم في اقناع الأب فان شمسية ستتخذ تدابير حاسمة: ستعلن على ابيها انها ستذهب من نفسها الى محرمة غارتش لكي تقودها تلك الى الأمير. أجل ان هذا ما ستفعله ان هو لم يترك المسكينة فيروزة لحالها ولم يكف عن ازعاجها. وهي لن تكتفي بذلك، بل ستشكو أباها للأمير وتقول انه مانع أن يعطيه ابنته. طرحت شمسية كل هذا امام فيروزة وقالت في الختام:

- لا تحزني، يا أختي، سوف نعيش معاً، ومعاً سنذهب الى الكتاب وندرس مع معلمتنا العزيزة...

لكنه بدا وكأن فيروزة لم تكن تسمعها.

ليس الا لساعات قليلة خلت كانت فيروزة مطمئنة، وأي اطمئنان!.. عندما قرع الباب كانت تغط في نوم

عميق. ذهب الصائغ الى الباب ليفتحه ولكن وقتاً طويلا مر وهو لا يرجع. انتاب الزوجة القلق فلحقت به واضطربت فيروزة أيضاً.

من الممر المسقوف ترامى صوتان رجاليان، أحدهما كان يعود لطاهرجان والآخر لرجل مجهول. بلغت كلماته مسامع المرأتين الخائفتين: كان يقول أن الميرشاب والوزير الأول يطلبان تسليم فيروزة فوراً، وانه اذا لم يتم ذلك طوعاً فانه سيسوقها عنوة. ارتعدت فيروزة روعاً، ساخت قدماها وقعدت على الأرض في شبه غيبوبة. فهمت المعلمة بقلبها حالة الفتاة. اسندتها، مضت بها الى الغرفة وأعطتها ماء لتشرب. لم تجد الكلمات لتسري عنها فاختضنتها وشدتها الى صدرها.

في القريب جاء طاهرجان، كان في غاية الاضطراب وقال منفعلا انه لا يوجد مخرج، وانه سيصاحب فيروزة الى الميرشاب، سوف يحتج ويطالبهم أن يخلوا سبيلها. وكانت طنبور تدرك خير الادراك أنه لا يوجد مخرج وأنهم سيأخذون فيروزة على كل حال. راحت تهدىء من روع الفتاة، قالت انهم سوف يطلقون سراحها حالا... لا داعي للخوف وها هو العم طاهرجان معها أيضاً.

ولكن كل رهبة فيروزة حيال الميرشاب تلاشت حين رأت السقاء العجوز، يا للوحوش! ماذا فعلوا به! انها لم تعرفه في الوهلة الأولى. وجه متورم، شعر شائب أشعث لحية بيضاء متلبدة وقميص ممزق مطلخ بالدم.. فيا للهول! وبأي ذنب فعلوا به كل هذا؟ أمجرد أنه خبأ فيروزة أنزلوا به هذا العذاب؟.. بل وما بالهم يتحططون عليها؟ أي ضرر ألحقت هي بالناس؟ وماذا يريد الميرشاب منها؟ في السجون يزج القتلة واللصوص فما شأنها هي هنا؟ لو أن جدتها كانت على قيد الحياة لما حدث شيء من كل هذا. لم يتجرأ أحد على أن يمسها باصبع عندما كانت الجدة حية ترزق. أما الآن فيطاردها الجميع، الكل يتصيدونها: الوزير الأول والميرشاب والمختار والباي وبنات البايات وسليمة...

كلهم، كلهم هجموا عليها ولكنه من الجيد أن الله من عليها بالمعلمة. فهي ليست كهؤلاء، وشمسية أيضاً جيدة... وعصا... أين هو الآن يا ترى؟ ماذا يفعل؟ في الصباح سيأتي لزيارتها ولكنه لن يجدها. سيعرف بالذي حدث ويهرع الى الميرشاب. وهناك سيضربونه ويطردونه... فماذا سيجري له؟ «رباه، رباه، على أي ذنب؟ في أي شيء أخطأت بحقك؟»

قضت كل هذه الهواجس مضجع فيروزة وحرمتها النوم.

– ماذا سيجري لعصا؟– هتفت هي وقد نفد صبرها.– من المحتمل أن يأتي في الصباح الى بيت المعلمة.

– لا شيء ذا بال، ستلتقين به وتحدثينه عن كل شيء.

– كيف، هل سيأتي عصا الى هنا؟

– بل كلا، أنت التي ستذهبين الى الكتاب، ستدرسين هناك وفي المساء نعود معاً.

– سأذهب الى المدرسة معك؟ وهل من المعقول أن يوافق أبواك.

– أمي موافقة، وهي ستقنع أبي، أنا واثقة من ذلك.

– أخ، يا حبذا! سأكون لك خادمة وفية، سوف أحمل عنك كتبك، حسبي أن تأخذينني معك الى الكتاب، ان لا تتركينني هنا وحدي.

– وكيف لا آخذك وأنت أختي الصغيرة الحبيبة.

– جزاك الله خيراً وأطال في عمرك! لتحالفك السعادة دائماً وعسى ألا تعاني أبداً مما أعانيه أنا...

انقبض قلب شمسية اشفاقاً، أطبق التشنج على حنجرتها ولم ترد على فيروزة بشيء.

١٠

حمام كونجاك، أي «الركني» هو واحد من أقدم حمامات بخارى. وهو لم يسمى بالركني اعتباطاً، بل لأنه كان يقبع في الركن بين شارعين مقابل مسجد بخارى الكبير بالضبط،

كان باب الحمام ينفتح تجاه حائط المسجد مباشرة. فاذا انطلقت من ناحية «السوق الجديدة» واخترقت شارع سنغين أو شارع الحاج زين الدين متجهاً نحو مئذنة المسجد، فانك ستمر قرب حمام كونجاك حتماً.

قرب باب الحمام وحوله يتزاحم بشكل دائم الشحاذون والعرافون وباعة الشوندر المشوي وفي الصيف باعة الماء أيضاً. وكان المشترون يغفون عليهم مثل الذباب على السكر. من فناء الحمام الى داخله كان يقود سلم هابط. والى حيث يذهب السلم كان محظراً على الرجال أن يدخلوا. هناك في بهو واسع على مصطبة تغطيها الحشايا وتسجيها الأبسطة والألحفة كانت تتربع عادة امرأة ذائعة الصيت في بخارى كلها هي صاحبة الحمام محرمة غارتش. كانت امرأة طويلة القامة ممتلئة الجسم ذات وجه جلف بعض الشيء ما زال يحتفظ ببقايا حسن سالف ولكنه متأثر بتصاريف الزمن، كانت في ذلك العمر عندما تكون نضارة الصبا قد زالت ولكن الجاذبية ما زالت. على قدميها كانت تضع جزمة من جلد الكروم ذات صرير ومن هنا لقب – «غارتش» الذي يعني «صرير».

مسلك هذه المرأة كان يدل أوضح الدلالة على أنها مجربة، حنكها الدهر وعركتها الأيام وعلى أنها تجيد التمييز بين الناس صالحهم وطالحهم. كانت تشرب جوزتها وتتفرس الزائرات بامعان ثم تولي لكل منهن الاهتمام والعناية التي تتناسب مع وضعها في المجتمع. لكل منهن كانت تجد كلمة ذكية جيدة الوقع وكان صوت محرمة غارتش جهوراً، خشناً، رجالياً تقريباً. لم تكن تقوم من مكانها لاستقبال أحد الا فيما ندر، لم تكن تخص بهذا الشرف الا السيدات البارزات جداً اللائي كانت تعرفهن واحدة واحدة لكثرة ما تزورهن في بيوتهن.

متربعة قرب صندوق كبير كانت بنفسها تجمع من الزائرات أجرة الدخول وبحركة من يدها أو نظرة من عينيها كانت تعطي الايعازات للمدلكات والغسالات والخادمات

اللواتي يقدمن المناشف. على هذا الشكل كانت تدير الحمام بأكمله دون أن تبرح مكانها تقريباً.

وكان الرجال أيضاً وليس النساء وحدهن ينتفعون بخدماتها. ولكن هذا كان يجري خارج الحمام. وما هو الذي لم تكن تفعله! أكبر بايات بخارى وأعظمهم شأناً كانوا مدينين لها بالكثير، وكانوا بكل امتنان يستجيبون لأي طلب من طلباتها.

كانت مرأة من نوعها الخاص يستطيع كل رجل أن يتفحص فيها من جميع الجوانب تلك المرأة التي أعجبته. عن عيني محرمة غارتش لم تكن تخفى لا مناقب ولا مثالب الحسناوات اللائي آسرن بجمالهن مخيلة أحد من الرجال.

— كلا، ابنة فلان لا تصلح لكم، — كانت محرمة غارتش تؤكد لأحد ما من العشاق. — انها بالظاهر فقط تبدو جميلة... انها رفيعة القامة، هذا صحيح... أما أنتم، أنا أعرف، فتفضلون الحسان المكتنزات الرافلات... وهذه غراب منتوف، جلد على عظام.

ولم يكن من الجميل، طبعاً، التشنيع والتشهير هكذا ببنات الناس، ولكن محرمة غارتش مع كل هذا، لم تكن امرأة سيئة: كانت شجاعة، جريئة لا تتزلف لأحد ولا تداهن أحداً: كانت مبسوطة اليد أبية لا تهاب أيا كان. ولكن الويل كل الويل لأعدائها، معهم كانت محرمة غارتش شرسة حقودة، قاسية الانتقام.

في ذلك اليوم الذي نأتي على ذكره كانت محرمة غارتش في مزاج طيب، تجلس في مكانها المعتاد وتترقب قدوم زوجة أحد البايات الأغنياء، تاجر ألبسة معروف في بخارى كلها. كانت زوجة الباي قد وضعت طفلا منذ فترة وجيزة، وقد تقرر الاحتفال بهذه المناسبة. كما وكان من المنتظر أن تأتي الى هنا اليوم أيضاً عروس وفاجان الصراف. وبالطبع سوف ترافق المرأتين أعداد عديدة من الأهل والصديقات والخادمات وستعود كل هذه الاحتفالات بغير قليل من المال على صاحبة الحمام. لم تكن محرمة

غارتش تولي اليوم كبير اهتمام للزائرات العاديات. كانت تنتظر الضيوف الكبار بفارغ الصبر، كانت تدخن بعصبية ولا تكف عن النظر الى الباب.

عند الباب من الجانب الآخر كانت تناوب احدى الخادمات، ها هي قد ظهرت أخيراً وأعلنت عن وصول زوجة الباي. قامت محرمة غارتش بمهابة، وزعت الأوامر على الخادمات وهشت لاستقبال القادمات وهي تلهج: «أهلا وسهلا». ثماني نساء انيقات الملبس في ملايات نفيسة وجزمات من الجلد اللماع ألقين ملاياتهن على أيدي الخادمات وبمساعدتهن شرعن في النزول على السلم.

سلمت محرمة بادىء ذي بدء على امرأة طويلة ومسنة هي أم الباي ثم التفتت الى زوجته التي كانت، على الأرجح، جميلة جداً ولكنها بدت الآن صفراء ضامرة، خامدة العينين. الى هذا الحد أضناها الوضع وأوصلتها جهالة الدايات اللائي أهلكن بجهلهن غير قليل من الحيوات الشابة.

وبعد أن تبادلت التحية مع مرافقات المرأة الشابة اقتادت محرمة الجميع الى مكان الشرف ودعتهن للجلوس. أخذت المولود الجديد من يدي الداية، ناغته قليلا وناولته لجدته مهنئة بالحفيد الرائع.

– ما شاء الله، يا له من صبي! شاه حقيقي. حفظه الله وأطال في عمره. ليعش دائماً في بحبوحة وسعادة!

– آمين! – قال الجميع بصوت واحد ومسحن بأيديهن على وجوههن.

ظهرت الصواني مع الشاي والضيافة. ثم دخلت محرمة الى داخل الحمام لكي تنظف غرفة الهبلة لأجل زوجة الباي.

في حمامات بخارى القديمة توجد غرفة خاصة لغسل الأقدام. الى هنا يدخل الزوار في ملابسهم الداخلية وفي أحذيتهم، يخلعون كل هذا، يأتزورون بفوطة تعطى لهم هنا ويسلمون الثياب الداخلية والأحذية للحمامجي. من هنا يمرون عبر ممر مظلم الى غرفة كبيرة مستديرة تتوسطها مصطبة كبيرة وأيضاً مستديرة. من هذه الغرفة تقود عدة

أبواب الى الأقسام الأخرى. في اثنين منهما يتم تدليك المتحممين على مضاجع عريضة. الثالث للهبلة والرابع هو الغرفة الباردة. اضافة لذلك توجد عدة مقاسم صغيرة تقوم فيها النساء بغسل ما يفضلن غسله على انفراد.

في جدران غرفة الهبلة ركبت أجران كبيرة فيها ماء بارد وحار: النار في الأتون تتأجج دائماً والبلاطات حامية حتى البياض. الحر هنا جهنمي.

في كامل ملابسها وفي الجزمة أيضاً دخلت محرمة الى غرفة الهبلة وقالت مخاطبة النساء اللائي يغتسلن هناك:

– المعذرة، يا عزيزاتي، تنازلن بالله عن مكانكن لامرأة وضعت حديثاً... اغتسلن على تلك المصطبة أو على هذه... الدفء يعم كل ركن في حمام كونجاك... بوسعكن أن تذهبن الى الغرفة الباردة ان شئتن... لا تزعلن مني.

وفي الحال ظهرت زوجة الباي شاحبة هزيلة تستند على أيدي مرافقاتها. خلفها سارت الداية تحمل على يديها المولود الجديد وعقبت هذه المدلكات والحمامجيات مع الجرادل والطسوت وأباريق الشاي والفوط والعطور والأفواه*...

اجتذب هذا المشهد انتباه كل الحاضرات في الحمام...

دخلت الداية الى غرفة الهبلة قبل الجميع: قعدت على المصطبة والطفل على يديها، أمرت الخادمات أن يغسلن الأرض جيداً وبعد ذلك توجهت الى النفساء:

– والآن، يا حبيبتي، استلقي على الأرض... في البداية على ظهرك... نعم، هكذا!

انكبت الحمامجيات على غسل المرأة الشابة بدأب. استرسل الطفل في البكاء على يدي الداية. تعالى الصراخ والزعيق، قرقعت الجرادل والطسوت تطغي على طرطشة الماء المنسكب وترددت في القبة العالية أصداء كل هذا الهرج والضجيج. كان الجو في الغرفة خانقاً حتى كاد التنفس أن يكون مستحيلا. أنهك الغسل والتدليك زوجة

---

* أفواه – جمع فوه، وهو المادة العطرة الرائحة.

الباي تماماً فرقدت مغشياً عليها. وأعيى البكاء الطفل فسكت وما عاد يصدر صوتاً.

وأخيراً قامت الداية وقالت:

– هذا يكفي،– اليكن الطفل، لقد صار عمره أربعين يوماً، سنغسله الآن ونخرجه من هنا.

ساعدت الخادمات الداية في وضع الطفل على صدر أمه كما اقتضت الأعراف ورحن يغسلنه وهو في هذا الوضع. بعد ذلك سكبن عليه الماء ثلاثاً وناولنه لاحدى القريبات فخرجت هذه تحمل الصغير. أما أمه الشابة فقد غسلنها مرة أخرى كما يجب. ثم قلبنها على بطنها ورششن عليها من القدمين حتى الرأس قضامة مجروشة ومخلوطة بدقيق السكر، أثناء هذا كانت الخادمات يرمينه حفنات في أفواههن. بعد هذا ذررن على حقو المرأة البورق وحب الهال وأمرنها أن ترقد دون حراك. كانت بسبب الحر ورائحة التوابل تفقد الوعي من فينة، الى فينة. وحين رأت الداية ما بلغته حالها من سوء، أوعزت للخادمات أن يحضرن الخبيصة الحلوة.

عندما انتهت كل هذه الطقوس غسلن المرأة بالماء من جديد وحملنها الى غرفة أخرى أبرد قليلا من سالفتها. مدت المفارش والمنادر، تقدمت محرمة غارتش بالتهاني لجميع الحاضرين. وجيىء بضيافة وافرة وأطباق لحم مقلي.

وما كادت محرمة غارتش تلمس الطعام حتى دخلت خادمتها وهمست في أذنها بشيء ما. قامت محرمة في الحال وتبعت الخادمة نحو المخرج. على مصطبة في الجانب الثاني من البوابة كان رسول الميرشاب كالي قربان جالساً ينتظرها.

– طاب يومك، يا محترمة،– قال هو وقد سمعها تقترب من البوابة.– كيف حالك؟

ولم يمنع الخجل محرمة غارتش عن الخروج اليه سافرة الوجه.

– ماذا حدث؟

– لا شيء، كل شيء على ما يرام... صاحب السعادة الميرشاب يبلغك التحية. انه ينتظر كم على أحر من الجمر... انه يحتاجك في أمر هام.

– حسناً، قل له أنني سآتي فيما بعد.

– كلا، يا محترمة، لا يسعني أن أعود بدونك قال لي: «حتى لو هلكت تعال بها حالا» عليك الذهاب الآن ولا مناص.

واغتاظت المرأة فزعقت:

– وماذا ستفعل معي اذا رفضت؟ أنا لا أخافك ولا أخاف رئيسك.

وتكلم قربان بلين وبصوت يكاد أن يكون ودوداً:

– رفقاً، يا محترمة، لبيك أنا جاهز لأية خدمة، ولكن لا تقتليني، أتركي لي أن أعيش يومين آخرين، من فضلك!..

– لا وقت الآن للمزاح،– قاطعته محرمة بحدة.– في الحمام ضيوف كبار. اذهب، وقل انني سآتي فيما بعد.

– انني لن أبرح مكاني بدونك. اذا لم تذهبي معي الآن لحقتك انا الى الحمام.

– لا ينقصنا غير هذا!

– واذن استعجلي!

كان طبع كالي قربان المشاكس العنيد معروفاً للجميع فقررت محرمة أنه من الأفضل لها الا تستثيره. عادت الى الضيوف، اعتذرت منهن ثم أجلست كبيرة المعاونات في مكانها والتفتت الى جدة المولود الجديد:

– أرجو المعذرة، يا سيدتي المحترمة، فأنا مضطرة لأن أتركك. لا تستأن منا. اذا كنا قد أبدينا شيئاً من التقصير... سنتداركه في المرة القادمة... عسى أن يرزقك الله مزيداً من الأحفاد، أن يطيل في عمرك ويمنحك السعادة!

رفع الجميع أيديهن بالدعاء.

وأجابت العجوز:

– ليس عندنا أي عتب عليك، وفقك الله وأعطاك العافية!

رفعت محرمة الملاية والبرقع عن المسمار، أعطت التوجيهات اللازمة للخادمات وخرجت. لم تكن تشك في أن الضيفات سيكافئن جميع خدم الحمام كما يجب وفي أنهن لن ينسينها أيضاً. أغلب الظن أن هدية ثمينة بانتظارها...

كان الميرشاب ينتظر محرمة بفارغ الصبر. القلق يعتريه ويستبد بنفسه الاضطراب. فيروزة في حوزته ولكن الزوجة تنصحه بأن يتركها في البيت، عليه أن يزوج ابنته، عليه أن... وعليه أن... كم من الأعمال وكم من الهواجس! فكيف لرأسه الا يدوخ؟ كان على استعداد لأن يوافق زوجته ويترك فيروزة تعيش في بيته عاماً أو عامين ولكنه آنذاك سيضطر على كل حال للبحث عن فتاة جميلة وذكية للأمير. هذا أمر الوزير الأول وأمر كبير القضاة ولا مفر منه. في هذه القضية لا يستطيع أحد أن يساعده غير محرمة. فاذا كانت هي لا تعرف الفتاة المناسبة، فليس لأحد على الأرض أن يعرف. الحقيقة أن علاقات الميرشاب بمحرمة قد ساءت في الآونة الأخيرة: فهو بالذات وكذلك رجاله حنثوا بوعودهم لها واقتحموا عدة مرات حفلاتها السرية. هذا مع العلم أن رجالا بالغي الشهرة في المدينة كانوا يترددون على هذه الحفلات وكانوا يحبذون ألا يراهم أحد هنا فما عادوا يخاطرون بالقدوم ثانية. هذا كله صد عن محرمة زبائن سمان وحرمها من أرباح طائلة. أجل، ليس هذا جيداً والحالة هذه...

ومع ذلك كان الميرشاب واثقاً من قوته ورساخة منصبه الى حد أنه ما كان يشك في أن محرمة ستنصاع له. أما اذا حدث ورفضت فانه يستطيع أن يرغمها!.. ناهيك عن أنه ثمة طعم حري باستدراجها هو المال والهدايا. مهما كلفه الأمر عليه أن يحظى بمساعدتها.

وقطع حبل أفكاره الحاجب الذي دخل ليعلن عن وصول محرمة غارتشي. خبأ الميرشاب السوط الذي كان مستلقياً بجواره تحت الوسادة وأمر بادخال المرأة.

كان البرقع يغطي وجه محرمة ولكنها رفعته ما أن خرج

الحاجب فسلمت على الميرشاب وأرادت بتواضع أن تجلس بعيداً عنه. ولكن الميرشاب خف للقائها هاشاً باشاً، رد على تحيتها وأجلسها بقربه. بدأ حديثه معها من بعيد مستفسراً بادىء ذي بدء عن صحتها.

– أمي رحمها الله،– تكلمت محرمة غارتش مبتسمة، – قالت غير مرة أن قواد الشرطة لا يسمحون للنساء بدخول دوائرهم، عداك عن أن يتنازلوا ويسألونهن عن الصحة. أما في زماننا فقد تغير كل هذا ولله الحمد... سيادتكم لا يسمحون لنا نحن الضعيفات العاجزات بالدخول اليكم سواء بالرجال وحسب، بل وتسألوننا أيضاً عن صحتنا. فحمداً ألف حمد! وواصل الميرشاب المزحة:

– في زماننا يستطيع أمثالك من العاجزات الضعيفات أن يحمين حماة الدولة ذاتهم! أما الآن فالى الجد! لقد دعوتك في هذا الوقت غير العادي حتى يبقى لقاؤنا في السر، حتى لا يعرف الخصوم عنه شيئاً. الآن لا يوجد هنا غيرنا ولن يسمعنا أحد فدعينا نتكلم بصراحة وبدون مراوغة.

– هل لي مائة رأس حتى أستطيع مراوغتكم؟

– أنت، كما أظن، مستاءة مني قليلا، أو بالأحرى من مرؤوسيي؟ لقد عرفت بعمائلهم بعد فوات الأوان. ولكن ذلك لن يتكرر أبداً. حمام كونجاك لك، فافعلي فيه ما تشائين. ولكن بشرط أن تساعديني أنت أيضاً.

واتضح لمحرمة السبب وراء دعوة الميرشاب: انه يحتاج اليها ولا يستطيع الاستغناء عنها. أدركت محرمة كل هذا فوراً وقالت:

– بأي شيء أستطيع أنا الضعيفة، كحفنة ريش، أن أساعد سعادتكم؟

وفهم الميرشاب الى أين ترمي.

ولكنني قلت، دعينا نتكلم بدون مراوغة! أنا أعرف ضعفك خير المعرفة... قال هو مبتسماً بسخرية. –اذا كانت ريشاتك من فضة وضعت على كل منها ياقوتة، واذا كانت

من ذهب، وضعت ألماسة. في هذه المرة كلمتي أكيدة، سوف أحفظ وعدي!

بهذا السخاء اعتزم الميرشاب أن يكافىء محرمة على خدماتها.

– أنا أسمعكم، – قالت محرمة بعد تفكير، –على ضوء العمل تكتسب ريشاتي ألوانها...

– أما العمل فهو التالي، – قال الميرشاب مخفضاً صوته. – يجب العثور على فتاة لصاحب الجلالة... على فتاة تكون حرية بأن تجذبه كمغنطيس...

– الفتيات في بلاد جلالته كثيرات وموردو الفتيات ليسوا قلة أيضاً. ما حاجتنا في أن نحرمهم مصدر رزقهم؟

وشخص الميرشاب اليها بذهول: ماذا بها، هل تتظاهر، أم لا تفهم فعلا؟

وقد فهمت محرمة الشيء الرئيسي بالطبع لكنه كان يلزمها أن ترغم الميرشاب على الانكشاف حتى النهاية، بغية أن تسلخ منه أكبر مبلغ ممكن.

في هذا الحين كان الميرشاب يتكلم:

– دعي عنك هذه الألاعيب التي ربما كانت تناسبك منذ عشر سنوات عندما كان الرجال المتيمون بك ينفذون جميع نزواتك ورغباتك، ولكن ذلك الزمن قد ولى. استمعي الي بانتباه: تلزمنا فتاة، ذكية، جميلة، مثقفة، حاذقة في كل أمر وعمل، حكيمة مثل عالم كبير. وهذه الفتاة يجب أن تقدم حتما للأمير.

– وماذا حدث، هل جلالته مريض؟ لا أستطيع أن أفهم.

– لا سمح الله، جلالته معافى ولله الحمد. ولكنه علينا، نحن خدمة المخلصين، أن نحرص دائماً على اتاحة فرص البهجة له، على تقديم المفاجآت السارة، لكي تمر أيامه في متعة وحبور. عقل وحسن الفتاة التي نبحث عنها يجب أن يشغلا جلالته عن مختلف الهموم والأفكار الحزينة. جميع الموردات وحتى باخشندة ذاتها، لا يستطعن حتى الآن العثور على فتاة كهذه. فهن ينظرن الى المظهر وحده، ولا

يهمهن أن تكون الفتاة ذكية أم غبية، بل ولا يستطعن فهم ذلك. أنت وحدك تستطيعين. وأنا سأساعدك بنصائحي. هل فهمت الآن؟

– فهمت، – أجابت محرمة باقتضاب.

وخيم صمت قصير بادر الميرشاب في خرقه:

– ما دمت قد فهمت، أجيبي اذن.

وتكلمت محرمة وهي تبتسم بدلال ومكر:

– ماذا أقول؟ ليس من السهل العثور على فتاة كهذه. يحتاج الأمر الى ريش وأجنحة ذهبية لكي يطير المرء عالياً. أما جناحاي الآن فمن القش والخرق.

انفرجت أسارير الميرشاب، أعجبته هذه الكلمات ومقهقهاً بصوت عال لكز محرمة في خاصرتها عابثاً.

– سنصنع الريش والأجنحة مما تريدين، يا عزيزتي محرمة! آه، لو كان هذا منذ خمس عشرة سنة لصرت عبدك. والآن هاك العربون، هذا ليس الا رغيفاً مسيخاً من عجنة لم تختمر. لعبت محرمة بكيس النقود الجلدي واعادته للميرشاب قائلة:

– لا أستطيع أكل المسيخ، ستلتهب مرارتي. الأفضل، قل لي الحقيقة، ففي الأمر سر ما...

أخذ الميرشاب الكيس واعطاه لها ثانية وهو يقول:

– هذا تكليف من صاحب السمو الوزير الأول، ينبغي العثور على الفتاة في هذا الشهر، لكي نقدمها للأمير في أول الشهر القادم. هذا كل ما أستطيع قوله. القضية ذات أهمية حكومية خاصة ويجب ألا يعرف بها أحد. سيغمرونك بالذهب اذا استطعت القيام بها.

فهمت محرمة أن القضية على قدر بالغ من الخطورة، فهمت ذلك من أجفان الميرشاب المسبلة و من لطفه الزائد في مخاطبتها.

– من أجل جلالته،– قالت محرمة الماكرة،– سأفعل كل شيء. ولكنني بحاجة الى وقت، الى كثير من الوقت حتى أجد الفتاة المناسبة وأحضر كل شيء لهذا الغرض.

– المهلة – حتى أول الشهر!
– أول الشهر القادم؟!
– سوف أخبر أنا صاحب السمو الوزير الأول، أما أنت فاعملي! ولكن هذا ليس كل شيء: يلزمني أيضاً أن أستشيرك في أمر خاص. أنت تعرفين ابنتي؟ انها ليست جميلة جداً، بل وعمرها صار كبيراً. لقد استأذنت صاحب السمو الوزير الأول... وكتبنا كتابها في أحد البيوت الجيدة، الأن نستعد للعرس والمشاغل كثيرة...
– خطوة مباركة! عسى أن تكثر عندنا الأعراس!..
– آمين!– قال الميرشاب بمهابة وتابع مخفضاً صوته: أنا تطرقت لهذا بغية... قصدي أن لا تضمي ابنتي شمسية صدفة الى قائمتك...
– ابنتكم؟!– اندهشت محرمة،– من عساكم تحسبونني، أنا، خادمتكم الوفية؟ أيعقل أن أغدر بولي أمري! ابنتكم!
– وماذا عن الأخريات؟ باخشندة مثلا؟
– لا أعرف شيئاً عنهن!
– غير صحيح!
– لا، والله، شيء كهذا لم يخطر على بالي. وهل من المعقول أن تقدم واحدة من الموردات على فعلة كهذه؟
– حسناً، حسناً،– قال الميرشاب مطمئناً بعض الشيء،– ولكنني أكلفك بهذا الأمر أيضاً. استعلمي عن كل شيء عند نساءك، اسأليهن، بشكل غير مباشر، ماذا تعرف هذه وماذا سمعت تلك... سنرى بماذا سيجبن. اذا وقعت ابنتي في قائمة احداهن، أخبريني حالا، وسأتخذ أنا التدابير اللازمة.
– هاك، خذي هذه القطع الثلاثين! كل النفقات على حسابي.
رفضت محرمة أن تأخذ النقود ولكن الميرشاب دسها لها عنوة ووعد من جديد بالا يتدخل أحد من مرؤسيه في شؤونها. في نهاية الأمر أخذت محرمة النقود وفكرت يفعمها

الرضى: من الجيد أن البدين في يديها. لقد ترتبت الأمور على أحسن وجه! وبعد أن وعدت بأن تنفذ كل مطالبه ألقت الملاية على رأسها، أسدلت على وجهها البرقع وانصرفت.
في الطريق الى الحمام راود محرمة خاطر مفاجىء: لماذا لم يوكل الوزير الأول هذه المهمة اليها مباشرة؟ لماذا يطلبون فتاة ذكية بارعة في كل عمل، وليس غادة جميلة وحسب تجارب السنين علمت محرمة أن الأمير ورجاله المقربين يفضلون أن تكون الفتيات يافعات، مليحات، عابثات. وهذا كل شيء، أما العقل والكفاءة فليس لأحد بهما شأن. كلا، ان الأمر ينطوي على سر ما بلا شك. ولن يكون من الصعب اكتشافه، بيد أنه يجب العثور على الفتاة اولا. ولكن أين تبحث عنها؟

١١

بيت الحاج أوباني كان يقوم في حي يحمل ذات الاسم ويقع على ضفة حوض أرباب، غير بعيد من مدرسة حاجي أسبغردان. بوابة البيت العالية كانت تطل على الشارع ويعقب البوابة ممر عريض يفضي الى خوخة الفناء الداخلي، الى اليمين من الخوخة نهض مبنى مسقوف شبيه بأسطبل كبير يفصله عن الممر طنف عالي. لكن هذا «الاسطبل» لم يكن مربطا للخيول، هناك الى الجدران والاعمدة قيدت كائنات من بني البشر. أعناقهم وأيديهم وأرجلهم كانت مكبلة بالاصفاد ــ وكانوا شبه عراة، حفاة، حاسري الرؤوس يلقي منظرهم في القلب الشفقـة والـروع. بعضهم كان خانعاً مسحوقاً يئن بهدوء وبعضهم يتخبط، يبكي، يصرخ ويجمح وهو نفسه لا يدري الى أين.
كان هذا مستشفى المجانين. وقد افترض انهم هنا يداوون مرضى العقول، يعالجونهم، لكن هؤلاء البؤساء كانوا في الواقع مهملين، متروكين لشقائهم وأنفسهم، لا يعتني بهم أحد ويعاملون كما تعامل البهائم. طعامهم كان رغيف يابس وجرعة ماء غير مغلي، فراشهم ــ الأرض الرطبة

القاسية والأغلال تقيدهم في الليل وفي النهار. واذا اضفنا الى ذلك انهم كانوا يجلدون بالسوط يوميا فان لوحة الآلام تمسي أشد روعاً وهولا. من هم هؤلاء الناس، وبماذا كانوا يشتغلون قبل أن يقعوا في هذا الجحيم – لا أحد يدري: كلمة واحدة كانت توحد ببينهم: «ديوانا» أي مجانين.

الى هذا البيت ذاته تقرر أن يدخل حيدرقول. بادىء الامر توجه الى هنا قاري شريف. جاء الى صاحب المستشفى وسرد عليه قصة كاملة: ادعى أن ابناء بلده من ولايه كجدوماك جاؤوا اليه بقريب وتركوه على عهدته. فيما بعد تبين أن القريب ليس في عقله، يخلط في الكلام ويتخبط. يرى الاطباء أنه لا أمل في شفائه، ولكنه، هو قاري شريف، يثق بسماحة الحاج وبمهارته في التطبيب ويثق أيضاً بكرامات هذا المنزل... وعليه فحبذا لو يتكفل الحاج بمعالجته، او يتعهد بالمريض ويمسكه في مستشفاه شهرين على الاقل. فاذا شفي، كان به ولله الحمد. واذا لم يشف فان قاري شريف سيسلم بالمقدور ويأخذ قريبه على كل حال.

كان الأجر الذي اقترحه قاري شريف لقاء الاعتناء بالمريض معتبراً ووافق الحاج.

في المساء توجه الاصدقاء الثلاثة – قاري شريف قاري عثمان وأشرفجان الى منزل الحاج أوباني يسندون حيدرقول من كلا الجانبين.

مع اقترابهم من مستشفى المجانين بات حيدرقول يمثل دور المجنون.

– الصدق أم الصديق!– هتف هو.– النجوم من السماء غمزتني، افهمتني أن الثلج سيسقط في بخارى غدا في الصباح. أجل، أجل سيسقط الثلج والحر سينخفض. وفي مدرسة ميرى عرب لن يخرج من القبة البخار. من يرى الميرشاب يتحجر قلبه... ومن يتجرأ ويدعوني «مجنونا» سيجازيه الميرشاب بمائتي جلدة من سوطه...

ولدن المستشفى صرخ حيدرقول بوحشية:

– ايه، قاري شريف، الى أين جئت بي؟ وعدت أن

تأخذني الى العروس، وماذا أرى؟ اذا كان هذا هو بيت العروس، فأنا أرفض أن أتزوج! كلا، كلا لن ادخل الى هنا... لا أريد الزواج، اتركوني!

ورغم كل ما أبداه حيدرقول، متظاهراً، من مقاومة تمكن الاصدقاء من دفعه الى الفناء. هناك في هذا الوقت كان الحاج ذاته قاعداً على المصطبة مع ضيوفه. باشارة منه أطبق الخدم على حيدرقول. حملوه الى المصطبة وأجلسوه على الدرج. وصعد الى المصطبة أيضاً الأصدقاء الثلاثة عاقدين أيديهم على بطونهم في وقار، ألقوا التحية على الحاج وضيوفه وجلسوا بتواضع على جنب.

وتكلم الحاج:

– آه، هذا أنت، قاري شريف، جئت بقريبك المريض؟ حسناً، حسناً! وما اسمه؟

فأجاب قاري شريف مرتبكاً بعض الشيء:

– اسمه... اسمه ديهقان باي!... هو ديهقان*!.. رجل جيد جدا..

– كلا أنا لست ديهقان باي، انني ديهقان فقير – تدخل حيدرقول في الحديث مشددا في النطق على كلمة «باي». – هذا القاري شريف يريد أن يصنع الجميع بايات، اعطه الحق في ذلك وسترى! ولكن أين الامام؟ من سيقرأ فاتحة الخطوبة؟

قام الحاج من مكانه ببطء وقال:

– ها أنا سأعقد قرانك الآن. اخرج الحاج من تحت الحشية سوطاً واتجه نحو حيدرقول.– بسم الله الرحمن الرحيم، ابتعدي، أيتها الأرواح الشريرة، غوري، ايتها الشياطين الملعونة، اني أعوذ بالرحمن منك! ابتعدي، ابتعدي الى خلف جبل قاف!

نطق الحاج بكلمات التعويذ وسفق حيدرقول بالسوط على ظهره فصرخ هذا من الالم وراح يشتم:

---

* ديهقان – فلاح (تطلق على الفلاحين في آسيا الوسطى).

– لماذا تضربني، أيها الملعون؟ اذا كنت اماماً، هات اقرأ الفاتحة.

لم يول الحاج أدنى اهتمام لهذه الكلمات. ظل يلغو ويبربر بكلام ما، صارخا في بعض الأحيان «كوف، سوف» ومكيلا لحيدرقول الضربات بالسوط. استمر على هذا عدة دقائق وأخيراً قال «آمين» ورجع الى مكانه.

اما حيدرقول الذي كان يمثل دور المجنون فما فتىء يشدد من لعناته على الحاج ولم ينس أن يخص ببعضها الميرشاب وغيره من الموظفين الكبار. وعندما تركه الحاج لحاله التفت الى قاري شريف وتكلم مغاليا في الاسفاف.

– نعم العروس عروسك هذه يا قاري شريف! وامامك أيضاً برع في قراءة الفاتحة. آمل أنه صار بوسعنا الآن أن ننصرف. لم يعر قاري شريف لكلماته اذنا صاغية والتفت الى الحاج سائلا:

– قولوا بالله يا سماحة الحاج، هل من أمل بشفائه؟

– الله أعلم! سنبذل نحن كل ما بوسعنا... سنقرأ عليه، ونتركه بعض الوقت في مصلى الحاج أوباني. قد يشاء الله – ويشفي.

– ساعدونا، يا سيدي الحاج، ساعدونا نحن البؤساء وأنا سأفعل لاجلكم كل شيء. اننا ورفاقي لن نترك المريض دون قطعة خبز... واذا شفي سنجازيكم جزيل الجزاء... وهاكم هذه كدفعة أولى...

نهض قاري شريف ودس في يد الحاج خمس عشرة قطعة فضية بخارية. فرفض الحاج في البداية أن يأخذها، تمنع عنها ولكنه أخذها أخيراً، فقرأ دعاء، ثم كما يجب مرر يديه على وجهه حمدا لله. بعد ذلك أمر الخدم بأن يأخذوا حيدرقول.

– هيا، يا عريس، انهض! – قال له واحد منهم. – لقد عقد قرانك وعليك الآن أن تذهب الى العروس انها تنتظرك خلف ستارة الزفاف. سنقودك نحن اليها، هيا.

أذعن حيدرقول ونزل عن المصطبة. اسنده الحجاب من الجانبين واقتادوه الى تحت السقيفة. طفرت الدموع من عيني قاري شريف، أخذت به الشفقة على حيدرقول البائس وانعصر قلبه. ما اتعس حياة هذا الرجل. فصلوه عن زوجته وابنته، عذبوه، فقد البيت والاسرة وكل شيء. والآن يتصيدونه، يطاردونه كأنه وحش شرس.

ضيقوا عليه الدنيا حتى صار مستشفى المجانين الملاذ الوحيد للنجاة من استبدادهم فاضطر حيدرقول للاختباء فيه. لا عدل في هذه البلاد ولا انصاف، ليس فيها من تشكو اليه ظلامتك، من تجد عنده الحماية والعون!

وجروه الى الداخل.

– قاري شريف!– صرخ حيدرقول من الممر بصوت عال،– سأنال هناك خلف الستارة ما استحق لي وأعود اليك، كن مطمئناً!

قام الأصدقاء الثلاثة وودعوا الحاج. في الطريق ألقوا نظرة على المكان الذى تكدس فيه المرضى المساكين تحت السقيفة. كان المكان شبه مظلم. اشتعل سراج واحد فقط كان دخانه أشد من نوره. في الضوء المرتعش تراقصت ظلال سوداء تشابكت، تفككت، تقلصت متشنجة، تطاولت، ازدوجت، تكاثرت وبدا أن اعداداً غفيرة من الناس احتشدت تحت القناطر المظلمة.

نزعوا عن حيدرقول روبه وقميصه ودون أن يعيروا اهتماماً لصراخه قيدوا قدميه بالأصفاد ووضعوا على عنقه طوقاً من الحديد.

عزت على أشرفجان رؤية ذلك، لم يطق صبراً وانخلع من مكانه يريد أن يهجم على المعذبين وأن يطالبهم بأن ينزعوا كل هذا ولكن قاري شريف وقاري عثمان أمسكا به وأوقفاه. ان حيدرقول، همسا له هما، أقدم على هذا من أجل نجاته والا لكان رفض البقاء هنا من نفسه، ينبغي الصبر، ينبغي الانتظار والصبر.

وبدا كأن مزاج الاصدقاء انتقل الى حيدرقول فرفع عقيرته فجأة:

— علام جئتم بي الى هنا؟ تظنونني مجنونا؟ لا، لا، لا أنا لست مجنوناً. بوسعي أن اثبت ذلك للجميع. هذا لو أزدت طبعاً!— وأضاف بغتة بصوت بلغ الغرابة في هدوءه:— ولكن حسنا، سنرى عما سينجلي كل هذا! ابتهجوا الآن، يا معذبي!

طمأن هذا القول المجازي بأشرفجان بعض الشيء فهدأت نفسه. أومأ الاصدقاء الثلاثة لحيدرقول مودعين وانصرفوا. أما الخدم فتركوا «المريض» لحاله وقد رأوا أنه يجلس مستكيناً.

آنذاك راح حيدرقول يجيل النظر فيما حوله متفرساً. عمودان ضخمان سميكان كانا يسندان السقف وقرب العمودين والجدران انطرح المرضى في أوضاع مختلفة. البعض منهم جلسوا متقاربين غارقين في أفكارهم شاردين كمن زهد بالدنيا، وآخرون رقدوا منكفئين على وجوههم أو متقلصين وكان بينهم من وقف يرتعش ويختلج في حركات وحشية لا ارادية.

لدن الجدار وغير بعيد عن حيدرقول قعد شابجميل الطلعة. الدموع كانت تترع عينيه وكان ينظر بحزن وادراك تام الى حيدرقول. وقرأ هذا في عيني الشاب الشفقة والرثاء.

«أيصدق أن بائساً آخر مثلي يجلس هنا؟— تفكر حيدرقول.— أو لعل الاعداء وضعوه هنا عن قصد؟ يقال أن المجانين لا يبكون وهذا تملأ الدموع عينيه. علي أن اتحقق، أمجنون هو أم لا».

وفيما كان حيدرقول يفكر بما عليه أن يفعله صرخ أحد المرضى بالكلمات الاولى من سورة قرآنية وتوجه بالكلام الى حيدرقول:

— سماحة الشيخ، اقيموا الصلاة.

— لقد فعلت ذلك من زمان — قال حيدرقول بثقة.— الجميع أدوا الصلاة أما أنت فتأخرت لسبب ما.

– ايه... واذن فقد صليتم؟ وأنا انشغلت بفتح الفال ولم أسمع.

ابتعد الرجل عن حيدرقول وراح يصلي على عجل.

واراد حيدرقول أن يتكلم مع الشاب الذي قرب الجدار ولكن المجنون الواقف بجواره انحنى صوبه فجأة وزعق لافظا الزبد من فمه:

– وا صديق، أيا صديق! ثم طفق يغني اغنية وحشية محدقاً ابان ذلك في حيدرقول كأنما يدعوه للانضمام اليه.

في ذات الوقت أنّ أحدهم، قهقه آخر، صاح ثالث وثارت تحت السقيفة ضجة لا يمكن تصورها.

استمر الحال على هذا المنوال عدة ساعات. تردد الضجيج في رأس حيدرقول طنيناً مزعجاً. كعى عن التركيز على أية فكرة. وأخيراً انهك المجانين ونفدت قواهم، خر بعضهم على الارض مباشرة واتكأ آخرون على الاعمدة... رويدا رويدا همد الجميع واستلموا لنوم قلق. احترق الزيت في السراج وكف عن الوميض، وحلت ظلمة حالكة لم يكن يخل بها الا ضوء فانوس خافت تسلل من فسحة الفناء السماوية منيراً مدخل هذا البيت، مأوى الآلام والأمراض.

كان للظلام والسكينة تأثيرا حسناً على حيدرقول، ارتاحت بعض الشيء اعصابه المشدودة وانشرح صدره حتى أنه اطلق تنهيدة فرج عالية. سمع الفتى ذو العينين الباكيتين هذه التنهيدة فأقدم على الكلام:

– ماذا، يا محترم، ألا تنام؟ هذا الحال دائمة هنا، في البداية لا ينام المرء عدة ليالي بسبب عدم اعتياده. ولكنه عليك أن تتمالك نفسك والا فانك قد تجن من الأرق...

وفي الحال شرع حيدرقول يمثل دور المجنون:

– كلا، أنا لست مجنوناً، كلا! أنا عريس، و كنت ذاهباً الى عروسي وفي الطريق عرجت الى هنا... في زيارة

خاطفة... اعتصم بالصبر وستنل أنت أيضاً ما يختفي خلف ستارة الزفاف.

صمت الفتى متفكراً بأمر ما وبعد ذلك قال:

– استمع الي يا محترم! أنا هنا منذ ثلاثة أشهر بالتمام... طالعت الكثير ورأيت وفهمت الكثير، وتعلمت الكثير... فما من عمل آخر هنا غير ذلك... وعليه فأنا الآن أميز العاقل عن الجنون أحسن من سماحة الحاج. وأنا لا أصدق أنك مجنون، مع أنك تجيد تشخيص الجنون... أنت سليم العقل وقد اتيت الى هنا بمحض ارادتك، أو ارغموك كما ارغموني على ذلك، اتهموك بالجنون باطلا...

فاق ذهول حيدرقول كل حد، ولا غرو فها هو انسان سليم العقل تماماً قضى في هذا البيت الرهيب ثلاثة اشهر كاملة واستطاع وهو المقيد المسلوب الحرية لا أن يحافظ على رشده وحسب، بل وتعلم أيضا كيف يفرق بين العاقل والمجنون. ولكن كيف فهم أن حيدرقول سليم العقل؟ ماذا وشى به، كلماته، حركاته؟ هل عجز عن التظاهر كما يجب؟ ولكن الآخرين لم يفطنوا! كيف له ازاء ذلك أن يتصرف؟ من هو هذا الشاب؟ هل يثق به؟ وماذا رماه في هذا البيت المنحوس؟

مخرت هذه الافكار ذهن حيدرقول كالاعصار ولكنه لزم جانب الصمت أما الشاب فتكلم من جديد:

– لا تخف مني. أنا لا أعرف عنك شيئا واذا كنت لا تريد أن تحدثني عن السبب الذى جاء بك الى هنا، فلا داعي. أما أنا فأحتاج لمن اكشف له عن سري... انني اتوسل الى الله منذ زمان كي يرسل لي شخصاً استطيع أن افتح له قلبي وبعد ذلك ليكن ما سوف يكون. ليحق حكم القدر. حسبي فقط ألا يبقى سري مخفياً عن الناس الى أبد الابدين... وها هو الله قد رثا لحالي وأرسلك الى هنا، الي... لقد رأيت حالا أنك لست مجنوناً...

– خفض صوتك، قاطعه حيدرقول.– أنت رشيد وقوي الملاحظة ولكن لم أنت متهور على هذا الشكل؟

– ارجو المعذرة، – قال الشاب مخفضاً صوته. – كم بلغ بؤسي وانسحاقي، كدت في هذه الظلمة الحالكة، في وضعي الرهيب أن أفقد الأمل واذا بي أقابل رفيقاً في التعاسة... فكيف كان لي ألا أفرح؟ كأن نصف الحمل تقريبا قد انزاح عن كاهلي... فنسيت نفسي وتكلمت بصوت عال... ولكن قل، قل بالله أنني حزرت؟

وفاضت عينا الشاب بالضراعة.

– أنا لست مجنوناً. هناك سبب أرغمني على اللجوء الى هنا. سيأتي وقت وأسرد عليك قصتي. أما الآن، فهات حدثني كيف وقعت في هذا المكان وأنت العاقل تماما؟

– قصتي هذه طويلة جداً. لقد افترى علي أبي ذاته. والآن يعتبرني الجميع مجنوناً...

– أنا لست فضوليا ولا أحب الفضوليين ولكنني لا أستطيع منع نفسي عن أن أسألك: كيف يمكن أن يحدث هذا ويقذف بانسان أبوه؟ هل ثمة من هو أحن وأقرب للمرء من أبويه اللذين تحدر من صلبهما؟ أيعقل أن يقضي أب على ابنه بعذاب كهذا؟ أن يرميه في مسكن الاهوال والبلاء هذا؟!

– أجل، أجل، هذا ما حدث، للأسف.

سكت الفتى وجلس طويلا يتفكر. بعد ذلك رفع رأسه وراح يتكلم:

– أنا من قرية غالا آسيا التي تقوم على السكة السلطانية بين وابكينت وبخارى. قد يحدث لك يوماً وتمر قربها... اسأل عن بيت نزارباي الأسبجلاب – تاجر الخيل – وسيدلك أي شخص. سترى بوابة ثرية الزينة، يجري أمامها جدول وعلى كل من جانبيها مصطبة كبيرة من الطين. خلف البوابة ستجد نفسك في فناء فسيح عامر – اضافة الى البيت السكني الكبير ذى الشرفات والبلكونات الكثيرة، باسطبل للخيل وعنابر وزريبة.

أبي كان مشهوراً ذات يوم بأنه مقامر يلعب الورق والاكعاب. كل ثروته كانت تتكون من زوجين من الاكعاب

وشدتين من الورق ورأس واحد فارغ. أمي ابنة امام القرية. رآها أبي مرة فأحبها وهام بها حتى أنه كان يقضي أياما وليالي لا يفكر الا بوصولها. ولكن جدي، والد أمي، وكان رجلا تقياً وحكيماً، أبى أن يزوج ابنته من مقامر ورفض طلبه. لم يخمد هذا حمية أبي ولم يردعه، جر شقيق أمي الى لعب الورق وذات مرة فقد هذا كل حياء وضمير وخسر اخته. حيال هذا اضطرجدى على اعطاء وعد بعقد هذا القران. لكنه وضع لذلك شرطاً: كان على أبي أن يترك القمار وأن يجد لنفسه عملا شريفاً ومفيدا. ووعد أبي بذلك. قرر أن يعمل تاجر خيول، يشتريها ويبيعها. استحسن جدي الامام هذا العمل وآمن بصدق نوايا أبي، وافق على اعطاء ابنته له، أقام عرساً فاخراً وأخذه صهره الى بيته.

لكن السعادة لم تدم طويلا. بعد عشرة أيام عاد نزار باى الى سالف سيرته: صار يشرب ويقامر ويضرب أمي. وليته اكتفى بهذا، فهو لم يتورع حتى عن ضرب جدي، الامام العجوز المبجل. واضطر جدي لان يهجر البيت الذى ورثه عن أبيه ثم سرعان ما توفي عاجزاً عن تحمل الفضيحة. بعده بفترة وعلى شكل غير متوقع أبداً مات خالي أيضاً: استغرب الجميع هذا غاية الاستغراب فهو لم يكن يشكو من مرض، كان سليماً تماماً وهمس الناس فيما بينهم أن أبي هو الذي قتله: فهو، كما قيل، أراد أن يضع يده على جميع أملاك حميه، وأن يغنم بارثه دون شريك.

تركتني أمي يتيماً عندما بلغت الثامنة من العمر وكان أخي الاكبر في الحادية عشرة. انني لن أنسى أبداً تلك الدقائق عندما كنت وأخي جالسين قرب فراش أمنا المحتضرة، وكانت هي تمسد على رؤوسنا ونحن نبكي. دخل أبي الغرفة ولما رآنا نبكي صرخ علينا متوعداً وأمرنا أن نصمت. جمدنا من الفزع، كنا على معرفة جيدة بقسوته فقد حدث لنا غير مرة أن اختبرنا قوة قبضتيه على جسدينا. وكنا نعي على الرغم من حداثة سننا أن شراسة

وضربات أبينا الخليع السكران دائماً، هي التي ستوصل أمنا الى القبر.

وبصوت واهن يكاد يخبو تضرعت أمنا آنذاك:

«لا تعذب ولدينا المسكينين بعد موتي... أشفق عليهما... فهما مطيعان جيدان... لقد اعطيتهما كل حبي... كن لطيفاً معهما، عاملهما بالحسنى... انني اتركهما على عاتقك!»

رحنا نبكي من جديد سامعين كلمات أمنا الحافلة حباً وحناناً. أما أبونا فقال ان والدتنا قرأت الكثير من الكتب فاختل عقلها ولهذا تثرثر هراء ولا تعرف ما تقول، أأرغمنا على الخروج معه والذهاب الى القسم الرجالي من البيت حيث كان اصدقاؤه المقامرون بانتظاره. مكثنا هناك قليلا ثم وفقنا أن ننسل بشكل غير ملحوظ وعدنا الى أمنا. لكنه لم يقدر لنا أن نسمع كلمة أخرى من شفتيها. كانت غائبة الوعي، وهكذا أسلمت الروح وهي في غيبوبة.

ومع ذلك بدا وكأن موت أمنا قد حرك في والدنا بعض المشاعر. صار يعاملنا معاملة ألطف وأرق. كان يسير كئيبا، وكان يبكي أحيانا في غرفته ولا يسمح لاحد بالدخول اليه. ولكن هذا لم يدم طويلا، فسرعان ما ظهر رفاق الورق ورجعت حليمة الى عادتها القديمة. صحيح ما يقال عن أن ما يرضعه المرء مع حليب أمه يبقى معه حتى موته. وكان من العسير أن يتغير يوماً طبع نزارباي المفطور على السوء، وما كنا نأمل بذلك.

كانت حياتي وحياة أخي مع أبينا الفظ القاسي مريرة. كان هو يلعب الورق أياما بطولها، فاليوم يخسر كل شيء، وغداً يستعيد ثرواته. لم يكن لجشعه وقسوته حد. كان يقول: «اذا رأيت من يقف على شفا الهاوية – ادفعه اليها» وهذا كان مبدأه، لم يكن يجزره جازر واذا حدث له وغلب أحداً كان يعري ضحيته تماما حتى وان كان خلف هذه الضحية أطفال جائعون. من أجل بلوغ مآربه لم يكن يأنف وسيلة،

كان ينهب ويقتل. ولم تكن تجارة الخيل الا ستارا يخفي خلفه عمله الحقيقي: كان ببساطة لص خيول.

حين ارتدع عن غيه قليلا بعد موت أمنا، قرر أن يقتني أغراضاً ثمينة وأملاكا غير منقولة. اشترى أراضي وطواحين وخانات، تعاطى الربى، بات ينبري لكل عمل من شأنه أن يعود عليه بربح. أصدقاؤه نصحوه بالزواج ثانية ولكنه رفض. كان يعاشر العاهرات ويعتدي على نساء الغير... ولم يكن يتورع عن أية سفالة مهما بلغت... وكان يقترف كل هذا على مرأى مني ومن أخي.

وكانت لنا خالة، امرأة متعلمة مثقفة وحسنة الاطلاع. كانت كثيراً ما تأخذنا الى بيتها، تعلمنا القراءة والكتابة، تهدي عقولنا وترشدنا. بمساعدتها اصبحنا نميز بين الخير والشر، بين مكارم الاخلاق ومساوئها. وكنا ندرك جيداً من هو أبونا وماذا يمثل. ربتنا خالتنا تربية سليمة وقويمة وكان سلوكنا صالحاً، كنا مهذبين مؤدبين نحسن معاملة الناس ونحترمهم. وكان الجميع يتطلعون الينا ويقولون مستغربين: «نعم الابنان، وأى أب!»

ولكن ما بالي صرت أتباهى، بوسعك عن حق أن تحسبني مجنوناً!.. فالفشارون هم أتفه الناس قاطبة. وعموماً، فقد يكون حب التباهي عادة ورثتها عن أبي. فهو كان فشاراً لا حياء عنده! أرجو المعذرة، يا أخي، فأنت، لا غرو، قد ضقت ذرعاً بثرثرتي... ولكن قلبي مثقل بالأسى والكروب... وكم عانيت من العذاب... هل تذكر، بيدل يقول: «ما أن يرى المعذب شخصاً حتى يئن!» وها أنا ذا، رأيتك ولا أقوى على ضبط نفسي...

شب أخي وصار فتى فارع الطول جميلا. ومع أنه تلقى بعض العلم الا أنه بقي في القرية وصار يشتغل في الزراعة. كان العمل في الزراعة يستهويه منذ الطفولة، وكان يعمل في حقول أبينا أسوة بالاقنان، وحين صلب عوده أوكل اليه أبي كل شؤون الزراعة. اشتغل بدأب وجد وكانت الارض تعطي محصولا وافرا، وتعود بمداخيل طائلة. أما بستاننا

في غالاآسيا فاشتهر بصفة خاصة: بلغ صيته وابكينت ووصل الى بخارى ذاتها. كان الناس يأتون من كل حدب وصوب طلباً للاغراس. وكان أبي في كل عام يرسل الى السوق أعداداً معددة من سلال العنب والتين والرمان... ويكسب مالا كثيراً. أما أنا وأخي فما كان يلحقنا شيء الا تانغا أو اثنتين تقعان لنا في يوم البازار لسد مصاريفنا الصغيرة.

ذات مرة نوه أبي، فيما يعد مع أخي ايراداً معتبراً، بأنه يوفر المال للعرس، قال انه ينوي أن يزوج أخي في السنة القادمة.

أما أنا فلم أقدم على العمل في الزراعة وصرت معاون كاتب كان يعمل عند نائب القاضي. كنت أكتب مختلف العرائض، أصيغ بمساعدة الكاتب مستندات البيع والشراء وأتقاضى لقاء عملي خمس تانغات في الشهر. كل النقود حتى آخر درهم كنت اعطيها لابي.

كنا وأخي على استعداد لأن نعيش شبه جياع لان نسير نصف عراة، ألا نملك درهماً واحداً، وحسبنا فقط ألا يضربنا أبونا، ألا يعذبنا. لكنه، مثلما كان يعذب أقنانه وفلاحيه الذين يعملون لحسابه، كان يعذبنا أيضا ويضربنا بسبب وبلا سبب: مرة يتحجج بأمر تافه حقير فيماحكنا ويتحرش بنا، ومرة يأتي سكراناً أو شارباً الأفيون ولا نسلم أيضاً من شره. خلاصة القول اننا ما كنا نعرف الهدوء يوماً ولا ساعة.

وها قد حال الحول على ذلك اليوم حين وعد والدنا بأن يزوج شقيقي. كان أخي قد بلغ العشرين من عمره وصار شاباً وسيماً، عريساً تتمناه كل فتاة. دعا أبي الخاطبات وسألهن أن يبحثن عن عروس مناسبة. لكنهن ما كدن يزرن بيتاً أو بيتين على الأكثر حتى عثر هو على فتاة. تبين أنها ابنة نائب كبير القضاة في قريتنا الذي كان كثيراً ما يشارك والدي في لعب الورق. كان للقاضي بستان في القرية يخرج

اليه مع أسرته، وزعم أبي أنه رأى الفتاة هناك وقال انها مليحة...

وما سأل والدنا أخي ان كان موافقاً أم لا، وراح يعد العدة لحفلة الزفاف. في فترة وجيزة انجز كل شيء، أقيم العرس ودخلت العروس بيتنا. لكن ليلة الزفاف نفسها خيبت أخي. تبين أن العروس لم تكن عذراء، ناهيك عن أنها متعجرفة ووقحة. وحين فتح شقيقي فمه وهمّ أن يقول لأبي عن ذلك، أمره ذاك أن يصمت.

مرت بضعة أيام على العرس واقتادني أخي الى الحرملك بنية أن يعرفني بزوجته. وقعنا عليها واقفة أمام المرآة تزجج حاجبيها «بالاسمة»، كانت تحني رأسها هنيهة ثم تعود وترفعه ولا تجود علينا بنظرة. تفرست أنا في العروس عن كثب وأيقنت أن جمالها مصطنع، كل الشامات على وجهها من وضع يديها، بشرتها كامدة بطبيعتها ولكن البودرة والاصباغ البيضاء تخفف قليلا من حدة دكنتها. وكان من الصعب كذلك التصديق بأن غدائرها طبيعية، فقد كانت طويلة بشكل يثير الريبة. كانت لعوباً الى حد يفوق كل حد: فقد زورتني فيما ترد على تحيتي بنظرة من زاوية عينها عابثة وجريئة بحيث جعلتني ارتبك. لاحظت هي ذلك فاطلقت ضحكة رنانة وقالت لزوجها: «ما أشد الشبه بينك وبين أخيك، من الملاحظ فورا أنكما ريفيان».

ولم أشرب في ذلك اليوم من يدي هذه المرأة حتى كوب شاي، بل ولم تطأ قدمي عتبة غرفتها بعد ذلك أبداً.

انقضى نصف عام وطرأ على أخي في هذا الوقت تغير محزن: أخي الذي كان لأشهر قليلة خلت قوياً معافى يتفتق حيوية وشبابا، ذوى الآن، اصفر لونه وضمر وجهه. فيما مضى كان مشتغلا في الحقل أو البستان، يمازح الفلاحين دائماً كان يغني جذلا، أما الآن فصار يتجنب الناس، يسير صامتاً وعابساً... على أسئلتي لم يكن يرد، كان يتهرب ويقول أنه متوعك الصحة وحسب.

وذات مرة جاءني بعض أصدقاؤه، قالوا أنهم لاحظوا

منذ زمان أن حاله ليست على ما يرام وراحوا يتهمونني بالسبهللية نحو أخي: فاذا كان لا يريد أن يكشف لهم عما يضنيه فانه لن يكتم ذلك عني، فأنا شقيقه مهما يكن. هنا بلغ قلقي على أخي أشده وقررت أن أتكلم معه.

ذات ظهيرة وكان هو جالساً بمفرده قرب حوض الماء اقتربت أنا منه ورحت استجوبه بالحاح عما يجري له. في البداية راوغ هو وتهرب، قال انه لا يملك ما يقوله، تحجج بمرض غامض لا يفهم كنهه، لكن شجاه فاض أخيراً وانفرطت دموعه. والدموع تخفف من اثقال النفس وتلين القلب، وبعد أن بكى حتى شبع فتح أخي مغاليق قلبه واعترف أن زوجته هي العلة في كل شيء.

«كان خيراً لي ألا أتزوج... فزوجتي لم تجلب لي غير التعاسة واني لاخشى أن أموت بسببها...»

«ما هذا الذي تقول؟! أفصح بحق الله!»

تلفت أخي مترقباً متخوفاً من أن يكون ثمة من يسمعنا وبعد ذلك شرع يتحدث باسهاب:

«ليس الا بمرور شهرين على عرسنا بردت زوجتي تجاهي ثم لم تلبث أن كفت عن التحدث الي كلية. لم اعط أنا في البداية كبير بال للامر فهي لم تكن تعجبني أيضا. لكنني لاحظت فجأة أنها تتغازل مع والدنا، تقهقه وتتغنج في حضوره وذات مرة طاشت كليا فارتمت على عنقه... وكنت أنا واقفاً قربها. كاد قلبي أن يطير من صدري! غير أنني لم أكن أفهم كل شيء بعد... فلم أحك شيئاً لأحد، ضبطت نفسي وقررت أن أراقبها. في البداية صرت في الليالي اتطرق بالحديث الى أبي، نعته بأقبح الاوصاف، قلت انه بخيل، جشع قاسي وأسميته عجوزاً عنيناً، وحامت هي عنه، اغتاظت مني لامتني وانبتني. وفيما بعد لجأت أنا الى الحيلة.

في أحد أيام البازار قلت لزوجتي أنني ذاهب الى سوق وابكينت وأنني لن أعود الا مساء. لم تستطع هي كبت غبطتها لدى سماع هذا الخبر وطلبت مني أن أجلب لها حناء

وعلكة. وعدتها أنا وانصرفت. لكنني بالطبع لم أذهب الى البازار بل تسللت عبر البساتين والروشة وعدت الى البيت، من البستان الهادىء الواقع خلف بيتنا صعدت الى السطح واتخذت موقعاً أرصد منه كل ما يجرى في الدار. كان الحر شديدا والشمس كانت تصب حمماً لكنني لم أكن اشعر بذلك، بل على العكس كنت أرجف من البرد، يداي ورجلاي صارت باردة مثل الجليد...

كانت الزوجة في الفناء تحمس شيئاً ما على الموقد وتدندن طربة. في القريب فرغت من الطهي ودخلت الى البيت. من هناك عادت متأنقة ترفل في الحرير والمخمل، مسرحة الشعر مكحولة العينين. في هذه الدقيقة دخل أبي من الشارع وأوصد خلفه الباب بالرتاج. هشت زوجتي الى لقائه فرحة فعانقها هو ودخلا معاً الى البيت. ضرب الدم في رأسي من الغضب، في اللحظة الاولى أردت أن أقفز عن السطح وأن افضح الخائنين متلبسين بعارهما!.. ولكنني تفكرت فاحجمت ومكثت في مكاني دون حراك. بعد قليل خرجت هي فأخذت المحموسة وكنت أنا اسمع كيف يأكلان في الغرفة، كيف يشربان ويضحكان...

لست أدري كم مر من الوقت ولكنهما ظهرا في الفناء من جديد وسمعت كل حديثهما بوضوح. «الى متى سوف نعيش هكذا في الخفاء، في خوف دائم ولقاءات عابرة؟ — سألته هي. — أيعقل أننا لن نستطيع أن نصبح زوجاً وزوجة على المكشوف؟» وأجابها أبي: «الامر محرج، فماذا سيقول الناس؟! بل وحالنا هذه أفضل، اذ من الامتع أن نكون دائماً عاشقين».

وتوادعا قرب البوابة على وعد بأن يأتي أبي في صباح الغد، يبدو أنه لم يكن لوجودي عندهما أية أهمية. نزلت عن السطح وهمت على وجهي في حقل برسيم وهناك انكفأت منطرحاً على الأرض مباشرة. مزقتني أفكار مضنية: كيف يجوز مثل هذا التصرف، علام هذا الخداع الرهيب؟! وفيما بعد عرفت أنه كان لابي علاقة بهذه المرأة حتى قبل زواجي

منها. وهو ببساطة قد أتى الى بيته بعشيقة دائمة، بل وستر ذلك بأنها زوجة ابنه.

لم أرجع الى البيت الا بعد أن حل المساء. سألتني الزوجة ان كنت جلبت الحناء والعلكة فقلت انني نسيت، شربت شايا ورقدت للنوم. ومنذ ذلك اليوم منذ أن تجرعت كأس عاري المرة صرت أذوي وانقلبت الى مجرد طيف. انني ببساطة لا أريد العيش، لقد احترق قلبي وانطفأ... في البداية فكرت أن أكاشف الناس، أن أخزى أبي وان أطلق زوجتي، لكنني أدركت أن ذلك لن يجدي نفعاً، وأنني لن أقوى على والدي. فالسلطة كلها للملاك، وكل رجال السلطة من القاضي وحتى الميرشاب والمختار وغيرهم سيقفون في صفه. كلماتي ذاتها سيردونها على نحرى، فهو قوي وهم يخافونه، وأنا ضعيف عاجز، أنا لا شيء...»

هالني ما سمعت من أخي ومع ذلك حاولت أن أجبر خاطره وأن أسرى عنه، وفي طي حديثي قلت أيضاً انه خير له ألا يتجابه مع والدنا. عليه أن يصبر مدة أخرى، أن يجمع بعض المال وأن يغتنم فرصة سانحة ويهرب الى مكان بعيد بعيد. وهناك في مكان ما هادىء ومعزول يمكنه أن يبدأ حياة جديدة. أصغى أخي الي بكل هدوء وبدا أن حججي قد اقنعته. لكن شهراً مر وبعض الشهر وذات ليلة شنق نفسه على شجرة جوز في البستان. في الصباح رأيته معلقاً، نزعت الانشوطة عنه وحملته الى البيت.

رفض المفتي أن يقيم عليه الصلاة، أعلن أن قاتل نفسه لا يستحق القداس. وهكذا دفن شقيقي البائس، ابن نزارباي غير المحبوب، دفن في ثيابه وفي مقبرة الاغراب. ولم يزرف أحد فوق قبره دمعة الا أنا وخالتنا الكهلة...

وفي اليوم الاربعين على وفاته أخذ أبي اذناً من المفتي بعقد قراني على أرملة أخي. لم يكن يريد أن يفقدها، وهي كانت حرة الآن تستطيع مغادرة بيتنا متى شاءت. بيد أني لم أكن مثل أخي مطيعاً وخنوعاً، فرفضت وأعلنت أنني لا اريد الزواج. جرني والدى الى الغرفة وأراد أن يضربني

على الساكت. لكنني فقته قوة، ولم أذعن. فقد ولى شبابه على كل حال وكنت أنا في ريعان الصبا. خطفت العصا من يده، كسرتها، رميتها وقلت: كفى، أنا لا اريد الزواج من قاتلة أخي وعشيقة أبي!

وجمد أبي في مكانه، فهم سامعاً كلماتي أنني أعرف كل شيء. لكنه كان عجوزاً ماكراً، لم يبد في البداية لا حركة ولا صوتاً لكنه أعلن فيما بعد أنني لم أستطع تحمل موت أخي فاختل عقلي من الحزن. أوه، الشيطان نفسه حرى أن يحسده على دهائه ومكره. لقد استند على اذن المفتي الذي كان بحوزته فعقد قراني عنوة على أرملة أخي، وبعد ذلك مباشرة أقعدني على عربة وحملني الى المدينة، الى مستشفى المجانين...

الآن ينعم هو بالحياة مع تلك التي تعد زوجتي. القرية كلها تعرف بأعماله القذرة، ولكن الجميع يخافون منه ولا يتجرأ أحد على التفوه بحرف... وأنا وحيد في دنيا الله الواسعة، لا أهل عندي ولا أصدقاء، ولا نصير يدفع عني هذا الهول. انني لعبة في أيدي القدر الأرعن...

تركت هذه القصة في نفس حيدرقول انطباعاً عميقاً. ولقد بهتت أحزانه الخاصة أمام آلام ومصائب هذا الفتى التعيس. وارباه، ما أرهب ذلك العالم الذي يسمح فيه بمثل هذا الظلم الجائر بمثل هذا الاستبداد الصارخ! الناس يأكلون بعضهم الاخر، الاب يأكل لحم ابنه ويمزق قلبه الى قطع... فكيف يتحمل العلي القدير هذا الاجرام وهذه الرذيلة؟! أين غضبه الكريم؟ لماذا لا يبدد عالم الاضطهاد والتعسف هذا؟ أيعقل أن يكون الله أطرش واعمى، لا يسمع ولا يرى آلام البشر؟ عفوك، يا رب، عفوك!.. لا يجوز التفكير هكذا... حرام... حرام... الصمت أفضل!

— ما اسمك يا أخ؟

— أمان... اسمي امان،— وابتسم بمرارة.— لكأن

القدر يسخر مني بهذا الاسم الذي يعني السكنية والامن والسلامة... كلا، فليس في زمن الأمان ابصرت أنا نور الحياة.

– دع عنك هذا الكلام، يا أمان! ان الله قد خلق الناس ليعيشوا في سلام ووئام وليجعلوا حياتهم أجمل وأحسن! ولكنه يوجد بينهم أناس طماعون جشعون أغشى عيونهم بريق الذهب بل وأعماهم وهم لا يريدون أن يروا أو يعرفوا شيئاً آخر.

– من هذه الشاكلة والدي نزارباي المقامر!

– وأمثاله للاسف كثيرون! وعندكل منهم رجاله وحماته ومساعدوه.– عندكم في غالاآسيا – نزارباى وفي قاراكول غنيجان باي، وفي بخارى عشرات مثلهما.

– لا يوجد عدل في هذه الدنيا! نسي الناس النزاهة والمروءة.

– ولكنه يوجد غير قليل من الناس الصالحين. انهم في كل مكان... مستعدون لمساعدة الانسان وزرع الامل بالحياة الافضل في قلبه...

وقال أمان متفكراً:

– من يدري بهم...

لم يجب حيدرقول بشيء. أوجعت قلبه الشفقة على أمان. فيا لبؤس الفتى، في عز شبابه فقد الثقة بالحياة، خاب أمله بها وأضاع ايمانه، ما أصعب هذا! كان نصيب هذا الفتى الرائع نصيباً سيئاً بصفة خاصة: فقد أساء له أبوه، والاب مدعو لأن يصون ابناءه ويدفع عنهم الضرر! فبمن بوسعه أن يثق بعد هذا، بمن بوسعه أن يستغيث؟ هذه المصيبة تشبه الزلزال. يسير الانسان على الارض آمنا مطمئنا، يفلح الأرض، يزرعها، يبني عليها وكله ثقة بأنه ما من شيء أصلب منها... وفجأة تميد الارض تحت قدميه يتزلزل كل شيء ويتهدم ويهلك... فأين للانسان أن يختبىء؟ فلا اجنحة للانسان كي يطير الى السماء وليس الانسان سمكة كي يعيش في الماء... فالى أين المفر؟ ذات الشيء

تقريباً يعانيه هذا الشاب الآن، لقد فقد الارض تحت قدميه وسيهلك اذا لم يجد دعامة.

– لا تخلد لليأس يا صاح، لا تقنط!– تكلم حيدرقول أخيرا.– ليس عبثاً يقال: ما دمت حياً – الامل حي أيضاً. لقد علمني الكثير شبان طيبون، حكماء وعلماء هم الذين جاؤوا بي الى هذا المكان.

تنهد أمان بعمق وألقى نظرة امتنان على حيدرقول.

– شكرا، لك، يا أخ، على كلماتك الطيبة الحكيمة.

– لو حدثتك عن المصائب التي نزلت بساحتي لاخذت بك الدهشة من أنني ما زلت اعيش حتى الآن لكنني لم اقنط ولم تخر عزيمتي. أجل، أنا حي معافى وكلي أمل في بلوغ هدفي. أنا ملزم أن أبلغ ما عزمت عليه. هنا سأمكث شهراً أو شهرين وبعد ذلك سيأخذونني. وأنت أيضاً ستغادر معي هذا المكان... وربما قبلي... ولكننا لن نضيع بعضنا البعض بعد الآن.

– ان شاء الله! أنت بالطبع ستخرج، أما أنا؟ فمن سينقذني من هذا السجن؟ ليس عندي أحد.

وقال حيدرقول بحزم:

– لا تقلق بهذا الشأن. سيكون عندك مخلص. انتظر قليلا، اصبر وسيأتون خلفك. أؤكد لك، يا أمان!

وأراد الشاب أن يرد لكن أنة مريعة أطلقها أحد المجانين سبقته. ايقظت هذه الانة الآخرين وفي لحظة واحدة تعالى ضجيج وحشي. صرخ المرضى ولولوا، قهقهوا، زعقوا، تشاتموا... وآنذاك أطلق حيدرقول صرخة حادة:

– النجدة! خسفاً للمتجبرين، ألا فلتحترق بيوتهم!..

١٢

يقول المثل: «لا سلام ولا سكينة في بيت هجرته المحبة». وهكذا الحال في بيت غني‌جان باى لا محبة فيه ولا سكينة. بل وما كان لهما أن يكونا! فهنا كان يكفي لقلب

أن يخفق بالمحبة حتى يدوسونه في الحال ويحطمونه بلا شفقة. وينز القلب دما أو ينقلب الى حجر. في هذا البيت بهتت كل ألوان المشاعر الحية.

أشهر ثلاثة وربما أكثر مرت منذ ذلك اليوم، يوم زار غني جان باي زوجته الثانية عدالات في آخر مرة. من ذلك الحين وهو مشغول جدا. في البداية انشغل بالاستعدادات للعرس، ثم اقيم العرس وامتد عدة أيام وبعد ذلك جرحوه واضطر الباي لان يلزم الفراش، راقدا في غرفة زوجته الجديدة مغفرات. أما عندما شفي ونهض فانه وقد نسى زوجتيه الاخريين كان يعطي كل حبه وحنانه للاخيرة وحدها. وكانت الخادمات يضحكن ويقلن: «لقد سرقت الصغيرة قلبه» أضف الى ذلك ان كومة من الاعمال تكدست أثناء مرض الباي.

كانت عدالت امرأة ذكية ورشيدة فلم تبد أدنى امتعاض من اهمال زوجها، لم يعكر الحزن صفاء وجهها وكانت تجلس هادئة في غرفتها وتنشغل بتطريز الستائر.

ولكن الزوجة الكبرى نظاكات كانت تحترق من الغيرة والحسد ولا تجد السكينة. كانت تحاول بكل الوسائل أن تسمم سعادة الباى وبهجة ضرتها الصغرى. خادماتها كن يجلسن ليال بأكملها قرب باب غرفة العروسين وفي الصباح يحدثن سيدتهن بكل ما تسنى لهن أن يسمعنه ويقشعنه. وكانت هذه الاحاديث عن المطارحات الغرامية بين الباى وزوجته الشابة تأجج نار غيرتها أكثر وأكثر. وأما الخادمات فكن وقد رأين مبلغ تأثرها بذلك، يختلقن تفاصيل لم يكن لها أي وجود في الواقع.

وفي الليالي كانت ترقد في فراشها وتصب الزيت على نار قلبها متخيلة كيف ينعم الباي ويتلذذ في هذا الوقت مع ضرتها، كانت مخيلتها تحتدم وتجمع فيبدو لها أن الفراش مغطى بالاشواك: وتتقلب فيه، تحوص، تئن وتتعذب ولا تستقر على حال...

رهيبة هي غيرة المرأة المسنة. انها تفترس القلب

والدماغ، تستلب الهدوء والسكينة ويمكنها أن توصل الى الجنون. وزوجة الباي الكبرى لم تكن أبداً جديرة باسمها نظاكات الذي يعني «الرقة» وفي هذه الأيام الرهيبة بالنسبة لها فقدت كل سلطة على نفسها وعافت كل شيء... حتى ابنتها الوحيدة كانت تثير فيها المقت. ولو لا الخادمات لجلست في الغرفة كما كانت غير مرتبة ووسخة، وأما عن الغداء فلا طائل للكلام، فبالكاد كانوا يرغمونها على تذوق الزاد.

كانت تخاف الكشف عن مشاعرها للباي ومغفرات جهارة ولكنها في الخفاء كانت تستغل كل سانحة لتعكير صفوهما. في أركان البيت المنزوية كانت تعتدي على خادمات الزوجة الصغرى، كانت تشدهن من شعورهن وتقرصهن. وحين كانت مغفرات تعرف بذلك وتشتكي لزوجها، حينذاك كانت تنشب المشاحنات. فيتدخل الباى شخصيا في فك النزاع وينتهي كل شيء بأن يتفرق الجميع الى غرفهن باكيات نائحات. أحيانا كانت نظاكات تحاول أن تلعب على عواطف الباي الابوية فترسل اليه ابنتها وتأمرها بأن تلعب مع أبيها وأن تتمسح به وتتودد اليه على مرأى من الزوجة الصغرى. واذا حدث ورفضت تلك السماح للطفلة بدخول الغرفة كانت نظاكات تهرول الى الفناء فتثير هيصة وتنزل بابنتها ضرباً الى أن تبدأ هذه بالعويل والصراخ. وآنذاك كان الباي يضطر شاء أم أبى الى الخروج من الغرفة لكي يوقف هذا العويل.

ذات مرة قضى الباي الليل عند عدالات. هنا بلغت غيرة نظاكات وحسدها أقصى حد. وعموماً فالزوجة الصغرى كانت أيضاً في غاية الامتعاض ومع نظاكات قضت اليوم كله في تجريح الضرة.

حدث هذا خريفاً وكانت النهارات قد قصرت. في وقت أبكر من المعتاد أمرت عدالات بايصاد الباب الخارجي واشعال الفانوس المعلق.

جلس الزوجان خلف الطاولة وجرى بينهما حديث قلبي. أكلا طبقاً كاملا من «المانتي» وصبت عدالات كوب شاي

أخضر لزوجها. ابان ذلك ظهرت نظاكات ومغفرات في الفناء وراحتا تتهكمان وتسخران منها مطلقتين للسانيهما العنان. ولكن الكلام وحده لم يشف غلهما، ملأت مغفرات كفها بالحصى وقطع الطين وراحت ترميها على باب الغرفة. ارتعد الباي من الغيظ وأرعد وأراد أن يخرج حالا وينهنه المشاكستين الوقحتين ضرباً. ولكن عدالات أمسكته بلطف واقنعته بألا يعير بالا للمرأتين المستعرتين.

ومع ذلك أفسدتا على الباي ليلته...

في الصباح أثناء الفطور جاءت الطباخة التي كانت دائماً على علم بكل الأمور وتقدم للباي التقارير بمجرياتها. جاءت تحمل شاياً مع القشدة، ألقت التحية وبدأت فوراً في طرح ما بجعبتها من أنباء.

– هل سمعتم، السقاء أحمدجان يحتضر. منذ اطلق الميرشاب سراحه وهو راقد... لم ينهض على قدميه.

– لم يحتمل العجوز التعذيب والتنكيل،– قال الباي ساهماً.– ولا عجب. فالرجل القوي المعافي لن يحتمل ضربات قبضة كالي قربان الحديدية... وهذا كهل ضعيف. عبثا عذبوه. ولكن لا بأس، لن يأمنوا عواقب فعلتهم!.. قولي لعصا ألا يغيب... أنا بحاجة اليه...

– سمعا، يا معلم! – وانصرفت الخادمة.

كانت للباي حساباته الخاصة مع الميرشاب. فكثيراً ما كان عملاء الباي التجاريون يتشكون له من مرؤوسي الميرشاب الذين كانوا يعترضون طريقهم، والذين كانوا يرسلون اللصوص للسطو على قوافل الباي ونهب مخازنه. وقد توجه الباي الى الميرشاب غير مرة شاكياً من التعسف، طالباً اليه عدم اعتراض تجارته السلمية والتوقف عن الحاق الاذى به، ولكن ذلك لم يجد نفعاً، فقد تكررت كل هذه الافعال من جديد ومن جديد. والآن جاءت هذه القصة مع فيروزة! فالقانون والشرع وكذلك العدل يقتضي بأن تعود فيروزة للباي وأن تكون في بيته. ولكن العجوز الميرشاب ضرب بكل الاعراف عرض الحائط فاعتقلها، ولم يخجل،

فأخذها على مرأي من الناس الى بيته ولا يتركها... حتى الآن لم يعثر على قاتل سعيد السكير وعلى اللعين حيدرقول، الذي طعن الباي بالسكين. ان الميرشاب يلحق الضرر بالباي حيثما استطاع الى ذلك سبيلا.

. كلا وألف كلا! لقد آن الاوان لايقاف الميرشاب عند حده. يقولون انه ثمة ثلاث وسائل لبلوغ الهدف: الضراعة، الذهب، القوة. في البداية تضرع غنيجان باي وتوسل ولم يلق مجيباً، ثم حل كيسه، فما أجداه الذهب نفعاً: ولم يبق أمامه والحال غير استعمال القوة. أجل، أجل، يجب مقاصصة هذا العنيد الاحمق كما يجب. عصا والسقاء خير شهادة ضد الميرشاب. فليقدما عليه شكوى أولا وبعد ذلك يأتي دور الباى. سوف يبرهن للوزير الأول أن الميرشاب كهل جداً وأنه عاجز عن أن يشغل منصباً حكومياً. فهو لا يكافح المجرمين بل على العكس يشجعهم ويثير غضب الشعب على السلطة...

— الشاي يبرد، اشرب، — قطعت عدالات حبل أفكاره — بماذا تفكر؟

-- أنا، هكذا، لا شيء...

احتسى غنيجان باي عدة جرعات من الشاي مع القشدة، وضع الكوب، اقتطع لقمة من المرقوقة رماها في فمه وقام.

— سأذهب، شكراً لك على كل شيء، مائة شكر! مرحى لك، أحسنت جداً اذ لم تسمحي بنشوب مشاحنة. لا تعطي لهما بالا اذا اقدمتا في غيابي على قول شيء. كلتاهما مجنونتان، لا ينقصهما الا أن تقيدا بالسلاسل وكفى... أما أنت فذكية، عوفيت!

قعدت عدالات صامتة، مطرقة الرأس وعلى وجهها ترقص بسمة خفيفة. كانت قد درست زوجها جيداً ولم تكن تشك في أنه يقول ذات الشيء لنظاكات ومغفرات ولهذا لم تعط لكلماته أى اعتبار. وحين خرجت تودعه، في الردهة سألت:

— بعد كم شهراً ستدخل في المرة القادمة؟

ابتسم الباي وقال:
– أنت تعرفين، فقد كان هناك أسباب. أما الآن فاني سأكثر في المجيء... سترين، نكاية بضرتيك سوف أزورك كل يوم.

ولاحظ الباي أن زوجته الاولى تقف في الفناء فتعمد اغاظتها وعلى مرأى منها مسح على خد عدالات وقبل يده بعد ذلك. كانت نظاكات تحمل قلة فخارية فرمتها أرضا في حنق وهرعت الى غرفتها.

آه، واذن فقد أصاب السهم هدفه. أفعم الرضى الباي فابتسم ومضى الى شقته. هناك في الفناء كان عصا واقفاً قرب غرفة الضيوف ويداه معقودتان على صدره احتراماً.

– طاب يومك، يا معلم. لقد نفذت كل ما طلبته مني. في الصباح ذهبت الى بيت السيدة طنبور ودعوت العم الصائغ. وعد أن يأتي اليوم الى مخزن الفراء للقاء بك.

– أحسنت، يا بني. اعتصم بالصبر، سوف نفكر ونعمل ولن ترى الميرشاب الا وقد جاء بفيروزة من نفسه.

ولم يضبط عصا نفسه فهتف:

– آه، يا حبذا...

ابتسم الباي والتمعت عيناه بمكر:

– ماذا أرى يا بني! يبدو لي أنك قد احببت فيروزة عن جد... أليس كذلك؟ لا تخجل، قل، فأنا لك مثل أب...

غض عصا الطرف ولم يتكلم. تضرجت وجنتاه حياء...

– حسناً، حسناً، بوسعك ألا تقول، فمن غير كلام كل شيء واضح. – ومسح الباي على رأس عصا. – اذا سمعت مني واطعتني، ستعود فيروزة الينا بمشيئة الله. وفي السنة القادمة نزفكما... لكن وعدي ليس قطعياً، اذ أنه علينا أن نعرف رأي الفتاة أيضاً، أن نعرف ما في قلبها وآنذاك نبدأ بالعمل... أما الآن فاذهب الى بيت احمدجان السقاء. سمعت أنه في حالة سيئة تماماً... أعط هذه التانغات الخمس لزوجته، قل لها أن الباي أرسلها، فلتشتري ما يلزم. واشرح لهم أن مدينة بخارى لا تغطي

الاوغاد، وأن العدل والنزاهة ما زالا موجودين في هذا العالم. ثمة من سيحاسب الميرشاب ويحقق في جميع عمائله الاثيمة. خلفنا جلالة الأمير، شفيعنا وظهيرنا. قل للسقاء أن يأتي الي حال شفائه: سيكتب الكاتب باسمه شكوى وسنرفعها الى الوزير الاول. أما اذا حدث المقدر ومات السقاء لا سمح الله... فان الكفن ومصاريف الدفن على حسابي... لتأت زوجته الي وتأخذ ما يلزم... والدعوى سنرفعها على كل حال... يجب معاقبة التعسف.

وأخذ الذهول بعصا. صعب عليه أن يصدق أن الذي أمامه هو غني‌جان‌باي. كان يظن أن الباي مع الميرشاب على دين واحد. واذا به على العكس يريد أن يعاقبه! واذن، ليس الباي هو المذنب فيما تعانيه فيروزة الآن وفي أن العم أحمدجان تعرض للتعذيب. المذنب هو الميرشاب، الميرشاب وحراسه! أما الباي فيريد أن يخلص فيروزة وأن ينقذها من الميرشاب - واذن فهو صديق لها!

وقطع الباي حبل افكار عصا:

- آين عبدالله؟

- في غرفته.

- طيب، اذهب أنت وسأقول أنا لعبدالله أن يعطي باله هنا.

خرج عصا وكان الجو في الخارج ألطف من ذى قبل. أشعة الشمس المنسلة عبر الغيوم كانت تدفيء ولا تحرق. الأولاد في الشارع كانوا يلعبون بالجوز وفي السماء حلقت طائرة ورقية. كم ود عصا لو يطلق طائرة ورقية كبيرة وأن يستمع الى أزيزها وخشخشتها في السماء. كم حلم بذلك في طفولته وكم مرة رأى في نومه مثل هذه الطائرة تعلو راعشة الى العلياء وتخشخش. ثم يستيقظ عصا في ركنه البائس ولا يرى الا الطباخة تغط في نومها...

تصرمت السنون، وضاع حتى الحلم، اسود كل شيء وصار جافاً. فمتى ستصفو الايام، وهل ستصفو يا ترى؟ هل ستتركه الاحزان والهموم وتولي؟

عاش احمدجان في زقاق ضيق خلفي بحي عبدالله حاجة. كان الزقاق في هذه الساعة مقفراً، غارقاً في سكينة تامة، خيم عليه الهدوء وكأن الحياة قد توقفت هنا. البوابة الواطئة والجدران المتضعضعة للبيت الذي آوى السقاء وعائلته كانت توحي بالاسى. طرق عصا البوابة فلم يستجب أحد. وآنذاك جازف بالدخول دون اذن، دلف الى الفناء عبر الممر وهتف:

— خالتي، يا خالتي!

أطلت من المطبخ زوجة السقاء العجوز، فسلمت على الضيف ودعته للدخول. في الركن الامامي من الغرفة الصغيرة رقد أحمدجان في فراشه مريضاً. لحاف باهت اللون مرقع كان يغطي جسمه النحيل. وكان منظر رأسه ورقبته المكشوفين يريع النفس ويستدعي الشفقة: عيناه غارقا عميقاً، تدبب أنفه، شحب لونه ونما خداه الهزيلان بلحية كثيفة متشابكة... رقد السقاء دون حراك، لكن صدره الذي يرتفع وينخفض قليلا كان ينم عن أنه ما زال يتنفس.

كانت الغرفة الرطبة الباردة في شبه ظلام. لم يكن للغرفة نوافذ، كان لها بابان، أحدهما مغلق تماماً والآخر نصف مغلق فما كانت الشمس تدخل الى هنا. ضاقت انفاس عصا في الجو الفاسد فسعل، ومحاولا أن يكظم سعاله دنا في هدوء من فراش المريض. تأوه أحمدجان دون أن يفتح عينيه، شق فمه بصعوبة وحرك شفتيه.

أسرع عصا فصب في الكوب قليلا من الشاي الدافىء وقرب الكوب من شفتي السقاء.

— اشرب، يا عمي!

رفع السقاء جفنيه بعض الشيء ونظر بعينين غائمتين الى عصا. أخذ بلعة من الكوب وانسال الشاى من زاويتي فمه.

تكلم عصا بصوت عال حاسباً أن العجوز لن يسمعه في حالة العكس:

– هذا أنا، عصا، جئت أزورك. الباي يبلغك التحية ويسأل عن صحتك.

لم يعبر وجه العجوز عن شيء، بدا كأنه لم يسمع ما قيل له واطبق عينيه من جديد. دخلت العجوز تندب. تشكت دفعة واحدة من كل شيء: من الحطب الذي ابتل، من المطبخ الضيق ومن أن قواها قد نفدت تماماً...

– حتى الماء لا أستطيع تسخينه، مع العلم أن الثياب كلها وسخة ويجب غسلها... وعدت أختي أن تأتي وتساعدني ولكنها لم تأت كما ترى... ولست أدرى ماذا حدث... لا قدر الله لانسان أن يعاني ما أعانيه! كان العجوز سليماً، كان يشتغل، وكنا نسوي أمورنا. أما الآن فأنا وحيدة تماماً، عاجزة وضعيفة...

– هل يأكل العم ولو قليلا؟

– طبخت له خبيصة وأعطيه ليأكل لكنه رفض... ولا يكف عن طلب الماء...

– هاك هذه النقود... خمس تانغات أرسلها الباي للمريض...

– الباي؟ أي باي؟

– معلمي، غني جان باي!

– غني جان... ماذا جعله يتسخى فجأة، لماذا أرسل هذه النقود؟

– يقول انه يجب كتابة شكوى على الميرشاب ولكن ليشف العم أحمدجان أولا... فالباى سيقدم العون ويقول أن الميرشاب تجنى عليكم وعاملكم بقسوة...

انّ المريض، غط وشخر، راح يتلعوج متألماً... وسقط رأسه على صدره... هرع عصا اليه، رفعه مع الوسادة وطرحه أعلى قليلا. صبت زوجته في الكوب شايا وحاولت أن تسقيه، لكنه انكمش على نفسه، احمر وجهه من التوتر وسعل وتناثرت خثائر الدم من فمه ومن أنفه...

هكذا فاضت روح السقاء، في يد زوجته الراعشة بقي كوب الشاى الذى لم يشربه.

عندما كف العجوز البائس عن الانتفاض ظن عصا الذي كان يحوشه من كتفيه أنه نام. ولكن زوجته أدركت فوراً أنه أطبق عينيه الى الابد وأنه رحل عن هذا العالم القاسي دون رجعة... لقد بقيت الان وحيدة تماما، معدمة لا حاجه لاحد بها... رمت الكوب صارخة: «يا ويلي» وارتمت على صدر العجوز. أراع عويلها عصا، فحار وارتبك غير مدرك بعد كنه ما حدث. ولكن لحظة مرت وفهم كل شيء، فناح هو الاخر وراح يضرب صدره بيديه.

هذه سنة الكون وهذا شأن الدنيا منذ الازل. يولد الانسان، يكبر الانسان ويعيش على الأرض طويلا أو قصيراً ثم يموت. يرحل البعض ليأتي آخرون والكل في هذا سواء. لكن موتة عن موتة تختلف. فالبعض يرحل عن عمر عاشه في عز وكرامة، وآخرون يقضون نحبهم في النضال ضد قوى الطبيعة العمياء، في النضال ضد الشر والبطلان على الارض ويرون قبيل موتهم أنهم بلغوا هدفا ما فتهون عليهم المنية. لكن أرهب موت هو الموت في شرخ الشباب أو الهلاك كما هلك احمدجان الذى وقع ضحية الطغيان والقهر ورحل عن هذه الدنيا مدركا أن كفاحه ضاع هدرا.!.. هذه موتة رهيبة! وأمثال احمدجان يستحقون الرثاء ابلغ الرثاء.

بكت العجوز وبكى عصا طويلا طويلا. وأخيرا ثابت العجوز الى رشدها وطلبت من الشاب أن يذهب الى وجهاء الحي، المختار ومعاونه وأن يخبرهما بالحدث، ثم أن يمضي الى شقيقتها في حي بيستاشيكنان ويبلغها بالمصاب.

خرج عصا من البيت وأفضى للجيران بالخبر الاليم. بعد هذا فقط توجه الى بيت المختار نصرة الله. كان ذلك جالسا أمام الباب يلهو مع حفيده.

انحنى عصا له وقال بأسى:

– طاب يومكم. البقية في عمركم من العم احمدجان!

امسك المختار حفيده الذي كان يقفز على ركبتيه وسأل:

— أي احمدجان؟
— السقاء...
— آ ـ آه...— مط نصرة الله الكلمة. — واذن فقد اسلم الروح لخالقها؟ كانت روح عنيدة، قاومت طويلا ولم تشأ أن تتركه. أما أنت فلا تحزن... ما زلت شاباً وستعيش وتنعم. والعجوز كان على حافة القبر...
كفكف عصا دموعه ومضى نحو البيت. كان يريد أن يبلغ الباي بموت السقاء على وجه السرعة. مر مطاطأ الرأس قرب الانساق التجارية المتاخمة لبوابة قاراكول وتذكر فجأة أنه لم يعرج بعد على حي بيستاشيكنان فقفل راجعا. قطع حارة ميردوستيم وهنا رأى فتاتين في ملاءيتهما كانتا تسيران باتجاهه. احداهما كانت طويلة ممشوقة القد والاخرى أقصر قليلا وانحف.
توقفت الفتاتان وقالت واحدة منهما:
— أخي عصا.
وعرف هو صوت فيروزة الرقيق الناعم والحنون. خفق قلب الفتى وتورد وجهه الشاحب. انتشله هذا الصوت من عالم اليأس ونقله الى دنيا الآمال والاماني، الى دنيا الشباب والحب. وقال عصا مرتبكا:
— آه، هذه أنت.
سلمت فيروزة عليه ورفعت النقاب قليلا. فأمطرها عصا بوابل من الاسئلة.
— الحمد لله، أحوالي لا بأس بها وليس عندي ما اشكو منه... هذه سيدتي الحبيبة شمسية، ولية أمري وحارستي الامينة... معاً نذهب الى المدرسة ومعاً نعود. دع عنك القلق فأنا في خير حال.
وقال عصا منشرحاً:
— الحمد لله، الحمد لله. يسعدني أن لك صديقة مثل شمسية... أما أنا... كنت أنا ألوب مهموماً وأفكر بك. لقد وعدني سعادة الباي وعداً أكيداً بأنه سيحررك قريباً، سنكون معاً بعون الله.

وتدخلت شمسية في الحديث:
— كيف هذا، سيحررها؟
— لا اعرف، — انحرج عصا. — الأرجح أنه سيأخذها الى بيته.
— وفي بيتنا هل هي في حبس أم ماذا؟
حار عصا لا يدري جواباً فآثر الصمت وفهمت شمسية ما يعتمل في قلبه فقالت متلفتة فيما حولها:
— لا يجوز لنا الوقوف هنا طويلا، لنمض الى ذلك الممر...
مضت الفتاتان في المقدمة ومضى عصا خلفهما. في الممر المظلم المقفر تجاسر عصا وراح يتكلم:
— عندما علمت أن فيروزة وقعت في أيدي... أنهم أخذوها الى الميرشابخانة أوشكت أن أفقد عقلي. استأذنت الباي وهرولت الى هناك. صرخت، سألت أين هي ولم يجبني أحد. وأخيرا رثا لحالي كاتب مسن وقال انهم أخذوها الى بيت الميرشاب. فاطمأن خاطرى قليلا... وقد قال الباي ايضاً انها عندكم... ولكنك، يا فيروزة، — وتوجه عصا اليها مباشرة... بعيدة هناك عني... و... يخيل الي أنه خير لك أن تعيشي في أسرة الباي... فهو يريد أن يكون لنا أباً، لقد وعد بذلك.
— هل نسيت كلمات جدتي؟ — احتجت فيروزة بحرارة. — هل نسيت ما حدث لسوسن وبيبي ربيعة؟ ما هذا الذي تقول؟
وصمت عصا متكدراً.
— في بيتنا فيروزة معي ومع أمي، — تكلمت شمسية بروية. — كل أيامنا نقضيها في المدرسة مع المعلمة. فماذا سترى فيروزة هناك في بيت الباي حيث تتشاحن ثلاث ضرات مع بعضهن طيلة النهار؟ لن يسمحوا لها بالذهاب الى المدرسة. انها ستحرم بهجة الحياة هناك...
وأضافت فيروزة:
— والعم احمدجان كان يشكو لجدتي دائماً من الباي.

وامتثلت أمام عصا لوحة موت السقاء العجوز من جديد.
– العم احمدجان أعطاكما عمره، – قال بحزن – انني بسبب هذا بالذات ذاهب الى أقربائه كي أخبرهم.
– مات؟ العم أحمدجان مات؟ – هتفت فيروزة وبكت بمرارة واضعة رأسها على كتف شمسية.
وحاولت شمسية أن تثنيها:
– لا يليق البكاء في الشارع. اهدئي، يا فيروزة، اهدئي. أنت نفسك كنت تقولين ان سكناه في هذه الدنيا امست قصيرة... رحمة الله على روحه لقد مات شهيداً، مات دفاعاً عن الحق...
– أجل، قال عصا بأسى. – الآن ما عاد عمنا أحمدجان موجوداً وعلينا أن نعتني بأنفسنا متكلين على أنفسنا فقط. سوف نبني حياتنا معاً اذا كنت لا ترفضين. سوف أطلب من الباي قرضاً... صمتت فيروزة وأجابت شمسية عنها:
– قد يكون هذا جيداً ولكنه يجب التفكير. ولعله من الأفضل لكما أن تصبرا فترة اخرى. دعونا نلتقي غداً أو بعد غد هنا بالذات وفي مثل هذا الوقت أيضاً... آنذاك سنتكلم. أما الآن فهيا بنا، يا فيروزة، اننا نتأخر عن الكتاب.
ودعت الفتاتان عصا وانصرفتا أما هو فلبث طويلا في مكانه غارقاً في أفكاره. فما العمل؟ في كل شيء كان يلتقي بالعراقيل، العقبات تعترضه في كل مكان وليس عنده أحد يستشيره. احمدجان مات، حيدرقول اختفى وفيروزة في بيت الميرشاب...
ويبقى الباي وحده... يخيل لعصا أن الباي يرجو له الخير عن صدق، يدعوه ابنا، حرره من السجن وأرسل نقوداً لاحمدجان المريض، بل ووعد بأن يكتب شكوى على الميرشاب... ألا يتحدث هذا كله عن عواطف الباي الطيبة؟ وفي واقع الأمر، ماذا يمنع الباي عن أن يصير أباً لقن عادي؟ ولد في بيته وهو يخدمه بأمانة واخلاص، فما الغرابة في أن يحب السيد خادمه الوفي؟ ثم ما هي حاجة الباي بالخادمة فيروزة؟ للعمل طبعاً وللعمل وحده. فهو لا يستطيع أن

يأخذها زوجة. واذن ماذا يمنعه عن أن يزوجها من عصا؟ شمسية وفيروزة لا تثقان بالباي، تعتبرانه مخاتلا ماكراً، مخادعاً، فلماذا؟ أمن المعقول أن يخدع الباي خادمه الأمين الذي له بمثابة ابن أو أخ أصغر؟ ما الغاية من خداع كهذا؟

شمسية انسانة جيدة ولكنها مع ذلك ابنة الميرشاب... فيروزة تثق بها وتظن أن العيش مع أسرتها أفضل من العيش عند الباي، ولكن هذا خطل! أكثر الجميع يجب اهتياب جانب الميرشاب... فهو مخادع، مستبد.. والحراس القساة كلهم تحت أمرته وكذلك السجون كلها والأصفاد والسلاسل وآلات التعذيب! كل هذا رهن يمينه وكل السلطة في يديه. كلا، كلا، معاذ الله أن يصدق عصا الميرشاب! انه يضمر السوء ولا شك، والا ما كانت حاجته في أن يجوس خلف فيروزة؟! لقد كانت له من ذلك غاية بدون شك. وهو أسوأ من الباي وأشر وأمكر. انه قادر أن يزج الباي نفسه في السجن... وأي وزن عنده لزوجة أو بنت! أتراه سيسمح منهما! يكفيه أن يريد وسيبيع فيروزة لواحد من علية القوم. فهو لا يمسكها في بيته اعتباطاً. الميرشاب بخيل ومع ذلك أنظر كيف كساها، بل ويطعمها ويسقيها ويعلمها أيضاً... لا والله، ليس هذا اعتباطاً، ليس هذا لوجه الله! انتظره حتى يحتاج الى مال وستراه قد باعها. وآنذاك قل على عصا السلام! بدون فيروزة لا معنى للحياة. وربما للمرة الالف سأل عصا نفسه يائساً: «ما العمل، ما العمل؟»

وفي أسوأ مزاج مضى عصا الى أخت زوجة السقاء ليبلغها بالخبر المفجع.

١٣

بدأ شتاء بخارى القارس. ثبت الصقيع أركان سلطانه المديد في هذه المدينة العريقة المجيدة. وكان قاسياً عديم الرحمة مثل الأمراء الطغاة من قبيلة بني منغيط. كان يمتحن جلد الناس وقوة احتمالهم.

كانت السماء الشتائية بلا غيوم. نهاراً كانت الشمس تشع جذله في السماء الصافية الزرقاء ولكن حرارة أشعتها كانت تضيع في أشداق الصقيع الذي كان يخز بابره الجليدية الحادة جلود الناس ويلسع بسياط زمهريره حتى الزرقة وجوه وأيدي وأرجل الأطفال الذين هرعوا الى الشارع مبتهجين بالشمس. ليس عبثاً كانوا يسمون شمس الشتاء في بخارى «عدو الاطفال».

في الليالي كانت الأرض تتشقق من البرد. وفي الشوارع المقفرة المظلمة لم يكن يتنزه أحد الا الشيخ الصقيع ومعه رفيقته الأبدية - الريح القارصة اللاذعة. «ليالي السلطان المتجبر» كان أهل بخارى يسمونها. والويل لمن وقع في احضانها الجليدية وكان لا يملك ثياباً دافئة.

المصدر الوحيد للتموين بالماء في بخارى، أي أحواضها الواسعة كانت تتغطي بطبقة لجينية من الجليد. فكان على السقاة أن يفتحوا في الجليد خروماً ويخرجوا الماء بشق النفس، مخاطرين بالتزحلق على الدرجات التي ضربها الصقيع، الأمر الذي كان يحدث كثيراً فيقع المساكين وتنكسر أيديهم وأرجلهم وأحياناً رؤوسهم.

ليس الزمهرير سواء على الشاه وعلى المعدم. فحتى الطبيعة، كما بدا، كانت مع أعداء الفقراء ضدهم. في الصيف، تصب الشمس حممها وتكوى أجسادهم وكان الشتاء يصرد بصرده مساكنهم المتضعضعة. أما الأثرياء فكانوا ينعمون بكل النعم في الحر وفي القر. وحتى الشتاء كان يهب مباهجه لميسوري الحال. كانوا وهم المالكون لبيوت واسعة ينتقلون الى الغرف المواجهة للشمس. وأرض الغرف مع أنها ترابية كانوا يفرشونها بالحصائر و يمدون فوق الحصائر ابسطة لبادية وفوق اللباد سجاجيد موبرة. على هذا الشكل ما كانت الرطوبة لتجد الى الغرفة منفذا. على امتداد الجدران كانوا يرصفون المنادر والالحفة المنجدة

والاحرمة الصوفية. أما طاقات النور في الابواب فيلصقون عليها ورقا مشمعا بل وكانوا يركبون عليها الزجاج في بعض البيوت واضافة لذلك يعلقون الستائر الواقية من هبات الريح. في الكانون* الكبير كانت النار تشتعل بشكل دائم ناهيك عن المناقل الموضوعة في الزوايا والمصابيح القوية التي تنير وتدفىء. هذا كله كان حرياً يجعل الغرفة حارة مثل حمام.

في الليالي الشتائية الطويلة كان كل صاحب بيت ثري يجمع أصدقائه في مضافته وخلف المائدة العامرة بالأطايب وفي غمرة الحديث والسمر كان الليل ينقضى من حيث لا يشعرون. كانت حرارة الجو والطعام والحديث تحمي المجتمعين فيطفئون ظمأهم بالماء البارد. لكن هذا كله كان قليلا عليهم. وفي الصباح الباكر كانوا يرسلون الخدم الى السوق لشراء حمص محضر بطريقة خاصة وكان هذا الطبق يختم المأدبة.

الشتاء في بخارى هو موسم الأكل اللذيذ والوفير. كان الاكولون ينتظرون بفارغ الصبر هذا الوقت من السنة. ففي الصيف كان الحر يصد الشهية. ولكنه كان يكفي للشتاء أن يحل حتى يهرع محبو الأكل الى التعويض عما فاتهم فينبرون للطعام ويأكلون ويأكلون ويأكلون... وهل كان من طبق لم يحضره الطهاة الحاذقون! كانت طبخة «كالا - بوتشا» تحظى بحب كبير، وهذا الطبق يحضر مثل المرق المخثر من كوارع الغنم ولكنه يقدم حاراً. والكرشة؟ وهل تدري ما هي الكرشة؟ أكياس صغيرة مخاطة من كرش الخروف تحشى باللحم المفروم والرز والية الغنم والزبيب والخوخ المجفف والجزر والبصل ومختلف التوابل. وتغطس

---

* الكانون - يسمى في آسيا الوسطى «صندل» وهو حفرة في أرض الغرفة يتقد فيها الجمر، وتوضع فوقها طاولة واطئة (صندلية) تغطى بحرام أو لحاف.

هذه الأكياس في قدر تسلق فيه كوارع الغنم. فما ألذها من أكلة! ولحم الخروف المهبل، والسجق المنزلية، والبلوف مع السفرجل! والقشدة - هل ثمة شيء يضاهي بلذته القشدة البخارية! ثم تأتي الفواكه، الفواكه على اختلافها - الشمام التشارجوئي والقوقاندي، البطيخ الشتوي من غيجدوان والعنب اللذيذ «أصابع الستات»...

وكل هذا كان يؤكل بكميات هائلة في العشيات الشتوية الطويلة.

لا يسقط في بخارى شتاء الا القليل من الثلوج. وحتى هذه تذوب في جزئها الأعظم حال هطولها وينقلب الوحل الذي جف سريعاً الى غبار تثيره الريح وتنشره في الشوارع كما في الصيف.

في ذلك اليوم الذي شهد الأحداث التي نأتي على ذكرها هطلت في بخارى بواكير الثلوج. والثلج الأول في العادات الشعبية يعتبر مناسبة للعبة مضحكة ترسل بمقتضاها الى الأصدقاء والمعارف رسائل مكتوبة شعراً وتسمى «برفي» - «ثلجية» تنص على اقتراح باقامة عزيمة. وكانت هذه الرسائل تبدأ تقريباً على النحو التالي:

ألثلج يستلقي كما يشاء الله له
ويدوم الثلج واليكم تأتي رسالة
ندف الثلوج كسرب حمام
تطير اليكم بألف سلام
يدوم الثلج وخلفه « برفي » تطير
نرتجي أن تستقبلونا وعندنا أمل كبير.

ويتلو ذلك تعداد الأطباق التي يود مؤلف الرسالة أن يتذوقها. كانت الرسالة تبعث مع ساع يكون عليه أن يسلمها للمرسل اليه شخصياً وأن يهرب في الحال. واذا لم يتمكن من الهروب يكون من حق صاحب البيت أن يقبض

عليه، أن يبهدله داهناً وجهه بالسخام وأن يعيد اليه الرسالة وآنذاك يكون على مؤلفها أن يقيم العزيمة.

في ذلك اليوم لم ينقطع الزوار عن المعلمة طنبور، جاء اليها المعارف والأصدقاء والجيران سائلين أن تعطي لهم نماذج الرسائل «الثلجية». وزعت المعلمة عليهم كل ما كان بحوزتها وساعدت بعضهم في نظم رسائل جديدة. أما هي فأحجمت عن الكتابة لأحد. كانت أفكارها مشغولة بأمور أخرى. فقد انتهت ثلاث من تلميذاتها من دراسة «تشاركتاب» وانتقلن الى حافظ. اثنتان منهن جاءتا مع أميهما وأخواتهما وجلبن معهن الحلوان.

استقبلت المعلمة الضيفات بترحاب وبعد هذا مباشرة أعطت للبنتين الدرس الأول من كتاب حافظ. قرأت جهاراً عدة أبيات وشرحت لهما معناها ثم دعت الى الله وحمدته واعطت الكتاب للفتاتين. جلست التلميذتان في مكانيهما مسرورتين فخورتين وغرقتا في القراءة.

كانت فيروزة قد بدأت في قراءة حافظ منذ زمان. وحينما انصرفت الضيفات دعتها المعلمة اليها وسألتها عما حضرته. فسمعت فيروزة الدرس وبعد ذلك تدارست المعلمة معها عدداً آخر من الأبيات وقالت لها قبيل الختام:

— انك تدرسين جيداً، يا بنيتي، مرحى لك، ستصيرين متعلمة. لا تستحي من السؤال اذا استعصى عليك الفهم... اسأليني، اسألي شمسية أو صديقاتك... لا حرج في ذلك...

فشكرتها فيروزة وابتعدت.

في هذا الوقت كانت شمسية جالسة مع كتابها... كانت ساهمة بعمق وتنظر أمامها دون حراك.

ونادتها المعلمة:

— عزيزتي شمسية، هيا بنا الى غرفتي، يلزمني أن اتحدث اليك.

كانت الغرفة باردة وغير مريحة. تبين أن النار في الكانون قد خمدت تقريباً.

– أوخ، الجو هنا ثلج تماماً، – وخوخت المعلمة مقشعرة. – حركي النار من فضلك!

أخذت شمسية الكريك وجرفت الرماد. بعد ذلك جلست لدن الكانون وتغطت بالحرام حتى كتفيها تقريباً.

– والآن هاتي، – خاطبتها السيدة طنبور، – قولي فيم الأمر. منذ عدة أيام وأنت على غير عادتك، طوال الوقت تفكرين...

وابتسمت شمسية ابتسامة خفيفة:

– ابدأ، لا شيء. لا افكر بشيء على وجه الخصوص.

– أنا أعرفك جيداً، يا حبيبتي، لو كان كل شيء على ما يرام لما رفعت رأسك عن الكتاب. أما الآن فانك لا تبالين حتى بالكتب، هذا واضح. فافتحي قلبك لي أنا على الاقل، قولي ماذا حدث.

كانت شمسية تحدق في نقطة واحدة. وفجأة طفحت عيناها بالدموع وراحت تبكي. لم تبد محدثتها أقل استغراب، فالارجح أنها كانت تتوقع ذلك وجلست صامتة. وأخيراً هدأت شمسية بعض الشيء فتكلمت ولكن من غير أن ترفع رأسها.

– عندنا في البيت يحضرون للعرس. يبدو أن أبي قد عزم على تزويجي قبل الربيع...

واعاقتها الدموع من جديد عن الكلام. أما السيدة طنبور فقالت ضاحكة:

– يا للغرابة! أين هي الفتاة التي تبكي حين يزوجونها؟ عاجلا أم آجلا لا بد أن يأتي يوم وتترك البنت بيت أبويها لتدخل بيت الزوج، لا مفر من ذلك، وأبوك يريد أن يسلمك بنفسه الى ذلك الذي سيصبح سيدك. بهذا يأمر الله. وأبوك ينصاع لأمر الله...

– كلا، كلا، يا معلمتي الغالية، – قالت شمسية تنظر الى المعلمة عبر دموعها. – يستحيل أن يبارك الله هذا العرس... مثل هذه القسوة وهذا الاستبداد.

– لم هو استبداد؟

– أنا لا أريد الزواج من ذلك الشخص الذي اختاروه هم... أنا... قلبي ليس من حجر. وأمي لم تسألني مرة واحدة عما في قلبي... لك وحدك أستطيع أن أقول ان قلبي هذا يشغله انسان آخر... لا تلوميني بحق الله!

ورنت السيدة طنبور باشفاق الى تلميذتها المحببة.

– الأباء لا يسألوننا عادة عن مشاعرنا. لا يسألوننا أبداً وهم الذين يختارون للبنت زوجها ويسعون الى تزويجها بأقصى سرعة. هذا ما كان وهذا ما يجري وما سيكون. أنا وأنت لن نقوى على تغييره. ستحقق مشيئة القدر. فاصبري، يا بنيتي! ومن يدري فقد تقعين في أسرة جيدة!..

– كلا وألف كلا! ولا حتى بملك الأرض... اشفقي علي، كوني لي دريئة... اذهبي الى بيتنا وتكلمي مع أمي... فلينتظروا عاماً واحداً على الأقل... عام آخر من الحرية لا أكثر! دعني أنهي كتاب «المسلك» على الأقل... اضافة لذلك ماذا سيصير من أمر المسكينة فيروزة ان أنا تركت البيت؟...

– حسناً! في الغد سأتكلم مع أمك... سأطلب لك مهلة. ولكنني أضع لذلك شرطاً: كفي عن الحزن.

ومسحت السيدة طنبور على رأس شمسية المطأطأ.

– أعد بذلك...

– عندي شرط آخر: من هو ذاك الذي وهبته قلبك؟

ارتبكت شمسية وتضرج وجهها حمرة ولكن المعلمة كررت السؤال فقالت شمسية متلعثمة:

– أشرفجان... أشرفجان، ابن نجار الصناديق...

وتذكرت المعلمة أن هذا الشاب جاء ذات مرة الى زوجها منذ فترة تربو على العام، تذكرت أن الصائغ أطرى عليه وأن شمسية أكثرت في الاستفسار عنه. فهاك اذن، متى أتاها الحب!

– اننا نلتقي منذ عدة أشهر وقد كاشفنا بعضنا بمشاعرنا... كان هو يحمل لي الكتب الجيدة وكانت هذه

الكتب تحمل الي بهجة ما بعدها بهجة! أما الآن...— انهمرت الدموع من عيني شمسية مجدداً، وقبضت على حنجرتها... ها هو أسبوع قد مضى منذ اخبروني أن الاعداء افتروا عليه اتهموه بالسرقة وزجوه في السجن.

— وهل عرف أبوك بعلاقاتكما يا ترى؟— اعربت المعلمة عن دهشتها وعجلت شمسية في التأكيد:

— كلا، كلا، فيروزة وحدها كانت تعرف، والآن تعرفين أنت أيضاً ولا ثالث...

— تظنين؟ — ووشى صوت المعلمة بريبتها. — أما أنا فأعتقد أنه عرف بالأمر ولذلك اعتقله. على كل حال حاولي أن تجري أمك أو أباك الى الحديث، اسأليهما في حذر... ومع ذلك، لا، لن توفقي أنت الى ذلك... طيب، أنا سأسأل.

وابتهلت شمسية اليها:

— استعلمي، يا حاميتي العزيزة، استعلمي... واسأليهما أن يرجئا زواجي عاماً آخر على الاكثر... قولي لهما ألا يستعجلا...

— حسناً، حسناً! ولكن ما هي حاجتك بهذا العام، ماذا سيعطيك عام واحد؟ ما هو هدفك من ذلك؟

— هدفي؟— وبدا أن شمسية صحت بعد غفلة،— أنا نفسي لا أعرف. ولكنه يخيل الي أن العام فترة طويلة... فيه يمكن أن تحدث أشياء كثيرة... فلعلنا نتوصل الى حل لقضيتي... ثم أنه يجب محاولة تحرير أشرفجان...

وهنا ترامى من الفناء صوت امرأة:

— سيدة طنبور، هل أنت في البيت؟

خرجت شمسية الى الفناء وعادت بسرعة مع محرمة غارتش. استقبلت المعلمة الضيفة على الباب، رحبت بها واجلستها في مكان الشرف قرب الكانون. خلعت محرمة عن نفسها الجيليت الحريري المبطن بفرو البرظان وقالت لاهثة:

– أوخ، لقد عرقت. الشيخوخة لا تنال مني، يبدو أن الدم ما زال يجري حاراً في عروقي.

وسألتها المعلمة:

– أنت أصغر مني سناً على ما أظن؟

– كيف أصغر، لا والله! عندما لم تكن وردة واحدة من ورداتك المائة قد تفتحت بعد كنت أنا، خادمتك الوفية، قد بلغت الاربعين. والمرأة في سن الأربعين، كما يقول الرجال، اذا لم تفطن وتموت من نفسها، اضربها حتى تموت...

– لا يقول مثل هذا الكلام الا من كان بلا اخلاق... أما أنت... فالمرء لن يعطيك أكثر من خمس وعشرين سنة مهما بالغ... ولو كنت رجلا لما تطلعت الى مائة من الصبايا المليحات ولجثوت ساجدة عند قدميك...

– جزاك الله خيراً على هذه الكلمات الطيبة،– شكرتها محرمة عن قلب صادق.– ليس عبثاً يثني الجميع على عقلك ولسانك... بخارى كلها تتحدث عن السيدة طنبور. ليس الأصدقاء وحدهم بل والأعداء يمدحونك. أخبارك وصلت الى أعيان المدينة، وسيدات البلاط يذبن شوقاً لرؤيتك والتحدث اليك... غير أننا لن نتكلم عن هذا الآن... أخبرينا أولا كيف صحتك، وكيف أحوالك؟ وزوجك المحترم كيف أحواله؟ وتلميذاتك؟

– الحمد لله، الحمد لله!

جلبت شمسية وفيروزة الضيافة – صينية عليها حلويات وابريق شاي.

– من أية جنينة هاتان الوردتان؟– سألت محرمة عندما خرجت الفتاتان.

– وأنت لم تعرفيهما؟ احداهما بنت الميرشاب عبدالرحمن.

– أه – ه! أجل، أجل، أذكر أنني رأيتها ذات مرة... لقد كبرت جداً، سمعت أنها مخطوبة والعرس قريب...

— نعم، هذا ما يقال! وعلام السرعة، الفتاة تدرس جيداً.. تفضلي كلي من فضل الله...

—شكراً! الأمر سيان، درست البنت أم لم تدرس! فهي لن تصير ملا ولا مدرساً في المدرسة، وقاضياً كذلك لن تصير! المهم أن تعرف السعادة في الحياة الزوجية وحسبها ذلك. وتلك الأقصر القامة التي كانت معها، من هي، ومن أية أسرة؟

ارتبكت المعلمة ولكنها استدركت وكأنها لم تسمع السؤال:

— أجل، أنت على حق، حسبها أن تحظى بالسعادة! وأنت كلي، يا عزيزتي حلي فمك! هاك حلاوة من قارشي طازجة، ارسلوها لنا منذ أيام... وهذه حلاوة سكرية محشوة بالفستق. زوجي يحبها وطلب أن نشتري... تذوقي أيضا الحلاوة السائلة... أخالها غير سيئة...

— شكرا، شكرا... فأنا قد تذوقتها جميعا...— قالت محرمة مع أنها طيلة الوقت لم تأكل الا قطعة حلاوة. فهمت أن المعلمة لا تريد الكلام عن الفتاة الثانية. ولكن محرمة لم تكن تهتم الآن بالفتيات فهي قد جاءت الى المعلمة شخصياً ولهذا راحت تتكلم في موضوع آخر:— هل استلمت اليوم «رسالة ثلجية» من أحد؟

— ليس بعد. ولكنني كتبت عن الجيران حوالى خمس عشرة رسالة...

— وعن نفسك هل كتبت؟

— لا، لست فارغة لعمل كهذا! أعطيت درساً للتلميذات!

— دعينا نكتب معا لأم سماحة كبير القضاة، —اقترحت محرمة بحماس.— اليوم ستكون هي في قصر ايشان بيبي. سأسلمها أنا الرسالة على رأى من صاحبة الجلالة ايشان بيبي ذاتها وسأتمكن من التملص بحيث لن تستطيع القبض علي، كوني مطمئنة. سننعم بعزيمة مجيدة، سترين!

– ولم نكتب عن اسمينا؟ لنكتب عن اسمك وحدك، وكفى!

واعترضت محرمة:

– كلا، فالسيدة ما أن تراك حتى تقبل شروطنا جميعا.

– كيف هذا: تراني؟

– أجل، فنحن معاً سنذهب الى القصر، العربة تنتظرنا،– قالت محرمة هذا بهدوء، بدا معه وكأنها تنوي الذهاب الى بيتها الخاص.

ولكن المعلمة سألت بحزم هذه المرة:

– ماذا يعني هذا كله؟ لأي غرض اذهب الى القصر؟

فهتفت محرمة نافدة الصبر:

– ما أقل فهمك! ساعة كاملة وأنا الهج واشرح! أتراك تظنين أنني جئت لكي اتذوق الحلاوة؟!

وتاهت السيدة طنبور بين التكهنات. فما لها وقصر الامير، هذا القفص الذهبي؟ هل لكي تنحني للسيدات الساميات ولكي تحابيهن وتسترضيهن؟ وماذا لو قررن فجأة أن يبقينها هناك؟ أتودع الحياة الطليقة وتفترق عن المدرسة التي تحبها كل هذا الحب؟ أتفترق عن الاصدقاء؟ كلا، لا حاجة لها بمنة أولئك الذين يعيشون خلف أسوار القصر! لقد استغنت عنهم سابقاً وستستغني عنهم لاحقاً! ولكن ماذا سيحصل ان هي لم تذهب؟ لعله من الافضل أن تذهب مرة، أن تتفرج وتعود الى البيت؟

وسألتها محرمة:

– ماذا، هل بهت؟

– وكيف لي ألا انبهت! أنا واحدة من رعايا أميرنا المعظم بسيطة ومتواضعة ومستورة الحال... مع السيدات الوجيهات لم يسبق لي أن اتلقيت أبدا... ثم فجأة الى القصر! انني ببساطة لا اعرف كيف أجيبك على هذا الاقتراح.

وضحكت محرمة بمرح.

– أنت أرجح نساء بخارى عقلا واعلاهن ثقافة... لن

تجدي ثانية مثلك مهما بحثت. دعي عنك التشكك والتردد وهيا بنا. هناك في القصر ناس مثلي ومثلك - كلنا عبيد الله.

- بالطبع نحن جميعا عبيد الله، ولكنهم شاهات ونحن رعية. كلا يا سيدتي العزيزة، أنا غير جديرة بهذا الشرف والى القصر لن اذهب.

- أنت الاجدر بين الجديرات. دعي عنك هذه الافكار... السعد والحظ في انتظارك فاسعي اليهما... هذه فرصتك الذهبية. أنا لا اشك في أن حديثك وصوتك سوف يفتنان الجميع! سوف يطمرنك بالذهب...

- شكراً، يا سيدتي! ولكنني مشدودة الى بيتي وعلي أن أعتني بزوجي وبالكتاب... رعايا صاحب الجلالة يرسلون الى بيتي المتواضع بناتهم لكي اعلمهن واربيهن على قدر وسعي. فماذا سيصير من أمرهن؟..

- سيكافئنك على عشرة كتاتيب.

- وهل القضية في المال يا سيدتي الحبيبة!- بشيء من الحدة اجابت السيدة طنبور.- ليس لاجل المال ادير أنا الكتاب. زوجي والحمدلله، معلم حاذق ونحن لا نعرف العوز الى شيء. أما الكتاب فقد تركته لي أمي أمانة، وليس بوسعي أن أعرض عنه.

واضطرت محرمة للرضوخ.

- طيب، ما دمت لا تريدين أن تخدمي بشكل دائم فلا داع! ولكنه علينا، واليوم بالذات أن نذهب الى هناك من كل بد. واذا رغبن في ابقائك على الدوام فأنا شخصيا سأنبرى لانتشالك. في هذه الامور أنا معلمة. هيا انهضي، غيري ثيابك ولنمض.

بعد تفكير قررت المعلمة أن زيارة واحدة الى القصر لن تعود عليها بضرر. بل ومن المحتمل أن لا تروق لهن هناك بتاتاً، أن لا تليق بالبلاط، من يدري! لكنها، ومهما كان الامر، لن تبقى هناك، هذا مفروغ منه!

استأذنت المعلمة ضيفتها فخرجت الى الممر ونادت

زوجها. كان طاهرجان جالسا يعمل في مكانه المعتاد على المصطبة قرب المنقل. سمع نداء زوجته فنهض، اوصد البوابة واقترب منها.

نظر الى وجهها المتكدر واعتراه القلق:

— ماذا حدث؟

— لا شيء — قالت المعلمة وابتسمت. — جاءت محرمة غارتش، تريد أن تأخذني الى قصر ايشان بيبي. بهذا أمرنها.

وفهم طاهرجان سبب تكدر زوجته لكنه قال:

— وهل ثم ما يستدعي الخوف! ستذهبين، وتتفرجين على القصر والقلعة فانت لم تكوني بعد هناك...

— هل تقف في الشارع عربة؟

— نعم، لقد رأيت عربة خوقاندية. ظننت أنها تنتظر ضيفتك.

— اتكلنا على الله، سأذهب. ولكن ما اخشاه هو أن يرغمنني على البقاء هناك...

— أجل، قد يحدث هذا. لكنه لا يجوز أيضا ألا تذهبي ما دمن قد أرسلن خلفك شخصاً.

— حسنا، سأذهب. محرمة تعد بأن تخلصني من الخدمة الدائمة. أما أنت فاعط بالك للتلميذات في غيابي. سأقول لشمسية أن تطلب اليهن اعادة الدروس. اذا تأخرت اطبخ أنت البلوف وكل.

— حسناً.

عادت المعلمة الى الضيفة، صبت لها في الكوب شاياً ودخلت الى حجرة صغيرة لتغير ثيابها. ارتدت ثوباً حريرياً جديداً مطرزا بخيوط الذهب، عصبت جبهتها بطرحة من الحرير الافرنجي ثم ردت فوقها منديلا شفافاً وردي اللون واحتذت جزمتين من الجلد الطرى «بولغارى».

بخروجها الى الفناء اعطت التوجيهات اللازمة لشمسية وفيروزة وبعد ذلك تلفعت بالملاية، فعلت الضيفة المثل وغادرت المرأتان صحن الدار. قرب البوابة وقفت تسد

بنفسها الشارع الضيق، عربة خوقاندية مسقوفة. وضع طاهرجان خلف العربة اسكملة صغيرة لكي يسهل على المرأتين الصعود اليها. وحين استوت المرأتان على العربة واسدلتا الستائر من كلا الجانبين، اعطى طاهرجان اشارة للعربجي الذى كان راكباً سرج الحصان وساق هذا حصانه باتجاه القصر. كان الطريق يمر عبر قوش مدرسة تحت قناطر آللافان وميسغران ويقود الى الريغستان مباشرة.

الثلج كان يذوب وكانت الشوارع موحلة. قابلتهم في الطريق اعداد عديدة من العربات والفيتونات والرجال الراكبين على الخيول أو الحمير وكل هذا كان يتصادم ويضج ويصيح ويضطر للتوقف والتشاحن. كانت العربة الاميرية تتمتع بحقوق خاصة وكان العربجي شابا شاطرا نشناشاً استطاع أن يتعدى الجميع و ينطلق الى الامام.

طوت المعلمة زاوية الستارة وراحت تتفرج على الشارع بشغف واهتمام. على الرغم من سوء الطقس والبرد كان جميع أصحاب الدكاكين في اماكنهم... باعة الفطائر والصمون والحلاوة كانوا يصيحون مادحين بضائعهم... وعلى الساحة ازاء قوش مدرسة احتشد الطلبة يتناقشون في أمر ما. تحت قنطرة ألللافان وقف تجار الطحين في ثيابهم التي غطاها الدقيق ومن تحت قنطرة ميسغران حيث قام سوق النحاسين ترامت طرقات الشواكيش على المعدن...

وأخيراً وصلت العربة الى طريق الريغستان المبلط. توقفت قرب الراق الخشبي، فترجل العربجي عن الفرس واقتادها من رسنها الى «الارك».

أمتار عشرة تقريبا كانت تفصل باحة القصر على بوابة «الارك». الدرب كان يرقى ربوة تحف بها من كلا الجانبين سلالم حجرية تفضي الى مصاطب طويلة وعريضة مزينة بنقوش من مادة لينة.

نزلت المعلمة ومحرمة من العربة، سوتا الملايتين على رأسيهما وشرعتا في صعود الدرج.

قرب البوابة وقف رجال الوزير الاول المقربون، رجال الدرك وحرس القصر وقادة العسكر. واغلب الظن أنهم هنا كانوا يعرفون محرمة أو ربما رأوا أن المرأتين نزلتا من العربة الاميرية – مهما كان الحال لم يعترضهما أحد ودخلتا الى القصر. كانت طنبور في «الارك» للمرة الاولى وحين مرت بكل هؤلاء الرجال تولاها قلق لا قبل لها به. سارت المرأتان في دهليز عريض مضى بهما صعودا، وكان العتمة فيه دامسة الى حد أن طنبور لم تلحظ الزنازن البارزة من جداريه على الجانبين. في هذه الزنازن سجن المشاغبون، أولئك الناس الذين تمردوا على حكم الامير الاستبدادي. حدقت في المرأتين عدة أزواج من العيون: كانت هذه عيون المساجين الذين انكبوا على الشقوق الضيقة في الابواب لكي يتملوا العابرتين. لكن السيدة طنبور ما كانت حتى لتشبته بذلك. كانت لا تزال تحت سيطرة الانطباع الأول عن فخامة «الأرك».

وفيما ترتقي السلم رأت طنبور موظفين كبار في أزياء فاخرة، قادة عسكر ذوي وجوه متعجرفة صارمة ورأت حراساً وديدبانات يخطرون جيئة وذهاباً.

وفجأة تبددت العتمة دفعة واحدة، اقتاد الدهليز المرأتين الى باحة ازاء مسجد القصر. توقفت المعلمة، استردن أنفاسها وانطلقت من جديد خلف مرافقتها.

كانت الباحة تعج بالناس – رجال العسكر في زيهم الخاص تتدلى السيوف على أحزمتهم، رجال البلاط في عمائمهم البيضاء ورجال الدين والقضاة في أروابهم الواسعة الفضفاضة ولفاتهم الكبيرة – البعض منهم كان يرتدي عدة أرواب فوق بعضها، واحد من الأطلس والآخر من الخز والثالث من الاستبرق. كانوا ينظرون الى الجميع من فوق الى تحت وهم يمسدون لحاهم بأبهة متباهين بشهادة الامير التي كانوا يحملونها مشبوكة الى العمامة. في أحيان نادرة كانت العين تقع هنا على نساء، ومن ملاياتهن كان يمكن التكهن بالطبقة التي ينتمين اليها.

الى الجنوب من المسجد رأت المعلمة باباً فخماً عظيم الرونق. كان هذا باب ذلك المبنى حيث كان الامير يستقبل كبار رجاله حين يكون في بخارى. وفي هذا القسم من «الارك» أيضاً كان يقوم عرش الامير. لكن المرأتين لم تتوجها اليه بل عطفتا الى الشرق، مرتا بباب بيت الوزير الاول المزين ببهاء ووجدتا نفسيهما قرب مدخل الحرملك.

هنا وأقفهما الحراس الذين وقفوا في الباب مجردي السيوف.

– قفا، الى أين أنتما ذاهبتان؟– سألهما حارس مسن ذو لحية.

– الى قصر «خاصة»، يا عم نياز، – قالت محرمة بدلع. – ألم تعرفنا؟

وابتسم الجندي:

– آه، هذه أنت، سمعتها تزيق – واشار الى جزمتها، – خمنت أن هذه أنت... ولكن الكثيرات يحتذين الآن جزماً تزقزق... تفضلا، تفضلا...

ودخلت المرأتان البوابة.

– أوف، هل نجلس قليلا، ونستريح؟ وجلست محرمة على مصطبة مرمرية. – أسهل على المرء أن يطوف المدينة كلها من أن يصعد الى هنا. أتجول في المدينة ولا اتعب، أما هنا... بعد كل زيارة يؤلمني حقوي يومين وركبتاي لا تسمعان مني...

نزعت المرأتان ملايتهما، القتاهما على يديهما وتحركتا نحو حرملك «خاصة» الكبير حيث كانت تعيش ايشان بيبي أم الامير عبد الاحد. في الطريق الى حرملك «خاصة» الذى كان يقوم في الجانب الجنوبي الشرقي من «الارك» مرتا بعدد من دور الحريم. في فناء الحرملك الفسيح قامت مصطبة كبيرة، وعلى طول الفناء كله تقريبا امتدت شرفة ذات درابزين. هناك كانت الخادمات يخطرن جيئة وذهابا منفذات طلبات سيدتهن وطلبات ضيفاتها. كانت محرمة

غارتش على معرفة بالجميع تقريباً، فكن يقتربن منها، يحيينها ويستفسرن عن صحتها.

هذا اليوم شرفت من قارشي الى بخارى والدة سمو ولي العهد عالم خان طورا الذي كان في هذا الوقت حاكم قارشي. وبهذه المناسبة المشهودة قررت ايشان بيبي أن تقيم حفلة استقبال.

كانت ايشان بيبي تكره كنتها كرها أسود، وكانت ساخطة كل السخط لان ابنها عالمخان أعلن وريثا لعرش بخارى، ولكنه نظرا لأن عالمخان هذا كان الابن الوحيد للامير فقد اضطر أبوه لأن يوصي له بالعرش، وبالنتيجة اضطرت الجدة أيضا لان تغير معاملتها للحفيد ولامه. وسارت الامور ظاهريا على خير وجه، كانت الحماة تولي لكنتها الاهتمام اللازم، تبدى نحوها لطفاً كاذباً وفي أوقات زيارتها لبخارى كانت تقيم اثنتين - ثلاثا من حفلات الاستقبال المهيبة محاولة أن تبهر الجميع بالثراء والبهاء. أما عالمخان-طورا ذاته فلم يكن يظهر في بخارى الا ما ندر، كان يطوف على أملاكه وكان عادة يصطحب أمه.

فيما كانت المرأتان تقطعان الشرفة باتجاه السلاملك الكبير شرحت محرمة للسيدة طنبور الاسباب التي استدعت قيام حفلة اليوم.

- اليوم بعون الله، سننعم بحفلة مرحة! صاحبة الجلالة ايشان بيبي تريد أن تعرض على كنتها كل الق بلاطها. ولهذا منح لنا، نحن العبيد الاوفياء، شرف حضور هذه الاستقبال.

عند مدخل السلاملك رحبت الخادمات بهما بكل وقار ودعونهما للدخول:

- أهلا وسهلا، تفضلا على الرحب والسعة، - خاطبتهما في الغرفة امرأة مسنة وسيمة الطلعة كانت تعطي للخادمات الاوامر والتوجيهات. - صاحبة السمو ايشان بيبي لتوها سألت عنكما، تفضلا استريحا، سأذهب أنا وابلغ بوصولكما.

من الغرفة المجاورة التي ولجتها المرأة ترامت أصوات موسيقى.

— هذه السيدة هي أمينة البيت عند صاحبة الجلالة، — شرحت محرمة للمعلمة، — بدون اذنها لا يسمح لاحد بالدخول الى ايشان بيبي. كل شيء في يديها. هل تسمعين الموسيقى والغناء؟ هذا صوت جولي سورخ.

أومأت المعلمة برأسها — بلى، انها تعرف هذه المطربة المدهشة، لقد تحدثت اليها غير مرة.

ادارت المعلمة الطرف وادركت أنها موجودة في ردهة السلاملك التي قد يعتبرها البعض غرفة أستقبال فاخرة. عوارض السقف التسع كانت مزينة بزخارف رائعة مطلية بالذهب. الزخارف الملونة على الجدران والزخارف على الباب التي ابدعها اشهر الفنانين كانت تصور حديقة ربيعية في عز ازدهارها. من وسط السقف تدلت نجفة بلورية لن ترى مثيلة لها في بيت أثرى تاجر بخارى، الاقدام كانت تغوص في سجادة حمراء وثيرة وقرب الجدران صفت الحشايا والارائك الريشية.

في الردهة اضافة الى المعلمة طنبور ومحرمة قعدت عدة نساء أخريات، محرمة غارتش نفسها لم تكن تعرف من هن. والارجح أنهن كن زوجات موظفين كبار، فقد كانت تعابير وجوههن المغطرسة تدل على ذلك. والى هنا حيناً بعد حين كانت تدخل الخادمات حاملات صواني الحلوى والفاكهة وأباريق الشاي...

لم يطل الانتظار بالمرأتين. فرغت العازفات من العزف وخرجن من بهو الضيافة على أعقابهن، ثم اطلت أمينة البيت ودعت محرمة وطنبور الى حضرة صاحبة الجلالة.

تبلبلت طنبور وارتكبت الى حد أنها بالكاد أومأت في الرد على تحية المغنية جولي سورخ. لقد أهالها ثراء البهو وبهاؤه. من السقف العالي المطلي بالذهب تدلت ثريتان بلوريتان. أربعة ابواب تخرج الى الشرفة وجميعها مزركشة بزخارف ملونة. الالوان على الابواب، على العوارض والسقف

والجدران والنوافذ تتآلف متناسقة ويتناسب معها لون السجادة الكبيرة التي فرشت الغرفة كلها. في صدر الغرفة ارتفعت سدة الشرف المزينة بالاقمشة الاستبرقية الناعمة وبالطنافس والابسطة الموشاة بالذهب. هناك قرب الكانون جلست صاحبة الجلالة ايشان بيبي متكئة على أريكة من ريش البجع وأمامها صينية ذهبية. قبالتها تربعت أم ولي العهد وعلى الجانبين منهما جلست على حشايا مخملية وحريرية زوجات الامير الراحل الاخريات وباقي كنات ايشان بيبي وغير بعيد عن هؤلاء قعدت زوجات رجال الامير وكبار قادة العسكر ورجال الدين. أمام الجميع صفت صواني حافلة بالمأكولات ونشرت دفئها في الغرفة عدة مناقل سداسية الشكل.

مرت المعلمة الى سدة الشرف على البساط المستطيل المفروش في وسط الغرفة، وساجدة باجلال قبلت يد صاحبة الجلالة الممتدة نحوها ووضعت تلك اليد على عينيها دلالة على التقدير الخاص.

وحين تجرأت المعلمة ورفعت نظرها الى ايشان بيبي رأت امرأة مسنة شائبة الشعر، كبيرة العينين، ذات وجه أسمر مستطيل. كانت ملابسها الفخمة ووضعية رأسها الشامخ بكبريا وتعابير وجهها المتغطرسة تضفي عليها عظمة وجلالا، بل وأنها بدت للمعلمة جميلة أيضا.

بعد أن انتهت المعلمة من مراسم التحيات انحنت صوب أم ولي العهد وفي الحال سمع صوت صاحبة الجلالة:

— لقد سمعنا عنك الكثير يا سيدة طنبور ولكننا نراك لأول مرة. اليوم أتيت الينا بمناسبة وصول سيدة قارشي فأهلا وسهلا! انحنت المعلمة مرة اخرى ولم تقل شيئاً.

— يقولون أنك تغنين قصائد الغزل وتعزفين على الطنبور؟

— صحيح يا صاحبة الجلالة.

— كانت عندنا في القصر عازفة واحدة على الطنبور وكنا نظن أنه ما من عازفة أخرى في بخارى كلها...

ووشوش الجميع من حولها: «اى والله، صحيح، صحيح...» أما ايشان بيبي فتابعت:

— ولكننا لا نعرف عنك الا ما سمعناه، ويجب أن نتحقق. فهاتي، اعزفي وغني لنا غزلياتك.

— بكل سرور، — قالت المعلمة وتراجعت القهقري حتى بلغت محرمة غارتش فأخذت من يديها الطنبور وقعدت على السجادة.

ابان ذلك همست ايشان بيبي في اذن أمينتها بكلام ما اقتربت هذه بعده من السيدة طنبور ودعتها للاقتراب والجلوس مقابل ايشان بيبي وكنتها الاولى.

في الوهلة الاولى اضطربت المعلمة وارتبكت ولكنها سرعان ما ضبطت نفسها، دوزنت أوتار الطنبور وشرعت تعزف. بدأت بلحن مرح سريع ولكنها رويدا رويدا راحت تنتقل الى نغم شجي يحمل اسم «عراق».

كانت ايشان بيبي تستمع في شرود، ولكن كنتها على هذا كانت في غاية الانسجام بل وهتفت مرة: «آه!» دلالة على استحسانها الزائد. وحين سمعت ايشان بيبي هذه «الآه» من شفتي ضيفتها القارشية، صارت اكثر برودة وأقل اكتراثا بل ونعست أو تظاهرت بأنها نعست.

انهت السيدة طنبور اغنيتها وانحنت لمستمعيها الصامتين. فتحت ايشان بيبي عينيها واكتفت بايماءة طفيفة من رأسها. تنحت المعلمة جانباً وغادرت بصحبة محرمة بهو الاستقبال. تصارع في سريرتها شعوران متضاربان: كانت مستاءة لان فنها وموهبتها لما يلقيا الاهتمام الكافي، وفي نفس الوقت كانت مسرورة لأن اخفاقها عند ايشان بيبي يعفيها من ضرورة الاقامة الدائمة في القصر. ومع ذلك كان استياؤها كبيرا! فهي حينما تعزف وتغني هناك تحت، للنساء البسيطات بنات وسطها ومحيطها، فانهن يقدرنها ولا يبقى الا أن يحملنها على الأيدي، أما هنا فلم يقلن لها كلمة طيبة واحدة!

وفي هذا الحين جرى بين الحماة وكنتها هذا الحديث:
قالت الكنة:
– صوتها لطيف، لقد راق لي غناؤها.
فاجابت الحماة:
– أوه يا بنيتي، المغنيات أمثالها كثيرات عندنا.
– هل ستحظى السيدة طنبور بعد الآن بشرف الحضور الدائم في امسيات جلالتكن؟
– كلا! فنحن لو صرنا ندعو الى القصر كل المغنيات اللائي يغنين عندنا مرة، فاننا سنربي كثيراً جداً من التنابل والكسالى.
فهمت الكنة أحسن الفهم أن ايشان بيبي تقول ما تقوله تشفيا منها. وهي لم تعامل طنبور بذلك البرود الا مناكدة لها ونكاية. هذه التفاهة أضحكتها ولكن في السر وحسب، فهي لم تبد دلالة وفكرت في طويتها: «مهلك، مهلك، ان لم يكن اليوم، فغدا سيصير ابني أميرا وآنذاك سأتبوأ أنا مكانك. وسيكون في مقدوري أن ادعو الى القصر كل من تحلو لي دعوته... والمعلمة سأضمها الى حاشيتي... بل وانه لمن الجيد أنك رفضتها الآن...»
وأما جهارا فقالت الكنة:
– أنت على حق يا صاحبة الجلالة!
دعت ايشان بيبي أمينة شؤون البيت اليها وأمرتها:
– ضيفي هناك في الردهة السيدة طنبور وعلى أحسن وجه! وقولي لها أننا سوف نرسل خلفها كلما شرفت صاحبة السمو من قارشي.
– حاضر! – قالت الامينة وفي الحال اضافت: – جاءت زوجة ديوان بيغي*، تريد أن تخبر جلالتكن بأمر ما.
– آه، – هتفت ايشان بيبي باهتمام. – الارجح انها تريد الكلام عن تلك الفتاة المشاغبة؟ دعيها تدخل!

---

* ديوان بيغي – رتبة عالية في سلك الدرك (كلمة طاجيكية).

خرجت الامينة الى الردهة تدعو زوجة الموظف وسردت محرمة على المعلمة قصتها.

– زوج هذه المرأة يعيش هنا، في هذه القلعة... بيته يقوم في ذلك الجانب من الحرملك. هذا رجل ذو وجه كوجه الخنزير، اضافة الى أنه أقرع. وهو يعمل في خدمة صاحبة الجلالة ايشان بيبي شخصيا... واجباته توفير كل ما تحتاج اليه جلالتها من ثياب ومجوهرات وأثاث للبيت. بمجرد أن تظهر حاجة الى شيء كانت أمينة شؤون البيت ترسل اليه خادمة. وبين هؤلاء الخادمات كانت فتاة عبدة جيء بها من قارشي كهدية من صاحبة السمو الى ايشان بيبي. كانت الفتاة على جمال رقيق وديع وكان اسمها يناسبها: نازجول – أي الزهرة الرقيقة. ولكن هذه الزهرة للاسف سرعان ما ذوت... لقد براها الاسى. واظن انها كانت من بيت كريم وقد سرقها تجار العبيد القساة وباعوها. ذات مرة ارسلت أمينة البيت نازجول هذه الى ذلك الموظف في عمل ما. كان هو في البيت لوحده، سكرانا معربدا... وحين رأى الفتاة اضاع باقي رشده، انقض عليها وما لحقت تصرخ حتى كان قد ارتكب فعلته الاثيمة. في هذا الوقت دخلت زوجته مع خادمتها وضبطته متلبسا بجرمه. اشتعلت الفضيحة ففز الزوج وهرب وبقيت الفتاة المسكينة في أيدي المرأتين المهتاجتين فنهنهتاها ضربا واقتادتاها مجللة بعارها الى ايشان بيبي في قصرها. استشاط غضب جلالتها وأمرت برمي نازجول في القبو وتركها على الخبز والماء وحدهما. أما الموظف فجاء الى ايشان بيبي يطلب السماح، قدم لها خاتماً مطعماً بالاحجار الكريمة وابان ذلك قال ان الشيطان قد ضلله وأن الفتاة نفسها اغوته واغرته. واكدت النسوة أن الفتاة وحدها مذنبة ولولا أنها استدرجته لما وقع في الشرك ولما حدث ما حدث. واليوم جاءت زوجة الموظف عن عمد تريد أن تفضح أمام السيدة القارشية الخادمة المقدمة منها.

– وماذا صار من أمر الموظف؟

— يعمل على سابق عهده، ماذا سيصير له؟
...في ذات الوقت كانت زوجة الموظف تقول لام الامير:
— ألتمس العدل! يجب معاقبة الفتاة القارشية الخبيثة الغاوية! في طرفة عين أضلت عن طريق الصواب رجلا جيداً ورعاً مقربا من صاحبة الجلالة! سلبته الرشد وهذا مع العلم أنه عبد وفي من عبيدكن... الطائعين.
وفاهت ايشان بيبي بمهابة:
— كلا والذي يحيطنا بلطفه، لم يشهد قصري اثما كهذا الاثم من قبل أبداً.
— هذه القارشية هي التي أفسدت كل شيء!— قالت الصغرى من زوجات الامير الراحل، وكانت يوما ما ضرة لايشان بيبي. لكنها هي الاخرى كانت لا تطيق أم ولي العهد.
وايدتها ثانية:
— نعم، نعم، هي بالطبع.
كانت السيدة القارشية تمتقع تارة وتزمهر أخرى... تفصد جبينها عرقا وكانت لا تكف عن مسحه بالمنديل. أخ. لو أنها كانت تملك السلطة، لكانت مزقتهن جميعا وعلى رأسهن ايشان بيبي وهذه اللقاقة الكريهة زوجة الموظف الافاكة وجميع هؤلاء االمداهنات والابواق كانت قطعتهن مزقاً! آنذاك فقط كان قلبها سيطمئن ويهدأ بالها. ولكنه لا حول لها الان ولا طول، انها مضطرة لان تصمت وتتظاهر بأنها تغني معهن ذات الاغنية وبأنها لا تشعر بوخزاتهن السامة. هكذا فقط يمكن تخييبهن، فدعهن لا يفرحن، انهن لن يرينها متكدرة مغتاظة... وياله من خطب، عبدة حقيرة تتعذب! وما همها هي؟
من جهة أخرى كانت ايشان بيبي مسرورة سرورا يفوق كل حد بالبهدلة التي يتم تمثيلها. لقد جاء كل هذا لائقا بالمقام! ولكن من هي التي رتبت هذه التمثيلية مع الفتاة القارشية يا ترى؟ اغلب الظن أنها أمينة البيت، مرحى لها

فمهما كان الحال ستكون هذه تمثيلية مناسبة جداً جداً. وسيدة قارشي ستسمع بالتأكيد فيضاً من التقريع والكلمات اللاذعة. سيكون درسا جيدا لها! وستفهم أخيراً أنها ليست ندا لايشان بيبي. فاسمعي وعي يا سيدتي المحترمة! لا تنسي من أنت، وتذكري دائما أنك لست الا أم ولي العهد، حاكم قارشي، وهذا كل شيء. راقبي تصرفاتك وأقوالك وافعالك، واحمدي الله في الليل وفي النهار على أن ابنك عين وريثا لعرش بخارى... لقد قضت علينا الضرورة بذلك، لم يكن عندنا مخرج آخر، والا..!

كان جميع الحضور على علم بالحزازة التي بين الحماة والكنة، وتزلفا الى الاقوى منهما كن يبذلن قصارى جهدهن لتلطيخ الفتاة القارشية البريئة أملا منهن في ادخال السرور على قلب أم الأمير.

في هذا الوقت كانت الخادمات قد جئن بنازجول الى الردهة. كانت يداها مربوطتين خلف ظهرها، شعرها كان منفوشاً، الرضوض تغطي وجهها والدم يسيل من جبهتها. كانت ثيابها قد تحولت الى أسمال. وكانت تشخص بعينين هامدتين الى نقطة ما في الفراغ، تتحرك بلا وعي وبالكاد تنقل قدميها. أمرتها الخادمات أن تجلس. فقعدت نازجول خاضعة قرب بالوعة الماء وتلفتت في ذهول. كانت أشبه بمن استيقظ لتوه من نوم عميق. نظراتها المعذبة تركت انطباعاً ثقيلا عند السيدة طنبور. يا للفتاة المسكينة ما أصباها، انها بريئة وليس لها حام ولا نصير! بأي ذنب تعاني هذا العذاب؟! لم تستطع المرأة الطيبة أن تكبت دموعها لدى التفكير بمصير نازجول البائس. يا للمتوحشات اللعينات! لقد كسرن للطائر الضعيف جناحيه! الحماة المتحكمة تريد أن تحقر كنتها وتذهب ضحية لذلك عبدة بريئة مهيضة الجناح. ليس عبثاً يقال: عندما تتصارع الثيران تهلك تحت الارجل الضفادع الآمنة.

— ماذا ينتظر هذه البائسة؟ استفسرت المعلمة عند محرمة بصوت خافت.

— لا اعـرف!— هزت تـلـك كتفيهـا.— سوف يستجوبونها، على الارجح، حضوريا كما يقال.
وقالت المعلمة بحمية:
— القلب يتقطع حزنا على الفتاة المسكينة الوحيدة، فهي ليست مذنبة في شيء، لقد اعتدى عليها...
— انها فقيرة وهذا هو الأهم!— أجابت محرمة مبتسمة، وكان لهذه البسمة المعنى التالي: واذن ليس لها أن تأمل بشيء... ثم اضافت:— ولكن ما بالك تقلقين هكذا؟ على رسلك! هل تستحق مثل هذا القلق كل واحدة هناك... لن يصير لها شيء، سوف يؤدبنها، يضربنها قليلا — وتصير بشراً! انها على كل حال يتيمة لا أهل لها ولا بيت.
وفيما كانت محرمة تطمئن خاطر المعلمة أمرت أمينة البيت باقتياد نازجول الى صاحبة الجلالة في بهو الاستقبال. اقتلعت الخادمات الفتاة من مكانها بخشونة وجررنها. بعد عدة دقائق ظهرت أمينة البيت ثانية واوعزت بأمر ما الى خادمة كانت تقف في الردهة. هرولت الخادمة الى الفناء وعادت من هناك تحمل كيساً وحزمة من العيدان الطرية. ومع كل هذا دخلت الى بهو الاستقبال.
— أواه،— هتفت المعلمة،— ما هذا؟ ماذا ينوين أن يفعلن بهذه الأشياء هناك؟
كانت محرمة تأتي على رغيف الخبز المدهون بالمربى فاجابت وهي تلوك:
— لا شيء على وجه الخصوص، يرمون الفتاة في الكيس، يربطونه ويبدأ الجلد.
ولم تضبط المعلمة نفسها فهتفت:
— رباه، يا للهول... يا للظلامة والاجحاف!
— هس، احذري!— ورمقت محرمة المعلمة بنظرة ذات دلالة — خلف الجدران فئران، والفئران لها آذان!
ترامى من البهو صفير القضبان، صوت الضربات على الكيس، وصراخ الفتاة المكظوم. كانت المعلمة تنتفض

متألمة لدى كل ضربة، لدى كل أنة وآهة تطلقها المجلودة. شدت يديها على أذنيها وأخيراً ما عادت تطيق فقررت أن تنصرف كليا ولكن محرمة امسكت بها:

– الى أين؟ بدون اذن أمينة البيت؟!

لزمت المعلمة مكانها. كان قلبها يخفق يائساً وكان وجهها مقطوف اللون شاحباً كوجوه الموتى. كم بلغ تقززها من كل هذا البهاء في قصر ايشان بيبي. خلف العظمة والفخامة توارت حقارة وشناعة الاهواء الانسانية الدنيئة. بدا للمعلمة أن الزخارف والنقوش المذهبة على الجدران والأبواب والنجفات مغطاة بالقيح والدم، وأن العقارب والأفاعي تخرج من السجاجيد الموبرة تخرج من الابسطة الفاقعة وتزحف. عطن هذا البيت المريع، حيث تقترف مثل هذه الاهوال، كل شيء فيه مسمم. كم كانت ستبلغ تعاستها لو أنها اضطرت للعيش هنا وللعمل في خدمة ايشان بيبي! كانت حياتها ستتسمم! وابتهلت المعلمة الى الله سائلة ألا يحدث هذا وأن يخلين سبيلها على وجه السرعة.

في هذه اللحظة انفتح الباب وخرجت الخادمات من بهو الاستقبال يحملن الكيس الذى كان يقطر دما. وفي الكيس كانت نازجول تئن بصوت يكاد لا يسمع.

من بهو الاستقبال تناهت صرخات مرحة وضحكات عالية.

لدى مرأى الدم كادت المعلمة تفقد الوعي. جلست مستلبة النفس مطأطئة االرأس...

– تفضلي، كلي يا عزيزتي!– عزمتها أمينة البيت بوداد.– حلي فمك!

انتشل هذا الصوت المعلمة من غفلتها، رفعت رأسها، وغاصبة نفسها على الابتسام قالت:

– لقد تذوقت كل شيء، شكرا! اذا كنت تسمحين ساذهب الى البيت.

— نسمح بالطبع نسمح... ولكن حبذا لو تتذوقين بلوفنا أيضا... لقد اعجب فنك وصوتك ضيفتنا كثيرا وقد تفضلت صاحبة الجلالة بالقول بأنك سوف تدعين الى الحرملك كلما قدمت أم ولي العهد الينا في بخارى... ولقاء خدماتك اليوم هاك هذه القطعة من المخمل، هدية. صلي من أجل ولية نعمتنا السيدة ايشان بيبي!

ولهجت محرمة غارتش وأمينة البيت بالدعاء. اضطرت المعلمة لقبول قطعة المخمل. وانحنت باجلال نحو بهو الاستقبال.

اذنت أمينة البيت للمرأتين بالانصراف. عند الباب ناولتهما خادمة ملايتيهما وبرقعيهما.

خرجتا فقالت المعلمة متنهدة بارتياح:

— الحمد لله، الحمد لله على أننا ننصرف أخيرا!

وضحكت محرمة قائلة:

— لقد حالفك الحظ، فقد رقت للسيدة القارشية. وهذا كان كافياً لان تتركك ايشان بيبي نكاية بها. أما أنا فقد عاثرني الحظ، اعود خالية الوفاض... لم يمنحنني هدية.

— يا عزيزتي أنت وحبيبتي! — هتفت المعلمة ببهجة، — خذي قطعة المخمل التي اهديت الي. أنت أحق مني بها، والله! خذيها وسأضيف مني عليها قطعة «ألتشا» لو اردت تكفيني السعادة بأنني ما زلت حرة كما كنت، بأن خطر الخدمة الدائمة في القصر لا يتهددني. لقاء هذا لن آسف على اعطاء أي شيء كان!

ومهما مانعت محرمة ورفضت لم تسمع المعلمة، دست لها قطعة المخمل في عبها، اخذت آلتها الموسيقية ومضت المرأتان في الطريق.

وفيما كانتا تمران ببيت الوزير الأول التقيتا بالميرشاب الذي كان يسرع الى هناك في شبه عدو وهو يلهث وينتفخ. كان يبدو في غاية الاضطراب.

– اعانكم الله،– قالت له محرمة مقهقهة بدلال.– الى أين تسرعون هكذا؟ هل تتأخرون عن وليمة يا ترى؟

زور الميرشاب محرمة بنظرة شزرة، لقد عرفها من صوتها، لكن حاله لم تكن تسمح له بالمزاح فلم يجب بشيء. كان متكدرا خائفا فتطير بهذا اللقاء واعتبره امارة تعد بالشر، بل ولمس في صوتها شيئا من السخرية. وكان ثمة ما يخشاه، فقد بلغته شائعات عن شكاوى قدمت ضده وبلغت الامير ذاته تقريباً، وبلغه أن الدساس الرئيسي هو غني جان باي. لهذا السبب، على ما يبدو، استدعوه بهذه السرعة الى الوزير الأول. وعليه بالذات يعلق الميرشاب الآن كل أمله. فهو يعرف كل شيء بدون شك، وهو قادر أن يحمي الميرشاب من هجمات اعدائه ودسائسهم. بالطبع سيحميه! فما اكثر ما فعله الميرشاب من أجله! أمثال هذه الخدمات لا تنسى. بأوامر الوزير الاول قضى هو دون أخذ او رد على كل من أشار اليهم ذاك. فهل يعقل أن يعرض عنه في وقت الضيق؟

كان الوزير الأول جالساً في مضافته وحيداً وبلطف فائض دعا معاليه الميرشاب للجلوس قربه وقرب الكانون – رنا اليه ذاك متزلفاً، صافح يده وقعد محاولا أن يشغل أصغر حيز ممكن.

وسأل الوزير:

– كيف هي أحوالكم؟ أي جديد عندكم؟

– الحمد لله أنا سليم معافى... في ظل صاحب الجلالة، أميرنا المعظم يعم في بخارى الهدوء. رعاياه ينعمون بحماية أمينة ووثيقة!

– اننا نعرف ذلك!– بلهجة غير راضية قال الوزير ورمق الميرشاب بنظرة غاضبة. ولكن هل تعرفون أنتم يا ترى أن الجرائد الروسية والتترية والتركية تنتقل من يد الى يد وأنها تبلبل عقول الناس الراشدين وتضللهم وتفسدهم؟.. هذه الجرائد تضعف الايمان بالله جل جلاله. هاكم امتعوا نظركم! هذه جريدة «الحبل المتين» من دلهي،

وتلك جريدة اسماعيل غصبري* «ترجمان» — وناول الوزير للميرشاب الجريدتين المطويتين رباعا. — لقد حملها لي أحد مريدي المدرسة، قال ان تلاميذ وأصدقاء أحمد — مخدوم دانيش هم الذين يقرؤنها ويوزعونها بشكل رئيسي على الشبيبة ومريدى المدارس بصفة خاصة. أما أنتم فلا تعرفون شيئا وتقولون أن الهدوء يعم بخارى!

اخذ الميرشاب الجريدتين مرتبكا وراح يتفحصهما. لكن هذا كان عملا غير مجد بالنسبة له، كان سيادته أمياً. بل ولم يقدم هو على اضاعة الوقت وطرح الجريدتين جانباً.

— ليس عندى معلومات حول هذا يا معالي الوزير!.. وانتم لم تكلفوني بهذه القضايا...

— اي ـ ي، بل كلا! لا يجوز انتظار التكليفات وحسب، عليكم أن تفكروا برأسكم أيضاً. هذه الجرائد تثير البلبلة في عقول البخاريين، هل تفهمون أنتم ذلك؟! جميع التمردات والفتن تبدأ من الجرائد. وخذ أيضا ذلك الكتاب «ملا نصر الدين»**! يقولون أن صاحب الجلالة حين رآه غضب واغتاظ حتى أنه مزق الكتاب الى قطع. اننا وانتم خدمه الاوفياء ونحن نعرف خير المعرفة أنه ثمة مشاغبون ينشرون بين رعايا الدولة مثل هذه المؤلفات. هذه الكتب والجرائد المطبوعة بلغتنا أو باللغة التركية أسوأ بكثير من الجرائد الروسية... من الان وصاعدا ما أن تروا عند أحد «ملا نصر الدين» اعتقلوه حالا واستجوبوه من أين وممن أخذه... لا يجوز السماح بأن يقرأ رعايا جلالته مثل هذه الكتب والجرائد. اوعزوا لمرؤوسيكم وكذلك للملات والمريدين الذين ترونهم أهلا بالثقة أن يراقبوا معارفهم وأن يبلغوكم عن كل المشبوهين في هذا الصدد.

---

* اسماعيل غصبري — مؤسس وداعية الجديدية كان ينشر في باغتشا سراي من عام ١٨٨٣ الى عام ١٩١٤ جريدة «ترجمان» التترية البرجوازية ـ القومية.

* ملا نصر الدين — هوجحا بطل النوادر الشعبية المعروف.

– سمعاً، يا صاحب السمو! – قال الميرشاب متحابياً ومسروراً بأنه خلص بيسر وبأن غضب الوزير، كما بدا، قد زال.

وأما الوزير فتابع فيما يجمع الجرائد:

– لكنني دعوتكم في أمر آخر. لقد قدم عليكم كثير من الشكاوى. أنتم لا تحسنون التصرف، لا تعرفون مع من يجوز الخصام ومع من لا يجوز ذلك. فهل من الجائز بحال اغضاب رجل ثري وموقر مثل غني‌جان‌باي؟ ما كانت حاجتكم في أن تؤلبوه على نفسكم؟ هل ما عاد في بخارى فتيات أخريات غير عبداته؟! أما انتم فتأخذون فتاة تعود اليه، تمسكونها في بيتكم، وفي النتيجة غنمتم به عدوا. صاحب الجلالة غاضب جدا، لقد استلمت منه أمراً بأن اوبخكم كما يجب أن يكون التوبيخ، وأن اعاقبكم.

وعصف الخوف بقلب الميرشاب كزوبعة ثلجية، سرى البرد في جسده وتولته الرعشة. وآملا أن يتدفأ اقترب من نار الكانون وفأفأ بلسان عجمه الخوف:

– مذنب... أنا، مذنب يا صاحب السمو! ولكن استمعوا الي!

– ما هو الذي لم اسمعه بعد، – صرخ الوزير في غضب. – لقد وصمتم جبيني بالعار. انتم لا تحسبون لي حسابا، تهملون كل ارشاداتي وتوصياتي. وأنا كنت دائما ادافع عنكم، اشفع بكم، وما عادت لدى امكانية للقيام بذلك، كفى! أنا ملزم بالانصياع لامر صاحب الجلالة.

– سامحوني، سامحوني، يا صاحب السمو، – بصوت متهدج تضرع الميرشاب. – فأنا ليس لمنفعتي كنت أسعي... كنت انفذ تكليفكم...

– أي تكليف؟

وخالطاً في اضطرابه بين الأمور وناسياً أن كبير القضاة وليس الوزير الأول من أوكل اليه هذه المهمة، تمتم الميرشاب.

– لأجل صاحب الجلالة... من أجل صده عن الروس...
– أي روس؟– مستغرباً أكثر من ذي قبل وغاضباً أكثر من ذي قبل استنطقه الوزير،– أية علاقة للروس بهذه القضية؟ ماذا بكم، اختل عقلكم بالمرة؟!
وفجأة عادت الى الميرشاب البصيرة ادرك هفوته وتلخبط نهائياً.
– مذنب أنا، مذنب واعترف بذنبي...
ولكن الريبة كانت قد خامرت الوزير.
– أو لعلكم قد التقيتم ثانية بفضيلته؟ – سأل هو بشكل غامض الدلالة.– تلقيتم التوجيهات اللازمة، اتفقتم، وحبكتم دسيسة ما جديدة؟
– معاذ الله! لم يحدث شيء من هذا القبيل!
وايقن الميرشاب أن عليه في هذه اللحظة ذاتها أن يبدد شكوك الوزير بحجة وافية مقنعة والا فان ذاك سيصل الى الحقيقة وساعتها لن يسلم هو من شره، سيكون انتقام الوزير الأول رهيباً. فكر الميرشاب بشكل محموم، يبحث عن شيء يقوله وأخيرا وجد:
– سمعت أن غني‌جان‌باي ينوى تقديم هذه الفتاة للروس. فأى ذنب... مسلمة للروس! وعليه فكرت أنه من الافضل ابقاءها لاجل جلالته. الفتاة مناسبة...
وقاطعه الوزير بحدة:
– مغفل عديم النفع. تسطون لأجل صاحب الجلالة على عبدة غريبة! على عبدة غني‌جان‌باي، من غير أن تطلبوا موافقته؟
ثاب الميرشاب الى رشده واسترد هدوءه.
– لقد اردت أن أربيها، أن اعلمها وبعد ذلك...
– لماذا لم تستشيروني في ذلك؟
– أنا فكرت... اردت أن اربيها أولا...
– أنتم اردتم ولكن القدر أبى. لقد فات الآن اوان التفكير. بأمر من صاحب الجلالة عليكم اليوم، هل تسمعون، اليوم عليكم أن توصلوا عبدة غني‌جان‌باي الى بيته! هذا

أولا، وأما ثانياً فعليكم أن تفعلوا كل ما بوسعكم من أجل أن تتصالحوا مع غني‌جان‌باى وأن تتصادقوا معه.

— يا صاحب السمو، لكنه لم يكن بيني وبين غني‌جان‌باى أى خصام. أنا لم الحق به الاذية يوما ولا نويت أن افعل ذلك قط، بل على العكس، اتخذت كل التدابير من أجل القبض على حيدرقول. يخيل الي أن مريدى مدرسة حاجة اسبغردان يعرفون وعن اعماله شيئا ما. ولقد اعتقلت أشرف‌جان، ابن نجار الصناديق. واعتقد أنه لصغر سنه سرعان ما سيتكلم!

— ولكن كونوا على حذر، اتخذوا الاحتياطات من أجل ألا يحتج المشايخ.

— بالتأكيد، بالتأكيد!— بسرعة اكد الميرشاب وسكت خوفا من أن يقول شيئا زائدا.

وساد صمت باشر الوزير في خرقه:

— أجل، بالمناسبة، لقد كدت أنسى أهم أمر... هذا له علاقة مباشرة بكم...

وصمت الوزير من جديد كأنما متفكرا بما سيقوله الآن. أما الميرشاب فجلس يرتعش ولا يدرى بأى ذنب سوف يذكرونه أيضاً، وكانت ذنوبه أكثر من كافية... وتابع الوزير:

— لقد استلمت هذا اليوم من جلالة الامير ورقة هامة. انه منزعج لانكم عقدتم خطوبة ابنتكم الصغرى دون أن تطلبوا اذنه كما كان ينبغي.

ومن جديد عصرت يد الخوف الجليدية الباردة قلب الميرشاب. فماذا حل بتلك الطمأنينة التي كان قد أحسها، أين هي؟ ارتعد الميرشاب، امتقع وجهه وصار شاحبا كالموت نفسه. رسمت مخيلته لوحات رهيبة: رأى كيف يقترب رجال الامير من باب بيته، كيف يقتحمون البيت ويجرون ابنته، يطردون زوجته، يصادرون جميع أملاكه ويزجونه هو في السجن... أمام ناظريه امتثل فجأة وجه محرمة غارتش

الضاحك وادرك الميرشاب فورا: «أجل، هذا من صنع يديها!»

– ولكن... ولكنني استشرت سموكم بشأن ابنتي، لقد اخبرتكم، – تكلم الميرشاب متلعثما وقاطعه الوزير بغضب:

– دعوا عنكم هذا الهراء! لو أنكم استشرتموني ما كنت توانيت لحظة في القول أنه عليكم أن تطرحوا الامر على صاحب الجلالة، أن تقدموا له التماسا. وعلى كل حال، لم يفت الاوان بعد، بوسعكم أن تصححوا غلطتكم، أن تعتذروا لجلالته... اذا كنتم تريدون الحفاظ على مقامكم، بل وأن تبلغوا مرتبة أعلى،– اسمعوا مني واعملوا بنصيحتي.

وقال الميرشاب مطنبا:

– اذناي مفتوحتان على وسعهما، أصغي لكم وكلي انتباه، – وفي سره فكر الميرشاب: كم هو مخادع وماكر هذا الوزير ما دام ينفي بهذه القحة وعينا لعين ما كان قد قاله شخصيا.

وابان هذا تابع الوزير كلامه:

– نحن جميعاً عبيد أوفياء لصاحب الجلالة. انصحكم، دون توان وعلى وجه السرعة أن تكتبوا لجلالته عن أنكم تقدمون له ابنتكم من نفسكم: أجل، أجل، انتم الذين تقدمونها وما من مخرج آخر! أنا على علم بأنهم قد اطروا له عليها وامتدحوها جدا... وقد ابدى جلالته اهتماما زائدا ونواياه تجاهها أشرف ما تكون النوايا واشهمها... هل تفهمون ما أريد قوله؟ بلى، اذا حق هذا وابتسم لكم القدر ستنالون تعييناً سامياً.

وهتف الميرشاب:

– يا صاحب السمو!

– نعم هكذا،– قال الوزير مشيرا الى أن الحديث قد انتهى. – اذا كنتم تحرصون على منصبكم ورتبتكم

وعلى مقامكم وسلطتكم عليكم أن تتصرفوا كما انصحكم. في حالة العكس لا تلوموا الا نفسكم!

عندما خرج الميرشاب من بيت الوزير الاول كان مظهره أشبه بدجاجة مبللة منتوفة الريش. في اذنيه كانت تزن بشكل دائم كلمات الوزير. «في حالة العكس لا تلوموا الا نفسكم». هبط سلم «الارك» متنهدا بعمق ومضى نحو بيته متثاقلا مضطرب النفس ساهما كالمسطول.

اقترب النهار الشتائي القصير من نهايته. وكان المؤذنون يدعون الناس الى صلاة المغرب...

١٤

في الآونة الأخيرة أينعت زوجة الميرشاب خالدارخان وازدادت جمالا. كانت سعيدة تعد في سرور وغبطة للفرحة المرتقبة، فرحة الاسرة كلها - عرس الابنة الصغرى المحببة. كانت أيامها حافلة بالمشاغل: كان يجب اقامة حفلة زفاف فاخرة واعداد جهاز ثمين للعروس. من الصباح حتى المساء تجلس الخادمات يحلجن وينظفن القطن ويجففنه لاجل الحشايا والألحفة الكثيرة العدد، في الفناء كله يتردد صفير القضبان التي يندف بها القطن، وفي المطبخ كانوا يقلون لحما وتتعالى طشطشته فوق الموقد الملتهب، أما في الممر المفضي الى الشارع فكانوا يكسرون الحطب، وكانت كل هذه الاصوات تتردد في أذني خالدارخان مثل موسيقى عذبة تبشر بالعيد القريب.

في الغرفة قرب النافذة قعدت أحسن خياطتين في بخارى كلها وأمامهما تعرمت كومة من الأقمشة الثمينة - مخملا وحريراً واستبرقا - كانتا تخيطان منها الأثواب والجاكيتات والجيليتات للعروس... وعلى الشرفة تحت أشعة شمس الشتاء اللطيفة جلست شغالات الابرة يتدفأن وينجدن الألحفة. كانت جميع أركان البيت تعج بالحياة...

كانت خالدارخان تحوم كالنحلة: تارة تقترب من

الخياطتين وتارة تذهب الى المنجدات، ثم لا تظهر في المطبخ لتعطي التوجيهات الا لتعود الى الفناء كي تشرف على سير الأمور. وعلى هذا المنوال طوال النهار.

الثلج الذي هطل بالأمس، ذاب اليوم تحت أشعة شمس الشتاء الشحيحة ولكن ما أن انحدرت الشمس نحو الغروب حتى تنشنش الشيخ الصقيع فزحف من الأركان التي توارى فيها نهاراً ونشر عباءته فوراً على كل شيء...

قبيل المساء قدمت الى بيت الميرشاب خاطبة معروفة في المدينة بلقب كافشو-مخسي أي مامعناه «صرامي-جزامي». كانت ماتزال في الممر المسقوف حين تردد صوتها الجهور:

– جعلها تغيب وتبتلعها الأرض هذه الشمس العطنة المخادعة، قاتلة الأطفال. بل وليس الأطفال وحدهم... حولت الثلج الى وحل والآن تجمد كل شيء من جديد– زحلوقة حقيقة! من حسن الحظ أنه لم يكن في الزقاق أحد... والا لكان ضحك علي!.. كيف وقعت... تمددت على طولي! يستحيل المشي!

استقبلت خالدارخان الضيفة بترحاب واقتادتها الى الغرفة حيث كانت الخياطتان.

– تفضلي، يا خالتي! المكان هنا دافىء ومريح... بوسعنا أن نتحدث اجلسي هنا، استريحي. – واشارت الى مكان الشرف.– على الرحب والسعة!

قعدت السيدة كافشو – مخسي، دعت الله لاصحاب البيت، قالت «أمين» وسألت:

– ألم يأت سعادته بعد؟ وابنتكم أين هي؟

– زوجي لايحسب حساباً للوقت، لا ينظر الى الساعة... لا نعرف أبدا متى يأتي وكم من الوقت سيقضي في الميرشابخانة، الله أعلم. أما شمسية بنتنا فما زالت في الكتاب.

ظهرت على وجه الخاطبة تكشيرة استهجان.

– في الكتاب؟– رن هذا السؤال بنبرة لوم.– ما

حاجتها في الذهاب الى الكتاب؟ اذا لم يكن اليوم فغداً ستدخل بيت الزوجية ومع ذلك تذهب الى الكتاب! هذا سيء، ماذا سيقول الناس؟!

— انها تحب الدراسة، لقد اعتادت على معلمتها. والمعلمة طنبور انسانة جيدة، أبوها نفسه لايعارض، قال: «حسنا، دعها تدرس حتى العرس، لتنهي الكتاب الذي بدأت تقرأه...» بل وأنا...

وقاطعت كافشو — مخسي ربة البيت:

— ما معنى «اعتادت»؟ الفتيات يعتدن على كل شيء.. ولكن، انتما أبوان، أيعقل أنكما لاتريدان الخير لابنتكما؟

— بكت كثيراً وترجت، — حاولت خالدارخان أن تبرر موقفها ولكن الضيفة لم تسمع وتابعت كلامها:

— جميع الفتيات يبكين عندما يتزوجن، يقلن: «لا أريد، تبا له هذا الزوج، أنا لا أريد أن أراه...» ولكن من يعطي لهذا بالا؟ أم أنك أنت لم تبكي، عندما دخلت بيت الزوجية؟ هل نسيت؟ كل هذا هراء، هراء.

وقالت احدى الخياطتين بلهجة وعظية:

— البنات بالدموع يجلبن سعادتهن.

— اي والله! — هتفت الخاطبة.

أما خالدارخان فاستمرت تقنع الخاطبة:

— وقلنا نحن حسناً، دعها تنهي الكتاب، ستصير أكثر علماً وثقافة.

— متعلمة أم غير متعلمة، أي فرق بالنسبة للفتاة؟ سواء صارت ابنتكم معلمة أم لم تصير، سوف تتزوج على كل حال... وضعي في عملك أن المتعلمة تعتبر أسوأ من غير المتعلمة، يقولون: عيناها مفتوحتان على كل شيء، وتستطيع أن تقرأ كل شيء.

اقتنعت خالدارخان أن الجدال مع كافشو — مخسي غير مثمر، فنهضت، واقتربت من الباب نادت الخادمة التي لزمت المطبخ الدافىء لا تغادره:

— مرادجول، مرادجول! أين أنت؟

بعد ذلك مدت أمام الضيفة والخياطتين السماط، وضعت عليه صينية الضيافة، قطعت رغيف الخبز وقالت: مالحونا!

في هذا الحين جاءت مرادجول بابريق الشاي فكان هذا عز المطلوب. انشغل الجميع بالشاي وباللقلقة.

حل المساء. كانت الشمس قد غابت حينما ولجت شمسية وفيروزة الفناء. رأتهما خالدارخان من النافذة فصاحت:

— شمسية! ضعي كتبك وعجلي الى هنا.

فأجابت الفتاة برقة:

— حسناً!

وصعدت شمسية مع فيروزة الى الطابق الثاني الى غرفتها الصغيرة التي تتصل بكرار غير كبير وتطل نوافذها على فناء الدار. كانت الغرفة نظيفة مرتبة ومريحة. كل شيء فيها كان ينم عن ذوق صاحبتها. على الجدار علقت طرحة مطرزة، بدعة فريدة لواحدة من أحذق شغالات الابرة في بخارى وقعت في يدي الميرشاب بطريقة لايعلم سرها الا الله. في زاوية الغرفة كان يقوم صندوق صغير تغطيه سجادة حمراء موبرة، وفي وسطها انتصبت طاولة ظريفة واطئة ومن حولها على سجادة قيزيلاقية بديعة فرشت مفارش وحشايا وألحفة مخملية وحريرية. على الرفوف في المشكاة اصطفت الكتب والانية القيشانية الصينية وكذلك الصلصالية الحمراء.

وضعت شمسية الكتب والمحفظة على الرف، جلست على طرف المفرش وقالت ساهمة النظرات مفكرة:

— علام يدعونني، ماذا سيقولون لي هناك؟ هل لكي يعظونني ويقرأون علي الوصايا من جديد؟

واستجابت فيروزة بسرعة:

— لكن الخياطتين هناك، تخيطان، ربما يدعونك كي تقيسي ثوباً؟

– أو ربما كفنا، – بنفس تلك اللهجة الحزينة ردت شمسية.

– أجارنا الله! – هتفت فيروزة يعتريها الاضطراب. – ماهذا الذي تقولين؟

قلبي يحس أن في الأمر شراً، – كان في صوت شمسية أسى رهيب – مريرة هي حياتي، آه كم هي مريرة! كلها كدر... ولا بصيص امل. في العالم كله ليس عندي أحد الا أنت ومعلمتنا. انتما سلواي الوحيدة! حتى أمي لا تستطيع مساعدتي... لقد اختل عقلها تماماً، فقدت الرشد...

رنت فيروزة الى صديقتها متفكرة.

– في رأيي، – قالت هي بحصافة الكبار، – أن الحزن والأسى لا يعودان على النفس الا بالضرر، لا فائدة منهما على الاطلاق... ينبغي أن تتمالكي نفسك، أن تعتصمي بالصبر وتنتظري... الأمر يتعلق بك وحدك، لن يأتيك العون من أحد!

وبرق في عيني شمسية الأمل.

– سلم هذا الثغر الذي يقطر عسلا، يا ذكيتي أنت يا حبيبتي! – واحتوت فيروزة في أحضانها، – أنت محقة، ألف مرة محقة! علام الحزن والأسى؟ يجب علي أن أحكم عقلي في الامور! الان سأنزل الى تحت، سأعرف ما يريدونه مني وأعود وأحكي لك كل شيء... سنتشاور.

اتجهت شمسية الى الباب وقالت فيروزة:

– وريثما تعودين سأكنس أنا الغرفة وأرتبها.

وهذا مع أن كل شيء في الغرفة كان نظيفا يبرق.

– الأفضل أن تحضري دروسك، تمرني على الكتابة. خذي الورق من محفظتي...

– حسنا، يا سيدتي الحبيبة، سأتمرن على الكتابة أيضاً.

ورافقت فيروزة صديقتها حتى السلم.

حين دخلت شمسية الغرفة هبت الخاطبة للقائها و قبلتها

من جبينها وهي تقول: «بارك الله فيك ودفع عنك الشر والمصائب، دعي المصائب تنهال على رأسي أنا، جعلت فداك!» بعد ذلك استفسرت الخاطبة عن صحتها، وهنا سألتها أمها:

- هل صحيح أن محرمة غارتش جاءت الى الكتاب؟
- لا أعرف، يا ماما، - أجابت شمسية غاضة الطرف. - منذ أيام جاءت امرأة الى المعلمة، باكراً في الصباح، قالت البنات أن هذه محرمة غارتش.

وهتفت كافشو - مخسي بظفر:

- أما قلت لك؟ هذه المرأة لا تقصد بيتاً بدون عمل.
- وهل تتردد السيدة طنبور على القصر؟
- لا أعرف، يا ماما، لا أعرف شيئاً عن هذا.

كانت شمسية تتكلم بصوت خافت رتيب.

وأعلنت الأم بلهجة صارمة:

- واذن ضعي في علمك، اليوم كنت في الكتاب آخر مرة. بعد الآن لن تطأ قدمك عتبته أبداً. لا قدمك ولا قدم فيروزة!

- ولكن أبي سمح بذلك، يا ماما... دعينا نكمل قراءة «المسلك» على الأقل...
- بدون «المسلك» نعيش ولا بأس علينا!

وتكلمت الخاطبة بصوت معسول:

- الآن، يا بنيتي، ما عاد يليق بك أن تخرجي الى الشارع. أبواب المدينة يمكن اغلاقها أما أفواه الناس - فلا. أنت فتاة عاقلة، تفهمين كل شيء ولست بحاجة لمن يشرح لك.

- في غرفتك، فوق، أفتحي مدرسة، علمي فيروزة صيري أنت لها معلمة وادرسي معها ما طاب لك، بل وسنجد لك تلميذات أخريات.

كانت لهجة الأم حازمة لاتقبل الرد.

قامت شمسية صامتة، انحنت ومضت الى غرفتها. تملكها يأس مطبق، ومهما حاولت فيروزة أن تسري

عنها وتطمئنها لم تجد الكلمات نفعاً. كانت شمسية تبكي بمرارة والدموع تنسال غزيرة على وجنتيها. بدا وكأنها تحدس بتلك الآلام والأشجان التي تنتظرها... ونشجت شمسية:

- هذا كله من صنع يديها، هي التي جلبت لي التعاسة هذه الكافشو - مخسي الشريرة... هي التي تلعب بعقل أمي. ياليت قدمها لم تطأ عتبة هذا البيت! ولكن ما العمل الآن، ما العمل؟ لن يتركوننا نذهب بعد الآن الى الكتاب، لا أنت ولا أنا لن نذهب. ولن أرى بعد اليوم لا صديقي ولا معلمتي.

كان بكاء شمسية يشتد ويشتد.

وقالت فيروزة وهي بالكاد تكبح دموعها...

- سأذهب الى المعلمة وأحكي لها... فلربما تساعدنا هي بشيء... وتشفع لنا.

- لا جدوى من ذلك، أنا أعرف أنه ما عاد بوسع أحد أن يساعدنا الآن!..

عاد الميرشاب الى البيت مع صلاة العشاء. كان جهماً متعباً، دخل الى الغرفة الكبيرة وقعد متثاقلا قرب الكانون.

- أين ابنتنا، أين شمسية؟- سأل هو زوجته متهدج الأنفاس.

حدقت خالدارخان في وجه زوجها المتعب، رأت تعبير القلق في عينيه واضطربت هي الأخرى:

- شمسية في غرفتها، ولكن ماذا حدث؟

لم يعر الميرشاب جواباً. جلس مغمض العينين ماداً يديه ورجليه الى الكانون. ثم كمن صحا من أفكار ثقيلة فتح عينيه أخيراً وقال بصوت مكظوم أجش:

- ها أنا ذا يومين كاملين أتعذب وقلبي يقطر دما... أما أنت فلا تلاحظين شيئاً ولا تشعرين بحالي.

فقالت الزوجة بصوت ضعيف متهدج:

- البارحة فاحت منك رائحة الخمرة، وفكرت أنا أن...

وقاطعها الميرشاب:

- فكرت! التفكير لا يضر طبعاً، ولكن ليس من يشرب الكؤوس كمن يعدها. صحيح، أنا شربت البارحة من الحزن، ولم أحك لك عما يقلقني، أردت أن أدرس بنفسي الأمر أولا، أن أجد حلا وبعد ذلك أن أخبرك... ولكن لا تخافي يا زوجة، فليس ثمة ما يستوجب ذلك.. رب ضارة نافعة كما يقال... وقد يكون كل هذا لخيرنا...

- اسألك بالله أن تتكلم! ماذا حدث؟ هلم... ان قلبي يتمزق...

- بالأمس استدعاني الوزير الأول. لقد تلقى ورقة خطيرة من صاحب الجلالة، أجل... جلالة الامير عاتب علي لانني لم استأذنه في خطوبة ابنتنا. لست أدري من هو ذلك المخلوق اللئيم الذي أخبره بالامر... اغلب الظن أنها محرمة غارتش، أو ربما شخص آخر، على كل حال عرف صاحب الجلالة. وعليه فقد نصحوني - وكان واضحاً أن الحديث يدور حول عظيم الشأن الوزير الأول - أن أكتب الآن من نفسي عارضاً شمسية على صاحب الجلالة كهدية. ولقد فكرت وفكرت وقررت أن أفعل ذلك. أجل، يا زوجة، ليس أمامنا مخرجاً آخر.

صرخت خالدارخان وارتمت على قدمي زوجها:

- ويلاه، يا أب، ما هذا الذي تقول؟ كلا، كلا!.. هذه ليست نصيحة، هذا حكم بالاعدام، علينا جميعاً! هذه نهايتنا، نهاية كل شيء!

أثر عويل الزوجة تأثيراً عميقاً على الميرشاب، أطبق عليه يأس زوجته حتى أن الدموع ترقرقت في عينيه.

طال حبل الصمت. ولكن الميرشاب استرد هدوءه بالتدريج، تذكر القرار الذي اتخذه واستعاد رباطة جأشه. رفع رأس زوجته وراح يخفف عنها. ولكن خالدارخان أبت أن تسمع شيئاً، ظلت كالمجنونة تردد قولا واحداً: ليقتلوها أولا وبعد ذلك دعهم يعطوا ابنتها للامير. في نهاية الامر

رفع الميرشاب عقيرته صار يشتم صار يقرع زوجته ثم ضاق ذرعاً فأمرها أن تصمت وأن تستمع اليه بهدوء.

– أتراك تظنين أنني لا أحب ابنتنا، أو أنني لا أقلق عليها؟– ونم صوت الميرشاب عن عتاب وحسرة.– اخ، يالك من مغفلة! يومين كاملين كنت لا أهدأ على حال، كنت لا أقوى على الاكل أو الشرب أو النوم، طوال الوقت كنت أصدع رأسي وأفكر باحثاً عن مخرج... وفهمت أنه لا يوجد مخرج آخر. افهمي يا امرأة، فنحن ان لم نخضع وان لم نكتب بأننا نعطي ابنتنا بمحض ارادتنا، فانهم سيأخذونها من خلف ستارة الزفاف... وأنذاك سيهتكون بها حتماً، سيلطخونها بالعار... أنذاك ستذهب كل ثروتنا أدراج الرياح... ستضيع الرتبة والمنصب والبيت والاملاك، سيسلبوننا كل شيء. أما اذا عملنا بنصيحة الوزير الاول وقدمناها طوعاً فان الأمير قد يتزوج من ابنتنا شرعياً، وآنذاك ستسعد هي ونسعد نحن أيضاً، هل فهمت؟

– فهمت أنه لايوجد مخرج آخر – قالت خالدارخان متنهدة – فحبذا لو يقام عرس أيضاً.

– سيقام!– أكد الميرشاب بثقة.– سوف أكتب الى الامير سوف أترجاه... كما سنعد الوزير الاول بهدية... وبأذن الله سيتم كل شيء بما يرضينا وتتحقق أمانينا. أما الآن، فقومي ونادى ابنتنا، قولي لها الآن فهذا أفضل!

وترددت خالدارخان:

– لعل هذا سابق لأوانه؟

– كلا، كلا، يجب أن نقول لها بالتي هي أحسن، يجب أن نحضرها. ولا تقلقي سيتم الامر بسلامة.

قامت خالدارخان، خرجت من الغرفة ثم عادت سريعاً ومعها شمسية. حجب الميرشاب بيده ضوء المصباح عن عينيه، تملى شمسية بامعان وقال:

– أرى أنك بكيت من جديد! أليس لك عمل آخر سوى البكاء؟ ما الذي حدث؟

ظلت شمسية صامتة، وقفت بقرب الكانون غاضة الطرف لا تنظر الى أبيها. وأجابت الأم عنها:

— تبكي بسبب الكتاب... لقد حظرت أنا عليها ألا تذهب الى الكتاب.

— وحسناً فعلت! كفاها ذهابا الى هناك... وعموماً كفاها دراسة، نعم، نعم! فابنتنا الآن سوف تترأس، باذن الله، على كل حريم الامير.

سمعت شمسية هذا فجفلت، اقشعر بدنها — واضطرب قلبها حادساً باقتراب أمر ما مريع ورهيب.

وقالت الأم:

— عسى أن تحق كلماتك. فلو حدث هذا لنلت أنا أيضاً في عتي العمر سعادتي، كنت سأنعم بالحياة، سأصير سيدة آمرة ناهية... وكل هذا بفضلك أنت، يا بنيتي؟

فأكد الميرشاب:

— سيحدث هذا من كل بد. اليوم ابلغوني نبأ طيباً وأنا أريد أن أفرحكما... لقد وصل صيت حسنك، يا بنيتي، الى الأمير ذاته. وقد تكرم جلالته باصدار أمر خطي يطلب فيه أن نعطيك له... أنا فخور بهذا وسعيد... وبالطبع وافقت وقلت ان ابنتي هي خادمة مطيعة لصاحب الجلالة! فهاك أي نبأ سعيد حملت لك اليوم، يا ابنتي! ماذا تقولين على هذا؟

ظلت شمسية على صمتها. قلبها كان يتوقف، وانهمرت الدموع من مقلتيها.

وكرر الأب سؤاله وقد نفد صبره:

— ماذا تقولين؟

وتدخلت الأم:

— وماذا لها أن تقول، يا أب؟ سوف تفعل ما نقوله نحن. فنحن لا نرجو لها غير السعادة.. آه، يا لها من ثروة... انها لا تقع لكل شخص...

— طبعاً، طبعاً، — أيدها الميرشاب. — لقد أكد لي معالي الوزير الأول أن عرساً فاخراً سيقام... ستزين

المدينة كما في العيد! مراسم الزفاف ستقام في مسجد «الأرك» وستحصل ابنتنا على قصر فاخر، أفضل من جميع القصور الأخرى. سيكون عندها عدد لا يعد من الخدم والحشم... وآنذاك...

ولكن الميرشاب لم ينه كلمته فقد وقعت شمسية على الأرض فاقدة الوعي. أخاف هذا والديها عن جد، صارا يرشان على وجهها الماء، تململا وحاصا مرتبكين. وأخيراً فتحت شمسية عينيها.

— عافاك الله، يا ابنتي، ماذا بك؟— بلطف يفوق العادة تكلم الميرشاب. أيعقل أن الخبر السعيد قد أثر عليك الى هذا الحد؟ اضبطي نفسك وحافظي على هدوئك. فالمأمول مازال بعيداً... وهل الزواج من الأمير مزحة!.. من يدري، فقد يغير الامير رأيه، ويتغير كل شيء... فلا تقلقي اذن، لا تضطربي قبل الاوان... لقد عجلت أنا في ابلاغك لكي تعكفي، تحسباً لكل أمر، على دراسة مراسم القصر وعاداته فأنت عندي لبيبة، وتفهمين بنفسك كل شيء...

ولكن ما بال شمسية صامتة؟ انها تبدو هادئة تماماً تستمع الى أبيها بلا مبالاة وكأن كل الذي يقوله ما عاد يمت اليها بصلة. أما الميرشاب الذي فسر صمتها على أنه موافقة فقد راح يتكلم في أمر آخر:

— أين فيروزة؟— سأل هو.

استمرت شمسية في سكوتها وأجابت عنها خالدراخان:

— انها، على الأرجح، في غرفة شمسية.

— ها كما فيما الأمر — الآن سوف نرسلها الى بيت غني‌جان‌باي. خدمه ينتظرونها في الشارع.

وهنا ما عادت شمسية تطيق صبراً. لقد تحملت كل الضربات التي انهالت عليها ولكنها عجزت عن تحمل هذا.

— كلا، يا أبي،— صاحت هي بصوت عال،— أشفق علي، أشفق على المسكينة فيروزة لا تعطها الى صاحب ذلك

البيت المنحوس، سوف تهلك هناك!.. ارث لشبابها، لضعفها...

وعبرت خالدارخان أيضاً عن حيرتها:

– لم هذا، ماذا حدث، يا أب؟

فاجاب الميرشاب باقتضاب:

– لا مناص من ذلك، شئنا أم أبينا! هذا أمر الأمير!

وتضرعت شمسية باكية:

– انها ستموت هناك ستهلك! أتوسل اليك، يا بابا!

ولم يول الميرشاب اهتماماً لدموعها.

– لن يحدث لها مكروه، فهناك ولدت وهناك نشأت، فلتذهب! لا أسف الا على ما أنفقناه عليها، لقد ضاعت مصاريفنا هباء الآن. سيكون علينا أن نعوض في أمر آخر... قومي يا زوجة، اخلعي عنها الثوب الذي اعطيناه لها، أعيدي لها ثوبها العتيق ودعيها تذهب!.. أخرجيها الى خدم الباي، انهم ينتظرونها في الشارع.

– كلا، يا بابا، كلا،– تضرعت شمسية،– افعل بي ما تشاء، اقتلني، لو أردت، ولكن ارحم اليتيمة المسكينة.

وقالت الأم بامتعاض:

– من هي لك حتى أنك تدافعين عنها هكذا، أخت، قريبة؟ ذيل من حمار عمك وغسالة سابعة عن صحن أمك... مادام أبوك يقول: يجب، فاذن يجب!

لكن شمسية لم تسمع هذه الكلمات ولم تبلغ مسامعها شتائم أبيها. هبت كالمجنونة غير واعية ما تفعل وانطلقت خلف أمها الى فوق، الى غرفتها. هناك احتوت في اخضانها فيروزة التي لما تعي شيئاً بعد وراحت تقبلها. حاولت الأم أن تفصل فيروزة عنها ولكن دون جدوى. اقتضاها الأمر أن تنادي السيدة كافشو – مخسي والخادمات وبمساعدتهن فقط تأتى لها أن تفصل الفتاتين.

حملت الخادمات فيروزة الخائفة الى تحت، وأما خالدارخان التي بلغ غضبها على ابنتها كل مبلغ فقد لكمتها بقبضها، انبتها بشدة ثم خرجت من الغرفة وأوصدت الباب

خلفها بالرتاج. ارتمت شمسية على السجادة باكية بمرارة...

في الأسفل أمرت خالدارخان الخادمات بأن يخلعن عن فيروزة الثوب الساتيني المغسول غير مرة، وكذلك جنيليت شمسية المخملي المحكوك وأن يعطين لها ثوبها الخاص، الشيتي المرقع الذي كان ذات يوم بهياً وزاهياً ولكنه بهت من كثرة الاستعمال وكلح لونه.

– وعندما تغير ثيابها أخرجنها الى الشارع. هناك ينتظرها خدم غني‌جان باي.

حين سمعت فيروزة هذا انخلع قلبها هلعا، اسودت الدنيا في عينيها وبدا لها أن الفانوس الذي اشتعل في الفناء قد انطفأ. دبت خلف الخادمة جسداً لا حياة فيه، دخلت الغرفة وجمدت في مكانها لا تسمع ما تقوله تلك. لكزتها الخادمة وصرخت:

– ماذا بك، هل طرشت؟!

ثابت فيروزة الى رشدها واتضح لها كل شيء: أدركت أن الباي قد انتصر وأنه استطاع أن يرغم الميرشاب على اعادتها اليه.

منذ تلك اللحظة كفت عن البكاء، ما عادت تصيح او تسترحم أو تتضرع أن لا يعطوها للباي القاسي... هذه الفتاة ابنة الرابعة عشرة كانت رابطة الجأش تجيد ضبط نفسها. منذ نعومة اظافرها خبرت فيروزة العوز، عانت الضيق والاسى، عرفت معنى التشرد والتنقل بين بيوت الغير وذاقت الهوان والمرارة ولكنها تعلمت، وهي التي تربت على يدي جدتها الحكيمة ديلارام–كنيز تعلمت وقد أمست وحيدة في هذا العالم الكبير، أن تعتمد على نفسها، ألا تنتظر العون من أحد، ألا تستشير أمرء الا نفسها وأن تصغي لصوت عقلها وحده. وصحيح أن شمسية الذكية كانت لها صديقة مخلصة حنونا وكانت تحامي عنها وتعطف عليها، ولكن فيروزة لم تلمس حسن المعاملة في بيت الميرشاب الا منها ومن خادمة واحدة هي مراد جول، أما

الآخرون فكانوا اذا اعطوها لقمة الخبز لا يفعلون هذا عن قلب سليم... جميعهم كانوا يضمرون اطماعاً ما، كانوا يخبئون نوايا خبيثة غير نظيفة... وشمسية مع أنها طيبة القلب وكريمة لكنها هي أيضاً مهيضة الجناح وبائسة وهي نفسها تستحق الشفقة والرثاء. وبالنسبة لفيروزة لا فرق بين بيت الميرشاب وبيت الباي - كلاهما لها سجن مظلم... ومثلما كانت شمسية هنا سلواها الوحيدة... سيكون عصا هناك سلوى لها وضوء أمل... لو لا هذا لهكلت فيروزة بكل بساطة... أجل، غير أنها كانت هنا تذهب الى الكتاب على الاقل، وهناك لن يسمح الباي بذلك... بل وهناك أيضاً الزوجة الصغرى مغفرات التي كانت سبباً في موت الجدة... نعم، هي التي قتلتها... ولكن ما العمل؟ في الشارع ينتظرها خدم الباي، وقد يكون عصا بينهم! انه ما زال يأمل في أن الباي سيزوجهما، وسيصير لهما بمثابة أب... من يدري، الله أعلم!..

ارتدت فيروزة الملاية، ودعت الخادمات جميعاً، وبوداد خاص ودعت مرادجول وخرجت. قرب الباب كان عصا وعبدالله في انتظارها.

...عقب انصراف فيروزة مباشرة ذوت خالدارخان دفعة واحدة. منذ الصباح وطوال النهار كانت سعيدة كل السعادة، كانت البسمة تشرق على محياها كانت تشع، أما ولآن فكمدت وما عاد يروق لها شيء. حتى المصباح الباهر الذي يسطع فوق الصينية بدا لها عاتماً كالحاً... لقد كلمها الخبر الذى حمله الزوج ومهما حاولت أن تسلم به اسخن لقلبها الامومي جرحاً بالغاً.

- لقد فعل الأعداء فعلتهم!- بربر الميرشاب،- ولكنه لم يكن أمامنا مخرج... وعلينا أن نسلم بالمقدور... سيمر هذا اليوم الاسود وسيأتي يوم ونحتفل نحن أيضاً بالنصر!...

وعقبت خالدارخان:

– لهم الشيطان! فلعلهم يشبعون بهذه الفتاة فيروزة ويهدأون قليلا... لتكن فداء لنا!

– صحيح، صحيح يا زوجة! اذا، سمح الله، وصارت ابنتنا زوجة شرعية للأمير... فاننا سنريهم...

وفطنت خالدارخان: ماذا تفعل شمسية هناك؟

– سأذهب اليها وألقي نظرة، – قالت هي، – لقد قفلت عليها بالرتاج... أخشى أن تكون قد فقدت الوعي ثانية.

– اذا كانت لاتنام تعالي بها الى هنا... سنتكلم اليها ونطمئنها...

– حسناً!

وصعدت خالدارخان الى فوق. الرتاج كما كان لم يمس، والباب موصد باحكام – لم يحاول أحد، كما يبدو، أن يدفعه من الداخل. خلف الباب سكون تام. فجأة تولى قلب الأم قلق مريع... رفعت الرتاج بيد راعشة ودخلت. كانت الغرفة غارقة في الظلام... وليس الا من النافذة المطلة على الفناء تسلل آتيا من الأسفل، من الغرفة المقابلة، ضوء المصباح الشاحب.

خطت خالدارخان عدة خطوات، اقتربت من الطاولة وتوقفت، اعتادت عيناها على الظلام، أجالت الطرف ولكنها لم تر شمسية في مكان. ونادت الام بصوت خاب متهدج:

– شمسية!

ولا مجيب. نادت مرة أخرى، بصوت أعلى قليلا... وما رد أحد... وأخيراً، أمعنت النظر ولاحظت في الزاوية فوق الصندوق شيئاً يتدلى من السقف.

– يا مصيبتي، – صرخت خالدارخان بوحشية وارتمت على الأرض مغشياً عليها.

هز موت شمسية الناحية كلها. شاركت في جنازتها اعداد غفيرة من الناس. وفي غمرة حزنه نسي الميرشاب كل شيء في الدنيا وكان يندب مثل مجنون.

صوت خالدارخان اندك من العويل والنحيب، كانت بوجهها المخدوش آلدامي وبشعرها المنفوش مثالا حياً للويل والاسى...

نادى الميرشاب بعودته الى البيت بعد دفن ابنته زوجته وهو ينشج ويئن:

– المكتوب... أين المكتوب؟ مكتوب ابنتنا... الأخير.

شخصت خالدارخان اليه بنظرة غافلة ساكنة. فكرر الزوج كلماته عدة مرات وبعد ذلك فقط أخرجت هي من جيب روب الحداد الازرق صحيفة ورق وناولتها للزوج.

قبل الميرشاب الورقة، وضعها على عينيه وراح يضرب برأسه على الجدار ناحباً صارخاً غير سامع لتعازي أحد... وأخيراً هدأ قليلا، وهتف:

– نادوا السيدة طنبور، أين هي؟

من حشد النسوة اللائي كن يبكين مع الابوين ابنتهما البائسة التي غادرت هذا العالم قبل الاوان، خرجت امرأة يلفعها منديل شاشي أبيض. راحت تتكلم ساترة وجهها بردن ثوبها، كان صوتها يرتعش من البكاء:

– أنا أسمعكم، يا سيدي!

– أهذه أنت، أنت معلمة ابنتي البائسة؟

– نعم، أنا هي... رباه كيف لم أمت وقد رأيت أحب تلميذاتي، طفلتي الغالية مسجاة فوق النعش، لست أدري كيف لم يقتلني الحزن...

تعالى البكاء مجدداً من حولها... وحين هدأ الناس بعض الشيء قال الميرشاب:

– والآن أسأل الجميع أن يتركونا لوحدنا... السيدة طنبور ستقرأ علينا مكتوب ابنتنا بصوت مسموع.

وخرج الجميع، أوصد الميرشاب الباب من الداخل، جلس قرب الممر المسقوف على الأرض مباشرة وقال باقتضاب:

– اقرئي!

تناولت المعلمة الخطاب من خالدارخان ومرت عليه

بعينيها. سدت الغصة حنجرتها وبصوت متهدج بدأت تقرأ: «أبي الحبيب وأمي الغالية!»

ولكن المعلمة عجزت هنا عن كبح دموعها فأطلقت لها العنان. وبكى معها الوالدان أيضاً. ثم هاهي قد هدأت بعض الشيء وسألها الميرشاب أن تتابع.

– «...عندما ستقرآن هذا الخطاب أكون أنا قد غادرت هذا العالم الحافل بالشر وبالضجيج والباطل. أكون قد تركته مع كل أرزائه واشجانه وبلاياه... فلا تلوماني، لم يكن أمامي مخرج اخر.

ما هو الأضنى لقلب المرء... عيش العمر وزرا؟
أم مفارقة الحبيب، والأسى في البين دهرا؟...»

وقطعت السيدة طنبور القراءة من جديد.

– أسفي عليك يا حبيبتي، يا محبة الشعر... كنت شاعرة موهوبة!

وندب الابوان بحسرة، فكل عبارة في الخطاب كان تذكرهما بفداحة خسارتهما في ابنتهما التي فقداها بذنبهما الخاص.

– «في الدنيا كلها لم يكن لي الا سلوى واحدة هي الذهاب مع فيروزة الى الكتاب، الاستماع الى دروس معلمتنا العزيزة والحلم بلقاء صديقي... وها أنتما اليوم قد حرمتماني كل هذا. وأنا أعلم أنني لن ألقى العون من أحد. وهل يشفع عندكما التوسل أو الضراعة أو الصراخ أو الدموع؟.. اليوم القيتما فيروزة المسكينة بين براثن الذئاب المفترسة لينهشوا لحمها وغداً تعرضانني أنا للعار والفضيحة، تجعلان مني عبدة لداعر رجس قبيح...

أوتدري... سبل العمر الى أين تقود؟
أسفاً، فالعمر فان... سدرة العيش اللحود.
الأسى كالسعد باطل، باطل حتى الوجود!...
فعلام العيش بطلا وعلام نحتمل عبء الوجود؟

هذه الأبيات ستساعدني على تنفيذ مانويته. أنت يا أبي الغالي لم تسألني يوماً عما يكنه قلبي بل ولا اهتمت أمي بذلك ايضاً...

أنت لم تشرب يوماً من كؤوس العمر الا العسلا
كيف تفهم بعد هذا، بائساً كانت حياته حنظلا؟

وكالحنظل مر مصيري، حافل باليأس وأنا أغادر هذا العالم حاملة معي الى القبر حبي النظيف الطاهر ومعه قلبي المحطم. سوف تبكيان موتي، سوف تئنان وتندبان، ولكن عبثاً، فقد فات الأوان، ولن تعيدني الدموع الى الحياة. فليرحم الله كل من جازت عليه الرحمة. أما اذا أردتما اسعاد روحي فأوليا الاهتمام اللازم للسيدة العزيزة طنبور، ساعدا قدر وسعكما اليتيمة المتوحدة فيروزة، لاتسمحا بأن تشرب دمها تلك الذئاب المتقمصة لبوس البشر!

ابنتكم التعيسة شمسية»

أعادت المعلمة الخطاب لخالدارخان. شكرها الميرشاب على القراءة، أخذ الخطاب من زوجته، طواه رباعاً ثم دسه في جيبه ومضى. لقد اقتنع الآن نهائياً بأن الكتاب والدراسة هما المذنبان في كل شيء، فلو لم تكون شمسية متعلمة، لو لم تقرأ الكتب، ولو لم تحفظ الشعر لما خطر على بالها قط أن تفعل هذا الذي فعلته...

١٥

عودة السنونو كانت تزف الى البخاريين اقتراب الربيع كانت السنونو تعود الى أعشاشها في البيوت وكانت بطيرانها الانيق تبهج النفس وتطرب القلب بزقزقتها المرحة. مع السنونو في ذات الوقت تقريباً كانت تظهر اللقالق وتبني اعشاشها على قمم المآذن وقباب المساجد. ولكن الربيع في هذا العام الذي يدور عنه الحديث

أتى الى بخارى قبل آن تعود السنونو وقبل أن تظهر طيور اللقلق. دفعة واحدة تألقت الشمس، استقر طقس دافىء بديع وتضمخ الهواء بعبق الأشجار المزهرة.

مامن دار في بخارى مهما صغر صحنها والا وكان فيه حوض زهور ان لم يكن فيه ساقية ماء أيضاً. وعادة يكون الصحن كله مفروشاً بالآجر الا زاوية واحدة تحفر فيها جورة لحفظ الخضار شتاء (الجزر واللفت)... وفي الصيف كانوا يعزقون هذه المقاطع ويزرعون فيها الزهور. أما حي جوي جابا في شمال غرب بخارى فقد اشتهر بحدائقه الغناء فهناك كانت المياه كافية.

كان الربيع هذا العام سخياً وقد أغدق زينته على احواض الزهور الصغيرة والكبيرة، على البساتين وعلى الرياض: تألقت الطبيعة بخضرة زمردية نضرة، انتفخت البراعم على الأشجار وأزهر الصفصاف...

تعالى صياح باعة «السوملاك» هذا الطبق الشهي الذي يحضر من الدقيق وعصير حبوب القمح البارضة. كانت اصوات الباعة تشنف السمع مذكرة أن الربيع قد أتى!.. في الربيع تحضر جميع نساء الحي «السوملاك» سوية، فليس عبثاً يسمى هذا الطبق «سوملاك» أي ثلاثون ملاكا»! وعن هذا تتكلم حتى الأغاني...

وهاهو حيدرقول قد غادر مستشفى المجانين. انه يخطو في الشوارع مرتدياً أسمالا، شعره طويل مثل شعر الدراويش المتجولين ولحيته شعثاء. لدى رؤيته كان الأطفال يركضون خلفه زرافات وهم يصيحون:

— مجنون، مجنون!

كانوا يضحكون عليه، يتحرشون به ويناكدونه، وكان هو يتظاهر بالجنون فيضحك مثلهم، يبربر بكلام مبهم وينشد بملىء صوته قصائد الغزل.

لم يحظ المجنون باهتمام أحد غير الأطفال، فوصل الى

بوابة قوال وخرج من المدينة دون معوقات، وهناك كف عن ملاحقته الأطفال أيضاً. وحين تخلص من مرافقيه الصغار المزعجين تنفس حيدرقول الصعداء وحمد الله. في ذلك الوقت لم تكن محطة القطار قد شيدت خلف بوابة قوآل بعد، كانوا قد هموا ببنائها وحسب. ولكن الاشاعات عن أن الروس سوف يأتون «بعربتهم النارية» (كما كان يسمى البخاريون القاطرة) الى قرب السور وعن أن الامير قد أعطى موافقته على ذلك، كانت قد بدأت تسري في بخارى...

لقد سبق لحيدرقول أن كان في كاغان عدة مرات. لقد حفظ الطريق جيداً وسار الآن الى هناك بخطوات ثابتة واثقة. في البداية عكف نحو المقبرة الكبيرة التي تبدأ خلف سور بخارى مباشرة... ارتقى درباً ضيقاً قاده الى أعلى المقبرة وهناك جلس على مقعد قام قرب ضريح وأمعن النظر فيما حوله. كانت المقبرة مقفرة لا أثر عليها لنفس حية. وحينأقتنع حيدرقول بأنه ليس ثمة من يلاحقه نزل الى الطريق العام الذي يقود الى كاغان.

في البدء سار الدرب عبر الحقول والبساتين لكنه بالتدريج صار يشق أحراش القصب حتى حلت هذه محل الأشجار تماماً. وأخيراً انداحت أمام حيدرقول بحيرة مترامية الأطراف كانت تسمى «بحيرة أبناء آوى» وكانت هذه الحيوانات تكثر فعلا في هذه المنطقة. لم يكن الطريق مبلطاً وكانت الأقدام تنغرس في الوحل والغبار فيحتاج السير الى جهد جهيد. لكن حيدرقول لم يكن يشعر بهذا، كان مفتوناً بالخضرة النضرة على ضفاف البحيرة، مفتوناً بالجداول التي تجري وتصب فيها، ومفتوناً بالارجاء الشاسعة التي تنداح خلفها. كان يعب بنهم النسيم الربيعي المنعش ولقد تأثر بزقزقة الطيور المرحة في السماء العالية وطرب لها حتى أنه راح يشدو هو الآخر:

أيها البلبل ابك، ابك، يا خلي الوحيد
ليس للعشاق قسمة في الأسى الا البكاء.

احتضنت الريح صوته وحملته بعيداً بعيداً، كانت الريح تداعب لحيته وتعبث بجدائل شعره الطويلة. عجز روب حيدرقول الخرق عن أن يقيه هبات الريح وكان هذا الضيف الربيعي الثمل لا يترك ثيابه الا ليعود وينحشر تحتها...

حوالى أربعة أشهر قضى حيدرقول في مستشفى المجانين. لقد مكث هناك هكذا طويلا لأنه أراد تخليص أمان قبل أن يخرج هو. وبطلب منه جاء قاري شريف بمبرد وفي الليالي بعد أن يغفو الجميع، كان حيدرقول يبرد الأصفاد والأطواق الحديدية التي كانت تغلل أمان. وأخيراً انتهى هذا العمل المرهق. في أواسط الشتاء انصاعت الأغلال وهيىء للفتى التعيس أن يهرب ويتوارى عند أصدقاء حيدرقول في مدرستهم قرب حوض «أرباب»، هناك ذات صباح ألبسوه روب أحدهم، لفوا على رأسه عمامة ومضوا به من المدينة الى ذلك الكوخ المعروف لنا، كوخ ناطور البئر قرب بوابة قاراكول.

احتدم الحاج غيظاً من هرب أمان، جن جنونه فعرض المرضى لاستجواب شنيع، ضربهم عذبهم ولكنه لم يتوصل الى شيء. ضاع أمان وكأن الأرض انشقت وابتلعته. وحين عرف والد أمان بالحادث هرع الى بخارى، صرخ على الشيخ بوحشية، اشتكى الى الميرشاب ولكن جميع التحريات منيت بالفشل. ثارت دوشة رهيبة لا مثيل لها، وتطلب الوضع حذراً بالغاً واهذا قرر حيدرقول تأجيل خروجه من مستشفى المجانين ريثما يستتب الأمر قليلا وينسى هرب أمان...

مر شهر ونصف الشهر على هرب أمان. وأخيراً فرغ صبر الأصدقاء فجاؤوا جميعاً الى الشيخ، أعطوا له مبلغاً معتبراً من المال وبهذه الطريقة أقنعوه بأن يخلي سبيل حيدرقول... أجل، أجل فالافلات من مستشفى المجانين لم يكن في تلك الأزمان من الأمور اليسيرة!..

في الأيام الأولى لزم حيدرقول حجرة قاري شريف

مستوفياً ما فاته من النوم والراحة. وبعد ذلك بات يتجول في الشوارع بشكل مكشوف مشخصاً، كما مضى، دور المجنون. كان يصرخ منشداً مقاطع من أشعار مختلفة، كان يقهقه بلا سبب، يتحدث الى أناس لا يعرفهم ويلقي الكلام خبط عشواء. ولكن ما أن يجد نفسه بين أصدقائه في المدرسة حتى كان يعود الى نفسه، فيرتب الحجرات في تؤدة، يكنس الأرض، يجلب الماء، يشعل النار في السماور، يكسر الحطب بل وكان يذهب الى السوق لابتياع الحاجيات. ولكن كان يكفيه أن يدنو من حانوت ما وخصوصاً ان كان هناك أطفال، حتى يشرع في القفز والرقص والتكشير والغناء. وكان حيدرقول دائم المرح فاستمال بذلك عطف الناس الذين اعتادوا عليه ومنوا عليه بلقب «هل تروم صداقتي؟» فبهذه الكلمات تبدأ أغنية كان حيدرقول يغنيها دائماً:

هل تروم صداقتي؟
لا، لا أروم!

وعلى هذا المنوال كان يعيش.

وذات مرة جازف حيدرقول حتى بالمرور أمام الميرشابخانة. هناك التقى بكالي قربان فطلب منه «ناسواي» ثم شكره بأدب جم، دعا الله له وتمنى له النجاح في أعماله. وقع هذا من قلب كالي قربان موقعاً حسناً، فهو في ذلك اليوم بالذات كان ينوي ملاعبة الميرشاب بالورق: اعتبر دعاء المجنون فأل خير، فربت على كتفه في ود ثم لكزه لكزة خفيفة ومضى حال سبيله. بعد هذا الحادث بالذات أقدم حيدرقول على مغادرة المدينة في أول مرة وطرق الدرب على غير عجل قاصداً كاغان. كان بوسعه أن يبلغها في حوالي ساعتين، لكن رحلته استغرقت وقتاً طويلا فقد بات في الطريق ليلتين وكان طوال الوقت حذراً يترقب ان كان ثمة من يتبعه أم لا.

في كاغان لم يعثر حيدرقول على عمرجان فوراً، ولكن ما أن التقى به أخيراً حتى ارتبط الرجلان بصداقة متينة.

اليوم يقصد حيدرقول كاغان للمرة الرابعة. وفي هذه المرة احجم عن التوقف في القرى القائمة على الطريق فقد كان يخف الى لقاء عمرجان وأمان. كان يلزمه أن يستشيرهما في قضية مستعجلة. هذا وكان حيدرقول هو الذي جاء بأمان الى هنا واستطاع بمساعدة عمرجان أن يجد له عملا.

خلف «بحيرة أبناء آوى» لحقت بحيدرقول عربة «فيتون» يجرها حصانان. في العربة تربع مدير البنك الروسي وأربعة جنود روس على خيولهم كانوا يحفون به من كلا الجانبين. تنحى حيدرقول جانباً متقياً العجاج ولكن الغبار غمر وجهه رغم ذلك واضطر حيدرقول للوقوف عدة دقائق مغمض العينين. حينما رقد العجاج بعض الشيء قصد حيدرقول جدول ماء فاغتسل فيه وافترش العشب يريد أن يرتاح قليلا. في هذا الوقت ظهرت من جهة بخارى عربة خوقاندية كان يجلس في مقدمتها بأبهة وبهاء أحد مقربي كبير القضاة. وكان خيالان من الدرك يحرسان سيادته. رأوا حيدرقول على ضفة الجدول فصاح له أحدهم:

– ماذا تفعل هنا، يا مجنون، «هل تروم صداقتي؟»

وهرع حيدرقول اليهم.

– أنا ذاهب الى كاغان! سأذهب الى كاغان، سأوقف القطار، لن أتركه يذهب الى بخارى، لن أسمح له بالذهاب الى هناك! أجلسني على عربتك!

وأغرق مساعد كبير القضاة في الضحك.

– أها أرى أنه عندك أعمال هامة! لوحدك تريد أن توقف القطار؟ ولكن هل ستقوى على ذلك؟ سيدهسك القطار!

– أجلسني على العربة أولا فأقول لك،– ألح

حيدرقول في طلبه وهو يخطو قرب العربة.-- ألا ترى، لقد تورمت قدماي...

تورمت من تحتي الرجلان،
يا عربجي، هل عندك وجدان
يا عربجي، ياقاسي القلب!
ألا تراني كم أنا تعبان
مستضعف في حالتي حيران
يا عربجي، يا قاسي القلب؟...

أطربت الغنوة العربجي فأوقف العربة وبأذن من سيده قال لحيدرقول:

– هلم اركب، هيا، هيا، «هل تروم صداقتي؟»!

– لا أروم!– أجاب حيدرقول وقفز على العربة بخفة.

في مؤخرة العربة رأى حيدرقول صندوقين جديدين من الجلد. كانا مغلقين وكان حيدرقول قد هم بالجلوس على أحدهما ولكن صاحب العربة نهره وأمره ان يجلس في منحى عنهما.

– ياللغرابة، وضع مقعدا جلدياً ولكنه يحرم الجلوس عليه. من هو الذي يجلس عليه اذن؟

وضحك الجميع.

– هذا ليس مقعداً، هذا صندوق، صندوق من الجلد...

– ولمن الجلد؟

– للقنصل الروسي،– قال مساعد كبير القضاة وقد تعالت ضحكته.

– دع القنصل يأكل جلداً، وأنا سآكل بلوفاً. هو جلداً، وأنا بلوفاً، القنصل جلداً وأنا بلوفاً!..

وقاطعه مساعد القاضي:

– كفى، كفى، هات قل لنا، كيف ستوقف القطار؟

– وهاكم كيف!.. العربة النارية تسير وتفش –

فش –ش، فش–ش، ولهث حيدرقول مثل قاطرة تنفث البخار، – فأحدق أنا في عينيها وأصرخ «بوف» فتتوقف – «طرقا–طروق»... لقد علمني ذلك كبير القضاة نفسه! سماحته واحد من خيرة معارفي. ذات مرة قضيت الليل في حديقة كاغان، تلك التي في اوباجولي... هل تعرفونها... في الحديقة كانت وليمة، وكبير القضاة كان هناك...

– مهلك «هل تروم صداقتي؟»، مهلك، قل لنا ما هو اسمك، اسمك الحقيقي ما هو؟

– الكل يدعونني مجنوناً، وأنا بهذا لا أهتم، بيتي هدمه الهم،– دمدم حيدرقول وغرق في الضحك.– كلا، كلا لن أتزوج، بملك الأرض لن أتزوج! مهما سألتموني ومهما رجوتموني. الآن تسألونني اسمي وغدا تزجونني. لا، لن تخدعونني، لن أرضخ بحال!

أخرج مساعد القاضي من جيبه يقطينة الناسواي، وضع قليلا منه تحت لسانه وعرض اليقطينة على حيدرقول. أخذ هذا نتفة وسهم ببصره محدقاً في نقطة واحدة.

– ما بالك؟ لماذا سكت؟

نفض حيدرقول يده مبقياً الناسواي في فمه وصمت الآخرون أيضاً. ثم فجأة بصق هو الناسواي بحدة وبربر:

– آخ، الصدق أم الصديق!

جفل مساعد القاضي الذي كان قد غفا من المفاجأة...

– عليك اللعنة!– صرخ هو بغيظ وبصق في عبه – أغرب عن وجهي!

ضحك الدركيان وضحك حيدرقول أيضاً. قفز من العربة، ومدمدماً بكلام ما هرول باتجاه السهوب.

باقترابه من عنبر التصليح في كاغان التقى حيدرقول بموظف روسي فأوقفه الاخير وسأله:

– يا سارت، الى أين؟

بحلق حيدرقول فيه بوحشية وقال:

– لقد ارسلني كبير قضاة بخارى الى القنصل الروسي... وأنت من تكون، ابن من ومن أين والى أين؟

– أنا لا... لا يفهم ما يقول...،– أجاب الموظف متلاعباً بالكلمات الطاجيكية.

– كونه لا يفهم حتى الابله يعلم...– وأشار حيدرقول ابان هذا الى رأس الموظف.– أنت شيطان بن شيطان! ومانيكي سانيكي هل تعرفها؟ وأمير بخارى هل تعرفه؟ والقيصر الأبيض هل تعرفه والقيصر الأسود هل تعرفه؟ مانيكي، سانيكي أوروس تشانيكي سارتشانيكي!..

صعق الموظف بهذا التيار من الكلمات غير المترابطة، اخذته الدهشة ولكنه حين تملى حيدرقول ورأى شعره الغزير الأشعث أدرك فيما الأمر.

– أه... سانيكي... مجنون! امض، امض، يا سارت، هيا اذهب!

– مجنون؟!– وحدق حيدرقول في الموظف بوحشية.

– الله، الله، الله! سانيكي مانيكي الله! مجنون سانيكي، مجنون مانيكي، ها–ها–ها!

ارتعدت فرائص الموظف خوفاً فتراجع القهقري وحين رأى نظرة المجنون الوحشية قفز عبر الترعة وأطلق ساقيه للريح.

قهقه حيدرقول بصوت أعلى من ذي قبل وانطلق خلفه ولكن ذاك كان يعدو ولا يلتفت، فتوقف حيدرقول، استرد أنفاسه ومضى باتجاه العنبر.

على انشاء عنبر التصليح في كاغان مرت عشر سنوات لا غير. هنا كان يشتغل خبراء سكك حديدية روسيون، اسطوات حاذقون وعمال تمديد مختلفون. بعضهم جاء الى هنا من طشقند وبعضهم من عشقاباد وأخرون من ماري... وكان بينهم منفيون من بتروغراد ممن سميوا بالمشبوهين سياسياً. كما واشتغل هنا سكان محليون – طاجيك وأوزبيك: وكان يمكن أن تقع على تتار.

كان عمرجان واحداً من أوائل السكان المحليين الذين

قدموا الى العنبر، وقد راق له العمل فاعتاده وكان يشتغل بجد وحمية.

والده حسن علي قضى عمره كله أجيراً زراعيا عند البايات في قرية زيراباد. لم يدخر من عمله شروى نقير، ومهما حاول لم يستطع، كما يقال، أن يفصل قميصين من قميص واحد. أم عمرجان ماتت من الجوع في سنة عجفاء وتركته يتيماً وهو بعد صبي في العاشرة من عمره. ترك حسن علي بيته الصغير ومع ابنه مضى يبحث عن السعادة في بناء السكة الحديدية على خط قيزيل تيبا — كاغان. نهض الابن كما ونهض الأب بالعمل، كانا يحفران الترع، ينقلان الطوب... بل وهل كان قليلا ما قاما به أيضاً — كانا ينفذان كل طلب دون رفض. وكان الرؤساء الروس راضين عنهما —كانوا يقدمون لهما طعاماً مقبولا تماماً كما وتمكنا من شراء كسوة وعاشا مع العمال الروس في احدى العربات.

ولم يترك حسن علي العمل في بناء العنبر أيضاً، وعندما اكتمل المبنى استمر يعمل هناك مع ابنه عمرجان. لم يكن يأنف الأعمال الثانوية التي يكلف بها. عادة. وهكذا عاش وتأقلم بل واتخذ لنفسه صديقين: حداد عجوز، روسي كنيته ماتفييف وعامل شاب، روسي أيضاً، اسمه نيقولاي سميرنوف.

كان يقول:

— أنا بالطبع لن أصير أسطى، لقد فاتني القطار. وأما ابني عمرجان فذهنه نير، وسيتعلم كل شيء. علماه وسأكون لكما شاكراً طول الدهر!

وعلى فراش الموت عقد يدي عمرجان ونيقولاي وكانت كلماته الاخيرة لهما مثل وصية:

— لا تتركا بعضكما، انني اعهد بكما الى الله تعالى.

وأسلم الروح مطمئن البال، واثقا من أن ابنه لقى أصدقاء أوفياء وأنه لن يضيع في هذا العالم.

وبالفعل، ارتبط الشابان بأواصر صداقة أخوية متينة.

اعطى نيقولاي لصديقه كل معارفه وكل خبرته ومهارته وجعل منه واحداً من خيرة أسطوات العنبر. وقد درس عمرجان القاطرة البخارية حتى أدق دقائقها وكانت المكائن التي يصلحها تعمل دون توقف.

كان عمرجان ونيقولاي منهمكين في تصليح قاطرة فلم يلحظا حيدرقول. وقف هو بعض الوقت صامتاً وفي النهاية صرخ:

– الصدق أم الصديق؟

التفت الصديقان تواً واستغرقا في الضحك. وضع عمرجان الاداة جانباً ونزل عن القاطرة بسرعة.

– هيا بنا، هيا، – قال هو مرحباً بحيدرقول. – أمان في البيت... عزم أن يطبخ شوربة، الارجح أنها استوت

– وماذا بشأن العمل؟ – سأل حيدرقول.

– أنا انهيت تقريباً، وما بقي سيكمله نيقولاي، هيا، هيا!

ومضى عمرجان بحزم وبخطوات واسعة أمام حيدرقول كانت نضوات جزمته تقرقع عاليا طارقة حجارة الرصيف.

كان هذا شاباً أسمر، طويل القامة قوي البنيان. عيناه السوداوان كانتا تنظران في ود الى الناس. وكانت البسمة كثيراً ما ترف على شفتيه ويرف لها شارباه الاسودان الصغيران. كان صوته رناناً وكانت حركاته رزينة هادئة.

عاش عمرجان غير بعيد عن العنبر. وكان سياج خشبي يحيط بالحوش الذي قام على أرضه بيته الصغير.

في الردهة الضيقة قام الموقد الذي كانت تطبخ فوقه في هذه اللحظة الشوربة المذكورة: من القدر الحديدي المستدير كان البخار يتصعد محتدماً ناشراً من حوله رائحة شهية، وهنا أيضاً كان الماء يغلي في ابريق الشاي.

قرب الموقد كان أمان غارقاً في العمل. وفي الوهلة الأولى لم يتعرف حيدرقول على الفتى، فالى هذا الحد

تغير بعد خروجه من مأوى الحاج أوباني الرهيب. كان في قميصه القطني الازرق ذي الازرار الصدفية الصغيرة وفي بنطاله التريكو الاسود يبدو كفارس باسل. على رأسه طاقية مخملية سوداء وعلى قدميه جزمتان عماليتان مستعملتان ولكنهما ما زالتا في حال لائقة تماماً. امتلأ خداه الحليقان بنعومة وظهر في عينيه بريق الرضى والسرور.

رأى الشاب حيدرقول فهتف:

— هذا أنت، يا عزيزي، مرحباً، مرحباً... لقد طال انتظارنا!

هش أمان للقائه وآنذاك فقط عرفه حيدرقول فعانقه مثل أخ حبيب، وقبله من جبينه.

— واذن هذا أنت... أما أنا فأنظر وأفكر — من هذا الروسي اللابس طاقية؟ ولكن كيف العيش والهمة؟ هل نسيت أحزانك واشجانك؟

— الحمد لله، الحمد لله،— هتف أمان بحبور.— لقد رق الله لحالي... ولكن لا، ليس له، بل لك ولمعونتك أنا مدين... وكذلك لاخي هذا، عمرجان... لقد آواني ورفع عن كاهلي هموم كثيرة... انني لا أفكر بشيء، لا بالماء ولا بالحطب... أنا الآن في خير حال، في خير حال... اشتغل في العنبر. أرى كل يوم من الجديد والشيق ما لم أكن أراه حتى في المنام... كم من الناس العارفين المتعلمين... انني بحاجة للتعلم منهم!..

في هذا الوقت دعا عمرجان ضيفيه الى الغرفة. جلس الجميع خلف طاولة تقوم في الوسط. جلب أمان الشاي. قال عمرجان كما جرت العادة «تفضلا» وفي الحال أضاف:

— أعذراني فأنا قد جلست الى الطاولة في لباس العمل. علي أن أستبدله. تحادثا وقتياً بدوني...

خرج عمرجان الى الردهة. وهنا أخبر حيدرقول أمان بأن أباه مات فجأة وأن مساعد كبير القضاة قد سجل كل

التركة والمال مع البيت والارض على اسم ابنته، واضعاً في واقع الامر يده على كل هذا.

ثم ختم حيدرقول حديثه بالآتي:

– اذا شئت بوسعك أن تقدم اعتراضاً وأن تسترد التركة المستحقة لك قانونياً.

واعترض أمان:

– كلا يا عماه. انني اشمئز من ذلك البيت ومن تلك الأراضي. لن ينالني من هذه التركة سوى الصداع... انها والصداع سيان!... كفاني من الله أن يمنحني الصحة والقوة ولا أريد شيئاً آخر! ثم هل لاحد أن يأخذ منهم شيئاً؟! انهم لن يفلتوا من ايديهم قشة واحدة! ان أنا اقمت عليهم دعوى سيحتدون أكثر من ذي قبل، فيبدأون بملاحقتي وقد يتمكنون، لا سمح الله، من ادخالي الى مستشفى المجانين مجدداً. كلا، تباً لهذه التركة ولمن تركها. أنا في غنى عنها!.. لقد قدمت عريضة، أريد أن أتجنس بالجنسية الروسية. والى قريتنا لن أعود أبداً!

رنا حيدرقول الى أمان مفكراً، ثم قال بعد برهة صمت:

– هل تعلم! أنا أظن أن أباك لم يمت موتته الطبيعية. ثمة من تعلم منه كيف يتصرف..

واستشاط أمان غضباً.

– الى الجحيم، دعهم يسحقون بعضهم البعض! سنرى ان كان هذا سيدوم طويلا. لا بأس، سوف يأتي دورهم! سوف يأتي يوم ونقضي على كل هذه الذئاب المفترسة المتعطشة للدماء! سوف نثأر، أجل سوف نثأر!

– من كل بد!– التقط كلمات أمان عمرجان الذي دخل الغرفة. كان قد غير ثيابه وارتدى قميصاً جديداً أزرق من الساتين، بنطالا رسمياً رصاصي اللون وحذاء أسود.– لا شك في أن دورهم سيأتي، سيأتي حتماً. لكن هذا اليوم لن يسقط من السماء ولن يظهر من تلقاء نفسه. علينا نحن، نحن الذين كانوا يضطهدوننا ويخدعوننا

ويلاحقوننا ويموتوننا جوعاً أن نصنع ما نريده بأيدينا، أن نجازيهم على ما اقترفوه بحقنا.

فسأل أمان بلهفة:

— وماذا يسعنا أن نفعل الآن؟

— يجب ابادتهم جميعاً، قتلهم واحداً بعد واحد،— هتف حيدرقول بحنق.— آخ، لو أن غنيجان باي يقع في يدي، كنت أريته، كنت أرسلته الى جهنم مع الموسيقى، بل وأية موسيقى! كنتم ستهتفون لي «يا للجدع!»

استمع عمرجان متريثاً الى كلمة حيدرقول الحارة وقال مبتسماً:

— كلا، أنا لن أقول «يا للجدع!»

— ولم لا؟ أيعقل أنك تشفق على الباي؟!

— كيف هذا؟ وهل يشفق الخاروف على الذئب، لم تراني سأشفق على الباي؟! لكن قتل الباي لن يوصلنا الى ما نبتغيه.

— ايه، ولكني على هذا سأثأر من هذا الوحش!.. غنيجان باي هو أخطر وألد أعداء الفقراء. هذا ليس انساناً، انه أفعى، أفعى خبيثة! لقد استطاع أن يخدع ويضلل عصا، هذا الشاب النزيه الطيب والراشد. لقد تصرف بشطارة وخبث بحيث صدق الفتى وعوده، آمن أن الباي سوف يزوجه من فيروزة. عن هذا أتيت اليوم كي أحدثكم، كي استشيركم، بما علينا أن نفعله.

وحكى حيدرقول مفصلا كل ما تأتى له أن يسمع ويخبر عن عصا وفيروزة. وفي الختام قال:

— كنت أخال أن عصا يميز بين الناس بشكل أفضل:

— الحب غشى على عينيه!— قال أمان متفكراً.

— لا بأس، ستزول الغشاوة،— عقب عمرجان بثقة واطمئنان.— اشرح له أنت، علمه العقل والحكمة... واذا لم تنفع الكلمات فان الحياة ستفتح له عينيه!

— هذا صحيح، الحياة تعلم، ولكن دروسها باهظة الثمن!.. بل ويحدث أن تكون الحياة نفسها هي الثمن.

سكت حيدرقول وانتابه الغم.

– صحيح، حقيقة الحياة مريرة. ولكنها أكيدة والانسان لاينساها أبداً! قال عمرجان وفي الحال أدار دفة الحديث:– ولكننا نجيد تكريم الضيف يا أمان! مثلما يقال: الجوعان لا يشبع من الكلام. هات الشوربة، الأرجح أنها استوت!

انهمك صاحبا البيت، فرش أحدهما غطاء على الطاولة وشرع الآخر في صب الشوربة.

قرع الباب ودخل نيقولاي، نيقولاي ذلك الشاب الروسي الطويل القامة، الأشقر الشعر، الأزرق العينين. بشرة وجهه النضرة، وشعره الذهبي المسرح الى الخلف الذي كشف عن جبهته العريضة كانا يضفيان عليه شباباً فيخال للمرء في الوهلة الأولى أنه في الخامسة والعشرين أو في حدود ذلك، لكن النظرة المتفحصة كانت تقع على تضاعيف دقيقة تغطي الجبين وتحيط بالعينين وتفصح عن تقدمه في السن. كان في مسلكه واثقاً متزناً، وكان جلياً أنه رجل مجرب خبر في عمره الكثير وعرف من الحياة حلوها ومرها.

انكب الجميع على الطعام... وحين فرغوا منه ورفعت الانية عن الطاولة التفت نيقولاي الى حيدرقول وراح يستفسر عن الجديد وكان عمرجان يترجم.

– ما هي أخبار بخارى؟

– ظاهرياً تسود السكينة والهدوء... بيد أن رجال الدين أثاروا ضجة بسبب السكة الحديدية التي قيل انها ستمدد الى بخارى. ثم ذاعت اشاعة بأن القيصر الأبيض خاف من الشيوخ وسوف يبني المحطة خارج المدينة.

فتكلم نيقولاي بحدة:

– كل هذا كذب ودسائس! الارجح أن رجال الدين يأملون قش الزبدة عن هذه الخضة ولهذا أثاروا الضجة!..

وأيده حيدرقول:

– هذا هو الأرجح! لقد عين كبير القضاة ابنه رئيساً

أولا لبخارى، لكن هذا كان أبعد عن أن يلقى رضى الجميع، فالوزير الأول مثلا...

— هل ترى! انهم يذرون الرماد في العيون... يثيرون الغبار، فعبر الغبار يصعب تبين حقيقة الأمر... يضجون، يثيرون الاهواء، يرهبون الأمير، وهذا كل ما يحتاجونه.

— اليوم أرسل كبير القضاة الى قنصل القيصر الأبيض صندوقين جلديين من الهدايا، لقد رأيت أنا هذا بأم عيني...

— مفهوم، كبير القضاة يبغي شراء القنصل، يريد أن يجره الى صفه. ولكن القنصل ليس أقل مكراً. فهو سيقبل الهدايا ثم يفعل ما يعود عليه بنفع أكبر. والشعب هو الذي يعاني ويدفع ثمن هذه الصفقات القذرة...

واحتدم حيدرقول من جديد:

— جميع هؤلاء الأوغاد الملاعين يجب أن يبادوا! أنا مستعد لكل شيء! سأذهب حالا واقتل غني‌جان‌باي!... بعد ذلك سأرسل الميرشاب الى جهنم وبعده كبير القضاة، ثم...

وأوقفه نيقولاي، رأى بأي ولع يتكلم حيدرقول فقاطعه وطلب من عمرجان أن يترجم وحين تبين جلية الامر ابتسم نيقولاي وراح يتكلم بصوت هادىء:

— أو تدري، يا صديقي، لا نفع في هذا! في روسيا أيضاً حدث ذات الشيء: قتلوا قيصراً بقنبلة فحل محله قيصر آخر. وخلال هذا أعدموا كثيرين من الناس وسال دم الشعب من جديد... ومع ذلك ينبغي أن نعمل... يوجد عندنا في روسيا حزب... كيف لي أن أشرح لك ذلك... حزب يتألف من أناس يريدون تغيير كل شيء... يريدون بناء الحياة الانسانية بحيث يستطيع البشر أن يعملوا في سلام وأمان، أن يعيشوا على اتعاب ايديهم دون أن يضطهدوا أحداً، ودون أن يسمحوا لاحد بأن يستغلهم أو يضطهدهم. لأجل هذا يجب على كل الناس الكادحين أن

يتحدوا، أن يطالبوا بحقوقهم وأن يطيحوا ليس بغني‌جان وحده أو بالميرشاب أو بفئة قليلة أخرى من الظالمين... بل بجميع المستبدين دفعة واحدة... يجب قطع دابرهم ومسحهم عن هذا العالم بحيث لا يعودوا اليه ثانية، وبحيث تكون جميع الأمور في أيدي الناس الكادحين! واذا أراد هؤلاء المتسلطون السابقون فبوسعهم أن يعملوا أسوة بالجميع ليعيشوا أسوة بالجميع!..

تخلف عمرجان في الترجمة ولكن فحوى ما قاله نيقولاي اتضحت رغم ذلك لحيدرقول فهتف مستغرباً:

— وهل يعقل هذا؟! هل يعقل أن يوافق غني‌جان على العمل معي كتفاً لكتف.. ها-ها-ها!

رمى نيقولاي حيدرقول بنظرة متفحصة وحين ترجم عمرجان كلماته أجاب:

— بلى، أنا أفهم أنه يصعب عليك تصور ذلك، ولكن قل، هل سيكون هذا صحيحاً؟

استمع حيدرقول الى ترجمة عمرجان وهتف:

— صحيح جداً... ألف... ألف... صحيح!

ثم صفن فجأة وقال بصوت خاب:

— ولكنه علي أولا أن أقتل غني‌جان‌باي! فهو قد لطخ بالعار ابنتي، وقتل زوجتي... كلاهما ماتت بسببه. ليس بوسعي أن انتظر ريثما يتحد جميع الفقراء. لن يتأتى لأحد أن يثنيني عن الأخذ بثأري! كيف لي أن اذعن وانتظر حتى يتحد الجميع؟ انني لن أعيش حتى ذلك الحين... والافضل أن تقولوا لي، كيف نتصرف مع عصا.

وهنا تدخل في الحديث أمان الذي جلس حتى الآن صامتاً يستمع:

— أعتقد أنه قريباً ما سيفهم كل شيء بنفسه. خير لك الآن أن تفكر بشؤونك الخاصة.

— بماذا بقي لي أن أفكر؟

— هل ستظل على هذه الحال في عداد المجانين؟

— وماذا يبقى لي؟— قال حيدرقول باسماً،— فمن أجل

هذا، من أجل أن أتجول في الشوارع بحرية قعدت في مستشفى المجانين أربعة أشهر.

– ولم لا تحاول الحصول على الجنسية الروسية؟

اكفهر وجه حيدرقول وقال:

– سأقوم أولا بواجبي وبعد ذلك يفعل الله مالا تعلمون!

وطالت بعد ذلك جلسة الأصدقاء وطال بهم الحديث. حاول نيقولاي أن يشرح بشكل مبسط تلك الأحداث التي تجري في روسيا: تكلم عن العمال، عن نضالهم من أجل حقوقهم وعن اضرباتهم وكفاحهم. وكان عمرجان يترجم. كان يترجم وقلبه مفعم بالسرور لما يراه على حيدرقول من انتباه واهتمام وتفهم. وأما أمان فان هذه الاحاديث كانت تؤثر عليه كما يؤثر ماء النبع المنعش على رجل اضناه العطش في يوم قائظ. ضمنياً كان أمان قد قطع كل صلة ببخارى، كان قد ودعها الى الأبد، فقد كان يتصور هذه المدينة مثل مستشفى مجانين كبير يسود فيه الاستبداد والبطش ويلفه الظلم والظلام.

وقد كشف لعمرجان عن أفكاره هذه غير مرة، تكلم عن بخارى باعتبارها بؤرة جميع المفاسد وجميع خبائث الأعمال. فكان عمرجان يشرح له أن بخارى لا تخلو من الصالحين، أنه لا يجوز له التفكير بنفسه فقط وأن عليه أن يرى قربه الشعب المعذب والكادحين البخاريين الذين يتطلعون مثله ومثل عمرجان الى حياة أفضل.

ينبغي النضال من أجل بخارى ومن أجل مستقبل هؤلاء الناس وسعادتهم.

كان عمرجان يعلمه كيف يفكر، وكان نيقولاي يفتح أمامه آفاق عالم واسع عظيم، فيحس أمان بتدفق قواه وزخمها الخارق ويحس بعطش هائل للعمل. كانت تعتريه أحاسيس الحرية والسعادة. وأحياناً فقط كان شعور الأسى يعكر صفو هذه السعادة، عندما كان بعض الرؤساء الروس ينادونه بازدراء «يا سارت» أو عندما كانوا

يصرخون عليه بسبب هفوة طفيفة فارغة. آنذاك كان يتكدر فيبدو له من جديد أنه وحيد مسلوب الحقوق. كان وجهه المعبر يكشف عن مزاجه لأصدقائه، وفي الحال كانوا هم يجدون طريقة للترويح عنه بكلمة طيبة أو بدعابة مرحة.

في أعماق قلبه كان أمان يعلل النفس بأمل تعلم قيادة القاطرة... آه، ياليته يصير سواقاً ويجمح بقاطرته الى الديار البعيدة... ولتهتز الأرض من تحته ولتصفر الريح في أذنيه، أمان لن يبالي، وسيقود عربته النارية الى الأمام والى الأمام...

١٦

انقضى عامان على ذلك اليوم حين جاء عصا بفيروزة الى منزل غني‌جان‌باي وهو يشع بهجة. كم بلغ سروره آنذاك، آملا أن حلمه المكنون سيتحقق أخيرا آملا أنه لن يفترق بعد الآن عن محبوبته... كان كالمخبول من السعادة حين جاء بها الى هذا المنزل، وحتى الشيخ الصقيع كان يفهم أنه ليس من البرد كان عصا يرتعش آنذاك، بل من الانفعال، فهو على العكس كان يتأجج فرحاً. وكم كانت فيروزة جميلة! فيروزة الهيفاء الميساء كانت رائعة حتى في الملاية البسيطة العتيقة. طار عقل عصا تماماً، عصفت برأسه الخواطر كأنها اعصار. فالباي وعد بأن يزوجهما... وعد بأن يقيم لهما عرساً... وسيفي بوعده... فهو قد نفذ تعهده بأن يحرر فيروزة، بأن يخلصها من الميرشاب... قال ان عصا نفسه سيقتادها الى هنا... وهاهو قد فعل... فماذا بعد؟ ستقضي فيروزة عدة أيام في فناء الحريم الداخلي وبعد ذلك يسألونها هل هي موافقة على الزواج من عصا، ستقول «نعم»، بالطبع ستقول «نعم». وهذا آخر ما بقي على عصا أن ينتظر... وبعد ذلك... طار جنان عصا لدى التفكير بما سيحدث بعد ذلك...

ولكن الأحلام خدعته. انقضى الشهر بعد الشهر،

انقضت على التوالي أربعة وعشرون شهراً بالتمام ولم ير عصا فيروزة مرة ولا سمع حتى صوتها، في البداية سافر الباي ليتفحص أملاكه ويتفقد قطعان غنمه وحوانيته المنتشرة هنا وهناك في المقاطعات. دامت رحلته ثلاثة أشهر. وحين عاد كان دائماً يتحجج بضيق الوقت مدعياً أنه لا يجد دقيقة للتحدث الى فيروزة وجهاً لوجه، ذات مرة، وكأنما اشفاقاً منه على عصا الذي سأله ان كان تكلم الى فيروزة أجاب الباي:

– مبروك، أشكرني على الخبر السعيد! فيروزة موافقة أن تصبح زوجتك. ولكنها حلفت يميناً بألا تتزوج قبل مرور ثلاث سنوات على وفاة جدتها واذن، عليك أن تنتظر عاماً آخر أو اكثر قليلا، اذا كان لك نصيب... اصطبر، ففي هذا خيرك، ستكبر الفتاة، وتصير أقدر على العمل، أقدر على خدمتك وعلى ادارة البيت... حتى في الكتب يقال ان الفراق خير للعشاق من اللقاء. ففي الفراق يتأجج الحب، يمسي أبهى وأزهى... واللقاء يخمد النار فيذوي الحب. تذكر هذا واصطبر!

وبسبب صفاء قلبه اليافع استمر عصا الغر في تصديق الباي ووقع في شراكه من جديد. لم يستطع زعزعة ثقته بالباي حتى حيدرقول الذي كان يكرر عليه بلا كلل: «كن حذراً، لا تصدقه، حاول أن تتكلم الى فيروزة».

وذات مرة، اثناء غيبة الباي عن بخارى رأت فيروزة عصا في الممر المسقوف. لم يكن في المكان أحد غيرهما. فاندفعت الفتاة نحوه. ارتمت عليه معانقة وراحت تتكلم بسرعة وهي تبتلع دموعها. قالت ان حياتها في بيت الباي رهيبة وأن القبر خير من العيش هنا. في الأونة الاخيرة بات الباي يحدجها بنظرات خبيثة، يبحلق فيها جاحظ العينين عندما تمر قربه... ومنذ أيام تجرأ وحاول أن يقبلها... لو لم تدخل الخادمة، لا أحد يدري ماذا كان سيفعل.

وسقط عصا من عليائه الى الأرض، تبددت كل أحلامه

كأنها دخان في مهب الريح. أنذاك فهم هو أخيراً كل مكر الباي، أدرك طبعه الافعواني.

بعد عدة أيام عثر على حيدرقول وافضى له بأشجانه. كان الفتى في قبضة يأس قاتل، كان يبكي مثل طفل، أما حيدرقول الذي كان يعرف جيداً طينة غني جان باي، فاستشاط غضباً حين سمع بعمائله الشيطانية الجديدة: قدحت عيناه شرراً، وارتعشت يداه. تأجج تعطشه القديم للثأر بقوة جديدة.

— ينبغي قتله!— هتف حيدرقول وسكت في الحال مفكراً في أمر ما. بعد ذلك تابع بصوت أهدأ وأخفت وبحزن شديد:— ولكن، أتدري فيم الأمر! أصدقاؤنا في كاغان أقنعوني بألا أفعل ذلك الآن، ينصحونني بأن أصبر وانتظر... فالباي، هذه الافعى السامة الخبيثة، عليه اللعنة، انتسب الى جمعية ما ووعد أن يقدم نقوداً، ليست قليلة، لأجل بناء مدارس جديدة... من المهم استلام هذه النقود أولا... ولهذا يردعني الاصدقاء يمسكون يدي... فما العمل؟ علي أن أصبر فهم ناس حكماء!.. أما أنت فكن يقظاً... كن دائماً على أهبة الاستعداد... وفيروزة أيضاً!.. ولا بأس... سيأتي يوم ويمر الحمار عبر الأوحال... مثلما يقال عندما... سينال أصدقاؤنا ما يريدون... فينحل وثاق يدي... وساعتها سأثأر... أوه، كن على ثقة! ستكون أنت وفيروزة حرين طليقين!

ظاهرياً ظل عصا على سابق عهده خادماً مطيعاً ووفياً، ولكنه بات الآن يفسر كل كلمة من كلمات الباي بطريقته الخاصة: كان يصيخ السمع حتى لنبرات وتقلبات صوته. ومحاولا أن يتكهن بنواياه الخفية كان يراقب كل حركة منه وكل اشارة. كان يتصيد فيروزة حيثما وكلما وجد الى ذلك سبيلا فيرشدها ويوجهها. كما صار يكثر من لقاءاته مع حيدرقول كي يستشيره ويسأله النصح. أجل لقد صار عصا في هذا العالم رجلا راشداً تماماً.

كان وضع فيروزة أوخم وضع. فالباي لم يجعل منها

خادمة لواحدة من زوجاته بل وضعها في خدمة الطباخة ولهذا فان الزوجات الثلاث جميعاً كن يتآمرن عليها، يتقاذفنها، يقرعنها بسبب وبلا سبب ويهننها... وكانت الطباخة أيضاً مشاكسة سريعة الغضب ولكنها ; كانت الوحيدة التي تحامي عن الفتاة المسكينة. والحق أن الباي نفسه كان ينبري للدفاع عنها لو حدث وكان حاضراً. بل ولقد لام زوجاته على سوء معاملتهن لفيروزة، غير أنه لم يفعل بذلك سوى أن صب الزيت على نارهن.

ويوماً ما كانت عدالات تحب فيروزة حباً جماً، لكنها الآن لم تكن تحاول حتى أن تردع ضرتيها والأكثر من ذلك، باتت هي الأخرى تحدج فيروزة بنظرات شزراء.

طوال النهار كانت فيروزة تدور مثل مكوك الحائك، كانت لا تفلح أن تقوم بعمل حتى يبدأ آخر. الصبح كان يطلع فيجدها في المطبخ. كانت تكسر الحطب، توقد النار في السماور وفي الموقد تحت القدر الكبير الملىء بالماء، ثم تملأ أباريق الاغتسال وتحملها الى سيداتها لتعود وتغلي لهن أيضاً الشاي مع الحليب بالكراوية في قدر خاص. بعد كل هذا كانت تغسل المواعين الباقية من مساء الأمس ثم تنظف القدور وفي خاتمة المطاف تستلمها الطباخة فتأمرها بأن تفرم البصل والجزر وأن تقطع اللحم لأجل البلوف، ثم أن تنقي الرز وأن تنقع الحمص وأن تحمل اللفت من القبو وتغسله. وليت اشغالها انتهت عند هذا، كانت واجبات فيروزة أكثر من أن تعد. وفي تلك الأيام عندما كانوا يخبزون - وكانوا يخبزون مرتين - ثلاث في الاسبوع - لم تكن فيروزة تجد دقيقة واحدة تسترد فيها أنفاسها. وكانت حرية أن تحتمل كل هذا - ففيروزة لم تكن تهاب العمل - لولا أنهن كن يسئن اليها، لو لا أنهن كن على الدوام يجرحن قلبها السقيم حتى بدون وخزاتهن، فأي لقب شنيع خلعت عليها الطباخة الشرسة، كانت تسميها: «العبدة - مفترسة البشر».

- ما أن ولدت حتى قتلت أبويك، ثم جاء دور جدتك،

أخيراً دخلت بيت الميرشاب وفي الحال هلكت ابنته الصبية... الآن ظهرت هنا!.. واني لأخشي أن تجري مصيبة على رأسي الهرم اليابس!

زوجة الباي الأولى لقبتها بـ «السيدة الصغرى»، مشيرة بذلك اشارة واضحة الى معاملة الباي لفيروزة. في كل مرة، كلما دخلت فيروزة الى غرفتها، كانت نظاكات ترمق بحسد وجه الفتاة الجميل وتقول:

— ليس عبثاً تخاصم الباي بسببك مع الميرشاب. ستصيرين، ستصيرين السيدة الصغرى. أنت جديرة بهذا! الباي يحب الجميلات وأنت جميلة! انه سيتزوجك على الرغم من فقرك. تريثي قليلا. أنا شخصياً سأخطبك له، سوف ترين، نكاية بضرتي سأفعل هذا. وسيحدث والا فان اسمي ليس نظاكات!

وقد سببت ابنة نظاكات أيضاً الكثير من المنغصات لفيروزة. كانت هذه طفلة نزقة متقلبة الأطوار كريهة الطبع. وكانت هي الأخرى تناكد فيروزة مقلدة الكبار مرددة خلفهم أقوالهم البذيئة التي كان معناها يخفى عن الطفلة في بعض الأحيان. كانت كلما شاهدت فيروزة وحيثما رأتها تصرخ في الحال:

— هذه أنت، يا آنسة، بأعتاب من تتمسحين الآن يا ترى؟ يروق لك التشرد! ادفعي باباً آخر فقد تصيرين سيدة ذات شأن.

عدالات لم تكن تماحكها ولكنها كانت تحدجها ببرودة وجفاء ولا تسمح لها بدخول غرفتها.

أكثر الأذى كان يلحق بفيروزة من مغفرات. كانت ترى فيها تهديداً لسيادتها. لقب «السيدة الصغرى» كان يستثير حنقها فتزمهر عيناها وتلقي على فيروزة نظرات نارية حاقدة. كانت تسميها الوردة الحافية ذات الاشواك لم تكن تفرط بسانحة للنيل منها وما أن تراها حتى تفح:

— آه، هذه سيدتنا الوردة الحافية، ياللابهة! عند من من أجدادك العبيد تعلمت التفخفخ هكذا؟ جدتك الساحرة

الحيزبون صارت من زمان فريسة الأفاعي والعقارب، فلم هذه الغطرسة؟ تطمعين بالباي؟ آ؟

ولم تكن تكتفي بالكلمات، كانت تسعى دائماً لان تقرصها أو تصفعها على وجهها.

في الليل فقط كانت ترتاح فيروزة. وفقط تعني: بالاسم فقط... فأية راحة يجد الانسان في فراش قذر تحت لحاف مرقع متسخ مزيت؟ كانت تهصر قلبها الذكريات عن كل الاهانات التي نزلت بها طيلة النهار وكانت تبكي من القهر والاحساس بالإساءة غير المستحقة. أحيانا كانت الطباخة تسمع نشيج الفتاة المسكينة فتقرب فراشها وتحاول أن تسري عنها، تمسح على شعرها وتبربر:

– تباً للساني السليط! أعرف أنني فظة غليظة الكلام، ولكن هذا لأني أنا الأخرى طهقت كل شيء سئمت الحياة. وها أنا أصب جام خيبتي عليك؟ لا تتكدرى، يا بنيتي لا تعطي بالا لي ولكلماتي. أنا لست مذنبة، لست أنا التي أتكلم بل لساني. هذا ديدنه، انه عندي سليط وأحرش كالمنشار. الناس يستاؤون مني وأنا لا أملك أية نية في الاساءة اليهم أبداً... وخذي نفسك مثلا. فأنا عرفت أمك وعرفت أباك. أما جدتك ديلارام – كنيز فهي التي ربتني. لقد عانيت الكثير من المصاعب في هذا البيت، منذ صغري... ومع المصاعب انقضت حياتي... لم يقدر لي أن أتزوج، وأن ألد. بقيت وحيدة في هذا العالم. حياتي كلها سم، وأنا نفسي صرت سماً. على الجميع أنفث سمي، أجرحهم، أغضبهم وأسيىء اليهم... ومن حسن حظي أن الباي ألفني منذ طفولته... ويحب ما أطبخه والا لكانوا رموني في الشارع منذ زمان أو نهنهوني ضرباً... مهارتي في الطبخ وحدها تشفع بي وتقيني جانب الباي... وبسبب هذا يحتملني الجميع... لا تبكي، لا تحزني! غداً آخذك الى الحمام، ستتفرجين على الشوارع، على الناس... ثم سنذهب واياك الى البازار، وأشتري لك حلاوة.

ولكن ليس سباب الطباخة ولا شتائمها ما كان يستزرف دموع فيروزة، كلا، ففيروزة بقلبها المرهف كانت تدرك أن الطباخة لا تضمر لها شراً! لقد أهانتها زوجات الباي. كانت فيروزة مستاءة من قسمتها المريرة. كانت تتذكر حياتها السعيدة مع جدتها، كانت تتذكر معلمتها الحبيبة وصديقتها التعيسة شمسية... وتفكر فيروزة: «يا الهي، أيعقل أن أموت مثلها في ريعان شبابي، أو أن أقضي العمر وأشيخ مثلما شاخت هذه الطباخة المسكينة في خدمة هذه الأسرة الدنيئة؟ أيعقل ألا أرى السعادة وأن أحني ظهري طول العمر في خدمة هؤلاء الناس الأشرار؟ كلا، ليس هذا ما علمتني جدتي! لن أذعن للقدر القاسي! يجب أن أنجو بنفسي، يجب أن أهرب! اذا صدقت الطباخة وأخذتني غداً الى الحمام، سوف أستأذنها وأمر على السيدة طنبور... فلربما تنصحني هي بشيء... أمن المعقول أن تعجز هي الاخرى عن مساعدتي؟..»

مع مثل هذه الأفكار كانت فيروزة تغفو، وفي الصباح الباكر يكون بانتظارها ذات العمل الشاق وذات الجري والعدو من المطبخ الى الغرف وبالعكس الى أن يحل المساء وتسيخ رجلاها من التعب.

وكانت لقاءاتها بالباي ثالثة الاثافي... اذ كان يكفيه أن يراها حتى ينطلق لسانه:

— كيف تعيشين، يا بنيتي؟ مالك لاتنظرين الي؟ ارفعي رأسك، نعم، هكذا، هكذا! عيناك حزينتان، باكيتان... يسيئون اليك؟ قولي لي، من أزعلك! أنا لن أسمح بهذا! ويل لمن يتجرأ على الاساءة اليك في هذا البيت... يا قلبي أنت ويا بهجتي!

وكان تودده وكلامه اللطيف يثير التقزز في نفس فيروزة، كانت تتحاشى نظراته وتشيح عنه عابسة. ومفتشاً في جيوبه كان الباي يخرج قطعة نقود أو قطعة سكر أو حلاوة ويقدمها لها... فترفض فيروزة وآنذاك كان هو يحاول أن يدس ما قدمه في عبها فتلامس يدا-

الباي صدرها... وتشمئز فيروزة وعلى مضض تأخذ العطاء لكي تتخلص منه وتهرب على وجه السرعة.

ومرة في الصيف، حدث أن ذهبت مغفرات منذ الصباح لزيارة أبيها، كانت نظاكات في غرفتها ترقد مريضة وعدالات أيضاً أغلقت على نفسها الباب وجلست تخيط. كانت فيروزة جالسة في احدى غرف البيت ترفو وتطوي البياضات والملابس المغسولة بالامس. جاء الباي الى الحرملك على غير انتظار رأى فيروزة ودخل الغرفة خلسة، ولكن فيروزة سمعت وقع خطواته، فهبت واقفة وانحنت له بأدب.

— آه، هذه أنت، يا حبيبتي، ويابهجتي! — قال الباي مقترباً من الفتاة. — ماذا تفعلين هنا؟ كيف أحوالك هل أنت سعيدة راضية؟ بالله لا تنظري الي هذه النظرات الجهماء، ان قلبي يتألم! ابتسمي على الاقل، فأنا لست غريباً!

أطبق الباي على يدي فيروزة، شدها اليه وانحنى عازما أن يقبلها، ولكن فيروزة راحت تدفعه، أشاحت وتملصت من يديه... كان الباي أقوى منها بكثير وكان سينال مأربه بالطبع لولا أن الطباخة دخلت هنا وهي تبربر وتغمغم.

ابتعد الباي عن فيروزة، رمى الطباخة بنظرة حقودة وفح متلمظاً:

— يا للسحنة البغيضة! من ناداك؟

رمقت الطباخة الباي بنظرة متمعنة وقالت بغموض:

— ناداني مصير هذه الفتاة المسكينة التعيس... هاكم فيما الأمر! وانتم ألا تخجلون؟

ولكن هل يعرف الباي الخجل؟!

— وما الخطب! سوف أقطف هذه الزهرة ان شاء الله، واذا لم يشأ سأقطفها أيضاً... قريباً سيحدث هذا، قريباً. أما أنت فضبي لسانك وراء أسنانك! فوهي بحرف وسأقلعه لك من جذوره!..

رمى الباي لها عدة قطع نقدية وخرج من الغرفة بخطوات حثيثة. كانت فيروزة ممددة على الأرض تبكي بمرارة. قعدت الطباخة قربها، مسحت على رأسها وراحت تطيب خاطرها بحلو الكلام...

حكت فيروزة لعصا عن هذه الحادثة ومنذ ذلك اليوم صار هو وصارت هي ومعهما الطباخة في حذر دائم ويقظة. لكن الخوف لم يبارح الفتاة، باتت أكثر من ذي قبل تفكر بالهرب من هذا البيت ولكن القدر شاء، كأنما نكاية، أن يحرمها من اللقاء بعصا فترة طويلة. وكان يجب أن تلقاه وتقول له فمعه وليس الا معه كان يجب الهرب.

وهكذا تصرمت الأيام، حل الشتاء، تساقطت الأمطار، ثم جاء البرد ومعه تهاطل الثلوج... فالى أين تهرب والحال؟ وقررت فيروزة انتظار الربيع... كانت قد عقدت العزم على الهرب الى كاغان بعد أن سمعت من عصا أن العم حيدرقول يعمل هناك.

ذات صباح، وكان الباي قد غادر البيت باكراً، نشبت في غيابه بين مغفرات ونظاكات مشاحنة وتعالى في الدار صراخ وزعيق لايتصورهما العقل. وهاكم ماذا أشعل الفتيل: كان الباي قد قضى الليلة البارحة عند مغفرات. وفي الصباح خرجت هي معه الى الفناء مودعة، كانت تقهقه عاليا كي تسمعها ضرتاها وفي الوداع قالت: «أبكر اليوم في المجيء مساء، سوف نقضي وقتاً ممتعاً بين أكل وندامة!». كانت نظاكات تحوم كعادتها على مقربة، سمعت هذه الكلمات واستعرت، حاصت ولاصت تفكر بالانتقام. وهنا لسوء حظها ظهرت فيروزة، كانت تحمل الشاي مع القشدة لابنة نظاكات التي تحب التلذذ بدفء الفراش. رأتها نظاكات وهتفت عن قصد بصوت عال:

– حبيبتي فيروزة، لم تحملينه أنت، لم لم تقولي لفاطمة...

بهتت فيروزة التي لم تعتد مثل هذه المعاملة الطيبة وقالت باستغراب:

– وهل هذا صعب علي، يا سيدتي؟ انني أفعل ذلك دائماً – وضحكت نظاكات قائلة:

– كلا، كلا، هذا لا يليق بك... أنت ستصيرين قريباً زوجة الباي الصغرى... وكما يقال، الزوجة الصغرى تأخذ القلب...

ارتبكت فيروزة، تعثرت وأوشكت أن ترمي الكوب من يدها. ولكنها تمكنت لحسن الحظ، أن تثبت على قدميها ثم درجت سريعاً الى الغرفة. سمعت مغفرات كلمات ضرتها وانفجرت:

– بماذا تهرطقين، يا غجرية، يا حرامية!

– أنت التي تهرطقين، يا حمارة! –لم تقصر نظاكات في حق ضرتها وأضافت: – تجرحك كلماتي، الحقيقة تفقأ العينين! اشتعلي ناراً، افطسي من الحسد! انتظري قليلا وسترين، على كل حال سأزوج الباي من فيروزة سيحدث هذا والا فأنا لست أنا...

اندفعت مغفرات نحو نظاكات ملوحة بقبضتيها ولكن الخادمات أمسكنها ومهما قاومت وتملصت استطعن أن يجررنها الى الغرفة. وذهبت الزوجة الكبرى الى غرفتها أيضاً. هناك كانت فيروزة ترتب الغرفة والفراش فلم تتوان نظاكات في لومها:

– هاك، يا حبيبتي، كيف يلاحقونني ويشتمونني بسببك... لا تنس ذلك عندما تصيرين زوجة للباي.

لم تعر فيروزة جواباً وذهبت صامتة الى المطبخ. أعطتها الطباخة شاياً مع القشدة ولكن فيروزة أبت حتى أن تلمسه وشرعت تغسل الأواني مفكرة بأمر واحد ملح: يجب أن تلتقي بعصا، أن تحدثه عن الخطر الداهم وأن تقنعه بالهرب معها على وجه السرعة.

ترامت من الغرفة الكبيرة صرخة حادة، صرخة آمرة أطلقتها مغفرات:

– الشيشة!
كانت الشيشة في المطبخ، كانت الطباخة التي تحب التدخين قد حملتها الى هنا بحجة أنه يجب غسلها. سمعت الطباخة الصرخة الحادة فجفلت خوفاً، ارتبكت وطلبت من فيروزة:
– اشعلي، يا بنيتي الشيشة،– يداي في العجين كما ترين، – واحمليها اليها بسرعة والا فان القيامة لا سمح الله ستقوم من جديد، أخ، يا لسوء حظي... أنا التي جئت بها الىهنا،أردت أن أشرب تبغاً قارشياً.
كانت فيروزة قد تعلقت حباً بهذه المرأة العجوز، ورغبة منها في تخليصها من عذابات زائدة، هبت قائمة فملأت رأس الشيشة بالتبغ ثم وضعت عليه جمرة ملتهبة من الموقد وحملت الشيشة الى مغفرات.
كانت الزوجة الصغرى جالسة قرب النافذة تقشر تفاحة بسكين ذات قبضة أنيقة من الصدف. دخلت فيروزة الى الغرفة بخطوات غير مسموعة وناولت الشيشة للسيدة.
– اجلسي!– قالت مغفرات.
جلست فيروزة القرفصاء تنتظر الاوامر اللاحقة. سحبت مغفرات من الشيشة نفسين ثلاثة. ثم اما لأن التبغ لم يعجبها فعلا واما متذرعة به كحجة وحسب راحت تصرخ على فيروزة:
– لا سلمت يداكِ! أين أخذت هذا التبغ القذر؟!
ورمت الشيشة المشتعلة على رأس فيروزة مباشرة. أطلقت الفتاة صرخة مذعورة وسقطت على الأرض. غطى التبغ السام وفتات الجمرة المشتعل وجه الفتاة، سال الدم من جبهتها وابتل ثوبها بالماء المندلق من الشيشة. زكى هذا المشهد حنق مغفرات فراحت تركل فيروزة ثم انهالت عليها بالسكين وطعنتها في وجهها عدة طعنات.
سمعت الخادمات الصراخ فهرعن الى الغرفة وبالكاد استطعن أن يخلصن الفتاة من يدي المرأة المهتاجة التي

مافتئت- تشتغل بالسكين. غطت الجراح أذني فيروزة وذقنها وجبهتها كما ونزف الدم من يدها وكتفها. رفعت الخادمات البنت المجروحة عازمات أن يحملنها من غرفة مغفرات وفي هذه اللحظة دخلت الطباخة مهرولة وحين رأت فيروزة تنزف دما أدركت فوراً فعلة من هذه فانقضت على زوجة الباي الصغرى وناولتها لكمة جعلتها تقع على الكانون مباشرة. بعد ذلك أخذت من الخادمات الفتاة التي مازالت غائبة عن الوعي ومضت بها الى حجرتها.

ارتجت أركان البيت من العويل والنحيب. ولولت الخادمات، ندبت الطباخة فوق جسد فيروزة الهامد، وزعقت مغفرات وزمجرت. على الصراخ خرجت من غرفتيهما أيضاً زوجتا الباي الأخريان وضمتا صوتيهما الى الجوقة العامة.

تجرأت احدى الخادمات فهرعت الى الشطر الرجالي، نادت عصا وحكت له عما حدث. أطار الخبر لب الفتى فنسى الاعراف كلها وانطلق كالمجنون الى الحرملك. كانت الطباخة ماتزال تندب فوق جسد فيروزة، كانت تنتف شعرها وتجرح وجهها بأظافرها. رأى عصا وجه حبيبته الشاحب فاطلق صرخة ملتاعة ثم جثا قربها وراح يمسح الدم.

في هذا الوقت تذكرت الخادمات واسطة مجربة: اخذن قطعة قطن عتيقة مع قطعة لباد، أحرقن كل هذا ووضعنه على الجروح. توقف الدم. وأنذاك رششن الماء على وجه فيروزة فثابت الفتاة الى رشدها وفتحت عينيها.

— عزيزتي فيروزة!— قال عصا،— لا تخافي، أنا معك، انظري الي.

زغرت فيروزة اليه غير فاهمة وهمست بصوت واهن:

— المعلمة!..

— الآن، الآن سآتي بها..— هتف عصا وخرج من الغرفة مهرولا، ولكنه استدرك فقفل راجعا وطلب من الطباخة ألا تبتعد عن فيروزة، ألا تستجيب لنداء أحد،

لوحت الطباخة بيدها، بمعنى: اذهب وكن مطمئناً وشرعت تضمد لفيروزة جراحها.

في هذا اليوم بشكل غير متوقع عاد الباي الى البيت بعد الظهر مباشرة. وفوراً أدلت له نظاكات وعدالات بكل الذي جرى في غيابه ثم انضمت اليهما الخادمات وتعالى صراخ الجوقة تردد وتصيح أن زوجته الصغيرة المحببة كادت تقتل فيروزة، طعنتها بالسكين وانهالت عليها ركلا بالارجل... اندفع الباي الى الغرفة حيث كانت فيروزة واقترب من فراشها.

هناك كانت السيدة طنبور وامرأة طبيبة منهمكتين في العمل، كانتا تدهنان الجراح بالمراهم وتضمدانها. أما فيروزة فكانت في غيبوبة، مطبقة العينين شاحبة كالاموات.

استشاط الباي غيظاً...

أملت نظاكات وعدالات بل وأمل كل من في البيت، بأن مغفرات ستنال حصتها، بأن الباي سيجلدها بالسوط، سيشبعها ضرباً وقد يطردها من البيت بالمرة. كان أملهم قوياً حتى أنهم همدوا في ترقب حلو، منتظرين صراخ وأنين مغفرات. ولكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث. في البداية خيم على الغرفة سكون تام ثم أطلقت المرأة ضحكة صارخة. لم تطق نظاكات صبراً، اقتربت على رؤوس أصابعها من باب غرفة ضرتها ووضعت عليه أذنها.

سمعت صوت مغفرات:

— اطردها من هنا، ارمها حالا...

— حسناً، حسناً، انتظري أسبوعاً أخر، — قال الباي محاولا تهدئتها ولكنها قاطعته بحدة:

— كلا! أنت تعرف أن حياتك في يدي والدي. اذا لم تنفذ مطلبي تركتك في الحال وذهبت...

في هذا الحين تنحنح أحدهم خلف الباب الذي من جهة الفناء الرجالي... هذه كانت القهرمانة* التي أعلنت

---

* القهرمانة — كبيرة الخدم.

بهذه الطريقة عن نفسها ثم دخلت الغرفة وقالت مخاطبة الباي:

– يا معلم، السيدة طنبور تبلغكم السلام وتستأذنكم في أخذ فيروزة الى بيتها.

– لتأخذها،– زعقت مغفرات،– بوسعها أن تأخذها الى الأبد...

لم تول القهرمانة لهذه الكلمات أذناً صاغية ووقفت في احترام تنتظر جواب الباي.

– حسناً،– قال الباي بعد تفكير،– موافق، لتأخذها ولتداوها... وعلى أحسن شكل! المصاريف من جيبي.

– ولا أية مصاريف!– قالت مغفرات بلهجة آمرة،– ولتقطع رجلها عن هذا البيت الى أبد الابدين!

انحنت الخادمة وانصرفت.

أخذ بالجميع الذهول: ما هذا الذي يجري مع الباي؟ بأية مفاتن سحرته مغفرات؟ لقد جرت العادة على أن يسوط الباي بكرباجه كل شخص في البيت على أدنى هفوة، وهنا شرطت مغفرات بالسكين عبدته المحببة وهو لم يلمسها بأصبع. وعلاوة على ذلك انصاع لزوجته وأبعد فيروزة عن البيت... أمر محير!... لكن الباي، والحق يقال، رفض في نهاية الأمر أن تذهب فيروزة الى بيت السيدة طنبور. لقد غير رأيه وأمر القهرمانة وعصا أن يحملا الفتاة الى حي عبد الله حاجي، الى ذلك البيت الذي سكنته سابقاً مع جدتها... فهو حتى الآن مازال شاغراً.

كما وأمر الباي بأن يحمل الى هناك بساطاً ولحافاً وكل الأغراض اللازمة. وحين اعترضت مغفرات قال الباي مترجياً، شبه معتذر وكأنما يطلب مشورتها:

– لتشف فيروزة على وجه السرعة ونحن سنزوجها من عصا...

كانت هذه ضربة معلم، أصاب الباي عصفورين بحجر واحد: فقد اقتنعت مغفرات بأن الباي لاينوي الزواج

من فيروزة. واطمأن عصا مصدقاً أن فيروزة ستصير زوجته وعلاوة على هذا، ستكف ألسنة الناس عن الثرثرة.

قبلت مغفرات قرار الباي برحابة صدر وأمرت بأن ينادوا عصا: فليعده الباي في حضورها بأن يعطيه فيروزة. ووافق الباي على هذا أيضاً. جيىء بعصا الى باب غرفتها وسمعت مغفرات كيف قال له الباي:

— الهانم الصغيرة تصفح عن فيروزة. ما أن تشفي محبوبتك سنزوجك منها...

وزاد هذا من ذهول الجميع ذهولا. اي والله، لقد عقلت مغفرات الباي، لقد سيطرت عليه!

وأشارت كل الدلائل الى أن الباي ينوي بالفعل أن يزوج فيروزة وعصا، كان الباي جاداً في عزمه حتى أنه استشار زوجاته في أمر العرس: فأي عرس سنقيم، ليس فارهاً جداً ولكن مرح... فماذا حدث؟ لعل ضميره قد تحرك أخيراً؟ أو لعله رأى في نومه الجارية العجوز ديلارام فخاف من روح المرحومة وقرر أن يبدي شيئاً من الانسانية وتذكر العدل؟

حار الجميع بين التكهنات. أما الحقيقة فخفت الا عن الباي وحده، لكنه ما كان ليكشف عن سره حتى لأقرب الناس الى قلبه.

وهاكم أين كان بيت القصيد. مسافراً في أعماله الى كاغان وماري تعرف غنيجان باي هناك على سماسرة الفرو وغيرهم من التجار الروس. فكر أنه لن يضر به أن يوسع تجارته بمساعدتهم وأن يصل بها الى روسيا. وكانت البداية موفقة. ساعده التجار والعملاء الروس في بسط نشاطه ولم يخرجوا هم أيضاً، من العملية بلا غنيمة. راق طعم ذاك للباي. صار يتعاشر مع الروس، يزورهم في بيوتهم، يحل ضيفاً على مآدبهم، ثم بات هو الآخر يستضيف التجار الروس والتتار ويقيم لهم المآدب أثناء سفراته الى كاغان وماري. بالتدريج صار غنيجان بينهم كواحد منهم، وذات

مرة اقترحوا عليه أن ينضم الى عضوية الجمعية الخيرية لمنوري تركستان. قالوا له: لن يضيرك أيضاً أن تتبرع ابان ذلك ببعض المال لبناء المدارس الروسية في هذه الديار. كان من المقرر بناء هذه المدارس في كاغان وفي ماري. ووافق غني‌جان‌باي. كان بحاجة الى رجال متعلمين يجيدون اللغة الروسية، الى عملاء ووسطاء في معاملاته مع التجار الروس. وبعد احدى الصفقات الرابحة اقتطع من مغانمه في بيع الفرو مبلغاً معتبراً وقدمه لصندوق الجمعية. قبلوه بأبهة وحفاوة بل وسلموه براءة مرصعة بالذهب.

وذات مرة، عقب احدى المآدب مع جمع من التجار الروس عاد الباي الى منزله سكراناً. راحت مغفرات تستجوبه أين كان. فانحل لسان الباي وراح يتباهى، قال انه لا يقبض على زمام الامور في بخارى وحدها، بل ويقيم العلاقات أيضاً مع التجار من ماري وقزيل-أوردا وأرينبورج وحتى من موسكو ذاتها. بعد ذلك عرض عليها البراءة المرصعة بالذهب، شهادة انتمائه الى الجميعية الروسية-التركستانية وطلب منها أن تخبئها في منأي عن الأنظار وأن لا تريها لأحد.

وفطنت مغفرات الى ما يجب عليها أن تفعله - كان لديها من المكر ما يكفي ويزيد. حملت البراءة الى أبيها وحين لامها الباي مرة في أمر ما لمحت له بشكل شفاف تماماً الى الورقة التي بحوزتها... فدعه لايتمادى في التآمر عليها. بين يديها وثيقة تثبت علاقاته مع الروس. فهل يتصور هو ما قد يلحقه من الأمير والوزير الأول وكبير القضاة ان عرفوا بأنه تبرع بالمال لأجل المدارس الروسية المحلية؟! انهم سيشنقونه بكل بساطة! لكن مغفرات لم تفقد عقلها بعد، وهي بالطبع لا تنوي بتاتاً أن تحطم سعادتها وأن تفقد الثروة والجاه، انها لن تقول لأحد شيئاً. ولكن بشرط أن ينصاع الباي لها في كل شيء.

أدرك الباي أن زوجته فاقته دهاء وأنه وقع في فخها

مكتوف اليدين والساقين. واذن لا مناص من الانصياع لها موقتاً وتحين الفرصة المناسبة للافلات من شباكها.

وهكذا نتج أن الباي قرر تزويج عصا وفيروزة نزولا عند أمر زوجته مغفرات.

انقضى ما يقرب الشهرين ريثما برئت فيروزة والتأمت جراحها. لم تكن السيدة طنبور تبتعد عنها ومع الخادمة كانت تدهن جروحها بالمراهم، تغير الاضمدة وتطبخ لها الأطباق الشهية.

حير سلوك الباي عصا وأذهله، كان قد فقد نحوه كل ثقة حين طرأ هذا الانقلاب المفاجىء.

– أيعقل أن يحفظ الباي وعده؟– قال هو لفيروزة ذات مرة وقد بقي معها على انفراد.– ماذا حدث؟ لماذا صار طيباً على هذا الشكل؟ ما سر هذا التغير المفاجىء؟!..

– مغفرات ترغمه على ذلك، انها تخشى أن يتزوج الباي مني... وزوجتاه الأخريان تحثانه على ذلك نكاية بها...

كانت صحة فيروزة أحسن من ذي قبل بكثير، التأمت الجراح على كتفيها ويديها صارت قادرة حتى على الجلوس، لكن ذقنها فقط كانت تؤلمها بعد...

– ليفعلوا هناك ما يحلو لهم، وحسبنا ان يتركونا لحالنا!.. قال عصا من أعماق القلب واضاف: – من أجلك أنا مستعد للقيام بكل عمل يطلبونه، ولكن الويل للباي ان كان يضمر شراً!..

وبدا أن كل شيء يسير على مايرام، استدعي الباي المعلمة طنبور واقترح عليها أن تكون لفيروزة بمثابة الأم... أن تحضر كل ما يلزم للعرس...

لم يكن لبهجة عصا وفيروزة حد. ذلك البيت البائس الصغير بدا لهما جنة النعيم. خاطت المعلمة طنبور لفيروزة ثوبين من الحرير والمخمل وأخذتها الى الحمام. بينما أرسل الباي هداياه: كيس رز وسكر وخروف حي... كان

ثغاؤه يبشر باقتراب العرس - قريباً قريباً ستزف حياة سعيدة... ويلتقي الحبيب بالحبيب.

انقضى الشتاء القاسي القصير، وأتى الربيع. في تلك الليلة التي سنتعرض لها بالحديث بان البدر في السماء منذ الغروب ولم يغب... لم تستطع أن تطفيه حتى غشاوة الليل الحالكة. كانت النداءات الى صلاة العشاء قد انطلقت من فوق المآذن ولكن الأطفال مازالوا في الشوازع يركضون ويلعبون. أطل القمر على بيت ديلارام المعتم أيضاً... في الغرفة اشتعل مصباح كاز ينير بضوءه عفشها: السجاجيد والالحفة والمفارش التي أهداها لفيروزة المعلمة والباي كانت تزين المسكن المتواضع على الرغم من أنها لم تكن جديدة...

تناولت فيروزة طعام العشاء مع خادمة الباي العجوز التي عاشت عندها وبعد ذلك جلستا طويلا تتحادثان وتتسامران الى أن تنبهت العجوز:

- لقد تأخر الوقت، يجب أن ننام كي ننهض باكراً. حتى العرس لم يبق الا يومين وكم أمامنا من المشاغل! ستطير الأيام ولن تشعري بها...

أطفأت المرأتان المصباح ورقدتا. ولكن النوم جفا فيروزة، أرقتها أفكار متناقضة، أقلقتها الهواجس جعلتها تضطرب... أجل، عصا انسان جيد، انه يروق لها، وكم يحبها!.. خلال يومين سيتزوجان.. لكأن كل شيء على مايرام... ولكن لو كان لفيروزة الخيار، لما عجلت في الزواج، كانت ستعود الى الكتاب، كانت ستدرس وتقرأ الكتب وتتزود بالمعارف... والآن ليس أمامها سبيل آخر... عصا يعاملها برقة وحنو... رباه، حسبها فقط الا يبتكر الباي الماكر دناءة أخرى. ومع ذلك لا مفر من العمل عنده بعد العرس! كلا، لن تدخل فيروزة ذلك البيت الرهيب بعد الآن أبداً، لن تدخله ولا بملك الأرض! ربما تستطيع استعطاف الباي واقناعه بأن يرسلها للعمل في الحقل أو البستان... في أي مكان آخر الا البيت، الا البيت...

وبالطبع سيكون عليهما أن يعوضا على الباي مصاريفه على العرس. فهو قد سجل كل شيء على اسمها واسم عصا. انهما قد يضطرا لأن يعملا العمر كله ولا يفيا بدينهما... واذا ولد طفل سيصبح هو الآخر خادماً للباي! أيعقل أن يدوم هذا الحال من جيل الى جيل، ويقدر عليهم أن يكونوا أبداً خدماً طائعين؟ بأي ذنب؟ ولماذا؟ أي فرق بينهم وبين باقي الناس؟

صاحت الديكة. وهاهم حراس الليل قد مروا يقرعون طبولهم! انحدر القمر، بلغ حائط بيتهم، وها قد توارى خلفه. ترامى صياح الديكة من كل صوب... الديوك... على أصواتها غفلت فيروزة ثم غرقت في سبات عميق...

...في هذه الليلة عزم الباي على تنفيذ خطة رسمها من زمان. أمر عبد الله بأن يذهب بعصا الى الحمام، أن يمسكه هناك أطول فترة ممكنة، ثم ألا يتركه يخرج من البيت مهما كانت الاسباب الداعية لذلك. أعطى الباي لخادمه هذه التوصيات ثم استدعى عصا.

— كيف، يا عريس، كيف الحال؟

ارتبك عصا وغض الطرف.

— شكرا، يا معلم.

— تستعد للعرس، تنوي الزواج بعد أيام وتسير في هذه الهيئة! انظر الى نفسك، يداك قذرتان، جلدهما تشقق وكله مسامير... وشعرك؟ — غير مسرح، طويل أشعث مثل شعر درويش متجول! آي، ياي، ياي... ما أسوأ هذا! حضر حالك، اليوم ستذهب مع عبد الله الى الحمام. امض الى هناك طرباً مغنياً «يار، يار» واغتسل جيداً. اذا كان الحمام القريب مغلقاً اذهب الى حمام «كفشالك» أو الى ذاك الذي تحت قنطرة سرافان... هذان يعملان حتى منتصف الليل. وفي الغد تحلق شعرك وذقنك وترتدي الروب الذي أهديتك اياه. لا عليك، في يوم العرس أهديك واحداً آخر. خذ هذه النقود لتغطية مصاريفك.

وناول الباي لعصا عدة قطع فضية. اندهش عصا أكثر واكثر، فما هذا؟ الباي يتكلم معه مثل أب مع ابنه... فهل هذه حيلة أخرى؟ ولكن لأي غرض؟ ومع ذلك يحنو عليه مثل أب...

— شكراً، شكراً لكم!..— قال عصا وانصرف.

في المساء اقتاده عبد الله الى حمام بعيد. كان في غاية الاعجاب بخطة الباي الماكرة وفي سره كان يضحك من سذاجة عصا.

— قبل العرس عليك أن تقصد الحمام عدة مرات، والا لن تغسل كل أوساخك..— قال هو لعصا في الطريق.

وفي هذا الوقت كان الباي يأتي على نهاية أعماله المسائية... سجل في الدفتر الصادرات والواردات ثم أخرج من دولاب في الجدار زجاجة كونياك، شرب كأسين، تلمج بقطعة شوكولاته وخرج من البيت...

كان البدر ينشر ضوءه اللجيني في الفناء. والديوك تصيح...

...لمن هاتان اليدان القويتان القاسيتان اللتان تهصران جسد فيروزة؟ لمن هاتان الشفتان الحارتان، هاتان الشفتان الفواحتان خمراً اللتان أطبقتا على شفتيها؟ فيروزة تحاول أن تصرخ، أن تتحرك، أن تنهض... ولكن عبثاً! وتضيق أنفاس فيروزة، توشك أن تفقد الوعي... ولكن هاهم قد تركوها، فتتنفس الصعداء وتنظر فترى الباي أمامها...

— انقذوني، انجدوني!— أرادت فيروزة أن تصيح ولكن الباي انهال عليها من جديد وسد فمها.

— فيروزة، عزيزتي، لا تصرخي، لن ينفعك الصراخ، لن يسمعك هنا أحد. خير لك أن تستمعي الي. أنت تعرفين أحسن المعرفة أنه لا مفر لك مني... أنا لم أتوقف أمام شيء، وافقت حتى على زواجك من عصا، ولكن يجب أن أنالك أولا... فلا تمانعي... سوف أطمرك بالذهب... سأجعلك أسعد السعيدات على الارض! عزيزتي فيروزة،

خير لك أن تستسلمي لي طوعاً فآنا سأبلغ مآربي على كل حال وسواء أردت ذلك أم رفضت!..

انتاب فيروزة الاشمئزاز والحنق والالم واليأس. ارتعدت أوصال الفتاة، تشنجت حاولت أن تفلت. ولكنها كانت ضعيفة بعد المرض، فلم توفق في ذلك. ثم استجمعت فيروزة بقايا عزيمتها فأطلقت صرخة قوية وفقدت الوعي...

استيقظت الخادمة العجوز على الصرخة، هبت واقفة. رأت الباي قربها فارتاعت وانزوت في الركن.

فجأة نبق رجل يجلله السواد، انقض على الباي، أطبق على تلابيبه، أبعده ورماه أرضاً، ضربه على رأسه وركله عدة مرات... بعد ذلك اقترب الرجل من فيروزة، رش على وجهها ماء، فصحت الفتاة من غيبتها وأنت...

— لا تخافي مني، يا فيروزة،— تكلم الرجل بصوت منخفض خشن،— هذا أنا، عمك حيدرقول، اطمئني، ما عاد بوسع النذل أن يفعل لك شيئاً!. هيا، يا عجوز، أشعلي النور؟

أشعلت المرأة المصباح بيدين راعشتين فلم يكن روعها قد مضى بعد. غمر النور الغرفة فاستعادت فيروزة رشدها تماماً، فتحت عينيها ورأت حيدرقول فهتفت «عماه! وارتمت في أحضانه.

— هل أنت التي فتحت الباب للباى؟ — سأل حيدرقول الخادمة بغضب.

— كلا، كلا... أنا... ليس له... كان يجب أن يأتي عصا ولذلك انزلنا السقاطة وحسب...

— وفي النتيجة جاء الباي! ولكن لا عليك يا بنيتي، لن يلحق الاذى بك أحد بعد الآن، كوني مطمئنة، لا تخافي!

فجأة زحر الباي وراح يتململ. نظر حيدرقول صوبه مترقباً وقال مخاطباً الخادمة:

— الآن سأحمل هذا النذل من هنا فلا تطفئي المصباح، في النور ستكون فيروزة أهدأ بالا،.. أرقديها للنوم واقفلي الباب بالرتاج! اياك أن تفوهي بكلمة لأحد

عن مجيىء الباي الى هنا. وعني أيضاً لا تتكلمي!.. تظاهري وكأن شيئاً لم يحدث على الاطلاق... بعد الآن لن يتعرض لكما أحد...

أخرج حيدرقول من جيبه منديلا صنع منه كمامة وسد به فم الباي، بعد ذلك تناول كيسا كان على العتبة، حشر الباي فيه، ربطه، حطه على كتفه مثل كيس فيه لحم واتجه نحو المخرج. شيعته فيروزة والخادمة بنظرات مبهورة ومكثتا وقتاً طويلا صامتتين عاجزتين عن النطق بحرف، وأخيراً تكلمت الخادمة:

– ماذا يعني كل هذا، يا ابنتي؟..

وبكت فيروزة.

كان يوم أحد... يوم عطلة وأمان لا يشتغل فنهض من نومه متأخراً. كان الصباح دافئاً فخرج أمان الى الفناء. كل شيء كان على عهده... ترامى صفير القاطرة تنقل العربات من خط الى خط، وفي العنبر ترددت ضربات المطارق على الحديد معلنة أنه يقدر على البعض أن يشتغلوا حتى في يوم الأحد: يوم العطلة. في الحوش المجاور وضعت جارة أمان الروسية دلوا فيه ماء على منصب ثلاثي من الحديد حطت تحت الدلو هشيماً وجلة، اضرمت النار وراحت تغسل البياضات في طست من التنك.

في الخلاء أمام البيت التم حشد من الأولاد، كانوا يركضون، يلعبون بالكرة ويدورون الدوامات...

اغتسل أمان، أشعل الموقد في الردهة الامامية، وضع فوقه ابريق الشاي وشرع ينظف الغرفة ويرتبها. في هذا الوقت جاء حيدرقول. كان قد استعاد مظهره السابق، لم يكن فيه ما يذكر بذلك المجنون ذي اللحية الكثة العكشاء الشعر. كان قد حلق شعر رأسه ولبس قلبقاً من فرو الاستراخان ذا تفصيلة بخارية قديمة، ارتدى روباً من الساتين الأسود واحتذى جزمة.

لقد مر ما يقرب العام منذ حصل حيدرقول على الجنسية

الروسية، منذ استلم هوية روسية وصار يشتغل في عنبر التصليح. والواقع أنه لم يقص بعد لحيته وشاربيه الطويلين، فقد عز عليه ذلك، لكنه كان يعتني بهما ويسرحهما جيداً وكان يقول:

— لن أحلقهما قبل أن أثأر من الباي اللعين.

وقد أحب حيدرقول عمله في العنبر. كان يخلع الروب الذي يعيقه ويستغرق بالعمل الى حد أنه ماكان يشعر بالبرد رغم الصقيع ورغم رقة قميصه الداخلي الخفيف.

وحين عرف بأن فيروزة جريحة تلازم الفراش فقد حيدرقول هدوءه تماماً. وقد أثار مخاوفه بصفة خاصة النبأ عن أن الباي وافق أخيراً أن يزوج فيروزة وعصا وعلى أن يقيم لهما عرساً. كان يفهم أن الباي لايفعل ذلك لوجه الله. اقلقه الأمر كثيراً فكاشف نيقولاي وعمرجان بمخاوفه وطلب منهما أن يتركاه عدة أيام كي يذهب الى بخارى. أبدى الصديقان تفهماً لمخاوفه ووافقا. قالا: اذهب فنحن سنقوم بعملك وسنقول لرئيس العنبر انك مرضت.

وذهب حيدرقول. غاب عدة أيام وها هو الآن مرحاً منفعلا يتخطى عتبة بيته ويهتف ما أن يرى أمان:

— هات، يا أخ، عجل، فالماء، على الارجح، قد سخن. هيا احلق لي لحيتي وشاربي أريد أن أصير شاباً من جديد.

شخص أمان اليه مشدوهاً كأن البرق قد صعقه.

— مالك واقف كمن على رأسه الطير؟ أنا لا أمزح.

وانتقلت عدوى المرح الى أمان فهتف جذلا:

— واذن فالعدو...

فقال حيدرقول بلهجة ظافرة:

— ماعاد له وجود!.

— باللخبر السعيد! أهنئك!

— انه تحت الأرض.

وناطقاً بهذه الكلمات في لهجة ظافرة قرب حيدرقول الكرسي من النافذة والنور حتى يسهل على أمان أن يحلق له لحيته.

عند هذا جاء نيقولاي وعمرجان، دخلا ورأيا الغبطة والانفعال على وجهي صاحبي البيت فأمطرا حيدرقول بالأسئلة:

- ماذا جرى هنا؟ متى عدت؟ أخال أنه عندكم فرحة؟

- لقد سمعت كلماتك: انه تحت الارض. هل هذا حق؟ متى حدث ذلك؟

- منذ يومين. لقد مر يومان على موت ذلك الوغد. ما عدت الآن اقلق من شيء. روحا عزيزتي الراحلتين تبتهجان في سمائهما. احلق لي يا أمان! لتسقط اللحية والشاربان! أعد الي شبابي!

وفي القريب جلس الأصدقاء الاربعة خلف الطاولة وراحوا يفطرون. كان التعرف على حيدرقول عسيراً بالفعل: فالى هذا الحد تغير وتشبب بعد أن حلق لحيته وشاربيه. كانت السترة العسكرية والبنطال الجوخي يناسبان قده تماماً، من زيه السابق لم يبق الا القلبق البخاري على رأسه.

- لقد حان الوقت لأن تلبس القبعة أيضاً! - قال أمان رانياً اليه فأجاب حيدرقول:

- وماذا تظن، سألبسها! وكما يقال: «اذا رحت الى بلد العور ضع يدك على عينك!»

- صحيح، صحيح، - أيده سميرنوف وفي الحال سهم مفكراً ثم أضاف بعد برهة صمت: - ألم يثر موت الباي القلق؟ ألم تشرع سلطات بخارى في القبض عن الناس بحثاً عن المذنب؟

- لقد أقاموا الدنيا بالطبع، ولكن كيف لهم أن يعرفوا فعلة من هذه؟ انهم حائرون، دائخون تماماً، والآثار مبهمة لا تدلهم الى شيء..

وتابع سميرنوف متفكراً:

- أخشى أن موت عقرب واحد سوف يستثير شلة كاملة من الأفاعي... سوف يتحركون سوف يفحون...

- دعهم يفعلوا! - قال حيدرقول باطمئنان؟ - ما همنا

نحن؟ أنا الآن من رعايا القيصر الأبيض وأشتغل في عنبر روسي...

وابتسم سميرنوف:

– لا فرق على الاطلاق... مثل القيصر الابيض كمثل القيصر الأسود... اللص يعرف اللص حتى في العتمة والان القيصر الروسي خائف وهو لهذا يدعم أميركم لكي تتعاضد كل السلطات ضد الشعب. فالعمال قد تحركوا في كل المدن: في بتروغراد وفي موسكو.– وفي باكو وحتى في طشقند وسمرقند يتحرك العمال ضد أصحاب العمل... هاك اسمع ماذا يكتبون في سمرقند...

وأخرج سميرنوف جريدة «سمرقند» التي استلمها البارحة وراح يقرأ ملاحظة عن عمال عنبر سمرقند الذين أقاموا جنازاً في الكنيسة التابعة لمحطة القطارات على روح العمال الذين سقطوا صرعى منذ شهر خلا، في التاسع من كانون الثاني (يناير) في بطرس بورغ... وفي الختام قال سميرنوف:

– عمال عنبرنا يريدون أيضاً أن يستجيبوا وأن يجمعوا المال لاسر القتلى.

لم يفهم حيدرقول شيئاً من هذا الحديث فسأل محتاراً:

– أي قتلى؟ وما سبب مقتلهم؟

وهتف أمان:

– اه، أجل، فهو لم يحضر أنذاك اجتماعنا.

وحكى عمرجان لحيدرقول عما حدث في بطرسبورغ، يوم الأحد التاسع* من كانون الثاني: في ذلك الأحد الذي التصقت به من ذلك الحين والى الأبد كلمة «الدموي» الرهيبة.

---

* التاسع من كانون الثاني (يناير) ١٩٠٥ – «يوم الأحد الدموي»، يوم أطلقت الحكومة القيصرية النار على مسيرة العمال السلمية التي قصدت «قصر الشتاء» لتقديم عريضة الى القيصر نيقولاي الثاني.

وفي نهاية حديثه احتدم عمرجان وقال بحماس:
— هل فهمت الآن لماذا يجب علينا أن نجمع المال؟
وعقب أمان:
— وبالطبع سوف نعطي. فالعمال في بطرسبورغ لم يطلبوا لأنفسهم فقط بل لنا جميعاً، لكل الناس العاملين.
ورأى سميرنوف بأي شغف واهتمام يستمع حيدرقول فهمّ أن يحدثه عن التحركات الثورية في روسيا ولكن الباب طرق فجأة وسمعت صرخة أحدهم:
— اي، ياسارت، افتح!
امتقع أمان واندفع حيدرقول نحو النافذة ولكن سميرنوف أوقفه وقال بهدوء:
— لا جدوى، نحن محاصرون، انها مصيدة! لننتظر فنرى.
وقال عمرجان:
— لا داعي للذعر... هيا يا أمان، افتح الباب!
ودخل الغرفة صاخبين ثلاثة من رجال الجندرمة.
— أو هو! — هتف واحد منهم، أغلب الظن أنه كان رئيسهم! — هنا، كما أرى، مؤتمر حقيقي! وأنت، أيها الوغد ماذا تفعل هنا؟ تنشر دعوتك بين «السارتات» تثير الفتن! مهلك، مهلك، فسيصل الدور اليك أيضاً!
— أرجوكم ألا تشطوا في الكلام. كنيتي سميرنوف، أنا أسطى في العنبر وهؤلاء شغيلتي.
— نحن نعرف، نعرف أي عمال هم هؤلاء، من منهم حيدرقول؟
صمت الجميع برهة وأراد أمان أن يقول: «أنا هو» حين تقدم حيدرقول الى الامام وقال:
— أنا!
— هات أوراقك!
وناوله حيدرقول الهوية.
— نعم، نعم! صحيح! هيا بنا!
— الى أين؟ ولماذا؟

- الى قسم الشرطة! أنت موقوف!- قال الرئيس وأعطى اشارة لرجاله كي يسوقوا حيدرقول. اطبق الدركيان على يديه، دفعوه أمامهم وساقوه موقوفاً.

واعترض عمرجان طريق الرئيس.

- لماذا،- سأل هو،- ما هو ذنبه؟

- هناك سيحققون!

- بأي حق تخلون بالقانون؟- سأل سميرنوف خارجاً خلف رجال الدرك الى الشارع،- لماذا توقفون مواطناً روسياً دون أي ذنب؟

فأجابه الرئيس:

- هناك سيحققون ان كان مذنباً أم لا.

ساق رجال الدرك حيدرقول مشهرين سيوفهم، ولكنه كان يبتسم ثم التفت الى رفاقه وقال بصوت مرح:

- لا تقلقوا! سوف يستجوبونني، يتحرون ويطلقون سراحي. يوجد قانون.

- كل عمال العنبر سيقفون خلفك، يا حيدرقول!- هتف له سميرنوف.- سوف يطلقون سراحك!

وأضاف عمرجان:

- لن نهدأ حتى يطلقوا سراحك!

ومشى حيدرقول بجرأة وبخطوات واثقة و رأس شامخ مرفوع.

القسم الثالث

الصديق والعدو

١

انقضت عشر من السنين... وكانت سنوات حافلة جرت في غضونها مياه كثيرة تحت جسور زرفشان. وجرت فيها أحداث هامة وكثيرة... كل يوم كان يأتي بجديد.

انتفضت الامبراطورية الروسية العظمى ومضت تتلاطم وتتحرك. بدا وكأن الناس ولدوا من جديد ورأوا حياتهم بعيون أخرى جديدة. كانوا يناضلون، يحرزون الانتصارات، ويمنون بالهزائم... لكن الهدوء السالف مضى الى غير رجعة.

أما في بخارى التي غناها الشعر وسردت الحكايات امجادها منذ نيف وألف من السنين فما زالت الشرائع والعادات قديمة قدم الأرض ذاتها: خلف أسوار المدينة العالية: في الظل «المبارك» لصاحب الجلالة الامير كانت الحياة تتجرجر ناعسة لا تكاد تتحرك.

الوحيد الجديد الذي أتى الى بخارى في هذه السنين كان السكة الحديدية. فولاذ قضبانها الاسود اللماع كان يتلألأ مسايراً سور المدينة حتى يصل الى بوابة «قوال» حيث ارتفعت بناية المحطة بطابقها الوحيد.

الى هنا كان القطار يحمل البضائع والمسافرين من كاغان عدة مرات في اليوم. كانت القاطرة الصغيرة لاهثة نافثة البخار تجر خلفها عدة عربات وتقطع مسافة العشر - خمسة عشر فرسخ بين كاغان وبخارى في نصف ساعة وبصعوبة بالغة.

في هذا اليوم كانت السماء غائمة وكان المطر يهطل.

قبيل وصول القطار مباشرة اقترب من المحطة حنطور مكشوف السطح ونزل منه رجل طويل القامة كان اتقاء من المطر قد حط على عمامته منديلا كبيراً فغطى المنديل وجهه وكان من المستحيل تبينه. لكن الحذاء الذي بلا عقب والروب الرث كانا يدلان على أن هذا المجهول ليس من أغنياء الناس. اشترى الرجل تذكرة وركب على عجل في احدى العربات القريبة من القاطرة.

كانت العربة شبه المعتمة خالية من الركاب. المصباح الخافت الضوء فوق الباب كان ينير الممر بين المقاعد. اتخذ الرجل لنفسه مكاناً قرب النافذة، رفع المنديل عن رأسه، عصره ونشره على المقعد بجواره.

انطلق القطار وحين تعدى «فاتح أباد» دخل العربة رجل روسي وسلم:

– السلام عليك، يا أخ مخصوم.

رفع الأخ مخصوم رأسه في قلق ولكنه عرف الراكب الجديد وتنهد بارتياح.

– آه، هذا أنت، سميرنوف! كيف تأتى لك أن تعثر علي؟

– «من بحث وجد»– أجابه سميرنوف بمثل طاجيكي وسأل:–وأنت الى أين؟

– الى كاغان، أريد أن أعرف ان كانت البضاعة قد وصلت من طشقند.

– وصلت من زمان.– ودنا من الأخ مخصوم وقال بصوت خافت:– لست أفهم لماذا تماطلون؟

– كأني بك لا تعرف رجالنا،– أجاب مخصوم محتدماً. – الأمل فيكم وحدكم...

في هذا الوقت وصل القطار الى كاغان. قفز سميرنوف قبل بلوغ المحطة على السكة الحديدية أما الأخ مخصوم فظل راكباً الى أن توقف القطار فخرج الى الرصيف ومضى نحو بناء المحطة. خرج من الباب. فلف حول البناء واتجه نحو السكك الحديدية ثم سرعان ما لحق بسميرنوف.

القسم الثالث

الصديق والعدو

١

انقضت عشر من السنين... وكانت سنوات حافلة جرت في غضونها مياه كثيرة تحت جسور زرفشان. وجرت فيها أحداث هامة وكثيرة... كل يوم كان يأتي بجديد.

انتفضت الامبراطورية الروسية العظمى ومضت تتلاطم وتتحرك. بدا وكأن الناس ولدوا من جديد ورأوا حياتهم بعيون أخرى جديدة. كانوا يناضلون، يحرزون الانتصارات، ويمنون بالهزائم... لكن الهدوء السالف مضى الى غير رجعة.

أما في بخارى التي غناها الشعر وسردت الحكايات امجادها منذ نيف وألف من السنين فما زالت الشرائع والعادات قديمة قدم الأرض ذاتها: خلف أسوار المدينة العالية: في الظل «المبارك» لصاحب الجلالة الامير كانت الحياة تتجرجر ناعسة لا تكاد تتحرك.

الوحيد الجديد الذي أتى الى بخارى في هذه السنين كان السكة الحديدية. فولاذ قضبانها الاسود اللماع كان يتلألأ مسايراً سور المدينة حتى يصل الى بوابة «قوال» حيث ارتفعت بناية المحطة بطابقها الوحيد.

الى هنا كان القطار يحمل البضائع والمسافرين من كاغان عدة مرات في اليوم. كانت القاطرة الصغيرة لاهثة نافثة البخار تجر خلفها عدة عربات وتقطع مسافة العشر – خمسة عشر فرسخ بين كاغان وبخارى في نصف ساعة وبصعوبة بالغة.

في هذا اليوم كانت السماء غائمة وكان المطر يهطل.

25—1515

قبيل وصول القطار مباشرة اقترب من المحطة حنطور مكشوف السطح ونزل منه رجل طويل القامة كان اتقاء من المطر قد حط على عمامته منديلا كبيراً فغطى المنديل وجهه وكان من المستحيل تبينه. لكن الحذاء الذي بلا عقب والروب الرث كانا يدلان على أن هذا المجهول ليس من أغنياء الناس. اشترى الرجل تذكرة وركب على عجل في احدى العربات القريبة من القاطرة.

كانت العربة شبه المعتمة خالية من الركاب. المصباح الخافت الضوء فوق الباب كان ينير الممر بين المقاعد. اتخذ الرجل لنفسه مكاناً قرب النافذة، رفع المنديل عن رأسه، عصره ونشره على المقعد بجواره.

انطلق القطار وحين تعدى «فاتح أباد» دخل العربة رجل روسي وسلم:

— السلام عليك، يا أخ مخصوم.

رفع الأخ مخصوم رأسه في قلق ولكنه عرف الراكب الجديد وتنهد بارتياح.

— أه، هذا أنت، سميرنوف! كيف تأتى لك أن تعثر علي؟

— «من بحث وجد»— أجابه سميرنوف بمثل طاجيكي وسأل: —وأنت الى أين؟

— الى كاغان، أريد أن أعرف ان كانت البضاعة قد وصلت من طشقند.

— وصلت من زمان.— ودنا من الأخ مخصوم وقال بصوت خافت: — لست أفهم لماذا تماطلون؟

— كأني بك لا تعرف رجالنا،— أجاب مخصوم محتدماً. — الأمل فيكم وحدكم...

في هذا الوقت وصل القطار الى كاغان. قفز سميرنوف قبل بلوغ المحطة على السكة الحديدية أما الأخ مخصوم فظل راكباً الى أن توقف القطار فخرج الى الرصيف ومضى نحو بناء المحطة. خرج من الباب. فلف حول البناء واتجه نحو السكك الحديدية ثم سرعان ما لحق بسميرنوف.

— منذ فترة جاءنا شخص من سمرقند، — قال سميرنوف دون أن يبطىء مشيته. — وقد انتظرنا أحداً ما منكم ولكنه لم يأت أحد. أ من المعقول أن عصا لم يبلغكم؟

— لقد أبلغنا ولكن أي نفع من ذلك. جمعنا الناس وتكلمنا معهم ولكنهم رفضوا أن يسافروا...

— كيف هذا — رفضوا؟ لماذا رفضوا؟

— لقد جبنوا كعادتهم. انهم يخافون الجميع، يخافون الأمير والروس، بل وأخال أنهم يخافون حتى ظلالهم الخاصة.

— قل صراحة انهم يخافون البلاشفة.

— وهذا حق، — أكد الأخ مخصوم بنوع من الحرج.

وحين مرا ببناء عنبر التصليح دنا منهما رجل يرتدي على رأسه باباخا* كبيرة مثل التركمان وتوجه الى سميرنوف سائلا بالروسية:

— ألا تعرف أين يسكن هنا عمرجان؟

— عمرجان؟ أي عمرجان؟ أسطة العنبر؟

وقاطعه الأخ مخصوم حادجاً المجهول بنظرة مرتابة:

— وما حاجتكم به، فيم الامر؟

— الامر، يا أخي العزيز مخصوم، — بهدوء أجاب الرجل ذو الباباخا — في أنني واياكم رفاق درب كما يخيل الي.

— اللعنة! — سب الاخ مخصوم بالطاجيكية، — يبدو أنه يعرفني.

— وما الغرابة في هذا؟ — قال المجهول بالطاجيكية أيضاً وتبسم.

وهنا فقط عرفه سميرنوف.

— صديقي! أيعقل أن هذا أنت؟ من أين طلعت الشمس اليوم! أجل، أجل هذا هو، والله هو، — وملتفتاً الى الأخ مخصوم سأل: — هل عرفته؟

وهز مخصوم رأسه في حيرة.

---

* باباخا — قبعة كبيرة من الفرو ذات وبر طويل.

– يبدو، يا أخ مخصوم، أنك شخت تماماً في هذه الفترة، – قال الرجل ذو الباباخا. – سابقاً كنت تعرف أية حسناء تحت ملايتها... والآن لم تعرفني أنا، حيدرقول...

نظر الأخ مخصوم مدهوشاً الى صديقه القديم، كانت أصابعه ترتعش من الاضطراب ولم يقو على النطق الا بكلمة:

– حيدرقول...

والتم في بيت عمرجان شمل الأصدقاء القدامى: سميرنوف ومخصوم وأمان وعدد آخر من شغيلة العنبر الذين عرفوا حيدرقول قبل اعتقاله.

...استغرق حديث حيدرقول الليل كله. تذكر من جديد كل الذي جرى له في هذه السنوات العشر. وكانت سنوات قاسية ثقيلة الوطأة تركت في حياته أثراً عميقاً، لقد رأى فيها الكثير وفكر وأعاد التفكير بالكثير...

الحياة مدرسة قاسية. وقد كلفت دروسها حيدرقول آلاما لاتطاق. في البداية اعتبر نفسه منحوساً وحسب، وكان يلوم قدره العاثر في كل شيء. كانت حياته صعبة ولكنه كان يتجرع كؤوسها ولا يشعر بكل مرارتها، كان قانعاً بقسمته راضياً بنصيبه وكان يبتهج لذلك الفتات من السعادة الذي ترميه له الحياة بشحة وتقتير. كانت له زوجة وبنت ولم يكن يطمع بشيء الا أن يراهما سعيدتين راضيتين. كان يعمل ويعيش لأجلهما. ثم أرغم على العمل في خدمة الباي وبدا له ذلك أسوأ من الفاقة أية فاقة. حاول أن يكافح، أن يقاوم وفقد في النتيجة كل ما كان لديه... فقد حتى زوجته وابنته. صار التعطش للثأر يمص دمه ويرافق كل خطوة من خطواته، صار الثأر هدفه... وأخذ بثأره، قتل غني‌جان‌باي... ثم حصل حيدرقول على الجنسية الروسية وكان يظن أنه أمسى في منأى عن أي خطر، كان يثق ثقة لا حد لها في عدالة القيصر وشهامته: كان يؤمن برحمته برعاياه وبأنه يفرق بين القتل والثأر.

والحق أن صديقيه نيقولاي سميرنوف وعمرجان قالا

له مراراً ان الأمير والقيصر الروسي مصنوعان من طينة واحدة وانهما يساويان بعضهما البعض. لكنه لم يكن يصدقهما فكيف هذا: القيصر رجل متعلم منتور وأملاكه عظيمة لا يحوشها نظر، أما الأمير فجاهل ونطاق سلطته لا يتعدى بخارى بذراع واحد، ليست دولته بالمقارنة مع روسيا الا حبة في صحن رز. عند القيصر توجد محاكم وقضاء وشرائع وليس عند الأمير شيئاً من هذا، هنا تتحكم القوة والتعسف، لا شيء هنا سوى الاستبداد. كلا، كلا، كان حيدرقول واثقاً من أنه في ظل سلطة القيصر الروسي سيكون في منأى عن أي خطر.

وحتى عندما ساقه رجال الدرك في شوارع المدينة كان لايزال يثق بسذاجة من أن القضاء الروسي العادل لن يعاقبه بقسوة حين سيتبين أن الباي قتل زوجته وابنته. كان يثق من أن المحكمة ستعتبر عمله ثأراً عادلا وتتركه في أمان وسلام.

حتى الآن لايزال يمثل أمام عينيه وفي أدق تفاصيله ذلك اليوم الذي فصله لسنوات طويلة عن حياته السالفة.

في مركز الدرك عاملوه بخشونة وبركلة قوية على ظهره دفعوه الى زنزانة تغص بالسجناء مالبث بابها الحديدي الثقيل أن انصفق خلف ظهره.

خيم على الحجرة الصغيرة شبه ظلام وكان جوها كثيفاً نتن الرائحة. عبر نافذة ضيقة مدرعة بالقضبان تسلل الى الزنزانة نور رصاصي لا حياة فيه.

كل الجزء الامامي من الزنزانة كان مشغولا بتخوت خشبية تمتد من الجدار الى الجدار. على التخوت وتحتها تكوم السجناء قاعدين وراقدين وقرب الباب وقف أحد الصعاليك واضعاً يديه في جيبي سرواله المهلهل. كان يدخن لفافة من التبغ الرخيص ويتفحص حيدرقول بلا كلفة وبنوع من السخرية. ثم لفظ اللفافة دون أن ينهيها، أخرج يديه من جيبيه، اقترب من حيدرقول وقال باستهتار:

— هيا، حل كيسك...

تطلع حيدرقول بدهشة الى الشاب القذر غير الحليق. كان تعبير وجهه لامبالياً، ولكن عينيه كانتا مترقبتين حادتين كعيني هر وكالهر أيضاً قبيل الانقضاض كان جسمه متوتراً بينما يداه ممتدتان الى أمام على أهبة الاستعداد لأن تنقضا وتنشبا مخالبهما...

– مالك صامت؟ ألم تعرف ابن خالتك؟

لم يعر حيدرقول جواباً وآنذاك لف الشاب حوله ومن الخلف دس يديه بخفة النشال في جيبيه. استدار حيدرقول بحدة وأطاح بالصعلوك فهوى ذاك على التخوت متمدداً... خيم على الزنزانة الصمت.

الآن حمل الصعلوك على حيدرقول مثل نمر – بخفة ورشاقة منحنياً ومقدماً رأسه قليلا الى الامام.

– ويلك يا كلب!– فح هو شاداً قبضتيه.

– اكدنه يا ستيوبا، هيا،– شجع الشاب رجل أسود الشعر متأنق في حذاء أصفر، وقف حيدرقول هادئاً وبدا أنه لا يبالي بكل الذي يجري. ولكن ما أن اقترب الصعلوك منه حتى انحنى بحدة ووجه برأسه ضربة الى ذقنه جعلته يهوى أرضاً مثل كيس.

اقترب المتأنق ذو الشعر الأسود من حيدرقول فربت على كتفه باستحسان وقال ممتدحاً:

– ضربة معلم، على ماذا جعكوك؟

– جعكوني؟– استفسر حيدرقول.

وشرح ذو الشعر الأسود بشيء من التسامح:

– أجل، الى هنا، الى القاووش، لماذا أدخلوك؟

ولكن حيدرقول ظل صامتاً شاعراً بشيء من عدم الثقة نحو هذا السيد المتهندم.

– أين تعمل؟– سأل ذو الشعر الأسود وقد نفد صبره.

– في عنبر التصليح.

– أوهو، أنت اذن من السياسيين؟

وهز حيدرقول رأسه نفياً.

— الأرجح أنك قاتلت على المتاريس الثورية؟ غنيت «المارسيليزا»؟

— لم أقاتل في مكان ولا غنيت أية أغنيات.

— أنت كما أرى لاتتنازل حتى للكلام معي؟ أو تعرف يا هذا، من أكون أنا؟

ونظر حيدرقول الى السيد الغريب بدهشة غير متصنعة.

— أنا نيرون، أما سمعت بي؟

جفل حيدرقول لدى سماع هذا الاسم. عدة سنوات على التوالي تردد هزيم هذا الاسم من بخارى الى مرو ملقياً الرعب في قلوب الناس الآمنين. عن نيرون وعصابته سمع حيدرقول من القصص ما تشيب لهوله الغلمان، فهم حيدرقول الآن مع من جمعه القدر واعتراه الخوف: وكيف لايخاف وقد نكل بالشاب الذي سماه نيرون نفسه «ستيوبا»*. وقرر حيدرقول اللجوء الى المكر.

— نيرون؟ من لا يعرف نيرون؟ أعرفه بالطبع، نيرون رجل جيد، انه لا يسيء لفقير.

وعلق نيرون على هذا الشص. ربت ثانية على كتف حيدرقول وسأل بوداد:

— هل عندك بابكي**؟

تجهم حيدرقول. فهم كلمة «بابكي» بمعناها المباشر وأراد أن يحكي قصة زوجته وابنته، كيف قتلهما غني جان باي وكيف ثأر هو لدمهما وذبح الباي ولكن ستيوبا صحا هنا وهجم عليه من جديد. بدأ النزال ولم يتدخل نيرون، راح يلهو متفرجاً ومشجعاً هذا تارة وذاك تارة أخرى. التمعت في يد ستيبان سكين آنذاك تملل بقية السجناء الذين اكتفوا حتى الآن بمراقبة المنازلة من على

* ستيوبا — صيغة التحبب من ستيبان «استيفان».

** بابكي — كلمة روسية لها عدة معاني منها: عجائز، المال أكعاب لعب والخ... وقد فهمها حيدرقول هنا بمعناها الأول.

تخوتهم، تململوا وأثاروا ضجة رهيبة. طقطق قفل الباب.

– السجان،– ترامت من التخوت.

دخل الى الزنزانة ناظر السجن وصرخ ستيبان حادجاً حيدرقول بنظرة متوعدة:

– لماذا حبستم معنا سجيناً سياسياً؟ خذوا هذا الكلب من هنا، خذوه والا قتلته في الحال.

– هات السكين!– أمر الناظر وأعطاه ستيبان السكين على مضض.

– أحمق،– قال له الناظر،– متى كان بين السارتات معتقلون سياسيون؟ لقد اعتقلوه بجريمة قتل.

– بجريمة قتل؟...– مط ستيبان الكلمات مرتبكاً.

بعد هذه الحادثة لم يتجرأ أحد على المساس بحيدرقول أبداً. وبالتدريج اعتاد حيدرقول على جيرانه، حكى لهم عن مصيره القاسي وعن عذاباته وكان هؤلاء الناس معذبين مثله، أساءت لهم الأقدار كما أساءت له فأحسوا نحوه باحترام خاص من نوعه وعاملوه بتعاطف وشفقة.

جاء يوم واقتيد حيدرقول الى المحقق.

خلف المكتب جلس رجل كبير البنية ذو وجه سمين أحمر وكان مطرق الرأس يكتب شيئاً ما، ثم من دون أن يرفع رأسه سأل:

– الاسم، اسم الأب، العمر والمهنة؟

وأجاب حيدرقول على اسئلته. حل صمت طويل لم تكن تسمع فيه الا خربشة ريشة المحقق على الورق. نظر حيدرقول الى رأسه الحليق، الى كتافاته الفضية وفكر بأن رأسه هو ليس حليقاً وفي القريب يهل الهلال ويبدأ شهر رمضان، فماذا لو يسأل المحقق أن يأمر بأن يحلقوا له شعره؟

ومستغرقاً في أفكاره لم يسمع حيدرقول السؤال التالي:

– ماذا بك، هل طرشت؟ هل أنت من قتل غني‌جان بن قاراكولي باي؟

– لقد ثأرت لزوجتي وابنتي، – أجاب حيدرقول بصوت خافت ثم سرد على المحقق كل شيء، لم يخف عنه شيئاً، فقد كان يؤمن بالعدالة.

– الآن ترون بأنفسكم أنه كان علي أن أقتله، فليغفر لي الله. – بهذا ختم حيدرقول حديثه وأضاف: – في مكاني كنتم ستفعلون الشيء ذاته. فابتسم المحقق وقال:

– ولكن، لنفترض، أنني ما كنت لأفعل ذات الشيء، كنت اشتكيت على الباغي الى المحكمة... واذاً ماذا علينا أن نفعل معك؟ – تابع هو متفكراً وهو يخرج لفافة من درج المكتب. – سيكون علينا أن نسلمك الى حكومة صاحب الجلالة أمير بخارى، – فهم يطالبون بذلك والقانون في صفهم...

– أوه، كلا، كلا، – قاطعه حيدرقول، – أرجوكم، أتوسل اليكم، لا تسلموني الى سلطات الأمير. قانون القيصر الابيض عادل وقانون الأمير قاسي وظالم.

– بالطبع، – مط المحقق الكلمة، – بالطبع، لو كانت قضيتك تخضع لمحكمتنا، لحكمت عليك حكماً مخففاً رحيماً. ولكن ما العمل؟ – وفرد المحقق يديه. – أمير بخارى يطلب تسليمك الى سلطاته.

– ولكنني أحمل الجنسية الروسية، أنا من رعايا القيصر الابيض، وهو غير ملزم بأن يسلمني لسلطات أخرى. – كان حيدرقول لصفاء قلبه لايزال يؤمن بامكانية اقناع المحقق، ولكن ذاك سئم هذا الحديث، اضافة الى أنه كان أعجز من أن يستطيع تغيير شيء حتى لو أراد.

– ماذا تريد؟ قتلت انساناً، ارتكبت جريمة، وتظن الآن أن الامبراطور ملزم بأن يدافع عنك؟ كلا، كلا، دع محاكم الأمير تحاكمك، هذا شأنها...

وبصوت يتهدج من الخوف ترجاه حيدرقول أن لا يسلموه للطغاة المستبدين ولكن المحقق ما عاد يستمع

اليه، كتب وكتب طويلا ثم طلب من حيدرقول أن يوقع. فوقع المسكين دون أن يفهم شيئاً، وأعاده رجال الدرك الى الزنزانة.

بمرور بعض الوقت استدعي حيدرقول مجدداً. ولكن السجان اقتاده هذه المرة الى حجرة صغيرة حيث كانت تنتظره جارته، تلك المرأة الروسية المسنة التي كان ابنها يشتغل معه في عنبر التصليح. هيج مجيؤها عواطف حيدرقول حتى ثارت عبراته. فهو يعيش في جيرة هذه المرأة أقل من عام، وهي ليست قريبة له، بل وتدين بدين آخر، ومع ذلك أتت تزوره في السجن وجلبت له خبزاً وبطاطاً مسلوقة وزجاجة حليب...

– وأنت لا تتكدر، أيها الرجل الطيب،– قالت له هي بشفقة وحنو نسائي.– لن يتخلى الرفاق عنك في ضيقتك. البارحة اجتمعوا في العنبر. تكلموا عنك وتناقشوا، وان شاء الله سيطلقون سراحك.

وراح حيدرقول يسألها عن رفاقه وعما يسمع ويقال خارج السجن.

– الكل أصحاء معافون وقد أرادوا أن يأتوا اليك ولكن المشاغل منعتهم. غداً يحضرون ويحكون لك عن كل شيء. كن معافى، لا تحزن ولا تقنط. كل شيء سيكون في خير.

وودعته المرأة، كفكفت دموعها بمنديل وخرجت.

وقد يبدو أنها لم تقل له شيئاً خاصاً، ولكن ذاكرته حفظت الى آخر العمر كيف جلست متكدرة مهمومة، وبأي تعاطف وحنان أمومي صادق كانت ترنو اليه، وكم مرة فكر حيدرقول وفكر: كلا، ليس صحيحاً ما قيل عن أن غير المسلم لا يمكن أن يكون لغير المسلم صديقاً، كلا، فليس الدين ما يفرق الناس...

في تلك الليلة جفا النوم حيدرقول وطال به السهد. من الخارج ترامت صفارات القواطر وغناء المتسكعين السكارى ومن مكان ما، ربما من الزنزانة المجاورة بلغ مسامعه بكاء امرأة. بقربه كان ستيبان يشخر، أحد

المساجين كان يتكلم في نومه وأحدهم كان يصر على اسنانه وتحت الأرض كانت الفئران تتحرك وتصي...

منذ طفولته اعتاد حيدرقول على الضرب. كانوا يضربونه مربوطاً الى شجرة، وكانوا يضربونه غير مربوط. عرف الجوع، عانى من الحر والقر وذاق الأمرين لكنه لم يخطر على باله قط أنه سيدخل السجن. وحينما كان يمر بسجن كان يرى المساجين مكبلين بالاغلال يرى وجوههم الكالحة الناحلة، كان يراهم جالسين في الشمس قرب بوابة السجن يحبكون الشباك والاكياس ودكك السراويل... وذات مرة اشترى حيدرقول من أحدهم كيساً وسأله ان كان يسمح لكل السجناء بالخروج الى الشارع، فأجاب ذلك: «لا، أغلبيتهم تجلس سنين طويلة في جورة نتنة لاترى نور الشمس». وهاهو نفسه قد وقع في السجن، هاهو نفسه محروم من نور الشمس ويصعب عليه أن يصدق أنه سينعم يوماً بحياة أخرى - بدون زنزانة، بدون تخوت خشبية وبدون جرب...

ولكنه على كل حال لا يندم ولا يتأسف لأنه قتل غني‌جان‌باي، فلم يكن بوسعه أن يتصرف بشكل مغاير. أغلب الظن أنهم الآن سيحكمون عليه بالأشغال الشاقة فيرسلونه الى سيبيريا أو يسلمونه لسلطات بخارى ويعدمه هؤلاء. ولوقت قريب مضى كان الأمر بالنسبة له سيان. فهو قد أخذ بثأره وهذا هو الأهم. ولكنه الآن ماعاد وحيداً في ثأره. يوجد عنده أصدقاء وهم لم ينسوه ولم يشيحوا عنه، انهم يتذكرونه. ومن جديد ود أن يحيا...

وماذا عن فيروزة؟ لماذا لا تحيطه بنفسها علماً؟ أمن المعقول أن يكونوا قد اتهموها في مقتل الباي؟ ولكن لا، فهو خصيصاً قد انتزع المؤذن من مسجد الحارة فذهب به الى جثة الباي وقال انه هو، حيدرقول، الذي قتله. كان المؤذن يرتعش من الهلع، وقد دمدم بشكل مضحك أن حيدرقول تصرف تصرفاً صائباً وأنه قام بعمل محمود.

بعد ذلك قيده حيدرقول وأمره أن يرقد في هدوء حتى الصباح، حتى شروق الشمس. وعندما يلتم الناس ويفكون قيده، بوسعه آنذاك أن يحدثهم عما كان وكيف كان. واذن فلا يجب والحال أن يقع على عصا وفيروزة حتى ظل شبهة! آه، كم يود أن يراهما سعيدين! ولكنه، على الأرجح، لن يراهما أبداً... اذا سلموه الى ميرشاب بخارى فانهم سيمزقونه حياً...

ولم يغش النوم حيدرقول الا قبيل الصباح، ولكن الكوابيس طاردته حتى في نومه وحين أفاق كان جسمه متألماً مضعضعاً. وفكر حيدرقول: «الآن لا يستطيع أحد أن ينقذني سوى الله».

وفي المساء استدعوه. توقع حيدرقول أنهم سيقتادونه الى المحقق من جديد، ولكنه تبين أن اصدقاءه: سميرنوف وعمرجان وأمان قد جاؤوا لزيارته.

حدثوه بأن عمال عنبر التصليح وجهوا الى الجنرال حاكم سمرقند العسكري التماساً يسألونه فيه ألا يسمح بتسليم حيدرقول باعتباره مواطناً روسياً الى جلادي بخارى. واذا لم يعد هذا بنفع فان العمال سيرفعون شكوى الى طشقند والى بطرسبورغ. وقد أيدهم في ذلك جميع موظفي الادارة ورئيس العنبر ذاته. أما كبير المحاسبين يفغيني ايفانوفيتش بوبكوف فقد صرح علناً:

— مادام حيدرقول مواطناً روسياً فلا يجوز أن تحاكمه الا محكمة روسية، أما سلطات بخارى فلا شأن لها بهذا الأمر. نحن ملزمون أن نبين للسارتات ولكل الشعوب الاخرى التي تستجير بنا أن الدولة الروسية قادرة وقوية ولن تسمح لأحد بالاساءة لرعاياها: الجنرال الحاكم ملزم بالتدخل في هذه القضية.

— هاك السبب في أن قضيتك لم تسلم حتى الآن لقاضي بخارى، — شرح له عمرجان. — انهم ينتظرون التوجيهات من سمرقند. أما نحن فقد جمعنا في هذا الحين المال اللازم لاستئجار محامي.

تأثر حيدرقول بطيبة اصدقائه من الاعماق. وفي الزنزانة تقاسم مع السجناء ارغفة الخبز والبلوف والمشمش الذي حملوه له.

تعاقبت الأيام ببطء وأخيراً استدعوه الى المحقق من جديد فأخبره ذاك أن لجنة المحلفين وصلت من سمرقند، وأن المحكمة سوف تنظر في قضيته قريباً.

وبعد عدة أيام حوكم حيدرقول. من بخارى حضر الى المحكمة الميرشاب ذاته وطالب باعدام حيدرقول. أما المحامي الروسي فقد أبلى في الدفاع عنه متحدثاً عن قدره المرير وعن قسوة الباي وانحلاله واستطاع أن يؤثر في الجمهور حتى سالت الدموع.

وفي الختام قرأ القاضي قرار الحكم بصوت مرتفع. كان نادراً ما يرفع عينيه السوداوين في نظارته الذهبية عن الورقة التي كان يقرؤها ليلقى على القاعة نظرة ذات مهابة.

استمع حيدرقول الى قرار الحكم بهدوء، ولكنه حين قال القاضي: «قررت المحكمة نفيه الى سيبيريا لمدة عشر سنوات مع الاشغال الشاقة» أحس بالقشعريرة. حاول أن يعد كم سيكون له من العمر حينما سيعود ولم يستطع... في القاعة حيث كان أصدقاؤه أيضاً ارتفع الضجيج والصراخ. عجز حيدرقول عن تمييز الأصوات. عشر سنين، عشر سنين من الأشغال الشاقة... انها الحياة كلها تقريباً. وبأي ذنب؟ أو لم يقتل الباي زوجته وابنته الوحيدة؟ فلعلهم أخطأوا؟ فليس الا لساعة خلت بدا المحلفون له أناساً طيبين، كانوا يبتسمون له بتسامح وهم يستمعون الى الدفاع، أما الآن فلا يرى الا ظهورهم المبتعدة. سدت الغصة حنجرته ولم يقو على أن يفتح فمه ويناديهم ويشرح لهم كل شيء. كان لايزال عاجزاً عن التصديق أن قضاة القيصر الابيض يمكن أن يكونوا قساة بهذا الشكل.

ثم اقترب منه دركي ووضع الكلبش على يديه. في

الشارع ساقوه مخفوراً. وفي الحشود على الجانبين كان من بكى عليه وندب كما يندب على الموتى.

بعد المحاكمة زجوه في زنزانة منفردة. أربعة جدران باردة عارية، فوهة ضيقة في السقف وفي الزاوية كومة قش... بالنسبة لرجل مثل حيدرقول، يقف على عتبة حياة جديدة، مبهمة ورهيبة كان يصعب ابتكار تعذيب أشد من هذا هولا. الآن ما عاد يلهي حيدرقول شيء عن الهواجس السوداء. واختلط الحاضر بالماضي بالمستقبل. فمرة تمثل أمامه زوجته وابنته ومرة يحاول أن يتصور سيبيريا، المنفى الرهيب، الصقيع القارس، والعواصف الثلجية وعواء الذئاب الجائعة و الأشغال الشاقة المنهكة. أحياناً كان يفكر بأسى ومرارة: كان خيراً لي أن أموت مرة على مشنقة الامير من أن أموت كل يوم في عشر سنين على التوالى.

ولكن شيئاً كان يتمرد فيه، كان ينهض. كلا! لا يجوز له أن يفكر بهذا الشكل! مادامت الجذور في الماء، لا بد أن تحيا الشجرة! والخلاص مازال ممكناً، فلا أحد يدري ماذا يخبىء الغد...

قام حيدرقول وراح يخطو في الزنزانة. أربع خطوات في الطول واثنتان ونصف في العرض. في البداية طولا ثم عرضاً... وبعد ذلك طولا من جديد... كلا، انه سيخطو مائة خطوة بالطول ثم أربعين بالعرض... هكذا سينقضي الوقت سريعاً... اثنتان وخمسون، مائة وأربع... الآن عليه أن يضيف عشرين خطوة أخرى بالطول. انه لا يسمع شيئاً سوى وقع خطواته. انها تطن في رأسه، وتسود الدنيا في عينيه، يشعر بالغثيان، ويقع فوق القش منكفئاً على وجهه...

على هذا المنوال انقضى أحد عشر يوماً. وفي المساء دخل السجان على غير انتظار وأمره أن يستعد. رمى حيدرقول على كتفيه روبه العتيق وخرج. أحاط به جنود مجردو السيوف وساقوه عبر شوارع المدينة.

الدنيا مظلمة مقفرة والهواء طازج عذب يثمل منه

الرأس. المطر يهطل رذاذا والسكون تام. عز على حيدرقول أن يفهم لماذا خصوه وحده بكل هؤلاء الجنود! أيعقل أنهم ينوون الآن أن يأخذوه الى سيبيريا وأنه يضع خطواته الأخيرة على أرض وطنه؟ أو لعلهم قرروا فجأة أن يسلموه للامير؟

في البعيد لاحت بناية المحطة. هاهي السكة الحديدية. وهناك خلف المحطة، العنبر وأصدقاؤه. انهم حتى لا يشتبهون أنه قربهم. بعضهم على الأرجح نائم، وآخرون يشتغلون. من المحتمل أنهم قد نسوه؟ ولماذا يجب أن يكون العكس؟ فمن هو؟ انه صعلوك وحيد وشريد.

وهاهو قد ارتقى درجات العربة. قبيل أن يدخل التفت الى المدينة النائمة، كحل عينيه بمرآها وانهمرت دموعه. وهكذا سيرحل، سيرحل دون أن يودع أحداً، دون أن يرى من أقربائه أحداً...

كانت عربة السجناء جديدة، حتى رائحة الدهان مازالت تضمخ هواءها والنوافذ فيها كانت مسلحة بالقضبان. اقتادوه عبر ممر ضيق وزجوه في قمرة مظلمة. النافذة كانت مسدودة بألواح خشبية سداً محكماً، على امتداد الجدار تخوت للنوم، الباب ملبس بالحديد، تحت السقف فوهة ضيقة، أغلب الظن أنها لأجل التهوية: وفي مكان ما، في الأعلى، ضاء فانوس شاحب. وبقي حيدرقول وحيداً.

ترددت خلف الباب أصوات الحراس. ترامت من المحطة صفارات القواطر وهدير القطارات العابرة. انصت حيدرقول للضجيج ولبث ينتظر انطلاق القطار. بعد منتصف الليل سقط مطر وابل. عقب ذلك أخلد كل شيء للسكينة، ما عادت تسمع لا صفارات القواطر، ولا ضجيج القطارات المارقة. أخذ بحيدرقول التعب. استلقى على التخت القاسي وأسلم جفونه للنوم.

فجأة هدر شيء ما. فتح حيدرقول عينيه ورأى الحراس يدفعون الى القمرة رجلا ذا لحية. أغلق الباب من جديد. خلع الرجل معطفه المبلل، اقترب من حيدرقول وصافحه

بكلتي يديه على الطريقة الاسلامية. ولكن حيدرقول أدرك ما أن رآه أن هذا ليس مسلماً، بل روسي وروسي شاب رغم لحيته.

- دعنا نتعرف،- قال القادم باشاً بالاوزبكية.- غريغوري ايفانوفيتش سوكولوف. أظن أن تذكرتينا مثل بعضهما - الى سيبيريا؟- قال هو مبتسما.- ثلاثة أيام قعدت هنا، فيا للحر! كما في حمام جيد. وأنت؟

ذكر حيدرقول اسمه وقال انه كان يشتغل في عنبر التصليح وعن رفاقه فسأله سوكولوف فوراً:

- ألا تعرف نيقولاي سميرنوف؟

- وكيف لا، أعرفه خير معرفة - أجاب حيدرقول وأضاف:- لو لاه، ربما، ما كنت الآن في عداد الاحياء.- وحكى لرفيقه الجديد عن مصابه رفاقه وكيف حاولوا أن ينقذوه.

- أجل، لقد سمعت بالنضال الذي خاضه العمال من أجلكم، فأنا أيضاً كنت، لعلمكم اشتغل في عنبر تصليح، كانت عندنا في باكو منظمة قوية. ولقد لقنا للبرجوازيين دروساً ساخنة... الا أنني زللت، وقعت متلبساً ومعي منشورات وهاهم يدحرجونني الى سيبيريا. أما سميرنوف فأنا قد عرفته في باكو. انسان جيد...

- شكراً له، فلولاه ولولا الرفاق لكنت تدليت من الانشوطة. أنت تعرف فالمحكمة عند الامير واحدة - المشنقة أو سيف الجلاد. والحق أن عشر سنوات من الأشغال الشاقة ليست نعمة كبيرة أيضاً. وأنا كنت آمل أن محكمة القيصر الأبيض ستكون عادلة، ولكن يبدو أن العدل عند الله وحده.

ابتسم سوكولوف في خيبة وقال:

- واه، أنت، كما أرى، مازلت ساذجاً تماماً. تصدق في عدالة القيصر الأبيض! حتى الآن لم تفهم أن الثوم أخو البصل. لا فرق بين الأمير والقيصر كلاهما من جبلة واحدة.

قعد سوكولوف فوق التخت على راحته، مد رجليه، أخرج من جيب جاكيته كيس تبغ، لف سيكارة وناول الكيس لحيدرقول ولكن ذلك رفض.

أخذ سوكولوف من اللفافة عدة أنفاس قام وراح يمشي في القمرة – ثلاث خطوات في اتجاه وثلاث خطوات في الاتجاه الآخر. ثم جالساً قرب حيدرقول سأل فجأة:

– وأنت، هل تجيد الغناء؟

رنا حيدرقول اليه مدهوشاً وأجاب متباطئاً:

– بل كلا، أخال أنني قد غنيت اغنيتي.

– متى هذا؟– استفسر سوكولوف غير فاهم كلمات حيدرقول.

– منذ زمان... وأنت ماذا – تحب الغناء؟

– أحبه...– قال سوكولوف ساهماً.– ولكنني أغني أغنيات روسية. – وشرع يغني. غنى أغنية وجدانية عن قسوة المحبوبة وعن الحب والوفاء... ومع أنه غنى بالروسية وبصوت خافت تماماً لكن شيئا ما في غنائه خلاباً مؤثراً يأخذ بجماع القلب جعل حيدرقول يستمع اليه كالمفتون.

– هل عندك زوجة، أولاد؟– سأل حيدرقول عندما فرغ ذاك من الغناء.

– عندي زوجة وابن. زوجتي اسمها ناتاشا وهي تعمل في باكو، في آبار البترول. والابن عمره سنتان. انه يبقى مع والدتي، مع جدته...– وصمت سوكولوف برهة. – وياله من عفريت، انه لا يجلس دقيقة دون حركة. كنا واياه نغني دائماً. كيف هم هناك بدوني؟.. الوالدة عجوز تماماً. الهموم كلها وقعت على كاهل ناتاشا...

وتذكر حيدرقول من جديد موت زوجته وابنته المأساوي. ياللمسكينتان، انهما لم تريا يوماً أبيض... ولكنه ثأر لهما على الأقل. أما هذا الروسي المسكين فماذا سيعمل؟ ممن سينتقم؟

– كنا نناضل من أجل سعادة أولادنا...– قطع حبل افكاره سوكولوف.– وأخفقنا، لقد وقعت بين براثنهم. ولكن لا بأس، أصدقائي سيثأرون لي، سيصلون بالنضال الى النهاية المظفرة!

– «بعد الليل الحالك الفجر آت لا محال»، – ترجم حيدرقول هذا القول الطاجيكي الى الاوزبكية وأضاف:– لا عليك، فنهارنا المشرق سيأتي أيضاً.

– بالطبع،– وابتسم سوكولوف في حبور،– كل شي سيكون على مايرام. قولك صحيح: سيأتي أيضاً نهارنا المشرق، نهار نصرنا. ويومها حتماً سأزورك في بخارى. وأظن أنك ستضيفني بأكلة بلوف بخارية.

– عسى الله!

– يقال ان البلوف البخارى لذيذ جداً.

– لذيذ،– قال حيدر باسماً،– وأنا في هذه المسألة اختصاصي، حاذق جداً. سأحضر لك أكلة بلوف تأكل وراءها أصابعك.

– عظيم جداً. سنأكل بلوفك ثم نسافر الى عندنا، الى باكو. هناك ستضيفك ناتاشا بأكلة بلوف باكوية، وبسمك مقلي وفسيخة.

– فسيخة؟ ماهي الفسيخة؟

– الفسيخة، يا عيني؟ أنت ماذا، لا تعرف ما هي الفسيخة؟ في الدنيا كلها لا يوجد شيء أشهي من الفسيخة، خصوصاً عندما تحضرها ناتاشا... آخ، ان لعابي الآن يسيل.

– ومن أي شيء يحضرونها هذه الفسيخة؟

– الفسيخة سمكة، هل تفهم، توجد سمكة بهذا الاسم. ولكنها تحضر بطريقة خاصة... آخ، تكلمنا واياك عن الأكل وأحس أن الذئاب بدأت تعوي في بطني. دعنا نتلمج.

أخرج سوكولوف من كيسه شرحة خبز، شطرها الى نصفين وشرع الرجلان بالأكل.

— لا عليك يا صاح، لا تقنط. سوف نعيش، لن نموت. من كان معي لن يضيع... أما الآن فدعنا ننام.
طيلة يومين تقريباً لم يغمض لي جفن. — وطاوياً معطفه وواضعاً اياه تحت رأسه تمدد سوكولوف على التخت الخشبي. رقد حيدرقول أيضاً وفي الحال غفا.

وعندما أفاق كانت عجلات القطار تطرطق برتابة على لحمات القضبان. كان سوكولوف متربعاً على التخت وقد أحاط ركبتيه بيديه.

— انهض، سوف نفطر. لقد جاؤونا بخبز وشاي.

— الى أين نسافر؟

— لا أعرف، الأرجح باتجاه طشقند.

كان من المستحيل التكهن الى أين يأخذونهم. مضى النهار وجن الليل ثم حل نهار جديد. وصل القطار الى محطة ما كبيرة. فصلوا العربة ووضعوها على خط احتياطي، أخرجوهم من العربة. وكان النهار صحواً رائعاً، السماء صافية والشمس تتألق ساطعة. تلفت حيدرقول باهتمام وشغف وقال سوكولوف:

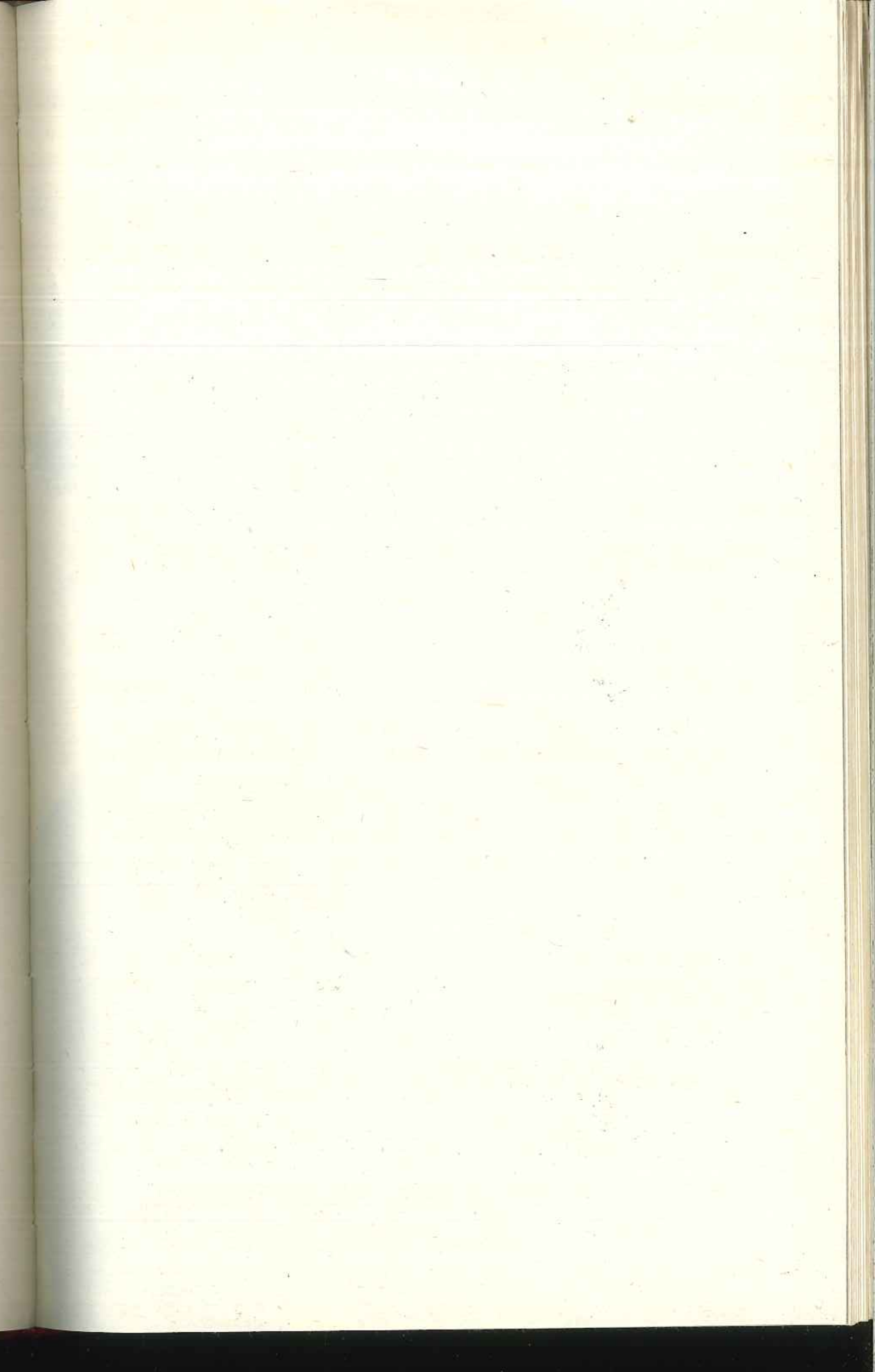
— لكن هذه سمرقند!

صف رئيس الخفر جنوده المجردي السيوف من حولهما واقتيد السجينان الى المدينة.

خلف محطة القطارات مباشرة بدأت البساتين والكروم، على الطريق المبلطة العريضة سار السابلة وجرت العربات والفيتونات... وكان بين المارة كثير من الروس. قرب السجينين مرت أعداد من الجنود والضباط والموظفين، كانوا راجلين وراكبين لكنهم جميعاً لم يعيروا لهما اهتماماً. أما الفلاحون الذين هاموا على الطريق سيراً أو ركوباً على الحمير فكانوا ينظرون بشفقة ورأفة الى حيدرقول وسوكولوف.

كان الربيع في أوله. الاشجار تسامت زاهرة، انتفخت البراعم وتفتحت، وكان العشب ناضراً. لكن سيوف الجنود المجردة حجبت عن السجينين الربيع الزاهر.





ساروا طويلا. في الطريق قيل الجنود للراحة في احدى الشايخانات وأجلسوا حيدرقول وسوكولوف قرب الجدار في الفناء، حتى دون أن يخلعوا عن أيديهما الكلبشات. بعد ذلك ساروا من جديد ومع غروب الشمس فقط وصلوا الى السجن. هناك زجوهما في زنزانة واحدة.

في سجن سمرقند قضى حيدرقول مع سوكولوف زهاء أربعة أشهر. هناك علمه سوكولوف القراءة والكتابة بالروسية. وكانت مغلفات الشاي وعلب السكائر والجدران والأرض - كل هذا كان يصلح للدروس. بمثابة قلم كانا يستخدمان الفحم وقطع الكلس وأي شيء آخر يقع تحت أيديهما. وفي النهاية تجرآ وطلبا من سجان عجوز قطعة من قلم رصاص.

في البداية تعلم حيدرقول كتابة اسمه وبعض الكلمات الروسية، وأخيراً صار يكتب عبارات كاملة. ثم سرعان ما بات قادراً على قراءة ماكان يكتب على علب السكائر والكبريت. وذات مرة حصل سوكولوف على عدد من جريدة «كشوف تركستان» الروسية. في الأيام الأولى لم يتمكن حيدرقول من قراءة العناوين الا بصعوبة، لكنه تعلم مع الوقت كيف يفك حتى الخط الصغير. كانت نجاحاته تبهج سوكولوف. وعموماً كان سوكولوف انساناً رائعاً. لم يكن يستسلم للأسى أبداً، كان يجد دائماً ما يفعله، وحتى هنا، في السجن كان يتشاطر في العثور على شغلة ما.

وأحياناً كان يتفلسف:

- مادام الماء قد بلغ البلعوم، كل شخص يتعلم كيف يعوم. وهكذا الحال مع شعبكم. انه يصبر ويصبر ثم سينفجر ويرسل الأمير وكل أذنابه الى الشيطان. ولأجل

هذا يجب، بالطبع، أن يعرف الناس معرفة أكيدة ماذا يريدون. ولنأخذك أنت مثلا – فأنت لم تقعد على الضيم، لم تتردد في رفع يدك حتى على الباي نفسه. ولكن ماذا تغير نتيجة قتلك لباي واحد. نقص البايات واحداً – وهذا كل شيء. لقد أسأت الصنع يا أخ، أسأت. وها أنت جالس الآن دون أية فائدة.

ويقول حيدرقول مبرراً ومعللا:

– لكنك أنت أيضاً مسجون.

– كونهم قبضوا علي، حماقة بالطبع. ولكن القضية هنا مختلفة تماماً. أنا كنت أقوم بمهمة منظمتي. وكان يجب ألا أقع بالطبع... ولكن لا بأس، فأنا لا أنوي أن أموت. في سيبيريا يعيش الناس أيضاً وسأجد هناك ما أفعله.

تحت تأثير سوكولوف تغيرت نظرة حيدرقول الى كثير من الأمور. أينعت في نفسه براعم أمل جديد، افعمته الثقة بنفسه وفهم أن كل شيء يتوقف على الانسان ذاته وأن الانسان ذاته قادر أن يغير مصيره بيديه.

ولكن هاهو السجان يدخل الى الزنزانة مرة ويأمر حيدرقول بأن يوضب نفسه. وتعانق الصديقان بقوة.

– لا تقنط يا أخ. لا تحزن، – قال له سوكولوف. – أنا واثق من أننا سنلتقي مرة أخرى.– وبصوت خافت أضاف:– في أزمنة أفضل.

في الفناء وقفت مجموعة كبيرة من السجناء. انضم حيدرقول اليهم، ثم صفوا الجميع وساقوهم الى محطة القطارات.

سنة كاملة سيق حيدرقول تحت الحراسة في الدرب الى المنفى، من مدينة الى مدينة ومن سجن انتقالي الى آخر. لم يمكثوا طويلا في مكان، وبالقطار أو على الخيول أو على الاقدام سار هو، تدثره الاسمال وتغله الاصفاد، الى أن وصل أخيراً الى مقاطعة نيرتشينسك.

في أكاتو كان الوقت شتاء. وفي السماء المكفهرة بدا

أن الشمس لم تطلع ولن تطلع أبداً. الأرض جبلية حجرية، الصيف قصير والحياة شاقة قاسية.

في الأيام الأولى حبسوهم في الزنازين، ثم ساقوهم الى العمل. من الصباح الباكر وحتى المساء المتأخر كان السجناء يقطعون الصخور في الجبال، كانوا يشحنونها وينقلونها. اثناء العمل كانوا يفكون لهم القيود عن أيديهم أما على الأرجل فكانت تبقى طيلة الوقت. في الليل كان يبيتونهم في قواويش كبيرة باردة تقسمها التخوت الى شطرين. وكانوا يطعمونهم على الطوى: عصيدة وخبز من الجودار مع النخالة.

ثلاثة أشهر على هذا المنوال أجهزت على صحة حيدرقول تماماً، صرعه المرض، كان يتقلب محموماً، كان يهذي.

العريف في قاووشهم كان عجوز اسمه اسرائيل بوريسوفتش. لم يكن يخرج الى العمل وعلى عاتقه كعريف استلقت مهمة تنظيف القاووش وحراسته. وقد كان اسرائيل بوريسوفتش، كما علم حيدرقول فيما بعد، طبيباً بطرسبورغياً شهيراً، ومنذ ثلاث سنوات نفي الى سيبيريا مع الاشغال الشاقة جزاء نشاطه الثوري. حدب اسرائيل بوريسوفتش على المريض ورعاه بعناية، كان يسقيه مساحيق ما واستطاع أن ينقذ حيدرقول من الموت.

تبين أن الدكتور قد جازف وجلب معه الى أكاتو أدوية. فهنا لم تكن صحة المنفيين تقلق أحداً. واذا حدث واصيب أحد منهم بمرض كانت الرئاسة تعفيه من الخروج الى الشغل – وهذا كل شيء.

أقعد المرض حيدرقول قرابة شهر ونصف. وقد ساعد الطبيب في الاعتناء بالمريض معلم تتري من اورينبورج اسمه زينة الله عابدي. كان حيدرقول قد صادقه مذ جمعهما المصير في سجن أرينبورج. زج عابدي في السجن على أنه سار حاملا الراية الحمراء على رأس مظاهرة لشغيلة معمل القرميد. وأثناء هذه المظاهرة لقي أحد رجال الدرك

مصرعه. فنسب قتله الى عابدي أيضاً وحكم عليه بثمان سنوات اشغال شاقة في سيبيريا. كان زينة الله يذكر حيدرقول سوكولوف - فقد كان مثله حيوياً مرحاً ومثله أيضاً كان يحب مساعدة الجميع.

كان عابدي على معرفة باللغة الطاجيكية وكان يحب الشعر حباً جماً. منه سمع حيدرقول للمرة الاولى أسماء شعراء وطنه العظام - روداكي وحافظ وسعدي وعمر الخيام. كان المعلم يقرأ عليه قصائدهم وقصائد الشاعرين التتريين عبد الله توقاي ماجد غفوري.

سنة كاملة اشتغل حيدرقول في المقلع. ازدادت حوادث الموت في أكاتو بشكل مريع، ولكن الرئاسة ظلت لامبالية الى أن تفشى المرض بين الحراس أنفسهم وآنذاك فقط أخذ بها الذعر وفتحت مستشفى صغيراً. هناك عينوا اسرائيل بوريسوفتش طبيباً. وتوصل هذا في القريب الى اقناعهم بارسال حيدرقول اليه ممرضا. صارت الحياة أخف وطأة.

سنة ١٩١٤ بدأت الحرب وأرسل ابن الدكتور الوحيد الى الجبهة. قصم هذا ظهر العجوز وأضناه كليا. كان يعيش على الخطابات التي تصله من البيت وهاهو ابنه قد ترك البيت. وفي القريب بلغه خبر مريع: لقى ابنه حتفه. بعد هذا لم تطل الحياة بالعجوز أكثر من عشرة أيام.

وبمرور نصف عام استرد حيدرقول حريته...

أنهى حيدرقول حديثه وحل الصمت: صمت طويل وثقيل.

- مرت عشر سنين، - قال أمان متنهداً، - ولكنك كنت معنا دائماً...

قام الأخ مخصوم من مكانه وراح يتكلم:

- في العالم الاسلامي كانوا يسمون قديسا كل شخص يحج الى مكة. أما في زماننا فان القديس هو ذاك الذي يقاسي من العذاب ما قاسيته أنت، يا حيدرقول، ولكنه لا يستسلم ولا يخنع، بل يمسى أشد عزماً وأقوى

عزيمة... هاك لماذا انحني أمامك كما انحني أمام قديس.

لمس الأخ مخصوم كتف حيدرقول بكلتي يديه ثم رفعهما الى وجهه ومسحه. نهض حيدرقول فعانقه وقبله.

– والآن هات، حدثنا عن نفسك. فأنت قد سافرت الى قازان...

وبدأ الأخ مخصوم:

– قازان مدينة رائعة. كان بودي أن أبقى هناك ولكن الأصدقاء راحوا يدعونني الى البيت، كتبوا أن صديقي الوزير الاول فطس، وأن الميرشاب سرعان ما لحق به آنذاك فهمت وقررت أنه آن لي الأوان كي أعود، عدت وأنا هنا منذ زمان. توجد عندنا هنا، في بخارى منظمة اسمها «بخارى الفتاة». وأنا مرتبط بها. لكن الشعب هناك جبان، غير حاسم، لا يجيد غير الثرثرة. اقترحت أنا عليهم أن يتصلوا بالبلاشفة في كاغان، ولكنهم يخافون، لا يوافقون. يريدون أن يكون القطيع سالماً والذئاب شبعة.

– يبدو أن الأمل فيهم ضعيف.

– هذا حق،– أكد سميرنوف،– نحن بحاجة الى أن يكون عندنا في بخارى منظمة بلشفية قوية. وحتى الآن لاتوجد أية منظمة.

في هذا الوقت كانت زوجة عمرجان قد فرشت المائدة، فجلس الأصدقاء من حولها واستمر الحديث.

٢

كان نهاراً ربيعياً صافياً. السماء عالية عالية، مشمسة وبشوشة. ولكن هاهي سحابة تهجم على الشمس فتحجبها وفجأة يهطل المطر: مطر عربيد عابث تألق تحت اشعة الشمس حبات ألماسية كبيرة. وانقطع المطر، انقطع ولم يفلح حتى في تبليل الرصيف الترابي، لم يفعل سوى أن غطاه بغبيراء ناعمة، هذه الأمطار الربيعية الطارئة يسميها الناس مباركة: فبعدها ينشرح الصدر بشكل ما

ويطرب القلب ويتراقص. انقشعت السحابة وصارت السماء صافية مثل الماء في حوض ميردوستيم.

وحوض ميردوستيم ملؤوه البارحة بالماء حتى حوافه. ترسبت العكارة في الليل واليوم يركد ماؤه ساكناً، صافياً وشفافا.

فرغ عصا من مشاغله باكراً حمل الماء الى البيوت التي يخدمها، عاد الى الحوض، قلب القربة وعلقها على مسمار كبير مدقوق في شجرة دلب هرمة. بعد ذلك حمل من الشايخانة ابريق شاي وقعد على مصطبة تقوم على حافة الحوض، لم يكن على المصطبة أحد غيره: السقاة الاخرون لم ينهوا عملهم بعد، كانوا يجلسون القرفصاء قرب الحوض، يملؤون قربهم بالمغارف ويذهبون حاملين الماء الى البيوت.

كان عصا يحتسي الشاي بروية ويفكر في شؤونه، خلال عشر سنوات من الحياة المشتركة مع فيروزة ولد عندهما صبيان. ولكن القدر لم يكتب لهما الحياة كما يبدو: مات كلاهما ولما يبلغ ربيعه الأول. الحنين الى الولد يضني فيروزة، انها حزينة دائماً وفي الخفاء تتأوه وتبكي. وماذا لو مرضت لا سمح الله؟ ماذا سيفعل عصا انذاك؟ فهو وحيد ليس له في الدنيا أحد غيرها. لقد كد عصا وشقى كثيراً في بيت غني‌جان الثرى، والهبة الوحيدة التي من بها القدر عليه لقاء شقائه هي فيروزة. انها أغلى عنده من كل ألماس الأرض وكل ياقوتها وجواهرها. لا في الأرض ولا في السماء لا يحتاج عصا لأحد ولا لشيء الا لفيروزته...

– عصاجان تيـتاـتان، عصاجان تيـتاـتان! – أخرجه من لجة أفكاره صوت أحدهم.

التفت عصا فرأى طه وانفرجت أساريره. كان يحب هذا الفتى المرح. فهو كان يخاطب الجميع،– صغاراً وكباراً – بـ «يا ابن أخي» – وعلى هذا لقبوه هذراً بالعم. وقد التصق اللقب به حتى أنه نسي هو أيضا، وليس

ويطرب القلب ويتراقص. انقشعت السحابة وصارت السماء صافية مثل الماء في حوض ميردوستيم.

وحوض ميردوستيم ملؤوه البارحة بالماء حتى حوافه. ترسبت العكارة في الليل واليوم يركد ماؤه ساكناً، صافياً وشفافا.

فرغ عصا من مشاغله باكراً حمل الماء الى البيوت التي يخدمها، عاد الى الحوض، قلب القربة وعلقها على مسمار كبير مدقوق في شجرة دلب هرمة. بعد ذلك حمل من الشايخانة ابريق شاي وقعد على مصطبة تقوم على حافة الحوض، لم يكن على المصطبة أحد غيره: السقاة الاخرون لم ينهوا عملهم بعد، كانوا يجلسون القرفصاء قرب الحوض، يملؤون قربهم بالمغارف ويذهبون حاملين الماء الى البيوت.

كان عصا يحتسي الشاي بروية ويفكر في شؤونه، خلال عشر سنوات من الحياة المشتركة مع فيروزة ولد عندهما صبيان. ولكن القدر لم يكتب لهما الحياة كما يبدو: مات كلاهما ولما يبلغ ربيعه الأول. الحنين الى الولد يضني فيروزة، انها حزينة دائماً وفي الخفاء تتأوه وتبكي. وماذا لو مرضت لا سمح الله؟ ماذا سيفعل عصا انذاك؟ فهو وحيد ليس له في الدنيا أحد غيرها. لقد كد عصا وشقى كثيراً في بيت غني‌جان الثرى، والهبة الوحيدة التي من بها القدر عليه لقاء شقائه هي فيروزة. انها أغلى عنده من كل ألماس الأرض وكل ياقوتها وجواهرها. لا في الأرض ولا في السماء لا يحتاج عصا لأحد ولا لشيء الا لفيروزته...

- عصاجان تيـتاـتان، عصاجان تيـتاـتان! - أخرجه من لجة أفكاره صوت أحدهم.

التفت عصا فرأى طه وانفرجت أساريره. كان يحب هذا الفتى المرح. فهو كان يخاطب الجميع، - صغاراً وكباراً - بـ «يا ابن أخي» - وعلى هذا لقبوه هذراً بالعم. وقد التصق اللقب به حتى أنه نسي هو أيضا، وليس

الآخرون فقط، اسمه الحقيقي. طه في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر، وهو جرىء، عنيد وكلمته دائماً على رأس لسانه. ولكن طه ليس شريراً البتة، انه خدوم وطيب القلب.

. يعمل طه صانعاً في محل الخياطين الخراجين المشهورين في حي ميردوستوم. يقال انه تمكن من هذه المهنة جيداً.

ومدندناً بلا مبالاة كان طه يلوح بغصن أخضر على ايقاع الأغنية، وحين أقترب هتف بحبور:

– أوهو، ما أعظم هذا! الى الصياد الماهر تأتي الطريدة من نفسها! أنا أبحث عنه، درت المدينة كلها، وهو يتشمس هنا!. هاك اسمع يا ابن أخي، انهض وعلى وجه السرعة احمل الماء الى بيت «الاناق*» ميربقا. أما أنا فأقعد في مكانك وأشرب شايك.

– أوه، أوه، يا للنشناش!– قال عصا مبتسماً ثم رشق الشاي البارد، فصب أخر ساخناً وناول الكوب لطه قائلا:– الأفضل لو تجلس معي و نثرثر قليلا، هيا أجلس، الماء لن يهرب من الحوض.

قعد طه على المصطبة، أخذ الكوب وقال بجدية مفتعلة:

– اذا كنت تريد أن ترى ذروة ما خلق الله، عجل واحمل الماء الى بيت العم ميربقا، ولكن حذار أن تلومني– أنا رسول، وما على الرسول الا البلاغ.

– كم كان بودى أن أعرف ما هذا الذى سأراه هناك؟

– وأنت لا تعرف؟– وهز طه رأسه بشفقة.– يبدو، أنه لم يبق في دنيا الله من السذج الا أنت، ومن الأقزام الا أنا...

وتناول عصا المزحة:

---

* اناق – (كلمة طاجيكية) – رتبة عسكرية عالية في حاشية الأمير.

– أنا قد أكون ساذجاً بالفعل. ولكن أنت لست قزماً بأي حال: انظر الى طلعتك ما أبهاها... اللهم الا رأسك...

وقاطعه طه غاضباً:

. – حسنا، حسنا يا ابن أخي، تكلمنا و كفى!

– أجل، أجل،– تعنت عصا ضاحكا.– لقد زلت «ذؤابتك» في شيء ما. والا لصرت صهر الوزير الاول لامحال...

– بالله، أعفنا، كل شيء الا هذا، دع أعداءك يصاهرون الوزير الأول، أما نحن، واذا ما قدر لنا أن ننتقي زوجة، فاننا سنبحث عنها بين بنات الامير. مهما تسامت الشجرة، أوارقها تسقط على الأرض...

– أخالك عن جد تنوى التلذذ بالشيخ «قرع»– قال عصا باسما.

– ما بالكم تلاحقونني جميعاً، لا أسمع الا قرع، قرع...

– ولم لا تعجبك هذه الكلمة الى هذا الحد.– سأل عصا خالعاً على وجه برقع البراءة.

– هل أقول؟– وتلفت طه في توجس مزاحي،– حسنا سأقول.– واستوى في جلسته.– أنت، على الارجح، سمعت أن الناس يلقبونني بالاقرع أحمد، ولعلمك فان قرعي ليس عادياً، انه ملوكي عن حق.– وابتسم طه اما بسخرية واما بحزن.– لقد جرت لي قصة على هذا الشكل...

– ما هذه القصة؟ هات حدثنا – وناوله عصا كوب شاي آخر.

أخذ طه الكوب وارتشف عدة جرعات.

– انها قصة، قصة حزينة حتى الافراط... كنت أنا في طفولتي عفريتاً... وأي عفريت، قل أجارنا الله! لم أكن قد بلغت السادسة حين تسببت في موت جدتي...

– في موت جدتك؟! – اندهش عصا فقال طه:

- استمع ولا تقاطع. كان هذا شتاء. نحن الاولاد، طول الوقت كنا نقعد في البيت لانه لم يكن عندنا ما نلبسه. ضجر قاتل. وذات مرة كنت جالسا قرب النافذة ورأيت جدتي تدخل الى الفناء. هنا شدني الشيطان من قيادي. هببت وخرجت الى الكرار المعتم (عبره كنا نمر الى الغرفة) هناك لطيت. وما أن دخلت العجوز الى الكرار حتى صرخت «واه!» وقمزت الى لقائها. ندت عن جدتي صرخة واحدة وفي الحال وقعت. على الضجة هرعت أمي وقامت القيامة. أردت أن أهرب ولكن أمي أطبقت على تلابيبي وهات ياضرب، نزلت على رأسي ببابوج عتيق... وكانوا قبيل هذا، كأنما قصد، قد حلقوا لي رأسي، لم يكن عليه لا شعرولا طاقية... وهكذا زوقت لي أمي رأسي بالأورام والجروح، تغطى بالدم. وكانت العاقبة أوخم... جدتي مرضت يومين وماتت ورأسي لم يلتئم نهائيا حتى الآن... وعليه يمكن القول ان القرع انتقل الي بالوراثة عن جدتي.- بدون مرح أنهى طه قصته.

- أجل، بخدمات كهذه ستكون بنت الوزير الأول على قد المقام.

- كلا يا ابن أخي. لقد انتهى الآن زمن المزاح. الآن...

وقال عصا ضاحكاً:

- مفهوم، همومك الآن اكثر جدية.

- وهذا صحيح، فمع أني أقرع لكن همومي أخطر وأهم مما في تلك الأغنية. أنت تذكرها على الأرجح؟- وغامزاً بدعابة راح يغني:

أصلع، اقرع
لحم، رز وسفرجل
أشغال الأقرع لا تحصى
فعلى الأقرع لا تتمرجل

حسنا، يكفي،– قاطع هو نفسه.– انهض، حرك حالك، واحمل الماء للعم ميربقا، وحين تعود سنثرثر أيضاً ونشرب الشاي...

قام عصا عن المصطبة، أوصى طه بألا ينصرف قبل رجوعه ومضى ليأخذ القربة.

– أمر غريب!– دمدم عصا فيما يملأ القربة ماء بالمغراف.– ففي الصباح ملأت الخوابي في دار العم ميربقا. متى افلحوا في صرف كل هذا الماء!

وضع عصا القربة على ظهره، ومحدودباً بعض الشيء تحت ثقلها، مضى الى المدينة.

قام بيت ميربقا في زقاق مسدود، ومن البعيد كان يبدو للعيان ببوابته العالية المنقوشة وسقيفته الغنية.

لم يكن في الشطر الرجالي من البيت أحد. أغلب الظن أن الخادم قد ذهب برفقة سيده الى «الارك» ممسكا رسن حصانه.

اقترب عصا من باب الفناء الداخلي واطلق صرخة ممطوطة:

– السـ–سقـ–ا–ء...

– ادخل،– سمع عصا صوتاً نسائياً.

ودون أن يتلفت فيما حوله مضى عصا الى المطبخ مباشرة. كان الفناء الداخلى غير كبير: بضع ملحقات، مصطبة ترابية وقبو. في أرض المطبخ الكبير طمرت خابيتان من الفخار، كانت احداهما مليئة بالماء حتى أعلاها، ومن الاخرى لم ينحل الا القليل القليل. فصب عصا نصف القربة فيها، ثم استقام، تلفت وسأل بصوت جهور:

– يا معلمة! الخابيتان مليئتان، ماذا نفعل بالماء الباقي؟

– الان!– ترامى ذلك الصوت النسائي ذاته وبمرور دقيقة من الوقت دخلت الى المطبخ مغفرات. كانت سافرة الوجه، تحمل ابريقاً نحاسياً كبيراً.

أجل، أجل، هذه كانت زوجة غنيجان باي السابقة مغفرات. السنوات العشر التي مرت مذ كان عصا يخدم في بيت الباى أتت على جمالها قطعيا. حول عينيها تشعبت تضاعيف عميقة، خبت نظراتها وذبلت بشرة وجهها. كان ملاحظا أن مغفرات تستدعي لمساعدة جمالها الغارب كل الحيل المتاحة للنساء: غطت وجهها طبقات سميكة من الحمرة والبودرة، حاجباها كانا مزججين بعناية ودقة وعيناها مكحولتان جيداً. كانت ترتدى فستانا من الحرير المارغلاني، ومن تحت فتحة الصدر العريضة والاكمام بان قميص أبيض بطيات دقيقة ناعمة. على رأسها طرحت بشيء من الدلع منديلا حريرياً ملوناً وكانت أظافرها ويداها مطلية بالحناء، كل حركة منها وكل نظرة كانت تطفح بالخدر.

– آه، عصا، هذا أنت!– مطت مغفرات الكلمات ناظرة اليه بدلال، – اسكبه هنا. – ووضعت الابريق النحاسي على الارض.– ما بالك هكذا، تنتظر ريثما نرسل خلفك؟– سألت هي حادجة عصا بنظرة ذات معنى.

– ولكنني في الصباح فقط ملات الخوابي،– أجاب عصا دون أن يرفع نظراته عن الأرض. وأراد أن يتخطى مغفرات لكنها أمسكت به.

– مهلك، لا تعجل. أنا أعرف أنك جئت في الصباح... ولكن زوجي كان في البيت آنذاك.– هنا ابتسمت مغفرات ومقتربة من عصا وضعت يدها على كتفه.– تقول أنك ملأت كل شيء، لكن هذا غير صحيح. قلبي بقي خاوياً. هذا ما لم تملأه بعد. أفهمت؟

وحاد عصا عن المرأة.

– ما هذا الذي تقولين يا هانم. أنت متزوجة، اختشي الله.

– الله لايجازي مرتين على ذات الذنوب،– قالت مغفرات ضاحكة – بعد موت غنيجان باي، سيدك، لم ألق السعادة مع أي زوج. أما مع هذا الزوج – فلا تحدث.

أنت ترى بنفسك أنه عجوز عنين. لا يلحقني منه الا الكدر والعذاب. أيعقل أنه ليس عندك حبة شفقة علي.

– آخ، شفقة؟– لم يحتمل عصا.– بخصوص الشفقة أنت أعرف مني. الأرجح أنك من الشفقة أيضاً طعنت فيروزة، زوجتي المحبوبة، بالسكين آنذاك؟

– أخ، زوجتك المحبوبة،– مطت مغفرات شفتيها ساخرة،– تبا لك، يا مغفل، تقتات من بقايا غني جان باي... ماذا تفهم في الحب، هذه المفعوصة؟ انظر اليها جيدا، انظر فهذه بقرة، بقرة.

– ضبي لسانك بالله! أنا لا أستبدل بشعرة واحدة من فيروزة ألف...– وضبط عصا نفسه.– ألف فاجرة مثلك.

تخطى عصا مغفرات ومضى نحو الباب.

– هاك كيف تتكلم اذن!– مشبوبة ولاهثة من الغيظ صاحت هي في اثره.– عليك اللعنة يا ابن الحرام! لا بأس، لابأس، فأنا سوف أريك، سأريك ما هو الفجور، أيها الشريد الشحاذ. أيها القذر السافل!...

ولكن عصا سار لايلتفت. قطع الممر المسقوف وكان قد بلغ البوابة، لكن المرأة ما فتئت تصرخ:

– وغد، تنبل! يكفيني أن أغمز حتى يرموك الى الشارع، حتى تجد نفسك مع مفعوصتك في الطريق. أنسيت، في بيت منك تعيش مع هذه البقرة، أيها البهيم القذر!

– عسى أن ينهد بيتك هذا، بعون الله!– صرخ عصا دون يلتفت وخرج الى الشارع. تناولت مغفرات حجراً ورمته في اثر عصا. اصطدم الحجر بالبوابة مجلجلا.

في هذه اللحظة ذاتها دخلت الفناء من الشارع امرأة شابة طويلة القامة. كانت تحمل على يديها الملاءة التي خلعتها للتو.

– ما هذا، ماذا حدث؟– قالت هي ونفخت في عبها

على عادة النساء الطاجيكيات عندما يخفن. – آخ، لقد كاد قلبي ينشطر من الخوف!

– مرحباً، يا حبيبتي، مرحباً، تفضلي:– رحبت مغفرات بالضيفة مالكة نفسها بعد لأي. لا شيء، لم يحدث شيء، تفضلي لا تعطي بالا. خطوة سعيدة ان شاء الله؟

كانت الضيفة ابنة نظاكات، الزوجة الأولى للباي الراحل غني‌جان. بعد ما مر من السنين أمست مشرفه امرأة جميلة هيفاء القد، وغندورة متأنقة لا مثيل لها. عقب موت ابيها عاشت مشرفة مع أمها على ما تركه لهما الباي من ارث، وفيما بعد زوجت نظاكات ابنتها من ابن الميرشاب زمان‌بيك.

ترتبت حياة مشرفة على نحو «سعيد». والحق أنه كان لزوجها عشيق – غلام جميل، يرافقه أنى حل وأينما ذهب، لكن زمان بيك، على هذا، لم يتزوج ثانية فكانت مشرفة في حرملكها سيدة مطلقة السلطة. ومع ذلك، أي مع أنه لم يكن لزمان بيك زوجات أخر، لم يكن نصيب مشرفة من المباهج كبيراً. فعندما اعتلى عرش بخارى الأمير عالم خان تم تعيين زمان بيك على رأس جميع الجواسيس والمخبرين. وظيفة، ينبغي القول، ليست جد مشرفة، لكن الجميع كانوا يرهبون جانبه، بمن فيهم الوزير الأول وكبير القضاة وغيرهما من الحكام الكبار والصغار. كان زمان‌بيك يقضي في القصر مجمل أوقاته تقريباً، ولم يكن يبيت في منزله أكثر من مرة مرتين في الأسبوع. فكانت مشرفة تنفق أوقاتها على هواها. وبعد موت أمها ارتبطت مع مغفرات بصداقة وثيقة.

وها نحن بمشرفة الآن تقصد صاحبتها وهي في أصفى وأطيب مزاج، ثم فجأة يوشك الحجر الذي ألقته مغفرات المحتدمة أن يصيبها، لكنها سرعان‌ما تطمئن وتزقزق مشقرقة:

– ما بالك هكذا، يا روحي أنت، نسيتني بالمرة؟

لقد انتظرتك وانتظرتك ثم عيل صبري وقررت أن أطل عليك بنفسي.
— وحسنا فعلت! — قالت مغفرات معانقة الضيفة بوداد. — والا فانني اليوم متوعكة تماماً، لست في طوري. كان عليك أن تأتي سابقاً، يا بنيتي. تفضلي، تفضلي.
وبعد عناق حميم وملاطفات ومجاملات لاتنتهى غمرتا بها بعضهما البعض، درجت المرأتان الى غرفة كبيرة تشبه سوق الاقمشة المسقوف الذى بناه في بخارى الامير عبد الاحد. الجدران كلها مغطاة بالحرائر والطنافس الثمينة، الأرض مفروشة بالسجاد وهنا وهناك تناثرت الارائك والوسائد والاغطية الكبيرة والصغيرة. في المشاكي العميقة المحفورة في الجدران صفت الآنية النحاسية والفرفورية أباريق الشاي والأكواب الثمينة، والأطباق القشغارية والمزهريات الصينية...
لقد جمعت ربة البيت في هذه الغرفة، كما يبدو، جميع نفائسها، الزينة والسجاجيد والأقمشة التي انتلقت اليها ارثاً عن الباي.
قعدت كلا المرأتين على الالحفة الوثيرة قرب النافذة الوسطى.
— ما لي لا أرى في الفناء أحداً، أين هن خادماتك؟
— لقد تركتهن يذهبن الى الحمام.
— وفي الفناء الخارجي لا أحد أيضاً؟
— سعيد باي، كعادته دائماً، رافق زوجي الى «الارك».
— واذن، لا أحد في البيت؟ — مطت مشرفة الكلام بشكل غامض الدلالة. — وماذا حدث لسقائكم؟ لماذا هرول من الفناء هكذا، مثل الملسوع؟
— ليحمد الله على أنه ظل سليما ونجا برأسه من الحجر.
وحدجت مشرفة زوجة أبيها بنظرة زوراء.
— هذه هي المسألة اذن! ليس عبثاً يقال: انكب

الماء فقل على السلام السلام. معنى ذلك، لم يطلع شيء؟
— لم، يطلع،— قالت مغفرات وهي تطقطق باصابعها في عصبية.— وهل يمكن التوصل مع هؤلاء الأجلاف الى شيء! ولكن لا بأس، سوف أذكره بكل هذا؟ سوف يتأسف، ابن الزنى هذا، على أنه أبصر نور الدنيا، سوف أرميه الى الشارع، سوف أجعله يموت من الجوع.
— صحيح، هذا هو الصحيح،— نفخت مشرفة على نار غيظها.— هكذا يجب التصرف مع هذه الكلاب. آخ، ياللبهائم الناكرة للنعمة، نحن نطعمهم، نسقيم وهاك كيف يشكروننا... بل وفيروزة ست الحسن أيضا... كم سنة وهي مرضعة عندي في البيت، لقد أرضعت ابني كليهما... والآن بالضبط فصلت الصغير عن صدرها. اليوم سوف أطردها، حتما سأطردها. وابتهجت مغفرات:
— عظيم، جيد، وأنا لن أبقى مدينة لك.
مدت مغفرات أمام ضيفتها السماط، وضعت صحنا من الحلوى، أبريق شاي ساخن تحت غطاء منجد دافىء وراحت تضيف صديقتها ببشاشة.
وعلى كل حال لم تبد الضيفة كبير ممانعة. شربت من الشاى حتى شبعت ثم انجعصت على الوسادة وراحت تهذرم:
— وأنت لاتتكدري، يا عزيزتي! أبعدي الأسى عن قلبك... وصدقيني، ان هذا الكلب الجاحد لايساوى دمعة واحدة منك! اما اذا كنت بحاجة الى رجل فاسقي زوجك سائلا منبهاً.
— ماعاذ الله، ليذهب الى الشيطان، هو ومعه مغازلاته.
— أو هو، لماذا تتكلمين هكذا؟ العم ليس عجوزا الى هذا الحد، عمره ليس أكثر من ستين:
— وهل القضية في العمر؟— نترت مغفرات يدها في غضب.— زوج خادمتي حاصيات بانو أكبر منه ومع ذلك

يقال أن الشبان يمكن أن يحسدونه. أما زوجي فالعياذ بالله...

– ولكن لا بأس، لا بأس... كفاك كدراً... وهل تعلمين، فأنا جئتك في أمر مختلف تماما. لنذهب غدا في الصباح الى نبع أيوب–سنقضي يومين في البستان خارج بوابة «قوال»، سنفرفش ونبسط. هناك ستكون الخالة محرمة غارتش أيضاً، أنا على علم أكيد من هذا.

– قولي صديقك المفضل، وليس الخالة محرمة، هذا أفضل.– ابتسمت مغفرات ابتسامة ذات معنى ناسية في الحال أتراحها.

وضحكت مشرفة:

– ولكنها ليست صديقتي وحدي، بل وصديقتك أيضاً.

– واذا فهي صديقتنا كلتينا، – وافقت مغفرات بسرعة وأضافت:– ولم لا، سأذهب بكل سرور شكراً على الدعوة. غدا سآتي الى بيتك باكراً في الصباح ثم نذهب معا الى نبع أيوب.

كانت الضيفة وربة البيت تدردشان وتتسامران حين دخلت الخادمات عائدات من الحمام. أنبتهن مغفرات على التأخير وأمرتهن أن يطبخن بلوفا مع الدجاج على وجه السرعة.

– منذ أيام جاءت لزيارتي الخالة سارة اليهودية، جلبت معها ثلاث قناني نبيذا يهوديا، – قالت مغفرات مبارحة مكانها – لقد خبأتها أنا في الكرار. دعينا نشرب قنينة، ستنشرح صدورنا فى الحال...

٣

قل ما طرأ على المدينة من تغيير في بحر هذه السنوات – ظل كل شيء على حاله، بقيت ذات الاحياء، ذات المساجد والمدارس وذات الحمامات... اليوم، كما منذ عشر سنوات خلت، كان عليك أن تمر بالبوابة

الجنوبية للمسجد الكبير كي تصل الى حمام كونجاك. وقرب بابه كما في خوالي الايام، سترى حشود الشحاذين والمنجمين والحسابين وباعة الماء، وستسمع صراخات باعة الفواكه والحلويات ينادون المارة بأصوات عالية ممتدحين بضائعهم...

ولكن الزمن الذي طار فوق المدينة ولم يلاحظ، ترك آثارا لا تمحى على صاحبة الحمام القديم، لقد بيض لها صدغيها وحفر أخاديد عميقة على وجهها، ازدادت محرمة غارتش بدانة، صارت ثقيلة بليدة الحركات.

في حياتها المرزكشة المبرقشة جمعت محرمة غارتش غير قليل من المال وصار بوسعها الان أن تخلد للراحة وتعيش في هدوء. كانت طيلة النهار تقريبا تجلس في غرفتها الرافلة بالسجاجيد النفيسة، موجهة من هناك الخدم، شاربة الشاي بلا انقطاع، مثرثرة ومقهقهة.

كان يلذ لها التصبب بالفتيات الحسان والنساء الشابات اللائي يقصدن حمامها، وأحيانا كانت تدخل الى غرفة الهبلة وتدلكهن، ليس رغبة منها في الكسب، بل من أجل المتعة التي تحسها بملامسة الأجساد الفتية النضرة.

كان اليوم جمعة، يوم يكثر رواد الحمام بصفة خاصة. بعد الظهر دخلت الخادمة على محرمة وقالت أن رجلا جاء يطلبها. قامت محرمة من مكانها وهي تهمهم وتتنفخ، ارتقت الدرجات على غير عجل وأطلت على الممر المفضي الى الحمام. هناك وقف رجل هزيل ذو لحية معزية يشبه رواد المدارس الدينية. رأى الرجل محرمة فتنحنح مرتبكاً وسلم عليها بوقار.

— أهذا أنتم، من طلب رؤيتي؟— سألت محرمة بخيبة.

وبربر الرجل وقد زاد ارتباكاً:

— أجل، أنا. أرجو المعذرة على ما سببت من ازعاج، أنا من طرف فضيلته كمال الدين مخدوم. لقد أمرني أن أقودك اليه في الحال.

سمعت محرمة هذا الاسم وتغيرت فورياً.

- أه، من طرف كمال الدين،- قالت هي ببشاشة.- حسناً، حسناً، أذهبوا أنتم وسألحق بكم الان. ولكن ماذا حدث؟ ألم يمرض سيادته أبعد الله الشر؟

- لا والحمد لله، انه معافى،- أجاب ذو اللحية المعزية.- ولكن اعملي معروفاً ولا تتأخري. السيد ينتظرك.

ثم انحنى الرجل مودعاً، استدار وابتعله الحشد. عادت محرمة الى غرفتها، جمعت في الصندوق الحلي الثمينة المتناثرة هنا وهناك على المرتبة، قفلت الصندوق وخبأت المفتاح تحت واحدة من كنزاتها العديدة.

في هذا الوقت جاءت الى الحمام فيروزة والمعلمة طنبور. ورغم تسرعها احتفت صاحبة الحمام بالمعلمة واجلستها على المصطبة فوق وسائد طرية وثيرة.

وبالنسبة للمعلمة أيضاً لم يمض الزمن دون أثر. مع السنين صار وجهها الجميل أكثر بياضاً، في عينيها الكبيرتين العميقتين تلألأ حزن غامق دفين، وزادها الشيب وقاراً وهيبة.

محرمة التي كانت تقول دائماً أن الزمن ينال من الجمال لم تستطع اخفاء دهشتها وراحت تحدق في المعلمة وفي تلميذتها السابقة. كان جمال فيروزة رائقاً بشكل خاص. كانت في ثوب عتيق من الساتين المزهر وفي خفين بسيطين من الجلد وسروال من الشيت الفاقع اللون كانت أطرافه التي تغطي كاحليها قليلا مخرجة بشرائط مزخرفة ملونة. ولكن اللباس البسيط لم يحط من جمال فيروزة مطلقا، بل على العكس زادها حسناً.

- اجلسي على راحتك يا معلمتي العزيزة!- دعت محرمة غارتش ضيفتها. - أبهجي بمرآك عيني الهرمتين. ومن هذه الحسناء معك؟ أليست تلميذتك القديمة يا ترى؟ انني لم أرها منذ زمان.

وابتسمت المعلمة:

- لم تريها ولكنك عرفتها!

- ولا غرو!- قالت محرمة رانية الى فيروزة باعجاب.- عادة تذوى الفتيات بعد الزواج بسرعة، أما جمالها فقد زاد بهاء.

وقالت المعلمة ناظرة الى تلميذتها بفخر:

- الاحجار الكريمة لاتكف عن التلألؤ أبداً. وبنيتي اسمها فيروزة.

- فيروزتك صارت ألماسة.

وتضرج وجه المرأة الشابة بحمرة الخفر.

لاحظت المعلمة حرج فيروزة وغيرت موضوع الحديث.

- ألا تنوين الذهاب الى القصر يا خالة محرمة؟

- لا، أبداً، الآن ما عدت أذهب الى هناك الا ما ندر، صرت عجوزاً، ما عاد عندى عزم - قالت محرمة وتنهدت.- اللهم الا حين تدعونني أم الامير، صاحبة السمو بادشابيبي، ساعتها أذهب، وفيما عدا ذلك أجلس هنا، ثم من يحتاجنا نحن العجائز... أما أنت، فسمعت أنك تترددين على القصر كثيراً.

- أجل،- أجابت المعلمة،- في جناح بادشابيبي صرن الآن يهتممن بالقراءة والموسيقى. أضافة الى ذلك صرت الآن أدرس بنات الأمير.

- أوه! لقد صرت الآن شخصية هامة - مطت محرمة الكلمات باحترام.

وبعد أن رافقت محرمة الضيفتين الى المشلح وتمنت لهما حماما هنيئا ووقتا ممتعا تلفعت بملايتها وخرجت الى الشارع.

قام منزل كمال الدين مخدوم على شارع قبلان!. ولم تكن المسافة من حمام كونجاك الى هناك قصيرة، وقد بدا المحرمة أن قطعها سيرا على القدمين سيكون عسيرا حتى عبر الشارع ولهذا فضلت أن تستأجر فيتون وبعد أن تجاوزت مدرسة قوش ووصلت الى شارع قبلان استغنت عن العربة وتابعت طريقها الى منزل كمال الدين مخدوم مشياً على القدمين.

كان كمال الدين نجلا للقاضي القارشي الراحل فاضل الدين مخدوم. وكان قبل موت أبيه قد عين أمين مكتبة*، ولكن بما أن بخارى كانت خلواً من المكاتب فان هذه الوظيفة كانت شكلية فقط، ولم يكن كمال الدين يكلف نفسه الا عناء قبض الراتب المخصص لامين المكتبة. اضافة الى ذلك ورث كمال الدين عن أبيه منزلا كبيراً ذا فنائين: داخلي وخارجي، وكذلك حصان ركوب وعربة مع فرس، وبستان في غوربان خصب الارض معطاء، اضافة الى طاحونتين وكثير غير ذلك من الأملاك المنقولة وغير المنقولة.

كان مخدوم يعيش في رغد وحبور. وكثيراً ما كان الأصدقاء يلتمون في منزله المؤثث جيداً، ويقضون اوقات ممتعة في أكل وندامة ولعب بالشطرنج. وعموماً، لم يكن الشبان يلهون وحسب بل وكانوا يقرؤون الجرائد يتكلمون كثيرا عن مصير وطنهم ويعربون عن سخطهم على الاوضاع في بخارى. كانوا من أنصار المجددين بل وكانوا يتعاطفون مع الثوريين أيضا.

في ميل كمال الدين الى التجديدية ومشايعته لها قامت بدور كبير الصحف والمجلات الفارسية والتركية التي كانت تصل بخارى بطرق مختلفة. لكن المساهمة الكبرى في غرز هذا الميل كانت تعود على الأرجح لصديقه المقرب آكا مخصوم الذى عاش في روسيا أكثر من خمس سنوات. كان كمال الدين قد صادقه عقب عودته الى بخارى مباشرة. وفي البداية أربكت أفكار آكا مخصوم الجريئة

---

* في العصور الخالية كان في بخارى دور كتب كبيرة وزاخرة، لكنها اختفت جميعاً في عهد االمانغيطيين، وآلت الكتب والمخطوطات الى المجموعات الشخصية والى مخازن الكتب في القصر الأميرى. ومع ذلك ظل منصب أمين المكتبة موجوداً. وكان الكثيرون يعينون فيه من قبل الامير ويحصلون على الرواتب المخصصة.

والمفاجئة ووشوشت كمال الدين وأصدقاءه. ولكنهم بقدر ما كانوا يتعمقون في التفكير بما يقوله أكا مخصوم بقدر ما كانت حركة المجددين تمسي لهم أوضح وأقرب.

ما كادت محرمة ترفع يدها كي تقرع الباب حتى انفتح أمامها من تلقاء ذاته. كان جلياً أنهم ينتظرونها هنا. خلف الباب وقف ذلك الشخص ذو اللحية العنزية ذاته، كان يبتسم ناظراً الى المرأة المرتبكة بعض الشيء.

— أهلا وسهلا، تفضلي، — قال هو باحترام. — السيد مخدوم وأصدقاؤه ينتظرونك بفارغ الصبر.

ودخلت محرمة. كان الفناء الخارجي كبيراً جداً. بالبيت ذي الأعمدة الخشبية المنقوشة التصقت جملة من المنشآت مشكلة من نفسها حرف (ں) يفوق في العرض كل قياس. اقتاد ذو اللحية العنزية محرمة الى غرفة تقوم تحت الشرفة مباشرة ـ كانت الغرفة مبنية على الطراز العصري: من الآجر، بنوافذ ذات مصراعين وأبواب ركب فيها زجاج. في الردهة الامامية المنيرة خلعت محرمة ملايتها ودخلت الغرفة خلف ذي اللحية العنزية. كانت غرفة الاستقبال التي دخلتها مؤثثة على طراز شبه أوروبي: الأرض الخشبية مفروشة بسجاد ثمين زاه، الاطناف تحت السقف مزينة بمهارة بزراكش ملصقة، في المشاكي الصغيرة والكبيرة صفت الأواني الفرفورية والقطع الاثرية من كل الاشكال الممكنة أما السقف فقد غطي بالالواح الخشبية المطلية والمرسومة على أيدى فنانين حاذقين.

خلف الطاولة جلس أكا مخصوم واسماعيل أفندى منكبين على طرحة الشطرنج. حصل اسماعيل على لقب «أفندي» بعد عودته من تركيا حيث أتم دراسته. كان رب البيت يراقب دست الشطرنج بشغف. وكان هذا رجلا شديد السمرة. ذا عينين سوداوين عميقتين، حاجبين كثين ولحية مقصوصة بعناية.

كان الأصدقاء قد التموا منذ ساعة خلت ـ تحدث اسماعيل أفندي منفعلا عن أنه سمع أنباء غير سارة مفادها

أن الوزير الأول وكبير القضاة انتقدا المجددين بحدة، وأنهما نعتاهم بالكفر وقالا ان أعمالهم تخالف الشريعة، كما وأنه ثمة شائعات عن قرار باغلاق المدارس التجديدية وباعتقال بل وباعدام المجددين ذاتهم وكل من يمت اليهم بأية صلة قريبة أو بعيدة...

وسأل كمال الدين بارتياب:

– ممن سمعتم هذه الانباء؟

– من زوجتي، – أجاب الأفندي وأضاف ملاحظا ابتسامة على شفتي صديقه: – انها تصادق زوجة زمان بيك، وهذا، كما تعرفون، شخص مقرب من الأمير.

– ولكن الوزير الأول ذاته أيد المدارس التجديدية. عداك عن أن الأخ مخصوم لم يسمع شيئاً يثير الريبة وهذا مع أنه على صلات حسنة مع صهر كبير القضاة الذي يحدثه عادة عن كل شيء.

– يحدثه، ولكن بعد أن تقع الواقعة. – هز اسماعيل أفندي كتفيه وأضاف: – ونحن بحاجة لاستباق الأحداث.

– ما بال مخصوم يتأخر هكذا؟ – أشار كمال الدين بعدم رضى.

– الآن يأتي. أنا لتوي رأيته في السوق. وريثما يأتي بوسعنا أن نلعب دست شطرنج.

– بكل سرور!

وفيما صف اسماعيل أفندي الأحجار على الطرحة أمر كمال الدين الخادم بأن يقدم الشاي ويفرش السفرة.

وما كادا يبدآن في اللعب حتى دخل الأخ مخصوم الى الغرفة وراح يطرح الأنباء:

– جيوش الجنرال موكينزين اصطدمت مع القوات الروسية: القائد الاعلى للجيوش التركية أنوربيك أسر ألفا من البلغار. في اليابان وقع زلزال أرضي شديد، هناك الكثير من الضحايا والخراب... وماذا أيضاً وما...؟

– كفى، كفى، – قاطعه كمال الدين، – الآن تهمنا الأنباء الأخرى، ذات الطابع المحلي، كما يقال. ماذا يجري

في بخارانا المشرفة؟ ألا توجد عندكم أنباء من «الأرك»، من قصر حاكمنا السامي وولي أمرنا؟ اسماعيل أفندي أبلغنا للتو خبراً ليس ساراً في شيء... في القصر تتنامى المشاعر المعادية للتجديدية...

وتدخل الأفندي في الحديث:

– ينبغي اتخاذ الاحتياطات اللازمة على وجه السرعة.

– في البداية ينبغي التحقق من صحة هذا النبأ. أنا شخصياً أشك في أن الوزير الأول وكبير القضاة تمكنا من التوصل الى أقل نوع من التفاهم.

– ولكن ماذا علينا أن نفعل؟– قاطعه كمال الدين معرباً عن نفاد صبره. أنا واثق من أن هذه الشائعات ليست مصادفة. فلا دخان بلا نار. والنار يجب أن تخمد قبل أن تتأجج.

– من السيء يا سادة أننا لا نعرف شيئا عن أعدائنا. وعن خططهم وأعمالهم – قال الأفندي وأضاف:– وكان حريا بنا أن نعرف، أجل يا سادة من السيء أننا لانعرف.

وقال الاخ مخصوم:

– بلى، هذه نقطة ضعفنا. نحن نجلس مثل الفئران في الجحور. نخاف كل شيء وكل شخص حتى محرمة غارتش، صاحبة حمام كونجاك أعرف منا بما يجري في القصر.

– والله هذه فكرة،– قاطع كمال الدين أكا مخصوم فجأة. – لقد ذكرت محرمة ونحن من خلالها نستطيع أن نعرف كل ما تهمنا معرفته.

– وماذا، هل معرفتك بها تسمح بذلك؟

– انها مرضعتي. كانت عندنا في البيت مثل واحدة منا. وعندما توفي كبير القضاة السابق، أراد الجديد المعين في مكانه أن يأخذ من محرمة الحمام. وقد كلفت تسوية هذا الامر وكلف الدفاع عن محرمة المرحوم أبي كثيرا من الجهود. ومحرمة تذكر المعروف وهي مخلصة في حبها لي–فماذا لو ندعوها الى هنا ونستفسر منها عن هذه الأمور؟

أن الوزير الأول وكبير القضاة انتقدا المجددين بحدة، وأنهما نعتاهم بالكفر وقالا ان أعمالهم تخالف الشريعة، كما وأنه ثمة شائعات عن قرار باغلاق المدارس التجديدية وباعتقال بل وباعدام المجددين ذاتهم وكل من يمت اليهم بأية صلة قريبة أو بعيدة...

وسأل كمال الدين بارتياب:

– ممن سمعتم هذه الانباء؟

– من زوجتي،– أجاب الأفندي وأضاف ملاحظا ابتسامة على شفتي صديقه: – انها تصادق زوجة زمان بيك، وهذا، كما تعرفون، شخص مقرب من الأمير.

– ولكن الوزير الأول ذاته أيد المدارس التجديدية. عداك عن أن الأخ مخصوم لم يسمع شيئاً يثير الريبة وهذا مع أنه على صلات حسنة مع صهر كبير القضاة الذي يحدثه عادة عن كل شيء.

– يحدثه، ولكن بعد أن تقع الواقعة.– هز اسماعيل أفندي كتفيه وأضاف:– ونحن بحاجة لاستباق الأحداث.

– ما بال مخصوم يتأخر هكذا؟– أشار كمال الدين بعدم رضى.

– الآن يأتي. أنا لتوي رأيته في السوق. وريثما يأتي بوسعنا أن نلعب دست شطرنج.

– بكل سرور!

وفيما صف اسماعيل أفندي الأحجار على الطرحة أمر كمال الدين الخادم بأن يقدم الشاي ويفرش السفرة.

وما كادا يبدآن في اللعب حتى دخل الأخ مخصوم الى الغرفة وراح يطرح الأنباء:

– جيوش الجنرال موكينزين اصطدمت مع القوات الروسية: القائد الاعلى للجيوش التركية أنور بيك أسر ألفا من البلغار. في اليابان وقع زلزال أرضي شديد، هناك الكثير من الضحايا والخراب... وماذا أيضاً وما...؟

– كفى، كفى،– قاطعه كمال الدين،– الآن تهمنا الأنباء الأخرى، ذات الطابع المحلي، كما يقال. ماذا يجري

في بخارانا المشرفة؟ ألا توجد عندكم أنباء من «الأرك»، من قصر حاكمنا السامي وولي أمرنا؟ اسماعيل أفندي أبلغنا للتو خبراً ليس ساراً في شيء... في القصر تتنامى المشاعر المعادية للتجديدية...

وتدخل الأفندي في الحديث:

– ينبغي اتخاذ الاحتياطات اللازمة على وجه السرعة.

– في البداية ينبغي التحقق من صحة هذا النبأ. أنا شخصياً أشك في أن الوزير الأول وكبير القضاة تمكنا من التوصل الى أقل نوع من التفاهم.

– ولكن ماذا علينا أن نفعل؟– قاطعه كمال الدين معرباً عن نفاد صبره. أنا واثق من أن هذه الشائعات ليست مصادفة. فلا دخان بلا نار. والنار يجب أن تخمد قبل أن تتأجج.

– من السيء يا سادة أننا لا نعرف شيئا عن أعدائنا وعن خططهم وأعمالهم – قال الأفندي وأضاف:– وكان حريا بنا أن نعرف، أجل يا سادة من السيء أننا لانعرف.

وقال الاخ مخصوم:

– بلى، هذه نقطة ضعفنا. نحن نجلس مثل الفئران في الجحور. نخاف كل شيء وكل شخص حتى محرمة غارتش، صاحبة حمام كونجاك أعرف منا بما يجري في القصر.

– والله هذه فكرة،– قاطع كمال الدين أكا مخصوم فجأة. – لقد ذكرت محرمة ونحن من خلالها نستطيع أن نعرف كل ما تهمنا معرفته.

– وماذا، هل معرفتك بها تسمح بذلك؟

– انها مرضعتي. كانت عندنا في البيت مثل واحدة منا. وعندما توفي كبير القضاة السابق، أراد الجديد المعين في مكانه أن يأخذ من محرمة الحمام. وقد كلفت تسوية هذا الامر وكلف الدفاع عن محرمة المرحوم أبي كثيرا من الجهود. ومحرمة تذكر المعروف وهي مخلصة في حبها لي–فماذا لو ندعوها الى هنا ونستفسر منها عن هذه الأمور؟

– ابتهج الأخ مخصوم فقال:
– يا حبذا!
– ما هذا يا سادة، كيف سيبدو كل هذا؟ – احتج اسماعيل الفندي. – تريدون أن تدعوا الى هنا، الى اجتماعنا حرمة بنصف عقل.
– لا تخافوا، لن يحدث شيء يستدعي الخوف، – قال أكا مخصوم باسماً. – انها، على قدر معرفتي بها، ليست ثرثارة وتجيد الحفاظ على السر. كما أنه لا داعي للكشف لها عن كل شؤوننا.
وقال كمال الدين:
– وعموما، محرمة على علم بكل شؤوني. انها ذكية وأنا كثيرا ما أتشاور معها.
– واذن أنا موافق يا سادة، الان ماعدت احتج، – وافق اسماعيل افندى. وآنذاك بالضبط أرسل كمال الدين الملا شرف خلف محرمة غارتش.
شغل مجيء الضيفة انتباه الأصدقاء عن الشطرنج. انهمرت الاسئلة والاستفسارات عن الصحة والحياة والاحوال. حيت محرمة الرجال من القلب، جلست قرب الطاولة وتنفست الصعداء.
– لقد ملأتم الغرفة بدخان نرجيلتكم، يستحيل التنفس.
– هذه ليست نارجيلة، – أشار أكا مخصوم بشيء من السخرية. – هذا الدخان السحري من سجائر صديقنا الأفندي التركية العطرة.
– من الواضح طبعاً أن السجائر التركية ليست ندا لنارجيلتكم. – بربر الأفندي وهو يخبأ السجائر في جيبه.
– أوه، في هذا لايشك أحد، – قال رب البيت بلهجة مسالمة. – ولكن الاخت لم تعتد على الدخان. ملاشرف، افتح النافذة من فضلك.
وفي الحال نفذ ذو اللحية العنزية الطلب بينما راح

كمال الدين يضيف محرمة بالحلويات الموضوعة على السماط.

– هيا يا مخدوم، احك لأختنا لماذا دعوناها الى هنا:– وضع أكا مخصوم حدا لهذه المجاملات الزائدة.

أما كمال الدين الذي لم يكن يدرى، كما يبدو، كيف ومن أين يبدأ فقد صرف كل اهتمامه لابريق الشاي: في البداية وضعه على طرف الطاولة وغطاه بوسادة صغيرة منجدة، ثم رفع الوسادة، وضعها على الطاولة ووضع الابريق فوقها. أخيراً صب في الكوب شاياً وناوله لمحرمة.

– من زمان لم أرك يا أختي، لم أنعم بسعادة الاستمتاع بالتحدث اليك. – بدأ هو مستجمعاً عزيمته. – وها أنا قد قررت اليوم دعوتك لزيارة منزلي المتواضع...

ونفد صبر مخصوم:

– أقرب الى الموضوع، يا مخدوم، أقرب الى الموضوع...

واستحث صوت أكا مخصوم الملحاح كمال الدين.

– القضية يا أخت في أننا نريد استشارتك في موضوع المدارس الجديدة. فأنت قد سمعت بها. على الأرجح. انها تسمى بالتجديدية أيضاً.

– عفوك، مخدومجان، ولكن من أنا حتى تتكلموا معي في مثل هذه الأمور الجادة؟ معي عن الحمامات تكلموا، عن الفتيات الحسان، عن كيف تقيمون عرساً، في هذه القضايا لن أسفح ماء وجهي أما عن المدارس...

– كل هذا صحيح،– قاطعها كمال الدين.– ولكننا على علم من أنك واحدة من أولئك الناس الذين يفتحون قلوبهم لكل جديد، من أنك مستعدة دائما لاسداء المعروف، مستعدة لمد يد العون...

– ان مساعدتكم، بل ماذا أقول، ان خدمتكم، هي بهجتي الوحيدة. فانتم ابن سيدي المحبوب ولي نعمتي سودور...

– من الواضح طبعا،– حشر اسماعيل افندي كلماته

المحببة،- من الواضح طبعاً، أن الذي يهمنا ليس حماماتك ولا مآدبك. بل من الضروري لنا أن نعرف ماذا يفكرون، هناك في القمة، حول المدارس التجديدية الحديثة...

وأردف مخدوم:

- كان بودنا، اذا كانوا هناك في القمة، لا يبدون اعتراضاً، أن نفتح عدداً من المدارس الحديثة، أن نوفر امكانية التحصيل لأولاد مواطنينا.

وشرح الأخ مخصوم.

- هل رأيت، يا أخت، أنت تلتقين بأهل وأقرباء الأمير وغيره من علية القوم، تزورينهم في بيوتهم. وعليه فمن المستبعد ألا تكوني قد سمعت ما يقولونه هناك عن المدارس التجديدية وعن المجددين ذاتهم. واذن هاتي حدثينا عما سمعته، عما تعرفينه، هذا مهم جداً بالنسبة لنا.

تفكرت محرمة وأكتسى وجهها بمسوح الجد.

- لو أنكم قلتم لي سابقاً، ربما كنت تشممت بعض الاشياء- قالت هي، - والا ماذا بوسعي أن أعرف عن مدارسكم هذه وكتاتيبكم، فأنا أحاول اذا اردتم قول الصدق، أن ابتعد عن كل هذا قدر الامكان. ثم كيف لك أن تتكهن أن الذي يسهد رجالا جميلين مثلكم ليس الفتيات، بل المدارس وماشابه.

وضحك الرجال. لكن اسماعيل أفندي وضع للضحك حداً:

- بيكي،- قال هو بالتركية،- بيكي*، وماذا يقولون هناك عن المجددين ماذا يقولون عن أولئك الذين حصلوا على تعليمهم في تركيا، على غراري أنا مثلا، ماذا يفكرون عنهم، من الواضح طبعاً، هناك في الدوائر العليا؟

- ماذا يفكرون عنهم، من الواضح طبعا، هناك في الدوائر العليا. - قالت محرمة في لهجة شبه مازحة شبه جادة.- لم يبلغوني بعد، ولكنه يخيل الي أنهم هناك

---

* بيكي - حسناً.

نصدر الكتب والآداب! بأكثر من هذا لايجوز لنا أن نحلم الان.

– نحن فتيان بخارى دائما هكذا.– قال آكا مخصوم بمرارة.– لا نرفع رؤوسنا من ياقاتنا. لا أهداف واضحة عندنا ولاخطط ولامنهج، نتخبط مثل القطط العمياء. اذا أردنا أن نحرر وطننا، علينا أن نبحث عن العون عند دولة عظيمة قادرة. وصدقوني، لا أحد غير الشعب الروسي يستطيع مساعدتنا. لقد عشت في روسيا طويلا، رأيت هذا الشعب وعرفته جيداً، ثمة بين الروس أناس شجعان موهوبون، وأنا لا أخامر شكا في أن ذلك اليوم الذى سيضع فيه هؤلاء الناس أيديهم، على مقاليد الحكم في روسيا ما عاد بعيداً، وآنذاك سيكون بمقدورهم أن يمدوا لنا يد العون. أنتم يا أفندى، تقولون – تركيا. ولكن تركيا نفسها عاجزة. ونحن لو اتكلنا على تركيا سنقع في أيدى الانكليز لقمة سائغة، كلا، يجب علينا، في رأيي أن نتوجه الى روسيا، والى روسيا وحدها.

لاحظ كمال الدين أن هذا الحديث ليس مناسباً في حضرة محرمة وقرر أن يغير الموضوع.

– لقد مللت على الارجح يا أخت.– قال هو مخاطبا المرأة،– اشربي شاياً، جربي حلوانا، بسكويتنا. ملاشرف، أيا ملاشرف.

أطل ذو اللحية العنزية من الممشى فسأله كمال الدين:

– كيف الاحوال عندك هناك، جاهز؟

– الآن!– أجاب ذو اللحية واختفى.

– كلا، أبداً، – قالت محرمة متفكرة، – أنا لم أمل، انني استمع اليكم بشغف، أجلس، أستمع وأفكر: ما أكبر الفرق بينكم، أنتم الرجال وبيننا، نحن النساء.. انتم تبالون بآلام الغير، تشفقون على الناس، تريدون تحسين حياتهم... وأما النساء؟ صحيح ما يقال عن أن المرأة اخلقت من ضلع آدم. لا عقل عندها ولا فكر، لا هم لها الا

البيت والأولاد، وهذا ماداموا صغاراً... أما الحياة فيسيرها معشركم، معشر الرجال.

وصمت الأصدقاء غير دارين جوابا على هذه الكلمات المريرة والمصيبة على وجه العموم.

— أنت محقة يا أختاه،— قال آكا مخصوم ناهضا من مكانه. — ولكننا نحن المذنبون في ذلك. وما دامت المرأة مضطهدة، لا خلاص للشعب من الجهالة والاستعباد. وها نحن نريد أن نحرر نساءنا أن نعلمهن. نريد أن نفتح مدارس لاجل البنات، لكي يتعلمن هن أيضا.

لاقت كلمات آكا مخصوم الاستحسان لدى أصدقائه.

وقرأ اسماعيل أفندي بحماس ثنائية شعرية تركية.

نظرت محرمة غارتش اليه في حيرة فسأل مخصوم وقد رأى حيرتها:

— ماذا، لم تفهمي؟ هذه أشعار للشاعر التركي العظيم فكرت. يقول أنه لا يجوز أن تبقى النساء مضطهدات جاهلات، هناك حيث المرأة مهانة تعيسة يتخبط الشعب في الرذيلة.

— هل رأيت،— التفت الى الضيفة كمال الدين.— الى أية مرتبة يرفع الشعراء المرأة... وأنت تقولين عنها مثل هذا الكلام!

— آه، مخدوم جان!— تنهدت محرمة.— لو أن كل شيء في الدنيا كان كما يريده الشعراء، لكان عالمنا عالما آخر. لكن الشعراء، للاسف، يكتبون الشعر وحسب، بينما يوجه دفة العالم القضاة والملات.

— بالمناسبة. — قال آكا مخصوم مخاطباً محرمة، — أنت، كما أظن، تترددين على بيت القاضي. ألا تعرفين يا ترى ماذا يقولون هناك عن الوزير الأول نصر الله؟

— أظن أن كبير القضاة لا يبالغ في احترام الوزير الأول نصر الله.

— هذا طبيعي جداً، — قال كمال الدين. — نصرالله بيك رجل ذكي نزيه وعادل. وهذا لا يمكن أن يروق

لقاضينا الأول. واذا كانت المدارس الحديثة لم تتعرض للضغوط حتى الآن، فان هذا بفضل نصرالله بيك وحده.

– ولكن اياكم والمبالغة في تقدير ليبراليته. – قال آكا مخصوم باسماً. – وزيرنا هذا ليس أكثر من رجل ذكي يراقب بانتباه زائد تراجح كفتي الميزان. اليوم تسير أمور المجددين على شكل حسن، الموظفون الروس لايعارضونهم لا يحتجون على نشاطهم ولهذا يحمي هو المدارس. ولكن يكفي للوضع أن يتغير غداً، حتى تراه أول من يأمر باغلاق المدارس وبنفسه سيزج في السجون جميع المعلمين.

في هذا الوقت دخل الملاشرف حاملا طبق بلوف يتصعد بخاره.

انكب ضيوف كمال الدين على الطعام برغبة، صاروا يأكلون بشهية، صاخبين مطرين على مطبخ رب البيت. بعد الطعام بدأت محرمة تستعد للانصراف.

– انتظري دقيقة. – سأل كمال الدين ناهضا.

فتح صندوقا، أخرج منه شيئاً ما لفه في ورقة بيضاء ووضع الصرة قرب محرمة...

– هذا لك مقابل اتعابك، يا أخت... اجتهدي من أجلنا بالله، أنت تزورين بيوت الأثرياء وكل زوجات موظفي الأمير يقصدون حمامك. فمن يستطيع أن يفوقك معرفة بما يقولونه عنا، وخصوصا عن المدارس والمطبوعات...

وامتنعت محرمة عن أخذ النقود طويلا.

– ما هذا يا مخدوم؟ أنا لن أنسى أبدا المعروف الذي أسدته لي أسرتكم، بدون هذا أنا خادمتكم، صدقوني، فأنا سأنفذ بكل سرور كل ما تأمرونني به.

ومع ذلك أخذت النقود في نهاية الأمر.

٤

بعد رأس السنة الاسلامية كانت تبدأ في بخارى الاحتفالات العيدية. كانت تقام قرب مزار ما أو أي مكان مقدس آخر. أما أكبر احتفال نسائي فكان يجري على

مقبرة كبيرة جداً مسورة بجدار عال تقع قرب نبع أيوب، غير بعيد عن ضريح اسماعيل سماني.

أيوب هو نبع غير كبير يجري ماؤه على أرض المقبرة النامية بأعشاب القاقلي. فوق الينبوع أقاموا قبة خاصة وأعلنوا ماءه مقدساً. بل وساد اعتقاد بأن الطين قرب الينبوع يشفي الجراح ويداوي الأمراض الجلدية المتفشية آنذاك في بخارى على أوسع نطاق.

كان المرضى يقصدون الينبوع من كل حدب وصوب، وباذن من الشيوخ ومساعدة من قبل خدم خاصين كانوا يتوضؤون بمائه، يدكلون جراحهم بطينه وينصرفون معتبرين أنهم قد برئوا.

كانت الاحتفالات عند ينبوع أيوب حاشدة. الى هناك كانت النساء والفتيات يفدن من كل انحاء المدينة لكي يمرحن ويرقصن أو لمجرد قضاء الوقت في الهواء الطلق. في أيام الاحتفالات كانت تضج وتتدافع قرب بوابة المقبرة حشود مختلفة الاصوات من باعة الحلوى والفستق المحمص مع الملح، ونوى المشمش والخبز والفواكه والماء وكذلك تجار الخردوات والتوابل والعطور.

وكان يلتم هناك أيضاً القره‌كوزيون والمهرجون المرحون الفكهون وضرابو الفال والمنجمون والشحاذون والمجاذيب أيضاً. أما على المقبرة نفسها فكانت تتدافع وتتصايح وتتراكض أعداد عديدة من الاطفال والناشئين الذين قدموا الى هنا بصحبة أمهاتهم. وكانت الانحاء حول المقبرة تعج بالخدم، بشبان وسيمين لا يدري أحد من أين أتوا، وبأعداد أخرى من مختلف الرجال. كانوا يحومون على مقربة، يتسلقون السور ويسترقون النظر عبر الشقوق، أو يقلبون من فوقه ببساطة ويتوارون بين القبور لكي يتأملوا عن كثب النساء المتنزهات. بل وكان بعضهم يقيمون هنا مواعيد الغرام مع محبوباتهم.

النساء اللائي يأتين للتدواى كن يلتممن لدن الينبوع. أما الاخريات فكن يتسكعن جماعات صغيرة على المقبرة

مدردشات حول شؤونهن النسائية: بينما كانت الفتيات والنساء الشابات يرقصن ويغنين ويلعبن. هناك وهنا كانت الحكواتيات والحسابات والمطربات والموسيقيات والمهرجات والفنانات يعرضن مهارتهن ويروحن عن الجمهور بفنهن وقصصهن المضحكة.

كانت زوجات البايات والمشايخ والحجاج أكثر الجميع في الاحتفال، ولكن زوجات الفقراء والحرفيين كن يقصدن هذا المكان أيضاً. هؤلاء كن يأتين للتداوى، للاغتسال في ماء الينبوع المقدس، للتنزه قليلا وعرض بناتهن.

وكما وعدت صديقاتها تركت محرمة غارتش الحمام وخفت الى هنا قبل أن يبلغ الاحتفال عزه. لدن المقبرة تماما تركت هي الفيتون، وشاقة طريقها مع الخادمة بمشقة عبر حشود الباعة المبرقشة دخلت بوابة المقبرة. لكنها لم تكن قد بلغت مطرح الاحتفال بعد حين نبق فجأة من خلف ضريح عال رجل في عمامة بيضاء وسد عليها الطريق. كانت محرمة قد خلعت ملايتها وأعطتها للخادمة فحجبت وجهها بردن ثوبها العريض وهتفت مدهوشة:

– رجل؟! ماذا يفعل الرجل هنا؟ من أنت؟

وضحك المجهول.

– واه، واه، أتراك لم تعرفيني؟– ومقتربا من المرأة المشدوهة أضاف: – انظرى الي جيداً، هذا أنا، ابن سيدك.

وفعلا، عرفت محرمة في المجهول بعد أن تملته ابن كبير القضاة، ذلك الداعر المعروف بمغامراته.

– أوخ، كيف حدث هذا ولم أعرفك فوراً، هذا أنت ايشانجان! هتفت محرمة في شبه اعتذار.– ولكنه لايليق بك الوقوف هنا، سيراك الناس وهذا سيىء. هيا نذهب الى خلف تلك الشجرات، هناك نتكلم.

ودرج ايشانجان، السمين القصير، ذو العينين السوداوين المدورتين والرموش الطويلة واللحية الكثة العريضة، درج حثيثاً على ساقيه القصيرتين خلف محرمة.

– كنت ابتهل الى الله والى جميع انبيائه من اجل أن يرسلوك لي يا أختي. والحمدلله، لقد حق رجائي. أنا الان في أمس الحاجة اليك. فأنت وحدك تستطيعين مساعدتي، أنت وحدك تستطيعين تخفيف ألامي...

– جعله الله خيراً ايشانجان، أية آلام هذه؟ – وضحكت محرمة بدون احترام زائد.

– أنت تعرفين عما أتكلم، تعرفين مما أعاني. لقد علمت أن الاموزة مغفرات تنوى توجيه ساقيها المباركتين الى هنا، الى الاحتفال، فلم يطق قلبي صبراً. طرت الى هنا لكي أمتع نظرى برؤيتها من بعيد على الاقل. ولكن ما أن رأيتها حتى اهتاج شوقي وتأجج أكثر من ذى قبل. لا احتمل أن أراها من بعيد وحسب، ولا أتجرأ أن أدعوها...

– وهل وعدتك هي بشيء؟

– كلا، القضية في أنا تخاصمنا قليلا. وها قد أتيت ناشدا الصلح. ولكن بدون مساعدتك، يا أخية، لن أنال مأربي.

وصمتت محرمة متظاهرة أنهم كلفوها بمهمة عسيرة... لكنها بعد ذلك هزت رأسها في حزم:

– حسنا، كان ما سوف يكون، سأصالحكما. آمل أن ساعة لن تمر والا ويكون بوسعك أن تغازل مغفرتك هنا، في هذا المكان. ولكن ماذا سينالني لقاء هذا؟

– سيكون لك كل ما تطلبين، – قال ايشانجان مبتهجا. – أنت تعرفينني جيدا، فأنا لن أبخل بشيء لقاء خدمة كهذه.

– كلا، كلا، أنا لست بحاجة الى نقود، – رفضت محرمة بحزم. – أنا لا أحتاج الى مال. أريدك أن تجيبني على بعض الأسئلة.. أن تطمئن قلبي المضطرب.

– اسألي، وجهي ما طاب لك من الاسئلة. – أعرب ايشانجان عن استعداده. وكان شخصاً خفيف العقل، مدللا من قبل أبيه الذي كان دائما يجلسه حده في حضور الضيوف.

— لقد أضنيت كلياً في الآونة الأخيرة، لقد حرمني الهدوء كل ما أسمعه من أقاويل وشائعات. كل يوم يأتي بأنباء جديدة، وكل نبأ أسوأ من سالفه، لقد صرت شبه مجنونة من الخوف. وليس ثمة من يستطيع تبيان الحقيقة لي. الان رأيتك وابتهجت، قلت: الحمد لله، ها أنا أخيراً ألتقي رجلا ذكياً. ها هو من يعرف كل شيء، هاهو من أستطيع أن أسأله عن كل شيء.

— تفضلي، تفضلي، — استحثها ايشانجان. — أنا في خدمتك. سأحدثك عن كل ما أعرفه.

تلفتت محرمة فيما حولها ترقباً ومخفضة صوتها قالت:

— في الاونة الاخيرة لايتحدث الناس الا عن المجددين وعن مدارس تجديدية ما. فما هي هذه المدارس، ولماذا كل هذا اللغو حولها؟ اشرح لي، سألتك بالله.

ضحك ايشانجان في سره من سذاجة هذه المرأة البدينة: فهل هذا سؤال، ان ايشانجان يعرف أسرارا أخطر من هذه بكثير.

— الملحدون الملاعين يريدون اغلاق مدارسنا الاسلامية القديمة وافتتاح مدارس حديثة، تجديدية، يستطيعون أن يربوا فيها أناساً ملحدين على شاكلتهم. الآن توجد في بخارى عدة مدارس تجديدية. ولكن لاتقلقي، فعهدها لن يدوم طويلا. سوف تقفل ان لم يكن اليوم فغداً. والمدارس التترية سوف تغلق أيضاً، أما المعلمون فسينفون جميعاً ويسجنون.

— غير معقول؟ — اندهشت محرمة، — سوف ينفونهم؟ رحمتك يارب! من يسمعك ايشانجان، يمكن أن يظن أنك تحدثت الى صاحب الجلالة الامير ذاته.

— يا لطيف، كم أنت بسيطة، — ضحك ايشانجان. — من أجل معرفة مثل هذه الترهات ليس من الضروري بتاتاً أن يتحدث المرء الى الامير. المحكمة الآن أهم من السراي بكثير. هذا سابقاً كانت جميع القضايا تحل في القصر، أما اليوم فان أخطر الامور تحل في دار القضاء. ياليتك

رأيت كم من السادة المحترمين ذوي الاحزمة الذهبية ينتظرون ساعات في غرفة الاستقبال عند أبي! الى هناك حتى الروس يأتون. صحيح، صحيح ما أقوله لك. منذ يومين أتى من كاغان الى والدى السيد شولغا ذاته...

- شولغا؟ من هو شولغا هذا؟

- أوه، شولغا هو أهم شخص في القنصلية الروسية. شخصية ذات وزن كبير، رجل حاسم، اذا قال فعل. انه ووالدي المحترم صديقان حميمان.

- أتراه حقاً؟- وشعت عينا محرمة اعجابا وتقديراً.- وهل يتكلم والدك المحترم بالروسية؟

- بل كلا،- قال ايشانجان ضاحكاً.- أين له أن يتعلم اللغة الروسية! يوجد عنده مترجم قوليجان... هذا اضافة الى أن شولغا ذاته يفهم لغتنا.

- يفهمها؟ يا له من رجل حصيف، على ما يبدو!- وضربت محرمة كفا بكف. وتابع ايشانجان:

- واذن فان شولغا هذا بعينه جاء الى أبي وقال ان هذه المدارس التجديدية لاتربي الاطفال الا على الفساد، تعلمهم ألا يحترموا الكبار، وتخرج مختلف المشاغبين ومحبي الفتن. «اسعوا الى اغلاق هذه المدارس.- قال هو لوالدى. - ونحن سندعمكم». وقد وعد والدي المحترم أن ينفي الى مناجم الاشغال الشاقة جميع المجددين وجميع معلمي المدارس التجديدية. وربما كان فعل ذلك منذ زمان ولكن الوزير الأول يماطل... وهنا جاء عمنا في قاراكول وتصرف، ان صح التعبير، تصرفاً بعيداً عن الحيطة...

- عمكم؟ عمكم أخو أبيكم، السيد سودور الفاضل؟

- أجل أجل، هو بعينه،- تابع ايشانجان متشجعاً بانتباه مستمعته. - فهو بغض النظر عن رفعة محتده وعلو مقامه افتتح في بيته مدرسة تجديدية ودعا من بخارى معلماً خاصاً من المجددين. عرف الوزير الاول بذلك. وحين كان أبي الموقر قد شمر عن ساعديه عازماً أن يصفي

الحساب مع هذه المدارس التجديدية قال له الوزير: «واذن فانه يحق لاخيكم أن يفتح مدرسة تجديدية، ولا يحق هذا لغيره؟» وهذا كان السبب وراء كل هذا التأخير. لكن أبي أرسل أحد رجاله الى قاراكول لكي يغلق هذه المدرسة ويطرد المعلم، وقريباً سينحل عقال يديه وينبري لهؤلاء المجددين. واذن لا تقلقي، كوني مطمئنة فكل شيء سيكون على مايرام.

– شكرا لك ايشانجان، ليحفظك الله وليمن بالعافية على والدك الموقر حتى نستطيع نحن الصغار أيضا أن ننعم بالحياة في ظله. هاك اذن كيف...

– وهل رأيت يوما جريدة «بخارائي شريف»؟– سأل ايشانجان وقد ازدادت رغبته في التباهي بحسن اطلاعه.

– سامحك الله ما هذا الكلام!– ضربت محرمة كفاً بكف.– من أنا حتى أقرا الجرائد!– وفي هذه المرة لم تكن دهشتها مصطنعة. فهي لم تكن تعرف القراءة والكتابة، وبالطبع، لم تر الجرائد في حياتها أبداً.

– هذه الجريدة يطبعها المجددون في كاغان، ولكن شولغا قال أنهم سيمنعونها قريباً.

– كيف هذا، سيمنعونها؟

– بمنتهى البساطة. سوف يستدعون رئيس تحريرها الى القنصلية الروسية ويأمرونه بأن يكف عن اصدار الجريدة،– وهذا كل شيء ذلك أن هذه الجريدة أيضا تفسد الناس بالتدريج.

– ويلاه! ما هذا الزمان الذى حل علينا!– تأوهت محرمة.– كنا سابقا نعيش بلا جرائد وبلا مدارس ومجددين، ونحمد الله، لم يحدث لنا مكروه... أجارنا الله من الذنوب!

– والآن يا أخت، هل من خدمة أخرى؟– قاطعها ايشانجان وقد فقد صبره.

– شكرا لك. لقد طمأنت قلبي، – أجابته محرمة

وأضافت: - انتظر أنت هنا وسأذهب أنا الان وأقتاد اليك حلمك.

غير بعيد عن هذا المكان، حيث تم فعلا بعد قليل من الوقت لقاء ايشانجان بمغفرات التقى عاشقان آخران. شاب أسمر البشرة جذاب المحيا يرتدي روباً مزهراً من الساتين وطاقية بخارية من الاستبرق كان يعتلي كومة من الحجارة والطين، ويحني جذعه من فوق السور متحدثاً الى محبوبته. الفتاة كانت تقف على بلاطة قبر وتنظر اليه بعينين براقتين. هذا كانت مؤمنة، الابنة الصغرى للحائك غلام علي. كان حبهما طاهراً وعفيفا كما كانا هما طاهرين عفيفين. كانا يمسكان بأيدي بعضهما، ينظران في عيون بعضهما، ذائبين من السعادة، ناسيين كل شيء في الدنيا.

قالت الفتاة:

- البارحة طلعت الى السطح، ولكنك لسبب ما لم تكن في المشغل.

- لقد أرسلني المعلم الى السوق وقد اشتريت شيئاً ما لك أيضاً. هل تريدين رؤيته؟ - وأخرج الفتى من جيبه طوقاً فضياً وناوله للفتاة.

في هذه اللحظة خرجت مغفرات من خلف القبر فرأت العاشقين وصاحت:

- اي، أنتما، يا عديما الحياء. ما هذا الذي تفعلان. لا حياء عندكما ولا ضمير. وجدتما مكاناً للمواعيد في هذا المكان الشريف يا عديما الحياء.

ارتبك الفتى من المفاجأة حتى أنه وقع عن علوته. وحاولت الفتاة أن تهرب ولكن مغفرات قبضت على يدها.

- مهلك، مهلك،- قالت هي محدقة في الفتاة. أخال أنني أعرف هذا الوجه... ألست أبنة چاري الحائك غلام علي؟

نترت الفتاة يدها بحدة، رفعت رأسها وسألت:

— وما شأنك أنت؟
فزمجرت مغفرات:
— ويحك يا عديمة الحياء، عسى أن تنفقىء هاتان العينان الوقحتان.
— بل لتنفقىء عيناك أنت، — صرخت الفتاة وانطلقت هاربة ولكن مغفرات أفلحت في أن تقبض على طرف جديلتها المرفرفة. أطلقت الفتاة من الألم صرخة عالية وأمسكت شعرها. هرعت النسوة وقد سمعن الصرخة.
بينهن كانت فيروزة أيضاً. كانت هي الاخرى بين المحتفلات وكانت في حلة عيدية: فستان جديد من الشيت، طاقية مخملية حمراء، وحذاءان من الجلد جديدان. رأت مغفرات عابطة بفتاة ما، فلم تتوان وانقضت عليها: نار الكراهية نحو هذه المرأة لم تخمد في فيروزة أبداً. وهذه كانت مغفرات ذاتها، تلك التي أوشكت منذ عشر سنين خلت أن تذبحها، تلك التي مازالت آثار سكينها ندوباً على جسد فيروزة تذكرها بالضيم. كل هذه السنوات وفيروزة تحلم بلقاء غريمتها وجهاً لوجه. وهاهي هذه اللحظة قد أزفت.
خلصت فيروزة الفتاة من يدي مغفرات ووجهت لها ضربة قوية أطاحت بها أرضاً. قامت مغفرات واندفعت نحوها مزمجرة، ولكن يدي فيروزة القويتين رمتاها على الارض من جديد. هبت مغفرات مستعدة لان تخنق غريمتها. ولكن النسوة اللائي بلغن مكان الحادث تدخلن هنا وعلى رأسهن محرمة غارتش التي وقفت أمام مغفرات مباشرة حامية بجسدها البدين فيروزة.
من فوق كتف محرمة صرخت مغفرات على فيروزة:
— دابة لعينة، بهيمة قذرة، لماذا تدافعين عن هذه العاهرة؟ من أعطاك الحق في هذا؟
واستشاطت فيروزة:
— كفى أيتها الافعى السامة، كفى، لقد مضى ذلك العهد حين كنت تضربيننا وتمصين دماءنا.

– لقد تجاوزت الحد يا آنسة، كفاك تلويحاً. اذهبي وأري قبضتيك لأمك ولعشاقك. نحن هنا لسنا خدماً لك. انبرت للدفاع عن فيروزة احدى النسوة. وكانت هذه أم مؤمنة. فهي لتوها وصلت ولم تكن تعرف سبب اندلاع هذه الهيصة.

– ابنتك عاهرة، هل تفهمين، عاهرة قذرة. فهي في هذا المكان الشريف...

وقاطعت مغفرات امرأة أخرى:

– انظري الى نفسك أولا يا قليلة الحياء. من الذي كان واقفا للتو، هناك خلف الاشجار مع رجل يلبس لفة؟ لست أنا وحدي من رأى هذا، الحمد لله لقد رآه الاخرون أيضاً.

– ويحك، يا كذابة، يا عديمة الخجل!– صرخت مغفرات ولكن النسوة قاطعنها فوراً. والآن صرخ الجميع دفعة واحدة أن مغفرات هي المذنبة، هي التي تدنس المكان المقدس ولكنها تتهم الاخرين.

غير أنه كان لمغفرات أيضاً من يدافع عنها، وأكثر الجميع اجتهدت في هذا مشرفة التي هرعت هي الاخرى حين سمعت الصراخ.

ومدركة أن الصدام يمكن أن يتوهج ويتخذ أبعاداً خطيرة انتحت محرمة غارتش بمغفرات ومشرفة جانباً وراحت تثنيهما قائلة أنه لا حاجة لهما في الصدام مع سواد الناس، دعهن يفعلن ما يحلو لهن، لا داعي لان تزعجا نفسيهما دون مبرر.

هدأت مغفرات بعض الشيء، وحين ضمها مجلس صديقتيها راحت تزجج حاجبيها «بالاسمة»، أما محرمة فعمدت الى المزهر وشرعت تغني بصوت مجلجل مرح فنسيت المرأتان المشاجرة في الحال وراحتا تغنيان معها.

أما فيروزة وزوجة الحائك مع مؤمنة وعدد آخر من النسوة الفقيرات فذهبن في اتجاه آخر وقرب ينبوع أيوب جلسن في حلقة.

– والله لست أدري ماذا أفعل، – تشكت أم مؤمنة. – لقد أنهكتني مقصوفة الرقبة مع هذه النزهة. طيلة شهر كامل كانت تلح علي، قالت أنها تريد أن تمرح مع صديقاتها، لم أكن أعرف أن هذا الفارس الملعون...

وراحت فيروزة تروح عنها:

– لا عليك، لا تتكدري، لم يحدث شيء ذو بال، تكلمت البنية مع جارها عبر السور وهذا كل شيء. لو كنت تعرفين ما تفعله السيدة مغفرات هنا لوقف شعر رأسك.

– والله صحيح! – أيدتها امرأة متوسطة السن كانت يدها مدهونة بالطين حتى المرفق – ما الذي لا تفعله هؤلاء السيدات الراقيات! في مكان شريف ومع رجل يلبس لفة... يا ويلتاه! لقد نسين الله تماماً...

– للاغنياء يحق كل شيء، – تدخلت في الحديث امرأة اخرى كانت في ثوب عتيق مقلم على طرفه رقعة زرقاء كبيرة. كان جلياً أنها لم تقصد هذا المكان للنزهة: كانت عليلة تنشد الشفاء. – لزوجات الاثرياء يغفر كل ذنب، أما نحن، فأنا لا أذكر ولم أسمع بان امرأة ما فقيرة، زوجة حرفي أو زوجة فلاح ركضت مرة الى عاشق أو خليل.

– لشيء كهذا حتى الوقت لا يكفينا.

– على كل أمر ينبغي أن يكون عندك عادة، – قالت احدى العجائز مازحة، – أما الوقت فستجدينه.

– عسى أن تنخسف الارض وتبتلعهن مع عاداتهن، من أين يا ترى تأتيهن كل هذه العادات؟

وابتسمت العجوز:

– آخ، يا بنيتي، لا تقولي، ما أن تغتنين وتملأين بطنك بالبلوف الدسم والخبز الفاخر حتى تشتهي نفسك رمانة حامضة... اي والله!

ضحك الجميع الا امرأة شابة أجابت بجدية:

– لا والله، نحن في بيتنا لا نشبع البلوف الدسم ولا الخبز الفاخر أبداً. أما اذا حن الله وبعث، فاننا نحمده

ونتقاسم خيرنا مع جيراننا. هكذا اعتدنا أن نعيش نحن الناس البسطاء.

في هذا الوقت كانت فيروزة تضفر شعر مؤمنة المنفوش وتسري عنها:

— لا تيأسي يا حلوة، يقال أن اليأس شيطان وهو لايقود الى الخير.— ومتابعة حديثها التفتت الى بقية النسوة.— لا بأس، كل شيء سيكون على مايرام. سوف نعمل، سوف نساعد بعضنا البعض ولن نعرف الجوع أبداً. جدتي، ولله الحمد، لم تكن من الذوات ولا من البايات، ومع ذلك كم كان يخشاها كل ذوي الكروش الكبيرة هؤلاء، كل هذه الافاعي والعقارب! كانوا يهابونها ويحترمونها. وكل هذا لانها لم تكن تحني رأسها أمام أحد، ولم يستطع أحد أن يكسر عودها! ولو أن كل واحدة منا كانت على نصف هذه الشجاعة، لو أننا كنا نتآزر دائماً ونتعاضد، لكانت حياتنا مختلفة تماماً. فنحن اليوم قد أرينا للسيدة مغفرات كيف يجب أن تلبس الطاقية، ولو أننا تخاذلنا وجبنا لكانت حقرتنا جميعا وسوت بنا الارض.

هنا اقتربت من حلقة النسوة محرمة غارتش، حيتهن ببشاشة، قعدت معهن وفضت أمام فيروزة منديلا كان فيه زبيب وحلاوة وجوز وسكر نبات وخبز، وعزمت النسوة:

— تفضلن من فضل الله. فيروزة، حبيبتي، حلي فمك. أنا الان فقط تذكرت. فنحن واياك التقينا، كما أظن، في بيت المعلمة طنبور.

افتر ثغر فيروزة عن ابتسامة خفيفة وقالت:

— لقد التقينا أول أمس في حمام كونجاك.

— صحيح، صحيح، اي والله، لقد نسيت بالمرة. انها الشيخوخة عليها اللعنة... وهزت محرمة رأسها بأسى— هل تصدقنني، في الصباح أقابل الشخص وفي المساء، لو قتلتني، لن أذكر أين رأيته. وهنا أيضا هذه المشاحنة... ومع ذلك، عبثاً تورطت، يا حبيبتي، لم تغنمي شيئا سوى

غضب السيدات وحقدهن عليك. وهؤلاء على كل حال، هن سيداتك، نساء معروفات محترمات...
– كل انسان جدير بالاحترام،– قالت فيروزة واضافت:– ونحن أيضاً يجب أن يحترمونا.
– بالطبع، بالطبع، أنتن أيضا جديرات بالاحترام،– عجلت محرمة في ابداء موافقتها وقد أحست الانزعاج في صوت فيروزة، – ولكن اسمعي نصيحتي، لا تتخاصمي مع مغفرات، فهي امرأة سريعة الغضب و حقودة. انها لا تغفر الاساءة.
– هذه الشريرة تضمر الضغينة لي من زمان وكانت ستسعد لو تستطيع أن تسد السماء فوق رأسي وأن تحفر الارض تحت قدمي، – بنفس تلك اللهجة الحادة تابعت فيروزة – وقد حاولت مرة أن تفعل ذلك، لكنه ليس من السهل كما تتصور أن تقضي علي، ولا بأس، فنحن سنلتقي مرة أخرى!
– الأمر لك... ولكن تذكري أنني أحبك. وأنا لا أريد أن يلحقك مكروه.
– شكرا لك، يا سيدتي، أطال الله في عمرك.
– أنت الآن تخدمين عند مشرفة كما أظن؟
– أجل، أنا مرضعة طفلها.
– هل ترين الآن... لقد سمعت أنها قررت ألا تسمح لك بدخول بيتها بعد اليوم.
– اللعنة عليها وعلى بيتها.
– تعقلي، يا فيروزة، تعقلي،– تدخلت زوجة الحائك في الحديث،– لا يجوز لنا نحن النساء الفقيرات أن نتكلم هكذا، أزواجنا لا يحصلون الخبز الا بشق النفس.
وأجابت فيروزة:
– بل كلا، من أجل لقمة الخبز لن نركع بين أقدامهم النتنة. وحمدا لله، لن نموت جوعاً.
«أجل، – فكرت محرمة وهي تستمع الى فيروزة. –

أجل، يبدو أنها طلعت لجدتها، لا تحني رأسها أمام أحد، ولا تتراجع أمام أحد».

وقالت محرمة بلهجة مسالمة:

— حسناً، حسناً يا بنيتي! الأمر لك. ولكن تذكري أنني صديقتك. وحين تحتاجين الي، تجدينني دائماً في حمام كونجاك. وكوني واثقة، فأنا لن أبخل عليك حتى بتاج من الذهب، سأفعل كل ما بوسعي.

تأثرت فيروزة وقالت بصوت خافت:

— شكراًلك، يا سيدتي، أطال الله في عمرك.

ترامى من جهة المزار صخب وضجيج نسوة.

هرعت محرمة غارتش وفيروزة الى هناك وحين اقتربتا من الحشد الهائج رأيتا النسوة في سورة غضب ينهلن بالضرب على شيخ طويل اللحية كان يقف محدودباً منكمشاً على نفسه يغطي رأسه بيديه واليه تمتد عشرات الايدي: بعضها كان يلكمه ببساطة، بعضها يلوح بحجر او قطعة طين وبعضها بحذاء وكل يد تسعى أن تصيب من الشيخ رأسه. ولكن الايدي كانت كثيرة والاهواء كانت متأججة في عز استعارها بحيث لم تنل الضربات من قذال الشيخ المقدس وحده، بل وكانت تصيب ظهره أيضاً وخواصره وحتى مؤخرته غير المقدسة بتاتاً.

قرب الجدار وقفت امرأة كانت تحكي بصوت عال:

— كنت أمر هنا واذ بي أسمع سعال رجل، تلفت فيما حولي — ولم أر أي رجل، اللهم الا امرأة كانت تجلس عند باب المزار مولية وجهها للحائط. كانت متلفعة بالملاية، فاستغربت أنا ذلك، اقتربت منها على مهلي وسحبت الملاية عن رأسها. وماذا تبين؟.. تبين أن هذه ليست امرأة بالمرة، بل شيخ... اضربنه يا أخياتي، اضربنه حتى الموت ولتطلع روحه الى جهنم!

ولو لم يهرع خدمة المزار لاغاثة الشيخ لضربته النساء المهتاجات حتى الموت فعلا. خلّص الخدم الشيخ من أيديهن بمشقة وولى ذلك الادبار هارباً.

بحثت مؤمنة على فيروزة طويلا ثم وجدتها أخيراً في الحشد وقالت:

— هيا أسرعي، عصا يناديك.

— وارباه، ما الذي حدث أيضاً؟ — تخوفت فيروزة وانطلقت نحو باب المزار. هناك وقع نظرها على عصا فوراً.

— فيروزة، هذه أنت؟ — اقترب هو منها مبتسماً. — كيف، هل أنت مسرورة؟

— أجل، مسرورة... ماذا جاء بك الى هنا؟

— جئت وراءك؟ — قال هو بصوت يرن بالبهجة.

واندهشت فيروزة:

— ماذا حدث؟ لا تعكر قلبي، لاتخوفني هلم قل، ماذا حدث؟

— لا تخافي. الله مازال يدفع المحن عنا. — بنفس تلك اللهجة المرحة قال عصا وأضاف: — هيا لنذهب، وسترين.

— تكلم، لا تعذب قلبي...

وضحك عصا.

— سأكشف لك عن جزء من السر. عندنا ضيف.

— ضيف؟ أى ضيف؟

— هذا لن أقوله. سترينه بنفسك. ضيف عزيز غير منتظر.

— تكلم بالله! قل من هذا؟

— كلا، كلا، هيا اسرعي وارتدي الملاية. أنا انتظرك هنا.

كانت فيروزة تعرف أن عصا لن يتكلم وأنه يستحيل اقناعه مادام لايريد. ودعت فيروزة صاحباتها، تلفعت بالملاية وخرجت. كان عصا بانتظارها عند البوابة وفي يديه أربعة أرغفة من الخبز وكيس فيه زبيب.

29—1515

٥

أواخر آذار. صباح باكر. الشمس بزغت لتوها من خلف الأفق وذؤابات الأشجار العارية بعد، اصطبغت بلون قرمزي.

في المحطة يقف القطار متأهباً للانطلاق. البخاريون يسمونه دلعاً «كاغانشيك» ويدلله الكاغانيون أيضاً ويسمونه «بخاركا»*. القاطرة تلهث، ومثل جواد جموح مل الوقوف كانت تتهدج وتنفث البخار.

أما مبنى المحطة فكان يعج بالناس ويضج. رغم أن الوقت كان مبكراً خف الناس الى هنا حتى لا يتأخروا عن القطار الأول.

مد سائق القطار أمان رأسه من النافذة وتطلع الى مبنى المحطة. كان كل شيء جاهزاً للانطلاق. أمان لا ينتظر الا صفارة رئيس المحطة. وها هو مساعده يلف الأدوات في خرقة مشربة بالزيت والشحم.

في ذلك الوقت كان التسخين على النفط وليس على الفحم، ولخدمة القاطرة كان يكفي شخصان. لكن عددهم في ذلك الصباح كان ثلاثة.

في جوف القمرة جلس حيدرقول وكان في حلة فارسية مستعملة: سروال أسود، جيليت أسود مفتوح الياقة وسترة زرقاء. على رأسه قعدت باحكام قبعة من صوف الضأن وفي يده حقيبة سفر غير كبيرة، لحيته وشارباه مقصوصة قصة قصيرة.

وأخيراً دق الجرس ثلاث مرات، اطلقت الصفارة ترانيمها المتموجة، وشق هدأة الصباح في كاغان صفير القاطرة البهيج والمهيب. لهثت القاطرة بصوت عال مطلقة

---

* كاغانشيك - معناها «الكاغاني الصغير»، بخاركا - البخارية الصغيرة.

تحت العجلات سحابات من البخار، ثم هادرة وعلى غير عجل أقلعت من مكانها. قطعت عشرات السكك الحديدية، وبالتدريج زائدة من سرعتها خرجت الى الخط الرئيسي كاغان – بخارى.

عندما تعدوا كشك الحراسة الاخير قام حيدرقول من مكانه واقترب من النافذة.

– مرحى لك يا أمان، عوفيت يا أخ! – قال هو رابتا على كتف أمان باستحسان.

التفت أمان. كان صديقه ينظر اليه باعتزاز، فياللعجب، من يصدق أن أمان هذا ذاته كان يرزح يوماً خلف جدران مستشفى المجانين عند الحاج أوباني، مضطهدا، مسحوقاً، فاقداً كل أمل. والآن هو نفسه يقود الى الأمام وبجرأة وثقة هذه العربة الجبارة، هذه الاعجوبة الحقيقة، هذه الفرس الحديدية ذات الانفاس النارية. ولكن الاعجوبة الاعظم هي أمان ذاته. قائد القاطرة ومسيرها، أمان البخارى، وهذه الاعجوبة اجترحها أصدقاؤه: سميرنوف وعمرجان و الرفاق العمال الاخرون الذين مدوا له يد العون واعادوه الى الحياة. وكم من التعساء والبؤساء ما زال يعيش سجيناً معذبا مسلوب الارادة! فمن سيساعدهم يا ترى، من سينقذهم؟

– يا لك من جدع يا أخ، يا لك من جدع، – ردد حيدرقول باضطراب. – لم أكن أتوقع أنك ستصير سائقاً مرموقاً الى هذا الحد.

– الجدع هو أنت، – قال أمان مبتسما بامتنان. – لولاك لكنت فارقت عالم الأحياء منذ زمان. حتى آخر عمرى ساكون شاكراً لك على ما فعلته من أجلي.

ابتسم حيدرقول وقال:

– لقد شكرتني وافضت. لقد فقت بنجاحاتك كل توقعاتي وآمالي.

في هذا الوقت، على بعد خمسمائة خطوة تقريباً ظهر على الخط كائن ما. كان هذا حماراً، وكان يسير الهوينا.

منكسا رأسه، لا يملك أدنى فكرة عن الخطر الذي يتهدده. ضغط أمان على المكابح، خفت السرعة، وصفرت القاطرة بحدة. كان الصوت عالياً رناناً وأغلب الظن أن الحمار سمع غير مرة هذا الصفير الذي لم يكن يعده بخير يرجى، فهز رأسه ممتعضاً وخرج عن الخط. مر القطار به جامحاً فلم يمن الحمار عليه حتى بنظرة.

— كما ترى طريقنا أيضاً تعترضه الحمير أحياناً، — قال هو دون أن يشيح بنظره عن الطريق. — وقد يبدو أنه من المحرز أن تدهسها، لكنه كثيرا ما يحدث وتدهسك هي.

وخلد كلاهما للصمت. أحدهما كان يبحلق ساهماً في القضبان الفولاذية الراكضة تحت العجلات وكان الآخر يتملى المناظر الأليفة والمتغيرة بعض الشيء في آن واحد.

وعموما، لم يكن بين كل الذي رآه حيدرقول أمامه بعد سنوات الفراق الطويلة عن الوطن، لم يكن من جديد الا السكة الحديدية. وخلفها انداحت ذات الحقول، وذات الترعات التي تقطعها، ونفس اشجار التوت وأنساق الدلب. وربما لم تكن سابقاً أشجار الحور النامية على امتداد الأرض المفلوحة وحدها. أجل، ذات القرى الحقيرة، ذات الاكواخ، وذات الفلاحات بمناديلهن المسدلة على وجوههن بدل الملاية، اللائي ينظرن الآن بفضول عبر شقوق المناديل الى القطار الذي يخطر قربهن، بل وذات الأطفال الحفاة الذين يركضون صارخين للقاء القطار، وذات الكلاب الكبيرة المبتورة الأذيال والآذان التي تنبح الآن عالياً راكضة خلف القطار.

لعشر سنوات خلت سار حيدرقول على هذا الدرب وحيداً، مطارداً، طائر الجنان من الهلع — عشر سنوات عاش هو في عالم الآلام والمحن وقد فتح له ذلك عينيه على الكثير. بات الآن ينظر الى الحياة والناس بعين أخرى.

انتشلت الصفارة حيدرقول من لجة أفكاره. وصل القطار الى فتاح‌آباد وقرب مزار الشيخ العلامة، قرب انصوبة الضوء اطلق صفارته.

قال أمان باسما:
– يقول الناس أن القطار يخاف الشيخ العلامة وهو يعتذر على الازعاج كلما مر قرب مسكنه.
انعطف فرع السكة الحديدية نحو الشرق. رأى حيدرقول عدة بيوت قرميدية غرست أمامها حدائق فتية. بعد ذلك ظهرت عدة بيوت أخرى ثم ساحة المحطة ومبنى محطة بخارى المشابه جداً لمبنى كاغان وان كان أصغر قليلا.
خفف القطار سرعته ولاهثاً نافثاً توقف عند نهاية الرصيف مقابل حصن بخارى مباشرة.
اعطى أمان لمعاونه بعض التوجيهات وتركه يذهب. ثم قفز بصحبة حيدرقول من القاطرة على الأرض.
– اذا استطعت عدت في قطار المساء، والا ففي صباح الغد، – قال حيدرقول ثم صافح يد صديقه واتجه الى بوابة «قوال».
بوابة «قوال»، أو البوابة البخارية القارشية كما كانت تسمى أيضاً، كانت تعتبر البوابة الرئيسية للمدينة. عبرها كانت تسير الحركة الى كاغان – الى روسيا وسمرقند وطشقند وقارشي وحصار، عبر هذه البوابة تسللت الثقافة الجديدة والحياة الجديدة وعبرها جاءت الثورة الى بخارى...
كانت سلطات الأمير تحرس بوابة قوال بحرص زائد. هنا كان الجواسيس والمخبرون وجلاوذة الميرشاب يتخاطرون على الدوام. كانت السلطات تسعى ألا يعبر البوابة احد بشكل غير ملحوظ.
لم يول أحد اهتماما لحيدرقول المرتدى بدلة فارسية، وقائلا «بسم‌الله» بصوت عال، دخل هو المدينة دون معوقات. وفوراً لفت انتباهه أن الطريق الذي كان مغبرا جدا ذات يوم قد بلط الآن وأن قنال شهرود قد لبس بالحجارة من كلا جانبيه.
سار حيدرقول على الرصيف الممتد على طول ضفة القنال وهو يتأمل في ذهول كل هذه المستجدات. كانت

الفيتونات تنهب الطريق تلحقه وتخف للقائه، صار الشارع أكثر ازدحاماً وأعلى ضجيجاً. على امتداده ظهرت قصور جديدة بديعة البنيان، بوابات منقوشة تفضي الى الافنية عبر ممرات مسقوفة وخوخات مزخرفة ملونة. وهنا وهناك كانت النوافذ الزجاجية مسدفة بستائر من الحرير.

أما على ضفة حوض ديوان بيغي ومن حوله فقد كان كل شيء على سابق عهده: سوق الهال ذاته وسوق اللحم اياه وذات سوق الطحين، بل وظلت مدرستا ديوان بيغي وكوكلداش على حالهما لم تتغيرا.

على الساحة ازاء مسجد ديوان بيغي التم حول المداح، راوي القصص الدينية، جمع من الناس.

– أيها الناس! يا عباد الله الصالحين! قال نبينا الكريم: « يأتي آخر الزمان ويكيد الكافرون اشياع الرجس والمسيح بشعبنا، فيحولونه عن دين الاسلام دين الحق والنور الى عقيدتهم عقيدة الضلال والظلام. بالمكر والخداع وبالسحر والبهرج سيضللون هم شعبنا عن الصراط الذي اختطه لنا الله ورسوله محمد. آمين!» المجددون هم بذرة الرجس، بذرة الضلال عن هدى الله. كلماتهم تتساقط مطرا من الخداع والمكر على قلوب المؤمنين، تتساقط بردا من البلاء والخراب على أرضنا. انهم يصرخون «الحرية، الحرية!» ويراودون زوجات المسلمين المؤمنين أن يخلعن الحجاب ويهمن في الارض سافرات الوجوه. انهم يريدون أن يأكل الجميع من قدر واحد وأن ينام الجميع في فراش واحد، يريدون أن تنجز عقود الزواج بلا صلوات وبلا بركات. يا أهل الخير، أيها المسلمون الصالحون، اجتنبوا حبائل هؤلاء الكفرة، لا تصدقوا خداع المجددين، لا ترسلوا أولادكم الى مدارس الكافرين والا صرتم شبيهين بذلك السمندر الذي يكتوى أبد الدهر في نار جهنم.

بعد هذا أخذ المداح يحكي قصة سمندر المطيع الذي ضل فصار سمندراً بالفعل.

بين الناس الذين أحاطوا بالخطيب تنقل خباز يحمل على رأسه سلة فيها خبز. بدا أنه يستمع بانتباه الى قصص المداح ولكنه في ذات الوقت كان يبيع بضاعته للمستمعين الأقل اهتماماً. اشترى حيدرقول منه عدة أرغفة حارة وسأله:

— عمن يتكلم هذا المداح ويتكلم؟ من هم هؤلاء المجددون؟

— المجددون بشر أيضاً، ككل عباد الله، — أجاب الخباز مخفضاً صوته. — في مدارسهم يتعلم الأولاد القراءة في سنة واحدة، بل ويفتحون مدارس للكبار أيضاً. أنا نفسي ترددت على مدرسة كهذه ثلاثة أشهر وتعلمت القراءة والكتابة، يكذب هذا المداح.

— ماذا قلت؟ هات أعد! — تدخل فجأة في حديث رجل كان حتى الآن يقف قربهما صامتاً. — تطرى على المجددين، تذم المداح الصالح وتنتقص منه، تسميه كذاباً!.. مهلك، مهلك! وهل تعرف أنت كلمات دعاء القنوت؟ هيا الى السيد الرئيس. هيا تحرك، عجل!

كان هذا، على ما بدا، واحدا من رجال الرئيس. استجاب لصرخته عدة اشخاص آخرين من شلته واقتاد الجميع الخباز وحيدرقول الى رئيسهم.

كان رئيس بخارى الأول جالسا على سطح صالون حلاقة يشرب الشاي. الى هناك سيق المجرمان ووضعا بين يدي فضيلته. وشرح الرجل لرئيسه باسهاب واطناب كل جريمة الخباز الآثم.

بأمر الرئيس اخذوا من الخباز سلته ثم اقتادوا المجرمين الى الساحة واقعدوهما أمام المسجد. بدأ الرئيس الاستنطاق:

— مغفل جاهل، ماذا قلت هناك؟ اعترف بكل شيء.

— رحماك، يا سيادة الرئيس، والله لم اقل كلمة سيئة واحدة، — استرحمه الخباز بضراعة. — هذا الرجل سألني من هم المجددون فأجبته. وهذا كل شيء.

— أحقاً هذا؟

— اي والله، هذا ما جرى، —أجاب حيدرقول بالفارسية.
و تدخل رجل الرئيس:
— لكنه لا يعرف «دعاء القنوت».
— اقرأ «دعاء القنوت»، — امره الرئيس.
لم يستطع الخباز أن يقرأ الدعاء كله بشكل سليم. وكان هذا كافيا.
— اجلدوا الكافر خمس جلدات.
وفي الحال عرى الحجاب ظهر الخباز البائس. ولسع السوط الجلدي الثقيل ظهر «المجرم» خمس مرات. بعد ذلك ارغموا الخباز أن يقرأ دعاء الحمد لجلالة الأمير ثم اعادوا له السلة التي فرغت حتى نصفها وتركوه، حل دور حيدرقول.
— من أنت؟ — سأله الرئيس.
— غريب، يا سيادة الرئيس.
— جنسيتك؟
— روسية، — أجاب حيدرقول مبرزاً للرئيس هويته.
— اقرأ دعاء الحمد لجلالة الأمير واذهب حال سبيلك.
قرأ حيدرقول الدعاء بصوت عال، نهض من مكانه واختفى في الحشد. كان فرحا يحمد الله على أنه خلص بسهولة، ومضى يتابع تجواله في بخارى.
حين كان يمر بالانساق التجارية لفتت انتباهه كثرة الحوانيت الجديدة. لاحقا وقع نظره على بناية قرميدية ذات طابقين لم تكن موجودة فيما مضى. طابقها الاول كانت تشغله حوانيت تباع فيها كل البضائع الممكنة أما الطابق الثاني فكان يتألق بنوافذه كما في البيوت الأوربية.
— ما هذا البيت؟ — سأل حيدرقول أحد المارة.
فأجابه ذاك:
— هذا مبنى البنك الروسي.
مقابل البنك من الجهة اليمنى قامت حوانيت ومباني قرميدية مشيدة على الطراز الأوربي أيضاً. انتهى الشارع المفروش بالأسفلت عند حي تشهار الكبير بدرج عريض.

ارتقى حيدرقول الدرج ومن جديد رأى بناية كبيرة فيها حوانيت ومركز للبريد والتلغراف اضافة الى صيدلية.

قالوا له ان هذا رواق تجاري وأن الروس هم الذين بنوه. ثم مر حيدرقول على ممر الخردوات الحديث البناء. هناك خلف مناضد البيع وقف باعة شبان نشطون، ومن الجهة المقابلة تركز باعة الاواني الخزفية وابعد قليلا كان أصحاب الحرف اليدوية يبيعون الطاقيات: كان تعداد ها يفوق عدد النجوم في السماء. قطع حيدرقول الرواق المسقوف وانحدر نحو سيسو. هناك أيضا وقع على رواق تجارى جديد وعلى بنك أيضا ومخازن وشارع مفروش بالاسفلت وأبنية اوربية الطراز.

بعد شارع «غازيون» بدأت من جديد بخارى القديمة التي لم يمسها الزمن. هنا كان الجديد قليلا. في مواضع متفرقة عبدوا شارعاً، ظهرت عدة دور جديدة كبيرة، وفي بعض المواقع قامت الجدران القرميدية على شكل مستطيلات حمراء.

عندما وصل حيدرقول الى حي جويبار ورأى مزار الامام بكري فضل، انعصر قلبه من الالم. هنا، في هذا المزار رقدت تحت الثرى ابنته وزوجته... انها الحياة. الانسان ينسى بالتدريج كل ما كابده من عذاب وشقاء الا الناس الاعزاء على القلب فانهم لا يبرحون الذاكرة أبدا. ذات يوم بدا له أن الحياة قد انتهت، وانه قد دفن هنا مع حبيبتيه كل أحلامه وآماله. ولكنه فيما بعد أيقن أن عليه أن يثأر من البايات مصاصي الدماء، وليس لاقربائه وحدهم، بل لكل الشعب، الشعب المخدوع، المهان، المحروم والمفجوع. أجل، لقد قطع حيدرقول مسيرة صعبة، وتعلم فيها الكثير لكنه اعاد التفكير بالكثير وفهم الكثير أيضا. وفي ذلك اليوم عندما سيخلع عرش الاضطهاد والتعسف ويداس بالاقدام، سوف يأتي حيدرقول الى هنا، الى قبري حبيبتيه، ويحمل لهما هذه البشرى السارة.

كان الشارع خلوا من المارة تقريباً. قطع حيدرقول الساحة ودخل الى المزار. عثر فورا على القبرين المنفردين وركع قربهما على الارض. طفت في الذاكرة من أعماق بعيدة مبهمة ملامح وذكريات متفرقة طفيفة ولكنها عزيزة على النفس. انعصر قلب حيدرقول واغرورقت عيناه اللتان نسيتا البكاء بالدموع. قعد حيدرقول مطرق الرأس يتحدث الى ماضيه البعيد. بعد ذلك قبل الأرض وقام.

قطع حيدرقول البازار والأرواق التجارية قرب بوابة «قاراكول» وعطف الى حي عبد الله حاجة. عند أحد البيوت رأى نعشاً وناساً يرتدون ثياب الحداد، من الفناء ترامى اليه عويل النساء. وقف حيدرقول مع الاخرين عند الجدار.

– من مات؟ – سأل هو فأجابوه:

– المختار نصرة الله.

رفع حيدرقول يديه وقرأ الفاتحة على روح المتوفي. ظل واقفاً حتى حمل النعش الى البيت ولحق به الناس الواقفون قرب الجدار، وبعد ذلك فقط توجه الى بيت الخالة ديلارام.

من الخارج بدا المنزل متداعيا ولكن بعض الاثار الطفيفة كرقع الملاص الطرية على الحائط وألواح الخشب الجديدة والمنضودة في البوابة بمهارة، جعلت حيدرقول يدرك أنه ثمة ايد حريصة تعتني بالدار وترعاها.

كان الباب موصداً. قرعه حيدرقول وخرج على طرقته من الفناء المجاور رجل مكركب من الهرم تماماً. كان هذا غلام علي الحائك.

سأله حيدرقول بالفارسية:

– هل يوجد هنا أحد؟

– ومن يلزمكم؟

– يلزمني... عصا يلزمني، عصا...

– عصا ذهب يوزع الماء. قريبا سيأتي.

– وغيره، ألا يعيش هنا أحد؟ – سأل حيدرقول بعد برهة صمت.

— فيروزة ذهبت للنزهة عند نبع أيوب. تفضلوا، ادخلوا الينا ريثما يأتون. بين لحظة ولحظة يجب أن يعود عصا.

شكر حيدرقول العجوز ومضى خلفه. فرش غلام علي على المصطبة بساطا و لحافا، هكذا بحيث تقع عليها الشمس ودعا الضيف للجلوس.

— من الطيب الجلوس تحت الشمس في الربيع، — قال هو — جماعتي أيضا راحوا يتنزهون... رأس السنة، عيد... وبالطبع... من لا يريد أن يتنزه، — وناول غلام علي للضيف كوب شاي.

— حسن جداً، ليتنزهن وليمرحن. لقد الهيتكم عن عملكم فأرجو المعذرة.

— لا، لا أبداً، — احتج غلام علي، — أنا اليوم لا أعمل، فلا قوة، عندي. في الليل مرضت قليلا. — وختم الحائك بشيء من الأسى: — مع الشيخوخة تتناقص القوى ولا تزيد.

— ولكنك لست مسناً الى هذا الحد.

— وهل القضية في السن! — قال غلام علي متنهداً، — القضية في الحياة. الحياة الشاقة تهد المرء باكراً. لقد قصم الحزن ظهري، هل ترى، كيف لواني: ربيت ابنتي الكبرى زليخة، زوجتها وبعد سنة ماتت في المخاض.

— أجل، — تنهد حيدرقول، — هذا حزن عظيم. ولكن ما العمل، انه القدر...

— انه القدر! — وافق غلام علي، ولكنه ترفع عن أن يحكي لرجل غريب أن العوز المدقع هو الذي اضطره لأن يعطي ابنته لزوج غيور وشرس الطباع، لم يتحدث عما قدر لها أن تتحمله من ضرب، عما عانته من عذاب وعن أنها ماتت تحت وطأة حياتها الشاقة.

دخل الى الفناء عصا. رأى حيدرقول وعرفه فوراً، ومن غير أن يولي انتباها لاشارته المحذرة، اندفع نحوه:

— عمي العزيز! — راح يقبله ويضع يديه على

عينيه! – يالها من فرحة، يا لها من سعادة! أيعقل أنك لم تعرفه يا جار؟ لكن هذا عمي العزيز، حيدرقول!

وضحك حيدرقول:

– وأنت لا تزال كما كنت بسيطاً ساذجاً. انني منذ ساعة جالس مع غلام علي اتحدث ولا أكشف عن اسمي.

– وما السبب؟ – اندهش عصا. – العم غلامعلي واحد منا، انه أمين مخلص، لن يبحوح بالسر حتى ولو كلفه ذلك حياته... يا لها من فرحة، ما اعظم أنكم جئتم! ولكن لم لم تخبرونا سابقاً؟ كنت سافرت الى كاغان واستقبلتكم. والان هاك كيف ترتبت الأمور: فيروزة أيضا ليست في البيت. والله لست أدري ماذا أفعل. سيكون عليكم أن تنتظروا قليلا ريثما اركض لاعود بربة البيت... أما أنت يا غلامعلي، فاعزم ضيفي الى البيت من فضلك.

عندما رجع بصحبة فيروزة كان حيدرقول جالساً مع غلامعلي خلف السفرة.

حين رأت فيروزة في الغرفة رجلا غريباً غطت وجهها بردن ثوبها ولكن ما أن ناداها حيدرقول باسمها حتى عرفته، فارتمت في احضانه وانهمرت دموعها.

قبلها حيدرقول من جبينها، هدأها وأقعدها بقربه.

– أهذه حقاً تلك الفتاة الصغيرة التي عرفتها يوماً؟ غير معقول، غير معقول... أية حسناء طلعت منك! ما شاء الله! ولكن هاتي حدثينا، كيف الاحوال؟ كيف تعيشون؟..

– الحمد لله، لا بأس، – اجابت فيروزة ولم يكن اضطرابها قد مضى بعد. – ما زال الضوء مشتعلا في بيت جدتي الحبيبة... الافضل أن تحدثنا عن نفسك... كنا دائما ننتظر رسائلك، كنا نقلق. شكراً على أنك لم تنسنا وكنت تكتب لنا، بل واستلمنا منك نقوداً. لقد قلت لعصا انه يجب اعادة النقود اليك، فنحن هنا سندبر أحوالنا أما أنت في الغربة فأحوج الى النقود، لكن عصا قال انك ستستاء...

— كان قوله صحيحا. لو اعدتم النقود لغضبت جداً ولما كنت اتيت اليكم.

ذهبت فيروزة الى المطبخ وعادت تحمل بيضاً مقلياً، ولكن ما أن هم الجميع بالاكل حتى سمعت طرقات على الباب. ذهب عصا ليفتح ولكنه تغيب طويلا فخرجت فيروزة أيضاً وبقيت هي الاخرى هناك. عادا عندما كان البيض قد برد تماماً. كلاهما كانا متكدرين.

— كان هذا رسول من مغفرات، — أجاب عصا على سؤال حيدرقول. منغصات... ولكن لا عليك، لا تقلق، تفضل كل...

وليس الا بعد أن فرغوا من الطعام وخرجت فيروزة حاملة الصحن الخالي سأل حيدرقول من جديد:

— ومع ذلك ماذا حدث؟ ما الذي يكدركما؟

— كل هذا بسبب البيت، — أجاب عصا عن غير رغبة. أنت تعرف أن مغفرات هي التي ورثته عن الباي... وعموماً، لا يصح تسمية هذا الكوخ بيتاً، انه خرابة وليس الا. لو أنني لم أكن أصلحه وارممه لتهدم من زمان. والان ارسلت مغفرات تطلب منا أن نخلي البيت، فهي بحاجة اليه..،

— وماذا تقول فيروزة؟

— قالت له: «اذهب وقل لسيدتك اننا سنخلي البيت غداً، عسى أن ينهد على رأسها، وانا، اعترف لك، محتار لا ادري الى اين سنذهب.

اطرق حيدرقول واستغرق مفكراً. عادت فيروزة الى الغرفة فرأت الضيف مغموماً وحدجت زوجها بنظرة غاضبة.

— هذا ما كنت اتوقعه. خل عنك، يا عمي، لا تغتم، لم يحدث شيء ذو بال، هذه المشاحنات مع مغفرات ليست الاولى ولا الاخيرة. لقد بدأت قديمة، وارجح أنها لن تنتهي الا بموتها. ولكن لا بأس، لن نضيع، لن نبقى على قارعة الطريق.

— صحيح، يا بنيتي، صحيح — قال حيدرقول، — لن نضيع ان نحن كنا معا.

– أجل، هذا ما فعلته اليوم، زوجات الفقراء. احكي للعم، يا فيروزة، – سألها عصا.
– الأرجح أن ظهر مغفرات ما زال يحكها، – ضحكت فيروزة وحكت عن المشاجرة التي نشبت على المقبرة، – لقد وقفت جميع الفقيرات الى جانبي. ولقد نالت مغفرات حصتها! اذا عمل الناس متعاونين لن يستطيع احد الوقوف في وجههم!
– صحيح يا بنيتي، – قال حيدرقول باسماً، لقد فهمت أهم شيء – متعاونين – هذا هو جوهر القضية الان...
– سوف اذهب اليوم الى المعلمة، فالعلية عندهم شاغرة وأنا واثقة من أنهم سيسرون ان نحن انتقلنا اليهم.
تحسن مزاج الجميع واستمر الحديث...

٦

قبيل صلاة المغرب تسربلت فيروزة بملايتها تحجبت بالبرقع وغادرت البيت.
شارعهم الهادىء المقفر عادة كان الان يضيق بالناس. لم تفطن فيروزة الى سبب ذلك الا حين بلغت منزل نصرة الله. قرب دار المختار وقف الرجال في صفين عاقدين أيديهم على بطونهم. كان هؤلاء أقرباء الراحل ومعارفه واصدقاؤه.
عادة كانت النساء يحدن ويسلكن دربا آخر. ولكن فيروزة كانت على عجلة من أمرها، والدرب الاخر كان طويلا، فشقت طريقها مباشرة. نظر الرجال باستنكار الى المرأة الحمقاء التي خرقت العادة التليدة بطيش. ولكن اللحظة لم تكن مناسبة لاثارة الضجيج فلم يفه أحد بحرف.
مرت فيروزة ببيت المختار، ودلفت في زقاق آخر، هنا تحرك رجل كان يقف في بوابة البيت ومضى خلفها،

في نهاية الحي حادت فيروزة الى البولفار ففعل الرجل المثل وظل يتبعها. كان الشارع في تلك الساعة مقفراً.

– ما اسرعك في السير يا حلوة، جعل الله طريقك مباركاً وسعيداً، يستحيل اللحاق بك...

وحثت فيروزة الخطو.

– مهلك يا أمورة، لا تعجلي هكذا، لقد عرفتك فوراً، فأنا مولع بك منذ زمان. توقفي بالله دقيقة، استمعي الي.

تعداها الرجل واعترض طريقها.

– لا تعاندي، يا أمورة، استمعي مرة على الأقل الى العاشق المعذب.

رفعت فيروزة عينيها ونظرت عبر البرقع مستنكرة الى ذلك الوقح الذى اعترض سبيلها. كان هذا رجلا طويل القامة قبيح الوجه مثل غول. كان قد قصر شاربيه ولحيته التي التمع فيها المشيب راغباً على ما يبدو، ان يظهر أصغر سناً. كان يرتدي روباً خفيفاً بدون بطانة وفوقه روب حريري عتيق مفتوح على صدره بشكل مشين، أحد طرفي عمامته كان يتدلى فوق اذنه.

خيل لفيروزة انها رأت هذا الوجه الدميم ذات مرة، ولكنها لم تستطع أن تتذكر أين كان هذا ومتى.

وكرر الرجل بالحاح:

– من فضلك، تعالي معي الى العطفة، لحظة واحدة.

– اغرب عن وجهي، أيها الخنزير! – صرخت فيروزة وقد اججتها هذه الصفاقة. – مالك واقف كالعمود في طريقي؟

– رفقاً، رفقاً، خفضي صوتك، – تابع الرجل دون أن يبرح مكانه. – لا تفوري هكذا، يا حسنائي.

– دعني أمر، يا عدوالله! تظن أن المدينة بلا سلطة، أن الشارع بلا مارة؟ تظن أنك لن تنال قصاصك؟

– وانت لا تصرخي، هذا سيضر بك وحدك. لا تخافي فأنا لن آكلك، ادخلي معي العطفة دقيقة، هناك الأمر لك.



– بل كلا هنا أيضا الامر لي. ابتعد عن طريقي ايها التنبل!

في هذه اللحظة خرج من خلف العطفة شخص. كان هذا طه. سمع كلمات فيروزة الأخيرة فاقترب.

– ماذا هناك يا ابن الاخ، – صرخ هو للرجل. – آه هذا والله صديقي القديم، واذا فان الشعر لما ينمو على قرعتك يا أخ قربان المحترم؟

حدج الرجل طه بنظرة مغتاظة، لف على عقبيه ومضى مسرعاً.

– واذن فان هذا قربان الاقرع، جلواز الميرشاب! – هتفت فيروزة وكانت لا تزال ترتعش من الغيظ والانفعال العصبي. – غداً ساذهب من كل بد الى الوزير الأول وأقول له انه يستحيل المرور في الطريق بسبب من هذا الوغد.

– ليأخذ عزرائل روحه، لا عليك يا بنت الأخ، فان ما برأسه يساوي تماماً ما على رأسه.

وضحكت فيروزة:

– من حسن حظي أنك اتيت في الوقت المناسب، يا طه، رافقني من فضلك الى بيت المعلمة.

– آه أنت كما أرى تعرفينني، – اندهش طه وسأل: – من أنت؟ ورفعت فيروزة البرقع.

– آه، هذه أنت. الأخت فيروزة! يا للمسكينة، كم أخافك هذا الوغد الاقرع. ولكن لا بأس، فالعاقبة كانت حميدة والحمدلله. هيا بنا، سارافقك...

ومضيا. طه الذى بالكاد بلغ كتف فيروزة كان يخطو قربها مختالا فخوراً كالديك وقد رد طرف روبه على كتفه بفراهة الفتيان وغطى دقنه بياقته مثل المتأنقين المتغندرين. كان اعتزازه بدوره كحام للظعينة واضحاً جداً.

– اللعنة على أب هذا التنبل، – استمرت فيروزة في الاعراب عن سخطها. – واجبه أن يصون هدوء الناس وشرفهم وبدلا عن هذا يكشف عن قرعته ويخيف الناس.

– وهل تريدين قول الحق؟ – ونظر طه الى فيروزة بعين زوراء. – أنت المذنبة في كل شيء...

– أنا، لماذا أنا مذنبة يا ترى؟

– لانك حتى تحت الملاية تخطفين قلوب الرجال.

– جازاك الله، يا طه! لا شك، ثمة من رش سكراً في فمك اليوم. أرى أنه يمكن كدنك مع قربان الأقرع الى نير واحد.

– اجارنا الله! أنا أقول الحق! لا يجدر بك ان تسيري في الشارع لوحدك: المحترس يحرسه الله. عندما تريدين الخروج الى الشارع ناديني لأرافقك.

وضحكت فيروزة:

– يبدو أنه ليس أمامي مخرج آخر.

ومثرثرين بمرح على هذا المنوال وصلا الى بيت المعلمة طنبور.

كان الباب مدربسا من الداخل. ارتقى طه مقعداً صغيراً كان قرب الباب وشد بند الجرس. بعد عدة دقائق انفتح الباب وظهر زوج المعلمة، طاهرجان الذي شاخ واحدودب ظهره.

رأى طه وقربه امرأة ملفعة بملاية فحدق فيهما مستفسراً.

– مساء الخير، يا عم، – قال طه.

– مساء الخير، قالت فيروزة خالعة الملاية.

– آه، هذه أنت! – انفرجت اسارير العجوز – مرحبا، مرحبا، فيروزةجان، مرحبا يا عزيزتي. تفضلي ادخلي، والا فانك قد نسيت درب بيتنا كلياً.

– وها قد وصلنا بأمان وسلام، – قال طه مبتسماً. – أنا ذاهب يا أخت فيروزة. ربما امر عليك بعد وقت واوصلك الى البيت؟

– لا، لا، شكرا، سيأتي عصا خلفي.

ودعهما طه وانصرف.

– هل المعلمة في البيت، يا عمي؟ – سألت فيروزة وهي تدخل.
– كلا، ولكنها ستأتي قريباً. ادخلي، يا بنيتي واشربي كوب شاي ريثما تاتي، دردشي مع العجوز قليلا.
ودخلا الى الفناء الداخلي.
هذا الفناء كان يبدو لفيروزة يوماً محتشداً وصاخباً مثل بهو المحكمة. ولكنه صار هادئاً شاغراً منذ اغلقت المعلمة كتابها. نقل الصائغ مشغله من الممر البارد الى الغرفة وكان يقضي الأيام وحيداً يعمل هناك.
فيما تستمع الى الصائغ كانت فيروزة تعاين الغرفة. هنا كان كل شيء نظيفاً ومرتباً.
– منذ أن قفلت المعلمة الكتاب وذهبت للخدمة في حاشية بادشابيبي، صار بيتنا خالياً تماماً، – تشكى الصائغ وهو يصب لفيروزة شاياً ساخناً، – العمل وحده ينقذني من عذاب الوحدة. وعندما يكون الشغل قليلا، اقرأ، اتعلم في آخر العمر، – (ابتسم الصائغ). – هاك انظري ماذا صنعت.
اقترب الصائغ من المشكاة، ازاح الستارة واخرج غرضاً كبيراً وكروياً يشبه الجبسة. كانت الجبسة هذه فوق ركيزة وقد اخترقها محور فضي.
– ما هذا؟ – سألت فيروزة مدهوشة.
– هذه كرتنا الارضية، – قال الصائغ باعتزاز ودفع الكرة باصبعه فدارت حول محورها. – انت بالطبع لم تسمعي بهذا أبداً. ولو انك تابعت دراستك، وعكفت على قراءة الكتب، لعرفت، – وبعد برهة صمت اضاف: – مدينتنا بخارى اشتهرت منذ القدم بعلمائها الكبار. وفيها ما يكفي منهم الان ايضا. سيعرف الشعب بهم ذات يوم! هل ترين؟ – واشار الصائغ الى الكرة ثانية، – هذه هي ارضنا. الأرض التي نعيش عليها انا وانت... انها تدور تماماً مثل هذه الكرة. ولهذا يتعاقب عليها الليل والنهار. ورؤوس عباد الله تدور ايضاً، تدور وتلف... وكثيراً ما

يحدث ويفقدها أصحابها ويتصرفون بشكل مشين. – ونظر الصائغ ساهماً الى الكرة التي تدور ببطىء بين يديه. – أجل، هذا ما يحدث. ويبدو أن أم أميرنا دارت هى الاخرى، لفّت، وفقدت كل حياء. لا يتجرأ أحد على اعتراضها. كل من يريد الحصول على منصب مدهن، أو يريد من الأمير شيئاً يرسل الى أمه هدية ثمينة وينال مأربه. لقد وضعت يديها على معلمتك أيضاً، لقد اضنيت المسكينة معها تماماً، وانا في البيت اتعذب في وحدتي. ومن يعيش في الوحدة طويلا، تحدثه حتى الاشياء عن نفسها. هاك انظري الى هذا التاج، هذا اكليل بادشابيبي، ارسلوه الي كي اثبت عليه جوهرة. هذه هي، انظري كيف تتلألأ. انها تتوقد. – التقفط الصائغ نظرة فيروزة المعجبة وراح يشرح: – هذه الماسات صغيرة. هذه أحجار ياقوت وهذا عقيق ولؤلؤ... خمسة وثلاثون حجراً كريماً... غرض نفيس... ثمنه نهر من الدموع... اجل، اجل، نهر كامل من دموع البؤساء والأرامل واليتامى... عن هذا حدثتني الاحجار نفسها، هاك، في هذا الحجر دموع جدتك على الارجح، وفي هذا دموع ابيك...

– ودموعي موجودة هنا ايضا في اغلب الظن، – تنهدت فيروزة رانية الى التاج الذي كان يتألق مثل قوس قزح.

– حكامنا يخالون أن الدموع البشرية ستتحول أبد الدهر الى أحجار كريمة. انهم لا يشتبهون حتى في امكانية حلول يوم تصب فيه الدموع في نهر غضب عارم يكتسح تيجانهم وعروشهم ويطيح بهم أيضاً. يخال الي ان دموعك ودموع زوجك ستصب في نهر كهذا تماماً...

سمع وقع خطوات في الخارج ودخل الى الغرفة عصا.

قامت فيروزة للقاء زوجها واجلسته في مكان الشرف، على لحاف اعلى من مجلسها قليلا. بعد ذلك سألته ان كان عرج على البيت.

– كلا، ليس بعد، – اجاب عصا واضاف: ـ كنت اوزع الماء فالتقيت طه، لقد حكى لي كيف أخافك الأقرع قربان، فعجلت في المجيء الى هنا.

– يا لطه الكريه! – ابتسمت فيروزة. ـ لا يستطيع ضبط لسانه خلف اسنانه. كان يجب أن نقول له كي...

– لقد نبهت عليه كي لا يحكي عن ذلك لأحد.

في وقت هذا الحديث كان الصائغ يحدق في فيروزة متسائلا غير فاهم. فشرحت له فيروزة كنه الحادث في قليل من الكلمات.

ـ فماذا تظنون، هل وقاحته آتية من حركة السماوات أم من دورات الأرض؟ – نظرت الى الصائغ بعينين باسمتين.

ابتسم العجوز وأدار كرته من جديد.

في هذه اللحظة دخلت المعلمة.

ـ ما بالكم تجلسون في العتمة؟ كنتم أشعلوا مصباحاً على الأقل! – قالت هي لزوجها بعد أن سلمت.

– اتيت وفي الحال عم الضياء – مزح طاهرجان و راح يبحث عن علبة الثقاب، لكن فيروزة سبقته فاشعلت المصباح ومضت خلف المعلمة الى المطبخ.

بعد العشاء افضت لها فيروزة بهمومها.

– وهكذا قررنا ان ننتقل اليكم، فليس عندنا احد غيرك نلجأ اليه، ـ ختمت فيرزوة حديثها بحزن.

– كيف هذا، لا احد؟ وانا؟ – استاء الصائغ فعجلت فيروزة في الرد:

ـ انا اعرف يا عماه مدى حبكم لنا، اطال الله في عمركم!

– لكن عمك يقول الحق، – قالت المعلمة. ـ كان يجب أن تحديثه فوراً عن كل شيء. آنذاك كان بوسعكم ان تتفحصوا قبل حلول الظلام ان كانت العلية صالحة للعيش ام لا.

ـ الأرجح انها تصلح، وعلى كل حال ليس أمامنا مخرج آخر. نحن ممتنان لكما كل الامتنان.

ـ بل نحن الممتنان ـ قالت المعلمة باسمة. ـ انكما ستسعداننا بكل بساطة. فالعم طيلة النهار وحيد مثل البومة. يكاد يفقد عقله من الوحدة.

ـ صحيح، صحيح، ـ أيد الصائغ زوجته.

ـ واذن، قررنا. غدا ستنتقلون الينا. ولينهدم ذاك البيت على رأس مغفرات.

ـ لقد طردتني مشرفة من بيتها، وعليه فانا اعتباراً من الغد لا أعمل وبوسعي أن أساعد العم في شؤون البيت.

ـ ولا ضير، الجلوس في البيت ممكن ايضا. ولكنه يوجد لك عندي عمل غير سيىء... والحق انه ليس سهلا ولكنهم يدفعون أجراً لا بأس به.

ـ وما حاجة فيروزة في العمل؟ نوه عصا بعدم رضى. ـ ام تراني لا أستطيع اعالة شخصين؟

ـ القضية ليست في الأجر وحده، ـ قالت المعلمة ـ أخشى أن فيروزة لن تستطيع الجلوس بلا عمل، ستمل. انا أعرفها جيداً.

واهتمت فيروزة بالأمر:

ـ وما هو هذا العمل، يا معلمة؟

ـ في «الأرك» يحتاجون الى نساء كي يحملن الماء الى الحرملك. السقاة يجلبون الماء على الحمير، أما الى الحرملك فلا يسمح بنقل القرب لغير النساء. سترين بأم عينيك قصر الأمير، سيتضح لك الكثير مما تحدثنا واياك عنه.

راق الاقتراح لفيروزة فاعطت موافقتها.

حين خرج عصا مع فيروزة الى الشارع كان الليل قد أرخى سدوله، و المؤذنون يدعون المؤمنين الى صلاة العشاء.

٧

في الأونة الأخيرة عكف البايات وكبار الموظفين والحكام وكل ذو أمر وسلطان. ابتداء من الأمير وانتهاء بمحصلي الضرائب، عكفوا جميعاً على غرس بساتين وحدائق غناء في ضواحي بخارى. كانوا يبنون فيها بيوتاً، يسورونها بحيطان عالية وفي الصيف ينتقلون الى هناك مع أسرهم هرباً من الحر.

خارج بوابة سمرقند، بعد غلاجوي بقليل كان لزمانبيك أيضاً بستانه الذي ورثه عن ابيه، وقد استأجر له منذ فترة غير بعيدة مديراً مجرباً، دعى بستانيين حاذقين فأقاموا له هناك ركناً فردوسياً حقيقاً كان كل من يزوره مرة لا يتمنى أن يغادره أبداً.

خلف البيت مباشرة انداح حوض زهور واسع قامت في وسطه مصطبة خشبية تغطيها سقيفة على شكل عريشة. هنا كانوا يقضون الأماسي عادة. بعد ذلك كانت تبدأ دوالى العنب ويمتد بموزاتها من جهة صف من أشجار الرمان ومن الجهة الأخرى أشجار التفاح والكرز وأصناف الكمثرى النادرة. كان الممر المحفوف بدوالي العنب يفضي الي حوض الماء المحفور في وسط البستان. على حواف الحوض من الجهات الأربع تسامقت أربع شجرات بديعة من الدلب الصيني كانت كالقدوة لانساق اصطفت خلفها من أغراس التين والدراقن والمشمش.

في العاشر من أبريل، آن تفتح البراعم على الاشجار وازديان الأرض بطنافس العشب الربيعي الطري، وصلت الى هنا في فيتون خاص يجره زوج من الخيول الطهماء زوجة زمانبيك مشرفة مع صديقتيها الحيمتين مغفرات ومحرمة غارتش. كانت برفقتهن خادمة واحدة فقط. استقبل المدير وزوجته الضيفات بحفاوة وتقدير، أجلساهن في غرفة زاهية الأثاث وفرشا أمامهن مائدة.

تلمجت الضيفات ثم استمتعن باحتساء الشاي وخرجن للتنزه في البستان.
تخلفت مشرفة وحدها لكي تعطي التوجيهات اللازمة لزوجة الوكيل. قالت انهن سيقضين النهار كله هنا، وقد يبتن الليل أيضاً وأمرتها أن تطبخ محموسة و حساء شعيرية وبلوفاً.
تجولت المرأتان في ممرات البستان مستمتعتين بمفاتن الربيع الخلابة. والحق انهما ماكانتا تستمتعان بمباهج الطبيعة بقدر ما كانتا تتشكيان من القدر التعيس، وتسريان عن بعضهما كل قدر وسعها. قالت مغفرات ان محرمة ليست عجوزاً بعد، وأنها حرية بأن تشكل عشرة رجال في زنارها، بينما عاهدتها تلك على الحب والوفاء وأكدت لها بأغلظ الايمان أنها مستعدة لخدمتها خدمة صادقة وفية منزهة عن الغرض.
أجل، كانت محرمة غارتش انسانة غريبة عجيبة. حقيقة أناها وما تمثله في واقع الأمر لم يكن يجهلها معارفها العديدون وحسب، بل وهي أيضاً كما بدا ولاح. بين المجددين وفتيان بخارى كانت كواحدة منهم بل وكانت تساعدهم. وفي القصر، في حرملك أم الأمير كانت تبدو مسلمة حنيفة، نصيرة راسخة الاعتقاد لكل قديم وتليد. في الحمام كانت ربة عمل، متسلطة بخلية فظة غليظة القلب. وفي دائرة الصداقة الضيقة كانت تبدو لصاحباتها رقيقة، لطيفة، مخلصة.
كان البعض يعتبرها فاجرة كافرة تستسلم للذات المحرمة في احضان صديقاتها. ويعدها آخرون انسانة حاضرة الذهن، صعبة المراس مغلولة اليد ولكنها مطلقة النزاهة، كانوا يأكدون أنه بالامكان ائتمانها على أية نقود، حتى على مائة ألف روبل وأنها ستعيدها كاملة بل ومع الفوائد. بينما يرفض البعض أن يأتمنها على قرش نحاسي واحد.
كان رجال الحاشية بمن فيهم كبير القضاة والوزير

الأول والميرشاب يستفيدون من خدماتها دون حساب أو تردد، ولكن الحذرين المحترسين، أمثال زمان بيك، كانوا يثقون بها نصف ثقة، ومع أنهم كانوا يكلفونها ببعض الأمور، لكنهم ما كانوا يصرفون عنها أعينهم النابهة.

تنزهت الصديقتان طويلا. قطفتا طاقات كبيرة من الزهور، زينتا بالزهور نفسيهما ودرجتا عائدتين الى البيت.

أرادت مشرفة أن تمد المائدة على المصطبة تحت العريشة ولكن محرمة قالت ان الجو ما زال بارداً وأن صحتها ليست على ما يرام. اقنعت صديقتيها بالبقاء في الغرفة بل وطلبت اليهما أن تغلقا الباب. ثم اضافت حين لاحظت أن ذلك قد كدرهما قليلا: - لا يليق بالنساء أن يشربن النبيذ على مصطبة مكشوفة، الغرفة أفضل لعمل كهذا.

جلس الكل الى المائدة. جاءت الخادمة بالحلوى أولا ثم تبعها بالمزة لأجل النبيذ: أطباق المحموسة، بصل أخضر وخضروات أخرى طازجة.

بقيت الصديقات بمفردهن مع النبيذ الذي كن يصببنه من ابريق شاي. بعد الكوب الثالث توردت الوجوه وبرقت العيون. كانت محرمة الجالسة في مكان الشرف تطلق من حين الى آخر نكاتها المملحة فترغم نديمتيها على الضحك حتى الغشيان. بالتدريج كانت لزوجة الحديث تزداد وتزداد الى أن انزلق أخيرا الى زوج مشرفة زمان بيك.

سألت مغفرات:

- زوجك الآن في القصر على الأرجح؟

- وأين له أن يكون أيضاً! انه يقضي سبعة أيام بالاسبوع في الخدمة، - اجابت مشرفة بامتعاض.

كانت محرمة تدرك أحسن الادراك أن زوجة زمان بيك هي خير من يستطيع الكشف عن موقف الأمير ورجال البلاط من المجددين ولهذا كانت طيلة الوقت تفكر في أمثل طريقة لجر مشرفة الى هذا الحديث.

– القصر يعيش الآن أوقات عصبية، – قالت مشرفة متنهدة. – والأمير لا يستطيع الاستغناء عن زمانبيك ساعة واحدة. وهكذا ينتج أنه عندي زوج وما عندي زوج في آن واحد، أسابيع كاملة يتأتى لي أن انام وحيدة ... بل وهو ذاته محروق البصلة زيادة عن الحد، – تابعت مشرفة متشكية. – في كل شيء يريد حصة الاسد. بقية الازواج يرتاحون، يلهون يحرصون على الترويح عن زوجاتهم، أما هو فلا يعرف الا الجلوس ليال كاملة والاستماع الى سعايات رجاله.

وقالت محرمة بتعاطف:

– والأرجح أن كل هذا عن المجددين؟

– بلى عنهم، عليهم اللعنة، لقد بت أراهم في نومي.

– غير معقول؟ وهل يستحق أمثالهم أن يشغلوا رأساً جميلا كهذا؟

– آه، يا عزيزتي، طيلة اليوم ليس من حديث الا عنهم. صاحب الجلالة الأمير يخاف المجددين، – قالت مشرفة مخفضة صوتها. – لقد امر زوجي بألا يصرف عنهم عينه، وبأن يحرص على ألا يثيروا الشغب والفتن. لن يعرف أحد من هؤلاء الكفرة هدأة العيش. لقد بث زمانبيك كل رجاله لمراقبة المجددين ورصد تحركاتهم. وان لم يكن اليوم، فغداً سوف يبيدهم جميعاً.

– كيف هذا، سوف يبيدهم، انهم مسلمون أيضاً؟

وتدخلت مغفرات:

– مسلمون غير انقياء.

– لو أنهم كانوا مسلمين صالحين لما اجتمعوا مع الروس في كاغان ولما تآمروا معهم.

– يالطف الله كيف هذا؟ – تصنعت محرمة الدهشة.

– حكى زمانبيك أن المجددين سوف يجتمعون هذا الأسبوع في قرية زيرآباد قرب كاغان ومعهم سيجتمع الروس أيضاً. يقول زوجي انه ما عاد ينتظر الا ذلك اليوم لكي يطبق على الجميع هناك.

— يا له من جدع زمان بيك هذا، يا له من شاطر، — تغنت محرمة باعجاب. — ولكن كيف تسنى له أن يعرف كل هذا. الأرجح أن ذلك لم يكن سهلا.

— بالطبع لم يكن سهلا، لكنه يوجد لزمان بيك رجله بين المجددين أيضاً. — وضحكت مشرفة.

— ها — ها — ها! — ضحكت في اثرها محرمة. — يا لزمان بيك، يا للرجل الذكي، لقد حط يده على الشرش مباشرة! كيف يا ترى يمكن القاء نظرة أخيرة عليهم، على هؤلاء المجددين؟

— سيكون هذا يوم الاحد، في عيد الروس. وزوجي سيذهب الى هناك قبل هذا الموعد بيوم حتى يقبض عليهم جميعاً.

— ولكن ألن يشكل هذا خطراً على زوجك المحترم؟

— بل كلا، سيكون معه كثير من رجاله.

حملت الخادمة زبدية فيها حساء الشعيرية. وشربت كل من الصديقات كوب نبيذ آخر...

بعد غروب الشمس وصل زمان بيك بصحبة غلامه ووجد الصديقات نائمات. قرع الباب طويلا ريثما استيقظت زوجته فخرجت اليه ناعسة وسألته أن يتجول في البستان لان الكل في البيت نائمين.

خرج زمان بيك الى البستان مغتاظاً يلسع عنق جزمته بالكرباج. كان هذا رجلا طويل القامة أسمر البشرة ذا لحية كثيفة عريضة وأنف طويل معقوف وجبهة ضيقة. عيناه الكبيرتان الجاحظتان قليلا كانتا تتقدان ناراً جهماء. وكان يرتدي الزى المألوف لرجل من الطبقة العليا في ذلك الزمن: روب قارشيي ملون يزنره حزام فضي مطلي بالسواد، على القدمين جزمة طرية معقوفة البوز الى أعلى، وعلى رأسه عمامة بيضاء ملفوفة بشدة. في القريب ظهرت مشرفة ناعسة خدرة. لاحظ زمان بيك فورا أنها شربت نبيذا لكن هذا لم يحسن مزاجه بتاتا.

— من الذي يأتي الى البستان كي ينام في مثل هذا

البرد؟ – سأل هو بغضب. – أم لعله ليس عندكن في المدينة مكانا تنمن فيه؟

فأجابت مشرفة غاصبة نفسها على الابتسام:

– ما الخطب؟ لقد تنزهنا طوال النهار فتعبنا، بعد الغشاء رقدنا للراحة فغلبنا التعب وغفونا... ولكن ماذا حدث، لماذا جئت الى هنا؟

– لقد اشتقت اليك، – بربر زمانبيك سائراً نحو حوض الماء. – قالوا لي انك سافرت مع محرمة غارتش فشعرت بالغيرة.

وتصنعت مشرفة الدهشة:

– ماذا بك؟ حتى من النساء صرت تغار! اجارنا الله!

– انا اعرف جيدا من هي محرمة، الابتعاد عنها افضل وأسلم!

– هذه آخرة المطاف، لا تعاشري صديقاتك، لا تزوري أحداً، لا تتقابلي مع الناس واجلسي العمر كله في البيت وحيدة! بماذا تأمرني أن افعل اذا كنت تهجرني أسابيع كاملة؟

– انتظري قليلا، سوف افرغ من اعمالي وآنذاك سوف اجلس في البيت، – قال زمانبيك بلهجة غاضبة. – هيا اذهبي، جهزي نفسك سنسافر الى المدينة. أما انا فسأعرج على الوكيل، لي عنده عمل آخر.

– ربما نقضي الليل هنا؟

– كلا، كلا، دعينا نذهب الى البيت.

بعد نصف ساعة سافر الزوجان الى المدينة وقررت الضيفتان البقاء بغية أن تتنزها في الصباح أيضاً. جلستا في غرفة الضيافة مع زوجة الوكيل وخادمة مشرفة، احتسيتا الشاي واكلتا جبسة وامتدت السهرة حتى وقت متأخر من الليل ثم فرشن لهما مرتبتين عاليتين.

حين كانت مغفرات تخلع ثوبها لاحظت محرمة على كتفها بقعة زرقاء فسألت:

— ما هذا على كتفك؟

— هذا اثر عن قبضات فيروزة اللعينة. هل تذكرين كيف ضربتني هذه الشيطانة عند نبع ايوب؟ وانا ايضا لم اقصر في حقها، غير أن قواي ما عادت كما قبل...

— أي، ياي، ياي، — تأوهت محرم باشفاق. — يبست يداها ان شاء الله!

— لا بأس، لا بأس، لن تسلم هذه الشحاذة مني. لقد رميتهم الى الشارع، ولكن يقال ان المعلمة طنبور آوتهم. وعصا اللعين لم يجلب لي اليوم ماء. فاضطر زوجي للاتفاق مع سقاء آخر ولكنني لن انسى لهما ذلك، لن يخلصا مني بسهولة. وقد اهتديت الى شيء. انت سمعت ما قالته مشرفة عن ان زمانبيك قرر القضاء على كل المجددين في كاغان. اغلب الظن أن لعصا علاقة بهم. على كل حال سأقول انا ذلك لزمانبيك، وهو سيصفي الحساب معه.

وضحكت محرمة:

— آه، هذه فكرة رائعة. زمانبيك سيدبر معه الامور على اسرع وجه! ولينل جزاء ما استحق! لم يستطع التواءم معك، فليتواءم مع زمانبيك.

واغرقت كلا المرأتين في الضحك.

٨

اقترب عصا من بيت كمال الدين مخدوم يحمل على ظهره قربته الثقيلة. كان الباب مفتوحاً. وقف عصا في تردد ثم قرع الباب ولكن أحداً لم يرد. دخل عبر الممر المسقوف الى الفناء الداخلي وهناك رأى ملا شرف، خادم مخدوم، جالسا القرفصاء قرب الجدار تحت النافذة. كان جليا أنه يسترق السمع الى الحديث الذي يجري في الغرفة. سمع وقع خطوات عصا، فهب وتظاهر انه ينوي مسح الزجاج.

— من فتح لك الباب؟ — سأل هو عصا المقترب.
— كان مفتوحاً.
— يا للعروس* اللعينة! — فأفأ ملا شرف بانزعاج. — اليهودية الشيطانية انسلت كالأفعى حتى انني لم أسمع. أما انت فالأرجح أنك اصطدمت في الباب مع هذه التاجرة، اليس كذلك؟
— لا، — أجاب عصا باقتضاب.
ثم وضع القربة الثقيلة على الأرض وراح يملأ الخوابي. في هذا الوقت خرج من الغرفة كمال الدين ومحرمة غارتش. سلم عصا عليهما وهمّ ان ينصرف ولكن كمال الدين أوقفه:
— تريث، يوجد لي عندك عمل.
توقف عصا قرب المصطبة عاقداً يديه على صدره.
ودع كمال الدين ضيفته وأراد أن يعود الى المصطبة ولكن عصا كان قد مضى للقائه. خاف أن يكون ملا شرف جالساً في الممر يتصنت فقرر أن يتكلم مع كمال الدين قرب البوابة. وماكانا ليتصوران كم كانت هذه الحيطة في مكانها.
جاءت محرمة تنبه كمال الدين الى ان زمان‌بيك وقع على اثر المجددين. وعليه، احتاج كمال الدين الى أن يحذر أصدقاءه على وجه السرعة.
— أنت كما أظن، تعيش الآن عند الصائغ طاهرجان؟— سأل كمال‌الدين عصا. — لي عندك طلب: اذهب بالله الى البيت وقل لطاهرجان أن يمر على الاخ مخصوم وعالم حاجة، وليأت الجميع الي فوراً. ثمة عمل هام. وانا بالطبع كان بوسعي أن ارسل ملا شرف ولكن...
— كلا، كلا، سأنفذ انا مطلبكم بكل سرور، — أجاب عصا وخرج الى الشارع، لكنه ما كاد يقطع عدة أحياء حتى لحق به غلام علي.

---

* العروس — هكذا كانوايسمون في بخارى التاجرات اليهوديات اللائي يحملن بضائهن الى البيوت. **(المؤلف)**.

— وانا ابحث عنك، — قال العجوز لاهثاً وهو يدلك حقوه. — ذهبت الى الحوض فقالوا انك مضيت الى بيت كمال‌الدين، أتيت الى هنا، ولم أجد لك اثراً، بالكاد لحقت بك.

— و ما الذي جعلك تحتاجني بهذا الشكل الملح! — ابتسم عصا ناظراً الى العجوز بوداد. تلفت غلام علي في حذر وسأل بصوت خافت:

— أين صديقك الفارسي؟

— لا أعرف، ولكن ماذا حدث؟

— في المساء سيلتم عندي أصدقائي الحاكة.

— من سيكون؟

— لا تقلق، الفارسي يعرف.

— وفي البيت حيث كنا نعيش، هل سكن أحد؟

— كلا، البيت خالي. دع عنك هذه التخوفات، نحن أيضاً لسنا صغاراً وقد رأينا في الحياة شيئاً...

— حسناً، ان قابلته اتيت به حتماً...

— بل كلا، قابله وتعال به حتماً. لا يجوز أن ينتظر الناس عبثاً.

— حسناً سأجيىء به! — وعد عصا وبعد أن ودع العجوز مضى الى البيت.

كان الباب مدربسا من الداخل كالعادة. قرع عصا الجرس. ففتح الصائغ ولما رأى عصا ابتسم مسروراً.

— أدخل، أدخل، يا ولدي. لقد جعت على الأرجح. الآن سينضج البلوف.

— بلوف على الفطور؟ وما حاجتكم بكل هذه المتاعب؟

— عندي ضيوف.

— أنا لتوي من عند كمال‌الدين مخدوم ،انه يطلب اليكم أن تقولوا لعالم حاجة وآكا مخصوم أن يذهبا اليه فوراً. ثمة عمل مستعجل.

— من حسن الصدف أن عالم‌حاجة هنا، أدخل وقل له.

– كلا، كلا، لن أدخل، عندي مشاغل أخرى.
– والبلوف، كيف؟
– عندما ارجع...
خرج عصا الى الشارع فاغلق الصائغ الباب خلفه وعاد الى البيت. كان الضيوف مشغولين بالتحضير للبلوف: احدهم كان يفرم الجزر، الآخر ينظف الرز والثالث ينقي الزبيب.
هنا كان عالم حاجة، وهو واحد من أكبر علماء بخارى قضى ردحا من السنين في بلاد العرب وفي الهند وافغانستان حيث درس الطب والفلسفة ثم عاد الى الوطن طبيبا ضليعا غزير المعارف واسع الثقافة. في بخارى تقارب عالم حاجة بالتدريج مع الصائغ ومع كمال‌الدين مخدوم وأصدقائه. وكان هو رجلا طليعياً يفكر كثيراً بمصير شعبه ويحلم بالتنوير والتقدم.
قربه كان يقشر الجزر ويفرمه خطاط معروف في المدينة اسمه أنورجان. وكان انورجان يقرض الشعر وينشره تحت اسم مستعار هو «كاتب». صداقته مع الصائغ كانت ترتكز جزئيا على تقارب مهنتيهما: فالصائغ يشتغل بالذهب والفضة ويشتغل الخطاط بالذهب والميناء.
وكان هنا أيضاً المعلم في دباغة الجلود قاري شريف، والاختصاصي في فرو الاسترخان وفاجان.
– من أتى؟ – سأل عالم‌حاجة الصائغ.
– عصا، السقاء. قال ان كمال‌الدين مخدوم يريدكم ان تذهبوا اليه على وجه السرعة. فقلت انكم ستذهبون بعد البلوف.
– عظيم جداً، – قال أنورجان، – أي عمل مستعجل يمكن أن يكون عنده هناك؟ ربما نلعب دستاً آخر؟
– بل كلا، – احتج عالم‌حاجة. – يبدو أن الأمر خطير فعلا والا ما كان ليرسل خلفي بصفة خاصة. على كل حال لن أذهب الى أي مكان قبل أن ينضج البلوف.

– انا أعجز عن فهم كمال‌الدين مخدوم، – نوه وفاجان. – من يرغمه على اعلان نفسه مجدداً وممارسة أعمال لا تناسبه البتة؟

فقال الصائغ:

– هذه صفقة من نوعها الخاص.

وتنهد أنورجان:

– أجل، صفقة من تلك الصفقات التي يضطر الانسان لأن يعقدها مع ضميره. عندما يطفح الكيل و تثور العاصفة فان كل الذي في القاع، يتحرك، يجيش ويطفو على السطح والذي على السطح يرسو الى القاع. وهذا حال المجتمع الانساني. ماأن يضطرب حتى يظهر أمثال كمال الدين ومن لف لفهم.

اصغى الكل اليه صامتين متابعين ما يقومون به من أعمال.

– ولكن يكفي لهذا الاضطراب أن يقوى ويتحول الى عاصفة حتى يهلك أمثال كمال الدين او يتواروا خلف الأكمات بغية تجنبها بسلام والهبوط الى القاع من جديد.

وأشار قاري شريف:

– ومع ذلك يقوم فتيان بخارى بعمل طيب.

فوافقه عالم حاجة:

– صحيح، فالمهم الآن هو ايقاظ الشعب، تثقيفه، تعليمه القراءة والكتابة على الأقل.

وابتسم وفاجان بمرارة:

– تثقيفه! بل يجب أولا بأول اطعام الناس. اعثروا على طريقة لزيادة المحاصيل، أمنوا الماء لأراضي الفلاحين الجافة، اكسوا الأطفال العراة، داووهم من الأمراض، وبعد ذلك تشدقوا ما طاب لكم بالتعليم وبالثقافة...

فاعترض أنورجان كأنه يتابع جدالا قديماً:

– هذه مهمة الدولة، الامير والوزير الأول يجب أن يعنوا بهذه الأمور هذا واجب السلطات وأركان الدولة...

– أركان الدولة... – كرر وفاچان متهكماً ولم يكمل...

قاطعه جرس الباب الذي رن بقوة والحاح. قام الصائغ على عجل ومضى ليفتح. في الباب وقف ديوان بيغي* من حرس حرملك البادشاه. كان هذا رجلا بديناً ثقيل الحركة، كبير الكرش وقصير الرقبة. لحيته السوداء الطويلة، بدا أنها تبدأ من عينيه تماماً. خلفه وقف بضعة رجال آخرين.

– آ، طاهرجان، – قال هو بصوت جهور داخلا الى الفناء بدون مجاملات. – ما لك تقفل الباب في النهار، لعلك تخشى أحداً؟

فأجاب الصائغ:

– الزمن ليس هادئاً الآن. أنتم تفضلتم بالمجيء لاخذ...

– نعم، نعم، حزرت، – قاطعه ديوان بيغي. – يا غفور، هيا!..

– في البيت ضيوف، – قال الصائغ بلهجة حذرة كيلا يستاء ديوان بيغي، – سأتيكم به الآن.

– وما هذا أيضاً، – ضحك ديوان بيغي، – المعلمة في القصر، معنى ذلك أنك اتيت بامرأة؟ – متابعاً قهقهته الصارخة مضى الى الفناء الداخلي وخلفه سار حاجبه الذي كان أرهب منه هيئة.

درج الصائغ في اثرهما يعتريه القلق. كان يعرف جيداً أن ديوان بيغي أوقح من الميرشاب ذاته، وكان يخشى أن يقيم هذا الدب في بيته وعلى مرأي من ضيوفه جرسة ما.

وبالواقع، ما أن رأى ديوان بيغي التحضيرات للبلوف حتى هتف بأعلى صوته:

– أوهو! يظهر أنكم تحضرون بلوف! ويك، طاهرجان لماذا سكت! يا للبخيل! هيا غفور، اذهب وناد فرساني الى هنا، سنجلس وندردش ريثما يستوى البلوف، ولكن احسب

---

* ديوان بيغي – احدى الرتب العالية في سلك الشرطة.

حسابك، طاهرجان، وزد في الرز، نحن خمسة-ستة، والله لم يضن علينا بحسن الشهية.

نظر الضيوف اليه بارتباك. ولم يعر طاهرجان جوابا، مضى الى الكرار وعاد من هناك حاملا تاج بادشا بيبي ملفوفاً بقطعة شاش وورقة بيضاء.

— أرجو منكم المعذرة، — بأدب ودون أن يرفع صوته قال هو لديوان بيغي ماداً يديه بالتاج، — الآن يلزمكم أن تلبوا واجبكم وأن تحملوا التاج الى القصر، وغداً، ان شاء الله، وحالفنا التوفيق، تفضلوا، البلوف في ذمتنا.

— أخ، هاك كيف تتكلم معي! — احتدم ديوان بيغي وأطبق على تلابيب الصائغ، — تطردني من البيت؟ وهذا بدل أن تحمد الله على أننا نولي لبيتك مثل هذا الشرف، أنت...

— عندي ضيوف، — قال الصائغ بلهجة حازمة.

— آخ، عندك ضيوف! — طافحاً بالغيظ صرخ ديوان بيغي وهب من مكانه، راح مهتاجاً يصفع جزمته بالكرباج.

كان الحاجب غفور قد افلح في جر رفاقه فاقترب من سيده وقال له شيئاً ما بصوت خافت. أومأ ديوان بيغي برأسه والتفت الى الصائغ:

— كلا، يا عزيزي، لن تخدعنا! هؤلاء عندك ليسوا ضيوفاً. هذا اجتماع، اجتماع مجددين. والا ما كانت حاجتك في أن تقفل الباب؟ ما حاجتك في أن تطردني؟ آ؟ انظر كيف انقطف لونك!

— انظروا اليهم بالله! — قال عالم حاجة لوفاجان، — كان يكفينا ألا ندعوهم الى البلوف، حتى يضموننا الى قائمة المجددين فوراً.

— اخرس، يا كلب! — جعر عليه ديوان بيغي، — أتظن أنه يسمح لك بكل شيء ما دمت عالماً! كلا، سترى، الآن سآمر صناديدي بأن يربطوكم جميعاً، وسأرميكم في السجن.

وخرج الصائغ عن طوره:

— صه! كفى، يا حضرة ديوان بيغي! فأنا ليس من أجل أن أهان في بيتي الخاص جلست اسبوعاً كاملا أعمل في تاج سعادتها بادشا بيبي. أو تدري، ماذا...

ولم يكمل الصائغ، فقد انطلق من خلف الباب صوت فيروزة:

— عمي طاهر، المعلمة بعثتني أسألكم. ألم يشعل هذا الفظ ديوان بيغي جرسة ما في بيتها؟

من الحنق كادت عينا ديوان بيغي تخرجان من محجريهما. اندفع نحو الباب يريد أن يضرب المرأة المتطاولة ولكن غفور أمسكه. فهو كثيراً ما كان يقف حرساً في باب الحرملك وقد عرف فيروزة من صوتها.

وسمع صوت فيروزة من جديد:

— صاحبة السمو بادشا بيبي اوعزت للمعلمة أن تذهب الى البيت وأن تعرف فيم الأمر، لماذا لا يحملون تاج جلالتها حتى الآن. قالت: «انا أعرف فظاظة ديوان بيغي، فاذا أقدم على المساس بصائغي او اهانته بشيء، أو تجرأ على رفع صوته عليه، قولوا لي وانا سألقنه درساً لن ينساه طوال عمره».

امتقع وجه ديوان بيغي، ارتعدت فرائصه استند الى الجدار ونظر الى غفور بضراعة.

— أوه، نحن نعرف أن صاحبة السمو سمحة ورحيمة. — لم يفقد غفور بداهته ولفظ بصوت عال، لا وجود لأية جرسة، نحن ببساطة مزحنا قليلا.

— أجل، أجل، هذه كانت مزحة، بالطبع، — بربر ديوان بيغي متلعثما. — من فضلك اخبري المعلمة، أننا اردنا أن نضحك قليلا وليس الا... اما اذا كنا قد اخطأنا بشيء، فنرجو المعذرة... والآن استودعكم السلامة، مأكول الهناء، نحن ذاهبون...

خرج غفور أولا وخلفه درج خلانه الخائفون وكل وجهه مثل قفاه وختم الموكب ديوان بيغي ذاته. حين مر بفيروزة

الواقفة لدن الباب في ملايتها، توقف، جهد أن يعصر من وجهه المقطوف بسمة وردد مرة أخرى باستعطاف:
— بالله اذن، قولي من فضلك للمعلمة، اننا كنا نمزح.
— جربوا أن «تمزحوا» على هذا الشكل مرة أخرى وساحكي عن كل شيء لصاحبة السمو بادشابيبي. بهذا امرت الخالة قاراكول بيغي أيضاً. ولكن لا بأس، عجلوا في حمل التاج، والا فقد ينالني بسببكم ضرر.
— دقيقة واحدة وسيتم كل شيء، — قال ديوان بيغي في تذلل متملق وخرج الى الشارع.
حل الرجال في صمت طويل، وليس الا بعد أن اغلقت فيروزة خلف ديوان بيغي الباب، بدأوا يثوبون الى رشدهم.
— الحمد لله، انصرفوا، — بارتياح قالت فيروزة داخلة. — هل من عمل يا عمي؟
— أين المعلمة، يا بنيتي؟ — سألها الصائغ.
فارتبكت فيروزة بعض الشيء:
— المعلمة... المعلمة في القصر... شعرت أنا ببعض التوعك، حرارتي ارتفعت... قالت لي المعلمة أن اذهب الى البيت... واجيء... فاقترب، واسمع ديوان بيغي يصرخ... فكرت...
وضحك الصائغ:
— واذن، انت التي اخترعت كل هذا؟
— وماذا كان لي أن افعل؟ — انحرجت فيروزة.
أدرك الرجال اخيراً حقيقة ما حدث فانفجروا ضاحكين ممتدحين فطنة فيروزة:
— مرحى، يا بنيتي! — قال الصائغ بسرور. — دفعت عنا الشر. الف شكر لابيك، كنت افطن منا جميعا... والان، روحي ارتاحي. أنا سآنادي عصا، وهذا دكتورنا الموقر، سيعطيك دواء.
— شكراً، يا عمي.
صعدت فيروزة الى العلية، وقال الصائغ ناظراً الى وجوه ضيوفه المتكدرة:

– ماذا، يا أصدقاء. الحمد لله، لقد نبح الكلب وهرب. هذا ليس سببا كافيا للأعراض عن البلوف.

مساء ذات اليوم اجتمع في بيت الحائك غلامعلي ثمانية أشخاص من رفاقه في المهنة.

حيدرقول وعصا لم يأتيا بعد. وبانتظارهما كان الضيوف يحتسون الشاي، يشربون الشيشة ويتحدثون على مهلهم.

– صحيح ما يقال عن أن الفاخوري يشرب الماء من قلة مكسورة، – قال حائك عجوز. – وخذونا نحن الحاكة، اننا نكسو الجميع بالحرير والأطلس بينما نرتدي نحن أرواباً من الساتين والشيت. فماذا لو يتفق كل حاكة بخارى على أن يعملوا اسبوعاً كاملا لأنفسهم فقط. سنخيط لأنفسنا أرواباً حريرية ونتمختر فيها.

– تتكلم وكأن كل شيء موجود عندنا، ولا تنقصنا الا الأرواب الحريرية!

ولاحظ آخر:

– بطنك خاوية، ولا يوجد في جيبك تانغا واحدة ولكن كبرياءك، على ذلك، تبلغ السماء.

سمعت طرقات على الباب فاندهش الجميع وتبادلوا نظرات حائرة. كان من المنتظر أن يأتي عصا والضيف عبر الفناء المجاور، من جهة الحصن. فمن هذا الذى يقرع باب الحائك في هذه الساعة المتأخرة؟ فتح غلامعلي الباب ورأى أمامه عصا وحيدرقول. اراد ان يسألهما لماذا لم يأتيا عبر الفناء المجاور ولكن عصا سبقه وهمس:

– هس!

دخلا عبر خوخة البوابة فسأل عصا:

– كيف، هل التم الجميع؟

– بلى.

– ماذا قلتم لهم؟

— كما أمرتم. قلت انه سيزورنا ضيف من بلاد فارس، رجل حكيم، معروف...

— صحيح! — قاطعه حيدرقول. — وهكذا قل لاحقاً: فارسي من مشهد. واعظ ديني، حاج زار مكة.

— حسناً! — قال غلامعلي ومضى الثلاثة الى الغرفة.

استقبل المجتمعون الضيف وقوفا، حيوه بوقار، اجلسوه في مكان الشرف وجلس عصا في مكان اوطىء.

— الهي، — قال حيدرقول رافعاً يديه بالدعاء، — اشمل برحمتك أعمالهم وبيوتهم وابسط لهم في أرزاقهم. اللهم، امنح لهم طيب الذاكرة ووفير الصحة وادفع عنهم العوز والأمراض، يا حليم، يا رب العالمين. آمين!

— شكراً لكم! — رد محمد صالح باحترام وقال: أهلا وسهلا.

— بارك الله فيكم، أشكركم على ترحابكم وحسن استقبالكم، — قال حيدرقول، مطأطئاً رأسه في خشوع وبعد برهة صمت تنهد وتابع: — يا أخوة الايمان، يسعدني أن ارى هنا أولئك الذين يتعطشون لسماع كلمة الله الحقة. ولكن الله عز وجل لن يفتح لنا أبواب حكمته ان كان يوجد بيننا أناس دنسو الروح غير جديرين بأجدادهم، باسم الله العزيز الحكيم نسأل من جاء هنا بنوايا خبيثة أن يترك هذا البيت، فليس له مكانا بيننا، وليس عندنا نحن التواقين الى الله مكاناً له.

تلفت الجميع مدهوشين، وكانت دهشة رب البيت عظيمة بصفة خاصة. فهو لم يتوقع مطلقاً أن تأخذ الامور هذا المدار.

— أمن المعقول أن يكون بيننا وغد من هذا النوع! — هتف هو متشككاً. هنا اجتمع معلمون شيوخ، مؤمنون يخافون الله، أناس يخشون أن يجروا على انفسهم الذنوب.

فأجاب حيدرقول:

— لقد كشفت لي العناية الالهية أنه ثم بيننا رجل غير

طاهر. رجل باع ضميره أما خوفاً من أحد أو طمعاً بمال أحد وجاء هنا كي يدس ويشي بنا.

– يا عفو الله! – هتف محمد صالح بهلع. – أيعقل أن رجلا كهذا بيننا؟

فقال حيدرقول:

– ان كيد الشيطان عظيم. وعلى كل حال، ما دام الكل صامتين، سنجري اختباراً ولن نترك مكاناً للشكوك. ولكن، لا تنسوا، يا أصدقائي، ان الشك هو الطريق الى الحقيقة ونور اليقين. اجلب بالله طاسة ماء، يا صديقي، غلامعلي.

هز غلامعلي ردفيه متردداً ونظر الى عصا. أومأ ذاك برأسه مؤكداً فقام الحائك وأتى بطاسة ماء.

وضع حيدرقول الطاسة قربه في مكان يراه الجميع ثم أخرج من عبه ظرفاً ورقياً، أخذ منه نتفة من مسحوق أحمر ورماها في الماء.

– هذا، يا اخوتي عرق مقدس، – قال هو بمهابة، – ليشرب كل منكم جرعة من الماء وبعد عدة دقائق سيطفح وجه الواشي بالنار وستتألم كل أحشائه. فاذا أراد أن يحافظ على حياته بعد هذا عليه أن يعجل فيعترف بذنوبه ويغادر هذا المجلس، والا فان الله سيخطف روحه.

أحس الجميع بحرج بالغ وهم يشربون من الماء الغامض تحت نظرات حيدرقول النابهة. خيم على الغرفة السكون. كان حيدرقول يحدق في وجوه الجالسين ملياً، وكان الجميع ينظرون الى بعضهم البعض. لكنه كان من المتعذر تبين شيء في ضوء المصباح الشاحب. مرت دقيقة، تبعتها أخرى. صار الصمت متوتراً. وفجأة خار عزم حائك ذو شنب طويل كان يجلس في الركن فأقر:

– يا فضلية الحاج، مذنب أنا مذنب، سامحوني، ارحموني! – عال هو مستيئساً مسترحماً وارتمى على قدمي حيدرقول.

رفعه حيدرقول وسأله بصوت هادىء:

— قل، من أمرك بالقدوم الى هنا. قل الحق، فالاعتراف يمكن أن ينقذ حياتك!

— معلمي عبدالله باي... عصا يعرفه، فقد كان في الماضي جاراً لغنيجان باي... هو الذي أمرني بالمجيء الى هنا وبأن أحكي له فيما بعد عن كل ما أسمعه...

وصمت الرجل واضعاً يديه على بطنه.

— طيب، يا أخي، — قال حيدرقول، — أنا أثق في صدق توبتك وندمك على ما ضمرته من نوايا خبيثة، أنا واثق من أنك لن تسمح بعد الآن لكل هؤلاء العبيد اللهبايات أن يخدعوك. فليغفر الله لك ذنوبك أما نحن فقد غفرناها.

وأخرج حيدرقول من عبه ذلك الظرف الورقي ذاته، رمى نتفة أخرى منه في الماء وأعطى الطاسة لأبي شنب كي يشرب بلعة ثانية. شرب الحائك وكف عن الامساك ببطنه، أشرقت عيناه من جديد.

— والآن انصرف، — قال حيدرقول بحزم. — واذا سألك عبداللهباي قل له ان رجلا اسمه حاجيبابا جاء من مشهد ومن الحجاز، وانه دعا المؤمنين الى الصلاة والى عمل الخير.

— سأفعل ما تأمرون! — وجثا الرجل عند قدمي حيدرقول. — حسبي فقط أن تغفروا لي ذنوبي.

— نحن لسنا حقودين، اذهب مع السلامة.

انصرف أبو شنب يرافقه رب البيت، وحين عاد الأخير أوعز حيدرقول لعصا أن يخرج ويلقى نظرة ان كان كل شيء حول البيت هادئاً.

— هل ترون، يا أصدقائي، أي ناس يوجد في هذه الدنيا! ينبغي علينا أن نكون حذرين جداً.

وسأل غلام علي الحائر:

— ما هذا الذي جرى، وكيف حدث؟ لست أفهم شيئاً.

— الآن بوسعي أن أحدثكم عن كل شيء، لم يعد بيننا من نخشاه. واذن اسمعوا، يا أصدقائيء أنا لست حاجاً ولا

ماجاً، كما انني لا أفهم في السحر ولا في الصلوات. أنا رجل فقير الحال مثلكم تماماً.

— غفرانك، يا رب، أراد يكحلها فعماها! — هتف محمد صالح وأضاف، — كيف اذن أرغمت هذا الواشي الأحمق على الاعتراف؟

— لقد ساعدني البلاشفة في هذا!

واندهش صاحب البيت:

— كيف، البلا شفة؟

— أجل، أجل البلاشفة، — كرر حيدرقول. — فهم ذوو خبرة كبيرة في هذه الأمور. قالوا لي: «اذهب الى بيت غلام علي ولكن كن حذراً، حاول في البداية أن تعرف ان كان ثمة واش ام لا». وكما رأيتم، تسنى لي أن أكشف عنه الستار. ولو انه بقي ونقل الى عبدالله باي احاديثنا لكانت العاقبة وخيمة.

وطال الحديث في تلك الليلة بالرجال الذين التموا في بيت الحائك غلام علي...

في طريق العودة الى بيت المعلمة طنبور أعرب عصا عن اعجابه لحيدرقول:

— مرحى لك، يا عم، مرحى، ما أشطرك! ولكن أين تعلمت هذا السحر؟

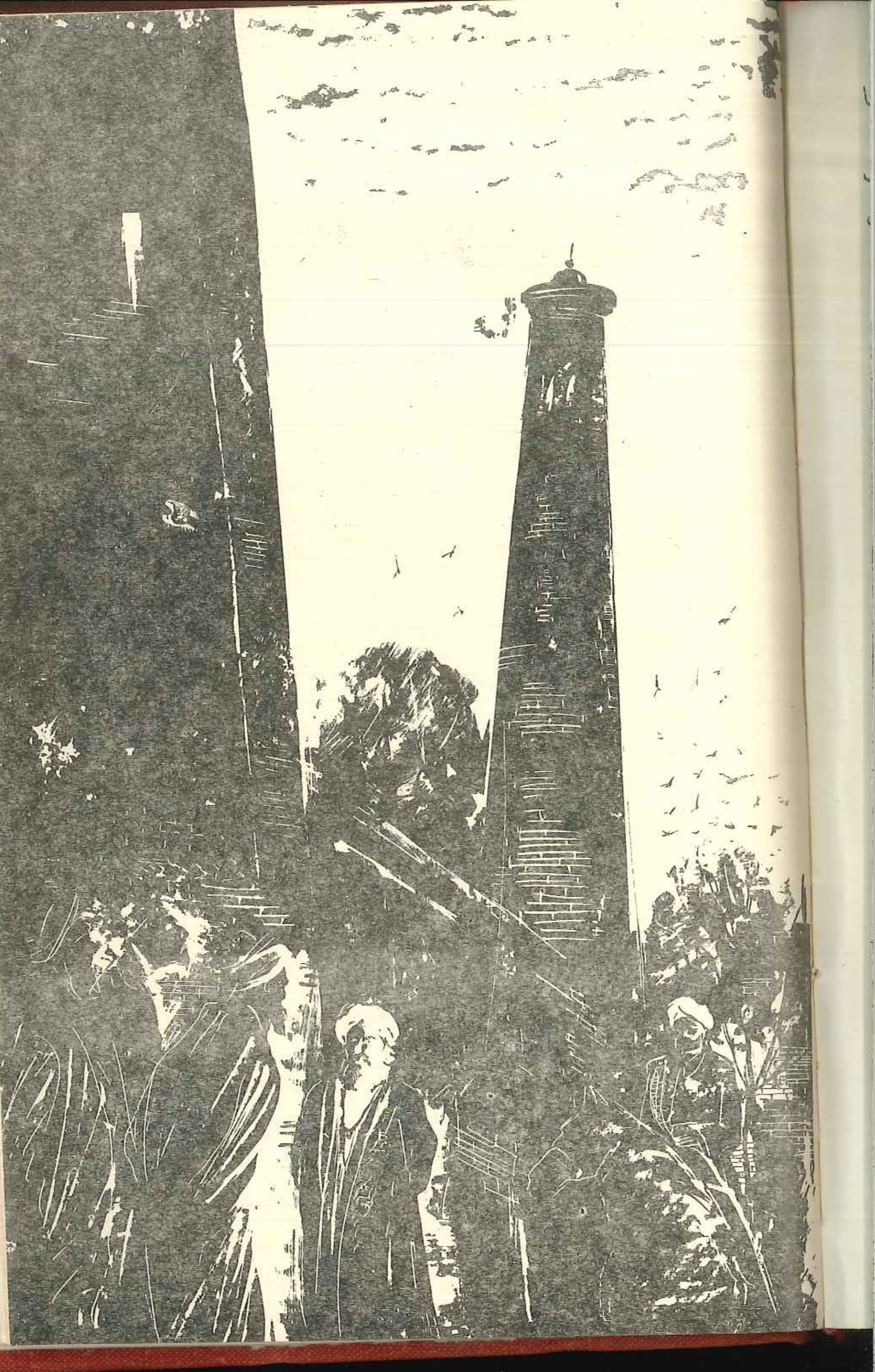
وضحك حيدرقول:

— ليس هذا من السحر بشيء. هاك، شم، — قال هو مناولا لعصا الظرف الورقي المملوء بالعقار العجيب. — لا تخف، شم، هذا فلفل أحمر مدقوق من ذاك الذي تضعه في البلوف عادة.

— واذن، ما الذي جعل عبدالسلام يعترف؟

فضحك حيدرقول وأجاب:

— سيىء حال المرء حين يكون ضميره ملوثاً.



في يوم من أواخر أيام نيسان سنة ١٩١٧ عجت ساحة الريغستان بحركة ونشاط غير مألوفين.

ذاعت في المدينة شائعة مفادها أن الأمير أقام مساء الأمس وليمة في الجزء السفلى من المدينة وانه قد أمر اليوم باقامة وليمة أخرى في مضافة رحيم-خاني.

لم تكن الشمس قد بزغت الا وكان السقاة قد رشوا بالماء سخياً ساحة الريغستان والأسواق والأرواق التجارية المجاورة وكان الكناسون قد نظفوا الشوارع المحيطة بالقصر. كانت بوابة «الأرك» قد فتحت باكراً في ذلك اليوم وعلى المصاطب القائمة قرب البوابة كان قادة الشرطة وامراء الجيش وغيرهم من ذوي الرتب العالية قد شغلوا أماكنهم.

وفي الجانب الجنوبي لمدخل القصر، مقابل شرفة غنية الزينة والزخرف تفضي أبوابها الى المضافة، وقف الدعاة والسعاة يحملون عرائضهم. كانوا يأملون بأن الأمير سيتوقف على الشرفة ويتكرم بالاستماع الى شكاواهم ومطالبهم.

علي جانبي الريغستان، قرب جدران مسجد بايانه ومدرسة دار الشفاء قبل من الصباح المتعطلون الفضوليون مع أنه لم يكن بينهم من يعرف على وجه اليقين ماذا سيحدث اليوم وماذا ينتظر.

كانت الشمس قد ارتفعت عالياً حين لاح من جهة حوض المياه، السقاة الذين ساقوا حميرهم المحملة بقرب الماء. شقوا طريقهم عبر حشد المتعطلين ووصلوا الى الجسر، الى حيث يبدأ مدخل القصر الشديد الانحدار. هنا تنشنش السقاة وحثوا حميرهم صارخين عليها بأصوات عالية لاكزينها بعصيهم. كان الحراس يعرفون السقاة فلم يعترضوهم وتركوهم يدخلون من البوابة دون معوقات.

– جوراباي، وا جوراباي، ما السبب في اجتماع كل هؤلاء التنابل هنا؟ بل وانظروا، حتى الرؤساء والبؤساء هنا مثل الجراد... ماذا سيجري؟ – سأل سقاء شاب رفيقه الأكبر.

وأجاب جوراباي:

– الله اعلم. لا أخال الا أن واحداً من عبيدالله سيفقد رأسه قبل الأوان. وشرح سقاء كان خلفهما:

– سيقدم المسكين قرباناً على شرف وصول صاحب الجلالة.

وما كانوا قد بلغوا المسجد حين جرى للقاءهم مسرعين نحو بوابة الأرك حراس الوزير الأول.

انعطف السقاة الى شارع الحرملك، مروا بالحرس وساقوا حميرهم الى فناء الحرملك الخارجي. هناك نزعوا عن البهائم أحمالها، ووضعوا القرب على مصطبة مرمرية نصف دائرية. بعد ذلك أخرجوا الحمير وجلسوا قرب الجدار من الخارج كي يأخذوا قسطاً من الراحة.

بعد بضعة دقائق جاءت هنا ست نساء شابات فوضعت كل واحدة على ظهرها قربة ومضت الى الحرملك ترزح تحت ثقلها.

كان على فيروزة وخديجة التي كانت عريفة على جميع النساء – السقاة أن تمونا بالماء المطبخ والحرملك الذي كان يسمى «الحمام». هنا كانت تعيش النساء والفتيات المخصصات للأمير كعطايا.

الآن كانت فيروزة تحمل الماء الى المطبخ. هناك قامت ثلاثة أزيار كانت على حجم كبير بدت معه وكأنها بلا قرار. اضافة الى هذه الأزيار كان عليها أن تملأ بالماء قدراً كبيراً لأجل البلوف وسماوراً لا يصغره حجماً. ولم تكن حاجة «الحمام» من الماء أقل.

لم تكن في «الأرك» مياه جارية، وكان الماء اللازم لثلاثة آلاف شخص يحمل الى هنا في القرب. طيلة النهار، من الصباح وحتى المساء كان السقاة يحملونه على حميرهم،

ثم توزع النساء القرب على مرافق الحرملك المختلفة.
...ها قد مر أسبوع منذ صارت فيروزة تعمل هنا، حبذ حيدرقول قرارها ووافقت فيروزة بمنتهى السرور على حمل القرب الثقيلة. كانت تمازح عصا قائلة: «أنا الآن أعلى منك. أنت تحمل الماء الى بيوت عامة الناس، أما انا فأحمله الى حرملك الأمير ذاته، الى صاحبة السمو أم الأمير والى حاشيتها».
وعلى كل حال لم يكن العمل الشاق يضايق فيروزة كثيراً فهي قد اعتادته منذ نعومة أظافرها. وقد خفف عنها أنها استطاعت أن تجد هنا صديقات. وبصفة خاصة كانت تحسن معاملتها خديجة التي تعمل هنا ست سنوات والتي درست جيداً كل دقائق وتعقيدات حياة الحرملك. كما وتصادقت فيروزة أيضاً مع الطاهيات ومعاوناتهن وتلميذاتهن وتعرفت عن كثب على حياة ساكنات حرملك «الحمام» هؤلاء البائسات، ضحايا شهوات الأمير الحيوانية. كانت تستمع الى قصصهن المفجعة الأليمة وتحاول قدر وسعها أن تسري عنهن...
في هذا اليوم كانت فيروزة متخلفة عن صديقاتها قليلا تسير الهوينا نحو الحرملك المركزي فلحقت بها امرأة جسيمة البدن كانت تنوء بثقله وتتعالى أنفاسها. عرفت فيروزة فيها محرمة غارتش فنادتها:
— ست محرمة! ما بالك هكذا تمرين حتى دون أن تلتفتي صوبي.
— آه، هذه أنت فيروزة؟ — التفتت محرمة اليها فوراً. — مرحباً، مرحباً، أرى أنك وجدت عملا جديداً، اهنئك، وهل من زمان؟
— منذ ذلك اليوم، حين طردتني مغفرات من البيت، وطردتني ابنة زوجها من العمل.
— هل ترين، صحيح اذن ما يقال: حسبنا الله نعم الوكيل. من الجيد أنك ناديتني... لقد بحثت عنك في كل مكان، ثمة ما أريد قوله لك. ولكن الوقوف هكذا صعب عليك، انزلني القربة لدقيقة... الحديث سيكون جاداً.

انحنت محرمة على أذن فيروزة وحدثتها همساً عن أن زمان بيك قد قرر القضاء على جميع المجددين، وعن أن مغفرات قد ألبته على عصا زاعمة أنه مجدد أيضاً. وهم يريدون القبض عليه هناك في زيرآباد، في اجتماع المجددين يوم الأحد.

— ولكن حذار، يا بنيتي، ان تقولي عن ذلك لأحد، اياك والا هلكت واهلكتني معك. — سرت لها محرمة وأضافت: — كوني حذرة وقولي لزوجك ألا يذهب غداً الى مكان. انا واثقة أنه ليس لزوجك علاقة بهؤلاء المجددين. ولكن المحترس يحرسه الله.

— تقولين — زيرآباد؟ — مطت فيروزة الكلمات. — ولكن أي عمل لهم هناك في زيرآباد؟

— لا أعرف، يقال انهم سوف يتآمرون مع الروس. ولكن تذكري، ياابنتي لا تقولي لأحد كلمة عما حدثتك به، الاوقات حالياً قلقة... ان وجدت وقتاً مري علي في الحمام، هناك سنتكلم.

ذهبت محرمة وبقيت فيروزة في مكانها متكدرة حائرة. وبعد برهة حملت القربة على كتفيها ودرجت الهوينا نحو الحرملك المركزي... صحيح أن حيدرقول يسافر كثيراً الى زيرآباد وكاغان، وصحيح أن أناساً يجتمعون هناك ويأتمرون... غير أن حيدرقول لم يحدثها أبداً عن أسباب هذه السفرات... ولكن ما دام زمان بيك قد حدد اليوم والساعة بهذه الدقة، ما دام متأكداً واثقاً بهذا الشكل الراسخ فمعنى ذلك... كلا، كلا! لا يجوز السماح بوقوع ذلك. ينبغي ابلاغ حيدرقول بالأمر على وجه السرعة. بيد أنها لا تستطيع أن تترك عملها وتنصرف. فما العمل اذن؟ يجب عليها أن تبكر قدر الامكان في الذهاب الى البيت، وان ترسل عصا الى كاغان. لا يوجد مخرج آخر...

وقطع صوت خديجة حبل أفكارها:

— ما بالك هكذا، بالكاد تجرين قدميك؟ هل حدث شيء؟

فابتسمت فيروزة:
– وماذا، هل تأخرت؟ لقد التقيت هنا امرأة أعرفها. تكلمنا قليلا وتأخرت.
– طيب، طيب. انا ببساطة فكرت أنك تعبت أو ربما تشكين من ألم. افرغي القربة في المطبخ واذهبي الى الفناء الخارجي فارتاحي قليلا. بعد ذلك احملي الماء الى «الحمام» أما المطبخ فبوسعي أن ازوده بالماء لوحدي. هناك في «الحمام» يبكون، يقولون انه لم يبق عندهم ماء بالمرة.
– حسناً، – قالت فيروزة وتابعت طريقها.

في المطبخ كان العمل في عزه. الكل يشتغل، الطباخات والطاهيات والتلميذات، جميعهن كن منهمكات، يفرمن الجزر، يقطعن البصل واللفت والقرع، ينظفن الرز، يغسلن القدور، يجلين الآنية، ويرمين الحطب في الموقد. وكانت تشرف عليهن جميعاً. جالسة على صندلية الكانون، كبيرة الطاهيات تلك المرأة البدينة الثقيلة الحركات التي كانت بصوتها الذي يهدر كالرعد، بوجهها المستدير، وبعينيها الصغيرتين العديمتي اللون تلقي الروع في قلب كل من يراها أول مرة. ولكنها رغم صراخها وتهديداتها الدائمة كانت امرأة رقيقة الحاشية، طيبة وعادلة.
– وها هي حوريتنا تحمل لنا الماء، – قالت هي وقد رأت فيروزة.

– أين أنت، لقد افتقدناك، الأزيار فارغة ليس فيها قطرة. أو لعلك جائعة، هل تريدين طعاماً؟
فشكرتها فيروزة:
– كلا، شكراً، لا أريد. ولكن لو تعطني على العشاء قليلا من الالية المقلية، لدعوت الله من أجلك.
– تحبين الالية المقلية؟
– جداً.
– وما الخطب، تعالي مساء، ساعطيك صحناً كاملا.
أفرغت فيروزة قربتها ومضت الى الفناء الخارجي.

فتحت البوابة، ناولت القربة للسقاة وجلست على المصطبة قرب صديقاتها.

كل النساء السقاءات، باستثناء فيروزة وخديجة كن يعشن في الغرف السفلية من حرملك «الحمام». وجميعهن أرسلن الى هنا من الأمصار والولايات كهدايا من السلطات الريفية لأم الأمير، ولكنهن لم يكن على جمال كاف فلم يقعن في حريم الأمير وبقين هنا خادمات. كان العذاب والأسى في حياتهن أكثر بكثير من الماء الذي يحملنه كل يوم.

وهذه قصة واحدة منهن، ابنة كاتب من كتاب حاكم قاراتاغ. ورثت الفتاة عن أبيها حب الشعر، وكانت هي نفسها تقرض الشعر وتشتهر في مسقط رأسها كشاعرة.

كان اسمها موجيجول، اي موجة الورود، ولكنها فقدت اسمها هذا منذ صارت جارية في حريم الأمير، صاروا يدعونها «القاراتاغية» وحسب. أبوها ميرزا لطيف كان كاتباً في ديوان حاكم قاراتاغ. وقد اضطر للعمل هناك اضطراراً وليس اختيارا. وكان هذا رجلا حلو الشمائل لين الجانب يفلح أرضه الصغيرة ويزرعها وفي أوقات الفراغ كان يكتب الشعر وينظم الأغاني.

وها كم مثلا:

من يزرع الشرور، من أثملته السلطة
لن يعرف النعيم ولن يرى المسرة
من يظلم المسكين، من يغبن الفقيرا
ستسقه الأقدار كأس العذاب المرة

غادرت بيتي آمنا بالويل لا أفكر
فهاجمتني بغتة من «الكلاب» زمرة
لو كان عندي أسهم، لو امتلكت قوساً
لكنت قد ثأرت من الطغاة الكفرة!...

كان المتعلمون في قاراتاغ ذلك الوقت قلة. فأخذ الحاكم ميرزا لطيف الى ديوانه عنوة. وقد قاوم هذا في البداية وتمنع ولكنه وافق في آخر الأمر آملا أنه قد يستطيع بشيء أن يساعد الناس الذين تضطرهم الحاجة للتوجه الى ديوان الحاكم طلباً للمساعدة. كان يكتب العرائض للفقراء مجاناً، وكان يسعى لاعانتهم حيثما وجد الى ذلك فيضاً، أما في أوقات الفراغ فكان يدأب على كتابة أشعاره في ذم سلطة المالكين واستبدادها وفي هجاء الحكام والقضاة ومن لف لفهم.

قام بيت ميرزا لطيف على ضفة نهر صغير. وبمواجهته على الضفة الأخرى قام بيت فاخوري كان له ابن لا يكبر موجي جول بالسن الا قليلا. أحب الشابان بعضهما الآخر. وكان الفتى يستغل كل سانحة لعبور النهر الى الضفة الثانية ورؤية محبوبته. كان يهدي لها اباريق جميلة ملوية الزلاليم، أباريق للماء وأكواباً وصحوناً. وعلى كل من هداياه كان يكتب بخط عربي أنيق ورفيع اسم موجي‌جول. أما الفتاة فكانت تجيبه على ذلك بابتسامة حنونة ونظرة ودودة وبالأشعار أيضا وبالاغاني..

كان الوالدان على علم بهذا الحب وكانا يعدان العدة للاحتفال بعرسهما.

ولكن صيت الفتاة المتعلمة التي يردد الناس قصائدها ويغنون أغانيها بلغ مسامع كبير الكتاب في الديوان فأغرم الشيخ بالفتاة حباً وتقدم لخطبتها.

لكن ميرزا لطيف رده خاسراً.

أثار هذا الرفض ثائرة الكاتب فأرسل ابن الفاخوري الى العسكر، الى بخارى، وبعد ذلك أرسل الخطاب ثانية الى بيت ميرزا لطيف. غير أن ميرزا لطيف الممتعض لما حل بابن الفاخوري من تنكيل لم يسمح للخطاب بدخول داره وفي تلك الليلة اياها هجا كبير الكتاب بقصيدة وقعت في يده بعد يوم واحد:

في عز الصيف، والدنيا قيظ،
الشتاء علينا حل.
فجأة من خلف طاولة الكتابة،
رأسه الأبيض هل،
وعلى كبير الكتبة يفح بردا.

لا غرو أن الكل في الديوان مدهوش، بلى،
انه أمر عجيب!
من ذا الذي، عن حق، في الديوان مجنون أريب؟
من صاحب الذقن الطويلة حيث يلتمع المشيب،
وعلى كبير الكتبة يفح بردا...

آ، يا عجوز النحس، تحلم أن تنال صبية؟
تقول انك قد سئمت عجوزتك؟
يا للصبا المتأخر! أضاع عقل الشيخ، اغواه،
وعلى كبير الكتبة يفح بردا.

آيا عديم العقل مأواك القبور، فلا تطيل!
أضعت عقلك، لن يساعدك طبيب،
الا ملاك الموت عزرائيل! حل الشتاء،
وعلى كبير الكتبة يفح بردا!

في هذه المرة ابتسم كبير الكتبة ابتسامة صفراء وحسب. ارتدى جبة جديدة ومضى الى بيت الحاكم. قرأ على سيده القصيدة الهجائية ولكنه استطاع أن يحورها بحيث بدا وكأن المقصود فيها هو الحاكم ذاته. وزاد في الطنبور نغماً ما أضافه مقربو الحاكم الذين كرهوا ميرزا لطيف لوقوفه عثرة في طريقهم. استشاط الحاكم غضباً وفي النتيجة نهب بيت ميرزا لطيف وسبيت ابنته وزوجته فأخذتا الى بيت الحاكم ومن هناك أرسلت موجيجول الى بخارى بصفة هدية للأمير.

مرضت موجي‌جول طويلا يضنيها الحنين والأسى، ولم ينقذها من الموت الا عناية وحنان خديجة والنساء الأخريات.

كانت قصائدها وأغانيها وموشحاتها تخفف عن السبايا وتزين حياتهن، وخوفاً من أن تضم الفتاة الى حريم أحد الوجهاء أو القادة اقنعن خديجة أن تأخذها اليها. وها هو عام قد مر وموجي‌جول تحمل القرب الثقيلة وتبكي قسمتها بأغاني شجية حزينة...

– اقرأي لنا شيئاً، – سألتها خديجة حين جاءت فيروزة. – على الأقل تلك التي كتبتها اليوم ليلا. يعجبني جداً سماع قصائد الحب. فانا لم أعش مع زوجي الشاب الا ثلاثة أشهر، ومنذ أخذوه الى العسكر لم تر عيني وجه رجل. هلمي، يا اختي، اقرأئي، بالله، اقرأئي.

أخرجت موجي‌جول من عبها صحيفة ورق وراحت تقرأ بصوت عميق يتهدج قليلا:

أكتبوا عني لخلي عن معاناتي وذلي
«انها في الدمع تصلي» أكتبوا عني اليه

كيف تكوي النار قلبي كيف يفري الحزن صلبي
بعبارات شفوقات كحبي أكتبوا عني اليه

كيف اقضي الليل سهداً مهجتي تطفح وجداً
ضاقت الدنيا وصار الباب حداً اكتبوا عني اليه

– مرحى لك، – قالت خديجة متنهدة. – انها تأخذ بمجامع القلب. كأنها كتبت عني انا... واين تجدين هذه الكلمات... ما أملسها وأجملها وأنعمها. أحسنت، أحسنت جداً، لقد حملت القصيدة كل أحزانك وكل أشواقك...

راقت أشعار موجي‌جول لفيروزة جداً جداً، ذكرتها

السنوات الخوالي، سنوات الدراسة مع شمسية، ومصير شمسية الرهيب.

– لا تحزني، يا موجيجول، لا تبكي، فالعالم يتغير أيضاً. سيأتي يوم ونزغرد انا وانت، سيأتي، كما يقال، يومنا الأبيض.

بعد انتهاء العمل تلفعت فيروزة بالملاية، وضعت في عبها صرة الأكل التي أعطوها لها في المطبخ وهرعت الى البيت.

كان عصا بانتظارها. أفضت له فيروزة بالحديث الذي جرى بينها وبين محرمة غارتش.

اكفهر عصا وقال:

– يبدو أن هذه اللعينة مغفرات لن تكف عن الحاق الأذى بنا. ولكن كيف تسنى لهم أن يعرفوا بأن المجددين سيجتمعون في زيرآباد؟

فجزعت فيروزة:

– واذن هذا صحيح؟

– صحيح. لقد طلب حيدرقول مني أن أقتاد الى هناك كمال الدين مخدوم وبعض أشخاص آخرين.

واعترى فيروزة القلق:

– اذن يجب أن ننبههم على وجه السرعة.

– بالطبع، – أكد عصا فوراً. – لقد قرر حيدرقول تنظيم هذا اللقاء بطلب من الأخ مخصوم. يجب علي أن أعجل، اقضي الليل عند المعلمة فانا قد أتأخر في العودة.

– حسناً، حسناً – قالت فيروزة ناهضة مع زوجها. – فكر بنفسك، كن حذراً ولا تقلق علي.

أوصدت فيروزة خلف عصا الباب، دعت له وبعد أن سلمته للعناية الالهية عادت الى الغرفة.

وقد جد عصا في سيره لكنه مع ذلك لم يبلغ حي ميردستيم الا وكان الليل قد جن وكان المؤذنون قد نادوا لصلاة العشاء، وحين وصل الى بوابة قوال، وجدها مغلقة.

فقفل عصا راجعا يعتريه اليأس. وصل الى ضفة «شهرود» فقعد على مصطبة حجرية وراح يفكر: ما العمل؟ هل يعود الى البيت ويحاول في الصباح أن يحذر أصدقاءه؟ كلا، فهو قد يتأخر. والأرجح أن اتباع زمانبيك سوف يراقبون نواحي زيرآباد والطريق الى كاغان منذ الصباح. واذن يجب أن ينبههم هذا اليوم ومهما كلف الأمر، ولكن كيف؟

وتذكر عصا كيف تسنى لحيدرقول ذات يوم أن يتوارى في مجرى «شهرود» عن رجال الميرشاب.

تجري قناة شهرود من تحت الحصن وتمر بين بوابتي قوال و «مزاربخارى». هناك حيث تدخل القناة المدينة لا وجود للشوارع والساحات بل مجرد دور شبه مهدمة وجدران ترابية متداعيه تحف بالقناة من كلا جانبيها.

تسنى لعصا أن ينزل الى النهر بشكل غير ملحوظ، أن يمر عبر الشبكة الحديدية الى النفق ومن هناك الى الجهة الثانية من الحصن، الى خارج أسوار المدينة. لاحقاً مر طريقه عبر المقبرة الكبيرة. كانت المقبرة مرعبة، وتعالى عواء أبناء آوى. وسار وبدا انه لن يكون للمقبرة نهاية، ولكن ها هي السكة الحديدية قد لاحت.

لم يكن في المحطة قطار. وليس الا في منحى عنها، هناك قرب المخازن، تحركت قاطرة واحدة كانت تجر لاهثة عدة عربات فارغة.

— أمان، — صاح عصا جزافاً عندما مرت القاطرة به.

— عصا، هذا انت؟ — اندهش أمان محدقاً في العتمة. — ماذا جاء بك والدنيا ليل.

— قضية مستعجلة، — قال عصا صاعداً الى أمان، — يلزمني أن أتكلم معك.

واجاب أمان:

— اجلس موقتاً على الصندوق. الآن أنتهي.

ومستمعاً الى صفارة «القطرجي» كان أمان يقود

القاطرة الى الأمام تارة وتارة الى الخلف دافعاً العربات الى أن صف جميع القاطرات الفارغة في صف واحد.

— والآن دعنا نتكلم، — قال أمان وهو يمسح يديه بخرقة.

نقل عصا اليه كل ما سمعه من فيروزة فقال أمان:

— لنسافر الى كاغان. سنذهب الى بيتي، هناك يجب أن يكون حيدرقول وعمرجان. وقد نجد سميرنوف أيضاً.

بعد عدة دقائق أقلع أمان بقطاره نحو كاغان. انتعش عصا قرب صديقه وتشجع حتى انه راح يدندن بنغم ما على ايقاع عجلات القطار.

كان أمان على حق، فقد وجد عصا في بيته حيدرقول وعمرجان وسميرنوف، بل ورفيقين آخرين من عنبر التصليح.

— هل ترون كم علينا أن نكون حذرين مع هؤلاء المجددين، — قال سميرنوف غاضباً وقد سمع الخبر. — الظاهر أن الخونة كثيرون بينهم. أعتقد أنه على حيدرقول أن يتوجه غداً الى بخارى ... بل كلا، الأفضل أن يذهب عصا الى أكا مخصوم ويقول له أن يأتي الينا. هنا سنشرح له كل شيء.

— أنا المذنب هنا — قال حيدرقول مغتماً. — كان علي أن أتحقق من نظافة ممثلي الولايات بنفسي، أما انا فقد أوكلت كل هذا للأخ مخصوم.

— وعبثاً. الأخ مخصوم لا يملك خبرة في هذه الأمور. انه وثوق على العموم، أما ثقته بالمجددين فمطلقة.

وقال سميرنوف:

— الوقت الآن، يا رفاق، عصيب وحار. الجنود في الخنادق يتآخون و يتعاضدون، يطالبون بانهاء الحرب. العمال والفلاحون يهبون للنضال، لا يريدون الموت جوعاً بعد اليوم. عرش الرومانوفيين يهتز والأمير عالمخان لن يستطيع الصمود. انه يشعر بذلك، ويشعر بذلك أعوانه

أيضاً. والسفارة القيصرية تطلعهم على تطور الأحداث وتعلمهم كيف ينجون بجلودهم.

وقام حيدرقول من مكانه بحزم:

– واذن سأسافر انا الى المدينة، هذا أفضل. غداً من الصباح سيشرّف زمانبيك مع رجاله الى زيرآباد وكاغان. لا يجوز لمخصوم أن يأتي هنا.

– ولكن كن حذراً. انا واثق من أن زمانبيك قد وضع رجاله حول بيت مخصوم.،.

١٠

ها قد مرت عشرة أيام مذ قالت مغفرات لزمانبيك أن عصا يرتبط بالمجددين، وحتى الآن لم يتغير شيء، ما زال عصا على سابق عهده يحمل قرب الماء بانتظام. ومغفرات تخرج عن طورها، انها تتحرق في انتظار تلك اللحظة حين يسوقون عصا قرب دارها موثوق اليدين. كم كانت ستستمتع بذلك المشهد! كانت سترميه بالحجارة وبعد ذلك سيكون بوسعها أن تذهب الى بيت المعلمة طنبور وتضحك على فيروزة حتى تطق...

ولكن زمانبيك جبان، انه يماطل ويتردد، يخاف من شيء ما. لو كانت في يديها مثل هذه السلطة لكانت عرفت كيف تتخلص من أعدائها، كيف تنكل بهم. كانت ستري الويل لكل شخص يحاول أن يخرج عن طاعتها! لكنها للأسف مجرد امرأة، ليست في يديها أية سلطة ولهذا يسعى عصا حراً طليقاً.

امتثل أمامها وجه عصا واضحاً وكئيباً، رأت عينيه الكبيرتين الحزينتين... واعتورها الشك فجأة: «هل كانت ستقوى على قتله، على زجه في السجن، لعلها أخطأت اذ تصرفت بتلك الحدة وطردت عصا. ماذا نالها؟ لا شيء. سابقاً، حينما كان يحمل اليها الماء كانت تراه على الأقل، والآن حرمت حتى من هذا. ربما تذهب

الى المولى اليهودي وتشتري منه تميمة؟ لعل التميمة تؤثر على عصا وتجعله يبرد نحو فيروزة؟ أملها ضعيف في ذلك... ولكن لم لا تحاول؟ ستذهب اليوم حتماً الى المولى اليهودي. ولكنه يلزمها أن ترى عصا والا فان التميمة لن تؤثر عليه.

امتصت من الشيشة نفساً عميقاً، وضعتها جانباً وقامت من مكانها.

— شرفات، يا شرفات، — نادت مغفرات لخادمتها، — اسرعي الى حوض المياه وتعالي بشهبندر السقاة الى هنا.

بعد ذلك دخلت الى الكرار، تناولت زجاجة النبيذ اليهودي، اترعت منه كوباً، اجترعته وتلمجت بقطعة خبز مجفف.

عندما عادت شرفات وجدت مولاتها جالسة على المصطبة.

— جاء؟

— ينتظر في الفناء.

— ناديه.

توقف الشهبندر قرب البوابة في وقار. قالت مغفرات بلهجة جافة:

— انا غير راضية عنكم.

— وهل اذنبت في شيء؟

— نعم، انكم لا تهتمون ببيتنا مطلقاً، كأنه لا يعنيكم ان كان الماء يكفينا أم لا.

— ولكني أظن أن عبد السلام يحمل اليكم الماء بانتظام.

وسألت مغفرات ساخرة:

— عبد السلام! ألم تجدوا من أضعف منه؟ عود عبد السلام أرق من أن يستطيع خدمة بيت كبيتنا. حبذا لو ترسلون عصا.

— لقد أرسلته عدة مرات ولكنه يرفض. لست أدري من أساء له عندكم بهذا الشكل.

– لم يسىء له أحد. هو الذي صار يتكبر وليس أكثر. أنتم لينوا الحاشية زيادة عن الحد، لقد افلتم الزمام لسقائيكم، فمضى كل منهم يفعل ما يريد.
– هذا ما اعتدنا عليه، نحن لا نستطيع ارغام السقاء...
– تستطيعون، قاطعته مغفرات بحدة، – تستطيعون، فهو بدونكم سيبقى من غير خبز.
وراح الشهبندر يقنعها.
– الشغل عندنا طوعي. السقاء حر، حتى لو أراد أن يلازم عتبتكم طول العمر لن نمانع، هذا شأنه ولا شأن لنا أما لو صار يتراذل ويقلل حياء، لو صار يتطاول على زوجات الغير وبناتهم فاننا نضطر للتدخل...
– طيب، طيب، عاداتكم وأعرافكم هذه لا تعنيني! انا أريد سقاء جيداً. وعصا قوي، مؤدب، لا يتأخر أبداً كما أن قربته كبيرة. مهمتكم أن تتصرفوا من أجل أن يحمل عصا الماء الى بيتنا.
– طيب، – قال الشهبندر في تردد، – ساحاول، سأتكلم معه مرة أخرى.
– بوسعكم أن تخبروه أنني لن أبقى مدينة، سأضيف له في الأجر، وسأهديه كسوة في كل عيد... والآن اذهبوا الى المطبخ، سيطعمونكم هناك.
...في هذا الوقت كان زوج مغفرات العم ميربقا جالساً الى مائدة عامرة في بيت زمانبيك يتشكى لصاحبه:
– لقد شخت أنا، يا زمانبيك، صرت عجوزاً. ما عادت قواي تكفيني لشيء، ومع ذلك لا استطيع أن أقعد وأرتاح: أريد رؤيتكم، أن أذهب الى هنا، الى هناك ورجلاي لا تحملانني. هرمت، وبالأمس فقط كنت في قصر المرحوم عبد الأحد رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه، – كنت أشغل منصبك.
– معك حق، – مط زمانبيك الكلام متهكما، – قواك كما يبدو، ما عادت فعلا تكفي للكثير.

واضطرب ميربقا.

– ماذا تعني؟

– لا شيء، – قال زمان بيك ضاحكاً، – انني أكرر كلماتك وحسب: يبدو أنك صرت ضعيفاً عن حق، ما دامت الكنة قد تصادقت مع محرمة غارتش في الأونة الأخيرة.

وقال ميربقا كأنما مستفزاً.

– زوجتانا، كما أظن، سافرتا معها الاسبوع الماضي الى بستانكم في الضاحية...

– أجل، سافرتا معاً. ولكنني أتيت بزوجتي الى المدينة أما زوجتكم فباتت الليلة في البستان مع محرمة.

تلقى ميربقا هذا النبأ بهدوء تام. كان ذئباً محنكاً ولم يكن اخراجه عن طوره بالأمر اليسير، خصوصاً وان اهتمامه انصب الآن على معرفة السر وراء تعرض زمان بيك لهذا الموضوع.

– لنفترض، – قال هو، – ولكن ما هو غرضكم من قول هذا لي؟

فقال زمان بيك:

– السبب في أن محرمة وجدت من خلال زوجتك طريقاً الى بيتي. وهذا لا يسرني جدا. هذا لا يشرفني ولا يشرفك. عداك عن أنه يضر بمصالحنا.

– واذن تكلم في الأمر مع زوجتك الخاصة، – امتعض ميربقا – فليس الى بيتي، بل الى بيتكم جاءت محرمة، أنا أعرف من زمان أنها صديقة حميمة لمنزلكم.

واحتدم زمان بيك:

– احذر، يا ميربقا. لا تدس رأسك تحت الخنجر المشهر! انا لا القي الكلام جزافاً. لقد باعتني محرمة وباعتكم وباعت قضية ذات أهمية حكومية. في تلك الليلة كشفت لها زوجتك عن سر حكومي. ففي يوم الأحد الماضي كان علي أن أطبق على وكر المجددين في زيرآباد. وقد خربت هي علي الأمر.

— انا لا أدافع عن محرمة، ولكنه لم يكن بوسع زوجتي أن تكشف لها عن هذا السر! عنك أنت أو عن زوجتك يمكن لمثل هذا السر أن يصدر. فانتما وحدكما كنتما تعرفان به. ما هو شأن زوجتي هنا؟

وتكلم زمان بيك بنبرة أهدأ:

— صحيح، المذنبة الأولى هي زوجتي طبعاً. هي التي حكت عن كل هذا لزوجتك، فقد قابلتني هذه في اليوم التالي واشتكت لي من أحد السقاة، قالت انه مجدد أيضاً وانه يسافر الى زيرآباد. لست أدري بأي ذنب استحق هذا السقاء غضب زوجتك؟

استمع ميربقا الى محدثه وأطرق مفكراً. ما السر في أن زوجته كرهت عصا هذه الكراهية؟ انها لم تطرده من البيت وحسب، بل وتبين أنها شكته الى زمان بيك أيضاً. فما سبب هذه الكراهية؟ ليس الأمر نظيفاً هنا. أجل ينبغي انهاء هذا الحديث والاسراع الى البيت، وعن محرمة ينبغي التكلم مع مغفرات أيضاً.

ودع ميربقا مضيفه ومضى الى بيته. حين وصل، وفيما يسلم لخادمه رسن الجواد، رأى شهبندر السقاة خارجا من الدار فناداه:

— يا معلم. لماذا اتيتم الينا؟

— الهانم استدعتني.

— بسبب ذلك السقاء عصا؟

— نعم، نعم بسبب عصا... سأحاول أن أقنعه...

— بأي شيء تريد أن تقنعه؟

— كي يوافق على أن يحمل لكم الماء من جديد.

— حسناً، حاول أن تقنعه! — نطق ميربقا بجهامة.

لم تكن مغفرات تتوقع أن يعود زوجها هكذا باكراً. واذا أردتم الحق، كانت قد نسته تماماً. كانت تتخيل، ويبدو لها أنها قريباً ما ستسمع الصوت الأليف الرنان ينادي «السقاء» واذ بها تفاجىء بعودة هذا العجوز العنين. قطبت مغفرات حاجبيها و تلمظت غيظاً:

— ما الذي عاد بكم هكذا باكراً؟
— خفت أن يدنس فراشي سقاء ما قذر، — أجاب ميربقا رامياً روبه على الأرض مباشرة. — ماذا كان شهبندر السقاة يفعل هنا؟
— أدخلوا أولا الى البيت وأنظروا هل فراشكم على ما يرام أم لا ، لا حياء عندكم البتة!
— انتظري، انتظري، سأريك من هو عديم الحياء، — قال ميربقا وهو يعلق عمامته على المسمار. — كيف لا تخجلين من أن تسألي الشهبندر أن يرسل عصا اليك؟ أي شأن لك به، أيتها الفاجرة!
فزعقت مغفرات محتدمة:
— كيف تتجرأون على التكلم معي هكذا! لعلكم نسيتم من أنتم ومن انا؟ هل نسيتم أنني ابنة عليار — بي! هل نسيتم أن أبي قادر أن يذر رفاتكم في الريح ان أنا قلت له كيف تهينونني...
وصرخ ميربقا:
— لن تخيفينني حتى لو كنت ابنة الأمير ذاته. غداً أطلقك، وروحي الى سابع جهنم، انا لست بحاجة الى مطية غريبة.
— وعندما أخذتني، كنت تحتاجني اذن، — احتدت مغفرات حتى أنها صارت تخاطبه «بأنت» — فات الأوان خير لك أن تشبك اسنانك وتصبر. أما اذا كنت لا تستطيع صبراً فاذهب واستعر قوة من أحد، ايها العجوز الحقير.
— لقد دست شرفي بقدميك... لو انني...
— لو انك تعرف ما هو الشرف، لما نطقت بهذه الكلمات.
أدرك ميربقا أن الكلام معها لن يجدي نفعاً. بل ولن يكون من السهل طردها من البيت أيضاً، هذه السافلة لن تتورع عن أية فعلة. استدار ميربقا على عقبيه وغادر الغرفة.

ولحقه صوت مغفرات:
– يا عفو الله اذا كان رب البيت شحاذاً فان اللص معدوم الحال أيضاً. لقد صرت زوجي، ولكن ماذا أعطيتني؟ الثروة انا أتيت بها الى البيت. والعز الجاه مني أيضاً. وكذلك النظافة والترتيب وكل شيء في البيت، مني. فماذا يلزمك أيضاً؟ انك لا تعرف من الهموم الا صلواتك الخمس في اليوم، من أجلي لم تصل مرة واحدة، ثم تأتي وتثير المشاحنات...

عاد ميربقا الى الغرفة، توضأ صامتاً، ومن دون أن يولي لمغفرات اهتماماً ارتدى جبته، لف العمامة على رأسه وغادر البيت.

تغيب طوال النهار. لم يرجع الا بعد صلاة العشاء.

كانت مغفرات مع الخادمات في الغرف السفلية. خلع ميربقا جبته وخرج الى الردهة. قرب الباب انتصبت عدة أباريق ضيقة الأعناق، وابريق فخاري آخر لماء الشرب.

تلفت فيما حوله، اخرج من جيبه ورقة وذر منها في الابريق مسحوقاً ما. كان يعرف أن مغفرات تعاني من العطش دائماً وانها تشرب حتى في الليالي.

كان ميربقا جالساً ينقل حبات مسبحته. كان جالساً على لحاف في الركن مثل هر يترصد فأراً. كان صامتاً ينتظر بقلب مضطرب... انه لم يأكل شيئاً منذ الصباح ولكنه لا يشعر بأي جوع... وأخيراً جاءت مغفرات وأمرت الخادمة أن تمد الفراش.

مدت الخادمة فراش مغفرات في الركن الأمامي، وفرشت لميربقا قرب الباب.

قالت مغفرات لزوجها بتحد:

– اياك أن تقعد غداً في البيت، ابكر في الذهاب الى القصر، ستأتي صديقاتي لزيارتي.

تعرى ميربقا صامتاً، اندس تحت اللحاف على مهله وتدثر به حتى رأسه.

– اطفىء المصباح، – قالت مغفرات بحنق. ولكن

زوجها ظل صامتاً فاضطرت لأن تقوم وقبل أن تنفخ على اللهب صبت من الابريق كوب ماء ووضعته قرب رأسها.

...عانت مغفرات آلام الاحتضار ثلاثة أيام. ولم تسأل أباها في سكرة الموت الا أمراً واحداً: أن يزج بزوجها وكلتا الخادمتين في الديماس. كان حزن عليار-بي الذي كان شيخاً مقعداً تقريباً على وحيدته حزناً عظيماً. لف على رقبته لفحة سوداء*، قصد الوزير الأول وطلب لقاتلي ابنته عقوبة الموت. لكنه كان من المتعذر اثبات تهمة دس السم على واحد بعينه ولذلك تقرر تقسيم العقوبة بين ميربقا والخادمتين. «نفي» ميربقا الى بدخشان حيث عين حاكماً على «وخان»، وأما الخادمتان فقد ربطتا في كيسين وجلدتا الى أن تكسرت على جسديهما رزمة أغصان القراص.

١١

في وقت الشدائد، يا أصدقائي، الخمرة وحدها ترق قلبا
مع أنها، للأسف، تمر كالكرام سريعاً وغبا
ناقصة هي الدنيا حيث الشاعر وحده يدافع عن الحقيقة
وحيث بنيان المحبة وحده قوى لا عيب فيه ولا ريبا.

قرب النافذة المطلة على البستان وقف منصب عالي فوقه حاكي. من بوقه النحاسي اللماع تدفق صوت مطرب مجهول يردد المرة تلو المرة هذه الأبيات لحافظ. واستمع للأغنية شخصان: محرمة غارتش التي كانت جالسة في الركن الأمامي على ألحفة مخملية وحريرية منضوضة فوق بعضها، ومشرفة التي كانت واقفة قرب النافذة تمتع ناظريها بعربدة الألوان في حوض الزهور خلف النافذة. انتهت الأسطوانة.

---

* اللفحة السوداء أو الرمادية كانوا يرتدونها علامة على أنهم يطالبون بتنفيذ مطلبهم فورياً.

– يا سلام، ما أطيب غناءه! – قالت هي ورفعت الأسطوانة.

قربت محرمة منها الوسائد الريشية وقالت:

– وصحيح، ليس في الدنيا ما هو أفضل من الخمرة ومتعة الغرام...

ثم قامت وصبت من ابريق الشاي كوبين من النبيذ البيتي. شربت الصديقتان بلذة وتلمجتا بقطعتين من الشواء.

– يا عفو الله! – تأوهت محرمة. – هذه حال الدنيا، كل شيء فيها الى زوال! ليس الا لشهرين خليا كانت المسكينة مغفرات تجلس هنا بيننا، والآن ترقد تحت التراب.

وتنهدت مشرفة:

– أجل، رحمة الله عليها. ولكن الراحلة لم تكن أيضاً بلا ذنوب يقال ان خلافها مع زوجها نشأ بسبب ذلك السقاء عصا... انت تعرفينه، فقد كان يشتغل عندنا، يقولون ان زوج مغفرات غار عليها منه. بل وأظن هي التي حكت لعصا عن المجددين. فذهب هو وأبلغهم. فانا لم أفه عن ذلك بحرف لأحد آخر. ولو تعرفين، كم عذبني زوجي بسبب ذلك، يا لطف الله! ضربني، هدد بأن يقتلني، ومنذ ذلك الحين وهو غاضب لا يحدثني عن شيء بالمرة...

– ولا تقولي، يا حبيبتي، لا تقولي، لعنة الله على هؤلاء المجددين، لا يلحقنا من ورائهم غير المنغصات. ها هم الآن قد هربوا، وعلى الناس الفاضلين أمثال زوجك أن يفقدوا الراحة وأن يبحثوا عنهم. أغلب الظن انه قد تشكى لك؟

– بل كلا، لقد حاولت ذات مرة أن أستفسر منه لماذا كل هذه الأعداد من العساكر الروس في المدينة، لماذا يقفون مع أسلحتهم عند بوابة قوال؟ فاكتفى بأن زورني بنظرة شزراء وقال: «هذا ليس شأنك» فقلت: «بالطبع ليس لي شأن هنا، ولكن قلبي يتألم عليك. أيعقل

أن أميرنا يثق بالجنود الروس أكثر مما يثق بخدمه الأوفياء؟ فرق زوجي وقال: «لا عليك، قريباً سيرحلون، وكاغان ستنتقل الينا في القريب أيضاً». ثم ابتسم وأضاف: «مهلك علي، انتظري نقبض على المجددين، و سنقيم فرحاً. ولا أي فرح ...» سررت انا، فنحن منذ زمان لم نقم أية أفراح...

— ان شاء الله، من أجل أن يكون ما نتفرج عليه ويكون لنا ما نشربه...

وصفنت كلا المرأتين. تفكرت مشرفة بالحفلة المرتقبة، وتفكرت محرمة بالمجددين وبمصيرهم. حل وقت عصيب قلق، حوادث قتل وشغب وصراعات... من حسن الحظ انها نبهت آكا مخصوم في الوقت المناسب والا لقبضوا عليه وألقوا به في السجن. كمال الدين لا يخرج من منزله. المشايخ لا يتعرضون له بعد تكريماً لذكرى ابيه، ولكن هذا لن يدوم طويلا... لقد كفت محرمة من زيارة كمال الدين مخدوم وآكا مخصوم. أجل، خير لها أن تبتعد عنهم جميعاً قدر الامكان. كفاها تدخلا في هذه القضايا، ولتعش لنفسها هادئة مطمئنة وتستمتع بما يصرفه لها الله...

— دعينا نشرب كوباً آخر، نخب صحتك ونخب الفرح القادم... — قالت محرمة وهي تصب النبيذ.

— نخب الفرح، نخب صحتك ونخب سعادتك، — أجابت مشرفة واجترعت الكوب دفعة واحدة. مدت يدها الى المزة، ولكن محرمة استبقتها فنزعت عن السيخ قطعة شواء ولقمتها اياها بيدها.

فجأة انفتح الباب مقرقعاً واندفع الى الغرفة زمانبيك.

— آه، وقعتما، يا ابنتا الشيطان!

كان وجهه ممتقعاً، مصعراً، وكان يرتعد من الحنق.

أخذ الروع بمشرفة فهبت من مكانها وهربت الى البستان. لكن محرمة لم تبد أقل حركة، حدقت بهدوء في عيني زمانبيك المحتقنتين دماً وقالت بسخرية:

– أعتقد، يا سيدي العزيز، أن لقب «ابناء الشيطان» كان يعود دائماً لذرية عبد الرحمن بيك، أظن أن الجميع يعرفون هذا جيداً. واذن، قل بالله، بما أذنبنا يا ترى؟

جمد زمان بيك في مكانه مصعوقاً. أمامه كان يرتجف أعتى المجرمين أما هذه المرأة فتجلس وكأن شيئاً لم يكن، بل وتضحك عليه أيضاً. أربكه تصرفها بل وأسقط في يده.

وتابعت محرمة بنفس اللهجة الهادئة الساخرة:

– هيا، ما بالك صامت؟ ما بالك تبحلق بي؟ أتراك رأيت على وجهي قمراً؟

بعد هذه السخرية احتدم زمان بيك الذي كان قد هدأ قليلا، احتدم مجدداً وهمى شتائما:

– انا أعرفك، أعرفك أيتها الأفعى الماكرة، لا داعي لأن تصوري من نفسك حمامة بريئة! قليل عليك الغدر والفشق، بل وانبريت لزوجتي أيضاً، تريدين جرها عن سواء السبيل.

وابتسمت محرمة بكيد:

– لعل زوجتك هي التي تجرني عن سواء السبيل.

– أسكتي! – فاقداً رشده صرخ زمان بيك وشق الهواء بسوطه، – سارمي بك في السجن. ستتعلمين عندي كيف تفضحين أسرار الدولة!

– لم يلد بعد ذلك الشخص الذي يستطيع زجي في السجن يا بني. هيا، سق حمارك من هنا بالخير والعافية، والا، قسماً عظماً، سأنادي الناس وأحكي لهم عن كل مغامراتك، أيها العاهر اللعين. فانا والله من دون كل الناس أعرفك، على عريك. أعرف كل «اخوانك» الصغار منكم والكبار، أستطيع أن أعدهم على اصابعي. انا أعرف كل شيء عنك. وبوسعي أن أقول مقابل أية «خدمات» حصلت على منصبك، عن هذا أيضاً لدي ما أقوله...

– سدي بلعومك، يا عجوز النذالة! – صرخ زمان بيك المستعر والتمع في يده الرعشة مسدس.

وقالت محرمة معتمدة باحدى يديها الى المشكاة خلف ظهرها وباليد الأخرى الى ركبتها عازمة أن تقوم:
– سماع صوتك الشنيع وحده يكفى المرء كي يتقيأ.
ضغط زمان‌بيك على الزناد. دوى طلق مزمجر رنت له النوافذ والأبواب. استلقت محرمة على جنبها واضعة احدى يديها على صدرها الذي ينز دماً، وباليد الأخرى كانت لا تزال مستندة الى المشكاة. حاولت أن تنهض، ولكنها أخفقت...
– انك... انك ستشرق بدمك وتختنق... مثلي...
هذه الكلمات المتحشرجة التي أفلتت هادئة من شفتي محرمة المحتضرة هزت كيان زمان‌بيك. فرمى المسدس ومطبقاً على رأسه، اندفع نحو الباب.

١٢

في صبيحة ربيعية من عام ١٩١٩ كانت شوارع بخارى المركزية، خصوصاً تلك الشوارع التي تمضي من بوابة سمرقند الى الريغستان، كانت تعج بالناس وتضج. سار مريدو المدارس ومعلموها، سار البايات والشيوخ والتجار، وفي كل مكان لاحت رؤوس في عمائم بيضاء. في ساحة الريغستان لم يكن مكان لابرة. وحتى أسطحة مدرسة دار الشفاء ومسجد باياند كانت مرصعة بالناس. من الصباح كانوا ينتظرون قدوم الأمير الى حفل يقيمه الوزير الأول.
غير مرة ظهر في الساحة فرسان يلوحون بسياطهم، يفرقون الناس وينادون بأصوات عالية: «الطريق، الطريق! جلالة الأمير آت، جلالة الأمير!»، ويتلاطم البحر البشري، تلتفت الرؤوس نحو الطريق، وتزمزم الحشود وتتراجع على غير عجل. ولكن الدقائق كانت تتصرم والأمير لا يظهر.
اقترب النهار من ظهيرته، لكن الأمير لما يلح، بين

الفينة والفينة كان قادة العسكر يخطرون على جيادهم، وعند المدخل المبلط كانوا يترجلون ثم يصعدون الى بوابة «الأرك» حيث التم عدد كبير من الوجهاء ذوي العمائم البيضاء والأحزمة الذهبية.

حيدرقول وعصا كانا في الساحة أيضاً.

كان حيدرقول في زي متأنق ريفي - روب أصفر اللون بخطوط رفيعة وعمامة غبراء سائبة الطرف. أما عصا فكان في لباس السقاة العادي: روب مبرقش تزنره عصابة بسيطة وطاقية محكوكة من المخمل الأسود.

كانا يشقان طريقهما بصعوبة وبطء من مسجد بایاند الى «الأرك» دون أن يوليا بالا الى الدفعات الشتائم المنهالة من كل الأنحاء. أخيراً تسنى لهما الوصول الى باب مسجد القصر وهناك عثرا على ذلك الشخص الذي كانا بحاجة اليه. كان هذا جورا السقاء الذي يحمل الماء الى الحرملك. الآن كان جورا يساعد الخيالة في فرض النظام زاحماً الناس الى الجدار كي يفسحوا مجالا للمرور الى «الأرك». وناداه عصا:

- هل ستحمل الماء الى القصر مرة اخرى هذا اليوم؟

- طبعاً، بعد أن يمر الأمير، ويشغر الطريق، سنحمل.

- دعنا نتنحى قليلا، يلزمني أن أتكلم معك.

ودخلوا الى المسجد.

قال عصا:

- اليوم في الليل اقتحم رجال الوزير الأول بيت جارنا، شهبندر السقاة وسبوا ابنته الوحيدة. أغلب الظن أن الوزير سيقدم للأمير الهدايا كما جرت العادة، أما الفتاة فسيمسكها حتى المساء. لقد فقد أبوها العجوز رشده تماماً من الحزن. فساعدنا، يا اخ، اعط هذا المكتوب لفيروزة.

- بكل سرور، يا اخ، - قال جورا متناولا من يد حيدرقول المكتوب المطوى رباعاً. - سأبذل كل ما

بوسعي. وانتم لا تقلقوا. اذا كانوا قد أخذوها بالأمس فقط فانهم لن يعرضونها على الأمير. في البداية ستراها بادشابيبي واذا أعجبتها فقط يبدأون في اعدادها وتعليمها. لن يستغرق هذا كله أقل من أسبوع.

وسأله عصا:

– ولكن أترجاك يا أخ، كن حذراً، احرص على المكتوب وحاول أن تسلمه لفيروزة بحيث لا يلحظ ذلك أحد.

وعادا الى الساحة. كان الاضطراب والضجيج في الحشد أقوى من ذي قبل. في هذه المرة كان الأمير يقترب من الريغستان فعلا.

زحم الخيالة وحراس الوزير الأول الناس وأخلوا الطريق. ظهر فصيل من المشاة مسلح ببنادق انكليزية. قطع الجنود الساحة ثم انقسموا الى نسقين واتخذوا أماكنهم على جانبي الجسر. بعد ذلك ظهر ساسة الخيل في حلل قديمة وقبعات مدببة، بينما تجلجل على أقدامهم أجراس رنانة. خلفهم سار خمسة أو ستة ساسة خيل خاصين كانوا يقتادون جياداً عليها برادع مذهبة وعدد نفيسة وتزين رؤوسها أرياش زاهية.

واخيراً أطل الأمير على فرس بيضاء. كان في عمامة بيضاء منكسة حتى حاجبيه يعتليها تاج من الذهب، في طيلسان موشى بالذهب يبرق باهراً تحت الشمس وفي جزمة من الاستبرق. بيمناه كان يقبض على الرسن، بينما يتدلى سوط من يسراه التي كان لا يفتأ يمسد بها لحيته السوداء المقصوصة بطريقة خاصة. كان الأمير يتلفت الى الجانبين ويرد بايماءات خفيفة من رأسه على تحيات المشائخ والوجهاء.

الى الركاب الأيمن لجواد الأمير سار الوزير الأول ذاته في جبة من المخمل موشاة بالذهب وفي عمامة بيضاء، والى الركاب الأيسر سار ابنه وكان شاباً يناهز العشرين في

روب من الاستبرق. خلفهما من كلي الجانبين سار النبلاء والوجهاء. وقفل الموكب فصيل من المحاربين.

حيا ذوات بخارى وأعيانها الأمير بهتافات عالية. وانتاب بعضهم فيض من مشاعر الوفاء فارتموا تحت قوائم جواده فاضطر الساسة والحال لأن يحملوهم من الطريق.

— الكلاب الملاعين، لحاسو الصحون! — زمجر حيدرقول وسأل عصا: هل ترى الضابطين الانكليزين؟ هاك انظر، — واشار الى رجلين في زي عسكري كانا يقفان قرب مدخل «الأرك»، — هل تراهما، انهما طويلان يشبهان الروس.

— نعم، نعم، الآن اراهما... وماذا يفعلان هنا؟

— يعلمان جنودنا.

خرجت الى الساحة فرقة من الموسيقين العسكريين وشقت الجو أصوات الكارنايات والطبول والمزامير. بعد ذلك مر جنود المشاة في مسيرة رسمية.

عقب الاستعراض العسكري بدأ الناس بالانصراف وسرعان ما شغرت الساحة.

في الطريق الى البيت شرح حيدرقول لعصا:

— الانكليز يطمعون في أرضنا من زمان. وهم ما زالوا يتطلعون الى ربطنا الى عجلتهم مثل الهند. ويقول سميرنوف أن بخارانا قليلة عليهم فهم يمدون أيديهم الى باكو أيضاً والى عشق آباد.

— علام اذن، يقبل الأمير مساعدتهم؟

— الأمير مثل الغريق يتمسك بأية قشة تقع له. فهو قد طلب المساعدة حتى من الملك الأفغاني. والآن يخدم في جيوشه الأفغان والأتراك والانكليز وخدم القيصر السابقون...

وقال عصا باسماً:

— الظاهر أنه يشعر كيف تميد الأرض تحت قدميه.

— تميد؟ كلا، انها تغور تحت قدميه... لكنه من

السابق لأوانه أن نفرح الآن. الأفعى قبيل الموت تكون خطيرة بصفة خاصة.

– هذا صحيح، – وافق عصا. – كل هذه الدسائس والملاحقات ضد المجددين ليست مصادفة: لقد أخذ الهلع بالأمير وحاشيته حتى ضرب الدم رؤوسهم.

– وأنظر الى ما يجري من حولنا، يا لطيف! – قال حيدرقول وهو يهز رأسه. – بخارى صارت شبيهة بمذبح يعمل فيه الجلادون بدلا عن القصابين... لقد أبادوا المجددين عن بكرة أبيهم. بل وليس المجددين وحدهم، انت ترى، أنهم يعتقلون ويشنقون كل من شرب مرة كوب شاي مع أحد من المجددين. لقد قرأ لي قاري عثمان ذات مرة قصيدة لعبد القادر بيدل يقول فيها:

هاك أنظر وتمتع
هو ذا آل السلاطين المجيد، طيب الذكر ومحمود السناء
أنه يرتع في الأرض ويطمع
ها هنا حيث الظلامة بلغت باب السماء.

ولكي يزهر بساط الرغبات
عامراً بالخير للسلطان، موفور العطاء
فعلى المسكين أن يغرق في بحر عطايا العظماء
بحر ظلم يبذلونه في سخاء.

حال أن تستل سيفا
قبضة الحاكم مولانا أمير الامراء
يقع العدل ضحية
ويكون العدل رأس الشهداء

والعدل، الأسف الشديد!
يزرع بذار الصلح حتى آنذاك
آن تسلط فوق رقبته سيوف الاضطهاد.

– والآن، في هذه الايام العصيبة، ينبغي علينا أن نكون مع الشعب.

– ولكن ماذا علينا أن نفعل؟ كيف نستطيع أن نساعد الناس؟

– يجب أن نذهب الى البلاشفة.

وفيما سار حيدرقول وعصا الى البيت كان جورا السقاء قد ملأ بالماء قربه، حملها على الحمير ومضى الى «الأرك».

قرب بوابة «الأرك» احتشد جمع من الموظفين والوجهاء ذوي الأحزمة الذهبية كان عدد الحراس أكبر من المعتاد بثلاث مرات. على امتداد الممر الكبير المسقوف، من أوله وحتى المسجد وقف الجنود والخدم ورجال الحاشية في صفين طويلين. كما وخطر هنا رجال الأمير والوزير الأول وكبير القضاة.

– الفرح عمل جيد ومربح، – قال أحد السقاة واوضح: – اذا كنت ثرياً تزداد ثراء واذا كنت وجيهاً تحصل على منصب أعلى...

فحشر جورا:

– واذا كنت فقيراً تبقى كما كنت شحاذاً.

لكل نصيبه. من كانت حاله سيئة تزداد سوءاً. – علق سقاء عجوز كان يسير خلفهما.

وضع السقاة القرب على المصطبة في الفناء الخارجي وانصرفوا. أما جورا فاقترب من باب الصحن الداخلي للحرملك فنادى فيروزة وسلمها المكتوب.

قرأت فيروزة المكتوب وقتم وجهها. سألت خديجة عما اذا جيئ الى «الحمام» بنات جديدات فأجابت هذه:

– نعم، يقال ان بائسة ما قضت الليل باكية...

– هذه الفتاة من حارتنا، سأذهب الآن الى هناك وأستفسر عن أحوالها. أما أنت فقولي، بالله، لموجي جول أن تسأل المعلمة، لو رأتها، أن تخرج الى الفناء الخارجي.

أفرغت فيروزة قربتها وهرعت الى «الحمام».
هناك على الأرض قعدت ابنة شهبندر السقاة وكانت فتاة في السادسة أو السابعة عشرة من العمر مستديرة الوجه، حمراء العينين من البكاء ومتورمة الاجفان لم يكن فيها جميلا الا حاجبيها الاسودين المقوسين قليلا اللذين امتدا حتى صدغيها. اما يداها ورجلاها فكانت كبيرة معضلة – من الواضح انها لم تكن تقعد دون عمل.
حيتها فيروزة ولكن الفتاة لم ترفع رأسها.
– استاد، يا حبيبتي، ألم تعرفيني؟
ونشجت استاد بصوت عال.
– خلي عنك، يكفي، يكفي. اضبطي نفسك. سأمر عليك فيما بعد واقول لك ما ينبغي عمله. سنجد مخرجاً ما، اطمئني.

صالة الاستقبال في «أرك» بخارى كانت تعتبر في ذلك الوقت افخم وابهى منشأة في بخارى كلها. في الجزء الامامي من القاعة الضخمة اعتلى عرش الامير ودونه كانت تجلس النساء والضيفات اما في الوسط فتعزف الموسيقيات وترقص الراقصات.
في صالة الاستقبال لم تكن تقام الاحتفالات الا في مناسبات نادرة، في حالة قيام عرس او استقبال احتفالي خاص. هنا في أيام الاحتفالات كان يلتم جميع سكان الحرملك، لا اقل من مائتي شخص، على رأسهم ام الامير وزوجات ابيه الاخريات اضافة الى زوجات الامير ذاته واولادهم ونساء الوزير الاول وخادمات كل هؤلاء النساء وقريباتهن.
عادة كانت الخالة قاراؤولبيغي وصيفة ام الاولى هي التي تتصرف بكل شيء والتي تحرص على التزام النظام ومراعاة العادات. وهاهي اليوم ايضا مشغولة منذ الصباح في التحضير للاحتفال المرتقب.

كانت فيروزة ترش الارض امام صالة الاستقبال بالماء، رأتها الخالة قاراؤولبيغي فاثنت عليها وقالت ملتفتة الى المعلمة طنبور:

— تربيتك، يا معلمة، هذا ملحوظ فوراً. لم يقل لها أحد شيئاً، فطنت من نفسها انه يجب رش الفناء امام الصالة بالماء، سيكنسونه الان ولن يتطاير الغبار... مرحى لها... ما هو رأيك، ألن يكون من الافضل لو ننقل اص الزهور هذا الى المشكاة العليا؟

— أغلب الظن ان هذا سيكون افضل، ولكن يجب أن يوضع شيء آخر في مكانه.

— سنضع مكانه زبدية قاشغارية، ماذا تريدين يا ابنتي؟ — سألت هي وقد لاحظت ان فيروزة تقف على الباب.

— شكرا، لا شيء، — اجابت فيروزة منحرجة. — كان بودي أن أقول للمعلمة بضع كلمات.

وضحكت الخالة قاراؤولبيغي:

— الا تستطعين بدون معلمتك العيش دقيقة واحدة؟ طيب، — قالت هي ملتفتة الى المعلمة طنبور. — روحي انظري ماذا تحتاج منك.

انحنت السيدة طنبور لها وخرجت الى الفناء.

كانت فيروزة بانتظارها قرب البوابة. فهزت تلك اصبعها مهددة وقالت:

— آه يا شيطانة، ما كانت حاجتك في ان تجرينني، انا العجوز، الى آخر الدنيا؟ اعتذرت فيروزة وناولتها المكتوب.

— يا للبنية المسكينة! — قالت المعلمة بعد ان قرأته. — هل رأيتها؟

— انها في يأس مطبق. آه، يا معلمتي، انت وحدك قادرة ان تنقذيها.

وقالت المعلمة كأنما تفكر بشيء خاص:

— لا سمح الله ان تكون جميلة أيضاً...

– بل كلا، ليست جميلة. يداها كبيرتان، رجلاها أيضاً، رقبتها قصيرة، بل وكلها، بشكل ما، دحداحة خرقاء... تكلمي عن هذا مع الخالة قاراؤولبيغي، ثم، حبذا لو تسألي بادشابيبي ان تبقيها عندها.

ووافقت المعلمة:

– طيب، – كان النجاح يحالفنا دائما في كل مرة ننبرى لعمل طيب. فعسى ان يحالفنا في هذه المرة أيضاً.

– وماذا علي ان اقول للفتاة؟

– قولي لها ان تتصنع البلاهة حين يقتادونها الى بادشابيبي.

وعادت المعلمة الى قاعة الاستقبال.

١٣

كان شهبندر السقاة عبد القيوم جالسا على المصطبة فوق ضفة حوض ميردوستيم. كان يحدق في الماء بنظرات غائبة، ومثل مجنون كان يهجس ويتكلم مع نفسه.

كانت عنده في البيت بهجة وحيدة وسلوى وحيدة هي ابنته. فكيف له ان يعيش الآن بدونها؟ من سيفتح الآن له الباب،من سيمد له السفرة حين يعود من العمل متعبا، من سيقطع له الرغيف، من سيغلي له الشاى، من سيقول له كلمة حنونة، من سيطيب خاطره في اللحظة الصعبة ومن سيسرى عنه وقت الاسى؟ لا احد. وحيد بيته الآن وخالي الا من الاصداء تتردد في غرفه...

بالامس ليلا اقتحم رجال الوزير الاول بيته، ودون ان يولوا اذنا لصراخه وابنته، أطبقوا على ابنته، شدوا وثاقها ورموها في عربة. ذهبوا بها الى الارك، وقدموها ضحية النزوة طارئة خاطفة من نزوات جلالة الأمير... بعد ذلك يرمونها مثل رمانة معصورة، يعطونها بصفة خادمة لأحد او تقضي العمر كله خلف جدران حرملك «الاربعون فتاة» حيث تذوى بعيدا عن نور الشمس ومباهج الحياة.

فلمن يلجأ ومن يقصد؟ ممن يطلب العون؟ من سيغمض له عينيه حين يموت؟ لقد تجاوز الستين. فارقته قواه وتقوس ظهره تحت وطأة الحياة والعمل الشاق.

على هذا النحو جلس عبد القيوم على ضفة حوض ميردوستيم يطرح على نفسه اسئلة لا يستطيع احد ان يجيبه عنها. ومن حوله كانت الأشجار تستحم في اشعة الشمس، والشمس نفسها في الماء تلعب، تتراقص، تتلألأ كأنها حب الالماس. وفوق الحوض كانت السنونو تغط على الماء هنيهة ثم تنساب الى العلى من جديد.

لكن عبد القيوم لم يكن الوحيد الذي الم به الأسى.

كان الويل يرتع في بخارى كلها. في كل حارة، في كل شارع وفي كل بيت كان الاسى يعيش.

كان الفقراء يبكون ولا يرى احد دموعهم، كانوا يصرخون يائسين ولكن صراخهم لم يكن يبلغ ابراج القصر العالية.

أليس عنهم يا ترى، كتب سعدي الشيرازي في حينه هذه الأبيات:

ما كل من ساءت به الأحوال عند النائبات
يئن يزحر أو يصيح حتى يهز الراسيات
ثم بين الناس من يخفي رعود العبرات
مانحاً للناس كل الناس برق البسمات.

في «الارك» كان الوزير الأول يقيم مأدبة ملكية، وفي قاعة الاستقبال كانت أم الأمير تعد العدة لحفل لا يقل فخامة وبهاء، أما تحت، في الشوارع فكان الموت يكتسح المدينة وفي كل ركن بحارات الفقراء كان الويل يحدق في عيون الناس...

بعد عودتهما من الريغستان مضى عصا بحيدرقول الى العلية، وضع امامه ابريق شاى وانصرف معتذرا: كان عليه ان يحمل الماء لزبائنه.

قرب الحوض رأى عصا العجوز البائس اليائس عبد القيوم، طفح قلبه اشفاقا عليه ورأفه، جلس قربه ولكن ذلك كان غارقا في هواجسه الحزينة فلم يلحظ عصا في الحال.

وسأل عصا بحذر:

– كيف، يا والدي، كيف حالك؟

– آه، هذا انت!– التفت عبد القيوم اليه.– ماذا عندك، ماذا سمعت؟ هل سيطلع من هذا شيء، ما هو رأيك؟ ومن كان ذاك الذى تحدث الي؟ انسان جيد، قلبي.

– هذا ملا اشرف، احد معارفي من غيجدوان – خلع عصا على حيدرقول اسما مستعارا.– لا عليك، يا والدى، باذن الله سيكون كل شيء على ما يرام، لا تقنط!

– ماذا عن ابنتي؟ ايصدق الا يتركوها؟

– ابنتك حية ترزق، هناك فيروزة معها، لا تقلق،– طيب عصا خاطر العجوز.– ستعود الى البيت، فاطمئن. هات دعني احمل عنك الماء، واقعد انت، استرح هنا...

نزل عصا على الدرجات الى الحوض، ملأ القربة بالماء ومضى يحملها. هنا اقترب من عبد القيوم سقاة آخرون. قال أحدهم:

– انهم لا يخافون الله ولا يستحون من الناس – أعمالهم فضائح وجرائم. واشار آخر:

– كل شيء وله نهاية. سينتهي هذا أيضاً.

فاستجاب سقاء شاب محتداً:

– صبرنا وصبرنا وها نحن نجني ثمار صبرنا. خلاصة الأمر ان كل موظف يستطيع أن يسلب من الفقير حتى ابنته الوحيدة...

– وما العمل، التفت اليه سقاء عجوز.– القوة والسلطة والسلاح في ايديهم. كل هذا في ايديهم.

– لا يجوز أن نترك لهم الحبل على غاربه.

– آه، يا فتى، ما زلت شاباً بعد، ولهذا دمك يفور.

العبث بذيل الاسد وحد السيف عاقبته وخيمة. من يقبض بيد عارية على الحد، يبقى بدون يد.

اقترب من السقاة مختار الحارة ومعه أحد خدم الوزير الأول. قام السقاة وأفسحوا للقادمين مكاناً. عبد القيوم وحده لم يعرهما بالا وظل جالسا كما كان، محتضنا ركبتيه، محدقا في مياه الحوض.

قال المختار:

– لا تحزن يا شهبندر، ان الحظ قد يبتسم لابنتك ويأخذها احدهم زوجة صغرى، سيدة لحريمه.

لم يعر عبد القيوم جوابا، اجفانه وحدها ارتعشت قليلا.

وتوجه المختار الى السقاة:

– نحن جئناكم في عمل. من مقر جلالة الامير جاء سيادته يريد ان يسألكم العون.

تبادل السقاة النظرات. وفي هذا الوقت اقترب منهم بضعة أشخاص آخرين كان عصا بينهم.

– انتم تعرفون، قال قائماً عن المصطبة ذلك السيد الذي جاء مع المختار.– تعرفون ان المجددين والكفرة شهروا في الأونة الاخيرة سيفهم على صاحب الجلالة وعلى أمن امارتنا وعلى أهلنا وذوينا. لقد ساقوا علينا البلاشفة الملاعين حرباً، أرادوا ان يقوضوا دعائم ديننا وشرائعنا، ان يعتدوا على شرف بناتنا وزوجاتنا. ولكن صاحب الجلالة اصدر مشيئة وتم تحطيم جيوش البلاشفة وتم القضاء على المجددين. هناك فوق، في «الأرك» خلف المسجد الكبير، يجد الجلادون ولا ينهضون. العمل كثير وهم لا يقوون وحدهم على استئصال بذار هؤلاء الكفرة الآثمين حتى النهاية. لا يلحقون في حمل الجثث ورميها... وانا اتيتكم هنا كي انتقي من بينكم بضع سقاة اقوياء، آخذهم الى الارك كيما يساعدوا في رفع الجثث. يلزمنا ان نتطهر سريعا من هذا الدنس. وسندفع لكم أجراً حسناً. اضافة الى ذلك بوسعكم أن تخلعوا على الجثث كل ما يحلو لكم.

واذن، من منكم يوافق على المشاركة في هذا العمل النافع المرضي لله؟
وقف السقاة صامتين.
فتفوه المختار:
– لا تخجلوا، تكلموا، تكلموا.
واستمر الصمت.
فرفع حاجب الوزير الاول عقيرته:
– ما هذا، ترفضون تطهير بلاط صاحب الجلالة؟
وتنحنح بين السقاة واحد، تململ آخر، وحتى عبد القيوم المصروع غما رفع رأسه. ولكن أحداً لم ينطق بحرف. آنذاك خاطبهم حاجب الوزير مستحثا في المرة الثالثة فانبرى له متقدماً شهبندر السقاة:
– نحن نحمل للناس الماء الطاهر كي يتوضأوا به، ولكننا لا نغسل ادرانهم. لينظف القصر ذاك الذي دنسه.
– ماذا؟ ماذا يقول هذا الطفيلي؟– فح خادم الوزير يكاد الحنق يخنقه.– يترزق ويكسب معيشته من ماء صاحب الجلالة، ملأ بطنه مالا والان يتكاسل...
فقال الشيخ:
– كل ما نكسبه رزق حلال.
وقال شيخ آخر بحزم:
– لن نلطخ ايدينا بدماء الناس.
– كلا، كلا، لن نحمل الجثث، لن نحمل الجثث!
فتكلم المختار بلهجة مسالمة:
– طيب، كما تريدون، الأمر لكم. لقد أردنا أن نعرض عليكم عملا فيه منفعة، ولكنكم ترفضون، الأمر لكم هيا بنا يا سيد جيواتشي*، هيا نبحث عن آخرين. المتعطلون في بخارى ليسوا قلة والحمد لله.
قام الجيواتشي يشد قبضتيه على سوطه رامياً السقاة بنظرات شزرة.

* جيواتشي – رتبة واطئة في سلك الدرك.

انصرف الساعيان واقترب من السقاة حيدرقول.

— مرحى لكم يا اخوان، عوفيتم، لقد كان تصرفكم سليماً. عمل الجلاد أحقر الاعمال. عليكم بالتعاضد ابداً: اذا وقفتم كما اليوم يداً ليد لن يقوى عليكم أحد، لا المخاتير ولا خدم الوزير.

عرف عبد القيوم حيدرقول فانفرجت اساريره ثم اجلسه على المصطبة جنبه وسأله أن يحكي له عما يعرفه.

جلس حيدرقول جنب الشيخ وراح يسري عنه قدر وسعه. بعد ذلك صار يتكلم عن الامير وعن المذبحة المريعة التي اجترحتها سلطات بخارى وظل يتكلم الى أن همس عصا في أذنه ان الوقت قد حان للذهاب الى البيت.

ودع حيدرقول الشيخ وانصرف، اما عصا فملأ قربته بالماء وحملها قاصدا بيت كمال الدين مخدوم.

عند بابه صاح عصا بصوت عال: «السقاء!». دخل المطبخ وبعد ان افرغ القربة في الزير واستقام رأى كمال الدين واقفا في الباب حاسي الرأس وفي ثوب نسائي... لم يصدق عصا عينيه.

وقال كمال الدين مرتبكاً:

— أجل، أجل، هذا انا، لا تتعجب يا أخ! هل ترى الى أين وصلنا... ولكنني أثق بك ولهذا خرجت... تعال معي.

ومضى عصا خلف كمال الدين عبر غرفة كبيرة تشير الدلائل الى ان الاسرة كلها تعيش فيها، ثم عبرا الكرار المظلم ومن هناك ارتقيا سلماً ضيقاً اوصلهما الى العلية. كانت العلية عبارة عن غرفة صغيرة لها نافذة واحدة مغلقة بأباجور سميك لا يكاد الضوء الذى يتخلل شقوقه الضيقة يمس الاغراض المبعثرة على الطاولة: ابريق الشاي الاكواب وعلب السجائر والجرائد. على الارض قعد اسماعيل افندى محتضنا ركبتيه.

— ادخل، ادخل يا أخ! انظر كيف نعيش.

– نضطر للاختباء هنا من ضراوة جلادي الامير... وليس من المعروف متى تنتهي هذه الحياة.
واستفسر عصا:
– واذن فانتم لم تهربوا الى طشقند كما سمعنا؟
فاجاب مخدوم:
– كلا. ولم علي ان اهجر وطني؟ ما هو الضرر الذي الحقته بشعبي أو ببلدي؟ انا وهو – هنا أشار مخدوم برأسه الى اسماعيل افندى... انا وهو لم نقف ضد صاحب الجلالة ابداً. لم نشارك في المظاهرات ونحن لا نبتغي لدولتنا ولسلطاتنا الشرعية اى ضرر. كنا نؤيد المدارس التجديدية الحديثة المناهج وهذا كل شيء... وعموماً، من المستبعد ان يهمك هذا يا أخي. افضل حل هو الاختباء والانتظار ريثما تهدأ الاحوال ويستتب النظام. أظن انهم احتراما لوالدي الراحل لن يتعرضوا الي. ولكن لو وجدوا في بيتي هذا الرجل – وأومأ مخدوم ثانية الى الافندي – ستكون العاقبة وخيمة علي وعليه.
– كلام فارغ! – هتف اسماعيل افندي.
فقال مخدوم:
– لقد اختل عقله قليلا، فكم من الوقت وهو جالس هنا، اردت ان اقول لك...
وقاطعه اسماعيل افندى:
– بيكي، ممكن ان عقلي اختل قليلا، كما تفضل سيادته وقال، ولكنه من الواضح تماماً، انه هو قد فقد عقله فعلا. – واضاف ملتفتا الى مخدوم: – لقد قلت لكم ألف مرة وما زالت اكرر: خوفكم لا مبرر له. حتى الان لم يحدث شيء. ولن يحدث. من الواضح انهم يقبضون على انصار البلاشفة وعلى اولئك الذين يؤيدون الروس. وهم يعرفون اننا واياك لم نؤيد البلاشفة ابدا. من الواضح...
– ايدنا لم نؤيد – أى فرق؟ من هو الذى سيحقق في كل هذا؟
– بيكي، وأى ضير؟ هناك سأقول... من الواضح...

وغضب مخدوم:
- كفاك هراء، كفى. تظن انهم سيستمعون اليك في الارك، كيف لا! هناك المحكمة واحدة،- رفع مخدوم يده وهوى بها مشيراً كيف يقطعون الرؤوس هناك.- أنا لا أملك أقل رغبة في الهلاك بسببك. أترجاك يا عصا، خذ هذا الرجل وأذهب به الى مكان آمن، الى أي مكان! أنت في كل الاحوال...
وقاطعه اسماعيل افندى من جديد:
- بيكي. هكذا صرت تتكلم اذن؟ معنى ذلك أنهم سيقتلونك بسببي؟ في هذه الحالة، من الواضح أنني...
- ومن الواضح، من الواضح! لقد مللت! صاح عليه مخدوم.- استمع الي سأعطيك ملاية، تلفع بها واذهب مع عصا، سيجد هو لك مكانا تختبيء فيه.
كان عصا الذي لم يقرر أى شيء بعد، يستمع الى مناقرة الصديقين صامتاً. ولكن هذا الاقتراح مس حفيظة الافندي، فقام، تعمم بلفته واتجه هادئا الى الباب.
- أنا تحت حماية صاحب الجلالة. سأذهب ان كان حضوري يضايقكم. لست بحاجة الى أي عصا. بنفسي سأجد الطريق.
فحذره مخدوم:
- انك تقوم بغلطة.
- من الواضح تماماً...- قال اسماعيل وبدأ ينزل على الدرج.
تابعه مخدوم وعصا بنظراتهما عدة لحظات في صمت. وحين نزل ذاك عن الدرج واختفى التفت مخدوم الى عصا وقال:
- اذهب خلفه من فضلك، انظر ماذا سيحدث هناك. ولكن اياك أن تشير الي بحرف.
- طيب،- قال عصا وخرج من الغرفة.
سار الافندى بحزم وثقة لايتوارى عن أحد متجهاً نحو

الجامع الكبير وخلفه درج عصا يحمل قربته الفارغة على ظهره.

كان اسماعيل افندى يمر قرب المسجد حين خرج للقائه ملا في عمامة بيضاء كبيرة. انحنى الافندى للملا وأراد أن يتابع طريقه ولكن ذاك أوقفه:

– مهلا، مهلا، يخيل الي انني أعرف هذا الوجه.

وارتبك اسماعيل:

– أجل، أجل. أنا خادمكم المطيع اسماعيل.

– أه، اسماعيل – نطق الملا بلهجة متوعدة.– الكافر اسماعيل افندي. معنى ذلك أنك مازلت حيا، يا عدو الله!

صرخ الملا وانقض على الافندي.

على صرخته هرع من المدرسة المريدون والمشايخ كما واستجاب المارة. في القريب كان اسماعيل افندى طريح الارض ممزق الثياب يسيح دماً. وكان الحشد المهتاج حرياً أن يضربه حتى الموت لولا أن أوقفه ذلك الملا ذاته:

– انتظروا يا اخوان، لا تقتلوه. تعالوا نحمله الى الارك وهناك سينال جزاءه.

وحمل الحشد ضحيته المدماة الى الارك.

بعودته الى البيت روى عصا لحيدرقول نهاية اسماعيل افندى البائسة، فقال حيدرقول.

– نعم، هذه نتيجة ايمان المجددين الاعمى بشهامة صاحب الجلالة. ولكنه يوجد بينهم رجال نحن بحاجة اليهم وعلينا أن ننقذهم. أنا وأنت يجب أن نفعل هذا، أن نخرجهم من المدينة ونرسلهم الى كاغان.

فأجاب عصا:

– سأفعل كل ماتأمرونني به.

– لا تحزن.– وربت حيدرقول على كتف عصا.– لن يدوم الليل الى الابد، سيطلع النهار بدون شك.

هاهو اليوم الثالث على التوالي والمعلمة طنبور مشبغولة حتى أنها لا تجد لحظة تسترد فيها أنفاسها، أم الأمير بادشابيبي في قلق شديد، لا تكف عن التوجه بالرسائل الى الوزير الأول، الى بقية الوزراء، تستفسر، تسأل النصح، تستمع الى الخطابات الجوابية...

الخطر المحيق الذي كان يهدد أركان الامارة، الخوف من الثورة المحتملة، وضغوط «البخاريين الفتيان» أرغمت الامير في السابع من نيسان على أن يعلن على الشعب بياناً حول الاصلاحات. هذا البيان هو الذي أثار قلق بادشابيبي، لم تستطع التسليم به وكانت تتهم ابنها بالجبن وتلومه على تقصيره في قطع دابر المجددين في الوقت المناسب، وعلى أنه يزمع ذرق تعاليم الله وأصول الشريعة التي اختطها رسوله.

كانت تقول: «علام نغير نظام الادارة ونظام معاملة الرعية، ذلك النظام المعمول به منذ عصر رسول الله؟ فهل تكشف هذا النظام عن عيب، أم هل ظهر في هذه الشرائع نقص حتى لزم تغييرها؟ لم لم يستشرها، هي أمه، في ذلك؟ ما العمل الآن؟ ماذا لو سيطر المجددون وصاروا يتهكمون بالمؤمنين، ماذا لو رمت النساء الحجاب؟ ماذا لو ضاع الايمان وضاعت الشريعة؟»

وكان الامير يرد مطمئنا: «لا تقلقي نفسك دون مبرر. دولتنا القويمة تحظى برعاية الله وحمايته، واذا حقت مشيئته لن تتعرض أركانها المتينة لاي ضرر. في القريب العاجل سوف نمسح بعونه تعالى جميع المتمردين والمجددين عن وجه الأرض...»

وكان ما يكتبه لها الوزير الاول نصر الله على نفس هذا المضمون لكن كلماته، والحق يقال، كانت متبلة بقسط كبير من المداهنة والتذلل، كما أن البيان، حسب قوله، هو ذلك المحك الذي سيساعد في تمييز الصديق

عن العدو وهو الذي سيرفع الاصدقاء ويحط من قدر الأعداء.

لكن بادشابيبي لم تهدأ بالا. فقد ذاعت شائعات وتناقلت الأفواه أنباء تزعم أن حزب المجددين ينوى تنظيم مظاهرة تحمل البيارق وتنادى بشعارات «الحرية والمساواة!». كما تزعم أن النساء قد رمين الملايات والحجاب وأنهن خرجن الى الساحات يرقصن ويلهون ويستلمن للفجور، ناهيك عن أن الكافرين يرمون الملات والمشايخ بالحجارة ويزمعون على هدم المساجد والمدارس الدينية...

وكانت المعلمة تهدأ من روعها:

— لا تصدقي، يا سيدتي هذه الشائعات الكاذبة الفارغة. ليس لكل هذا أساس من الصحة. ان امارة بخارى لم تعدم عاهلها بعد ولايتهدد الرعايا أى خطر في ظل صاحب الجلالة.

وأشارت المعلمة طنبور على بادشابيبي أن تستفسر بنفسها من الخادمات اللائي يخرجن الى المدينة عما يجري خارج أبواب القصر.

حبذت العاهلة القلقة هذه الفكرة وأمرت بأن يؤتى بخادمة ما تكون نابهة بقدر كاف.

وسرعان ما امتثلت فيروزة أمام جلالتها.

— تكلمي، أي جديد في المدينة؟

فأجابت فيروزة بوقار:

— كل الرعايا يشعرون بالطمأنية تحت حماية سلطتكم وسلطة صاحب الجلالة...

وقاطعتها بادشابيبي:

— أعرف، أعرف. أنا كثيراً ما اسمع هذا الكلام. هاتي حدثينا عن كل شيء بلا زخرفة، هل فهمت، بلا زخرفة، اشرحي لها، يا معلمة، ماذا نريد منها.

انحنت المعلمة وتوجهت الى فيروزة:

— هل صحيح أن المجددين ينوون الخروج الى

الشوارع مع الأعلام، هل صحيح أنهم يزمعون على هدم المساجد والمدراس.

– ما عندى خبر!– أجابت فيروزة واضافت ملتفتة الى المعلمة:– في أحيائنا يعم الهدوء، لم أر هناك «مجددا» واحدا، والناس كما من قبل يأمون مسجد حارتنا يصلون خمس مرات في اليوم، كما لا تنقطع الدروس في المدارس. كل يوم أرى فضلية العلامة متوجها الى القصر على حصانه الابيض برفقة أعوانه ومريدى المدارس أما جنود صاحب الجلالة وخدمه فيملؤون الشوارع، حتى أن الواحدة منا تستحي أن تظهر...

– الحمد لله، الحمد لله، – قالت بادشابيبي مطمئنة.

– كلامك يمكن أن يصدق. اهدوا لها منديلا.

انحنت فيروزة وخرجت الى الردهة. بعد قليل خرجت الى هناك المعلمة أيضا كي تنقل للخزندار أمر بادشابيبي. قالت فيروزة للمعلمة بصوت خافت أن العم – الصائغ يشعر بالقلق ويريد أن يراها.

فأجابت المعلمة:

– أنا نفسي كنت أنوى الذهاب ولكنني لم استطع التخلص بأى شكل. جزاك الله خيرا، لقد طمأنت العجوز.

قالت فيروزة:

– الاحوال في المدينة قلقة، ولكنني أدركت أنه لايجدر بي أن أقول الحقيقة... يقول العم حيدرقول ان كل هذه الاصلاحات كذب وخداع. بالامس، يقولون، أن المجددين اصطدموا مع رجال الدين...

– مفهوم، – قالت المعلمة، – مفهوم لماذا يقلق عمك، فهو يملك لذلك كل الاسباب... يجب علي أن أذهب. سأتظاهر بالمرض وأستأذن بادشابيبي، أنت أيضا يجب تذهبي معي. سيكون علينا أن نقعد في البيت يومين– ثلاثة ريثما تهدأ الاحوال. العجوز يشعر بالوحدة ولا يليق أن نتركه بمفرده. خذى الهدية وأذهبي، سأناديك بعد قليل...

أحضرت الخزندار منديلا مزهراً من الشيت فأخذت فيروزة الهدية، قبلتها، وضعتها على عينيها، انحنت باتجاه المهاجع الداخلية وخرجت. أفلحت في أن تحمل نقلتين من الماء ريثما أرسلت المعلمة خلفها. وبأمر من صاحبة السمو توجهت المعلمة «المريضة» بصحبة فيروزة الى البيت.

كان عدد الحراس الذين يحرسون ابواب القصر أكبر من المعتاد بكثير. على الساحة الملاصقة للمسجد، على جانبي الممر المسقوف، من الفناء وحتى الباب، في كل مكان كان الجنود والضباط وموظفو الأمير يشغلون مواقعهم.

كانت المعلمة وفيروزة قد بلغتا نهاية الممر حين رأيتا رجال الوزير الاول يسحبون رجلا مربوعاً كثيف اللحية عريضها. كان يقطرد ما، عمامته البيضاء قد انحلت تماما وياقة جبته ممزقة ملوثة بالدم، كان المسكين خائر القوى بالكاد يجرجر قدميه ولكنه كان يشمخ برأسه عالياً وينظر الى معذبيه باشمئزاز واحتقار واضحين.

وخف كل من الجنود والموظفين الذين شغلوا الممر المسقوف «الى عمل الخير» وانهال بقبضته على هذا البائس التعيس.

ابطأت المرأتان الخطو ونظرتا في شفقة وروع الى ما يجري. وتوجه أحد الموظفين الى رجال الوزير سائلا.

— من هذا الملعون، ما هو اسمه؟

— هذا مجدد بارز، — أجابه أحد رجال الوزير. — كافر لعين اسمه صدرالدين عيني، انه واحد من ألد أعداء صاحب الجلالة!

سمع الموظف هذا فوثب من مكانه وهوى على قذال عيني بضربة كانت من القوة بحيث ترنح لها المسكين وسقط على الأرض. ولكن خدم الوزير الأول رفعوه ودفعوه الى الامام.

ما عادت المرأتان تطيقان رؤية هذا المشهد، خفتا في النزول، خرجتا من البوابة ثم انحدرتا على الدرج

الجنوبي الى ساحة الريغستان حيث كانت تنتظرهما عربة قوقاندية. ركبت المعلمة وفيروزة العربة، اسدلتا الستائر من الخلف ومن الامام وكشفتا عن وجهيهما. ترقرقت في عيني المعلمة الدموع. وقد فهمت فيروزة سر بكائها، كانت اللوحة المرعبة التي شهدتها للتو لا تزال مائلة أمام ناظريها.

تحركت العربة. عادة كانتا تحبان النظر من تحت الستائر الى الشوارع والاسواق المزدحمة الصاخبة، ولكن شيئا لم يسترع انتباههما اليوم، جلستا صامتتين كأنهما تصغيان الى زمزمة العجلات وقرقعة العربة... أخيرا نطقت المعلمة وهي تحدق في نقطة واحدة:

أضعت قلبي لست أسمع خفقه — شاخت غيوم الدمع في أجفاني
أضعت روحي لا أحس وجيبها — مذ راح خلي والسبات جفاني
رحل الصديق وخلفه لما تزل — تجري دموعي نهر وجد ثاني
والراحل المحبوب لم يرجع لنا — والدمع يجري والحنين ضناني.

وبعد برهة صمت أضافت:

– مادام الشاعر عيني يتعرض لمثل هذا الويل فان...

– ولم تستطع انهاء جملتها: انهمرت الدموع التي كانت تخنقها وسالت تغسل وجهها.

– لا تبكي، يا معلمتي العزيزة. – حاولت فيروزة أن تسري عنها. – سوف ينال الظالم جزاءه.

وكررت المعلمة من خلال دموعها:

– ولكن هذا عيني. الشاعر العالم صدر الدين عيني، أي اثم ارتكب؟ أيعقل أنه هو الاخر صار مجددا، ارتد عن دينه وكفر؟ لا أصدق، هذا كذب، خداع، افك؟

وسألت فيروزة:

– وهل كنت تعرفينه؟

فأجابت المعلمة:

– لقد سمعت عنه الكثير. عمك الصائغ يعرفه جيدا ويصادقه. انه كثيراً ما يتحدث عنه ويقرأ أشعاره. والآن، يظهر، أن عيني المسكين وقع في عداد المجددين الملحدين...

– ما الذي يمكن أن يفعلوه له؟

– ماذا يمكن أن يفعلوا له؟ انهم سيعذبونه، سينكلون به ويقتلونه.

هزت فيروزة رأسها في أسى. استحث العربجي حصانه وسرعان ما وصلت الراكبتان الى حي ميردوستيم، توقفت العربة قرب مصطبة صغيرة ازاء بيت المعلمة.

نزلت المرأتان من العربة، رفعتا سقاطة الباب ودخلتا الى صحن الدار. اتجهت فيروزة مع المعلمة الى الغرفة مباشرة لعلمها أن عصا ينقل الماء دائما في هذا الوقت ولا يقعد في البيت. كان الصائغ جالساً في مكانه المعتاد على لحاف منجد ضيق، كان يعمل وقد ألقى على كتفيه روباً منجداً مبرقشاً وعلى رأسه قبعة من الفرو.

– آه، هاتان انتما! – قال هو هاشاً باشاً. – من أين طلعت الشمس هذا النهار؟ أية ريح سعيدة حملتكما؟ عظيم، عظيم!

ورغم كهولته هب الصائغ من مكانه بخفة، لكنه حين اقترب من زوجته جمد كالمصعوق:

– ماذا حدث؟ كنت تبكين؟ هل أساء لك أحد هناك في الارك؟ هل تخاصمت مع أحد؟ عسى أن يكونوا كلهم فداء لك! انهم لا يساوون دمعة منك.

فقالت المعلمة غاصبة نفسها على الابتسام:

– كلا، كلا، لم يحدث شيء على الاطلاق. لقد أصبت بزكام ولهذا تسيل دموعي.

– لكنني أرى أنك، حمداً لله لست مريضة. لقد أساء لك أحدهم؟ فيروزة، قولي أنت، بالله، ماذا حدث؟

وأقرت فيروزة:

– عند باب الأرك رأت المعلمة عيني، ولهذا...

واندهش الصائغ أكثر من قبل، لم يفهم كيف كان للقاء بعيني أن يسبب بكاء زوجته.

– وماذا حدث لعيني، – سأل هو، – لعلهم قد اعتقلوه أيضاً متهمين اياه بالتجديدية؟

وحكت له المعلمة كيف اقتيد عيني الى الارك مجرح الوجه، ممزق الجبة يقطر دما، بعد ذلك تهالكت متعبة على العتبة وراحت تبكي:

– ما أكثر أمثاله من الأبرياء الذين يرزحون في الاغلال ويتعرضون للتعذيب؟!

وقال الصائغ وهو يقعد في مكانه:

– ما داموا قد اخذوا عيني، فانهم، ان لم يكن اليوم فغدا قد يأتون خلفي، ما هذا الزمن؟! رحمتك يا رب! هل ثمة مكان في الدنيا يستطيع المرء أن يجد فيه الهدوء والطمأنينة!

خيم على الغرفة صمت مطبق. وبمرور بعض الوقت خرقه الصائغ نفسه:

– ولكن كيف الخلاص من هذا كله؟! دموعنا لن تجدى نفعا. هل علينا أن نستسلم للقدر؟ آه، تذكرت، عندنا ضيف، لقد جاء حيدرقول.

سمعت فيروزة هذا النبأ وأحست في الحال ببعض الفرج.

– ما أحسن أن العم حيدرقول أتى، سأقول له، فمن المحتمل... – قالت هي مستبشرة وهرولت خارجة من الغرفة.

تبادل الصائغ النظرات مع المعلمة.

كان حيدرقول مضطجعا في العلية على مرفقه يتفرج على الشارع من النافذة الصغيرة. ابتهج لقدوم فيروزة وراح يسألها:

– كيف تأتى لكما أن تأتيا الى البيت نهاراً؟ لم أكن آمل أن أراك؟ كانت عندى أعمال مهمة وقد عزمت أن أذهب مع عصا. ولكن كيف الحياة؟

– لا بأس، – قالت فيروزة. – في الارك رأينا الحراس يسوقون ويضربون شاعرا اسمه عيني، المعلمة مازالت تبكي حتى الان... يقولون ان عيني انسان جيد، شاعر وعالم كبير.

فقال حيدرقول:

– أجل، أنا أعرف عيني، لقد زرته مرة مع صديق في المدرسة، انه انسان جيد يفكر بمصلحة الشعب. أيعقل أنهم اعتقلوه هو الاخر بصفة مجدد؟

– نعم، كانوا يسوقونه ويسمونه مجدداً وكافراً.

– الوضع في المدينة مريع، لقد ندم الأمير على بيانه ويريد أن ينتقم من المجددين وأن يلقي الهلع في قلوب الجماهير.

وترجته فيروزة:

– عمي العزيز، حبذا لو تجدوا طريقة لانقاذ عيني! ان المعلمة تبكي بمرارة...

– كيف ننقذه؟ – قال حيدرقول متفكرا وقام من مكانه قرب النافذة. لقد وضعت هنا خلف الصندوق غرضاً، كان علينا أن نحمله لاولئك الذين خصص لهم... عندما يأتي عصا قولي له أن هذا العمل أجل الى يوم آخر. أما الان فأنا مسافر الى كاغان.

– اشرب شايا على الاقل.

– كلا، سأتأخر، بعد عشرين دقيقة سينطلق القطار، علي أن ألحق. سآتي غداً اذا استطعت. احذري أنت وحذري الآخرين أن يلمسوا هذا الغرض الذي اتركه هنا.

– طيب، طيب.

ودعت فيروزة حيدرقول ودربست الباب بالمرتاج.

كانت كاغان الملجأ الوحيد لاولئك الذين ضاقوا بملاحقات السلطة في بخارى. هنا فقط كانوا يجدون ملاذاً من جلادي الأمير وسفاحيه، وفي ذلك الوقت الذى تعود اليه روايتنا كان قد شكل في كاغان مجلس (سوفييت) لنواب العمال والجنود. ولكن السلطة هنا كانت لاتزال في

أيدي من كان يملكها في عهد القيصر الابيض: في أيدي ميللر وشولغا ذاتهما، مع فرق وحيد هو أنهما صارا يحكمان الآن بمباركة الحكومة الموقتة. وقد سعى البلاشفة في كاغان الى فضحهما وكانوا يساعدون رفاقهم في بخارى بكل الوسائل الممكنة.

دعا شيوعيو عنبر التصليح وعلى رأسهم سميرنوف وعمرجان وحيدرقول الى اجتماع طارىء بمناسبة الاحداث المقلقة في بخارى. وقد قرر المجتمعون ارسال حيدرقول ومعه رفيقين آخرين الى بخارى للارتباط ولنقل بعض الاسلحة. كان من الضروري جداً دعم الروح المعنوية للثائرين والمتعاطفين في مواجهة سطوة الرجعية في تلك الايام الصعبة.

حمل حيدرقول معه مسدسات وعيارات نارية لتوزيعها على الرفاق ولكنه حين سمع نبأ اعتقال عيني أسرع في العودة الى كاغان.

وجد عمرجان في العنبر فحكى له عما حدث. أرسلا في الحال خلف سميرنوف، جاء أمان وحين ألتم الجميع بدأوا يفكرون في طريقة لتحرير المعتقلين. تقرر رفع الأمر الى اللجنة التنفيذية لمجلس كاغان لنواب العمال والجنود.

توجهت اللجنة التنفيذية الى الحكومة الروسية طالبة التدخل. ولكن ميللر أجاب في الهاتف بلهجة جافة:

— الحكومة البخارية نفسها ستضع حداً للشغب والفوضى. لقد أوضحنا رأينا في هذا الصدد ولهذا لاتوجد حاجة الى التدخل المباشر من قبل الحكومة الروسية.

حين سمع حيدرقول هذا استشاط غضباً:

— لا فرق بين القيصر وهؤلاء الحكام كلهم سواء.

على هذا لم يتوان سميرنوف في الرد ضاحكا:

— وهل تذكر كيف كنت تبحث عن الحماية عند القيصر «الابيض»؟ فهمهم حيدرقول:

— كنت أبحث، كنت أبحث، ما كل ما تبحث عنه تجده... كل القياصرة وكل البايات يجب أن يرموا في

السجن، آنذاك فقط يستطيع الانسان الفقير أن يتنفس الصعداء.

— حسناً، حسناً، أنا لم أقصد الا التذكير،— حاش سميرنوف حيدرقول من منكبيه.— دعونا نفكر، ماذا يمكن أن نتدبر.

— ماذا نتدبر؟— احتدم حيدرقول من جديد.— سأحمل نفسي وأذهب الى ممثليتهم هذه، انهم لن يفلتوا مني، فالمجالس مهما يكن تدعمنا، سأذكر هذين البابيين ميللر وشولغا بذلك. دعهما لايطمأنا زيادة عن الزوم.

فقال سميرنوف بجدية:

— وما الخطب! اذهب، ماهو رأيكم يارفاق، أخال أن هذا لايخلو من المغزى...

وافق عمرجان وأمان على ذلك وفي القريب كان حيدرقول قد دخل مبنى الممثلية الروسية.

— صاحب الفخامة السيد ميللر لايستطيع استقبالكم، انه مريض.

فسأل حيدرقول:

— والمستشار، هل المستشار في غرفته؟

— لقد ذهب في شؤونه.

— في بخارى تعربد الرجعية وتسطو، اعتقل الكثير من الناس الفاضلين، حياتهم يهددها الخطر، كل ساعة وكل دقيقة غالية الثمن!— قائلا هذا دخل حيدرقول الى مكتب ميللر بدون اذن ووجده يقرأ جريدة.

ميللر الذي استمع الى كلمة حيدرقول الملتهبة استقبله بالكلمات التالية:

— أنا أفهمكم، نحن أيضاً نعرف عيني وميرزانصر الله وميربابا محسن زاده، والآخرين، نعرفهم جيداً، وقد تكلمت شخصياً مع الوزير الأول بهذا الصدد. لقد وعدني بأن يطلق سراحهم.

— انتم قادرون أن تصدقوا وعود الوزير الأول الكاذبة أما نحن فلا نثق به. — هتف حيدرقول وأضاف: —

–وأعتقد أن أفضل حل هو أن تتوجهوا انتم الى بخارى على رأس فصيل من القوزاق وتحرروا المعتقلين.

فأجاب ميللر على مهل:

– أنا لا أملك الحق بذلك. سيكون هذا تدخلا مسلحاً في الشؤون الداخلية لحكومة بخارى. صدقوني، نحن أيضاً نريد حل هذه القضية ولكننا ننتهج سياسة دقيقة ونسعى الى ذلك بالطرق السلمية.

فقال حيدرقول بحزم:

– مفهوم، لم يكن يجدر بنا أن ننتظر منكم أكثر من ذلك. علينا أن نحل الأمر بنفسنا.– ومضى دون أن يغلق الباب خلفه.

في اللجنة التنفيذية وجد عدة هاربين من بخارى ومعهم سميرنوف وعمرجان. سمعوا منه ما بدر عن ميللر وقرروا التوجه باسم سوفييت النواب ببرقيات عاجلة الى سمرقند وطشقند وكيركي طلباً للمساعدة العسكرية. جاءهم رد منظمات سمرقند في العاجل، اخبروهم أن فصيلا من العسكر بقيادة الجنرال كولتشانوف قد خف لمساعدة شيوعي بخارى. بناء على هذا اتخذت اللجنة التنفيذية لسوفييت كاغان قراراً بالتوجه الى بخارى وتحرير المعتقلين حال وصول فصيل كولتشانوف. أما من طشقند وكيركي فقد أخبروهم أن الممثلية الروسية قد أبلغتهم بأن الاضطرابات في بخارى قد سحقت بقوة الحكومة البخارية ذاتها وأنه تم تحرير المعتقلين. وعليه توجه حيدرقول باذن من اللجنة التنفيذية الى مبنى التلغراف للاتصال بهاتين المدينتين من جديد.

هناك خاطب حيدرقول عمال التلغراف بالتالي:

– في بخارى تسفك الدماء، اعتقلت خيرة اصدقائنا، وهم يتعرضون للتعذيب وللقتل. ان نحن لم نساعدهم هلكوا جميعاً.

فسأل مدير التلغراف:

– وماذا بوسعنا نحن أن نفعل؟

فردت فتاة كانت تجلس خلف جهاز البرق.
– بوسعنا أن نذيع الانباء.
فوافقها حيدرقول:
– صحيح، ان أنتم بعثتم برقياتنا في الوقت المناسب سيهبون الى نجدتنا سريعاً.
– هذا واجبنا،– نطق المدير فتصدت له تلك الفتاة اياها:
– ولكنكم امسكتم البرقيات المعنونة الى طشقند؟
فصرخ ذاك عليها:
– ماذا تقولين؟ لقد أرسلنا جميع البرقيات.
فتدخل شاب آخر من بين العاملين.
– علام النكران، لقد وقعتم في فخ ميللر، وليس سراً على أحد انكم تضرون بعمل اللجنة التنفيذية لسوفييت نواب العمال والجنود.
فقال حيدرقول:
– معنى ذلك أن برقياتنا لم ترسل الى طشقند؟ اللجنة التنفيذية تنحيكم عن منصبكم.
ثم طلب حيدرقول الى عاملة التلغراف أن تبرق عاجلا الى اللجنة التنفيذية لسوفييت طشقند حول الوضع الحرج في بخارى، حول غليان الرجعية وحول الحملات المسعورة وأعمال القتل وحول أنه بالكاد سيتيسر تخليص المعتقلين البؤساء بدون مساعدة الطشقنديين الأخوية. وفي تلك العشية نفسها أبلغ حيدرقول اللجنة التنفيذية بكل الذي جرى في دائرة التلغراف.
وقضى حيدرقول تلك الليلة دون نوم، كان قلبه في بخارى مع البؤساء المعذبين. في الصباح وصل عصا مستقلا القطار الأول وحكى أن عيني وميرزانصرالله قد تعرضا كل لخمسة وسبعين جلدة بالعصا، كما وجاء بخبر اعتقال عدد كبير آخر من الناس.
تحت الحاح الشيوعيين توجه أعضاء اللجنة التنفيذية لسوفييت كاغان الى ميللر وأعلنوا له عن عزمهم على

اعتقاله ان هو لم يتخذ تدابير حاسمة لايقاف الغلواء الرجعية. ومن حسن الحظ أن النجدة وصلت من سمرقند في هذا الوقت كما جاء أمر صارم من الحكومة الموقتة يقضي باغاثة بخارى على وجه السرعة.

ضاقت في وجه ميللر الحيل ولم يبق له الا التوجه الى بخارى في رفقة الفصيل الذى وصل من سمرقند. معهم مضى أيضاً ممثلو سوفييت العمال والجنود في كاغان وسمرقند وكان حيدرقول في عدادهم. توقف الفصيل خارج أبواب المدينة ودخل اليها وفد برئاسة ميللر وشولغا. حين عرف الوزير الاول بالأمر أسرع في اخلاء سبيل المعتقلين وكان حيدرقول أول من استقبل المعذبين البائسين بالعناق والقبل. أجلس عيني وميرزا نصرالله في فيتون وحملهما الى خارج المدينة، الى ساحة محطة القطار. هناك استقبل المعتقلين المحررين بالفرح وهتافات التحية حشد غفير من الناس.

كانا مشوهين، خائري القوى يتراوحان بين الموت والحياة فوضعوهما في عربة خاصة أقلتهما الى محطة كاغان ومن هناك نقلا الى المستشفى. أما حيدرقول فلبس القبعة برأسه وقفل راجعاً الى بخارى. من فيروزة علم أن المعلمة ابتهجت بهجة لا حد لها لنبأ تحرير المعتقلين وأنها دعت الله أن يوفقه هو حيدرقول وأن يسدد خطاه.

١٥

كانت بادشابيبي، أم الأمير عالم خان مضطجعة على متكأ تغطيه ألحفة حريرية ومخملية في غرفة صغيرة ولكنها نفيسة الأثاث. قربها ركعت على ركبتيها خادمة أخرى، أكبر سناً، تهوي لها بمروحة كبيرة. خلف ستارة مخملية ثقيلة كانت تقسم الغرفة الى نصفين جلس ميري أسد، أحد كبار موظفي بخارى وأعيانها. كان ميري اسد هذا أخ لبادشابيبي بالرضاعة فكانت تستقبله في مهاجعها

بكل بساطة مثل قريب عزيز وما كانت النساء اللائي يحطن بالسلطانة ليتحجبن عنه.

اختلف ميري أسد الى الحرملك كي يفضي لبادشابيبي ببعض الأنباء الهامة وكي ينقل لها في ذات الوقت متفرقات من لقالق البلاط وشائعاته.

وبدأ على غير عجل:

- والله صحيح ما يقال: أوعز للأحمق أن يأتيك بالطاقية فيأتيك بالرأس مع الطاقية. - وقطب ميري أسد حاجبيه. - كبير القضاة والمفتي والرئيس شمروا أكمام غيرتهم وانبروا للعمل. لو تلقى هؤلاء الخدام أمراً بابادة الجنس البشري كله لما بقي على الأرض انسان واحد بعد ثلاثة أيام. واذا لم نوقفهم في الوقت المناسب فأنهم لن يذبحوا المجددين وحسب، بل وسيذبحون بعضهم البعض أيضاً. كلا هذا لا يجوز... ليس عبثاً يقال: أعطوه ساطوراً كي يقطع الحطب فلوح على المسجد! وقاطعته بادشابيبي:

- ما الذي تقوله هناك؟

ومدركاً أن العجوز لم تكن تستمع اليه استاء ميري أسد وسكت.

- هات تكلم، ماذا حدث؟ لماذا أنت صامت؟

فقال ميري أسد بحمية قلبية:

- الكل منشغل بالمجددين، نقبض عليهم، نقتلهم ولا نرى أن البلاشفة يعربدون تحت أنوفنا. انتظروا قليلا وسترون: ان لم يكن اليوم فغداً سيعلن البلاشفة العصيان في بخارى وفي الريغستان ذاته.

- لتبتلعهم الأرض جميعاً! مثل البلاشفة كمثل المجددين ينبغي القضاء عليهم جميعاً... الفول أخو الحمص لكنه يخيل الي أن قلبك يتألم على هؤلاء المجددين الملاعين.

- هذا ما كنا نحسبه... حاول أن تفتح فمك، أن تقول الحقيقة، وسيسجلونك في عداد المجددين فوراً.

- وأنت لاتفتح فمك، بدونك ليسوا قلة عندنا أولئك الذين لا يطبقون افواههم. - وأضافت بلهجة ألين: - الأفضل،

هات حدثنا عما يجري في البلاد. كيف الأحوال في الأقضية؟ هل الأوضاع هادئة هناك؟

– يعم السلام والهناء. رعاياكم الأوفياء يقرأون الحمد ويدعون بالصحة للأمير المعظم، – أجاب ميري أسد مقرراً أن بادشابيبي في مزاج عكر وأنه على كل حال لن يوفق في كشف الحقيقة لها.

– هذا يقوله لنا الجميع. كيف الأحوال في كاغان؟ هل أرسل لنا القيصر الأبيض رجالا أم لا؟

– أريد أن أقول الحقيقة وأخاف أن يحل علي غضبكم.

– ليس ثمة ما يستدعي الخوف. مثلما أغضب بوسعي أن أغفر وأرحم، هذا في نطاق سلطتي... تكلم، أنا لا أغضب على الحق.

– واذن اسمعوا، – تجرأ ميري أسد. – انهم يخدعونكم، لا أمل في القيصر الأبيض بعد الآن. ما عاد له ولا لمقربيه وجود – لقد قتلهم البلاشفة، في كاغان ايضاً وضع البلاشفة أيديهم على الحكم...

– رحماك يارب، اغفر لي ذنوبي، – ندبت بادشابيبي وقد أخذ بها الهلع كل مأخذ. – هذا آخر الزمان. هؤلاء البلاشفة هم عن حق أتباع ياجوج وماجوج. اذهب، فوراً الى الوزير الأول وقادة العسكر ومرهم أن يرسلوا أبناءنا الأوفياء الى كاغان. دعهم يقبضون على البلاشفة ويقطعون للجميع رؤوسهم.

انحنى ميري أسد بوقار وانصرف. بعد ذلك أمرت بادشا بيبي بأن ترفع الستارة ودخلت المعلمة الى الغرفة.

– ادخلي، أدخلي يا عزيزتي، – رحبت بادشابيبي بها. – اعزفي لي شيئاً يا عزيزتي، بددي غمي. يا بنات، – صاحت هي للخادمات، – نادين الخالة قاراؤولبيغي، لتأت الي.

ودخلت الخالة قاراؤولبيغي وهي تنحني في وقار واضعة يديها على صدرها. تناولت المعلمة الطنبور، أدارت المفاتيح، شدت الأوتار. ثم ضربتها وأصغت طويلا لنغمتها العذبة الراعشة. ساد الصمت، وأخيراً اضطربت الأوتار

دفعة واحدة وملأ الغرفة لحن «الدموع» الشجي. لكن النغم الحزين لم يفعل الا أن أغاظ السلطانة المتكدرة حتى مِن غير هذا.

- كفى، -قاطعت هي العازفة بصلف، -غني قصيدة غزلية.

مست هذه الصيحة حفيظة المعلمة، فضمت يديها على الطنبور ولكنها لم تتجرأ على الرفض. راحت تغني قصيدة غزلية ولكن بادشابيبي قاطعتها من جديد.

- كأن حجراً يثقل قلبي، - التفتت هي الى الخالة قاراؤولبيغي بوقار. - لا أدري ماذا بي. قلبي يتألم، اه، كم يتألم.

- الله الحفيظ يحفظ جلالة الأمير، - قالت الخالة قاراؤولبيغي بوقار. - لاتقلقي قلبك بالهموم. ان صاحب الجلالة الأمير وخدمه الاوفياء لن يسمحوا لأحد بالنيل من بلادنا. ان شاء الله سيكون كل شيء على مايرام... الاحسن لو تقرأ لك المعلمة شيئاً من «الدراويش الاربعة». سابقاً كان يقال ان من يقرأ «الدراويش الأربعة» في بيته أيام المحن والاحزان، من يفتح قلبه لهذا الكتاب المقدس تتحقق كل أمانيه.

- وما الخطب، اقرئي، يا معلمة.

اخذت المعلمة الكتاب من المشكاة وراحت تقرأ. ولكن القصة البديعة عن الشاه الذي كان يتعذب ويعاني لانه عدم الولد والوريث لم تستهو بادشابيبي فقاطعت القارئة:

- حسناً، يكفي. ليس الوقت للكتب الآن. انهضي يا خالة، أرسلي الي قائد العسكر، واذا لم تجديه اذهبي الى الوزير الأول وقولي له أن يأمر بالقضاء على جميع المجددين، على جميع الروس وعلى جميع الكافرين فوراً. وقولي له أن يبلغني حال أن ينفذ هذا.

كانت الخالة قاراؤولبيغي مخلصة لبادشابيبي اخلاصاً منزهاً عن الغرض، كانت تعتبر يدها اليمنى. ولكن حتى هي لم تكن الآن جد واثقة في أن أمر مولاتها سينفذ. ومع ذلك مضت الهوينا الى الفناء الخارجي تفكر درباً في أمثل طريقة لتنفيذ هذا المطلب.

..في ذات الوقت في غرفة غير كبيرة بالحرملك «الحمام» احاطت بفيروزة عشرة أو اثنتا عشر من سبايا الأمير الشابات. كن يحدثنها عن حياتهن، ويتشكين من أقدارهن التعيسة. وكانت بينهن استاد ايفع ساكنات الحرملك، أقلهن خبرة وأمهضهن جناحاً.

في ذلك اليوم حين أحضرت استاد الى الأرك اقنعت المعلمة والخالة قاراؤولبيغي السلطانة بألا تعرضها على الامير، فالفتاة ليست جميلة اضافة الى أنها جاهلة تماماً وسميلة العقل. فأوكلت بادشابيبي الى المعلمة أمر تربيتها. من جهة أخرى نبهت فيروزة والمعلمة على استاد أشد التنبيه أن تتجنب الوقوع على عين السلطانة وأن تتصنع البلاهة. وسار كل شيء على خير وجه الى ان عرفت بهذه القصة سفرجية البلاط التي تعشمت في ذلك سانحة جيدة لرش الملح على جروح غريماتها. وعند أول فرصة مناسبة افضت لمولاتها بهذه القصة. لم تصدق تلك ولكنها أمرت بأن تمتثل استاد أمامها فهي تريد النظر الى الفتاة بنفسها.

ولحسن الحظ لم ترق استاد للسلطانة، وبصفة خاصة أذهلتها في الفتاة بلاهتها فقالت:

– لم اتيتني بهذه البنت شبه المجنونة؟– عبثاً تحاولين الطعن بالمعلمة.

– لأكن فداء لشعرة واحدة من رأسك. أقسم لك أنها تتظاهر. اذا سمحت لي جعلت منها انسانة عاقلة في بحر أسبوع واحد.

– وهل من الممكن تحويل الابله الى عاقل في بحر أسبوع واحد؟!– اندهشت بادشابيبي.– انك تقولين أشياء غريبة يا سفرجية.

وقد تكون السفرجية قد ندمت فوراً على فعلتها ولكن التراجع كان متعذراً. فركعت بين قدمي السلطانة وكررت:

– حق ما تقولين، يا صاحبة السمو، يستحيل تحويل نصف المجنون الى عاقل. ولكن هذه الفتاة طبيعية تماماً، لقد أمرت بأن تتصنع الجنون.

– ليكن لك ما تريدين، نحن نسمح لك، حاولي، – وافقت بادشابيبي التي بدأت تمل كل هذا الحديث.

عادت السفرجية الى غرفتها وأمرت بأن تقتاد استاد اليها. حين جيىء بالفتاة استقبلتها بوداد. قالت لها:

– مرحباً يا حبيبتي، اذا كنت تريدين السعادة والثروة استمعي الي ولا تصدقي من الآخرين أحداً. بادشابيبي نفسها تريدك أن تخدميها – فهاك أية سعادة وقعت لك، هل كان بوسعك أن تحلمي بذلك؟ أما اذا أغضبت صاحبة السمو بنمرك الحمقاء فانهم سيلقونك في جب «الاربعين فتاة».

ابتسمت استاد ببلاهة ناظرة في عيني السفرجية وقالت عن بساطة قلب:

– في طفولتي، عندما كنت صغيرة دخلت في أذني أم أربع وأربعين.

خرجت السفرجية عن طورها ومنت على استاد بصفعتين. في الحال أيضاً نادت للخادمات وأمرتهن أن يرمين الفتاة في القبو. قضت استاد هناك يوماً كاملا بلا طعام ولا ضوء وفي وحدة تامة. في اليوم التالي أمرت السفرجية بأن تفرش أمام استاد مائدة عليها حلوى وشاي وحليب وخبز وسكر نبات وحلاوة. قالت هي للفتاة أنها رأت أباها وان ذاك يوصي ابنته بأن تتبع في كل شيء نضائح الخالة السفرجية. ظلت استاد صامتة مطرقة الرأس.

– طيب، – قالت السفرجية بهدوء –ما دمت لاتريدين لا داعي. أنت وحدك تتضررين. –وطردت استاد الى الحرملك.

ولكنها منذ هذه اللحظة صارت وصارت معها تابعاتها يراقبن استاد في كل حركة وفي كل كلمة. وكثيراً ما كانت السفرجية تدخل في عز الليل الى الغرفة حيث عاشت السبية فتضربها وتهددها وتحاول اقناعها وخداعها. ولم تكن الفتاة تعرف كيف تتصرف وكيف تتخلص من هذا العذاب.

– سوف تحرمني السفرجية من عقلي –تشكت استاد لفيروزة. – ماعدت أقدر على الصبر...

كان قلب فيروزة يجمح الى هذه الفتاة المعذبة. وقد اختلط فيه بشعور العطف شيء من الاحساس بالذنب: لقد طالت التمثيلية زيادة عن الحد وعادت على استاد بمخاوف جديدة و بآلام لا تطاق. ولكن فيروزة كانت تعرف أن الخلاص بات وشيكاً: الخلاص للجميع وليس لاستاد وحدها. الامر يتطلب مزيداً من الصبر، مزيداً من الشجاعة... وكون استاد قد تصنعت البلاهة لم يضع عبثا، بل أدى دوره في نهاية الامر، فهي لم تصبح محظية الأمير وهذا مالم توفق اليه سبية أخرى حتى الآن. ألقت فيروزة على استاد نظرة قصيرة وأوحى لها شعور باطني مصيب أن الشفقة الزائدة لاتصلح الآن، فهي ستفل في عضدها وحسب، واستاد الآن، اكثر من أى وقت مضى بحاجة الى قوة العزيمة. ومن يدرى ماذا ينتظرها اليوم أو غداً... وقالت فيروزة بجفاف:

– ولكن اياك أن تنسي أن عشرات الأعين تترصدك. تذكري هذا طوال الوقت... لقد صبرت على الكثير ولم يبق الا القليل...

أما لبقية نساء الحرملك فكانت تقول:

– تخفن من الجميع، ترتعدن أمام الجميع وتنسين أن الكلاب لا تعض الشجاع...

فكن يجبنها:

– وماذا بوسعنا نحن أن نفعل. نحن عزل وعند بادشابيبي السلطة والعسكر والقوة...

– ليس الا لوقت قريب كان حراس الوزير الأول يتصرفون في كاغان وفي الاقضية كأنهم في بيتهم الخاص. أما الآن فانهم يخشون حتى الظهور هناك. هذا أشبه...

ولم تكمل فيروزة، سمع خلف الباب وقع أقدام حثيثة وصمت الكل مترتقباً. دخلت الغرفة فتاة متلهفة تلهث.

– السفرجية قادمة – قالت هي.

تخبأت فيروزة في الكرار وتحوقت الفتيات سريعا حول أكبرهن. عندما دخلت السفرجية الغرفة برفقة خادمتين كانت الكبرى تتابع حكايتها وكأن شيئا لم يكن:

– أعطت العجوز للسلطانة قطعة سكر نبات وقالت: «كليها قبيل النوم وفي الصباح تلدين صبياً...»
– فيم الامر، لماذا اجتمعتن؟– سألت السفرجية بامتعاض.
فأجابتها احدى الفتيات مشيرة الى استاد:
– نريد أن نقيم عرساً لدميتنا.
– أخشى أن الوقت لن يكفيكن لذلك.– بحثت السفرجية بعينيها عن استاد التي انزوت في الركن وجلة وأمرت الخادمتين: – اذهبا بها الحمام، بعد ذلك ألبساها. احرصا على أن تروق لصاحب الجلالة...
انقطف وجه استاد ولكنها استردت حضورها في الحال.
– صاحب الجلالة، صاحب الجلالة!– هتفت الفتاة باعجاب وهي تصفق بيديها.
أخذتها الخادمتان من تحت ابطيها ومشت هي بينهما تتراقص مثل طفلة عابثة. حين بلغن الباب التفتت استاد الى الفتيات ومدت لهن لسانها. فنظرن اليها بعطف وشفقة.
– انتظرا،– هتفت السفرجية للخادمتين.– انتظرا، ماذا لو طلعت هذه الحمقاء بنمرة منهذا النوع في حضرة صاحب الجلالة؟– وسرت القشعريرة في جسد السفرجية عند هذه الفكرة فقالت بصوت جهور أجش:–اتركاها.
نظرت استاد الى معذبتها نظرة غائبة. من يدرى أية أفكار عبرت خلدها في هذه اللحظة. وفجأة هوت على الارض وراحت تبكي، بكاء خافتا ومريرا كما يبكى الناس في المصائب الكبيرة الحقيقية.– اشاحت السفرجية عنها وانصرفت.
سمعت فيروزة كل شيء من خلف باب الكرار الرقيق. خرجت الى استاد، حدبت عليها وأمسكت يدها المتهالكة بلا شعور. كانت تلك اليد باردة ترتعش بعض الشيء فشدت فيروزة عليها وابتسمت الفتاة بامتنان. هذا كل ما استطاعت فيروزة أن تفعله، فهي بدون هذا تأخرت هنا أكثر من اللزوم. ودعت فيروزة الفتيات على عجل وانصرفت.

فيما تحمل قرب الماء كانت فيروزة تصب على رأس الأمير كل اللعنات التي تعرفها. أيعقل أن هذا الحيوان الفاجر سيستمر طويلا في التهكم بالبشر؟ كلا، ستحل، قريباً ستحل نهايته. وراحت فيروزة تتصور في بهجة كيف ستهوي وتتناثر قوته الموهومة لدى أول ضربة تحل بها، كيف سيحمل عكازه ويرحل عن الارض التي لم يعزها يوماً، وكيف سيكيل اللعنات لشعبه الذى لم يحبه أبداً...

وأخيراً انتهى يوم آخر حافل بالهموم أرادت فيروزة أن تذهب الى البيت سريعاً ولكنها، كأنما نكاية، وقعت على عين الخالة قاراؤولبيغي فأمرتها تلك أن تساعد في تنظيف الحرملك وترتيبه. وهاهو القمر قد طلع. والناس قد صلوا العشاء وآن أوان النوم، لكن العمل لما ينتهي ولا تبين له نهاية. كان الليل متأخراً حين استعدت فيروزة للانصراف.

– أنت ماذا، أفي آخر الليل، وحدك؟ – قالت الخالة قاراؤولبيغي.

– انا لم أخطر زوجي...

– طيب،– أومأت الخالة قاراؤولبيغي برأسها متفهمة.

– قولي لسلامات بيبي أن تطلب من رئيس العسس باسمي أن يرسل من يرافقك الى حي النحاسين.

وشاكرة الخالة قاراؤولبيغي ومتلفعة بالملاية غادرت فيروزة الحرملك، أرسل رئيس العسس خلفها جندياً مسناً وبصحبته قطعت الممر المسقوف ومضت الى باب الارك الكبير. كان الباب مغلقاً فقال مرافقها الجندى للحراس شيئا وسمح لهما بالخروج الى المدينة. على الجسر لاحظت فيروزة عربتين أليفتين ترافقهما حراسة مشددة. سألت فيروزة الجندي:

– قولوا بالله، أليست هاتان العربتان من الحرملك؟ علام يقف الجنود قربهما؟

– في كل يوم أنظمة جديدة – أجاب الجندي متملصا.– ماذا، هل أرافقك لاحقا أم تذهبين وحدك.

– سأذهب وحدي – قالت فيروزة وحثت الخطو. خلف الريغستان التقت بعصا.

– ماذا حدث؟ لم تأخرت هكذا؟

فحكت له فيروزة باقتضاب على كل الذي جرى في الارك ثم سألت همساً:

– هل كان العم حيدرقول عندنا؟

– كان.

– وهو الان في البيت؟

– لا أعرف، محتمل. لقد وعد أن يعود. أنا انتظرك هنا منذ ساعات.

تلفتت فيروزة وقالت بصوت أخفت من ذي قبل:

– أنا على علم أكيد: اليوم بدأوا يحملون الذهب والنفائس من الارك، يريدون أن يخبأوها.. وقاطعها عصا:

– أين؟

– سأحاول غدا معرفة هذا. للتو رأيت على الجسر عربتين، يرافقهما الجنود.

– لعلك أخطأت؟

– كلا، – قالت فيروزة. – ما أن بدأت تعتم حتى شرعوا يحملون عربتين بالذهب والاحجار الكريمة والنفائس من ذخائر بادشابيبي. لقد همست لي النسوة بذلك خفية، ولم يأخذوا كل شيء. غداً، على الارجح سيأخذون الباقي. ولهذا لم أبق في الارك حتى الصباح، ينبغي اخطار حيدرقول بذلك.

لم يجدا حيدرقول في البيت. تردد عصا عدة دقائق بين انتظار الصباح أو المضي حالا والبحث عن حيدرقول كلا، يجب الذهاب فوراً... فماذا لو تعذر على فيروزة أن تعرف غداً أين تنوى بادشابيبي أن تخبىء الخزينة. واذن يجب مراقبة العربتين الآن. وقال لفيروزة:

– كوني حذرة في الغد. لعله خير لك أن تبقي في البيت؟ – والتقت أعينهما لحظة: عينا فيروزة نطقتا بالاعجاب وعيناه بالحنان والقلق... وكرر عصا: – غداً سيكون الوضع في الارك خطيراً. أرجوك، ابقي في البيت.

هزت فيروزة رأسها. ليس الخطر الا سبباً آخر يمنعها أن تترك صديقاتها.

تو ادعا، رافقت فيروزة زوجها حتى الباب وانصتت طويلا لوقع خطواته المبتعدة. ماعاد وقع الخطوات يسمع ولكن فيروزة لا تزال واقفة لا تقدم على اغلاق الباب.

ولم ترقد للنوم تلك الليلة. كانت تقلق على زوجها — فحراس الوزير الاول كانوا حتى في الليل يجوبون الشوارع. كانت تفكر بما سيأتي به الفجر.

غرقت المدينة في سكينة الليل المطبقة. ليس الا أحيانا كانت طبلة الحارس الليلي ترسل دقاتها لا لتخرق هذا السكون بل لتزيده عمقاً. لف الليل بعباءته الرمادية الخانقة بخارى، بخارى بكل ثرائها وفقرها، بكل عظمتها وجهالتها، بكل مساجدها ومدارسها وأسواقها وحوانيتها وأرواقها التجارية وقببها وبروجها العالية.

لكن هذا السكون كان ظاهرياً. ففي المدينة نفسها وفي ضواحيها كان الكثير من الناس يقظين يسعون. هؤلاء أرادوا أن تتلألأ الشمس أبداً فوق المدينة الشرقية العريقة والمجيدة، أرادوا أن يهجرها الجهل والظلام الى أبد الابدين.

في كاغان وقفت قطارات من طشقند وسمرقند وبقية المدن. وقفت على أهبة الاستعداد للانطلاق عند أول اشارة لاغاثة الشعب في بخارى. وفي مطبعة كاغان كانت تطبع هذه الليلة مناشير ثورية تخاطب فيها اللجنة المنطقية للحزب الشيوعي جماهير الكادحي البخاريين. كانوا يربطونها في حزم، يوضبونها في أكياس ويرسلونها الى المطار الموقت، حيث وقفت طائرتان تستقبلان على متنهما هذه الحمولة. سميرنوف وأمان كانا يقومان بهذا العمل.

وصل حيدرقول الى كاغان عند الفجر وطرح آخر الانباء التي سمعها من عصا. كما قال أيضا أن فلاحي القرى المجاورة الذين انضموا الى الانتفاضة سوف يلتمون صباحاً عند باب «الشيخ جلال» وأنه يجب تزويدهم بالاسلحة.

باقتراح من سميرنوف كلفت اللجنة عمرجان بالذهاب مع حيدرقول الى بخارى. أعطيت لهما الارشادات اللازمه ونبهوهما بصفة خاصة الى ضرورة حماية السكان من بطش وعربدة جنود الامير حال دخول الفصائل الثورية الى المدينة.

وتوجه حيدرقول وعمرجان برفقة خمسة جنود حمر مسلحين الى بوابة «الشيخ جلال» على الخيول.

حل الصباح. ولم تكن الشمس قد بزغت فوق بخارى بعد حين استيقظ الناس على هدير مدافع الجيوش الثورية. أمر الامير فوراً باغلاق الابواب، بوضع المدافع على أسوار الحصن وأبراجه، بجمع الجنود وبالاستعداد للدفاع.

ايقظ هزيم المدافع فيروزة وعصا الذي كان قد عاد في الفجر.

– بدأت،– هتف عصا بسرور انسان صائم سمع أخيراً آذان المغرب.

حضرت فيروزة نفسها على عجل وهرعت الى الارك.

في الباب اصطدمت مع الصائغ فسألته:

– خير ان شاء الله يا عمي، لم هكذا باكراً؟

– أيقظني مختار الحارة. يقول ان الجهاد المقدس بدأ في كاغان، وانه على جميع عباد الله وجميع المسلمين الصالحين أن يهبوا للدفاع عن الدين وعن عرش صاحب الجلالة. قلت له اذهب أنت والامام اليوم وقاتلا، وغدا ان بقيت حيا أذهب أنا أيضا...

وضحكت فيروزة فسأل الشيخ بلهجة صارمة:

– وأنت الى أين تسرعين؟ بوسعك أن تبقي في البيت وألا تذهبي الى الارك.

تملصت فيروزة من الجواب، ودعت الصائغ وتابعت عدوها. من خلف ابراج القصر طلعت الشمس للقائها. فجأة هز سماء بخارى هدير مريع ألقى الرعب في قلوب الجنود الذين وقفوا حرساً في ساحة الريغستان فانفضوا مرتاعين كل في جهة.

كانت فيروزة قد سمعت الكثير عن الطائرة ومع ذاك أحسنت بالرهبة. رفعت رأسها ورأت تحت الطائرة سحابة كاملة من الاوراق البيضاء، كانت تتمايل، تحلق في السماء كأنها حمائم وتهبط الى الارض رويداً رويداً.

كانت فيروزة قد بلغت باب الارك حين تعالى هدير تصم له الآذان وخلفه مباشرة ارتفع الى السماء عمود من الدخان والغبار. وقعت قنبلة على الحرملك «الذهبي» كسحت العليتين تماماً وقلبت أرض الفناء المبلطة بالقرميد رأسا على عقب. بأمر من الوزير الاول لجأ كل سكان الحرملك الى الاقبية والبدرومات والكرارات تحت القناطر الحجرية.

في مهاجع السلطانة كان الجو ثقيلا خانقاً. السلطانة نفسها كانت جهمة صامتة. ألقت على الخالة قاراؤولبيغي نظرة غاضبة وسألت:

– أية انباء؟ أين الوزير الاول؟ كيف الاحوال في القصر، هادئة؟

ركعت الخالة قاراؤولبيغي وقالت:

– جعلت فداء لشخصكم الكريم، لا توجد أية أنباء حتى الان، ولكن ادفعوا عن نفسكم القلق، الله معنا. سيادة الوزير الاول لم يصل بعد، الوضع هادىء في القصر لله الحمد.

– وفي المدينة، كيف الاحوال؟ هل يهب الشعب للجهاد؟

– وكيف لا،– استجابت الخالة قاراؤولبيغي. – القادمون من المدينة يقولون ان الكثيرين مضوا.

– وماذا سمعت عن الطائرة؟ أين وقعت القذائف؟

– يقال ان بيتي الميرشاب وكبير القضاة تهدما من الاساس. سمعت أنهم قذفوا مخازن الاسلحة أيضاً.

– ياعفو الله! – تنهدت بادشابيبي. – وماذا يقول بهاء الدين المحترم؟

ركعت الخالة قاراؤولبيغي بوقار وأجابت بصوت رخيم:

— المحترم بهاء الدين تفضل بالقول انه لو بقي من حضرته ولو لبنة واحدة على الاقل فان بخارى المشرفة ستبقى في منأى عن الخطر... جعلت فداءا...

ولكن انفجار قذيفة وقعت في الفناء مباشرة قطع كلمتها. لف الدخان والغبار كل شيء. صرحت بادشابيبي بأعلى صوتها، غطت وجهها بيديها وتهاوت على الارض. اندفع كل في جهة. كان الحال كما في جهنم — الزجاج يرن متهشماً، النساء يزعقن مذعورات، القذائف تهدر متفجرة، وتتعالى اعمدة الدخان والشظايا والغبار.

في اليوم الثالث من الحرب كانت أكثرية مباني الارك قد تهدمت، شبت النار في حرملك يقع في عمق الارك ولكنه لم يكن ثمة من يطفيء الحريق. لا ناس ولا ماء. أغلبية زوجات الامير وخادماتهن جلسن في القبو مع بادشابيبي والى هنا كان تحمل كل مياه الشرب التي لا يتسنى للسقاة أن يحملوها الا مرة واحدة في اليوم. الآخرون كانوا يعانون من العطش. ولكن الخروج من المبنى بدا أرهب من عناء الظمأ.

تسنى لفيروزة أن تذهب بالمعلمة الى البيت. غير أنها لم تستطع العودة الى الارك. كان يقصف باستمرار. ولكنها حين عرفت أن السقائين جورباي وكريمجان أصيبا بجراح خطيرة وأن السقاء الثالث هرب خاطرت بالقدوم. في ظهيرة اليوم الثالث تحت هدير القذائف المتواصل زحفت الى باب الارك مع عصا يحملان ثلاث قرب من الماء. سطا الحراس على اثنتين منهما وتسنى لهما أن يحملا الثالثة الى قبو حرملك «الحمام». وعاد الامل الى النسوة اللائي بلغن اشد حالات العناء وكن يفقدن الوعي أحياناً...

كانت فيروزة تحدثهن عما يجرى في المدينة واذا بالسفرجية تدخل الى القبو فجأة وتقول:

— يابنات. لقد قررت بادشابيبي وسيداتكن الاخريات أن يتركن القصر الى بستان في ضاحية بخارى. اجمعن

انفسكن بسرعة! آه، فيروزة، أنت هنا أيضا؟ حسناً جداً. خذي معك واحدة أخرى وأذهبي الى بادشابيبي في القبو. هناك تلزمهن المساعدة.

– اعذرينا يا سيدتي، – قالت فيروزة بصوت عال، – نحن لن نذهب الى أي مكان.

وارتبكت السفرجية في الوهلة الاولى:

– ما هذا الذي تقولين. هل تفهمين ما تقولينه؟! هل تريدين الهلاك لبنات المسلمين الصالحين؟ أو لعلك تريدينهن أن يقعن في أيدى البلاشفة حتى ينال هؤلاء من أعراضهن؟

وتعالى صوت استاد صارماً:

– لن نذهب الى أى مكان.

وانطلق صوت ثالث:

– لقد نال من أعراضنا الأمير!

– اذهبي الى حيث تشائين، الى جهنم.

وصاحت الفتيات:

– عليكن اللعنة جميعاً!

وهربت السفرجية طائرة القلب.

خرجت النسوة والفتيات الى الفناء حشداً يصرخ ويضج.

ارتقت فيروزة مرتفعاً ما، كانت تتكلم ولكنه كان من الصعب تبين كلماتها. خلف ظهرها ارتفع الحرملك كتلة من الدخان واللهب. فيروزة في منديلها الاحمر، وفي ثوبها الساتيني المزهر بدت كأنها لساناً لهذا اللهب، ابنة لهذه النار المقدسة.

أمام ناظريها امتثلت أوجه أحبائها واعزئها، امتثلت ملامح منيرة: ديلارام كنيز الابية، وجه السقاء احمد جان الحنون، ووجه شمسية الحزين.

احترق العرش الغارق بدموع الشعب، ثم بدماء الشعب، عرش دهقان بخارى، آخر السلالة المنغيطيين، الأمير سعيد عالم خان.

الى القراء

ان دار التقدم – فرع طشقند – تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وأبديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته وأعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: شارع نوائي، ٣٠
طشقند – الاتحاد السوفييتي

